كتێبی مێژوویی (كتب تاريخية)

د. ايناس سعدي عبدالله

تاريخ العراق الحديث

1258 - 1918

2014


تاريخ العراق الحديث
1258 - 1918



الطبعة الأولى 2014م
عدد النسخ: 1000
القياس : 17 × 24
عدد الصفحات: 640



بناية المكتبة البغدادية
07901785386 - 07707900655
07901312029 - 07813515055
Email: yaserbook@yahoo.com

التنفيذ والإخراج الفني والغلاف: دار صفحات ـ دمشق

د. ايناس سعدي عبدالله

تاريخ العراق الحديث

1258 - 1918

2014

إهداء

إلى من علمني النجاح والصبر

إلى من افتقده في مواجهة الصعاب

ولم تمهله الدنيا لأرتوي من حنانه . .

أبي

المحتويات

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

المقدمة:

ان دراسة تاريخ العراق الحديث ليست من المسائل المهمة حسب، بل ضرورية من اجل ادراك الجذور التاريخية للعراق المعاصر، فتاريخ العراق الحديث الذي يغطي مدة ليست بالقصيرة قد استمرت لمدة ثماني قرون، شهدت تطورات سياسية واجتماعية واقتصادية هامة.

كان سقوط الخلافة العباسية عام 1258، قد فتح الباب امام تعرض العراق لأقوام غازية بدء من الغزو المغولي، تلك الغزوات التي اصطبغت بطابع قبلي رعوي، الامر الذي اثر سلبا على تاريخ العراق العريق، لاسيما بغداد عاصمة الحضارة والثقافة العربية وغيرها من الحواضر العراقية. وان هذه الغزوات بمجموعها لم تضف أي شيء جديد لحضارة العراق.

لقد كان للطابع القبلي الذي تعود اليه معظم الاقوام الغازية للعراق اثر في انحسار الكثير من المقومات الحضارية لهذا القطر، اذ نشطت البداوة مجددا وبقوة، وانحسرت المراكز المدنية، وغلبت العشائرية والقبلية على الطابع العام للعراق، والتي ما زال العراق يعاني منها، كما اندثرت العديد من المدن العراقية التي كانت مزدهرة في عصور سابقة، اما نتيجة للدمار الذي تعرضت له من جراء الغزوات المتواصلة، أو نتيجة سوء واهمال الادارات التي حكمت العراق، فأخذت العوامل الطبيعية مجراها في تحدد مصير العديد من هذه المدن.

لقد اصبح العراق ساحة لأطماع الدول والامارات والقبائل الرعوية المحيطة به، لذا كثيرا ما نقرأ في تاريخه عن صراعات دموية هائلة، سواء تلك التي نتج عنها احتلال المغول

للعراق، او الصراعات التي تندلع في اعقاب انهيار دول وقيام اخرى، كما حدث بعد انهيار الدولة الايلخانية، أو نتيجة لصراعات دموية اخرى للسيطرة على العراق، ولنا في غزوات تيمورلنك ومحاولة استعادة الجلائريين للعراق، ثم صراع الاخيرين مع قبيلة القره قوينلو خير مثال على ذلك، أو الصراع الذي اندلع لمدة طويلة شغلت قرابة اربعة قرون من تاريخ العراق، ونقصد به الصراع بين حكام ايران والعثمانيين للسيطرة على ذلك الجزء الثري من غرب اسيا وهو العراق. وابتداء من القرن السادس عشر اصبح مصير العراق مرتبطا بالظروف الداخلية والسياسية الخارجية لكل من ايران والدولة العثمانية، ومن ثم اصبح العراق جزء رئيسا من أي تسوية حدودية بين الطرفين، تلك التسويات التي اقتطعت اجزاء مهمة من ارض العراق، وتوقفت بشكل عام على قوة وضعف أي من الدولتين. وكثيرا ما اصبحت مدن العراق ميادين للحروب لا طائل منها، وسببها المباشر اطماع كلا الدولتين في اراضي الاخرى.

لقد تعرض العراق للإهمال لسنوات طويلة، ويبدو ان ذلك نابع من نظرة تلك الحكومات العديدة التي حكمت العراق والتي اقتصرت الى عده مصدرا مهما من مصادر مواردها المالية. فأصبحت الكثير المدن العراقية مدن مهملة يعمها البؤس والفقر، ويرافقها سوء الاوضاع المعاشية والصحية، ويسيطر على شؤونها مجموعة من الاداريين الغرباء جاهلين بأحوال البلاد، وكانت الادارة بشكل عام الا في بعض الاستثناءات القليلة مرتبكة يعمها الفوضى، حتى مع التنظيم الاداري المحكم الذي اتسم به العثمانيون، فان الغالبية من الولاة لم يكونوا قادرين على ادارة العراق بشكل جيد، وكانت نظرتهم مقتصرة على تعزيز السيطرة العثمانية من جهة، وتحصيل الضرائب من جهة ثانية. ولم يحاول اغلب الولاة العمل على النهوض بالبلاد، أو السعي لإصلاح اوضاعها. ونتيجة لذلك الاهمال، وتعرض الدولة العثمانية الى حقب ضعف، كثيرا ما برزت زعامات محلية حاولت ان تملأ الفراغ الذي تركه العثمانيون في الولايات التابعة لهم، فصرنا نقرأ عن حكم ال افراسياب في البصرة، المماليك في بغداد، والجليليون في الموصل، والامارات الكردية التي كانت منذ

بدء السيطرة العثمانية في الربع الاول من القرن السادس عشر تشعر بنوع الاستقلال الذاتي، فضلا عن الزعامات العشائرية العربية التي كانت قد برزت منذ وقت مبكر من تاريخ العراق الحديث. وكثيرا ما عجزت السلطة العثمانية في اسطنبول في انهاء حكمها وارجاع السيطرة المركزية الى العراق. وحتى بعد عودة الحكم العثماني المباشر على العراق عام 1831 فان اوضاعه لم تكن قد تغيرت كثيرا، فاستمر العثمانيون باتباع الاساليب القديمة ذاتها في ادارته، ورغم بدء حركة الاصلاحات داخل الدولة العثمانية فان الوضع في العراق بقي على حاله، وان تلك المحاولات القليلة لإصلاح اوضاعه، لم تكن قد مست المجتمع العراقي، بل اقتصر الاصلاح على تنظيم مؤسساته الادارية، والعسكرية. ويبدو ان حركة الاصلاحات التي وصلت ذروتها في عهد الوالي المصلح مدحت باشا حسنت شيئا من اوضاع العراق، لاسيما تلك الخطوة التي قام بها لتوطين العشائر، الا الكثير من مدنه ظلت تعاني المتاعب، ولم يكن الاصلاح العثماني بكل المقاييس يهدف الى النهوض بالعراق، بالقدر الذي كان يهدف الى تعزيز الولاء للسلطة العثمانية.

ان المتتبع لتاريخ العراق خلال هذه الحقبة الطويلة لن يجد أي انجاز يذكر في حقول مهمة من حياة المجتمع العراقي، مثل التعليم، فلم يترك المحتلين الذين حكموا العراق سواء كانوا مغول أم جلائريين، قبائل تركمانية، ام صفويين، او عثمانيين أي تغيير في البنية التعليمية للعراق، فكانت المحاولات التي بذلت خلال حكم الايلخانيين أو الجلائريين مثلا الا محاولات فردية وليست مهمة في كل الاحوال، ولم تترك القبائل التركمانية في العراق أي اثر لمحاولة النهوض به، وكذلك نجد الحال مع الصفويين. وان المحاولات العثمانية التي نفذت في هذا المجال جاءت متأخرة، وغير فعالة في اغلب الحالات.

لقد سمح الضعف الذي تعاني منه الدولة العثمانية، للدول الاوروبية لمحاولة ترسيخ نفوذها في العراق، وكانت الامتيازات التي منحت لها من قبل الدول العثمانية حجر الاساس في هذا النفوذ، ومن ثم ازدياد مصالح الدول الاوروبية الاقتصادية في العراق لموقعه على رأس الخليج العربي من جهة، ولأنه يشكل عقدة في طريق المواصلات الى الهند من جهة

اخرى، كل ذلك جعل الاوربيون يتنافسون بشدة لمد نفوذهم عليه، سواء كانوا برتغاليين ام هولنديين، ثم لحقهم البريطانيين والفرنسيين، وهذا التناحر الاوربي انعكس بشكل واضح على مقدرات العراق، فاصبح للقنصليات الاجنبية دورا مهما في تعيين الولاة، وعزلهم. ولم يقتصر نشاط تلك القنصليات للتدخل الاقتصادي والسياسي في العراق، بل امتد الى مجالات اخرى كالتنقيب عن الاثار، كما نشطت مع تزايد النفوذ الاجنبي البعثات التبشيرية، وفي مرحلة لاحقة برزت قوى اخرى ارادت ان يكون لها موطئ قدم في العراق مثل والولايات المتحدة الامريكية، والمانيا القيصرية.

مع بدء الحرب العالمية الاولى عملت الدول الاوروبية الى جر الدولة العثمانية لتلك الحرب من اجل اقتسام ممتلكاتها، لذا ما ان انظمت الدولة العثمانية الى جانب المانيا في الحرب، الا ونجد البريطانيون قد جهزوا حملة لاحتلال العراق، رافق ذلك عقد اتفاقيات سرية بين الحلفاء مثل اتفاقية سايكس-بيكو لتقسم ممتلكات تلك الدولة، ومع انتهاء الحرب كان العراق قد خضع كليا الى الاحتلال البريطاني.

رغم سوء الادارة العثمانية في العراق الا ان العراقيين وقفوا بجانب الدولة العثمانية في الحرب، وكانت الاخيرة قد استغلت العاطفة الدينية، فأعلنت الجهاد ضد المحتلين، وقد استجاب علماء الدين في العراق لدعوى الجهاد والذين حثوا بدورهم العشائر للقتال الى جانب العثمانيين، فشاركت العشائر العراقية بفاعلية في مقاومة الاحتلال البريطاني، وخاضوا معارك شرسة ضد المحتلين، الا انهم لم ينجحوا في صدهم، وذلك نابع بشكل رئيس الى سوء ادارة العثمانيين للحرب. ومع انتهاء الحرب العالمية وخضوع العراق كليا لبريطانيا، فان المقاومة للمحتل سرعان ما اندلعت مبكرا متمثلة بثورة النجف عام 1918.

لم تكن الكتابة عن تاريخ العراق الحديث امرا يسيرا، وكثيرا ما يتعرض الباحث في هذا الحقل للإحباط عند الغور في هذا المجال. نظرا لتنوع المصادر في جوانب معينة، وندرتها في جوانب اخرى، وتضارب معلوماتها.

لم يكن هذا المؤلف هو الاول من نوعه فقد سبقه العديد من المؤلفات التي كتبها اساتذة اكفاء، تناولت مؤلفاتهم جوانب عديدة من تاريخ العراق الحديث، ولكن هذا المؤلف جاء وسطا بين المؤلفات الضخمة ككتاب العزاوي(تاريخ العراق بين احتلالين) بمجلداته الثمان، وبين الدراسات التخصصية التي اختصت بجوانب مختلفة من هذا التاريخ، أو تلك المؤلفات المختصرة، أو الموسوعات التي تناولت نواح خاصة من تاريخ العراق مثل موسوعتي(حضارة العراق)، و(الجيش والسلاح). وقد اعتمدت الباحثة على المنهج الوصفي، كما لم تعتمد على اسلوب وضع الهوامش، نظرا لاتساع الحقبة الزمنية التي يغطيها المؤلف، ولعدم الرغبة في اثقال القارئ بمعلومات تفصيلية عن المصادر التي وضعت في نهاية كل فصل، فضلا عن قائمة موحدة للمصادر في نهاية المؤلف.

ولا يسعني في نهاية العمل الا واقدم الشكر لكل من مد يد المساعدة لي سواء بتزويدي ببعض المصادر المهمة، أو بالمناقشات التي افادوني بها، واخص بالشكر زملائي الدكتورة فردوس عبد الرحمن، والدكتور انيس عبد الخالق، والدكتورة بشرى ناصر الساعدي، والدكتور جلال كاظم الكناني، الدكتور نهار محمد نوري.

الباحثة

شتاء 2014

مدخل

تعريف لمصادر تاريخ العراق الحديث

1918-1258

اولا: كتابات المؤرخون.

ـ تاريخ جهانكشاي:

يعود تأليف هذا الكتاب الى عطا الملك الجويني، دونه باللغة الفارسية، وقد تحرى فيه التركيز على تاريخ المغول وحياتهم، ابتداء بالمرحلة التي سبقت ظهور زعيمهم جنكيز خان، ثم ما اعقب ذلك من تطورات حتى عام 1256، وذلك ضمن ثلاث مجلدات. وقد ظل هذا المصدر تراثا مطمورا مدة طويلة، الى ان تم طبعه بمعرفة مؤسسة جب التذكارية البريطانية، وبتحقيق الاستاذ محمد بن عبد الوهاب القزويني، ثم ما لبثت منظمة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة ان عهدت الى المستشرق الامريكي بويل بترجمة الكتاب الى الانكليزية، والى المستشرق الروسي مينورسكي بمراجعة ترجمة الكتاب الذي طبع في هارفرد عام 1958. وفي عام 1985 ترجمه عن الفارسية الدكتور محمد التونجي الاستاذ في جامعة حلب.

ـ كلشن خلفا:

لمؤلفه نظمي زاده مرتضى افندي الذي توفي عام 1723، وهو كتاب وضع اصلا باللغة التركية العثمانية ليتناول تاريخ بغداد منذ بداية الخلافة العباسية، لذلك وضع لها لعنوان المذكور الذي يعني: روضة الخلفاء. وقد تطرق المؤلف من خلال كتابه الى الحوادث المهمة في العراق حتى عام 1717. وتعد المعلومات التي اشار اليها المؤلف منذ عام 1628 ذات اهمية تاريخية كبيرة لأنه عاصر تلك الحقبة، الا انه يمثل وجهة النظر العثمانية في سرد الحوادث، لأنه يعد من الاتراك المقيمين في بغداد.

ـ دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء:

الفه الشيخ رسول حاوي الكركوكلي المتوفى عام 1826م، ويعد هذا الكتاب مكملا لكلشن خلفا، اذ يختص بتاريخ ايالة بغداد والمناطق التابعة لها خلال السنوات(1719-1821). وقد وضع اصلا باللغة التركية العثمانية، بأمر من داوود باشا والي بغداد(1816-1831). ولذلك فان المؤلف يمثل وجهة نظر ايالة بغداد الرسمية، لذا نجده منحازا الى الدولة العثمانية بشكل واضح. ويعد الكتاب مصدرا مهما لتأريخ تلك الحقبة، حيث ان الكركوكلي كان معاصرا لمعظم الاحداث التي يرويها، كما انه مطلعا على الوثائق الرسمية بحكم عمله في سراي بغداد.

ـ غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام:

للمؤرخ الموصلي ياسين بن خير الله الخطيب العمري(1744-1816). وكما يفهم من العنوان فان هذا الكتاب قد كرس لتاريخ بغداد، ولكنه لم يقتصر على بغداد والمناطق التابعة لها، بل تعداه الى ذكر معظم المناطق والمدن العراقية، كما تطرق الى جغرافيتها ومنتجاتها وعلمائها وأدباءها، ومشاهيرها فضلا الى حوادثها منذ السيطرة العثمانية على بغداد عام 1534 وحتى عام 1805. ولكن يؤخذ على المؤرخ في جميع مؤلفاته تزلفه للأسرة الجليلية الحاكمة في الموصل، لأنه كان يعيش في كنفهم وينال رعايتهم. مما ادى به في الكثير من الاحيان الى مجانبة الحقيقة والتحامل على خصومهم سواء كانوا شخصيات أو جماعات.

ـ منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء:

للمؤرخ ياسين العمري، تم تأليف هذا الكتاب بعد غاية المرام، ويبحث في تاريخ الموصل منذ تأسيسها الى عام 1806، ولكن المعلومات التي يذكرها عن القرون الثلاثة الاخيرة تتميز بشيء من التفصيل والاهمية، ففضلا عن الحوادث السياسية يذكر المؤلف معلومات مهمة عن القرى والبلدات التابعة للموصل. كما يؤرخ للكوارث الطبيعية والنكبات والفتن التي حلت بالمنطقة عموما والموصل خاصة، وهي معلومات مفيدة جدا لان المؤرخ شاهد عيان للعديد منها.

ـ تاريخ بغداد أو مرآة الزوراء في اخبار الوزراء:

للمؤرخ سليمان فائق بك(ت1896). يحتوي هذا الكتاب الذي يعد تكملة لكتاب دوحة الوزراء للكركوكلي، معلومات متنوعة عن ايالة بغداد والمناطق التابعة لها اداريا حتى عام 1860، وهو عام تأليف الكتاب. تمتاز اراء هذا الكتاب بالموضوعية والاخبار التي يرويها بالدقة الى حد كبير لاعتماده على السجلات الرسمية، وروايات المعاصرين وكذلك مشاهداته الشخصية، اذ كان من مماليك بغداد ويشغل وظائف مهمة اثناء حكمهم لإيالة بغداد.

ـ تاريخ حوادث بغداد والبصرة:

للشيخ عبد الرحمن بن عبد الله السويدي البغدادي. هذا المؤلف يتناول تاريخ الايالتين خلال سنوات 1772-1778، وهي فترة مهمة من تاريخ العراق، ومليئة بالمتغيرات. ولكن الكتاب اشبه بكتب المذكرات الشخصية التي يؤرخ فيها اصحابها لأحداث عصرهم، من خلال تاريخهم لفترة معينة من فترات حياتهم. لذلك يعد السويدي شاهد عيان لمعظم الاحداث التي يرويها. ومما يزيد من اهميته انه يمثل وجهة نظر الزعامة البغدادية المحلية ولا يمثل وجهة النظر العثمانية الرسمية.

ـ تاريخ المماليك الكوله مند:

وهو كتيب صغير وضع بالتركية لمؤلفه سليمان فائق بك يؤرخ لفترة حكم المماليك في ايالة بغداد(1749-1831)، وجاءت اخبار السنوات الاخيرة اكثر تفصيلا ولاسيما عهد الوالي داوود باشا لان المؤلف عاصر احداث هذا العهد.

ـ حروب الايرانيين في العراق:

للمؤرخ سليمان فائق بك، ويبحث هذا المصنف الذي كان في الاصل على شكل رسالة بالتركية، في عهد الواليين حسن باشا وابنه احمد باشا، وخاصة حملاتهما في ايران

اثناء الاحتلال الافغاني لها في العقد الثالث من القرن الثامن عشر. ويعد هذا الكتاب من المصادر المهمة عن احداث تلك الحملات لما يتضمنه من تفصيلات دقيقة ومعلومات وافية عن الموضوع.

ـ الاثار الجليلة في الحوادث الارضية:

للمؤرخ ياسين العمري الذي تناول فيه التاريخ من بدء السنة الهجرية وحتى سنة تأليف الكتاب عام 1794، وتضمن تاريخ المنطقة وبضمنها العراق والبلدان المجاورة ولاسيما الدولتين العثمانية والايرانية. ولم تقتصر اخباره على الناحتين السياسية والحملات العسكرية، بل سجل معظم الكوارث الطبيعية والحوادث الاقتصادية كالأوبئة والزلازل وحوادث القحط والغلاء. وذلك ما يزيد من اهمية الكتاب ولاسيما ان المؤرخ كان شاهد عيان لبعض تلك الحوادث.

ـ غرائب الاثر في ربع القرن الثالث عشر:

للمؤرخ ياسين العمري، وجاء على نفس شاكلة الكتاب اعلاه، وليس ادنى منه اهمية، وسيدو انه اراد تكملة معلومات ذلك الكتاب، اذ تناول حوادث سنوات 1785-1810.

ـ حديقة الزوراء في سيرة الوزراء:

للشيخ عبد الرحمن بن عبد الله السويدي، وهذا المصنف يؤرخ لعد الواليين حسن باشا وابنه احمد باشا في ايالة بغددا. ويعد هذا الكتاب مصدرا مهما لتأريخ العراق في النصف الاول من القرن الثامن عشر، لان ايالة بغداد بدأت في ذلك العهد بممارسة النفوذ على معظم ارجاء العراق الحالي، وبعض مناطق ايران ايضا. ويبدي الكاتب انحيازا ملحوظا لسياسية هذين الواليين.

ـ مطالع السعود بطيب اخبار الوالي داوود:

للشيخ عثمان بن سند الوائلي البصري، وقد حفل الكتاب بمعلومات مهمة عن تاريخ العراق وبعض الاقطار المجاورة خلال فترة شهدت احداثا عديدة وهي ما بين سنتي 1744-1826. وتكمن اهمية المؤلف انه معاصرا لمعظم تلك الاحداث واطلع على المصادر الاولية التي وفرها له داوود باشا بنفسه. ويؤخذ على الكتاب امعانه في الالتزام بالسجع والتعابير اللفظية الرنانة وكذلك انحيازه الى السلطات الرسمية العثمانية، لاسيما سلطات ايالة بغداد في عهد داوود باشا.

ـ منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء:

مؤلفه محمد امين بن خير الله الخطيب العمري(1738-1788)، وقد خصص المؤلف كتابه هذا للشخصيات المنسوبة الى الموصل من ذوي النفوذ والعلم والادب، وتحدث ايضا عن مراقد الاولياء والصالحين، كما زودنا ببعض المعلومات الجغرافية عن الموصل والمناطق المحيطة بها. وتناول تاريخ الموصل من 1591-1786، وهو عام تأليف الكتاب. لذا اصبح الكتاب مصدرا تاريخيا رصينا، ولاسيما وان المؤرخ عاصر بعضا من احداثها واستفاد من الذين عاشوا الواقعة عند رواية احداث اخرى.

ثانيا: الوثائق الرسمية.

1. الوثائق العثمانية:

توجد في الارشيف العثماني اكثر من مائة مليون وثيقة تغطي الفترة العثمانية الممتدة سبعة قرون متواصلة، ولهذا فان الدراسات التي تجري دون الاستعانة بهذه الوثائق تكون بلاشك غير متكاملة. وهذه الوثائق لا تقتصر على تركيا فقط، بل تتعلق بالتاريخ المشترك للشرق الاوسط

والبلقان ودول البحر المتوسط، وشمال افريقيا والبلاد العربية. لذا فان المصدر الرئيس لتاريخ هذه الدول الثقافي والاقتصادي والسياسي في العهد العثماني هو الارشيف العثماني، ولهذا لا يمكن تقييم تاريخ هذه الدول بالشكل المطلوب دون الاستعانة بهذا الارشيف.

اما بالنسبة للعراق فان الوثائق التاريخية به خلال العهد العثماني موجودة حاليا في مكتبات اسطنبول، وفي ارشيف المستندات الخطية هناك، وتشكل عددا هائلا لا يستهان به، ومن المؤسف ان الباحثين لم يبذلوا جهد يذكر في تدقيق هذه الوثائق وترجمتها الى اللغة العربية. ويعود السبب في ذلك الى العناء والمشاق التي يتحملها الباحث للكشف عن تلك الوثائق، وتحقيق محتوياتها وترجمتها بشكل علمي وصحيح، فان الامر يتطلب جهدا متواصلا في البحث والتحري وعناء كبيرا في قراءة النصوص قراءة سليمة، اذ هي مكتوبة على الاغلب بخط ديواني معقد، أو ربما بما يشابهه من خط عربي قديم تصعب على الشخص العادي قراءته، فضلا عن صعوبة فهم لغتها التركية المنمقة المليئة بالكلمات الفارسية والعربية، والمصطلحات التاريخية المستعملة في ذلك العهد. لذا فإن عدد ما نشر من هذه الوثائق قليل جدا. اما ابرز الوثائق العثمانية التي يستفيد منها الباحثون في دراسة تاريخ العراق في العهد العثماني فهي:

ـ دفاتر المهمة:

وهي مجموعة الدفاتر التي كانت تسجل فيها اهم القرارات السياسي والعسكرية والاجتماعية المتعلقة بالمسائل الداخلية والخارجية التي يتم تباحثها في اجتماعات الديوان الهمايوني الذي يشبه مجلس الوزراء في الوقت الحاضر. ويوجد في الارشيف العثماني حاليا 419 دفترا من دفاتر المهمة، تتعلق بالفترة الممتدة من 1553–1915.

ـ دفاتر الطابو والتحرير:

وهي سجلات الدائرة التي تعرف باسم الدفتر خانه، وكان لها فرع في بغداد منذ القرن السادس عشر. والدفتر خانه دائرة رسمية من دوائر الدولة المركزية، تحفظ فيها

السجلات التي تتضمن قيود اراضي الدولة كافة، وتعيين اجناسها من تيمار، وزعامت، وخاص، وملك، ووقف. وكان يتم تنظيم دفتر تحرير حال ان تخضع كل منطقة للحكم العثماني، وتتضمن هذه السجلات معلومات عن الضرائب والثروة الحيوانية والسكان والمحاصيل الزراعية واسعارها وغير ذلك من معلومات. وتصنف دفاتر التحرير الى ثلاثة اصناف: المفصل، والمجمل، والروزنامجة.

- دفاتر الشكاوى:

تحتوي هذه الدفاتر على شكاوى المواطنين في الدولة العثمانية في مختلف جهاتها من مسئولي الادارة والعسكريين، أو من هجمات قطاع الطرق، أو اعتراضات على حكم محكمة، أو شكاوى متعلقة بالديون أو نزاع الفلاحين على الاراضي، أو شكاوى تتعلق بعدم تمكن اصحاب اراضي التيمار من جمع الضرائب، أو شكاوى التجار والحرفيين وغيرها.

- دفاتر الخطب السلطانية:

وتحمل اسم نامه همايون دفترلري وتضم الرسائل المرسلة من قبل السلاطين العثمانيين الى حكام المناطق التابعين للدولة العثمانية من المسلمين والمسيحيين، ويتم الاحتفاظ بنسخة من رسالة السلطان من اصل الجواب الوارد في دفتر نامه همايون الذي كان يعد من سجلات الديوان.

- دفاتر الكنائس:

تعد دفاتر الكنائس ضمن مجموعات الدفاتر الهمايونية، وتسجل في هذه الدفاتر الفرمانات السلطانية المتعلقة ببناء وترميم وتوسيع ما لغير المسلمين من كنائس واديرة ومعابد ومقابر ومدارس ودور ايتام. وتوجد بين هذه الدفاتر ما يتعلق بالموصل وبغداد.

ـ دفاتر العينيات:

هي الفاتر التي تحتوي على نسخة طبق الاصل من المذكرات والكتب الموجهة من الصدارة العظمى الى مختلف مؤسسات الدولة والولايات وبقية الجهات. ويحتوي قسم من هذه الدفاتر على مسائل متنوعة تتعلق بالعراق.

ـ دفاتر الوارد من الولايات والصادر اليها:

تحولت الدولة العثمانية من نظام الايالات الى نظام الولايات بعد عام 1864،، ولذلك اصبح من الضروري تخصيص دفتر لكل ولاية، واستمرت هذه الدفاتر متبعة الى نهاية الدولة العثمانية.

ـ دفاتر قلم الساليانة:

اطلق مصطلح الساليانة في البداية على المرتب السنوي الذي كان يأخذه خان جزيرة القرم وعائلته، وبعض رجال الدولة قبل بدء التنظيمات. وبعد ذلك تم انشاء قسم خاص للنظر في توزيع المخصصات السنوية على مسئولي الولايات المصنفة ضمن الاوقاف، وعلى مسئولي السناجق التابعة لها، وذلك بعد جمع واردات هذه الولايات. ويتضمن هذا القلم 81 دفترا يعود للفترة الممتدة من 1653-1814.

ـ دفاتر رئاسة مجلس والا:

اقيم مجلس والا ضمن المؤسسات التي اقيمت في عهد التنظيمات في 24 اذار 1838 بهدف اعداد الانظمة الجديدة التي اقتضتها حركة الاصلاح، والاهتمام بمحاكمة الموظفين.

ـ دفاتر نظارة الصحة:

بعد انشاء نظارة الحجر الصحي عام 1838 تمت احالة الشؤون الصحية التي كان يشرف عليها رئيس الاطباء قبل التنظيمات الى هذه الوزارة الجديدة التي بقيت تعمل ولفترة

قريبة تابعة لوزارات اخرى. والى جانب هذه النظارة كان هناك مجلس الصحة العمومي الذي كان تابعا لوزارة الداخلية، وكان ينظر في الاوضاع الصحية العامة للبلاد ويقوم باتخاذ التدابير اللازمة في المجال الصحي، وحل الخلافات الناشئة عن استيراد وتصنيع الاغذية والادوية المختلفة. وفي الفترة الاخيرة من عمر الامبراطورية تم انشاء نظارة الصحة بدمج هاتين المؤسستين وانقسمت الى قسمين: قسم الشؤون الصحية الداخلية، وقسم الشؤون الصحية الخارجية.

- تصنيفات الارادة:

تأتي الارادة بمعنى الامر أو الفرمان أو الطلب الصادر من السلطان، وقبل عام 1832 كان يتم تلخيص الامور التي يستلزم عرضها على السلطان، وكان يطلق على هذه اسم تذكرة العرض أو تلخيص، وكان السلطان يلقي نظرة عليها ويبدي رأيه فيه بالكتابة عليه بشكل مختصر، وتسمى هذه الكتابة الخط الهمايوني. ثم تم التخلي عن هذا بعد اعلان المشروطية والاكتفاء بمصادقة السلطان على قرارات هيئة الوكلاء. واطلق اسم الارادة ايضا على تلك المصادقة.

- اوراق يلدز:

يتكون هذا التصنيف من الدفاتر والوثائق والصحف التي كانت موجودة في قصر يلدز في عهد السلطان عبد الحميد الثاني(1876-1909). ويشمل هذا التصنيف على الكثير من الاوراق الخاصة المتعلقة بأهم المسائل التي اهتم بها السلطان عبد الحميد الثاني بشكل خاص، وتوجد من ضمنها المذكرات التي وجهتها الصدارة الى القصر لكن لم تصدر ارادتها، وكذلك العرائض التي وجهها المواطنون الى السلطان مع التقارير والمخابرات ومجموعة الصور والرسوم والقوانين والدفاتر الشخصية وحافظات الاوراق والخرائط الخاصة بالسلطان عبد الحميد الثاني.

ـ وثائق القسم القانوني:

تشكل هذا القسم من خلال فرز القسم المتعلق بالمسائل الحقوقية وذلك من الاوراق الموجودة في دفاتر الصادر والوارد بين الولايات والوزارات. وقد تم الفرز عام 1914 حسب الاقسام الادارية المختلفة. ويوجد في هذا التصنيف عدد كبير من الوثائق المتعلقة بالبصرة وبغداد والموصل.

ـ وثائق شورى الدولة:

تشكل مجلس شورى الدولة بعد الغاء مجلس والا عام 1867، وينظر المجلس في محاكمات الموظفين وكافة مشاريع البناء التابعة للدولة، ومراجعة الانظمة والتعليمان والمصادقة عليها، وتأسيس الجمعيات وتدقيق الاعتراضات على احكام المحاكم.

ـ الوثائق التابعة للوزارات:

تعد الوثائق التابعة لوزارتي الخارجية والداخلية من اهم الوثائق التي تلقي الضوء على الاحداث التي شهدتها الدولة العثمانية بعد عهد التنظيمات. وتوجد في هذا القسم الاف وربما مئات الالاف من الوثائق المتعلقة بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والخارجية التي عاشتها الولايات العثمانية.

ـ سجلات المحاكم الشرعية:

كانت سجلات المحاكم تمثل مصدرا مهما لدراسة تاريخ العراق الحديث، وكانت لغة التي حررت فيها تلك السجلات تتبع القاضي، فالأخير اذا كان عربيا حرر جميع المعاملات والحجج بالعربية، واذا كان تركيا حرر الاغلب منها بالعثمانية. اما اهمية هذه السجلات تكمن في معرفة اسماء السلاطين والولاة والمتسلمين والقضاة والقائمقامين، فضلا عن اسماء المحلات والانهار، واسماء الخصوم في الدعوى، كذلك القضايا المتنازع

عليها وغير ذلك، والمعاملات التجارية والبيع والشراء والرهن والديون واوضاع الاسواق، وتعطينا بعض الاشارات عن الاحداث السياسية والاجتماعية.

2. سجلات الحكومة البريطانية في بومباي:

تحتفظ دار السجلات الحكومية في بومباي بعدد كبير جدا من السجلات ذات الصلة بتاريخ العراق والجزيرة العربية والخليج العربي. ولعل تلك السجلات الموسومة: يوميات البصرة هي من اكثرها تميزا من حيث وفرة المادة وغزارتها. وهناك صنفان من هذه اليوميات هما: يوميات مقر البصرة التجاري، ويوميات مقيمية البصرة. وتغطي مجلدات الصنف الاول البالغ عددها احد عشر مجلدا مرقمة 193-203، الفترة من 1763-1777، وهي فترة تميزت بازدياد نشاط القبائل العربية في الخليج العربي وشط العرب، وبرزت فيها قبيلة كعب كأقوى قبيلة بحرية عربية في المنطقة. وكانت الحرب سجالا بين تلك القبيلة العربية الشديدة البأس من جهة، واساطيل شركة الهند الشرقية الانكليزية، والجيوش العثمانية والايرانية من جهة اخرى. وجاءت يوميات مقر البصرة التجاري مليئة بالمعلومات عن تلك القبيلة، وعن صلاتها الحربية مع القوى الانفة الذكر. كما احتوت تلك اليوميات عن معلومات اخرى كثيرة تخص بقية القبائل العرية والاقطار المحيطة بالخليج العربي، فضلا عن تلك المعلومات الخاصة بالتجارة وبنواحي النشاط البشري الاخرى. اما الصنف الثاني من سجلات يوميات البصرة وهو يوميات مقيمية البصرة فيبلغ عدد مجلداتها تسعة، تغطي الفترة من عام 1798-1811. وهذه اليوميات منتظمة بشكل عام. فكل مجلد من المجلدات التسعة يبدأ في 1 كانون الثاني ويغلق في 31 كانون الاول من العام نفسه، مع وجود بعض الاستثناءات لهذا الانتظام. ومما تجدر الاشارة اليه ان مجلدات مقيمية البصرة بصورة خاصة في حالة رديئة للغاية وعملت الرطوبة والحرارة وفقدان وسائل الصيانة الحديثة عملها في تهرئة الاوراق وتمزقها وطمس بعض معالم الكتابة. والحقيقة ان للفترة التي تغطيها يوميات مقيمية البصرة اهمية خاصة في تاريخ منطقة الخليج العربي، فهي من ناحية تميزت بازدياد

النشاط السياسي والعسكرية البريطاني بشكل لم يسبق له مثيل. وقد كان ذلك رد فعل للحملة الفرنسية على مصر وتحركات الفرنسيين المريبة في الشرق. فتوالت البعثات السياسية البريطانية الى ايران ومسقط وبغداد، وفتحت المقيميات البريطانية هنا وهناك، وازدادت تحركات الاساطيل البريطانية في مياه المحيط الهندي والبحر الاحمر والخليج العربي.

ثالثا: كتابات الرحالة:

تشكل كتابات الرحالة مصدرا مهما لدراسة تاريخ العراق الحديث لاسيما في العصر العثماني، ولان اهميتها لا تكمن في عددها الضخم، وانما في مادتها الغزيرة ومنهجيتها التي وصفت العراق، ودرست جوانب مختلفة وممتعة من تاريخ العراق الحديث. اذ تقدم كتب الرحالة وصفا لكثير من جوانب الحياة اليومية، مما يوفر ثروة تاريخية غير يسيرة، لها قيمتها في توضيح الاحداث واستقرائها. ولا نعرف بالضبط عدد تلك الرحلات، ففي الوقت الذي ذكر فيه لونكريك بـ 98 رحلة وتقريرا ومقالة تخص اولئك الرحالة، قدرها بعض الباحثين العرب بما يقرب من 300 رحلة. اما اصحاب هذه الرحلات فهم بين برتغالي، وفرنسي، وهولندي، والماني، وايطالي، وانكليزي، وارمني، وهندي، فضلا عن الاتراك، غير ان القسم الكبير منهم من الانكليز. وعلى الرغم من هذا العدد الضخم ما زالت معرفتنا قليلة بتلك الرحلات. ومما لاشك فيه ان غايات واهداف الرحالة كانت متباينة ومتعددة، فمنهم من اتى للتنقيب عن الأثار، وجمع المخطوطات لصالح متاحف دولهم، ومنهم من اتى لاستكشاف المنطقة، أو للتحقق من وجود بعض الاماكن المذكورة في الكتب الدينية اليهودية والمسيحية، فضلا عن التبشير، والسياحة والمغامرة، والاغراض التجارية، والتمثيل السياسي، والمرور عبر هذه البلاد الواقعة بين القارات ولاسيما في الطريق الى الهند وايران. ولكن بشكل عام كان معظم الرحالة الاجانب يقصدون العراق من

اجل تزويد حكوماتهم بمعلومات ذات اهمية سياسية واقتصادية وعسكرية، متخذين من السياحة والتجارة والتنقيب ستارا لهم. وتعكس هذه الرحلات بالتأكيد الاهتمام الاوروبي بالعراق منذ مطلع القرن السادس عشر، عندما بدأ الصراع والتنافس الاوروبي للسيطرة والتوسع في العالم الاسلامي، هذا التوسع الذي بدأه البرتغاليون والهولنديون، ومن ثم الانكليز والفرنسيون، بوصفهم قوى بحرية استطاعت الوصول الى مناطق مختلفة من الدولة العثمانية ومنها العراق، موفرين -أي الرحالة- معلومات تفصيلية ودقيقة ومهمة لحكوماتهم، اسهمت الى حد بعيد في توجيه وبلورة سياسة تلك الدول نحو المنطقة، وسنقدم الان نبذة لبعض هؤلاء الرحالة.

تعد رحلة العثماني مطراقي زاده اقدم رحلة للعراق في العهد العثماني، وهو نصوح افندي السلاحي الشهير بطراقي زاده، تسنم عدة وظائف ادارية في الدولة العثمانية، وسميت رحلته:"منازل سفر العراقين للسلطان سليمان خان"، وهو سجلا مفصلا لوقائع حملة السلطان سليمان القانوني على الدولة الصفوية خلال عامي 1533-1534 وتتمثل اهمية الكتاب بما يلي:

1. وصف دقيق لمنازل أو مراحل الطريق الذي سلكته الحملة بدءا من مغادرتها اسكدار في الجهة الاسيوية من القسطنطينية، وحتى وصولها الى تبريز، عاصمة الصفويين، ومنها الى بغداد، فحلب ثم ديار بكر وصولا الى اسكدار ثانية. فقدم بذلك تفاصيل جديدة عن طرق المواصلات التي كانت تربط المدن الرئيسة في بلاد المشرق الاسلامي ابان ذلك العصر.
2. يمثل الكتاب شهادة نادرة لوقائع الحرب العثمانية-الصفوية كما رآها المطرقي زادة، فهو شاهد عيان صحب الجيش، واقترب بحكم مهمته من السلطان صانع القرار.
3. مما يزيد من اهمية الرحلة الى حد كبير لا يدانيها فيه اية رحلة اخرى، ضمها عددا كبيرا من الصور الملونة التي رسمها المطراقي زاده التي صور فيها المدن

والقصات والحصون والخرائب الاثرية والخانات والممرات الجبلية والاضرحة والمباني المختلفة والقرى.

4. مما يزيد من اهمية هذا الكتاب انه تضمن نصوصا كاملة لعدد من الرسائل المتبادلة بين السلطان سليمان القانوني والشاه طهماسب.

ومن الرحالة الاتراك الذين دونوا معلومات عن العراق في القرن السادس عشر سيدي علي ريس، وهو بحار واداري وكاتب وشاعر تركي، شارك في العديد من الحروب البحرية العثمانية في البحر المتوسط، وفي المحيط الهندي الذي واجه فيه الاسطول البرتغالي، ورقي الى مرتبة كتخدا في دار صناعة السفن العامرة في اسطنبول. تكمن اهمية رحلة سيدي علي ريس في ذكر العديد من الفعاليات والاحـداث في عهد السلطان سليمان القانوني(1520-1566) ضد الصفويين والبرتغاليين، اما فيما يخص العراق، فتتمثل اهمية الرحلة بالنسبة للعراق في كثرة الاماكن والمزارات والاضرحة التي زارها، وذكرها من شمال العراق الى جنوبه.

يعد سيزار فيدريجي من اقدم الرحالة الاوربيين الذين قدموا الى العراق في القرن السادس عشر، كان فيدريجي قد غادر ايطاليا عام 1563 ووصل الى حلب وسار بمحاذاة نهر الفرات الى الفلوجة ومنها الى بغداد ثم الى البصرة. وقد عنون رحلته بـ: "رحلة السيد سيزار فيدريجي الى الهند الشرقية واقاصي الهند عبر طريق سوريا"، وطبعت في البندقية عام 1587. وتكمن اهمية هذه الرحلة بسبب: الوصف الواضح للطرق التجارية ولمنتجات الشرق.

ومن رحالة القرن السادس عشر ليونهارت راوولف من اقدم الرحالة الاوربيين الذين وفدوا على العراق في القرن السادس عشر الميلادي. ولد راوولف في مدينة اوغسبرغ الهولندية، ونشأ بها وتخرج من جامعتها في علوم النبات، وحين علم وهو في الجامعة بما تزخر به بلاد الشرق والعربية منها بوجه خاص من نباتات مختلفة، استبدت به الرغبة الجامحة في السفر الى سوريا والجزيرة العربية. وقد تهيأت له الفرصة لتحقيق امنيته تلك حين عرض عليه احد اقاربه، وهو صاحب شركة لإنتاج العقاقير ان يرحل الى الشرق بحثا عن النباتات

والمواد اللازمة لتجارته على ان تتحمل الشركة كل نفقات الرحلة. وعلى اثر هذا الاتفاق بدأ راوولف رحلته من اوغسبرغ في 18 ايار 1573، فاتجه برا نحو مرسيليا، ومنها استقل احدى السفن التي هبطت به جزيرة قبرص في 25 ايلول، ومن هناك انتقل الى طرابلس الشام فوصلها بعد خمسة ايام في طريقه الى دمشق. ومن نقطة بير على نهر الفرات في سوريا استقل راوولف مع عدد من المسافرين واصحاب البضائع مركبا في نهر الفرات حتى وصل الى الفلوجة التي ظن انها مدينة بابل، وراح يصفها حسب ظنه هذا، ومن الفلوجة استكرى دابة مع احدى القوافل الى بغداد فوصلها في 27 تشرين الاول عام 1573،ونزل دار احد التجار من حلب فمكث عنده اربعة ايام. وقد نشر راوولف ذكرياته عن رحلته تلك في عام 1581 أي بعد عودته الى هولندا بست سنوات. وفي عام 1693 اقدم المستر نيكولاس ستافورست ولحساب الجمعية الملكية في لندن على ترجمة تلك الرحلة الى اللغة الانكليزية، حيث صدرت ذلك العام مع ترجمة رحلات اخرى في مجلد واحد تحت عنوان "مجموعة من الرحلات والاسفار العجيبة". اما رحلة جون نيوبري عام 1583 فكانت عبارة عن مجموعة مراسلات اضيفت تتمة لرحلة رالف فتش، وتتضمن مقدمة ومجموعة الرسائل التي ارسلها الى رفاقه. وقد نشرت هذه الرسائل في كتاب: "التاريخ الشامل والمجموعة الكاملة للرحلات والاسفار" عام 1824، وهي لا تختلف بمعلومات كثيرا عن رحلة فيدريجي.

ومن الرحالة الذين زاروا العراق في بدء القرن السابع عشر البرتغالي بيدرو تخيرا الذي قدم للعراق عام 1604-1605. وتقدم رحلة دي لوار عام 1638 معلومات قيمة عن حملة السلطان مراد الرابع على بغداد. ومن الرحالة الاجانب الذين زاروا العراق تافرنييه الذي قام بست رحلات الى الشرق ما بين 1633-1668. ومن القرن السابع عشر زار العراق التركي اوليا جلبي في عامي 1645 و1652، وهو اوليا جلبي بن درويش محمد ظلي، قدم وصفا لسلسلة من الرحلات الطويلة ضمن الامبراطورية العثمانية والاراضي المجاورة، في مؤلفه البالغ عشرة اجزاء، الذي يعرف عموما سياحتنامه سي، أي الرحلات، التي قام بها أو يزعم انه قام بها بصفة منفردة احيانا، أو بمهمة رسمية احيانا اخرى، سواء بتكليف من

المسؤولين العثمانيين أو على مسئوليته الشخصية. ويتحدث اوليا جلبي في المجلد الرابع عن بغداد، والبصرة، كما تحدث عن البصرة في المجلد الخامس.

كذلك زار العراق الاب فنشنسو وهو ايطالي الاصل، انخرط في سلك الرهبنة الكرملية، وفي عام 1656 ارسل في مهمة دينية الى الهند، وبعد ان عاد الى موطنه تسنم بعض المهمات الرسمية في رهبنته، حتى وفاته في 5 تشرين الثاني 1679. بدأت رحلته في مطلع عام 1656، وزار خلالها العراق، وطبعت رحلته للمرة الاولى عام 1672. في عام 1765 وصل نيبور الى العراق الذي زودنا بمعلومات جيدة عن جغرافية العراق ومدنه واثاره.

كما زار الفرنسي سوفبوف العراق عام 1785 الذي يقدم في كتاب رحلته وفرة من المعلومات المهمة والموثوقة عن الدول التي زارها، فقد تجول في الدولة العثمانية اثناء اندلاع الحرب العثمانية-الروسية(1788-1792). وقد ركز الرحالة في حديثه عن العراق على وصف المدن وعلى تقديم المعلومات الجغرافية والطبيعية اكثر من تركيزه على الحوادث السياسية، كما تحدث عن العادات الاجتماعية الى جانب الحيوانات والنباتات المنتشرة في العراق.

ومن الرحالة الاجانب ايضا جون تايلر الذي وهو انكليزي، ترقى في المناصب العسكرية، وكان يعمل لحساب شركة الهند الشرقية، وقد اصبح من المختصين في الشؤون الهندية. وقد اوفدته الشركة في مهام لها الى الهند، فمر بالعراق عام 1789-1790، ونشر اخبار رحلته باللغة الانكليزية طبعت في مجلدين عام 1799 بعنوان:"رحلات من انكلترا الى الهند". يلقي المؤلف في مقدمة الرحلة نظرة سريعة على السياح الاقدمين، ويتحدث عن اهمية الرحلات السريعة الى الهند، وعن اقرب الطرق الى ذلك البلد الغني، ويذكر ان اكثر الرحالين الاوربيين سلكوا طريق البحر، وبعضهم ساروا عبر الصحراء، وانه يقترح الطريق البري ويعده احسن الطرق واسرعها. وفي مجرى كلامه عن العرب وعلاقات الغرب بالشرق يتطرق الى الحروب الصليبية فيعترف بانها كانت ضربا من الجنون، ويلقب صلاح الدين الايوبي بالرجل المظفر، ويدعو اتباعه الجنود البواسل، وينتهي الى القول بأن العائدين من تلك الحملات حملوا الى الغرب العادات الشرقية الحميدة والسجايا الفاضلة، فاغنوا بلادهم ونشروا فيها العلوم والفنون التي اقتبسوها من الشرق.

ولكن بالرغم من هذا الموقف الحسن الذي نلمسه في المقدمة، فإننا نعثر في الكتاب شطحات وعثرات تتعلق بالتقاليد الشرقية، ونلاحظ عنده اعتزازا مفرطا بقوميته. ومن مميزات الرحلة انه تكلم فيها عن مختلفة الطرق التي تسلكها القوافل، فيقول ان الخلفاء والامراء العرب اعتنوا بهذه الطرق وببناء المنازل للمسافرين اكثر من الاتراك، اذ اهمل هؤلاء كليا هذه الامور. ويتطرق ايضا الى الامراض المنتشرة في هذه الربوع ويشير الى طرق معالجتها. وينوه بالنقود المستعملة في الاقطار التي مر بها، ويذكر ما يقابلها بالعملات الاوربية. كان تايلر عسكريا، لذا نرى في ملاحظاته شيئا من التفكير العسكري، فهو يثبت مواقع المدن على خطوط الطول والعرض، ويعين تجاه القافلة، ويفكر دائما بأسرع الطرق للوصول الى هدفه. وقام الرحالة الفرنسي اوليفييه بإيعاز من الحكومة الفرنسية بجولة تفقدية في الامبراطورية العثمانية فزار الموصل وبغداد والبصرة وغيرها من مدن العراق عام 1791، وسجل انطباعاته في مجلدين. ومن الذين زاروا العراق في القرن التاسع عشر جي.أس.بكنغهام الذي زار العراق عام 1827 ودون ثلاث فصول من رحلته عن بغداد. كما قام المستر جون اشر وهو عضو الجمعية الجغرافية الملكية في لندن في صيف 1864 برحلة طويلة الى مواقع الاثار الايرانية المعروف باسم برسيبوليس، القريب من شيراز. وقد بدأ بالتجوال في اوروبا حتى وصل الى بلغراد في يوغسلافيا، ثم عبر منها مجتازا البلاد البلقانية الى سواحل البحر الاسود، اذ زار اوديسة وسواستابول، وانتقل منها الى بلاد القرم وبلاد الكرج في قفقاسية. وهناك زار داغستان، ثم عاد الى الاناضول وزار العراق. وقد قدم معلومات جيدة عن العراق وطرقه التجارية ومدنه وطوائفه.

ومن الرحالة الذين زاروا العراق كان الفرنسي غييوم لجان(1827-1871) الذي طاف في ارجاء اسيا وافريقيا، فزار بلاد البلقان، وذهب الى الحبشة، وتجول في انحاء الدولة العثمانية، فقدم العراق عام 1866 وزار الموصل وانحدر في دجلة الى بغداد ومنها الى البصرة وغايته الذهاب الى الهند

ومن الرحلات المهمة التي تزود الباحثين بمعلومات جيدة رحلة ارض النخيل للكاتب الهندي كرستجي، الذي زار فيها الخليج العربي خلال الحرب العالمية

الاولى(1916-1917)، التي تعد واحدة من اهم الوثائق المهمة عن منطقة الخليج العربي عامة، والبصرة بشكل خاص، فهي وثيقة نادرة، عن مرحلة مهمة من مراحل الاحتلال البريطاني للبصرة، لقيمتها العلمية وغزارة معلوماتها. والرحالة الهندي كرستجي حاصل على شهادة البكلوريوس في الآداب من جامعة اكسفورد البريطانية، ويبدو ان اسباب رحلته هي اسباب علمية استكشافية. ولعل اخر مصدر لكتابات الرحالة الاجانب ما دونه ادموند كاندلر وهو احد الذين رافقوا قوات الاحتلال البريطاني التي دخلت بغداد في 11 اذار 1917، والذي كتب مذكراته عام 1919 في لندن. اطلق كاندلر على كتابه اسم :"الطريق الطويل الى بغداد-شاهد عيان في بلاد الرافدين"، قدم فيه عرضا كاملا للحملة على العراق منذ نزولها الى الفاو، كما قدم وصفا للمدن التي مر بها جيش الاحتلال، فكان كتابه استعراضا جغرافيا، واجتماعيا، اكثر منه عرضا للعمليات العسكرية. توقف كاندلر طويلا عند وصفه لبغداد، وقد تعرض الى وصف ثلاث جواني رئيسة هي:

1. حالة العامة من الناس عند دخول القوات المحتلة بغداد.
2. بغداد كما تركها الاتراك المنسحبون.
3. جمال البيوت والطبيعة.

رابعا: مذكرات الدبلوماسيين.

ان مذكرات الدبلوماسيين مصدر مهم من مصادر التاريخ، ولكنها ليست مصدرا قطعيا ولا نهائيا، لأنها تدون الاحداث من زاوية شخصية معينة، وكثيرا ما تفتقر الى الموضوعية والتوازن بين الحوادث، لذلك فهي لا تخلو في كثير من الاحيان من تشويه التاريخ، فنجد بعض الاحداث المهمة تعالج معالجة مبتسرة، أو تتأثر بعواطف ومواقف شخصية.

- قائمة المصادر:

-احمد حسين عبد الجبوري، "الاوضاع الاجتماعية في بغداد من خلال كتابات الرحالة الاجانب في العهد العثماني"، مجلة سر من راى، جامعة سامراء، المجلد:3، العدد:5، لسنة:2007.

-اخلاص محمد سليمان العيدي، "عطا ملك الجويني ومنهجه في كتابة تاريخ جهانكشاي"، دورية كان التاريخية، العدد:20، لسنة:2013.

-ادموند كاندلر، "بغداد سنة 1917"، ترجمة:محمد مظفر الادهمي، مجلة المورد، المجلد:8، العدد:4، لسنة:1980.

-اوليا جلبي، "بغداد في رحلة اوليا جلبي 1645و 1652"، ترجمة:صبحي ناظم توفيق وانيس عبد الخالق محمود، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة-بغداد، العدد:33، لسنة:2012.

-اوليفييه، "الرحالة الفرنسي اوليفييه يصف بغداد عام 1791"، ترجمة:يوسف حبي، مجلة المورد، المجلد:11، العدد:4، لسنة:1982.

-اوندر باير، "اهمية الارشيف العثماني لدراسة تاريخ العراق"، بحث ضمن ندوة: العراق في الوثائق العثمانية المعقودة في اسطنبول 6/ حزيران/ 2012، (بغداد:منشورات بيت الحكمة،2012).

-بيدرو تيخيرا، رحلة بيدرو تخيرا من البصرة الى حلب عبر الطريق البري 1604-1605، ترجمة: انيس عبد الخالق محمود، (بيروت:المؤسسة العربية للنشر والتوزيع،2013).

-ثامر نعمان مصطاف وماجد ثامر مجلي، "مشاهير مؤرخي مصر والشام والعراق في العصر العثماني ومصنفاتهم التاريخية"، مجلة كلية التربية، جامعة واسط، المجلد:11، العدد:16، لسنة:2012.

-جميل موسى النجار، "وثائق تاريخ العراق في العهد العثماني واقع ورؤى واقتراحات"، بحث ضمن ندوة: العراق في الوثائق العثمانية المعقودة في اسطنبول 6/ حزيران/ 2012،(بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2012).

-جون اشر، "مشاهدات جون اشر في العراق"، ترجمة: جعفر خياط، مجلة سومر، المجلد: 21،لسنة:1965.

-جون باتست تافرنييه، رحلة الفرنسي تافرنييه الى العراق في القرن السابع عشر، ترجمة: كوركيس عواد وبشير فرنسيس، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2006).

-جون تايلر،"رحلة تايلر الى العراق سنة 1789-1790"،ترجمة:بطرس حداد،مجلة المورد،المجلد:11، العدد:1، لسنة:1982.

-جون نيوبري،"العراق وبادية الشام في رحلة جون نيوبري 1583"،ضمن كتاب:رحلات بين العراق وبادية الشام خلال القرن السادس عشر،ترجمة وتقديم وتعليق:انيس عبد الخالق محمود،(بيروت:دار الفارس للنشر والتوزيع،2013).

-جي.اس.بكنغهام،"رحلة بكنغهام:وصف بغداد"،القسم الاول،ترجمة:محمد علي حلاوي،مجلة سومر،المجلد:10،لسنة:1954.

__________،"رحلة بكنغهام:وصف بغداد"،القسم الثاني،ترجمة:محمد علي حلاوي،مجلة سومر،المجلد:11،لسنة:1955.

-خليل علي مراد،"سجلات المحكمة الشرعية بالموصل مصدرا لدراسة اسواقها في العهد العثماني"،مجلة دراسات موصلية،جامعة الموصل،العدد:10،لسنة:2005.

-سعدي عثمان هروتي،"سمات كردستان في المؤلفات التاريخية العراقية خلال العهد العثماني"،مجلة جامعة كركوك للدراسات الانسانية،المجلد:6،العدد:2،لسنة:2011.

-سلمان وفيق الراوي"بغداد في رحلات الاجانب"،مجلة المورد،المجلد:8،العدد:4،لسنة:1980.

-سليمان فائق بك،تاريخ بغداد،ترجمة:موسى كاظم نورس،(بيروت:دار الرافدين للطباعة والنشر،2010).

-سيدي علي ريس،"العراق في رحلة سيدي علي ريس 1553-1554"،ضمن كتاب:رحلات بين العراق وبادية الشام خلال القرن السادس عشر،ترجمة وتقديم وتعليق:انيس عبد الخالق محمود،(بيروت:دار الفارس للنشر والتوزيع،2013).

-سير دي لوار،"العراق في رحلة سير دي لوار:القصة الحقيقية للحصار الاخير الذي فرضه السلطان مراد الرابع على بغداد 1638"،ترجمة وتعليق:خالد عبد اللطيف حسين،مجلة دراسات تاريخية،قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة-بغداد،العدد:32،لسنة:2012.

-سيزار فيدريجي،"رحلة سيزار فيدريجي بين حلب والبصرة 1563-1581"،ضمن كتاب:رحلات بين العراق وبادية الشام خلال القرن السادس عشر،ترجمة وتقديم وتعليق:انيس عبد الخالق محمود،(بيروت:دار الفارس للنشر والتوزيع،2013).

-عامر بلو اسماعيل، "الاكلاك في الموصل من خلال كتب الرحلات ابان العهد العثماني"، مجلة دراسات موصلية، جامعة الموصل، العدد:26، لسنة:2009.

-عطا ترزي باشي، "اقدم وثيقة عثمانية عن بغداد"، مجلة المورد، المجلد:8، العدد:4، لسنة:1980.

-عبد الامير محمد امين، "سجلات يوميات مقيمية البصرة 1798-1811"، مجلة المؤرخ العربي، العدد:14، لسنة:1980.

-عبد الرحمن بن عبد الله السويدي البغدادي، تاريخ حوادث بغداد والبصرة، تحقيق:عماد عبد السلام رؤوف، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1987).

-عثمان بن سند الوائلي البصري، مطالع السعود: تاريخ العراق 1774-1826، تحقيق:عماد عبد السلام رؤوف وسهيلة عبد المجيد القيسي، (بغداد:دار الشؤون الثقافية العامة، 1991).

-علاء موسى كاظم نورس، "بغداد في رحلات الاجانب في العهد العثماني"، مجلة المورد، المجلد:5، العدد:3، لسنة:1976.

-غييوم لجان، "رحلة لجان الى العراق 1866"، ترجمة: بطرس حداد، مجلة المورد، المجلد:12، العدد:3، لسنة:1983.

-فنشنسو ماريا دي سانتا كاترينا، "رحلة فنشنسو الى العراق في القرن السابع عشر"، ترجمة: بطرس حداد، مجلة المورد، المجلد:5، العدد:3، لسنة:1976.

-فيريير سوفبوف، "العراق في رحلة كونت فيريير سوفبوف 1785"، ترجمة وتعليق: خالد عبد اللطيف حسين، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة-بغداد، العدد:34، لسنة:2012.

-ليونهارت راوولف، "بغداد في سنة 1573"، ترجمة: سليم طه التكريتي، مجلة المورد، المجلد:5، العدد:2، لسنة:1976.

-محمد صالح الزيادي، "الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البصرة من خلال كتاب الرحالة الهندي سي.أم.كرستجي 1916-1917"، مجلة آداب البصرة، جامعة البصرة، المجلد:2، العدد:63.

-مصطفى كاظم المدامغة، نصوص من الوثائق العثمانية عن تاريخ البصرة في سجلات المحكمة الشرعية في البصرة(1188-1330هـ)، (البصرة:مطبعة جامعة البصرة،1982).

-نجدة فتحي صفوة، العراق في مذكرات الدبلوماسيين الاجانب، (بغداد: مطبعة منير، 1984).

-نصوح افندي السلاحي، رحلة مطراقي زاده، ترجمة: ناظم صبحي توفيق، تحقيق: عماد عبد السلام رؤوف، (ابو ظبي: المجمع الثقافي، 2003).

-نظمي زاده مرتضى افندي، كلشن خلفا، ترجمة: موسى كاظم نورس، (النجف:مطبعة الاداب، 1971).

-هشام سوادي هاشم، "اربيل في كتابات الرحالة الاجانب في العهد العثماني"، مجلة التربية والعلم، جامعة الموصل، المجلد:15، العدد:30، لسنة:2008.

-ياسين خير الله العمري الخطيب الموصلي، غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام، قدم له واعتنى به: سامي عبد الله باشعالم العمري، (القاهرة:شركة العاتك للطباعة والنشر والتوزيع،2006).

الفصل الاول

الغزو المغولي للعراق

ـ اصل القبائل المغولية:

عاش في الاراضي الشاسعة التي تقع الى شمال وغرب الصين مجموعة من القبائل منذ نحو 200 ق.م. ومن هذه القبائل المغول والتتار وبعض العناصر التركية مثل الكرايت، والايغور، والنايمان، والتايجوت، وبعض القبائل الاخرى. وقد خلط البعض بين الجنسين وعدوا المغول من القبائل التركية. والحقيقة ان علماء الاجناس يفرقون بين العناصر الثلاثة أي التتار، المغول، الترك فهي تتشابه في بعض ملامحها لكنها تختلف في اصولها. مع ذلك ظل لفظ التتار يطلق على كافة القبائل التي تجاور الصين حتى ظهور جنكيز خان في القرن الثاني عشر الميلادي وقد وردت هذه التسمية في نقوش ارخون[1]، العائدة للقرن الثامن الميلادي، وكانوا ينقسمون الى قسمين: الاول يتألف من تسع قبائل والاخر يتألف من ثلاثين قبيلة.

لقد كان المغول و هم شعب يشبه الترك الى حد ما في اللغة و ملامح الوجه، ويختلفون كما اعتقد بعض الكتاب المسلمين عن قبائل التتار في لغتهم، ولكن علماء الاجناس حاليا يعتقدون ان سكان هضبة منغوليا في مظهرهم الجسماني من جنس الذي يطلق عليه اسم اشباه المغول وانهم كانوا يتكلمون لغات من عائلة اللغات التركية-التترية، وان حضارة هؤلاء تشبه في كثير من الاوجه حضارة المناطق المحيطة بالقطب الشمالي.

1- أقدم كتابة للغة التركية كانت أبجدية، وهي التي اكتشفت نموذجات منها لأول مرة عام 1889م على نصب عند صخور منابع نهر أورخون في منغولية، نُقش بين 114-117هـ/ 732-735م. وتشبه الأورخونية في شكلها الاسكندنافية القديمة التي تعرف بالخط الروني. وتؤكد الدراسات الحديثة اشتقاق الأورخونية من أصول آرامية انتقلت إلى الصغدية القديمة عبر إيران. وقد أدخلت على الأورخونية تعديلات لتلائم طبيعة التلفظ بالتركية، وذلك بإلحاق بعض الإشارات التصويرية ببعض الكلمات. وقد تمكن الدانماركي «طومسن» من قراءة الأورخونية عام 1893.

عاش المغول في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمال صحراء جوبي الممتدة في اواسط جنوبي سيبيريا وشمال التبت وغربي منشوريا وشرقي تركستان، بين جبال التاي غربا وجبال جنجان شرقا. وهي قبائل غير متحضرة، كانت كل قبيلة فيها تكون وحدة متماسكة من ناحية الجنس واللغة، يرأسها رئيس يحمل لقب نويان تطيعه وتأتمر بأمره، وكانت حياتهم بسيطة ويقضون معظم اوقاتهم في المنازعات القبلية. وقد مارس المغول الرعي والصيد فكانوا يتنقلون في ارجاء الهضبة سعيا وراء موطن المياه والكلأ، فيهبطون في الشتاء الى سهولها ومناطقها الدافئة حيت تتوفر الظروف المناسبة للرعي، وفي الصيف يستقرون في المرتفعات واعالي الجبال مدة شهرين أو اكثر حيث البرودة والمياه. ولابد ان نعرف ان الظروف الجغرافية في هضبة منغوليا قد جعلت منه اقليما فقيرا، تنعدم فيه الزراعة، لذلك استدعت حياتهم الصعبة ضرورة الاغارة على الممالك المتمدنة في الصين وما وراء النهر وايران.

تذكر الاساطير الموغلة في التاريخ انهم كانوا احدى القبائل التي اجتاحت المنطقة الواقعة الى الشمال من صحراء جوبي الى جنوب بحيرة بيكال، وانهم قضوا وقتهم مثل بقية القبائل الاخرى في رعي الماشية و الخيول والأغارات والنهب، كما سعوا الى التحالف مع الاسر الحاكمة في شمال الصين التي هي بدورها منحدرة من منبع او مخزون مماثل. وبرغم اشتهار امر المغول من بعد جنكيز خان فقد ظل صيت التتار القديم غالباً، وصار اسمهم سارياً على المغول انفسهم في بعض بلاد اواسط اسيا وفي سوريا ومصر ومناطق اخرى كثيرة. اما الترك فقد جاء اسمهم صراحة لأول مرة في نقوش ارخون، ومن هذه النقوش يتبين ان نفوذ الترك كان يمتد في القرن السادس الميلادي بين حدود الصين وحدود ايران والدولة البيزنطية، وربما كان المغول والترك ينحدرون جميعاً من قبائل الهون[1]. وقد استعان المغول بعناصر تركية كثيرة في الجيش المغولي و كلما تقدم المغول غرباً في اتجاه شرق اوروبا او

1- الهون: هم مجموعة من الرعاة الرحل، الذين ظهروا من وراء نهر الفولجا في روسيا حالياً وهاجروا إلى أوروبا الشرقية حوالي 370م ، وقاموا ببناء إمبراطورية في أوروبا.

في الجنوب الغربي في اتجاه البلاد الاسلامية زاد العنصر التركي في الجيش المغولي. لقد كان المغول و الترك يشتركون في الحياة البدوية، وهناك تشابه بينهما في استعمال الاسلحة وطرق الحرب، ثم زاد من ذلك التقارب بين الجنسين غزو المغول لمنطقة القبجاق واستقرارهم فيها.

ـ الغزو المغولي للعالم الاسلامي قبل عام 1258م:

1. الاوضاع العامة للعالم الاسلامي قبل الغزو المغولي:

كان العالم الاسلامي في المرحلة التي بدأ فيها ظهور المغول مقسما الى مجموعة من الممالك والدويلات الصغيرة تختلف عن بعضها بين الضعف والقوة سواء من الناحية العسكرية او الاقتصادية. وقد تميزت هذه الممالك والدويلات بالتنازع مع بعضها البعض من اجل السيطرة او التوسع على حساب الاخرى، فضلا عن الصراعات الداخلية التي تنشب على العرش في كثير من الاحيان بين امراء هذه الاسر الحاكمة. وما زاد من انشغال الحكام المسلمين بدء الحملات الصليبية على الشرق وما رافق ذلك من صراع عنيف معهم. وهكذا انشغل الحكام المسلمون فيما بينهم ولم يقدروا خطورة المغول الا بعد ان اتجهوا الى الغرب حتى الدولة الخوارزمية. ومما يعنينا من العالم الاسلامي في هذا الموضوع هو الجانب الشرقي منه الذي كانت تقاسمه عدة دول، ففي بلاد فارس او ايران كانت تقوم الدولة الخوارزمية جنوب بحيرة ارال ومصب نهر جيحون، والتي امتدت حدودها من جبال ارال في الشمال الى الخليج العربي في الجنوب، ومن جبال السند شرقا الى حدود العراق غربا. وفي العراق كان الخليفة العباسي في بغداد وله السيادة الروحية، اما القوة السياسية والعسكرية فقد زالت عن هذه الخلافة، ولم يعد لهذا الخليفة من القوة الا ان يطلب الدعوة على المنابر في صلاة الجمعة او المناسبات او الازمات بان يوفق الله المسلمين او الاستنفار للجهاد. اما

الدولة الايوبية في مصر و الشام، فقد كان لها مشاكلها خاصة مع مملكة بيت المقدس والامارات الصليبية على سواحل بلاد الشام. ومما يزيد المشكلة تعقيدا انه مع ظهور اخطار المغول كانت الحملة الصليبية الخامسة قد استولت على برج مدينة دمياط عام 1218م. مما ادى الى وفاة الملك العادل، ثم انقسام البيت الايوبي الى عدة ممالك اهمها مصر وعلى راسها الملك الكامل 1218-1238م. ودمشق وعلى راسها الملك المعظم عيسى 1218-1227م. وكان هناك ايضا دولة سلاجقة الروم في اسيا الصغرى، وهي الدولة التي ظلت في مواجهة الامبراطورية البيزنطية منذ نشأتها حتى نهايتها، يضاف الى ذلك اخطار الصليبيين في بلاد الشام، ثم من الشمال الغربي بعد سقوط القسطنطينية في ايدي الصليبيين من قوات الحملة الصليبية الرابعة عام 1204م.

2. الغزو المغولي:

لقد انجب العنصر المغولي في منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي حوالي سنة 1167م بطلا قوميا هو تيموجين او جنكيز خان فيما بعد. لقد استطاع تيموجين توحيد قبائل المغولية تحت لوائه، وقد شن عدة حملات عسكرية على اسرة كين في شمال الصين. وقاد جنكيز خان بنفسه المرحلة الاولى من العمليات العسكرية من سنة 1211م الى سنة 1215م، وقد انتهت تلك المرحلة بسقوط بكين، فاصبح للمغول عندئذ قاعدة امامية ثابتة شمال الصين. وعاد جنكيز خان بعد ذلك الى منغوليا لاستئناف الحرب في جبهات اخرى بعد ان عين قادة مغول اخرين لقيادة العمليات العسكرية في جنوب الصين، وهي العمليات التي استمرت الى ما بعد وفاة جنكيز خان عام 1227م، وقد انتهت بإخضاع الصين الى الحكم المغولي. هذا في حين نجح جنكيز خان في دخول القرلق في منغوليا حيث استسلم له ارسلان خان فكان اول حاكم مسلم يخضع للفاتح المغولي. وقد اشترك ارسلان خان القرلق وسقناق تيجين حاكم المالق و هو مسلم ايضا مع جيوشهما في الحملات التي قادها جنكيز خان فيما بعد ضد الدولة الخوارزمية.

وبعد ان حقق جنكيز خان انتصاراته في الصين، ونظم دولته الواسعة و الزم حكامها باتباع الياسا[1]،وتنفيذ احكامها، اتجه بعد ذلك بعامين غربا الى اسيا الوسطى. وكانت اسيا الوسطى في ذلك الوقت تمثل بوابة العالم الاسلامي من الشمال الشرقي، ولم يكن بين جنكيز خان وبين اقتحام تلك البوابة الا دولة القراخطائيين[2]، وكانت هذه الدولة قد زالت قبل ذلك على يد قبيلة النايمان المغولية المعادية لها والتي هاجمتها من ناحية الشرق، وعلى يد خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش الذي هاجمها من ناحية الغرب وانتصر عليها واسر سلطانها عام 1209م، وفتحها وتبدد شعب القراخطاي ولم يبقى منه الا من اعتصم بالجبال او استسلم و انضم الى جيش خوارزم شاه. وبذلك فتح الباب على مصراعيه امام تدفق المغول الى بلاد الاسلام بعد ان استطاع جنكيز خان ان يدحر قبائل النايمان وان يستولى على بلادها عام 1218م، واصبحت جيوشه تطل على بلاد ما وراء النهر وبلاد خوارزم، وكانت الاخيرة شملت في توسعها اراضي فارس كلها. ولم تكن علاقة جنكيز خان والسلطان محمد خوارزم شاه ودية وذلك نظرا لاختلاف العقيدة الدينية بينهما، فقد حقق كل منهما لنفسه شهرة واسعة، وعلى ذلك كان الصدام حتميا بين القوتين المغولية الوثنية والخوارزمية الاسلامية.

يحيط الغموض والاضطراب تاريخ الاتصالات الاولى بين السلطان محمد الخوارزمي وجنكيز خان. كما يصعب احيانا التوفيق بين المصادر المختلفة، وطبقا لبعض الروايات فقد بدأت الاتصالات مبكرا منذ عام 1215م عندما انبهر السلطان محمد بثروات

1- الياسا: قانون صدر عام 1206م وضعه جنكيز خان، وهو يشتمل على جانب كبير من الأحكام التي تتعلق بالجزاء والعقاب من اجل نشر الأمن في ارجاء الامبراطورية المغولية. وقد استطاع جنكيز خان من خلال قانون الياسا ان يقضي على أسباب الفوضى في إمبراطورتيه وينشر الامن في كافة الأنحاء الخاضعة لحكمه والممتدة عبر هضبة منغوليا، ويوضح قانون الياسا كراهية جنكيز خان للسرقة والزنا وشرب الخمر والظلم.

2- تقع مملكة الخطا على الحدود الغربية من الدولة الاويغورية وقد بقيت ما يقارب من قرن ما بين 1125-1211م. وتدعى الاسرة الحاكمة بسلالة ليو، واطاحت بها سلالة تشن الصينية، ونجح قائدها نوتشي بعد تخطيه مصاعب من الاستقرار وبناء مدينة قرب نهر اميل، ثم هاجر مرة اخرى واستقر قرب مدينة بلا ساغون ولقب نوتشي بلقب كور خان واعلن نفسه خانا. وهو اول مؤسس لسلالة الكورخانيين وعرف الشعب الذي دان لحكمه بالقراخطائيين.

الصين في الوقت الذي زادت شكوكه من التقارير التي تلقاها عن عمليات جنكيز خان في تلك المنطقة. وعلى الفور قرر السلطان محمد الوقوف على حقيقة الامر بإجراء اتصال مع العاهل المغولي، فارسل اليه سفارة كان على راسها بهاء الدين الرازي. وعندما ذهبت السفارة كان جنكيز خان قد اتم غزو الصين ودخل بكين فشاهد السفراء ابن امبراطور اسرة كين الصينية والوزير الاول مكبلين في الاصفاد امام جنكيز خان، في الوقت الذي كان هناك جبل من قتلى الصينيين هم عبارة عن عظام ستين الفا من نساء الصين اللاتي انتحرن من فوق الاسوار وفضلن الموت على الوقوع في اسر المغول. وقد خفف استقبال جنكيز خان الودي للسفراء من دهشتهم وذهولهم، وقد طلب منهم ان يبلغوا السلطان محمد ان جنكيز خان يعتبره حاكما على الغرب، كما ان جنكيز خان يعتبر نفسة حاكما على الشرق. وقد كان جنكيز خان يهدف الى تحقيق اواصر السلام والصداقة مع الدولة الخوارزمية من اجل ان تتيح للتجار حرية السفر بين اراضي دولتيهما، وتنفيذا لهذه السياسة التي رأى جنكيز خان انتهاجها مع السلطان محمد اوفد من قبله ثلاثة من التجار المسلمين وقد حملهم بالهدايا الثمينة التي كان من بينها سبائك من الفضة وسبيكة كبيرة من الذهب وبعض الطيور والاحجار الكريمة والمنسوجات الصوفية والحرير. وغير ان هناك رواية اخرى تذكر ان الاتصالات الاولى بدأت من جانب جنكيز خان عندما ارسل سفارة الى العاهل الخوارزمي وصلت بخارى عام 1218م حاملة الهدايا ورسالة تحمل معنى الصداقة وطلب تسهيل التجارة بين البلدين. غير ان الرسالة فيما يبدو كانت تحمل عبارات التعالي من جانب جنكيز خان مما اثار غضب السلطان محمد خوارزم شاه. وتذكر رواية ان السلطان محمد خوارزم شاه عندما اجتمع بسفير جنكيز خان وهو محمود بلواج وكان خوارزمي الاصل رحل عن وطنه والتحق بخدمة جنكيز خان حاول رشوته، ثم قال له: "انك تعلم الى أي مدى وصلت اليه حدود دولتي، والى أي درجة بلغت قوتي وسطوتي، فمن يكون سلطانك هذا الذي يكتب الى بقوله (يا بني) ويتحدث الي من مركز الاقوى؟ وضح لي مقدار جيشه وعتاده". فخاف محمود بلواج سماع هذا الكلام ورد على السلطان قائلا: "ان جنود جنكيز خان بالنسبة لجنود سلطان

العالم التي لا حصر لها مثل ضوء الشمعة امام ضوء الشمس التي تنير العالم، ومثل ظلام الليل امام نور النهار". وهكذا كانت لباقة محمود بلواج كفيلة بإعادة السلطان الى حالته الطبيعية من الهدوء والاتزان، فقبل ان يبرم معاهدة تحالف وصداقة مع جنكيز خان، واعاد الرسل الى البلاط المغولي يحملون الرد بقبول الاتفاق. وربما كان الدافع الذي حمل السلطان على ابرام هذه المعاهدة هو ما وصل اليه من اخبار قوة جنكيز خان الذي كان قد بلغ نفوذه الحد الاقصى في ذلك الوقت. وعلى اثر عقد هذه الاتفاقية عمل جنكيز خان كل ما في وسعه على تأمين التجارة بين شرق اسيا وغربها وتوسيع نطاقها، واخضاع القبائل التي كانت تقطع الطريق على التجار وتزويد الطرق الرئيسة بحراس من قبله يسمون قراقجية أي مستحفظين، واصدار الاوامر اليهم بحراسة التجار الاجانب ومرافقتهم سالمين الى معسكرات المغول. ومهما كان الامر من تلك الاتصالات فان المؤرخين يجمعون على ان السبب الرئيسي والمباشر للحرب بين جنكيز خان والسلطان محمد الخوارزمي هو ما يعرف بحادث اوترار.

لقد تمكنت قوات جنكيز خان في فترة قصيرة من اكتساح اراضي الدولة الخوارزمية العظيمة نتيجة لعدة اخطاء ارتكبها سلطانها لعل اهمها انه شارك بالقضاء على دولة القراخطاي التي كانت حاجزا بينه وبين جنكيز خان الذي اصبحت جيوشه تجاور بلاده وتهددها، كما امر خوارزم شاه الكثير من سكان بلاد ما وراء النهر المجاورين لبلاد الخطا ولاسيما سكان فرغانة و الشاش و اسبيجاب بالجلاء عنها والرحيل الى بخارى وسمرقند خوفا عليهم من التتار. وبذلك اخلى هذا السلطان الارض من سكانها الذين كان يمكن ان يدافعوا عنها اذا ما تعرضت لهجوم جنكيز خان، كما امر ايضا بتخريب البلاد التي جلى عنها سكانها خوفا من ان يسيطر عليها المغول و يهددوه منها و يستفيدوا من امكانياتها، فانعدمت المقاومة للمغول تقريبا عندما اكتسحوا البلاد. ولعل اكثر الاخطاء فداحة والتي عدت السبب المباشر لاندلاع الحرب هو ما يعرف بحادثة اوترار، عندما امر السلطان محمد حاكم مدينة اوترار – وهي احد ثغور خوارزم على ساحل نهر سيحون الذي يسمى الان سورداريا–

بقتل 450 من التجار الذين كان جنكيز خان قد ارسلهم الى تركستان و ما وراء النهر، وكانوا يحملون الاقمشة الحريرية وغيرها، فتعرض لهم حاكم اوترار ينال خان وطمع في اموالهم وارسل الى خوارزم شاه يخبره بان جواسيس جنكيز خان قدموا اليه في زي تجار فأمره بقتلهم و مصادرة اموالهم فغضب جنكيز خان وارسل يهدد السلطان محمد و يطلب منه تسليم هذا الحاكم ، فامر السلطان الخوارزمي بقتل الرسل ايضا. وقد ادى هذا العمل الى ازدياد غضب جنكيز خان و اعطاه مبرر لغزو بلاد ما وراء النهر وخوارزم في العام التالي، وبذلك خرق السلطان الخوارزمي معاهدة السلام التي عقدها مع جنكيز خان عام 1218م.

استعد المغول للقتال وحشدوا جيشا يبلغ قوامه مائتي الف مقاتل في نهاية الصيف عام 1219م. وتقدم الى الشرق الى مسافة حوالي الف ميل لمهاجمة الاراضي الخوارزمية، وبادر خوارزم شاه الى بالاستعداد للقتال، ودفع ببعض قواته الى الامام بينما عسكر هو بالقوات الرئيسية في اقليم ما وراء النهر عند مدينتي بخارى وسمرقند. و كانت المدينة الاولى التي واجهت الغزو المغولي هي مدينة اوترار، وهي المدينة التي صادر حاكمها تجارة القافلة المغولية، ويبدو ان هذا التصرف كان مقصودا لتأديب المدينة و حاكمها. وبعد سقوط اوترار تقدم الجيش المغولي الى مدينة بخارى فوصلها في شباط عام 1220م، فبادر السكان بفتح ابواب المدينة، عدا قلة تحصنوا بالقلعة، ثم ما لبث ان قتلهم المغول عن اخرهم. ويبدو ان ما حدث في بخارى دفع خوارزم شاه الى التراجع مما جعل مدينة سمرقند هدفا سهلا للمغول. و قد استسلمت المدينة بدورها للمغول فقتل جنكيز خان جميع من صادفه من الجنود فتراجع الخوارزمية حتى عاصمتهم اورجندة- الواقعة عند نهر جيجون- وتقع الى الشمال الغربي من بخارى، وقد دافعت القوات الخوارزمية عن العاصمة دفاعا مجيدا، الامر الذي اجل سقوط المدينة عدة شهور هرب خلالها خوارزم شاه. فطاردته بعض القوات المغولية، ولكنها لم تلحق به فوصل الى جزيرة داخل قزوين حيث مات في نهاية عام 1220م. وقد تولى جلال الدين منكبورتي حكم الدولة الخوارزمية بعد والده واتجه الى فرغانة فجمع القوات وتراجع الى افغانستان و تمكن من هزيمة بعض القوات المغولية، اما

جنكيز خان فقد اتجه الى بلخ فاستسلمت له، ومنها اتجه الى مدينة باميان فقاومته لبعض الوقت، و لقى حفيده في حصارها مصرعه، فلم يبقي على احد من سكانها بعد سقوطها. كما نجحت قوة مغولية بقيادة طولوى بن جنكيز خان من الاستيلاء على مدينة مرو وتم قتل جميع سكانها عدا المهرة من الصناع، ثم سقطت مدينة نيسابور ولقيت نفس المصير الذي لقيته مرو. وفي خريف 1221م تقدم جنكيز خان بقواته لملاقاة جلال الدين عند نهر السند حيث وقعت معركة في تشرين الثاني من العام نفسه فر بعدها جلال الدين الى مدينة دلهي، وفي افغانستان قضى جنكيز خان حوالى العام تمكن خلاله من اسقاط مدينة هراة وقتل من سكانها الالاف بعدما خُربت المدينة. ثم عاد جنكيز خان بعد ذلك الى منطقة نهر سيحون الذي اصبح خرابا وقد عبره عائدا الى بلاده في ربيع عام 1223م. وكان جنكيز خان قد ارسل جيشا تحت قيادة القائدين سوبوتاي، وجيب للحاق بخوارزم شاه بعد فراره من عاصمته اورجندة، وبعد ان افلت منهما واصلا سيرهما نحو الغرب، وقد استطاعت القوات المغولية الاستيلاء على مدينة الري في صيف عام 1220م، ثم تلاها مدن قم وقزوين وزنجان. اما مدينة همذان فقد قدمت الفدية المناسبة فنجا اهلها من القتل. ولكنها تمردت بعد ذلك فتم اقتحامها هي ومدينة مراغة.

توفي جنكيز خان في عام 1227م، بعد ما خلف امبراطورية شاسعة، فتولى عرش الامبراطورية المغولية ابنه اوكتاي، ومع وفاته(أي جنكيز خان) اطلت المشكلة الخوارزمية برأسها مرة اخرى، فقد نجح جلال الدين بن خوارزم شاه في العودة الى بلاد فارس فرحب به الجميع والتف حوله بقايا الجيش الخوارزمي، واعتبروه محرر البلاد من سيطرة المغول. والحقيقة ان نشاطه بدأ قبل وفاة جنكيز خان بعامين فخلال عام 1225م كانت له السيادة على بلاد فارس واذربيجان، ولم يكتف بذلك بل انه تقدم في العام نفسه الى بلاد الكرج و دخلها بسهولة حتى وصل الى العاصمة تفليس، وانكمشت املاك الكرج و اقتصرت على املاكها الواقعة على البحر الاسود. وامام هذه الاحداث تحركت القوات المغولية في مطلع عام 1231م، و يرجع هذا التأخر الى انشغال المغول بأحداث الثورات التي قامت في الصين.

وقد تقدمت القوات المغولية بقيادة الامير شورماجان حتى وصلت الى اذربيجان دون مقاومة تذكر، ففر جلال الدين ولم يلبث ان توفي بعد ذلك في ظروف غامضة في نواحي كردستان، اما الجنود الخوارزمية فقد اتجهوا الى اقليم الجزيرة شمال العراق، وهناك عاشوا لبعض الوقت كجنود مرتزقة في جيوش الامراء الايوبيين المتنافسين على السلطة في بلاد الشام. وبانتصار المغول على الخوارزمية عادت فارس واذربيجان الى السلطة المغولية و ظل شورماجان يحكم هذه المنطقة حتى عام 1441م. بعد مقتل جلال الدين منكبورتي وسقوط الدولة الخوارزمية، قسمت الجيوش المغولية الى ثلاث اقسام، الجيش الاول اتجه لاحتلال ديار بكر، وارزن الروم، وميافارقين، وماردين، وسنجار وتمكن من القضاء على الملوك المحليين هناك، وتقدم حتى وصل نهر الفرات. اما الجيش الثاني اتجه نحو بدليس واستولى على القلاع المحيطة بمدينة خلاط. اما الجيش الثالث فقد سار الى منطقة اذربيجان واحتل عاصمتها تبريز. كان المغول بعد اسقاط الدولة الخوارزمية قادرين على الانقضاض على الخلافة العباسية لاسيما وان الحاجز الذي كان يفصل بين إمبراطوريتهم واراضي الخلافة قد زال من الوجود، ولكن الملاحظ ان هناك فاصل 27 عاما قضاه المغول قبل الاقدام على اسقاط الخلافة ، تخللتها طبعا هجمات عابرة، وغزوات للسلب، تهدف بشكل رئيس الى جس نبض الخلافة ومدى قدرتها على التصدي لهم، كما يبدو ان انشغال المغول في توسعاتهم العسكرية قد حال دون توجيه قوتهم باتجاه الخلافة العباسية، فخلال عامي 1236-1237 بدء التوسع المغولي باتجاه اوروبا، ثم اجتياحهم دولة سلاجقة الروم في اسيا الصغرى عام 1243 بعد ان هزموا جيش غياث الدين كيخسرو الثاني والذي اعلن ولاءه لهم فضلا عن سيطرتهم على خلاط وامد، ومهاجمتهم للهند عام 1244.

ـ الغزو المغولي للعراق:

1. الاوضاع العامة للخلافة العباسية قبل الغزو المغولي:

كانت علامات الضعف قد ظهرت على الخلافة العباسية في بغداد قبل ظهور خطر المغول، وهذا الضعف كانت له جذوره العميقة التي بدأت منذ سيطرة العناصر الفارسية على الخلافة العباسية، فقد استأثرت الاسر الفارسية بمنصب الوزارة في الخلافة العباسية، الامر الذي اظهر خلافا بين العرب والفرس، وما تلى ذلك من احداث ادت الى دخول العناصر التركية الى السلطة في بغداد، وبذلك اصبح يتطلع الى السلطة ثلاثة عناصر هي: العرب والفرس والاتراك. وقد نتج عن هذا كله طمع حكام بني بويه- الذين اقاموا دولتهم في جنوب غربي ايران في السلطة- و كان لهم ما ارادوا حيث نجحوا في السيطرة على الخليفة في بغداد، وقد استأثر حكامهم بالسلطة واتخذوا لقب السلطان، وطغى نفوذهم على نفوذ الخلفاء العباسيين. وكان لهذا كله اثر كبير على هيبة الخلفاء العباسيين، وبدا حكام الولايات في الاستقلال بولاياتهم، والاكتفاء بالولاء الاسمي للخلافة العباسية، فتمزقت الروابط القوية التي تربط الخلافة بتلك الولايات، ومع هذه الحركات الاستقلالية او الانفصالية بدأت ملامح فساد الادارة داخل الخلافة. كما تعرضت الخلافة العباسية ايضا لسيطرة الاتراك السلاجقة، وقد سيطر هؤلاء على الخلافة واتخذ حكامهم لقب السلطان، وعرف حكامهم الاوائل باسم السلاطين العظام، وبقي الخليفة في بغداد او بالأحرى في قصره بلا قوة، وتصرف هؤلاء السلاطين في الاراضي والمدن و منحوها اقطاعيات للأمراء وذوي الشأن، وقد حكمها هؤلاء تحت اسم الاتابكة، وعندما انهار سلطان السلاجقة العظام كانت بلاد اعالي الفرات و شمال الشام ثم جنوبه عبارة عن دويلات لا تتعدى المدينة وما

حولها، فضلا عن الصراع الذي اندلع بين الدولة الفاطمية في مصر و هؤلاء الاتابكة في الشام. وعلى هذه الصورة انفصلت اقاليم الدولة عن الحكومة المركزية في بغداد واصبحت عاجزة عن مواجهة أي غزو عسكري. ومع اقتراب الخطر المغولي لم يكن وضع الخلافة العباسية بأفضل حالا، فقد كانت القوى الاسلامية في تلك الفترة مفككة و يسود بينها التنافس و التشاحن من ناحية، ثم انتابها الذعر مما فعله المغول من ناحية اخرى. وكان حريا بتلك القوى الاسلامية ان تنسى خلافاتها وتعمل صفا واحدا لمواجهه الخطر الداهم الذي يهدد المسلمين جميعا الا ان عوامل الانقسام و المصالح الشخصية الضيقة صرفتهم الى مشاكل جانبية زادت من فرقتهم، واضعفت من قدرتهم و بددت طاقاتهم في حروب فيما بينهم. وكان الخليفة العباسي في ذلك الوقت هو الناصر لدين الله (1179-1225م)، الذي وجد ان الخلافة العباسية قد صارت ضعيفة هزيلة من الناحية السياسية، اذ انها اصبحت تنحصر بين العراق العربي وخوزستان، ولم تعد قادرة على ان تبسط سلطتها على ما جاورها من الاقاليم، ولم يتبق لها الا النفوذ الروحي فقط. وكان الناصر يظن انه يستطيع النهوض بدولته، والعمل على اتساع رقعتها بمجرد ان شعر بضعف السلاجقة و انقسام دولتهم، فوضع كل امله في حكام الدولة الخوارزمية ليزيح من طريقه دولة السلاجقة. ولكن سرعان ما اتضح له انه كان واهما في ظنه، اذ تكشفت له الحقيقة المرة ، وهي ان الخوارزميين لهم مطامع في اقليمه، وانهم لا يقلون خطرا على دولتهم من السلاجقة. وكان الخطر الذي يتهدد العباسيين من الجانب الخوارزميين قد تمثل بوضوح في عهد السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه الذي حاول ان تكون له المنزلة الاولى في بغداد، فلما عجز عن تحقيق هدفه بالطرق الودية، لم يجد بدا من استعمال القوة. فصمم على غزو بغداد و ذلك للأسباب الاتية:

1. رغبة خوارزم شاه في اخضاع الخليفة العباسي لسلطته، وان تذكر الخطبة باسمه على منابر بغداد، كما كان الوضع في عهد السلاجقة و البويهيين من قبلهم.

2. شعور السلطان محمد بان الخليفة يحتقره، ويعامله معاملة سيئة، اذ انه اهان رسله عندما قدموا له العلم والهدايا التي اهداها الى الحجاج، في حين انه قبل العلم والهدايا التي وصلت اليه من جلال الدين حسن الاسماعيلي المشهور بـ "نومسلمان" من خلفاء الحسن بن الصباح، ورحب برسله، وقدم هذه الهدايا على هدايا خوارزم شاه.
3. عندما استولى خوارزم شاه على غرنة عاصمة الغوريين[1]، عام 1214م، ووضع يده على خزائن شهاب الدين الغوري، عثر على رسائل رسمية من الخليفة يحثه فيها على مهاجمة السلطان محمد و القضاء عليه.
4. تبين لعلاء الدين محمد ان الخليفة مستمر في تحريض الممالك المجاورة ضده، فقد حرض القراخطائيين، وابدى استعداده للتحالف معهم، ووعدهم بالاعتراف بحكمهم على البلاد التي يستولون عليها، كما اثار عليه اتابكة فارس واذربيجان، وحثهم على الاستيلاء على عراق العجم و انتزاعه من الخوارزميين. فضلا عن تحالفه مع الاسماعيلية للغرض نفسه، بل انه راح يحتضن عدة اشخاص من فداءيهم ويحرضهم ضد الخوارزميين، فقتلوا "اغلمش" نائب الخوارزميين في اقليم الجبال.
5. كان السلطان علاء الدين محمد يعتقد ان الخلفاء العباسيين قد تقاعدوا وتكاسلوا عن القيام بالغزوات، وتركوا الجهاد في سبيل الله. كذلك تغافوا- رغم استطاعتهم- عن المحافظة على الثغور.

وبناء على هذا، اصدر السلطان علاء الدين امرا بعزل الخليفة، واسقاط اسمه من السكة والخطبة، ووقع اختياره على رجل من مدينة ترمذ اسمه "علاء الملك" فاعلنه خليفة للمسلمين، وخطب له على المنابر و ضرب النقود باسمه. ثم قاد السلطان محمد جيشه

1- الغوريون: سلالة فارسية كانت تقطن إقليم الغور وإليه تنسب، حكمت في أفغانستان وشمال الهند سنوات 1150-1214م.

قاصدا بغداد في سنة 614هـ (1217م). عند اقليم الجبال التحم بالاتابك[1] سعد بن زنكي الذي كان قد توجهه الى ذلك الاقليم، بقصد الاستيلاء عليها، بأمر الخليفة. ولكن خوارزم شاه انتصر عليه واسره، و اخيرا اطلق سراحه، بعد ان قبل دخول طاعته، وتعهد بان يتنازل له عن ثلث خراج اقليم فارس سنويا واعطائه بعض الامتيازات الاخرى. كذلك اوقع خوارزم شاه الهزيمة باوزبك بن بهلوان، اتابك اذربيجان الذي جاء هو الاخر بتحريض الخليفة العباسي. ولكن خوارزم شاه امنه-بعد ذلك- على حياته بعد ان ادان له بالطاعة، وضرب السكة و قرأ الخطبة باسمه، وارسل اليه الرسل، يحملون الهدايا اليه. ولما وجد الخليفة ان كل القوى التي اعتمد عليها في محاربة خوارزم شاه ضعيفة منحلة، لم تستطع ان تقف في وجه هذا العدو القوي، وتأكد من اصرار السلطان محمد خوارزم شاه على غزو بغداد، وانه لم يمتلك القوة الكافية لمقاومته، لم يجد مفرا من ان يلجأ الى جنكيز خان قائد المغول الاكبر، و الذي كان صيته قد ذاع وانتشر في شرق اسيا وغربها، فرأى الخليفة فيه الرجل الوحيد الذي يستطيع ان ينقذه من تلك الورطة، ويوقف خوارزم شاه عند حده وبذلك يكون الخليفة الناصر هو المسؤول الاول في توجيه انظار المغول الى الاراضي الاسلامية. بعد ذلك توجه علاء الدين من همذان قاصدا بغداد، وكان الفصل خريفا، فلما وصل الى "اسد اباد" هبت عواصف ثلجية شديدة، فاهلك البرد كثيرا من جنوده وعتاده ودوابه. وتعرض الجنود الباقون لغارات الاتراك والاكراد. وهكذا كانت ثورة الطبيعة سببا في تشتيت شمل الجيوش الخوارزمية. واخيرا وجد السلطان علاء الدين نفسه مضطرا الى العودة الى بلاده مع من تبقى من جنده.

لم يكن الصراع الذي دار بين الخلفاء العباسيين و الخوارزميين هو العامل الوحيد الذي مهد الى سقوط الخلافة العباسية.

1- الاتابك كلمة تركية معناه الوالد الامير والمراد به ابو الامراء، وتتألف كلمة اتابك من اتا بمعنى الاب أو الشيخ المحترم لكبر سنه، وبك بمعنى امير، وهو مربي الامير.

2. الغزوات المغولية على العراق قبل عام 1258م:

لقد بدأ المغول يهددون امن الدولة العباسية منذ وقت طويل قبل حملة هولاكو وقد تركزت غزواتهم الاولى على المناطق الشمالية من العراق بعدما اجتاحوا بلاد خوارزم. وكانت المرة الاولى التي هاجم بها المغول اطراف العراق عام 1219م حيث قادوا حملة عسكرية اتجهت الى شمال العراق، فتصدت لهم قوات الخلافة فاضطروا للانسحاب نحو بغداد. ثم هاجم المغول حدود العراق عام 1220م، وحين وصلت الاخبار الى بغداد بتقدم المغول من مراغة في اذربيجان نحو اربيل، بادر الخليفة الناصر لدين الله الى تحصين بغداد، وكتب الى امير الموصل وامير اربيل يأمرهما بالانضمام الى قوات الخلافة في داقوق[1]، وخرجت قوات اربيل والموصل فعلا لمواجهة الموقف، وفوجئت هذه القوات بقلة قوات الخلافة التي لم تكن تتجاوز 800 رجل خلافا لما كان قد وعد به الناصر لدين الله بانه سيرسل عشرة الاف رجل لمواجهة المغول، ولم يجرأ امير اربيل مظفر الدين كوكبوري على مهاجمة المغول الذين شرعوا في الانسحاب ظنا منهم ان قوات الخلافة في اثرهم. وتلا ذلك فترة من الهدوء دامت نحو عشر سنوات وذلك بسبب عودة المغول الى بلادهم وما تبع ذلك من وفاة جنكيز خان وتولى ولده اوكتاي العرش من بعده الذي تمكن من القضاء على اخر مقاومة للخوارزميين بهزيمة جلال الدين منكبورتي عام 1230م، ثم عاود المغول هجماتهم على العراق فوصلت غاراتهم الى اربيل والموصل وداقوق. وفي عام 1231م انسحبت القوات المغولية بعد اغارتهم على شهرزور التابعة لأربيل وقد خرج الخليفة المستنصر بالله بقواته للتصدي لهم، مع ذلك استمر الخطر المغولي قائما فقد تكررت الاغارات المغولية عدة مرات حيث تعرضت مناطق اربيل والموصل وسنجار وحران وماردين للغزو بين عامي 1235-1236م، في وقت نجح حاكم اربيل عام 1235م من التصدي للمغول عند هجومهم على المدينة وتمكن من تحقيق نصر عليهم، فانسحبوا من المدينة وشنوا هجوما اخر على

1- داقوق: تسمى أيضاً طاووق في اللغة التركية القديمة، وهي مدينة من المدن التركمانية التاريخية القديمة التي أستوطنها التركمان منذ بداية تأسيسها، وهي مركز قضاء داقوق التابع أدارياً لمحافظة كركوك حيث تقع هذه المدينة على بعد 40كم إلى الجنوب من كركوك وعلى الطريق المؤدي إلى العاصمة بغداد.

اعمال الموصل ووصلوا الى نهر كرامليس(في الموصل)، مما ادى الى هروب سكان المنطقة. ويظهر ان حاكم الموصل احتاط من خطر غزوات المغول هذه وما قد تلحقه من اذى بالمدينة فاستنجد بالخليفة العباسي المستنصر بالله ، فتحركت قوات الخلافة مما اضطر المغول من الانسحاب وتركوا حصار القلعة قبل الاصطدام بقوات الخليفة. ثم هاجم المغول اربيل من جديد عام 1236م و كان عددهم يزيد على 30 الف فارس، فهرب الناس الى القلعة واعتصموا بها فحاصرهم المغول لمدة اربعين يوما ، فطلب باثكين حاكم المدينة الصلح مقابل مبلغ من المال يدفعه لهم، فوافقوا ولكن سرعان ما غدروا به بعد ان حصلوا على الاموال، وحاولوا احتلال القلعة عدة مرات لكنهم فشلوا واخيرا اضطروا الى الانسحاب بعد وصول الانباء بتحرك قوات الخلافة من بغداد نحو اربيل. ونتيجة للغزوات المغولية المتكررة اضطر حاكم الموصل بدر الدين لؤلؤ الى مصالحتهم.

وقد توسع نطاق التعرض المغولي للأراضي العراقية فلم يقتصر على اربيل فقط بل شمل في عام 1237م مناطق اخرى من العراق فقد هاجموا داقوق وسامراء، كما هاجموا بعض المدن والقرى التابعة لبغداد، فسارع الخليفة المستنصر بالله للتصدي للهجوم المغولي، وارسل قوة يقودها الدويدار مجاهد الدين ومعه شرف الدين اقبال الشرابي تمكنت من تحقيق انتصار على المغول، في وقت اخذ الخليفة يعمل على تقوية الدفاعات امام المغول لذا عمل على تعمير سور بغداد وتجديد سور اربيل تحسبا لكل طارئ .ولكن النصر الذي احرزته قوات الخلافة لم يوقف الغزوات المغولية فسرعان ما هاجم المغول العراق ووصلوا خانقين وتمكنوا من ايقاع الهزيمة بجيش الخليفة عند خانقين.

ونتيجة للخطر المغولي فكر الخليفة المستنصر بالله في الاستعانة بالأيوبيين في مصر والشام، غير ان البيت الايوبي كان يعاني من التمزق والصراعات الداخلية، وذهبت جهود الخليفة العباسي في محاولة توحيد كلمة الايوبيين ادراج الرياح، لاسيما بعد وفاة الملك الكامل وتولية ابنه العادل، ثم استمرت الخلافات قائمة بعد عزل العادل وتولية الصالح نجم الدين ايوب مكانه في حكم مصر، في وقت كان المغول يعملون على تصفية فلول القوى

الاسلامية الباقية مثل سلاجقة الروم في اسيا الصغرى، فهاجموا عام 1241م مدينة ارزن الروم[1]، ثم واوقعوا الهزيمة بالسلطان غياث الدين كيخسرو الثاني في كوزاداخ في شرقي الاناضول عام 1243 واستولوا على سيواس، كما هاجموا قيسارية مما اضطر غياث الدين الى الاستسلام، خلال ذلك كان الخليفة المستنصر بالله قد توفي عام 1242م وتولى المستعصم بالله الخلافة. وفي عام 1245م وصلت الاخبار الى بغداد من اربيل ان المغول تقدموا من همدان بقوة بلغت 16000 مقاتل قاصدين العراق فاستعد الخليفة للقائهم، وارسل قوة عسكرية بقيادة مجاهد الدين الدويدار للتصدي لهم، والتقت قوات الخلافة بالمغول عند بعقوبة وتمكنت من دحرهم. وفي عام 1252م عادت القوات المغولية لتهاجم مناطق اعالي العراق وتقدمت حتى رأس العين وسروج وقتلت اكثر من عشر الف نسمة، ونهبت قافلة تجارية قادمة من حران الى بغداد تضم 600 حمل من السكر والقطن المصري، فضلا عن ستمائة الف دينار. لم تكن الخلافة العباسية في هذه المرحلة التاريخية الخطرة على مستوى المسئولية ولم تدرك حقيقة الكارثة التي باتت تهدد البلاد، فكانت تكتفي باستنفار المتطوعين من الاطراف وترسل الكتب الى الامراء تستحثهم على النهوض، وسرعان ما تختفي هذه الاجراءات مع ابتعاد الخطر عن اطراف الدولة، ويعود الناس الى اعمالهم، في حين كان يتعين على الخلافة تعبئة كل الطاقات وحشد قواها المادية والبشرية لمواجهة التحدي المغولي، وان يتولى الخليفة نفسه قيادة القوى المقاتلة، لما يترتب على ذلك من رفع المعنويات للجند.

3. وضع الجيش العباسي في عهد المستعصم بالله:

لم يكن اهتمام المستعصم بالله بالمؤسسة العسكرية العباسية في ايام حكمه الاخيرة على مستوى ما يحيط بالخلافة العباسية من اخطار جسيمة و يبدو انه استهان بقوة الغزاة الجدد. وكان هناك اتجاهان متعارضان داخل الدولة بخصوص القوة العسكرية، الاول: تزعمه الوزير مؤيد الدين بن العلقمي والذي لم يكم يرغب في تقوية الجيش وبنائه لأنه اراد مهادنة المغول. والاتجاه

1- يطلق عليها ايضا اسم ارضروم وتقع شرق تركيا الحالية.

الثاني تزعمه الدويدار الاكبر سليمان شاه، الذي اكد ضرورة تقوية الجيش والارتقاء بتنظيماته ووضع سياسة واضحة بشأنه. وبهذا الانقسام واجهت الخلافة العباسية الخطر المغولي.

ومن جانب اخر كانت الخلافة تعتمد على الولاة الذين اعطت لهم الحق في تكوين جيش خاص بهم لتستنفره وقت الاضطرابات المحلية والحركات العسكرية المعادية داخليا وخارجيا ولكن عند هجوم القوات المغولية على بغداد لم يتصدى له الا جيش العاصمة وحدها. لذا كانت الظروف المحيطة بالخليفة اقوى منه، كما ان طلب المساعدة من ملوك الاطراف لم تجدي نفعا لان احدا منهم لم يرسل له ايه مؤونة او امدادات عسكرية، فاضطر الى الاعتماد على امكانياته الذاتية.

4. حملة هولاكو على بغداد:

لقد ادرك المغول خلال توجههم نحو بغداد ان الخلافة العباسية اصبحت بمفردها تماما وان كل من يمكن ان يساعد الخلافة في صراعها المقبل مع المغول منشغلا في صراعاته الداخلية، ومن الواضح ان المغول عندما اعدوا حملتهم العسكرية الكبيرة ضد الخلافة العباسية كانوا قد اختبروا القوى الاسلامية في المنطقة سواء بحملاتهم السابقة على الاراضي الاسلامية بين الحين والاخر ، او عن طريق جواسيسهم التي لعبت دروا كبيرا في استمالة بعض الحكام المسلمين بالترهيب والترغيب. ففي بغداد كان هناك الوزير ابن العلقمي الذي ذكر عنه المؤرخون انه كان يكاتب المغول سرا ويحثهم على غزو العراق والاستيلاء على بغداد[1]. وفي الموصل كان هناك بدر الدين لؤلؤ الذي امد المغول ببعض

1- اختلفت المصادر بين قضية خيانة ابن العلقمي من عدمها، وقد ايد العديد من المؤرخين مسألة خيانة ابن العلقمي، وقد نوقشت هذه المسألة بشكل مستفيض من قبل الصياد الذي لم يرجح قضية الخيانة وهو يشير الى ان من الخطا جعل ابن العلقمي المسؤول المباشر عن احتلال بغداد: "الحقيقية اننا في ضوء المصادر والقرائن السابقة، نستطيع ان نقول ان موقف ابن العلقمي لم يكن سليما على الاطلاق، ولكننا لا نستطيع ان نحمله التبعية كلها، بل نشرك معه الخليفة ورجال حاشيته الاخرين". كما ان ابن العلمقي لم يكن هو الخائن الوحيد فهناك ايضا بدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل، والناصر يوسف الايوبي حاكم حلب وغيرهم.

الات القتال والجنود، بل و يقال بان ابنه الصالح ركن الدين اسماعيل اشترك مع المغول في الهجوم على بغداد. اما الاوضاع في مصر فقد دخل الصراع على السلطة فيها دورا مثيرا بعد موت الصالح ايوب عام 1249م، فقد اندلع الصراع مجددا انتهى بمقتل ابنه توران شاه وزوجته شجر الدر وانتهى بتولي عز الدين ايبك للعرش معلنا بدء السلطنة المملوكية. اما في الشام فكان هناك الناصر يوسف الايوبي الذي كان على علاقة مشبوهة بالمغول وارسل الهدايا و السفارات الى هولاكو. والمعروف ان الناصر يوسف حاول اكثر من مرة تشكيل حلف من بقايا البيت الايوبي في بلاد الشام من اجل الاستيلاء على مصر، ومن اجل تحقيق غرضه سعى ايضا الى التحالف مع لويس التاسع في اثناء اقامته في عكا بعد رحيله عن مصر، ولكن لويس التاسع خيب ظنه و لم يستطع التحالف معه بسبب الضغوط التي واجهها من جانب المماليك في مصر، اذ كان لويس لا يزال مرتبطا بمعاهدة دمياط و شروطها القاسية. فضلا عن ذلك لقد تضافرت عوامل داخلية عدة كانت المسببة لسقوط الخلافة العباسية في اخر الخلفاء العباسيين وهو المستعصم بالله ساعدت المغول على تحقيق اهدافهم وهي:

1. ضعف الخلفاء وسوء الادارة وتنافس كبار رجال الدولة على السلطة.
2. اهمال الخليفة المستعصم بالله اخر الخلفاء العباسيين للدولة وعدم الانفاق على تقوية الجيش، كما لم يتخذ أي اجراءات لمواجهة الزحف المغولي.
3. سوء الاوضاع الاقتصادية وفي مقدمتها الخراج المرهق المفروض على الاراضي الزراعية، وكساد الحياة الزراعية والصناعية، وبزوغ الفوارق الطبقية بين افراد المجتمع، كما ساهمت الحروب المتواصلة الى نقص في الايدي العاملة، فغدت الكثير من المزارع مهجورة، فضلا عن الفيضانات التي عصفت في سهول العراق الجنوبية.

في عام 1252 اجتمع امراء المغول برئاسة الخان المغولي الاكبر مونكو في القوريلتاي(المجلس المغولي) وقرروا ايفاد حملة عسكرية بقيادة اخيه هولاكو لغزو ايران وغرب اسيا، وقد حدد القوريلتاي هدف الحملة المرسلة بالقضاء على الاسماعيلية واحتلال

عاصمتهم ألموت[1]، وتحطيم الخلافة العباسية في بغداد. وقد اعلن هولاكو عام 1256 قيام دولة للمغول في ايران عرفت بالدولة الايلخانية(أي نواب الخان الاعظم في قره قوم عاصمة الامبراطورية المغولية) حتى قبل ان يبدأ عملياته العسكرية على قلاع الاسماعيلية.

تحرك هولاكو بقواته بعد ان انظم اليه الكثير من الامراء المغول، كما انظم اليه في الحملة نحو الف من الرماة الصينيين البارعين في قذف السهام التي تحمل المشاعل. وقد وصل هولاكو الى ايران ومن هناك ارسل الى جميع حكام البلاد الاسلامية ومنهم الخليفة العباسي المستعصم بالله من اجل ان يساعدوه بالمال والرجال والسلاح لكي يتمكن من اخضاع قلاع الاسماعيلية المنتشرة شمالي بلاد فارس، ولكن الخليفة لم يرسل أي مساعدات الى هولاكو. ولما علم الاسماعيلية الحشيشية بتقدم المغول نحوهم حاولوا بالطرق السلمية دفع هذا الخطر، ولكن هذا لم يجد نفعا، فقد اتجه هولاكو بجيشه حتى وصل الى قلعة ألموت وشدد الحصار عليها واضطر زعيم قلاع الاسماعيلية ركن الدين خورشاه الى الذهاب لخيمة هولاكو واعلن الخضوع والاستسلام، فأرسله هولاكو الى الخان الاعظم منكو خان الى قراقورم حيث امر بقتله، وقيل ان مونكو خان رفض مقابلته فعاد ركن الدين ولكن لقي مصرعه اثناء عودته، وقد تمكن هولاكو من الاستيلاء على قلعة ألموت وغيرها من القلاع وقتل الالاف من الاسماعيلية، وقبل ان ينتهي عام 1257م لم يكن هناك الا عددا قليلا منهم في جبال فارس. ويبدو ان قضاء هولاكو على قلاع الاسماعيلية كان تمهيدا للزحف نحو بغداد وذلك حتى لا تشكل هذه القلاع تهديد لقواته من الخلف عند مواصلة الزحف غربا في اتجاه العاصمة العباسية.

اتجه هولاكو بعد القضاء على قلاع الاسماعيلية الى همدان والتي تبعد نحو 600 كم عن بغداد وقد وصلها في سنة 1257م بهدف مهاجمة العراق بعد ان تلقى تقارير من عملائه في بغداد والمدن الاخرى للوقوف على حقيقة الامر قبل الهجوم الكبير. وكان مسرح

1- قلعة ألموت: كلمة فارسية تعني وكر العقاب هي حصن جبلي موجود بوسط جبال البرز أو جبال الديلم جنوب بحر قزوين في مدينة (رود بار) بالقرب من نهر شاه ورد تبعد حوالي 100 كم عن العاصمة طهران.

الاحداث السياسية في منطقة الشرق الاوسط مهيأ تماما للقائد المغولي لكي يضرب ضربته الكبرى ضد الخلافة العباسية، فالمنطقة من ايران حتى حدود العراق قد اصبحت خاضعة تماما للمغول، والخليفة العباسي المستعصم بالله ضعيف غير مدرك لجسامة الخطر. وبغداد كانت غارقة في الفوضى ثم زادت امور الخلافة سوءا واضطرابا عند اقتراب هولاكو من بغداد.

ارسل هولاكو الى الخليفة المستعصم في عام 1257م رسالة تهديد يدعوه فيها الى تقويض حصون بغداد و اسوارها، وان لم يسلم المدينة، وان يحضر بنفسه، او يبعث اليه احدى الشخصيات الكبيرة في بغداد مثل الوزير او الدويدار. واحتج هولاكو على الخليفة في عدم ارساله المساعدات التي طلبها هولاكو اثناء حصاره قلاع الاسماعيلية. ولم يشأ الخليفة ان يظهر بمظهر الضعف امام هولاكو. فرد برسالة تحمل معنى النصيحة واللين و تطلب من هولاكو العودة الى خراسان. وتذكره بالألاف من اتباع الخليفة من الشرق الى الغرب الذين يمكن حشدهم ساعة القتال. ولا شك ان المستعصم اراد تخويف هولاكو بقوة وهمية، ومما ازم الموقف وزاد من غضب هولاكو قيام اهل بغداد بإهانة رسله، فمزقوا ملابسهم وبصقوا في وجوههم مما لم يترك مجالا للمفاوضات. في الوقت الذي اقترب الخطر المغولي من بغداد زادت حدة الخلافات في بلاط الخليفة بين كبار مستشاريه، فأشار الوزير ابن العلقمي بأرسال الهدايا الكثيرة والاموال الى هولاكو، وان تكون الخطبة والسكة باسمه، في حين رفض الدويدار الصغير مجاهد الدين ايبك رأي ابن العلقمي واصر على ضرورة التصدي للقوات المغولية. فعدل الخليفة عن ارسال الهدايا الى هولاكو. ولكن الخليفة لم ينهي المفاوضات مع هولاكو وترددت المراسلات بين الجانبين. وعندما ايقن الخليفة تصميم المغول على الزحف الى بغداد ارسل سفيره ابن الجوزي حاملا رسالة الى القائد المغولي تفيض بالوعود وتطلب منه في نفس الوقت العودة والتراجع. واقترح الخليفة في رسالته ان يبعث الى هولاكو كل ما يطلبه المغول من اموال، فادرك القائد المغولي عندئذ ان الخليفة كان يريد كسب الوقت الى ان يتمكن من تنظيم قواته.

قبل ان يقدم هولاكو على غزو بغداد، استشار المنجمين حول هدفه، فبدأ بالفلكي حسام الدين الذي جاء برفقة هولاكو من قبل خان المغول الاعظم "منكو خان" ويبدو انه كان حريصا على منع هولاكو من الاقدام على غزو بغداد فراح يؤكد له ان الحملة سوف تحدث خللا في نظام الكون، فضلا على انها سوف تكون وبالا على الخان نفسه. ولكن هولاكو استدعى نصير الدين الطوسي، لاستشارته فطمأن هولاكو بانه لا توجد موانع تحول دون اقدامه على الغزو، ولم يقف عند هذا الحد، بل اخذ يؤيد وجهه نظره بالحجج القوية التي تكذب نبوءة حسام الدين، فذكر ان الكثيرين من اصحاب الرسول ماتوا في الدفاع عن الدين، ومع ذلك لم تقع اية كارثة. واذا قيل ان ذلك خاص ببني العباس، فان الكثيرين من الناس قد ثاروا على هذه الاسرة، وقتلوا منهم بعض الخلفاء، دون ان يحدث اي خلل. واخذ الطوسي يستشهد بطاهر بن الحسين قائد المأمون الذي قتل محمد الامين وبالأمراء الذين قتلوا المتوكل والمنتصر والمعتز و غيرهم. وعلى اثر ذلك اصدر هولاكو امره بان تتحرك القوات المغولية الى بغداد.

استعد هولاكو للهجوم على بغداد فوضع خطته على اساس مهاجمتها من اكثر من ناحية، وساعده على ذلك كثرة قواته التي بلغت (150000-170000)، ففضلا عن القوات التي جاء بها فقد وصلت اليه قوات اضافية من مقاتلي القبيلة الذهبية[1]، وبعض القوات المغولية الاخرى من بلاد الاناضول بقيادة بايجو، وبعض العناصر الجورجية والارمنية. وقد قسم هولاكو جيشه الى ثلاثة اقسام الاول يتجه من اسيا الصغرى عن طريق الموصل، والثاني يتجه عن طريق وخوزستان، والثالث يتجه من همدان. فامر القائد سوغونجاق في شوال تشرين الاول 1257م بقيادة فرقة من الجيش المغولي والسير بها عن طريق اربيل وعبور نهر دجلة والاجتماع مع قوات القائد بايجو غربي النهر. اما القائد كيتوبوقا فسار عبر طريق لورستان- عبر خوزستان- هذا في حين زحف هولاكو بقلب الجيش المغولي عن طريق

1- القبيلة الذهبية: ويعرفون بمغول الشمال، أو مغول القبجاق، واسسوا مملكة عرفت بمملكة جوجي، انتشرت في الجزء الشمالي الغربية من امبراطورية المغول. وقد امتد الى روسيا واوكرانيا وكازخستان والقوقاز.

كرمنشاه و نهر حلوان. واستعان المغول في زحفهم ببعض الاسرى من طلائع جيش الخليفة الذين قبض على بعضهم و اجبروا على العمل كمرشدين لطلائع القوات المغول. هذا فضلا عن الامدادات التي قدمها لهم بدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل. وابو بكر اتابك فارس.

في عام 1258م عبرت قوات المغول نهر دجلة واوقعت الهزيمة بجيش الخليفة الذي كان يقوده الدويدار مجاهد الدين ايبك في معركة الدجيل. كما فتح المغول سد احد الانهار الموجودة بالمنطقة، فغمرت المياه كل الصحراء الواقعة خلف جيش بغداد، فقتل عدد كبير من قوات الخليفة وبعض قادته فضلا عما غرق او قضى نحبه في الوحل، في حين هرب الدويدار مع عدد قليل من جنده الى بغداد، كما تفرق باقي الجند الى الحلة والكوفة. اما المغول فقد ساروا الى بغداد وبدأوا بفرض حصار حولها من كل النواحي، ففي الوقت الذي احكم سونجاق وبايجو الحصار من ناحية غرب المدينة، كان هولاكو قد نزل من الجهة الشرقية منها. وعبثا حاول الخليفة استرضاء هولاكو وتلبية طلباته السابقة، ولكن هولاكو اصر على اقتحام بغداد، وبنى حولها سورا ونصب عليه المناجيق والعرادات والات الحصار، كما سد المغول منافذ الهرب من المدينة من البر أو عن طريق النهر، وهكذا وجد الخليفة نفسه محاصرا من كل الجهات ، فلم يجد بدا من الاستسلام فخرج في 10 شباط 1258م ومعه ثلاثة الاف من اتباعه والائمة والقضاة للقاء هولاكو. ولكن ذلك لم ينقذ المدينة اذ اندفع المغول الى داخلها دون مقاومة تذكر، وقتلوا عدد كبير من سكانها، واشعلوا النار في جامع الخليفة وقبور الخلفاء ، ثم قتلوا الخليفة نفسه واثنين من ابنائه. وظل هولاكو وجنوده يمارسون القتل العام في المدينة ، فلم يسلم احد الا من كان في الابار والقنوات ولم يستطع هولاكو نفسه البقاء في بغداد فترة طويلة لعفونة الهواء بعد ان وقع الوباء في باقي سكان المدينة الذين سلموا من القتل، ويقال ان عدد القتلى قد وصل الى اكثر من ثمانمائة الف نفس. ولم يكتفى المغول بالمذابح التي احدثوها في بغداد، بل دمروا ايضا الكتب العربية التي كانت في قصور الخلافة العباسية والقوا بها في نهر دجلة، ثم جمع نصير الدين الطوسي فيما بعد بقية الكتب من العراق و نقلها الى مرصده في المراغة.

5. نتائج سقوط الخلافة العباسية واحتلال بغداد:

اوقع احتلال بغداد فزع وذهول وحيرة العالم الاسلامي، فسارع حكامه الضعفاء الى هولاكو، يقدمون له فروض الطاعة والتهنئة، خوفا من بطشه، فكان ممن حضر التهنئة في مراغة، اتابك الموصل بدر الدين لؤلؤ وكان قد تجاوز التسعين، وارسل ابو بكر اتابك فارس ابنه للغرض نفسه. ووصل كذلك الى معسكر هولاكو بالقرب من تبريز- اثنان من سلاطين سلاجقة الروم ، وهما الاخوان المتنافسان السلطان عز الدين كيكاوس الثاني والسلطان ركن الدين قلج ارسلان الرابع. اما عز الدين، فكان يرتجف رعبا، لان جنوده حاولوا ان يصمدوا امام القائد المغولي "بايجو نويان" فدحرهم في "اقسرا". فلما سقطت بغداد على يد هولاكو احس عز الدين بحرج مركزه، وخشي بطش الخان، فحاول ان يخلص نفسه من تلك الورطة بنوع مبتكر من التملق الذي يحمل طابع الخضوع والذلة، ذلك انه رسم صورته على نعل زوج من الاحذية، وقدمها للخان الساخط قائلا له: "عبدك يأمل ان يتفضل الملك فيشرف راس عبده بوضع قدمه المباركة عليها"، وتوسطت له دوقوز خاتون زوجة هولاكو فعفا عنه الايلخان. كما اعلن نجم الدين ايلغازي حاكم ماردين التبعية للمغول. وفي الواقع كان لاحتلال بغداد نتائج ابعد من مجرد استسلام حكام الاقاليم والممالك لهولاكو، فقد كان المسلمون ينظرون الى الخلافة على انها رمز للممالك الاسلامية جميعها، وكانوا ينظرون الى الخليفة نظرة اجلال واحترام وعلى هذا كان نفوذه الديني بعيد الاثر في نفوس المسلمين جميعا. وعلى الرغم من ان الخلافة العباسية كانت قد فقدت منذ قرون جانبا كبيرا من قوتها المادية ، فأنها كانت لا تزال تدخر قدرا كبيرا من سلطانها الادبي والروحي. فلما احتل المغول بغداد وقتل الخليفة، قضي على هذا النفوذ، وزال ما كان لتلك العاصمة من مكانة دينية ممتازة. فضلا عن ذلك كانت بغداد قبل حملة المغول مركزا للنشاط السياسي في جميع انحاء الشرق الاسلامي، يؤمها وفود الحكام والامراء المسلمين، فلما سقطت في ايدي المغول، صارت كمدينة ثانوية و يعين عليها وال، وانتقل النشاط كله الى مدن الشمال في اذربيجان، اذ انها اخذت تلعب دور العواصم، ففقدت بغداد بذلك اهميتها السياسية.

وباحتلال هذه المدينة دخل الشرق الاسلامي عامة في عهد جديد، الت فيه السيطرة من بعد هولاكو الى ابنائه الذين صاروا يستقلون تدريجيا عن المغول في قراقورم، و اسسوا لأنفسهم دولة في ايران، عرفت باسم "دولة الايلخانيين". من جانب اخر كانت بغداد مركزا هاما للعلوم و الآداب و الفنون، يهرع اليه العلماء وطلاب العلم، فلما حلت النكبة ببغداد على ايدي المغول، قتل الاف من العلماء والشعراء والتجأ من نجا منهم مصر والشام وغيرها من البقاع، واحرقت المكتبات، وخربت المدارس والمعاهد.

ان مقتل الخليفة المستعصم بالله لم ينهي الاهمية الروحية لشخص الخليفة العباسي تلك الاهمية التي حاول الملوك المسلمين الاستفادة منها لإكسابهم شرعية الحكم عن طريق اعلان من تبقى من امراء البيت العباسي خلفاء في ممالكهم، فبعد مقتل الخليفة العباسي هرب من تبقى من الامراء العباسيين من بغداد ومنهم ابو القاسم احمد بن الظاهر بأمر الله وهو عم المستعصم بالله، وكان قد هرب من بغداد بعد احتلالها، والتجأ الى بني مهارش من عرب العراق، وعندما تولى الظاهر بيبرس عرش السلطنة المملوكية في مصر عام 1260م التجا اليه ابو القاسم احمد ومعه عشرة من بني مهارش، فاعلنه السلطان المملوكي خليفة في مصر ولقب بالمستنصر بالله. في وقت كان ابو العباس احمد احد الامراء العباسيين قد هرب هو الاخر بعد احتلال بغداد والتجأ الى حسين بن فلاح امير بني خفاجة، ومن هناك اتجه الى حلب فاعلنه اميرها شمس الدين اقوش خليفة للمسلمين ولقبه بالحاكم بأمر الله. وقد حاول كلا الخليفتين في القاهرة وحلب ان يستعيدا بغداد من المغول، فبعد عام من اعلان بيبرس المستنصر بالله خليفة في القاهرة، طلب الخليفة الجديد من بيبرس ارسال حملة عسكرية بقيادته لاستعادة بغداد، ويظهر ان المماليك في مصر لم يكونوا متحمسين لمسألة استعادة بغداد ربما كي لا يدخلوا في صراع اخر مع المغول بعد معركة عين جالوت[1]، فأرسل مع الخليفة 300 فارس فقط، وبهذا العدد الضئيل سار الخليفة

1- عين جالوت: معركة حدثت بين المماليك في مصر بقيادة السلطان قطز والمغول عام 1260م انتهت بانتصار المماليك، وادت الى توقف التوسع المغولي في بلاد الشام.

المستنصر الى العراق، وهناك انظم اليه بعض الجنود من الموصل وتمكن من اعادة سيطرة الخلافة على الحديثة وهيت، وفي مكان يعرف بمشهد علي عند الانبار التقى المستنصر بمنافسه في الخلافة الحاكم بأمر الله ومعه 700 فارس ارسلها معه حاكم حلب، فتحالف الخليفتان لاستعادة بغداد، فالتقيا بالقوات المغولية التي يقودها قرابغا نائب هولاكو في بغداد الذي تمكن من الحاق الهزيمة بقواتهما في معركة اسفرت عن مقتل المستنصر بالله، اما الحاكم فقد استدعي الى القاهرة حيث نصب فيها خليفة عام 1262.

توفي هولاكو في مدينة اذربيجان في 8 شباط 1265م بعد ان كان قوبيلاي قد منحه لقب خان وخوله حكم اقليم فارس وعاصمته تبريز، وجعل له وسلالته الحكم وراثيا في هذا الاقليم، وما يهمنا في هذه الدراسة ان هولاكو توقف عن مهاجمة منطقة الشرق الادنى الاسلامي بعد معركة عين جالوت، ويرجع ذلك الى مشاكل هولاكو بسبب الوراثة في البيت المغولي ، وبسبب مشاكله ايضا مع مغول التركستان ومغول القبيلة الذهبية الذين اعتنقوا الاسلام.

ـ الحكم الايلخاني في العراق.

لقد ترك هولاكو بعد وفاته دولة مترامية الاطراف تشمل ممتلكاتها اقاليم ايران والعراق وجزء من الاناضول، وقد عرف اولاد هولاكو واحفاده بالايلخانيين، أي نائب الملك(الخان الاكبر) او تابعه.

تولى عرش الدولة الايلخانية بعد هولاكو ابنه الاكبر اباقا(1265–1282)، وقد اختاره بإجماع مجلس امراء الايلخان، وبسبب اخلاص اباقا لسياسة والده فقد ابقى هذا الايلخان على معظم رجال الادارة السابقة فاحتفظ بشمس الدين الجويني في ديوان الممالك وعلاء الدين الجويني على ولاية العراق، ولكنه اختار تبريز محل مراغة عاصمة لحكمه. كان

محور سياسة اباقا وسياسة خلفائه هو منع أي تغلغل عسكري الى ايران من الجانب الشرقي لأسيا أو من مناطق القفقاس لذلك فقد شهد عهد اباقا منذ اعتلاءه العرش صراعا مع مملكة القبجاق الاسلامية التي انتهت بانتصاره، كما اكمل اباقا تصفية القلاع الاسماعيلية الممتنعة عليهم حتى ذلك الوقت. ان حكم كل من اباقا ومن قبله والده تمثل حقبتين مهمتين في التاريخ الاسيوي للإنجازات العسكرية والسياسية التي تحققت.

تولى العرش بعد اباقا اخيه تكودار(احمد)(1282-1284)، وقد اعتنق الاخير الدين الاسلامي، متخذا اسما جديدا له هو السلطان احمد. وقد قضى تكودار معظم سنوات حكمه البالغة عامين في نزاع مع ارغون بن اباقا الذي تمكن من الاستيلاء على الحكم في اعقاب قتله تكودار، وكان ذلك بسبب سياسة الاخير الدينية المتعصبة للإسلام والتي اثارت حفيظة زعماء المغول وامراءهم سياسا ودينيا.

تولى ارغون العرش بين(1284- 1291)، وقد برز في عهده طبيب يهودي متنفذ هو سعد الدولة اليهودي الذي وضع سياسة مالية جديدة للدولة، وقد اخذت الادارة الايلخانية في عهد ارغون تشجع استخدام المسيحيين واليهود في المناصب الادارية وفي بعثاتها الدبلوماسية. وقد تولى العرش من بعده كيخاتو(1291-1295)، وابرز الاحداث في عهده تبديل العملة المعدنية الى العملة الورقية حسب النموذج الصيني المتبع هناك. وكان نظام العملة الورقية قد طبق في العاصمة تبريز وبقي معمولا به مدة شهرين، ثم الغي لأنه تحول الى كارثة مالية وسياسية بعد توقف كلي لحركة السوق والتجارة. وانتهى عهد كيخاتو بانقلاب ناجح نفذه بايدو الا ان الاخير اطيح به من قبل غازان(1295-1304). لقد جاء غازان الى الحكم بعد كارثة اقتصادية المت بالدولة الايلخانية نتيجة تطبيق نظام صيني فاشل للعملة الورقية، لذا قرر هذا الايلخان عند اعتلائه العرش مواجهة الوضع المتردي بوضع اسس جديدة للاقتصاد الايلخاني، لذا يعد عصره عصر الاصلاح في الدولة الايلخانية. وقد ساعد غازان في اصلاحاته وزيره الشهير رشيد الدين فضل الله. وابرز اصلاحات غازان اعلان الاسلام الدين الرسمي للدولة، وتسمى باسم السلطان محمود، ثم عمل على اعادة

الامن والنظام للدولة، فضبط العصابات والقوى الخارجة عن النظام التي تعبث في الامن والاستقرار، كما حد من نفوذ رجال الدولة، مما ادى الى تحقيق حالة جيدة من الاستقرار. وبعد وفاة محمود غازان تولى العرش اخوه اولجايتو(1304-1316)، الذي اتسم عهده بالاستقرار النسبي نوعا ما. كان اخر الايلخانات المغول هو ابو سعيد بهادر خان(1316-1335) وهو ابن اولجايتو، ولعل ابرز احداث عصره هي اعدام رشيد الدين فضل الله. وقد ساءت اوضاع الدولة الايلخانية بسبب الدسائس الكثيرة التي قام بها رجال البلاط والحريم وتدخلهم في شؤون الحكم، فضلا عن ذلك النزاع بين المغول والاتراك من جهة، والايرانيين من جهة اخرى قد ادى الى فقدان الايلخان لسيطرته على الاقاليم والمدن التابعة لإدارته فأخذت المقاطعات تميل الى العصيان على السلطة المركزية، والانفصال عنها، ولم يبق من الدولة الايلخانية التي كانت تجمع عدد من الدول في دولة واحدة وهي العراق وايران وجزء من الاناضول وجورجيا، الا عدد من الامراء المتنازعين بينهم على عدد من الاقاليم والمقاطعات التابعة لمناطق حكمهم. وكانت وفاة ابو سعيد ايذانا بانهيار الحكم الايلخاني.

ـ الادارة الايلخانية في العراق.

كان على رأس الامبراطورية الايلخانية، الحاكم المغولي الاعلى ويدعى ايلخان، وتشير المصادر المتعددة لاسيما النقود الى الالقاب الكثيرة التي تلقب بها الامبراطور المغولي فلقب الايلخان وهو اهم الالقاب، ويعني في الايغورية سيد القبيلة وهو يشير الى الاصول القبلية للحكام الجدد، واحيانا يرد هذا اللقب بصيغة الايلخان الاعظم، وهناك لقب قا آن، وبادشاه ويعني السلطان/ الملك الكبير، واحيانا يرد بصيغة سلطان/ ملك العالم أو الدنيا. ومن الالقاب ايضا التي استخدمها الاباطرة المغول هو السلطان وهو لقب عربي،

ويلحق به احيانا صفات متعددة مثل السلطان الاعظم أو المعظم أو العادل، وغيرها، ويرد هذا اللقب من ضمن القاب ابو سعيد على نقوده. ومن القاب الاباطرة المغول ايضا مالك رقاب الامم وظهر في العملات العائدة لهولاكو واولجايتو، وهناك لقب المولى وظهر في نقود ابو سعيد، واخيرا تلقب بعضهم بلقب غياث الدين والدنيا كما هو الحال مع اولجايتو.

كانت ادارة الامبراطورية الايلخانية لا مركزية ، ويتمتع حاكم العراق بدرجة من الاستقلال في ادارة شؤونه مقابل تقديمه المال اللازم لخزينة الامبراطور وارسال القوات العسكرية المناسبة له في حالات الحرب. ولكن هذه اللامركزية لم تكن كاملة لان الحاكم الايلخان كان يزور العراق ويقضي الشتاء في ربوعه في بعض الاحيان. كما كان يرسل مشرفا يستقصي شؤونه عن كثب و يرفع اليه تقريرا عنه. وكانت سلطة الايلخان غير محدودة وله حق قتل من يريد ولم تكن للشعب حقوق بل كانت عليهم واجبات اهمها الطاعة ودفع الضرائب المتنوعة. ومن اهم سمات حكومة العراق في هذا العهد عدم الاستقرار والفساد، وكثيرا ما نقرأ عن عزل وقتل الاداريين على الاغلب نتيجة الوشايات. الا ان ذلك العهد لم يخل من اصلاحات نادرة، كما هو الحال في عهد الايلخان السابع محمود غازان(1295 - 1303م) الذي اصبح الاسلام في عهده دين الدولة الرسمي. الا ان تلك الاصلاحات كانت وقتية وذات اثر محدود فاستمر الامن مضطربا خارج المدن ، واستمرت البلاد منهوكة القوى لما اصبها من خراب.

لقد تحول العراق بعد ان احتله المغول الى جزء من الامبراطورية الايلخانية التي اتخذت تبريز عاصمة لها، ثم تحولت الى السلطانية في اذربيجان. وبذلك فقدت بغداد مركزها المتميز في العالم الاسلامي، وحل الدمار و الخراب محل الازدهار و العمران. وقد بادرت الدولة الايلخانية الى تقسيم العراق الى ثلاثة اقسام هي: اقليم الجبال ، وفيه شهرزور، واقليم الجزيرة الفراتية، وفيه ماردين والموصل وسنجار والعمادية واربيل، واقليم العراق وعاصمته بغداد، وهو القسم الاهم، ويمتد ما بين الزاب الاعلى الى عبادان طولا، وبين القادسية وحلوان عرضا. وقسم الاقليم الاخير الى ست مناطق رئيسة اطلق عليها اسم اعمال

وهي: بغداد، الاعمال الشرقية ، الاعمال الفراتية، الاعمال الحلية والكوفية، والاعمال الواسطية والبصرية، ثم اضيفت اليها بعد سقوط امارة الموصل 1260م الموصل واربيل . واصبح على راس كل منها مسؤول يطلق عليه لقب صدر، وهي وظيفة عرفت في اواخر العصر العباسي. الا انها اخذت شكل نظام مستقر في عهد الاحتلال، وتتميز عامة بجمعها بين ضمان الارض وتولي حكمها. ولم تكن هذه التقسيمات محددة واقرب الى ان تكون نظرية. اذ انه من العسير تعيين حدودها وحصر المدن والمناطق المرتبطة بها اداريا. ويرجع ذلك الى عدم الاستقرار السياسي والعسكري والاقتصادي مما ادى الى تغير مستمر في حدودها. ومع ذلك يلاحظ ان حكومة بغداد بدأت باستعادة نفوذها ليس على حدود الولاية المحددة لها، وانما على الاقسام الادارية المجاورة لها. فضمت اليها اقليم الاحواز وعاصمته تستر وكذلك جزءاً من اقليم ديار بكر. ولهذا يمكن القول ان معظم اراضي العراق خضعت الى ادارة واحدة عاصمتها بغداد، متجاوزة في هذا التقسيمات الادارية الايلخانية المفترضة . ومن هنا جاءت اهمية ولاية بغداد بالنسبة الى الدولة الايلخانية، فكانت تسمى مملكة ولقب حكامها احيانا بالملوك، وكانت ترابط فيها حامية عسكرية قوية.

ان ادارة الايلخانيين للعراق في كثير من مظاهرها استمرار للإدارة العباسية في عهودها المتأخرة. ويمكننا ان نرى فيها تبسيطا لتلك الادارة، حيث ابقى هولاكو على الوضع الاداري كما كان عليه، وحافظ الى حد ما على التقسمات الادارية القديمة، ولتسهيل مهمته في ادارة العراق، فقد عهد بعد الاحتلال الى بعض الاداريين من عهد الخليفة العباسي الاخير ان يضعوا اسس تنظيم ادارة العراق، وتألفت الادارة المؤقتة من علي بهادر الخرساني شحنة، ومؤيد الدين بن العلقمي وزيرا ، وفخر الدين الدامغاني صاحبا للديوان ونجم الدين احمد بن عمران صدرا للأعمال الشرقية، وعبد المنعم البندنيجي قاضيا، وتاج الدين على بن الدوامي صدرا للأعمال الفراتية، فكانوا جميعا من العراق باستثناء الاول. وبذلك اخذت الطمأنينة تعود شيئا فشيئا الى البلاد، واستطاع من بقي من الناس ان يفتشوا عن اموالهم واعمالهم، وشرع الموظفون ورجال الادارة الجدد بترميم ما يمكن ترميمه من المساجد

والمدارس والربط والقصور والدور والجسور والشوارع والاسواق. وبذلك نجد ان سلطة الاحتلال لم تبدل نظام الحكم، بل استبقت الحالة على ما هي عليه، وتم الاحتفاظ بالترتيبات الادارية الموجودة من العهد السابق، الا انها جعلت السلطة مرتبطة دائما بأمراء المغول، يرجع اليهم الوزير في كافة الامور الذين يتصرفون بالبلاد كما يشاؤون.

لقد جاءت التبديلات الادارية في العصر الايلخاني لتتلاءم في الواقع مع تطور الاوضاع العامة، وقد تحولت البلاد الى التبعية لدولة اجنبية كبيرة، فأدمجت الوحدات المعروفة في العهد العباسي الاخير في وحدات اكبر وصولا الى تحقيق سيطرة قوية. والغيت الدواوين المركزية وابقى على الديوان الزمام الذي كان ديوان الدواوين في اواخر العصر العباسي وديوان الوزير. ولكن سرعان ما ادمجا بديوان واحد اطلق عليه اسم الديوان يرأسه صاحب الديوان الذي اصبح يحتل مكانة عليا في الادارة المدنية، حيث يشرف على شؤون البلاد المالية، ويتمتع بسلطة تعيين كبار الموظفين كقاضي القضاة والصدور والنظار. ويرتبط بصاحب الديوان (كاتب السلة)، ويتراس كتاب العراق، ولهذا يطلق عليه احيانا اسم كاتب العراق. ومن الوظائف المدنية المهمة الاخرى التي استمرت في العهد الايلخاني (خازن الديوان) و(صدر وقوف) و(الناظر) و(المشرف). والناظر وضيفة مالية بالدرجة الاولى، لكن بسبب فقدان التحديد في الادارة، فانه كان يقوم بالأشراف على امور ادارية احيانا ،بل ويقوم بواجبات الصدر نفسها. اما المشرف وهي الوظيفة التي تقوم الى جانب بقية الوظائف المهمة كالصدر والناظر، فقد ازدادت اهميتها في العصر الايلخاني، فصار هناك مشرف على صاحب ديوان بغداد ومشرف العراق. ومهمة شاغل الوظيفة الاشراف على ضبط الحسابات والصادرات والواردات والموازنة بينهما. ولا شك في ان تأكيد الايلخانيين على هذه الوظيفة، بحيث ان تعيين شاغلها وعزله، كان يتم بالأمر من السلطان المغولي نفسه، بسبب: معرفتهم بفساد الجهاز الاداري، والى رغبتهم في احكام سيطرتهم على اجزاء ممتلكاتهم، وجشعهم الشديد الذي كان يدفعهم الى الحصول على اكبر قدر من الاموال من السكان الخاضعين لهم. ولهذا كان المشرف يقدم حساباته الى السلطان نفسه. ولكن التطور الذي

حصل فيما بعد باستحداث منصب (مشرف الممالك) عام 1280م. وهو المشرف العام للدولة الايلخانية جعل مشرف بغداد مسؤولا لديه. وكان مشرف بغداد ينيب عنه في كل ولاية او اقليم نائبا يحمل الاسم نفسه. وتجدر الملاحظة بان معظم المشرفين في ادارة العراق كانوا من ابناءه لانهم الاعلم بأموره المالية.

ومن المناصب المهمة التي هي استمرار لما كانت عليه في العصر العباسي، منصب قاضي القضاة ويحتل شاغله منزلة ارفع الوظائف الدينية واجلها قدرا. ولهذا كان امر تعيينه يصدره السلطان نفسه. ومهمته القيام بالأمور الشرعية والحكم بين الخصوم ، وهو مسؤول عن تعيين القضاة والنواب ومتقلدي المناصب الشرعية في مختلف انحاء البلاد ومراقبتهم ونقلهم وعزلهم ، وتثبيت الحجج والوثائق وعقود الزواج وقسمة التركات وتوليه الاوقاف والنظر في القضايا المتعلقة بالأمور الشرعية. وغالبا ما كان المرشحون لتولي مناصب القضاة هم مدرسو المدارس الدينية ، وبحكم معرفتهم بأصول الشريعة الاسلامية التي هي مصدر الاحكام في الفصل في الخلافات بين المسلمين. وكان لكل قاضي عدد من العدول يساعدونه في مهمته، كما كان الحال في العصر العباسي. واقرب الوظائف من وظيفة القاضي، الحسبة وصاحبها المحتسب، ومهمته مراقبة الاسواق ومحاسبة المقصرين والامر بالمعروف والنهي عن المنكر . ونظام الاحتساب كغيره من الانظمة الادارية الاخرى ، كان قائما في العصر العباسي واستمر في العهد الايلخاني. وهذه الوظائف الادارية المدنية و المالية المهمة غالبا ما تركت بيد العراقيين، الا ان الادارة العسكرية ، وعلى راسها وظيفة (الشحنكية) بقيت بيد المغول، مما يدل على طبيعة نظام الاحتلال القائم على التعسف والاستغلال. فمع انه نظريا كان هناك نوع من الاستقلال بين الادارتين المدنية والعسكرية، بحيث لا يجوز لمتولي اي منهما عزل الاخر، لأنها مهمة الايلخان وحده، فان بإمكان الشحنة (القائد العسكري) التنكيل بصاحب الديوان نفسه ،قبل ان يبعث بالأمر الى الايلخان طالبا موافقته على ذلك الاجراء والشحنة في الاصل منصب استحدثه السلاجقة في القرن الحادي عشر الميلادي وشاع في البلاد الاسلامية وكان شاغله مسؤولا عن ادارة المدينة

والمحافظة على امنها واستقرارها. ولكن الشحنة اصبح في عهد الاحتلال المغولي يؤدي ما يشبه وظيفة الحاكم العسكري العام. واهم واجباته استتباب الامن في البلاد والقضاء على التمرد و الانتفاضات ، ومراقبة صاحب الديوان اي حاكم العراق الاداري لضمان ولائه للايلخان. فكان الشحنة عين الايلخان على رؤساء ادارة العراق من الموظفين المدنيين. ولهذا بقي الذين تولوا هذا المنصب في المدن العراقية من المغول، ولاسيما من كبار ضباط الاحتلال، بخلاف المناصب الادارية الاخرى. فقد كان الشحنة يمثل الصلة بين المدن والحكومة المركزية. وكانت لشحنة بغداد اهمية تفوق اهمية اقرانه في المدن العراقية الاخرى نظرا لثقلها الاداري والسياسي وجسامة دور حاميتها العسكرية المغولية في تثبيت سلطة الاحتلال. ومن الوظائف العسكرية الاخرى المهمة نائب الشرطة وهو المسؤول عن المحافظة على شؤون الامن في بغداد والمدن الاخرى. ويتدخل الشحنة اذا ما عجز نائب الشرطة عن مواجهه امر خطير يهدد الهيمنة المغولية في البلاد.

ـ الاوضاع العامة في العراق في العهد الايلخاني.

لقد تدهورت الاوضاع العامة في بغداد في اعقاب الاحتلال المغولي له، كما شهدت مدنه تدهورا كبيرا من جراء اعمال التدمير التي رافق احتلالها، والاهمال الذي عانت من قبل ادارة الاحتلال، واذا اخذنا بغداد كمثال جيد لهذا التدهور باعتبارها عاصمة العراق فإنها بعد عام 1258 لم يبق من الجانب الغربي فيها الا محال متفرقة، وخرب الجانب الشرقي من الشماسية الى المخرم كما دمر السور.

من المعروف ان رخاء العراق يعتمد بالدرجة الاولى على الزراعة التي يقوم ازدهارها على نظام الري. ولكن السلاطين الايلخانيين وحكامهم في العراق لم يهتموا بتطهير الانهار والقنوات، ولا بفتح قنوات جديدة، ومن نتائج هذا الاهمال ان الفيضانات سببت دمارا كبيرا

و لعل من اشهرها غرق بغداد في السنوات 1277م، و 1284م، و 1325م ،وغرق الحلة والكوفة في 1286م. ومن الطبيعي ان ظروف البلاد الاقتصادية و المعاشية المنخفضة والتخلف وقلة عدد المستشفيات وعدم العناية بها، ادى الى ان يتعرض العراق الى هجمات شديدة من الامراض الوبائية المتوطنة. ومما زاد من سوء الاوضاع موجات الجراد التي عصفت بالعراق واثرت كثيرا على المحاصيل الزراعية . كذلك موجات البرد التي كانت تتلف المحاصيل الزراعية.

لقد تدهورت اوضاع التجارة في العراق خلال هذا العصر ولم تساعد الاجراءات القليلة التي ابداها حكام العراق في تحسينها ومما زاد من تفاقم الوضع ثقل الضرائب، فضلا عن الحرائق التي كانت تصيب الأسواق.

ومع قلة الاهتمام الذي وجهته الدولة الى حالة العراق الاقتصادية، كانت الضرائب ثقيلة وخاضعة لأهواء الحكام وجشعهم الذي لم يعرف الحدود. كما حدث عام 1278م عندما امر الايلخان اباقا حاكم بغداد الجويني بضرورة استيفاء خمسين الف دينار من السكان. ومن انواع الضرائب التي فرضتها سلطة الاحتلال: ضريبة الخراج، وضريبة الرؤوس او الجزية و هي عامة على الجميع، وضريبة الاسواق والعقارات والتمغات وضريبة المراعي وحصة الديوان من الاوقاف ومقدارها العشر. فضلا عن ما كانت تحصل عليه من غش النقود وانقاص نسبة الذهب والفضة فيها ومصادرة الموظفين، واخيرا ما كان ينفقه اصحاب الدور على الجنود الذين كانت تفرض نفقتهم عليهم احيانا . اما اسلوب جباية الضريبة فكانت على انواع ثلاثة هي : الضمان والجباية المباشرة والاقطاع. وكان التعسف السمة البارزة في اساليب الجباية المختلفة . وقد ادى ثقل الضرائب وتعسف جبايتها وضعف العناية بنظام الري، الى تدهور احوال البلاد اقتصاديا وازدياد الخراب في بعض المدن فانحسرت المظاهر الحضارية وانتعشت البداوة مكانها. وكثيرا ما تؤدي فرض الضرائب بشكل تعسفي الى غلاء الاسعار. كذلك كانت الصراعات السياسية التي تنشب بين ورثة العرش الايلخاني اثر كبير في سوء الاوضاع في العراق كما حدث في اعقاب وفاة اباقا اذ

اجتمع الامراء المغول ومعهم الوزير في بغداد شمس الدين الجويني واتفقوا على خلع ارغون وتولية تكودار(تسمى بعد ذلك احمد عندما اعلن اسلامه) العرش. الامر الذي لم يرضِ الاول، فسارع بقواته من خراسان ودخل بغداد عام 681هـ/ 1282م، وقد اتخذ عدة اجراءات مالية تهدف للاستحواذ على اموال الضرائب في العراق، كما فرض على قاضي بغداد ومعاونيه دفع مبلغ عشرة الاف دينار، ثم عاد الى خراسان.

وتشير الادلة الى محاولات بعض الحكام الايلخانيين من اصلاح الاوضاع الاقتصادية وان كانت محاولات قليلة محدودة الاثر. كما حدث في عهد الجويني مثلا، أو الاصلاحات الاقتصادية التي جرت في عهد السلطان غازان منها اصدار الاوامر عام 1301 بتوحيد المكاييل والموازين. كذلك عندما تم ايقاف العمل بنظام الضمان في استيفاء الضرائب عام 1302. فضلا عن شق نهر فرعي من الفرات عرف بالنهر الغازاني، ونهر اخر من الفرات اجراه الى مشهد الشيخ ابي الوفاء.

لقد عملت السلطة الايلخانية في العراق الى اصدار النقود، منذ عهد هولاكو(1258-1265م)، رغم عدم العثور على مواقع سك النقود الا في النادر، فقد وجدت بعض النقود الذهبية(الدنانير) مسكوكة تعود عهد هولاكو الا انها محدودة جدا، فهناك خمسة دنانير نادرة محفوظة في المتحف العراقي لم يظهر لها مثيل في كتالوكات المتحالف العالمية ضربت في الموصل، احداها سك عام 1258م وهو العام الذي احتل فيه المغول بغداد واسقطوا الخلافة العباسية، وهناك نقود دنانير سكت في عامي 1259 و1262م، كما اصدر هولاكو النقود الفضية(الدراهم) وهناك 11 مسكوكة تعود لعهده محفوظة في المتحف العراقي، وفضلا عن النقود النحاسية(الفلوس). وفي الموصل سك دينار يعود لعام 1259م، وعام 1273م. كما سك في اربيل نقود نحاسية عام 1262م. وكان الايلخان الثاني اباقا اول من ضرب النقود باللغة العربية في وجه، واللغة الايغورية[1] في الوجه الاخر، وهناك نقود مسكوكة باللغة العربية فقط، والنقود الذهبية العائدة لعهده قليلة، كذلك النقود النحاسية، وهناك

1- اللغة الأويغورية هي من اللغات التركية في اسيا الوسطى ويستعملون الحروف العربية في كتابتها الى الان.

مجموعة من النقود تعود لعهده محفوظة في المتحف العراقي. ومن انواع النقود التي سكت في عهده المس واصدرها حاكم بغداد علاء الدين الجويني في عام 1267م وهي فلوس مسكوكة من النحاس ليتعامل بها السكان في بغداد والمدن الاخرى، وجعل كل 24 فلسا بدرهم، وكل دينار يساوي خمسة ارطال. ولم نعثر على نقود في عهد الايلخان احمد تكودار الا في الموصل وهي شبيهة بنقود اباقا. هناك مجموعة من النقود تعود لعهده محفوظة في المتحف العراقي ولكنها اقتصرت على النفود الفضية والنحاسية، وهي مدونة بلغتين العربية والايغورية. وقد ابطلت في عهده نقود المس وضربت محلها نقود فضية سميت دناكش كل 12 فلسا منها يساوي درهما عام 1283م، وسرعان ما ابطل التداول بها بعد عام . وقد عثر على نقود فضية وذهبية ونحاسية مسكوكة تعود لعهد ارغون في بغداد والموصل واربيل فضلا عن تلك المضروبة في المدن الايرانية مثل همدان، وفي المتحف العراقي هناك 28 نقدا فضيا و17 نقدا نحاسيا تعود لعهده، وجميعها منقوشة بالخطين العربي والايغوري. غير ان ايقاف التداول بالدراهم عام 1285م ادى الى تدهور الوضع الاقتصادي، وقد امرت السلطة الايلخانية بضرب درهم بديل اختلفت قيمته بالنسبة للدينار، ما بين 8، 10، 12 مثقال ، ثم سكت دراهم شبيهة بتلك العائدة لعهد اباقا. وقد شهد العراق سك اول عملة ورقية في عهد كيخاتو وهي الجاو عام 1294م وهي عبارة عن كاغد مستطيل عليه تمغة السلطان بدلا من السكة على الدنانير والدراهم. هذا وكانت النقود المسكوكة في عهد بايدو قليلة جدا، منها نقد مسكوك في مدينة تبريز عام 1295م محرر بلغتين العربية والايغورية، وهناك نقد نحاسي لم يعرف تاريخ ومكان سكه، والنقود العائدة اليه تشبه تلك العائدة لعهدي ارغون وكيخاتو. ولعل اكثر النقود التي ضربت في العهد الايلخاني كانت تعود لمحمود غازان وقد ضربت النقود في بغداد واربيل والموصل والبصرة. وهناك دينار ذهبي مسكوك في اربيل موجود في المتحف العراقي يعود الى عام 1303م. فضلا عن ذلك هناك سبعة دراهم وتسع عشرة فلسا نحاسيا، وقد امر غازان عام 1298م بتصفية الذهب والفضة من الغش، كما سك الدراهم متساوية الوزن حتى يعيد للسوق استقراره الاقتصادي، وكانت الدراهم تزن ثلاث

مثاقيل، وكل مثقال من الذهب يساوي 24 درهما، و12 مثقالا من الفضة، وقد سك الدنانير بأوزان مختلفة تتراوح بين 1/ 4، 1و1/ 2، 2، 3، 5 مثاقيل. وخلال عهد اولجايتو سكت النقود في اعوام 1305م، و1308م. وهناك نقود في المتحف العراقي تعود لهذا الايلخان احدها مسكوك في ساوة(بين مدينتي الري وهمدان) عام 1307م ، والثاني في مدينة سلطانية عام 1308م ، والثالث في اصفهان عام 1311م ، ودينار رابع مجهول مكان سكه يعود الى العام نفسه، كما عثر على نقود كثيرة تعود لعهد ابو سعيد بهادر خان منها نقد مسكوك في مدينة آمل في مازندران في ايران لم نعرف تاريخ سكه، وهناك دينار في المتحف العراقي مسكوك عام 1236 في ازمير، فضلا عن دنانير مسكوكة بعض المدن العراقية مثل بغداد وواسط والبصرة، واخرى مسكوكة في ايران مثل تبريز وسلطانية ومراغة. ويبدو ان ضعف الرقابة الحكومية ساعدت الكثير من المحتالين على تزييف النقود، مما اثر سلبا على الاقتصاد.

اضطربت الحياة الاجتماعية في بغداد بعد الغزو المغولي اذ اصبح عامة الشعب يعانون من اسوء حالات الفقر والجوع والنقص في الاموال، ويعود ذلك الى الدمار الذي اصاب المدينة، فضلا عن الضرائب الباهظة المفروضة من السلطة المحتلة، وسوء الادارة وفسادها واستغلال كبار الاداريين لمناصبهم لجمع الاموال في شتى الوسائل. فضلا عن ذلك كثيرا ما عانى السكان من انعدام الامن وانتشار العصابات والمجرمين وكثيرا ما تفشل السلطة بالقبض عليهم. كذلك نلاحظ انتشار الاوبئة في العراق بشكل متكرر. فضلا عن ارتفاع الاسعار وانتشار المجاعة. وكثيرا ما تعرض العراق الى غزوات خارجية من غير ان نسمع رد فعل للسلطة الحاكمة مما يشير الى عدم قدرة حكومة الاحتلال على حماية الاراضي العراقية ففي عام 1285م هاجمت قوة من بلاد الشام الموصل وسلبت اموال التجار من قيسارية الموصل، وقتلت الكثير من المسيحيين في اربيل، كما هاجم الاكراد بلدة البوازيج بالقرب من تكريت، هذا في وقت فشل حاكم الموصل مسعود البرقوطي من ايقافهم، فضلا عن غارات البدو على المدن الامنة.

لقد كانت بغداد في العصر العباسي ملتقى العلوم والآداب والفن، والفلسفة والطب وارتقت الى درجة كبيرة من النضج في مدارسها وجوامعها ومجالس الخلفاء. وقد استمرت هذه الثقافة تسير صعدا على الرغم من الضعف الذي كان يصيب الحياة السياسية في اواخر العصر العباسي.

لقد كان لاحتلال المغول للعراق اثر سلبي على الحركة الثقافية نظرا لما شهده هجوم المغول على بغداد من حرق وتدمير للمدارس والمكتبات ومقتل العدد الكبير من علمائها، كما أُخذ عدد من العلماء الذين يتقنون اللغة المغولية أو الذين يتخصصون بعلوم الفلسفة والرياضيات والطبيعة الى عاصمة الدولة المغولية، وامرهم هولاكو ان يرصدوا له الكواكب ويؤلفوا له الكتب في الحكمة والفلسفة والعلوم العقلية، وكان هناك عدد من العلماء الذي يرجع اليهم الفضل في الحفاظ على بعض الكتب والمؤلفات القديمة، ومنهم نصير الدين الطوسي، وكان قد اقام مدة في بغداد ينظر في شؤون الاوقاف الاسلامية ويرعى الفقهاء والمدرسين والمتصوفة والمنقطعين لطلب العلم. ومن الاشخاص الذين كان لهم اهتمام بالحركة الثقافية في هذه الحقبة المظلمة هو علاء الدين الجويني، الذي حكم العراق لمدة 22 عاما.

مع ذلك ظل وضع الحركة العلمية متدهور، فقد اصاب المدارس ودور العلم والمكتبات دمار كبير، واصبحت في بغداد قليلة جدا بعد ان كانت في العصر السابق تتجاوز المئات، مع ذلك لم يخل هذا العصر من محاولات لإحياء الثقافة. اذ نعرف ان زوجة الجويني وهي عصمت الدين قد قامت بإنشاء مدرسة عرفت بالمدرسة العصمتية في القسم الشرقي من بغداد عام 1279م. كما اهتم الجويني نفسه بالمدارس القديمة مثل المستنصرية والنظامية، كما حاول بعض الايلخانات المغول اجراء اصلاحات للمدرسة. وقام مجد الدين بن الاثير ببناء مدرسة في بغداد ودفن فيها بعد ان قتل حوالي عام 1286، كذلك بنيت بالقرب من ضفاف دجلة في محلة باب الازج(باب الشيخ حاليا) مدرسة من قبل بهاء الدين عبد الوهاب الذي توفي عام 1289، وفي عام 1293 بنيت المدرسة العلائية من قبل علاء

الدين علي بن عبد المؤمن بن كردمير على ضفاف دجلة مقابل مدرسة ابي النجيب السهروردي بالقرب من الجسر العتيق في بغداد. ومن المدارس الاخرى المدرسة الغازانية المنسوبة الى السلطان محمود غازان، وقد بنيت من قبل الخواجة رشيد الدين بالقرب من باب الظفرية. والمدرسة الامامية البكرية بدرب فراشة بناها امام الدين يحيى البكري صاحب الديوان في بغداد، وقد توفي مؤسسها في الحلة عام 1300.

وكانت ادارة هذه المدارس بيد العلماء العراقيين، ومن الجدير ذكره كان الجويني نفسه مؤرخا دون كتابا عن تاريخ المغول. ومن الرسالة التي بعثها السلطان احمد تكودار الى السلطان المملوكي قلاوون مدى اهتمام الاول بالحركة العلمية، اذ اخبره انه اعتنق الاسلام وامر ببناء المساجد والمدارس والاوقاف. كما امر ايضا مشرف الممالك قطلغ شاه ببناء رباط للصوفية جوار المشهد الخاص بسلمان الفارسي، وقد شهد العصر ظهور عدد من العلماء البارزين منهم نور الدين الساعاتي(ت 1285م) في علم الهيئة والنجوم وعمل الساعات الفلكية، والمباحث الهندسية، وهو الذي عمل الساعات المشهورة على باب المدرسة المستنصرية، وابنه مظفر الدين(1296م) الذي اختص بالعلوم الرياضية والهندسة، كما كان بارعا بعلوم الاصول والفقه، وله كتاب مشهور يدعى مجمع البحرين الفه في الفقه. وهناك الفيلسوف برهان الدين النسقي(ت1289م)، وابن الصباغ(ت1285) وقد اشتهر بالطب وعلم الحيوان والنبات.

لم يخلف المغول الايلخانيون في العراق عمائر مهمة تنسب اليهم، ومن تلك التي تعود لهذه الحقبة منارة جامع الخلفاء الذي امر بإعادة بناءها اباقا بن هولاكو في عام 1279، والمجمع الديني المعروف بذي الكفل والمتكون من ضريح ومسجد ومنارة وخان والذي امر بتشييده السلطان اولجايتو محمد خدابنده، وقد اكتمل بناءه عام 1316. الا ان هذا لا يعني بأن حركة البناء والتعمير قد توقفت، بل على العكس من ذلك فقد قام العراقيون الموسرون وبعض الولاة والحكام المحليين بتشييد الجوامع والمساجد والمدارس والاضرحة والمشاهد والربط والتكايا. ومن اشهر تلك العمائر ضريح الشيخ محمد السكران

المشيد عام 1268، وقبة الشيخ عمر السهروردي في بغداد المشيدة عام 1334. كما شهد المشهد الكاظمي للإمام موسى الكاظم(ع) في الجانب الغربي من بغداد اهتمام كبيرا من قبل الحكام الايلخانيين.

ـ المقاومة المسلحة للاحتلال المغولي:

1 .انتفاضات المدن ومقاومتها الاحتلال الايلخاني:

على الرغم من انتشار انباء القوة التي استخدمها الغزاة المغول في تعاملهم مع سكان بغداد وقفت بعض المدن العراقية تقاوم الاحتلال المغولي، وفقد شهدت مدن الحلة وواسط و اربيل والموصل مقاومة عسكرية للمغول. فكان امير الحلة شمس الدين سلار قد هرب على اثر احتلال بغداد بقسم من قواته وجيش مدينة تستر ظنا منه انه يستطيع محاربة المغول ولكن خاب ظنه فلجا الى الحجاز.

اما واسط التي وصلها جيش المغول بعد احتلال بغداد فقد قاومت الجيش المغولي ولكن تفوق المغول العددي رجح كفتهم ومع ذلك فقد استبسلت الدينة في دفاعها وقدمت ما يقرب من اربعين الف شهيد قبل ان تعلن خضوعها. وفي الوقت الذي باشر به هولاكو بالزحف على بغداد عهد الى قائده ارقيو نويان بمحاصرة اربيل ونتيجة صمود المدينة عجز القائد المغولي من احتلالها على الرغم من محاولة حاكمها تاج الدين بن صلايا اقناع الاهالي بتسليم القلعة له ، حيث قوبلت مساعيه بالرفض ولم يسمح له المدافعون عن القلعة بالدخول فأرسله ارقيو نويان الى هولاكو الذي قام بقتله لعدم تمكنه من اقناع اهالي اربيل بتسليم القلعة للمغول. وقد اضطر القائد المغولي بعد ان استعصى عليه تحقيق اي تقدم لاقتحام القلعة الى طلب المساعدة من بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فارسل له عددا من الجنود، لكن بدون جدوى. وقد تمكن اهل القلعة من شن غارة ليلية على المغول، وقتلوا

كل من وجدوه و اشعلوا النار في المنجنيقات واحرقوها ثم عادوا الى القلعة. ولما عجز القائد المغولي من كسر حدة المقاومة العسكرية للمدافعين عن القلعة استدعى بدر الدين لؤلؤ و تشاور معه، فأشار عليه بان يدع هذا العمل حتى الصيف، لان الاكراد يفرون من الحر، ويلجئون الى الجبال اما في هذا الوقت فالجو معتدل وعندهم ذخائر وافرة والقلعة غاية في الاحكام. واخيرا وقفت القوات المغولية عاجزة امام فتح القلعة فاضطر القائد المغولي لتسليمها الى بدر الدين لؤلؤ الذي هدم اسوارها واستولى عليها.

تبعت الموصل اربيل في الثورة والتصدي لحكم المغول فبعد وفاة بدر الدين لؤلؤ عام 1260م تولى الحكم بعده ولده الملك الصالح اسماعيل الذي اعلن الثورة على المغول في نفس العام. فبعث اليه هولاكو قائده (سنداغو) فرتب الملك الصالح امر الدفاع عن المدينة، فقام بإغلاق ابوابها كان فيها جيش كثيف من الاكراد والتركمان. نزلت قوات المغول لتحيط بالمدينة عام 1261م و بدأ المغول بإقامة المتاريس، واقاموا سوراً حول المدينة و نصبوا عليه خمسة وعشرين منجنيقا. وبادر سكان المدينة الى القتال. كما نصبوا مقابل منجنيقات المغول ثلاثين منجنيقا ترميهم ليل نهار. ودفعت صلابة مقاومة المدينة بالمغول الى التفكير في الاسراع بعملية اقتحام اسوار المدينة بعد ان دامت الحرب قرابة الشهر، وقد شن المغول هجوما نفذه ثمانون من المغول قاموا بتسلق الاسوار من اجل اقتحام المدينة الا ان الهجوم فشل وقضى سكان الموصل عليهم جميعا، ورموا برؤوسهم من اعلى الابراج. وتمكن المدافعون عن المدينة ايضا من جرح صدر الدين التبريزي (قائد احدى الفرق المغولية) فأذن له سنداغو بمغادرة ساحة المعركة الى تبريز، وهناك قابل هولاكو و ابلغه بصمود اهل الموصل فارسل جيشا اخر لإمداد سنداغو. ونتيجة لإرسال هذه التعزيزات العسكرية الجديدة وبسبب الفارق الكبير لقوات المغول قياسا الى قوات الملك الصالح و لتشديد الحصار على المدينة اضطر الاخير الى طلب النجدة من حاكمي حلب ومصر. وقد استجاب حاكم حلب شمس الدين البرلي و جاء على راس قوة لنجدة الموصل وعندما علم سنداغو بمقدم هذه القوات بعث بقوة من جيشه تعدادها عشرة الاف فارس الى

سنجار لملاقاة جيش البرلي الذي كان يتكون من الف واربعمائة فارس ، ودارت معركة بين الطرفين في الرابع عشر من جمادى الاخرى عام 1262م انتهت بهزيمة البرلي ومقتل معظم جنده. ونتيجة لذلك فكر حاكم الموصل بالاعتماد على الامكانيات الذاتية في الدفاع عن المدينة التي طال حصارها واستعصت على المهاجمين ولما رأى سنداغو ان القتال لا يجدي نفعا انتظر حتى نفذت المؤنة من المدينة فاضطر الملك الصالح لطلب الامان له ولأهل البلد فأجابه القائد المغولي الى طلبه وعندما خرج اليه قبض عليه وعلى ولده علاء الملك الذي قتله سنداغو وارسل الملك الصالح واخيه الكامل الى هولاكو الذي امر بقتلهما. واستباح المغول المدينة عند دخولها في رمضان 1261م واجهزوا على معظم سكانها ولمدة تسعة ايام ولم يفلت احد الا من كانوا قد اختبأوا في الجبال. وبعد استكمال القائد المغولي احتلال المدينة توجه لاحتلال بقية المدن التي كانت تابعة لمدينة الموصل ومنها جزيرة ابن عمر والتي حاصرها المغول طوال فصل الشتاء وعجزوا عن دخولها بعد ان ثبتوا حولها سورا، غير ان توسط مطران الجزيرة بين سكان المدينة والقوات المغولية ادى الى فتح اهل الجزيرة للأبواب فدخل سنداغو المدينة وامر بتخريب الاسوار دون ان يتعرض لسكانها.

2. القبائل العربية ودورها في مقاومة الايلخانيين:

ظلت القبائل العربية بالرغم من وجود تنظيمات الجيش في اواخر العصر العباسي القوة الاحتياطية العسكرية التي ترفد بالمقاتلين في اوقات تعرض الدولة العربية للأخطار الخارجية . وهبت تلك القبائل ملبية نداء الخلافة العباسية للتطوع في جيوشها لرد المغول، وقد كان لإسهام القبائل العسكري في مقاومة ومواجهه الغزو المغولي الاثر الفعال في استمرار اعتداءات الجيش المغولي عليها، وهذا ما دفعها على الانسحاب الى البوادي تحتمي بها من ارهاب الغزاة ومن هناك قادت المقاومة المسلحة في الريف وفي البادية وحتى في بعض المدن. وتمكنت بعض القبائل العربية في عهد الاحتلال ان تطرد الوجود المغولي من مناطق عديدة وتقصره على المدن الرئيسة حيث تتركز قواته. واهم القبائل

العربية كانت ال ربيعة، وال فضل ومواقع سكناهم تمتد من حمص وقلعة جعبر الى الرحبة، ثم على شقي الفرات واطراف العراق الى البصرة . وقد فرضت وجودها وسيطرتها على مناطق غربي العراق وجعلته خارج اطار نير الاحتلال الاجنبي. وبسبب قوة تلك القبائل ودقة تنظيمها وطابعها العسكري وقدرتها على حفظ الامن في البادية فان دولة المماليك في مصر و الشام حاولت استمالتها وارضائها وعهدت الى رؤسائها الذين سمتهم امراء العرب حماية قوافل التجارة القادمة من العراق الى الرحبة على الفرات، ثم منها الى مدن الشام والمناطق الاخرى، وكانت هذه الطريق تقع ضمن مناطق نفوذ ال فضل. وبهذا يكون الطريق التاريخي الرئيس الذي يربط العراق ببقية اقطار المشرق العربي بقي مفتوحا، وقد استفادت من ذلك دولة المماليك حيث سارعت الى استغلال فزع القبائل من الارهاب المغولي واثارة عاطفتهم الدينية في الانتقام الى الخلافة الاسلامية، فكسبتها الى جانبها في صراعها مع الخطر المغولي، وكان افرادها ينقلون اخبار التحرك المغولي. ومن مآثر ال فضل ما قاموا به من دور مشهور في معركة عين جالوت عام 1260م ضد المغول وكان امير العرب آنذاك هو الامير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع الذي اشترك مع الملك المظفر قطز حاكم مصر وكان النصر حليفهم. وبهذا فان دور العرب من ال فضل الطائيين لم يقتصر على حفظ طرق المواصلات فقط بل شاركوا في الجيش المملوكي وفي رد الغزاة والدفاع عن البلاد فاستعان المماليك بهم في عملياتهم العسكرية ضد المغول، وتمثلت هذه المشاركة بالتجسس على الاعداء والمحافظة على اطراف البلاد وفي الاستكشاف والمعارك. وحقق المماليك بواسطتهم ضغطا عسكريا متواصلا على السلطة المحتلة في العراق. وقد استمر ال فضل الطائيين في الوقوف بجانب المماليك ضد المغول واوقعوا بهم خسائر عسكرية جسيمة في معركة حمص عام 1282م. غير ان العلاقة بين دولة المماليك والقبائل العربية من ال فضل الطائيين لم تكن ودية دائما، فقد تخللتها فترات من الخلافات لاعتزاز تلك القبائل باستقلاليتها وشعورها بحقها في اتخاذ القرارات التي تتناسب مع مصالحها بغض النظر عن رضا او عدم رضا المماليك عنهم، ومن ذلك اشترك مهنا بن عيسى بعد توليه

امارة العرب (1284م) مع الامير قراسنقر في العصيان والخروج عن طاعة سلطان مصر الذي قام بعزله و عين مكانه الامير فضل بن عيسى فتوجه مهنا الى العراق و نزل هو وعربه على شاطئ الفرات الاعلى من عانة الى الحلة، فاقطعه الخان المغولي خدابندة الحلة، فجعل ولد سليمان عليها وعين له نوابا بالبلاد الفراتية يستخرجون له الاموال من عنة الى الانبار. والسبب الذي دفع بالحاكم المغولي الى تقريب مهنا بن عيسى هو انه كان يطمع في السيطرة على الديار الشامية اخراج المماليك المصريين منها. وامل في وقوف امراء طي بجانبه نظرا لمعرفته بقوتهم العسكرية ونفوذهم وسيطرتهم على البادية. وقد سار فضل بن عيسى مع احد امراء طي الى السلطان الايلخاني ابي سعيد وقائده جوبان واجتمع بهما واهدى لهما خيولا عربية فاقطعه جوبان البصرة. لكن سوء التفاهم لم يستمر طويلا فبعد عودة مهنا بن عيسى الى البادية نجحت الوساطة بينه وبين السلطان المملوكي الناصر، فأذن له في ان يستمر في اقطاعه ببلاد الشام، وهكذا استطاع ان يملك اقطاعين احدهما في العراق والاخر في الشام ، وظل يتردد بين البلدين، وينال الخلع والعطايا من الجانبين. وكان يحرك اولاده وعشيرته فيثورون اذا ما تأخر ملوك الشام والعراق عن تقديم العطايا والمنح اليه. وكانت اعظم هذه الثورات التي قام بها ابنه سليمان في عام 1315م فقد اغار مع عشيرته على تدمر وخربها. ومن الملاحظ ان سياسة امراء ال فضل خلال هذه الفترة كانت الحصول على اعظم ما يمكن من منافع من الجانبين المغولي والمملوكي فظل مهنا يستقبل مبعوثي الطرفين، وبقي يقيم في وسط البادية ولا يذهب الى اي من الفئتين.

لقد احس الحاكم المغولي جوبان بالقوة العسكرية لهذه القبائل العربية في المنطقة الغربية من العراق وتزايد نفوذها وهيمنتها فسعى لتوطيد العلاقة بينه وبين الملك الناصر سلطان مصر ليتخلص من خطرهم. ففي عام1230م ارسل رسلا الى سلطان مصر وتم الاتفاق على عقد صلح بين الطرفين وكتب الملك الناصر كتابا الى الحاكم المغولي ذكر فيه ان العرب من ال مهنا قد كثر فسادهم في البلاد، وانهم خارجون عن طاعة السلطان المصري

فيجب على الايلخان المغولي ان لا يمكنهم من بلاده ايضا. ومن ذلك يظهر ان المماليك و المغول تضايقوا من سيطرة هؤلاء العرب على الحدود الشامية العراقية.

لقد مارس ال فضل الطائيين مهمة المحافظة على طريق الحج بين العراق ومكة. ومن الواضح ان نفوذ وهيبة تلك القبائل العربية قد مكنتها من المحافظة على الامن والنظام على القبائل الاخرى ضمن منطقتها والاهم من ذلك تامين سلامة طريق الحج والطرق التجارية ولهذا السبب كان سلاطين مصر ونوابهم في دمشق و حلب يحاولون دائما فرض سيطرتهم عليهم واستخدام كل الوسائل و السبل لإرجاعهم تحت نفوذ السلطنة عندما يثورون لان بقائهم خارج السلطة المملوكية يعني استمرار التهديد لمصالحها بمهاجمة القوافل التجارية، وطريق الحج وعدم الاستقرار في البادية. فمن المؤكد اذن انه لو لم تكن هذه القبائل على مستوى عال من الضبط العسكري وحسن التسليح وكثرة المقاتلين والروح العسكرية لما تمكنت من تحريرها لأجزاء كبيرة من العراق واجبار السلطة المحتلة على القبول بها كحقيقة قائمة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا دون ان تتمكن من القضاء عليها. والواقع انه اذا كانت السيادة العشائرية ومقاومة الاحتلال بين الحجاز والعراق وسوريا لقبيلة طي وامرائها فلا يعني ذلك ان القبائل العربية الاخرى في وسط و جنوب العراق قد خلدت الى السكينة و استسلمت للمحتلين الغزاة، ففي الحقيقة لم يتوقف نشاطها الا لبعض الوقت حيث عادت الى الاغارة على المدن وقطع طرق الحجاج والمسافرين في المناطق الجنوبية، وظلت البطائح مأوى للفارين من وجه الحكومة والثائرين عليها. وكانت السلطة المحتلة تلجأ الى تسيير الحملات العسكرية ضدهم لضرب قواهم العسكرية كما حدث في عام 1281م فعندما وصل اباقا خان الى العراق ارسلت قوة من الجيش المغولي الى واسط فنهبوا الاعراب.

كان لقبيلة خفاجة السلطة في انحاء الكوفة والمواطن الجنوبية منها فيذكر ابن بطوطة الذي زار العراق في اواخر العهد المغولي بانه عندما سافر من النجف الى البصرة كان بصحبة من عرب خفاجة ووصفهم بانهم ذوو: "شوكة عظيمة وباس شديد، ولا سبيل للسفر في تلك

الاقطار الا في صحبتهم". وقبل ان يصل الى واسط عند مسيره بجانب الفرات مر بموضع يسمى العذار وهو غابة قصب في وسط الماء يسكنه اعراب يعرفون بالمعادي يتحصنون بتلك الغابة و يمتنعون بها ممن يريدهم.

اما عن قبيلة بني اسد التي كانت تقطن في انحاء الحلة وجنوبي واسط فذكر ابن بطوطة انهم كانوا ساكنين تلك الجهة وعندما خرج لزيارة احمد الرفاعي كان بحماية ثلاثة من عرب بني اسد. وكانت القبائل العربية فضلا الى سيطرتها على مناطق واسعة من العراق وجعلها بعيدة عن هيمنة الغزاة فإنها كانت تنتهز ضعف الحاكم وتتحداهم بإعلان الثورة كما حدث في عام 1284م حيث ثار العرب في جنوب العراق و اطراف واسط فهاجمهم المغول وقتلوا عددا منهم و نهبوا اموالهم. وفي عام 1293م ثار العرب في عين التمر و الكبيسات ولما هاجمتهم القوات المغولية لاذ بعضهم بالفرار الى منطقة الاهوار والمستنقعات. وغالبا ما كانت ثورات العرب تشتد عندما يشرع المغول بمهاجمة بلاد الشام من اجل مشاغلة الجيش واضعافه كما حدث عام 1298م حيث انتفض العرب في البطائح وهاجموا القوافل التجارية فاشغلوا السلطان غازان واخروا حملته لغزو الشام، لاضطراره لتسيير بعض فرقه اليهم. وهكذا ساهم العراقيون في المقاومة العسكرية للغزاة المغول ففي عام 1258م اجتمع جيش منهم وانضم اليهم عدد من جند الشام وحرروا الاراضي الواقعة في طريقهم نحوا الموصل واربيل ودخلوا الموصل فاضطر حاكمها الى الفرار. وانتفض العراقيون في شهرزور في عهد السلطان اولجايتو عندما كان يستعد لمهاجمة حلب فاضطر الى ارسال بعض فرق الحملة الى مطاردتهم مما ادى الى اضعاف قواته وتأخرها فلم تصل سوى الرحبة على الفرات واضطرت الى التراجع.

- قائمة المصادر:

-ابرار كريم الله، من هم التتار، ترجمة: رشيدة رحيم الصبروتي، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994).

-احمد عبد الكريم سليمان، المغول والمماليك حتى نهاية عصر الظاهر بيبرس(648-676هـ/ 1250-1277م)، (القاهرة: دار النهضة العربية، 1980).

-احمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام، (بيروت: دار النهضة العربية، 1986).

-احمد بن يوسف القرماني(ت1019هـ/ 1610م)، اخبار الدول واثار الاول في التاريخ، دراسة وتحقيق: احمد حطيط وفهمي سعد، (بيروت: عالم الكتب، 1992)، ج2.

-ارمنيوس فامبري، تاريخ بخارى منذ اقدم العصور حتى العصر الحاضر، ترجمة: احمد محمود الساداتي، مراجعة: يحيى الخشاب، (القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، 1987).

-اسراء مهدي مزبان، "خواتين القصور المغولية ودورهن في تدبير المؤامرات السياسية"، لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة واسط، العدد: 9، لسنة: 2012.

-اكرام محمد علي خلف، "اثر المؤامرات في سقوط الدولة العباسية سنة 656هـ/ 1258م: دراسة تاريخية"، مجلة ديالى للبحوث الانسانية، العدد: 49، لسنة: 2011.

-بدر الدين العيني(ت 855هـ)، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي، تحقيق: فهيم محمد علوي شلتوت ومحمد مصطفى زيادة، (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، 1998).

-برنارد لويس، الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الاسلام، ترجمة: محمد العزب موسى، (القاهرة: مكتبة مدبولي، 2006).

-جرجي زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، (القاهرة: دار الهلال، 1947)، ج5.

-جريجوريوس ابو الفرج بن اهرون المعروف بابن العبري، تاريخ الازمنة، ترجمة ودراسة وتقديم: شادية توفيق حافظ، مراجعة: السباعي محمد السباعي، (القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، 2007).

-جمال الدين ابي المحاسن يوسف بن تغري بردي الاتابكي(ت 874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992)، ج7.

-حامد زيان غانم، صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل دولة المماليك، (القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، 1978).

-حسن الجاف، الوجيز في تاريخ ايران، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2003)، ج2.

-حسين علي قيس القيسي، طبيعة المجتمع العراقي في العصر العباسي المتأخر: دراسة تاريخية اجتماعية 447-656هـ، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 2013).

-حمزة بن احمد بن عمر المعروف بابن سباط الغربي، (ت926هـ/ 1520م)، صدق الاخبار، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، (طرابلس: جرس برس، 1993)، ج1.

-دونالد ولبر، ايران ماضيها وحاضرها، ترجمة: عبد المنعم محمد حسنين، (القاهرة: دار الكتاب المصري، 1985).

-راجحة علي غالب، "من معارك العرب الفاصلة الكبرى معركة عين جالوت"، مجلة المورد، المجلد: 10، العدد: 3-4، لسنة: 1981.

-رأفت غنيمي الشيخ، التاريخ المعاصر للامة العربية الاسلامية 1412-1992، (القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1992).

-راغب السرجاني، قصة التتار من البداية الى عين جالوت، (القاهرة: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، 2006).

-رجب محمد عبد الحليم، انتشار الاسلام بين المغول، (القاهرة: دار النهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع، 1986).

-رشيد الدين فضل الله الهمداني(ت718هـ)، جامع التواريخ: تاريخ غازان خان، دراسة وترجمة: فؤاد عبد المعطي الصياد، (القاهرة: كتب عربية للطباعة، 1998).

-رشيد عبد الله الجميلي، "حملة هولاكو على بغداد"، مجلة المورد، المجلد: 8، العدد: 4، لسنة: 1980.

-ريهام المستادي، "رحلة قبائل المغول من التمزق الى التوحد"، دورية كان التاريخ، العدد: 4، لسنة: 2009.

____________، "الدولة الخوارزمية ومواجهتها للزحف المغولي"، دورية كان التاريخية، العدد: 8، لسنة: 2010.

-ساجدة شكري وناصر النقشبندي، "الدينار الاسلامي: الدنانير التي عثرت عليها مديرية الاثار القديمة اثناء حفرياتها في خرائب واسط"، مجلة سومر، المجلد: 11، الجزء: 1، لسنة: 1955.

-السيد الباز العريني، المغول، (بيروت: دار النهضة العربية، 1967).

__________، المماليك، (بيروت: دار النهضة العربية، 1967).

-سليمان الدخيل، الفوز بالمراد في تاريخ بغداد، تقديم وتعليق: محمد زينهم محمد عزب، (القاهرة: دار الافاق العربية، 2003).

-شاهين مكاريوس، تاريخ ايران، (القاهرة: دار الافاق العربية، 2003).

-شمس الدين ابي عبد الله الذهبي(ت746هـ)، دول الاسلام، (بيروت: منشورات الاعلى للمطبوعات، 1985).

-صادق حسن السوداني، "العلاقات الخارجية للخلافة العباسية في عهد الخليفة الناصر"، مجلة المورد، المجلد: 2، العدد: 4، لسنة: 1973.

-صادق ياسين الحلو، "الجيش والسلاح منذ احتلال بغداد حتى العصر العثماني 1258-1534"، بحث ضمن موسوعة: الجيش والسلاح، (بغداد: دار الحرية للطاعة، 1988)، ج5.

-صالح محمد العابد وعماد عبد السلام رؤوف، "العراق بين الاحتلالين المغولي والصفوي"، بحث ضمن كتاب العراق في التاريخ، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1983).

-صالح محمد العابد، "النظام الاداري"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985)، ج10.

-الصاوي محمد الصاوي، جنكيز خان فاتح العالم، (القاهرة: دار طيبة للطباعة، 2012).

-صبحي عبد المنعم محمد، سياسة المغول الايلخانيين تجاه دولة المماليك في مصر والشام، (القاهرة: العربي للنشر والوزيع، 2001).

-صبري فارس الهيتي، "تخطيط مدينة بغداد عبر العصور التاريخية: دراسة في التخطيط الحضري"، مجلة المورد، المجلد: 8، العدد: 4، لسنة: 1980.

-طارق جواد الجنابي، "العمارة العراقية"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985)، ج10.

-عادل اسماعيل محمد هلال، العلاقات بين المغول وأوروبا واثرها على العالم الاسلامي، (القاهرة: عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، 1997).

-عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2004).

-عبد الله بن فتح الله البغدادي المعروف بالغياثي، تاريخ الدول الاسلامية في الشرق، (بيروت: دار مكتبة الهلال، 2010).

-عبد الرحمن بن خلدون، (ت 808هـ/ 1406م)، تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000)، ج5.

-عبد السلام الترمانيني، احداث التاريخ الاسلامي بترتيب السنين، (دمشق: دار طلاس، 1994)، ج3، م1.

______________، احداث التاريخ الاسلامي بترتيب السنين، (دمشق: دار طلاس، 1994)، ج3، م2.

-عفاف سيد صبره، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، (القاهرة: دار الكتاب الجامعي، 1987).

-علاء الدين مغلطاي بن قلنج بن عبد الله البكجري الحنفي(ت762هـ)، مختصر تاريخ الخلفاء، تحقيق: اسيا كليبان علي البارح، (القاهرة: دار الفجر للنشر والتوزيع، 2000).

-علي شاكر علي وعلاء محمود خليل قداوي، "دور الموصل والجزيرة الثقافي في مواجهة التحدي المغولي 660-736هـ/ 1362-1335"، مجلة المورد، مجلة المورد، المجلد: 23، العدد: 2، لسنة: 1995.

-عماد الدين اسماعيل بن علي المعروف بابي الفدا(ت732هـ/ 1331م)، المختصر في اخبار البشر، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب ويحيى سيد حسين، (القاهرة: دار المعارف، 1999)، ج3.

-عماد عبد السلام رؤوف، "الجيش: القوى والمؤسسات العسكرية"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985)، ج10.

-فائز علي بخيت، "الخلافة العباسية بعد الاحتلال المغولي لبغداد 656-676هـ/ 1258-1277"، مجلة كلية العلوم الاسلامية، جامعة الموصل، المجلد: 1، العدد: 2، لسنة: 2008.

-فاروق عمر فوزي ومرتضى حسن النقيب، تاريخ ايران: دراسة في التاريخ السياسي لبلاد فارس خلال العصور الاسلامية الوسيطة 21-906هـ/ 641-1500م، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 1989).

-فرانتس تشنر وفريتس شتيبات وسلوى الخماش، تاريخ العالم العربي، (بيروت: دار صادر، 1975).

-فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، (بيروت: دار النهضة العربية، 1980)، ج1.

-فيصل كاظم احمد وسبله طلال ياسين، "السلطان غازان وقوانينه وفق الشريعة الاسلامية والياسا المغولية"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة البصرة، العدد: 14، لسنة: 2013.

-القلقشندي(ت820هـ)، مآثر الانافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار احمد فراج، (بيروت: عالم الكتب، بلا.ت)، ج2.

-كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة: نبيه امين فارس ومنير البعلبكي، (بيروت: دار العلم للملايين، 1968).

-كوركيس عواد، المدرسة المستنصرية في بغداد"، مجلة سومر، المجلد: 1، الجزء: 1، لسنة: 1945.

-ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ترجمة: عبد العزيز جاويد، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995)، ج1.

__________، رحلات ماركو بولو، ترجمة: عبد العزيز جاويد، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995)، ج2.

-محمد احمد دهمان، معجم الالفاظ التاريخية في العصر المملوكي، (دمشق: دار الفكر، 1990).

-محمد اسعد طلس، تاريخ الامة العربية: عصر الانحدار، (بيروت: دار الاندلس للطباعة والنشر، 1963).

-محمد الانطاكي، معركة عين جالوت، (بيروت: دار الشرق العربي، بلا.ت).

-محمد جاسم حمادي المشهداني، "دور الطوسي في الغزو المغولي لبغداد"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 37، لسنة: 1988.

-محمد حسن ال ياسين، "المشهد الكاظمي من بدء الاحتلال المغولي الى نهاية الاحتلال العثماني"، مجلة سومر، المجلد: 19، لسنة: 1963.

-محمد حسين السويطي وشيماء بدر عبد الله، "الغزو المغولي لبلاد المسلمين يفي روايات الديار بكري بكتابه تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس"، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد: 5، لسنة: 2011.

-محمد رضا الحكيمي، بداية الفرق نهاية الملوك"، توثيق وتعليق: شاكر الابراهيمي، (بيروت: دار الفردوس، 1990).

-محمد السعيد جمال الدين، علاء الدين عطا ملك الجويني حاكم العراق، (القاهرة: بلا.مط، 1982).

-محمد سعيد عمران، المغول واوروبا، (الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، بلا.ت).

-محمد علي البار، كيف اسلم المغول، (عمان: دار الفتح للدراسات والنشر، 2008).

-محمد ماهر حمادة، دراسة وثائقية للتاريخ الاسلامي ومصادره من عهد بني امية حتى الفتح العثماني لسورية ومصر، (الرياض: مؤسسة الرسالة، 1988).

-محمد مفيد ال ياسين، دراسات في تاريخ العراق في العهد الايلخاني، (عمان: دار غيداء للطباعة والنشر، 2009).

-محمد يونس فلح، "تأثر المغول بالإسلام"، مجلة كلية العلوم الاسلامية، جامعة الموصل، المجلد: 5، العدد: 9، لسنة: 2011.

-محمود السيد، العرب في اخطر المعارك الحربية في تاريخ العالم، (الاسكندرية: بلا.مط، 1995).

-مصطفى طه بدر، محنة الاسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على ايدي المغول، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999).

-مختار جبلي، حملات الغزو المغولي للشرق، (باريس: دار لارماتون، 1995).

-مهاب درويش لطفي البكري، "الالقاب على المسكوكات الايلخانية"، مجلة سومر، المجلد: 21، الجزء: 1-2، لسنة: 1965.

________________، "العملة الاسلامية في العهد الايلخاني"، مجلة سومر، المجلد: 22، الجزء: 1-2، لسنة: 1966.

________________، "العملة الاسلامية في العهد الايلخاني المحفوظة في المتحف العراقي، مجلة سومر، المجلد: 25، الجزء: 1-2، لسنة: 1969.

________________، "دراسة تحليلية للعملة الاسلامية في العهد الايلخاني-السلطان اباقا خان، مجلة سومر، المجلد: 23، ج1-2، لسنة: 1967.

________________، "العملة الاسلامية في العهد الايلخاني"، مجلة سومر، المجلد: 27، الجزء: 1-2، لسنة: 1971.

-الموسوعة العربية الميسرة، (بيروت: المكتبة العصرية، 2009)، 7ج.

-نظمي زاده مرتضى افندي، كلشن خلفا، ترجمة: موسى كاظم نورس، (النجف: مطبعة الاداب، 1971).

-نور الدين خليل، سيف الدين قطز قاهر المغول، (القاهرة: الفتح للطباعة والنشر، 2005).

-نوري عبد الحميد خليل، "صمود البصرة ومقاومتها للغزو الاجنبي 1258-1508"، مجلة المورد، المجلد: 23، العدد: 2، لسنة: 1995.

-و.بارتولد، تاريخ الترك في اسيا الوسطى، ترجمة: احمد السعيد سليمان، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996).

الفصل الثاني

العراق من الاحتلال الجلائري الى الاحتلال الصفوي (1337ـ1514)

ـ انهيار الامبراطورية الايلخانية وقيام الدولة الجلائرية.

كانت جلاير احدى القبائل الكبيرة التي تسكن شرق منغوليا عند نهر اونن، وتتكون من شعوب عديدة يرأس كل منها زعيم، وقد اختلف المؤرخون حول اصل هذه القبائل فاعتبرهم البعض من الاقوام التركية. في حين اعتقد اخرون انهم من القبائل المغولية. والحقيقة ان المعلومات المتوفرة عن اصل القبائل التركية والمغولية ما زالت غامضة بسبب عدم وجود نصوص تاريخية يمكن الوثوق بها، كما ان هذه القبائل اختلطت مع بعضها وتشابكت. والمرجح ان غزو الترك لأسيا الوسطى ادى الى حدوث انقلابات عرقية مختلفة كان اهمها رجحان كفة العناصر التركية على غيرها في اجزاء بلاد ما وراء النهر. وقد قدم الاتراك لهذا الاقليم بوصفهم اصدقاء وحلفاء لمغول السهوب الشرقية عند تيان شان وجبال التاي، وسرعان ما استقروا على ضفاف جيحون، وكان الترك يشبهونهم من حيث حبهم للسلب والنهب والقتل. ويمكن اعتبار الجلائريين من الاقوام التركية التي تسمت بالمغولية في وقت متأخر.

استخدم المغول الجلائريين في عهد قايدو خان الجد السادس لجنكيز خان واحفاده عبيدا لهم، وتشير الروايات التاريخية الى ان قسم منهم كانوا يسكنون حول نهر كارولان بالقرب من دولة الخطا(الخطاي) فقامت بينهم وبين الاخيرين حروب انتهت بهزيمة ساحقة للجلائريين، ولم تنج منهم سوى سبعين اسرة من عشيرة جابولغان فنزحوا بالقرب من القبائل المغولية التي يقودها جنكيز خان، واتصلت هذه العشيرة الجلائرية بقبيلة جنكيز خان، ونشأت بينهم روابط مودة وقرابة. ولما وحد جنكيز خان القبائل المغولية والتركية تحت قيادته كانت القبائل الجلائرية من ضمنها، واستطاع بعض افرادها الحصول على

مناصب هامة لديه، ومن هؤلاء موقلي كويانك زعيم قبيلة جايت الذي كان يقود الجناح الايسر من جيشه، ولقب هو واولاده كويانك أي الخان الكبير بلغة الخطاي. وعندما قام جنكيز خان بتوزيع الجيش الذي شكله من مختلف القبائل بين امراء التومان شمل الجلائريين هذا التقسيم وتوزعوا بين الصين ومنغوليا وتركستان وما وراء النهر والقبجان وبقي قسم منهم مع الايلخانيين حيث جاءوا الى ايران والعراق.

اثبت الامراء الجلائريون كفاءة عسكرية وادارية جعلت بعضهم يحتلون مراكز هامة في الجيش المغولي، ومن هؤلاء ايلكانويان الجد الاعلى للجلائريين الذين حكموا العراق، وقد اصبح اميرا للجيش في عهد هولاكو، وشاركه في احتلال بغداد واختاره الاخير مع ثلاثة الاف فارس ليعملوا على توطيد السلطة المحتلة والتنكيل بمن يتصدى لها، وخلف ايلكانويان عشرة اولاد تاسعهم اقبقا الذي التحق بالايلخان اباقا، وفي عهد احمد تكودار ارسله الى بلاد الروم(الاناضول) لإخماد اضطرابات نشبت هناك، فنجح في اخمادها عام 1275، ثم شغل منصب امير الامراء في عهد كيخاتو(1291-1295)، وتزوج ابنه حسين من اولجتاي ابنة ارغون، ودخل في خدمة اولجايتو، وتلقب كوركان(أي الصهر)، وفي عام 1306 ذهب الامير حسين في حرب كيلان، فانتصر وعينه اولجايتو حاكما على اران. وبعد وفاة اولجايتو هاجم احد الامراء المغول ويدعى يسور خراسان، فارسل السلطان ابو سعيد جيشا بقيادة الامير حسين، الذي تمكن بمساعدة حاكم سيستان من هزيمة يسور، واستعادة خراسان، فعينه السلطان اميرا على خراسان. وقد شغل ابنه الشيخ حسن مكانة مرموقة في عهد هذا السلطان، باعتباره حفيدا لارغون من جهة امه التي كانت عمة السلطان. وفي عام 1332 عينه السلطان ابو سعيد حاكما على بلاد الروم وبقي في منصبه حتى وفاة السلطان عام 1335.

بعد وفاة السلطان استبد الامراء بالحكم واخذ كل منهم يسعى الى العرش متخفيا وراء بعض الاسماء، فضلا عن اعلان الكثير من الامراء الاستقلال عن الدولة الايلخانية في اماراتهم. ولكن الوزير غياث الدين محمد جمع الامراء والخواتين فوقع الاختيار على

ارباخان ونصب خانا، وقيل ان السلطان ابي سعيد قد اوصى قبل وفاته بان يخلفه الامير اربا خان لأنه لم يبق من نسل هولاكو من هو جدير بالسلطنة. ولما كان بعض افراد الاسرة وعدد من امراء المغول غير راضين عن هذا الاختيار انظم بعضهم الى الامير علي بادشاه، خال السلطان ابي سعيد وحاكم العراق العربي وديار بكر، الذي جمع اتباعه الاويرات[1] واعلن معارضته لارباخان، فاستبد بالسلطة ورفض ان يتشاور مع الامراء الباقين ونصب موسى بن علي بن بايدو بن طرغاي بن هولاكو سلطانا، واستعد الطرفان للحرب التي وقعت بينهما والتي انتهت باندحار ارباخان ووزيره غياث الدين وقتلهما. وصفا الجو لعلي بادشاه وفوض امر الوزارة الى نجم الدين محمود بن تاج الدين علي الشيرواني، وسلط اتباعه الاويرات على شؤون الحكم وصادر الاموال، فنفر منه الامراء وتوجهوا الى حاكم الروم الشيخ حسن الملقب بالكبير(بزرك)، وكان على رأس هؤلاء الامير طغاي بن سوتاي حاكم ديار بكر(1331-1342)، الذي كان يضمر العداء لعلي بادشاه ومعه اولاده واخوته مع الحاج طوغانك(طوغا بك) وحثوا الامير على الحرب واقنعوه بأحقيته بالزعامة.

اعلن الشيخ حسن بزرك معارضته لايلخانية موسى ونصب محمد خان بن يولقتلغ وهو من احفاد هولاكو سلطانا وتوجه الى اذربيجان بجيوش جرارة، ثم انظم اليه الامير سيورغان بن جوبان حاكم كرجستان والتقى مع جيش موسى خان وعلي بادشاه في عام 1335م في نواحي الاطاق، فأسفرت المعركة عن قتل علي بادشاه وهرب موسى خان، واستيلاء حسن بزرك على الحكم في تبريز، وبذلك اصبح الشيخ حسن مسيطرا على شمال غربي ايران، واسند الشيخ حسن الوزارة الى شمس الدين زكريا بن حسن الدامغاني. ولكن الامور لم تهدأ، اذ ان بعض الامراء غضبوا من الشيخ حسن وسيطرته على مقاليد السلطنة، فتوجهوا الى خراسان والتحقوا بأميرها طغا تيمور وكان حاكما على مازندران، والذي التف حوله الامراء واقنعوه بأحقيته بالسلطنة وتوجهوا به الى مدينة السلطانية، وانظم اليهم الخان الهارب موسى، لكن الشيخ حسن تمكن من الانتصار عليهم عام 1336 وقتل موسى خان

1- الاويرات: من القبائل التركية التي تسمت بالمغولية في وقت متأخر.

وهرب طغا تيمور عائدا الى خراسان، وبذلك صار الشيخ حسن وصنيعته اقوى الممثلين للحكم الايلخاني وقام بتعيين الامراء حكاما على الاقاليم وارسل الامير قره حسن حاكما على بغداد. لكن الامور لم تجر كما كان يريد الشيخ حسن، اذ ظهر له منافس اخر ذلك هو الشيخ حسن بن تيمور تاش بن جوبان الذي لقب بحسن كوجك(الصغير) تميزا له عن الشيخ حسن الكبير. وكان جوبان جد حسن كوجك اميرا للأمراء ووصيا على السلطان ابي سعيد عندما كان صغيرا وقد قتله السلطان ابي سعيد عام 1326، وهرب ابنه تيمور تاش الى مصر حيث اغتاله السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون حتى لا يفسد علاقته مع الدولة الايلخانية، ولكن حسن كوجك ثار من بلاد الروم وادعى ان اباه لم يقتل، ولكنه هرب من سجون القاهرة وقدم الى العراق واذربيجان، وجلب مملوكا تركيا شديد الشبه بابيه وادعى ان هذا هو ابوه، فالتف حوله اتباع ابيه، وعدد من امراء الشيخ حسن بزرك، فضلا عن انصار علي بادشاه الذين وجدوا من حسن كوجك خير منافس للشيخ حسن بزرك. وفي عام 1337 وقعت معركة بين الحسنين في الاطاق هرب منها حسن بزرك الى تبريز، ناجيا بنفسه وترك سلطانه محمد خان يلاقي مصرعه، بينما هرب حسن كوجك جريحا اثر محاولة قام بها والده المزعوم تيمور تاش لاغتياله والانفراد بالسلطة. وسار تيمور تاش الى تبريز ليستولي عليها ولكن حسن الكبير واتباعه تمكنوا من الحاق الهزيمة به فهرب الى بغداد. اما حسن الصغير واتباعه الجوبانيون فقد التفوا حول الاميرة ساتي بيك اخت السلطان ابي سعيد ونصبوها سلطانة عام 1338، وتمكنت من التأثير على حسن الكبير الذي تصالح معها ومع كوجك واعترف بزعامتها على البلاد. ولكن حسن بزرك لم يكن واثقا من هذا الصلح فاستدعى خصمه السابق طغا تيمور حاكم خراسان عارضا عليه العرش فتوجه هذا مسرعا الى السلطانية، ولكن حسن كوجك شعر بما يدبره حسن بزرك فاسرع الى مفاوضة طغا تيمور واعدا اياه بتزويجه من ساتي بيك ومن دلشاد خاتون بعد القضاء على زوجها الشيخ حسن بزرك، فوافق على هذه الشروط ووقع وثيقة بذلك وارسلها الى حسن كوجك الذي ارسلها بدوره الى بزرك، وسرعان ما ندم طغا تيمور بعد ان وقع في الفخ وانسحب في نفس الليلة

الى خراسان، وفقد بزرك ثقته بكوجك ورأى ان وجوده معه افقده حقه في الزعامة فتوجه مسرعا الى بغداد، واجلس عز الدين جيهان تيمور بن الفرنك بن كيخاتو على عرش السلطنة، واسند الوزارة الى وزيره السابق الخواجة شمس الدين زكريا، واصبح تحت سلطته العراق العربي والاحواز وديار بكر، وفي عام 1339 خلع جيهان تيمور واعلن استقلاله في البلاد.

لقد اصبحت بغداد طوال عهد الشيخ حسن عاصمة للدولة الجلائرية، ولم يلبث خصمه حسن كوجك ان قتل عام 1343، وبذلك تخلص حسن بزرك من خصم قوي، وعنيد. غير ان حسن بزرك واجه عدو جديد متمثلا بالملك الأشرف اخو حسن كوجك الذي تولى حكم اذربيجان بعد مقتل اخيه وسمى نفسه الو شيروان. وقد تقدم وحاصر حسن بزرك في بغداد، ولكن الاخير صمد فاضطر الو شيروان الى الانسحاب عام 1347. وقد شهد العراق في عهد حسن بزرك، ولاسيما بعد انهيار دولة الايلخانيين في اذربيجان وخراسان عام 1353، وتوقف التهديد الذي كانت تشكله على العراق، حقبة هدوء واستقرار انصرف خلاله الشيخ حسن لتنظيم الادارة وتوطيد السلطة الجلائرية في العراق، واستثمار ما يمكن استثماره من موارد العراق الاقتصادية لصالح تلك السلطة حتى وفاته عام 1356.

ـ الدولة الجلائرية من عهد السلطان اويس(1356ـ1374) الى الغزو التيموري

بعد وفاة حسن الجلائري بايع الامراء ابنه الشيخ اويس الذي عينه ابوه ليتولى حكومة بغداد، وفي عام 1358 احتل اويس مدينة تبريز واتخذها عاصمة له، وضم جميع الولايات التابعة لها حتى بحر الخزر الى نفوذه وصار العراق ولاية جلائرية. ومع ذلك لم تهدأ الاوضاع داخل الدولة الجلائرية، واضطر السلطان اويس ان يقضي سنوات حكمه في صراعه مع حكام الاقاليم المجاورة، وفي قمع حركات التمرد، التي اندلعت عام 1360،

ومن حركات التمرد تلك ما قام به حاكم بغداد خواجة مرجان، وهو امين الدين مرجان بن عبد الله بن عبد الرحمن الاولجايتي نسبة الى السلطان اولجايتو وقد كان رومي الاصل، وهو مولى السلطان اويس، الذي عين الخواجة مرجان نائبا عنه في بغداد، واثناء حروب السلطان اويس في تبريز، تمرد مرجان بتحريض من امراء بغداد له، واعلن عصيانه بقصد الاستقلال بحكومة بغداد فقفل السلطان اويس راجعا وحاصر بغداد وقبض عليه وهم بقتله فشفع عنده اهل بغداد فعفا عنه. وقد تمرد خواجة مرجان على السلطان اويس مرة اخرى عام1364 ، وخطب ببغداد للسلطان زين الدين شعبان سلطان مصر وبعث برسالة الى مصر ومعهم كتابه بانه خلع اويس واقام الخطبة وضرب السكة باسم سلطان مصر فاكرم سلطان مصر وفادة رسل خواجة وكتب له تقليدا بنيابة بغداد. فلما علم أويس بذلك توجه إليه فهدم مهرجان الجسور فغرقت معظم بغداد وتمكن السلطان من هزيمته والقبض عليه ثم افرج عنه بعد سمل عينه، وعبر السلطان نهر دجلة ونزل في قصر والده، ومكث هناك احد عشر شهرا واحتل الموصل، ثم فوض السلطان اويس ولاية بغداد إلى سلطان شاه خازن والد بيرام شاه.

توفي السلطان اويس عام 1374، فخلفه ابنه حسين، بعد ان قام الامراء بقتل اخيه الاكبر منه المدعو حسن، وقد اختلفت المصادر في سبب ذلك ما بين رغبة الامراء في وضع حسين محله لكونه ضعيفا يسهل السيطرة عليه، أو ولكون اباه اويس قد عهد الى حسين بالسلطنة بينما اوصى لأخيه الاكبر حسن بحكومة بغداد، وقد خشي الامراء ان يكون هذا التفضيل سببا في النزاع على العرش فالقوا القبض على اكبر الاخوة وهو حسن وقتلوه. وفي عهده تسلط الامراء على شؤون الحكم وكثرت الفتن والاضطرابات، وكان مقره في تبريز، اما ولاية العراق العربي فكانت تحكم نيابة عنه من قبل اخيه الشاهزاده الشيخ علي في بغداد، واحمد في البصرة. ثم جرى بين الاخوة صراع على السلطة استمر حتى عام 1382، انتهى بمقتل السلطان حسين واستيلاء احمد على الحكم. ولكنه اساء معاملة الامراء فلجأ قسم منهم الى بغداد ونصبوا اخاه الشاهزاده الشيخ علي سلطانا وتوجهوا به الى تبريز. وهرب اخوه الاخر بايزيد الى مدينة السلطانية ملتحقا بالأمير عادل اغا حاكم السلطانية، الذي اقامه

سلطانا هناك. وانقسم امراء الجيش والتف كل جماعة منهم حول احد السلاطين الثلاثة، وسرعان ما قامت الحرب بينهم انتهت بانتصار السلطان احمد ومقتل الشاهزاده الشيخ علي عام 1383. ثم جرت مفاوضات بينه وبين عادل اغا فتم التوصل الى صلح صارت بموجبه اذربيجان للسلطان احمد واقليم الجبال لبايزيد، اما العراق العربي فأصبحت ادارته مشتركة بين السلطان احمد وعادل اغا. ولكن الاخير طمع بحكومة العراق بتحريض من امراء بغداد فارسل ابن خاله الامير تورسن حاكما عليها. فسار السلطان احمد الى بغداد واحتلها وقتل تورسن وعين عليها حاكما من قبله وعاد الى تبريز، لكن الامر لم يستقر له اذ سرعان ما لاح الخطر القادم من الشرق المتمثل بالحملة المغولية الثانية بقيادة تيمور لنك.

ـ الحملة المغولية الثانية بقيادة تيمورلنك.

ينتسب تيمور إلى احدى القبائل المغولية ، وقد نشأ نشأة اسلامية في مدينة كش في ما وراء النهر (جيحون)، وقد مكنته شجاعته العسكرية من ضم القبائل المغولية تحت لوائه، والتخلص من الامراء المنافسين على السلطة واحدا بعد الاخر، واصبح حاكما على ما وراء النهر عام 1369م، واتخذ سمرقند عاصمة له. وكان سوء الاوضاع الاقتصادية في بلاد ما وراء النهر، ورغبة تيمور في السيطرة، وعدم اعترافه بوجود حاكم اخر، من العوامل المهمة في اندفاعه نحو الغرب، لاسيما وقد اعتبر نفسه وريثا لأملاك المغول، والامبراطورية الايلخانية الواسعة التي كانت تضم خراسان وبلاد الجبل والعراق العربي واذربيجان والاحواز وفارس وديار بكر واسيا الصغرى.

اثارت الانتصارات التي احرزها تيمور في اواسط اسيا وشمال ايران والولايات الايلخانية قلق السلطان احمد في تبريز، فامر عام 1385م بوضع حامية عسكرية كبيرة في مدينة السلطانية، وانسحب إلى بغداد، لكن قوات تيمور داهمت السلطانية، بعد فترة قصيرة،

واستولت عليها، ويبدو أن السلطان اراد تقوية مركزه في تبريز وابقاء سيطرته عليها، فسار إليها في السنة التالية على راس جيش كبير من بغداد، غير أن قوات تيمور هاجمت المدينة فاضطر السلطان إلى التراجع عنها، ودخلها تيمور دون مقاومة. وبعد أن اخضع تيمور اذربيجان وجورجيا وارمينيا، كان متوقعا أن يضع العراق ضمن مخططاته التوسعية، لكونه مفتاحا إلى بلاد الشام والحجاز ومصر، ولأجل تامين طرق التجارة القادمة من الخليج العربي إلى بغداد وتبريز وسمرقند.

وكانت الاوضاع السائدة في العراق لا تساعد على المقاومة، فقد اتسمت سياسة السلطان احمد بضيق الافق، وعدم تقييمه لقوة تيمور، فلم يتخذ اجراءات عسكرية لدفع خطره، أو اقامة جبهة داخلية قوية تدعمه، بل اجهد نفسه في القضاء على خصومه السياسيين، ففقد خيره ضباط جيشه، إذ قتل عددا كبيرا من قادة الجيش واعيان رجال الدولة، من ذوي الكفاءة والدراية والراي في تدبير الامور، وجمع حوله عددا من الاشخاص ممن عرفوا بالجهل والحماقة والخمول، ووضعهم في المناصب العليا. وقد ادى تقصيرهم وسوء تصرفهم إلى ايجاد فتور كبير في اعمال الدولة، فقامت المعارضة والفتن في كل مكان، وتتفق مصادر تيمور الرسمية مع المصادر المصرية على أن سكان بغداد كرهوا السلطان احمد وسياسته التعسفية، فكاتب بعض اعيانها تيمور يحرضونه على سلطانهم، ويستحثونه القدوم واحتلال بغداد، حتى أن بعض موظفي البريد وكشافة الطرق الذين ارسلهم السلطان احمد لرصد تحركات تيمور، لجأوا إلى تيمور ودخلوا في طاعته قبل وصوله إلى بغداد. أمّا على الصعيد الخارجي فان السلطان احمد لم يتعاون مع الدول المجاورة للوقوف بوجه تيمور، واهمل العرض الذي تقدم به حاكم مازندران لإقامة حلف معه ضد تيمور بالتعاون مع الدولة المظفرية[1] في فارس، وكانت علاقته بهذه الدولة ذات طابع عدائي، كما اهمل العرض الذي تقدم به تقتمش، خان القبيلة الذهبية الحاكمة في جهات الفولغا، الذي اقلقه اقتراب جيش تيمور من حدود بلاده، ولما شعر تقتمش بضعف السلطان احمد، ارسل في

1- الدولة المظفرية: امارة في ايران نشأت في عام 1314 وانتهى حكمها عام1393.

عام 1385، خمسين الف فارس للمرابطة عند مدينة دربند (باب الابواب) على بحر الخزر، تحسبا للطوارئ. وفي الوقت ارسل إلى بغداد وفدا برئاسة قاضي مدينة سراي عاصمة القبيلة الذهبية، عارضا على السلطان احمد اقامة تعاون ضد عدوهما المشترك، إلاَّ أن السلطان لم يغتنم هذه الفرصة، بل اساء معاملة احد اعضاء الوفد، مما ادى إلى تردي العلاقة مع تقتمش. لم يدرك السلطان احمد خطر تيمور إلاَّ بعد فوات الاوان، وبعد أن فقد العاصمة تبريز، فاخذ يفتش عن حليف يساعده على الوقوف بوجه هذا الخطر، وقد باءت المحاولات التي بذلها للتحالف مع العثمانيين بالفشل، كما انه لم يحصل على مساعدة المماليك الشراكسة في مصر والشام، بسبب اضطراب مملكتهم وسوء اوضاعها الداخلية.

1. الحملة الأولى (1393):

زحف تيمور على راس جيش يبلغ تعداده حوالي مئة الف مقاتل من جهات ما وراء النهر نحو الغرب، وبعد أن اخضعت هذه القوات فارس وخورستان وبلاد الجبل، وبعد ان احكمت سيطرتها على ايران، تجمعت في همدان تمهيدا للزحف على بغداد. وقد بعث تيمور رسالة إلى السلطان احمد، ومعه الخلعة والسكة، وامره بإعلان خضوعه، وان يذكر اسمه على النقود وفي الخطبة، والاسراع بالمثول بين يديه لتقديم فروض الطاعة، لكن السلطان رفض ذلك، واجاب برسالة تهكمية، اعلن فيها استخفافه بتيمور، واستغرابه من اعجابه الشديد بنفسه.

شرعت قوات تيمور بسلسلة من الحملات على شمال العراق بقصد اخضاع القبائل الكردية والتركمانية المتحالفة مع السلطان احمد، والاستحواذ على المواد الغذائية المتوفرة في المنطقة، وضبط الطرق الموصلة إلى بغداد، وبعد أن احكمت هذه القوات سيطرتها على الطريق الممتد بين همدان وجمجمال، واخضعت القبائل الكردية والتركمانية المنتشرة على طوله وجد السلطان احمد نفسه عاجزا عن مقاومة الجيش الزاحف، فاراد تدارك الامر بإعلان خضوعه وارسل اليه وفدا برئاسة الشيخ نور الدين عبد الرحمن، وكان من أكابر

مشايخ بغداد، وحمله رسالة إلى تيمور، معلنا فيها خضوعه اليه، ومعتذرا عن الحضور بنفسه والمثول امامه، وابدى ترحيبه به إذا اراد القدوم إلى بغداد وارسل معه جملة من الهدايا الثمينة والتحف النادرة من بينها الخيول العربية ذات السروج المذهبة. وقد قابل الوفد تيمور في قرية اق بولاق، قرب شهرزور بين همدان واربيل، فاستقبله تيمور بحفاوة واجلال عظيمين، لكنه رفض استلام الهدايا لان السلطان لم يحضر بنفسه لتقديم فروض الطاعة وبعد أن انعم على الشيخ خلعة وحصانا ثمينا مع كمية من النقود، اعاده إلى بغداد، واعدا اياه بعدم التعرض لها.

لقد اراد تيمور التمويه على السلطان احمد، فبعد أن عاد الشيخ عبد الرحمن مطمئنا، امر قواته بالزحف على بغداد، فتقدمت هذه القوات عبر ممرات جبلية ضيقة، ووصلت بعد خمسة ايام إلى مزار الشيخ ابراهيم يحيى المشهور بقبته ابراهيم الك، قرب الخالص، ولما شاهد اتباع السلطان احمد غبار الجيش طيروا حمامة مع رسالة يخبرون فيها السلطان بوصول جيش تيمور، وحين وصل تيمور وعلم بالأمر امرهم في الحال أن يرسلوا رسالة اخرى، يذكرون فيها أن الغبار الذي شاهدوه لم يكن من اثر جيوش تيمور بل غبار التركمان الذين هربوا منه، ثم امر قوته بالسير بأقصى سرعة. وقد تقدمت قوات تيمور لاحتلال بغداد، تولى قيادة المقدمة الامير عثمان عباس، وتولى تيمور نفسه قيادة القلب، وقاد الميمنة حفيده محمد سلطان، والميسرة ابنه ميران شاه، أمّا عثمان بهادر فقد قاد المؤخرة، فوصلت هذه القوات بغداد في اب 1393، ونزلت في الجانب الشرقي(الرصافة). أمّا السلطان احمد فحين علم بقدوم تيمور نقل امواله وحريمه واسلحته وارسلهم امامه إلى الحلة، ثم قطع الجسر ونقل السفن إلى الجانب الغربي(الكرخ) واغرق بعضها واحرق البعض الاخر، لكي لا يستفيد منها العدو، وانسحب من بغداد مع عدد من اتباعه، وبعد خروج السلطان احمد قام بعض اعيان المدينة بفتح الابواب واستقبلوا تيمور، وكان على راس المستقبلين الشيخ نظام الدين الشامي الذي دون فتوحات تيمور فيما بعد. وقد عبر بعض اتباع تيمور نهر دجلة سباحة لجلب السفن الراسية في الجانب الغربي من بغداد، والتي لم يتمكن السلطان احمد

من اتلافها، فاستولوا على سفينة السلطان الخاصة المسماة الشمس، وهي ذات ثلاثين مجدافا، مع اربع سفن اخرى، فاستخدم تيمور هذه السفن في العبور إلى الجانب الغربي، والسيطرة على بغداد. من الصعوبة تحديد حجم الخسارة التي تعرضت لها المدينة من جراء دخول جند تيمور، إذ قدر عدد السكان الذين قتلوا بثلاثة الاف شخص، غير أن مصادر تيمور الرسمية لا تشير إلى وقوع خسائر في الارواح لان المدينة استسلمت صلحا، وتذكر هذه المصادر أن تيمور اكتفى بأخذ (مال الامان)، وهي الضريبة التي اعتاد اخذها من سكان المدن التي تفتح صلحا، مقابل الحفاظ على ارواحهم. وقد اناط مهمة جمعها بأحد امراء السلطان احمد الذين تعاونوا معه والمدعو شرف الدين البليقي مع عدد من اعوانه. كما امر تيمور بأن يجبى مال الامان من السكان كل حسب مقدرته المالية، لكن الذين تولوا جمع الضريبة طالبوا الناس بأموال كثيرة، وحملوهم فوق طاقتهم، وتذكر المصادر التاريخية أن تيمور صادر اهل بغداد ثلاث مرات، وجمع في كل مرة 1500 تومان[1]. وقد رافق عملية الجمع ابشع انواع التعذيب وأقساها، وقد مات من اثر التعذيب والعقوبة عدد كبير من الناس والتجار واعيان بغداد وامرائها، وقدرتهم المصادر بين 700-800 نفس، كما استولى اتباع تيمور على خزائن السلطان احمد، وصادروا اموال الرؤساء والاعيان والامراء الذين هربوا معه، كما نهبوا كل ثمين يقع تحت ابصارهم من تحف ومجوهرات، أمّا الخسارة في الجوانب الحضارية فقد كانت كبيرة جدا، فرغم الكارثة التي حلت بالحضارة العربية بعد سقوط بغداد على ايدي المغول، ظلت بغداد مركزا للعلم والصناعة والفن، إلاَّ إن تيمور امر بجمع الموهوبين من اصحاب الحرف والصناعات والفنون المختلفة، ونقلهم إلى عاصمته سمرقند. واتخذ تيمور اجراءات اخرى يقصد منها اظهار نفسه بمظهر الحامي للشريعة الاسلامية، فاخذ يتقرب إلى رجال الدين في بغداد، وقام بزيارة مشاهد الامام أبي حنيفة والشيخ عبد القادر الكيلاني والامام احمد بن حنبل والامام موسى الكاظم وحفيده الامام الجواد(عليهما السلام)، واوقف لهذه المشاهد اراضي زراعية في بغداد وغيرها، وخصص

1- التومان: العملة الرسمية في ايران الى عام 1932.

الاقطاعات والرواتب للسادات والعلماء والمشايخ والمدرسين، كما امر اتباعه بجمع المشروبات الموصلية والديار بكرية الموجودة في قصر السلطان احمد، مع كافة الخمور الموجودة في المدينة، واراقتها في نهر دجلة. وقد امضى تيمور في بغداد شهرين يتنزه في قصورها الفخمة، المطلة على ضفتي نهر دجلة، وتمكنت قواته خلالها من احكام سيطرتها على مدن العراق الجنوبية، ثم عين احد اعوانه المدعو مسعود السبزواري حاكما على بغداد، وترك معه حامية عسكرية مقدارها ثلاثة الاف فارس، وسار نحو الموصل لإتمام احتلال بقية مدن العراق.

2. العمليات العسكرية لتيمورلنك بين عامي 1393-1401:

لقد رأينا كيف ان السلطان احمد هرب من بغداد الى الحلة اثناء الحملة الاولى لتيمورلنك عام 1393، وقد قرر تيمور ملاحقة السلطان فارسل ابنه ميران شاه مع قوة مغولية لتعقبه والقاء القبض عليه. وقد زحف ميران شاه باتجاه الحلة التي عبر الى جانبها الغربي احمد الجلائري وكسر الجسر واغرق السفن والقوارب الموجودة خلفه واتخذ طريق الشام عبر كربلاء. لذلك قرر ميران شاه الانتقام من الحلة واهلها فاحتلها ودمر الاستحكامات العسكرية فيها وقتل عدد كبير من سكانها ونهب اموالها. ويعود السبب في هذا الاجراء الى المقاومة المسلحة التي واجهته هناك من قبل نائب السلطان احمد. اما احمد الجلائري فلم تعثر عليه قوات تيمور الا في صحراء كربلاء ومعه الفا فارس، وقد اشتبك مع قوات تيمور واسفر ذلك عن خسائر فادحة للطرفين تمكن السلطان احمد في نهايتها من الهرب الى شفاثة ومنها الى الرحبة حيث منازل نمير بن حيار بن مهنا امير ال فضل، الذي رحب به وانزله عنده، ثم سار نحو حلب طالبا اللجوء عند السلطان المصري الظاهر برقوق، فطلبه الاخير إلى القاهرة ورحب به واكرمه.

اما تيمور فقد كان عليه مواصلة عملياته الحربية من اجل استكمال بسط سيطرته على بقية المدن العراقية. فبدأ بأرسال قواته الى واسط التي كانت تسيطر عليها قبيلة عبادة وزحفت

قواته الى المدينة مستخدمة السفن في دجلة، ولكن القبائل العربية اخذت تهاجم القوات المغولية وتمكنت من قتل عدد كبير منهم فضلا عن اغراق سفنهم. ونتيجة لضراوة مقاومة القبائل العربية وعنفها فشلت الحملة الاولى فاضطر تيمور الى ارسال حملة ثانية بقيادة احد كبار قادته وقد اشتبك هذا مع القبائل العربية التي رفضت الخضوع فقتل عدد كبير منهم، واضطر القسم الباقي الى دفع الضريبة للغزاة. وبذلك خضعت واسط لسلطة المغول وتركت فيها حامية عسكرية خوفا من ثورتها. كما ارسل تيمور قوة ثانية تهدف الى احتلال البصرة التي كانت تحت سيطرة شيخ عربي هو صالح بن جولان امير المنتفك الذي رفض الخضوع للمغول وتهيأ لمقاومة القوة القادمة، فاستنجد بعرب بني عقيل في البحرين والبصرة فتجمع لديه عدد كبير من القبائل العربية، وقد تمكن بهذه القوات التي بحوزته من دحر قوات تيمور وقتل عدد كبير من افرادها كما اسر قائدها ميران شاه. ولما وصلت اخبار الهزيمة الى تيمور طلب الى الشيخ صالح اطلاق سراح ميران شاه لكنه رفض بشدة، فجهز تيمور حملة ثانية من اجل احتلال البصرة اسفرت عن تدمير المدينة، وملاحقة وتتبع قبيلة المنتفك. كما ارسل تيمور قوة اخرى الى قبيلة خفاجة وغيرها من القبائل البدوية المنتشرة في الصحراء على الضفة الغربية لنهر الفرات وقتلوا عدد كبير من البدو ونهبوا اموالهم وخيولهم. وبعد ان انهى تيمور اخضاعه للمدن الوسطى والجنوبية توجه شمالا الى تكريت حيث كان حاكمها يخضع اسميا للسلطان المملوكي في مصر، وقد حاصر المدينة ونصب المنجنيقات والعرادات لرمي القلعة، وقد قدرت قواته بـ72000 مقاتل. وبالرغم من المقاومة العنيفة من قبل المقاتلون المدافعون عن المدينة، تمكن المغول وتحت حماية الدروع الخشبية من التقدم الى احد ابراجها. ثم تقدم الجيش التيموري نحو الاسوار واحتلالها، ثم قسموها بين الجنود لثقبها، ولما تمكنت القوات المهاجمة من احداث ثغرة كبيرة في السور، بادر المدافعون بسدها حيث وضعوا فيها اخشابا واشعلوا فيها النيران. وبالمقابل قامت القوات المغولية بوضع كميات كبيرة من القطع الخشبية المطلية بالزفت في الحفر التي احدثتها في سور القلعة واشعلت فيها النيران فسقط على اثر ذلك جزء كبير من السور. ولكن ذلك لم يسهل

احتلال المدينة اذ تسلح المقاتلون المدافعون عن المدينة بدروع خشبية كبيرة واشتبكوا مع القوات التيمورية داخل القلعة، ولكن عدم التكافؤ في عدد الجند اجبر المقاومين على التراجع الى جبل مجاور للقلعة بعد مقتل عدد كبيرا منهم. وبعد احتلال تكريت ارسل تيمور قوة عسكرية لإخضاع القبائل العربية بين تكريت والموصل اهمها قبيلة زبيد، وال بشار من ربيعة. كما اكملت قواته اخضاع اربيل والموصل وديار بكر بعد حصار طويل ومقاومة عنيفة. أمّا في بغداد فان مسعود السبزواري لم يتمكن من ضبط الامور، بسبب ضعف الحامية التي وضعها تيمور فيها، وقد شعر اتباع السلطان احمد بذلك فتجمعوا على الفرات، واجتمع معهم أيضاً عدد كبير من سكان بغداد الفارين، وافراد القبائل العربية القاطنة على الفرات بين هيت وعانه، وطلبوا من السلطان احمد الحضور اليهم، للزحف على بغداد وطرد نائب تيمور منها. وكان السلطان احمد في هذا الوقت في بلاد الشام، يشارك السلطان المصري برقوق استعداداته لمجابهة تيمور عند زحفه عليها، فانتهز هذه الفرصة وبدعم من السلطان المصري، الذي امده بالمال والسلاح والخيل والجمال، وكتب له تقليدا بسلطنة بغداد، سار في عام 1394 من دمشق إلى بغداد، كما امر السلطان المصري كافة اتباع السلطان احمد المقيمين بالشام بالالتحاق بسلطانهم، أمّا قوات برقوق فقد بقيت على الحدود، رصدا للعدو، وانتظارا لما يستجد في بغداد. وقد وجد مسعود السبزواري انه لا يستطيع المقاومة، فقرر مغادرة المدينة، لكنه اراد أن يشاغل الجيش الزاحف نحوه، وان يتيح لاتباعه فرصة الخروج من بغداد، فامر بكسر السدود المقامة على نهر دجلة، فأغرقت المياه مناطق واسعة بصورة اعاقت تقدم القوات العراقية مدة يومين، تمكن خلالها مسعود السبزواري من الخروج مع اتباعه من بغداد، وتوجهوا إلى شوشتر في خورستان، ثم دخل السلطان احمد بغداد، وبدأ بإعادة تنظيم جيشه معتمدا في ذلك على العرب والتركمان، واخذ يعمل على اعادة تعمير المدينة وزراعتها. ولكن سلطة السلطان احمد اقتصرت على بغداد وبعقوبة والمناطق القريبة من واسط. وفي البصرة تمكن قائد قبلي يدعى ناصر بن محمود القباني من الاستيلاء على المدينة، ومد نفوذه على المناطق الجنوبية حتى البطائح القريبة من الحلة،

ولم يتمكن السلطان احمد من فرض سيطرته على تلك المناطق. كما خرجت الموصل من السيطرة التيمورية وصارت تحت حكم القبائل التركمانية عندما اعلن يار علي ولاءه لأخيه قره يوسف.

إن عودة السلطان احمد إلى بغداد ادهشت تيمور، فقرر انهاء حكمه، واخضاع المدينة بصورة نهائية، ففي عام 1398، ارسل ابنه ميران شاه من تبريز على راس جيش كبير لمحاصرة بغداد، لكن ميران شاه اضطر إلى الانسحاب بعد يومين من الحصار، إذ واتته الانباء بقيام حركة تمرد ضده في تبريز، كما فشلت محاولة ثانية قام بها حفيد تيمور المدعو رستم في السنة التالية، عندما وصلت قواته إلى مندلي في عام 1400، وبعد أن احتلت المدينة ونهبتها استعدت للزحف على بغداد، وفي الوقت نفسه كانت رغبة تيمور هي أن يلقي القبض على السلطان احمد حيا للانتقام منه، فاتفق مع نائبه في خورستان الامير شروان بن شيخ براق منصوري، على أن يأخذ مبلغا كبيرا من المال ويتظاهر بالهرب منه ويعلن لجؤه مع عدد من اتباعه لدى السلطان احمد، وقد انطلت الخطة في أول الامر على السلطان، إذ رحب بشروان، وجعله احد امرائه المقربين، واقطعه قريتي القبة وزنكيادباد في منطقة ديالى وقرب مرتفعات حمرين. وشرع شروان بدس الاموال سرا إلى كبار امراء السلطان احمد واقربائه بقصد استمالتهم، وتسهيل مهمة القبض عليه، فأعطى لكل امير مبلغا يتراوح بين عشرة الاف إلى ثلاثمائة الف دينار عراقي، كل حسب رتبته ودوره في المؤامرة، لكن السلطان اكتشف المؤامرة في اواخر ادوارها، فقد عثر خادمه، كوره بهادر، على القائمة التي وردت فيها اسماء المتآمرين والمبالغ التي استلموها من شروان، في الوقت الذي وصلت فيه قوات رستم مندلي، فامر السلطان احمد بغلق ابواب المدينة، وقتل كل من ورد اسمه في القائمة، بما فيهم شروان، حتى بلغ عدد القتلى في اسبوع واحد الفا شخص من امرائه واقاربه.

لقد اضعفت هذه المؤامرة قدرة السلطان العسكرية، وافقدته خيرة ضباط جيشه، وأكفأهم، ولم تعد له ثقة بهذا الجيش، فترك في احدى الليالي بغداد، وتوجه سرا إلى ديار بكر طالبا المساعدة من حليفه قره يوسف امير التركمان القره قوينلو، فتحرك قره يوسف

مسرعا مع عدد كبير من اتباعه، وعسكروا في الجانب الغربي من بغداد، لتقديم الحماية للسلطان، وفي هذه الاثناء اضطر رستم قائد الجيش الزاحف نحو بغداد إلى الانسحاب، بسبب حدوث تمرد في فارس، فاطمئن السلطان احمد، لكنه اضطر إلى تقديم مبالغ كبيرة من المال والاقمشة والخيول والسروج المذهبة إلى قره يوسف واتباعه مكافئة لهم، ولمنعهم من التعرض لمدينة بغداد أو نهبها، فعادوا إلى موطنهم. وقد ادرك السلطان احمد أن تيمور لن يتركه يتمتع بحكم بغداد، رسيما بعد أن شرعت قواته بالزحف على مدينة سيواس في الاناضول عام 1400، فاذا استطاعت هذه القوات احتلال المدينة، فان تيمور سيسد عليه طريق الهرب إلى بلاد العثمانيين، كما إن الاوضاع السياسية في مصر وبلاد الشام اضطربت بعد وفاة السلطان برقوق، لذا قرر أن يسرع في الفرار، فترك على حكم بغداد احد امرائه المدعو فرج الجلائري، واخذ اهله وامواله ونفائسه، وتوجه مع حليفه قره يوسف إلى الدولة العثمانية فاستقبله السلطان بايزيد بن مراد الأول (1389–1403) واقطعه منطقة كوتاهية ليعيش على مواردها.

3. الحملة الثانية (1401):

وبعد أن اتم تيمور احتلال بلاد الشام عام 1401، وعاد إلى ديار بكر، اعد جيشا كبيرا وامره بالزحف على بغداد، فوصلوا بعد عدة ايام إلى الجانب الغربي، وعسكروا في القسم الجنوبي من المدينة. وقد استبسل الامير فرج في الدفاع عن بغداد، وقرر عدم تسليمها مهما كلف الامر، وحشد داخلها عدد كبيرا من مقاتلي العرب والتركمان، وارسل إلى الامراء وحكام المدن العراقية القريبة، طالبا منهم الحضور مع قواتهم لمشاركتهم في الدفاع عن العاصمة، فقدم الامير علي قلندر حاكم مندلي، والامير جان احمد حاكم بعقوبة، وعبروا دجلة مع قواتهما من قرب المدائن، وقدم أيضاً الامير فرخ شاه حاكم الحلة، والامير ميكائيل حاكم السيب القريبة من الحلة، مع قواتهما، والتقوا جميعا عند قرية صرصر القريبة من الجانب الغربي من بغداد واجتمع معهم حوالي ثلاثة الاف فارس ثم تقدموا جميعا، واشتبكوا

مع قوات تيمور قرب مقر السلطان احمد في الجانب الغربي، حيث هزمت القوات العراقية، وقتل الامير جان احمد مع عدد كبير من الجنود العراقيين، وغرق قسم منهم في نهر دجلة عندما حاولوا الهرب، بينما انسحب الباقي إلى داخل المدينة.

اصر فرج على المقاومة رغم الخسارة التي تعرض لها اتباعه، وأعلن أن السلطان احمد أمره أن لا يسلم المدينة إلاَّ عند حضور تيمور بنفسه، وحين علم تيمور بالأمر، وكان في الموصل تحرك مع عدد كبير من اتباعه مسرعا عبر التون كوبري فوصل بغداد في 30 ايار 1401 وعسكر مع اتباعه في الجانب الشرقي من المدينة، فأحاطت قواته بالمدينة من جميع جوانبها. ثم امر تيمور بإقامة جسر من القوارب جنوبي بغداد، بالقرب من قرية العقاب، ووضع بأسفل النهر عددا من الرماة للحيلولة دون هرب أي شخص من المدينة، ثم شرعت قواته بنقب الاسوار، وفي الوقت نفسه اقامت فرقة من هذه القوات ربوة ونصبت عليها المنجنيق لرمي المدينة بالأحجار.

شدد تيمور الحصار على المدينة، وتمكنت قواته من احداث عدة حفر في السور واشعلوا فيها النيران، فسقط قسم من السور، لكن المدافعين سارعوا إلى اصلاحه، وتمكنوا من تأخير فتح المدينة اربعين يوما عانى خلالها السكان من الجوع وارتفاع الاسعار، بسبب شحة المواد الغذائية. ورغم تفوق جيش تيمور من حيث العدة والعدد، الا أن الظروف كانت في صالح الجيش العراقي، بسبب شدة الحرارة وصعوبة تموين الجيش المهاجم، لكن اهمال بعض جنود بغداد وتهاونهم ادى إلى فتح المدينة، ففي ظهيرة 30 حزيران 1401م نزل الجند المدافعون عن برج العجمي في الجهة الجنوبية من بغداد، وذهبوا إلى منازلهم للاستراحة من شدة الحر، ووضعوا خوذهم على العصي في الاماكن المخصصة لهم على السور، إلاَّ أن اتباع تيمور اكتشفوا الامر، فتسلقوا السور بواسطة السلالم، واحتلوا البرج، وفي الوقت نفسه تمكنت القوات المهاجمة من احداث ثغرات في السور فتم فتح المدينة، ولم يجد السكان ملاذا من سيوف المحتلين سوى نهر دجلة، لكن الجنود المرابطين على الجسر قتلوا كل من اقترب منهم، أمّا الامير فرج فقد ركب مع ابنه قاربا وفر عبر دجلة أيضاً،

لكن اتباع تيمور تمكنوا من اغراق القارب ومن فيه، ثم انتشلوا جثة فرج وأوصلوها إلى ضفة النهر.

تعرضت بغداد لخسارة كبيرة من جراء هذه الحملة، فقد امر تيمور باستباحة المدينة، واجراء مذبحة عامة للسكان، شملت حتى الشيوخ والاطفال. وقد قدرت بعض المصادر عدد من قتل بين 90-100 الف، واعتقد بعضها الاخر أن القتل شمل سكان المدينة جميعا حتى فني اهلها، واقيمت من جماجم القتلى عدة اكداس لتكون عبرة لمن تسول له نفسه برفع راية العصيان، ورغم ما في ذلك من مبالغات فانه يدل على كثرة من قتل، وعلى مبلغ القسوة والعنف الذي مارسه اتباع تيمور، ولم يكتف تيمور بهذه المجزرة الرهيبة، بل امر اتباعه بتخريب المدينة، وتهديم العمارات والاسواق والخانات والبيوت. ولقد تعفن هواء بغداد من نتن جثث القتلى، فتركها تيمور في بداية 1401، وتوجه شمالا نحو شهرزور ومنها إلى تبريز، ولم تذكر المصادر شيئا عن الاجراءات الإدارية التي اتخذها لضبط المدينة، ويبدوا أن الفوضى عمتها بعد خروجه منها. ولم يكتف تيمور باحتلال بغداد وانما ارسل قوة عسكرية لتوجه ضربات الى المدن التي ثارت عليه ومنها الحلة التي استولوا عليها ونهبوها وخربوها. اما في واسط فقد واجهت القوات التيمورية مقاومة من قبل قبيلة عبادة في هذه المنطقة. وتعرض جيش تيمور عند انسحابه لهجوم القبائل العراقية في الشمال. وعندما بدأ تيمور زحفه في السنة التالية نحو الاناضول، انتهز السلطان احمد هذه الفرصة وغادر الاناضول متوجها إلى العراق، وقد واصل سيره على امتداد نهر الفرات، فدخل بغداد دون مقاومة، واخذ يعمل على اعادة السكان الفارين وتعمير المدينة وزراعة اراضيها، لكن قوات تيمور داهمت المدينة 1401من الجانب الشرقي، فاندهش السلطان احمد، واثر الفرار إلى الحلة ومنها إلى منطقة الاهوار والمستنقعات في القسم الأسفل من الفرات، إلاَّ أن قوات تيمور انسحبت من العراق بعد فترة قصيرة. ثم نشب صراع حول بغداد بين السلطان احمد وحليفه قره يوسف، انتهى باستيلاء الاخير عليها، بعد أن زحف عليها من الحلة، فتركها السلطان احمد في 1403، هاربا إلى بلاد الشام، أمّا قره يوسف فلم يتمتع بحكم بغداد سوى ثلاثة

اشهر، إذ قرر تيمور وضع حد لسيطرته وضم بغداد إلى نفوذه، فاسند حكم العراق لحفيده أبي بكر، وامره بان يقوم باستمالة السكان وتشجيعهم على بناء دورهم وزراعة اراضيهم، وان يعمل على اعادة تعمير المدينة واعادتها إلى ازدهارها السابق، فتقدمت قوات أبي بكر نحو بغداد، والتقت مع قوات قره يوسف عند نهر الغنم قرب الحلة، حيث اندحر قره يوسف وهرب إلى بلاد الشام أيضاً، ثم دخل أبو بكر بغداد. اما قره يوسف فقد قام بتسوية خلافاته مع السلطان احمد في المنفى. وقد استقر السلطان احمد في حلب، الى جاء امر السلطان فرج بن برقوق سلطان مصر بالقبض عليه، واعتقاله في قلعة حلب، ثم صدر امر ثاني بأرساله الى القاهرة، ثم اطلق سراحه، فرحل الى الاناضول هو وحليفه قره يوسف حيث السلطان بايزيد الاول، وبعد معركة انقرة التي تلقى فيها بايزيد هزيمة ساحقة فر الاثنان مجددا الى دمشق حيث قبض عليهما مرة اخرى، وفي السجن اتفق الحليفان ان تكون اذربيجان لقره يوسف، والعراق للسلطان احمد.

توفي تيمور في عام 1405 اثناء زحفه على الصين وتلت وفاته اندلاع الاضطرابات في ارجاء مملكته التي لم يوحدها ولم يمنعها من التفكك سوى سطوته وبطشه. كانت امبراطورية تيمور لنك التي تركها بعد وفاته واسعة الارجاء، ولكن هذا الاتساع الكبير لم يكن له تأثير على ديمومتها، اذ تعرضت للنزاعات الاسرية، ما افقدها وحدتها وقوتها، ولم تعمر سوى مائة سنة ونيف(1405-1507) وكان تيمورلنك قد عين اولاده واحفاده على الولايات المختلفة، فتمسك كل واحد منهم بما تحت يديه من املاك وحاول التوسع على حساب الاخرين. وعلى اثر الحروب الداخلية التي نشبت بينهم انحصرت التركة بين الاخوين ميران شاه، وشاه روخ، فحصل الاول مع ابنيه ابي بكر وعمر شيخ، على ايران الغربية والعراق والجزيرة الفراتية واران والكرج وارمينيا، واخذ شاه روخ خراسان وهراة وما وراء النهر. لقد كان للصراع الذي اندلع داخل الامبراطورية التيمورية قد شجع السلطان احمد وقره يوسف الى ترك الشام بعد اطلق السلطان فرج سراحهما عام 1404، واستئناف نشاطهما في العراق واذربيجان. وقد ودخل السلطان احمد بغداد في عام 1405 وطرد حاكمها التيموري دولة خواجة ايناق.

ـ الصراع على السلطة وانهيار الدولة الجلائرية(1405ـ1410).

عاد السلطان احمد الى بغداد ومن هناك ارسل حملات عسكرية الى الحلة وبعقوبة وسيطر عليها. واراد ان يفرض سيطرته على البصرة التي كانت لا تزال تحت نفوذ عرب قبان واميرهم ناصر بن محمود القباني، فارسل حملة عسكرية كبيرة لكنها فشلت من اخضاع البصرة التي ظلت السيطرة العربية هي السائدة فيها. وكرد فعل على حملة السلطان احمد على البصرة سار الشيخ ناصر بجيشه ووصل الحلة قاصدا الاشتباك مع الحاكم الجلائري الذي جمع قوات كبيرة اجبرت قوة القبائل العربية على التراجع. واتسمت السنوات اللاحقة بين(1406–1409) بالصراع العسكري بين التيموريين والقره قوينلو والجلائريين للسيطرة على العراق وبغداد بشكل خاص. ثم دخل السلطان احمد في صراع شرس مع حليف الامس قره يوسف، اذ عزم عام 1410 على السير إلى تبريز لمحاربة قره يوسف، فلما اقترب من تبريز خرج قره يوسف بقواته فالتقيا خارج المدينة، وتمكن قره يوسف من تحقيق نصر على السلطان احمد، هرب على اثره، ولكنه عثر عليه وقتل هو وولده، وسيطر قره يوسف على تبريز وغيرها.

ـ موقف القبائل العربية من الاحتلال الجلائري والغزو التيموري:

شهدت فترة الاحتلال الجلائري تصاعد وتعاظم دور القبائل العربية، فاتسعت مساحة المناطق التي تهيمن عليها في المدن والبادية والريف، وضاقت المناطق الواقعة تحت احتلال السلطة الاجنبية ولم يبق تحت هيمنتها الا بعض المدن الرئيسة فقط، وكان

ذلك يعود الى النزاعات الداخلية بين المحتلين والاخطار الخارجية التي تمثلت بالغزو التيموري اولا، والى ما كان لدى القبائل من قوات مسلحة ومنظمة وكثيرة العدد ثانيا. فقد بسط نصير بن حيار امير ال الفضل نفوذه على جهات الفرات من هيت الى الانبار، واستقر اتباعه في نواحي عين تمر وفي الكبيسات قرب الفرات، وانتعشت سطوة قبيلة خفاجة في مناطق الفرات الاوسط، وشهدت مناطق العراق الجنوبية سيطرة بني عقيل على البصرة وواسط واستولت قبيلة المنتفك العقيلية على البصرة وتولى حكمها صالح بن جولان امير هذه القبيلة. اما منطقة البطائح فقد سيطر عليها زعيم قبيلة عبادة. كما تمكنت قوى عربية قبلية من الاحتفاظ بالحلة مستقلة عن سلطة الاحتلال رغم قربها من بغداد مدة تقرب من ربع قرن(1316-1339)، وشكلت امارة عراقية اقامها الشريف احمد ابن رميثة ابن أبي نمي في الحلة، التي كانت في قلب الفرات الأوسط وحاضرة مجتمع العرب العراقي الزراعي، فقد حضي الشريف احمد بن رميثة بمنزلة سامية عند السلطان أبي سعيد، الذي فوض اليه امر عرب العراق، وبعث به مرة على راس الحج العراقي، وكان الشريف احمد يقيم بالحلة، وبعد وفاة السلطان أبي سعيد اعلن الشريف احمد استقلاله بالحلة وطرد منها حاكمها الامير علي بن الامير طالب الدلقندي، فقامت بذلك امارة عراقية كانت الأولى من نوعها منذ سقوط الدولة العباسية. وقد تمكن الشريف احمد خلال بضع سنوات من بسط نفوذ حكومته على اهم المناطق الزراعية في العراق ، وكان يجبي الاموال باسم حكومته، لذا لم يجد حسن الجلائري مناصا سوى القضاء على تلك الحكومة العربية، فوجه من بغداد عدة حملات عسكرية سيرها نحو الحلة، لكن الفشل كان نصيب تلك الحملات، إذ كانت العشائر العراقية تتصدى لتلك الحملات وترد رجالها على اعقابهم. وفي سنة (1339م) قرر الشيخ حسن الجلايري حسم امر حكومة عرب العراق بالقضاء عليها قبل أن يستفحل امرها، فجهز حملة عسكرية كبيرة قادها بنفسه وعبر الفرات من الانبار، وزحف نحو الحلة وحاصرها، حينما احتدم القتال بين الطرفين، لم يتمكن رجال العشائر العراقية الصمود امام هجمات عسكر المغول فتفرقوا، ولم يصمد مع الشريف احمد سوى عدد

قليل من رجال القبائل، كان بينهم بعض فرسان بني حسن الذين قاتلوا مع الشريف احمد حتى الموت.

ومن جهة اخرى كانت الحكومة الجلائرية نتيجة لضعفها وعدم تمكنها من توفير الحماية لقوافل الحجاج قد اضطرت الى الاستعانة بالقبائل العربية في المحافظة على طرق التجارة وقوافل الحجاج، ومساعدة امير الحج وتمكينه من صد اللصوص، وكانوا يرسلون لشيوخهم النقود والخلع وانواع الاقمشة. واعترفت الحكومة الجلائرية وهي مرغمة بنفوذ ال فضل الطائيين في المناطق الغربية من العراق، فعهد الشيخ حسن بالإمارة على عرب العراق الى حيار بن مهنا وهذه الوظيفة كانت اقرب الى الوظائف العسكرية. وشاركت القبائل العربية في القوات غير النظامية للجلائريين المحتلين التي تشكلت من افراد القبائل العربية والتركمانية والكردية وكانت الحكومة تستعين بها وقت الحرب، وبالرغم من ذلك ظلت تلك القبائل تحت قيادة امرائها، دون الخضوع لقيادة الجيش الجلائري. ولم تكن لهم رواتب مقررة بل كانوا يشاركون بدافع الحصول على الغنائم، وكان بعضهم يساهم في الحرب بناء على التزامات يتعهد بها السلطان مقابل حصوله على بعض المكاسب مثل الاقطاعات والمناصب والانعامات والغنائم وغيرها. وساهمت القبائل العربية في الوقوف بوجه غزو تيمور لنك للعراق وقاومت قواته وساعدت السلطان احمد على استعادة عرشه اكثر من مرة، وكانت اغلب القوات التي قاتل بها السلطان احمد بعد تشتت جيشه النظامي تتكون من القبائل العربية. ويعود التفاف هذه القبائل حول السلطان احمد كرهها لتيمور الذي اراد اخضاعها لسيطرته. وعندما هرب السلطان عام 1393 بعد احتلال تيمور لبغداد ووصل الى الرحبة اكرمه نعير محمد بن جبار بن مهنا امير ال فضل وانزله بيوته ومن هناك هرب الى حلب. ثم تجمع عدد كبير من افراد القبائل العربية الساكنة على الفرات وطلبوا منه العودة والتوجه الى بغداد واسترجاعها. وتمكن بمساعدتهم من طرد نائب تيمور منها. وتشير بعض المصادر ان نمير قد احتل بغداد عام 1394. وفي عام 1405 عاد السلطان احمد الى بغداد مع عدد قليل من اتباعه فجمع حوله في مواجهة الغزو التيموري القبائل ومؤيديه

القدماء في الحلة وتمكن ان يستعيد بغداد ويطرد حاكمها المعين من قبل تيمور. وبذلك يظهر ان العشائر لعبت دورا بارزا يمكن ملاحظته بوضوح سواء في مقاومتها للمحتلين أو مشاركتها في قواتهم العسكرية غير النظامية أو سيطرتها على طرق الحج والتجارة ولا يمكن ان يتأتى لها كل ذلك الا بفعل القوة العسكرية التي تمتلكها، فاضطر الجلائريين المحتلين الى طلب مساعدتها والاعتراف بهيمنتها على المناطق التي تسكنها.

ـ الإدارة في العصر الجلائري.

لقد سار الجلائريون على النظم التي كانت قائمة في البلاد ولم يضيفوا شيئاً جديدا إلى ما كان عند اسلافهم من النظم الإدارية والحضارية والاقتصادية. وبشكل عام كان الجهاز الإداري مضطربا يسوده الانحلال، ويعزى ذلك إلى الحروب بين الجلائريين والحكومات المجاورة، وهجمات تيمور لنك المتواصلة على العراق التي لم تفسح المجال للحكام في التفكير بإصلاح جدي، زيادة على عوامل اخرى منها ارتباك الإدارة وقلة الكفاءة والضبط بين الموظفين ادت دورها في عدم رسوخ السلطة الجلائرية في المدن جميعا. وكان العراق يشكل القسم الاكبر والاهم من الدولة، ومن ثم اصبحت بغداد مركزا للدواوين ومقرا للحكومة مدة اطول مما كانت عليه العاصمة تبريز، وهذا ما يوضح ازدياد اهمية بغداد في العهد الجديد، فقد كانت مقرا للسلطان الجلائري عندما يكون في العراق، أو لنائبه إن غاب عنها، ومقرا للوالي والديوان، حينما انتقلت العاصمة إلى تبريز 1358-1386.

لم تستمر التقسيمات الادارية التي كانت في العراق خلال العصر الايلخاني خلال هذا العصر، والواقع انها اضمحلت منذ العهد الايلخاني، فقد استغل ولاة بغداد سلطاتهم في ابتزاز الاموال لاسترضاء السلطان واهملوا شؤون الادارة، وعملت الفتن وحوادث الشغب بين الموظفين الى عدم ثباتهم، يضاف الى ذلك ان تولية المنصب الاداري لم يكن

يلتزم نسقا ثابتا بل عرضة للأهواء الشخصية. ان عدم وجود مصادر مدونة عن العهد الجلائري، أو انها دونت لكنها لم تصل الينا جعلنا نجهل الكثير عن مناطق الادارة وطريقة ادارتها. ولكننا نستطيع القول ان نفوذ السلطان عندما يكون مقره في بغداد كان يشمل الولايات الثلاثة وهي العراق العربي وديار بكر وكردستان، وكانت الولايتان الاخيرتان تدار من قبل الحكام الذين يعينهم السلطان مباشرة أو من قبل بعض الاسر وامراء القبائل الموالية له. لقد كانت سلطة والي بغداد محدودة وليس له أي سلطة ادارية أو غيرها على الولايات الاخرى، ويكون ارتباطها بالعاصمة تبريز. وكان السلطان يعين الحكام على جميع الولايات التابعة له، وكان لكل من العراق العربي وديار بكر وكردستان حاكم خاص. وكان على رأس الادارة في الولاية موظف يسمى الوالي أو الحاكم أو الامير، وكانت كل ولاية تضم مجموعة من المدن يتبع كلا منها عدد من القرى والارياف، ويقال للمدينة وتوابعها اعمال. وكانت مساحة هذه الاعمال وعدد القرى التابعة لها غير ثابتة، ولم يكن تقسيمها يستند على اسس طبيعية أو جغرافية، بل كانت تحدد لتحقيق اغراض اقتصادية منها جباية الضرائب والموارد الحكومية. وان اخبار حكام هذه المدن وموظفي ادارتها والعلاقة بينهم وبين حكام المدن والقرى الصغيرة التابعة لهم غامضة، ولم يصلنا شيئا منها.

لقد شاع خلال حكم الجلائريين، اسلوب الإدارة بطريقة (المقاطعات والضمان)، وبموجبه يفوض الديوان حكم احدى الولايات أو المدن إلى (الضامن) وعادة يكون صدر الديوان (الوزير) في الولاية أو الحاكم، مقابل تأدية مبلغ معين من المال، ويقوم الحاكم باستحصال الضرائب المقررة في منطقته محتفظا بالزيادة لنفسه، وكانت تناط بالضامن بموجب هذا النظام شؤون الولاية ولاسيما اقرار الامن وتشجيع الزراعة، وهو مسؤول عن تعيين عمال أو نواب عنه في المدن الواقعة في منطقة الضمان، واتبعت طريقة اخرى تقوم على إدارة الولايات بما عرف بـ(أمانت) وبموجبها يعهد إلى أحد المقربين من السلطان أو حكام الاطراف بحكم احدى المناطق والمدن بشكل (عهدة أو امانة) مدة معينة، وله راتب من الديوان، ويكون على هذا المسؤول ضبط الامن والنظام في منطقته، وفي كل منطقة

ادارية من مناطق البلاد، وفي كل مدينة، ديوان خاص أو عدد من الموظفين يمثلون ديوان بغداد عرفوا باسم الحكام أو المتصرفين والعمال. أمّا السلطة العسكرية في بغداد وبقية مدن العراق، فكان على راسها موظف يسمى (داروغة) - وتعني الرئيس أو الحافظ- وهو في سلطته وصلاحياته اشبه بالحاكم العسكري في العصر الحاضر، ويساعده في اعماله الشحنة.

لقد برزت في هذا العصر عدد من الدواوين وهي:

ديوان السلطنة: وهو من اهم الدواوين، ويسمى رئيسه نائب الديوان، وعمله مراقبة وتنظيم الاعمال الخارجية والداخلية في البلاط، ويعنى بالأمور المرتبطة بالسلطان واهله واملاكهم وشؤونهم، وكان للسلطان واسرته أملاك واسعة في البلاد يعين عليها وكلاء ونظار يتولون إدارة شؤنها، ويرسلون العوائد إلى السلطان.

الديوان الكبير أو ديوان الوزارة: كان السلطان يختار الوزير، ويصدر مرسوما بتعيينه ولقد اخذ الجلائريون بنظام الوزير الواحد.

ديوان الاستيفاء: وهو يتبع الديوان الكبير، ويرأسه مستوفي الملك الذي يختاره السلطان والمستوفي موظف من كتاب الأموال والدواوين، عمله ضبط الديوان التابع له، والتنبيه على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله، ونحو ذلك ومن المستوفين: مستوفي الصحبة، وهو يشارك الوزير ويعاونه في الامور العامة، مثل كتابة المراسيم وتسجيلها، ومثله في النفوذ مستوفي الدولة، ولكل ديوان من دواوين الدولة ناظر وتحته المستوفي. ويقوم المستوفي بضبط مصادر المال وكيفية الدخل ووجوه الانفاق، وله نواب ينتشرون في جميع انحاء البلاد لإدارة الشؤون المالية بها. ويشرف ديوان الاستيفاء على امور الموظفين في مختلف الدواوين وترعى الحكومة امور موظفيها في حياتهم، وبعد مماتهم تقوم برعاية اولادهم.

ديوان الاشراف: ويسمى رئيسه مشرف الممالك، ويختاره السلطان ويكون مطلعا على كل الاعمال، وتحت رئاسته عدد من المشرفين الذين يشغلون بالنظر في الدواوين المختلفة، ويطلعون الحكومة على اخبار الموظفين واعمالهم.

ديوان الغ بيتكجي: ليس لدينا معلومات كافية عنه، ورئيس هذا الديوان هو مثل سائر رؤساء الدواوين الاخرى يختاره السلطان، ومهمة هذا الديوان هو النظر في الامور المالية.

ديوان الانشاء: وهو واحد من اهم دواوين المملكة يدون ويجمع كل القرارات والوثائق السياسية والادارية ووسائل السلاطين والوزراء وسائر الشخصيات الهامة.

ديوان النظر: ووظيفة هذا الديوان مثل ديوان الاستيفاء والاشراف بشان التفتيش على مختلف الامور، ويعتبر مكملا لهما، ويقوم هذا الديوان بضبط امور الديوان الكبير وتدبير المال وتمويل الخزانة ونفقات الامراء واصحاب الديوان، وله نواب ينتشرون في مختلف الولايات، ويسمى عمالته نظار. والنظار يشاركون الوزير في اعماله، ولقد تنوعت القاب هؤلاء بحسب الاعمال التي ألت إليهم، فناظر الجيش هو الذي يعنى بأموال الجيش، وينظر في حسابها، وناظر الخاص هو الذي ينظر في خاص اموال السلطان، وناظر الدولة عمله مشاركة الوزير في التصرف عامة والنظر في المالية وارزاق اصحاب القلم من الموظفين خاصة واسمه أيضاً ناظر الدواوين، وهناك احيانا ناظر النظار أو صاحب الشريف، ومقره ديوان النظر، ويعاونه في اعماله متولي الديوان، وهو ثاني رتبة الناظر.

ديوان القضاء: كان القضاء حسب الشريعة الاسلامية بالنسبة للمسلمين، وحسب القوانين المغولية بالنسبة للمغول. وكانت اللغة العربية مستخدمة في كل القوانين إلى أن جاء الجلائريون فجعلوا القوانين باللغة التي يتحدث بها اهل الولاية أو الاقليم، فاستخدمت اللغة العربية بالنسبة للبلاد التي تنتشر فيها العربية، واللغة الفارسية بالنسبة للنواحي التي تنتشر فيها الفارسية، واللغة المغولية بالنسبة للقبائل المغولية. وتمركزت التشكيلات القضائية في جميع انحاء المملكة تحت اشراف ديوان القضاة.

بلا شك أن الحروب والمنازعات الكثيرة كان لها اثر كبير على الناحية الاقتصادية في البلاد، فقد فرض الحكام الضرائب حتى يتمكنوا من تغطية نفقات الجيوش التي كانوا يخوضون بها حروبهم ومعاركهم، وقد اتاح هذا الوضع لموظفي الدولة ممارسة الظلم في معاملة الناس وتحصيل اكبر قدر ممكن من الاموال لمنفعتهم الشخصية.

والضرائب التي كانت تحصل نوعان:

1. ضرائب مقررة: وهي تحصل بواسطة ديوان الاستيفاء، وتشكل عائدا لخزانة الديوان.
2. ضرائب شرعية: وهي تحصل بواسطة رجال الدين، وتشكل عائدا لبيت المال.

هذا فضلا عن ضرائب اخرى تتمثل في الهدايا والرشاوى التي كانت تقدم للمحصلين على هيئة عينية أو نقدية. كما كانت ضرائب التمغاجي على النجارين والحدادين والحوانيت، وهي تجبى بواسطة حكام التمغا كما كانوا يسمون في العصر الايلخاني وما بعده.

لم تدم حقبة الاستقرار التي شهدها الحكم الجلائري طويلا، ودخلت البلاد عهد من الاضطراب والفتن وتسلط الامراء على شؤون الحكم، وتحول العراق إلى ميدان للحروب الاهلية كانت فاتحتها اندلاع النزاع بين السلطان جلال الدين حسين (1384-1392) واخويه الشيخ علي حاكم بغداد، واحمد حاكم البصرة، وتواصل النزاع حتى بعد مصرع السلطان، واشترك فيه الاخ الرابع بايزيد، وما أن تمت التسوية في 1383م بمقتل الشيخ علي واقتسام ممتلكات الدولة بين بايزيد وله منطقة الجبال، والسلطان احمد الذي تملك منطقة العراق حتى تعرضت البلاد إلى تهديد خطير نتيجة الغزوات التيمورية للعراق، وكان على بغداد أن تواجه عدة هجمات في اوقات متقاربة 1393و 1401-1402)، وتمخضت عن ذلك نتائج سلبية في اوضاع العراق السياسية والاقتصادية والاجتماعية والادارية، فقد اودى الصراع الاسري الجلائري، ثم الغزو التيموري بحياة عدد كبير من الناس، وتسبب في تشريد عدد اخر وتهجير اصحاب الخبرات العلمية والحرفية إلى بلاد ما وراء النهر، ورافق ذلك اضطراب كبير كان له تأثير كبير في تدهور النشاطات الاقتصادية والفكرية والعمرانية، واضطربت الإدارة، وفقدت السلطة سيطرتها على كثير من المدن التي اعلنت استقلالها وصار نفوذ السلطان الجلائري لا يتعدى المدن القريبة من بغداد، ونتيجة للتدهور الاقتصادي، وقلة موارد الدولة، كان السلطان يمنح إدارة هذه المدن إلى ابنائه وامرائه الذين يطمئن لولائهم، وشمل هذا النمط من الإدارة الذي هو ضرب من ضروب الاقطاع، مدن

الحلة ومندلي وبعقوبة وتكريت وغيرها. وكما اتسم الجهاز الإداري في العهد الجلائري في مراحله الاخيرة عامة، بالضعف والارتباك وقلة كفاية الموظفين وانعدام الضبط بينهم، وعجز في اوقات كثير عن توفير الامن وحماية الطرق خارج المدن الكبيرة، وافتقد المواطنون الحماية، وتعرضوا في حالات كثيرة إلى النهب وهجمات قطاع الطرق، ولم يشرك الجلائريون سكان البلاد في الإدارة، فلا عجب أن ينهار حكم هذه السلالة على يد قوة تركمانية عرفت باسم دولة الخروف الاسود (قره قوينلو)، حينما نجح زعيمها قره يوسف في دحر السلطان احمد الجلائري الذي لقي مصرعه وهو يحاول الفرار في 831هـ– 1410م وفي السنة التالية دخلت قوات قره يوسف بغداد.

ـ الاوضاع العامة في العراق خلال العصر الجلائري.

رغم الاستقرار الظاهري في العراق خلال العصر الجلائري الا ان الاوضاع بشكل عام سيئة ولاسيما بعد نهاية عهد السلطان اويس إذ ساءت احوال العراق بشكل كبير وهو امر راجع كما قلنا إلى الصراع بين الامراء الجلائريين من جهة والغزوات التيمورية من جهة اخرى. فضلا عن الضرائب الثقيلة قد ساهمت في تدمير الاقتصاد في العراق خلال هذا العصر. وما ساهم ايضا في تخريب الحالة الاقتصادية هي تلك الكوارث الطبيعية التي حدثت في ايران والعراق، منها على سبيل المثال لا الحصر هجوم الجراد وانتشار الوباء ما بين (1341–1343) وما تبع ذلك من غلاء فاحش في الاسعار، ثم عودة الوباء مرة اخرى إلى هذه المنطقة (1354).كما فاض نهر دجلة عام (1354) وتهدمت معظم مباني بغداد واصبحت خرابا، وكما غرقت بغداد مرة اخرى في سنة (1373). وقد حاولت الحكومة التخفيف عن الناس بدفع التعويضات لهم وسن التشريعات والقوانين للضرب على ايدي اللصوص والعابثين والخارجين على القانون، إلاَّ أن ذلك لم يخفف مما كان يعانيه الناس

حيث كانت الحالة السياسية مضطربة والتي اثرت بتبعاتها على تدهور الاوضاع بصورة عامة في العراق.

لقد اقتصرت نظرة السلاطين الجلائريين في العراق إلى الريف على انه مصدر ثروة يمكن استثمارها في تمويل عملياتهم العسكرية ودفع نفقات جيوشهم الاجنبية، فوزع المغول، منذ مطلع القرن الرابع عشر، اراضي العراق على جنودهم بدل رواتبهم، ولكنهم احتفظوا -جريا على التقاليد الاسلامية- برقبة الارض للدولة، بيد انه حدث في عهد السيطرة الجلائرية أن اخذ نوع من الاقطاع ينتشر، ولو بحدود ضيقة، عرف باسم (الادرار) وهو يمنح على سبيل الهبة للأشخاص الذين يقدمون للدولة خدمات معينة، ولا يشترط أن يكونوا من العسكريين، ليكون بمثابة راتب لهم، وهناك ما عرف بأقطاع (ادرار مقاصة)، فبموجب هذا الاقطاع تبقى الارض أو القرية ملكا مؤبدا لصاحبها ولذريته من بعده، ولا يدفع عنها اية ضرائب. والى جانب هذا النوع بقيت بعض النظم الاقطاعية القديمة، مثل الاقطاع المستند إلى احياء الارض الموات، وبموجبه تصبح الارض ملكا لمستصلح الارض ولذريته من بعده، وتعرف باسم (القرار الشمسي)، كما استمر الحفاظ على الملكيات الموقوفة على المساجد والمدارس، غالبا، وتعد وقفية الخواجة امين الدين مرجان على منشاته التي اقامها ببغداد من اضخم الوقفات المعروفة في تاريخ العراق وادقها. وفي جانب الزراعة لم يهتم الجلائريون بالنشاط الزراعي إلاَّ بما يكفي لإعاشة قواتهم، ولذلك اقتصرت عنايتهم على بغداد والمناطق المحيطة بها حتى أن هذه المنطقة دفعت سنة (1363) نصف مجموع موارد العراق آنذاك، مما دل على إن النشاط الزراعي اخذ، في هذه الحقبة، بالانحسار إلى المناطق القريبة من المدن الرئيسة طلبا للأمن والحماية، أمّا اصلاح الانهار وتطهيرها وزيادة الرقعة الزراعية فلم تلق من اولئك الغزاة اهتماما إلاَّ في حالات نادرة.

لا نمتلك الكثير عن الحياة الثقافية خلال هذا العصر ولكن يمكن القول بشكل عام انه كانت توجد في هذا العصر مدارس كثيرة جيدة التحق بها تلاميذ لديهم ميل لتلقي العلوم والمعارف المختلفة على ايدي اساتذة كبار، قاموا بالتدريس لهم، وكانت بغداد على وجه

الخصوص مركزا للعلوم والادب، ومن اهم المدارس التي كانت موجودة فيها هي: المدرسة المسعودية الذي امر بتشييدها خواجة مسعود بن منصور زمن السلطان احمد، والايكجية التي ربما كانت مدرسة التي امرت ببنائها مخدومة شاه داية السلطان وتلقب ايكجي في عام 1361، والمدرسة الاسماعيلية التي امر ببنائها وزير بغداد اسماعيل، والمدرسة الوفائية التي بنيت من قبل وفاء خاتون حوالي عام 1400، وهناك ايضا مدارس المرجانية – العاقولي – جامع سراج الدين – جامع النعماني – سيد سلطان علي وغيرها.

لقد شهد بدء العهد الجلائري في العراق نوعا من الاستقرار ادى الى تزايد الحركة العمرانية لاسيما في زمن والي بغداد امين الدين مرجان الذي قام بتشييد كل من المدرسة المرجانية وخان مرجان ودار الشفاء في بغداد. ويعد خان مرجان من اجمل الخانات العراقية المتبقية ويتكون من طابقين الاول يحتوي على 22 غرفة، والثاني من 23 غرفة. كما اهتم الجلائريون بالمشهد الكاظمي فقد قام السلطان اويس بتعمير المشهد فبنى قبتين ومنارتين، وامر بوضع صندوقين من الرخام الجيد على القبرين الشريفين، وزين الحرم بالطابوق الكاشاني الذي كتب عليه سور من القران المجيد كما عمر الرواق.

لم يقتصر النشاط المعماري خلال هذه الفترة على بغداد فقط بل تعداها الى كل من الكوفة وكربلاء والنجف حيث ينسب للجلائريين بناء بعض العتبات المقدسة وبناء منارة ومدخل مسجد الكوفة القديم. ويرد في المصادر التي تؤرخ لهذا العصر الكثير من الابنية والعمارات التي بنيت من قبل بعض الحكام المحليين، كذلك تنسب الى السلطان احمد تشييد قلعة في الجانب الغربي من بغداد تسمى قلعة الامير احمد، وقام كذلك بتشييد خان يعرف بالقلندر خانة أو خان القلندرية بناه لمجموعة من المتصوفين الذين يعرفون بهذا الاسم برزت طريقتهم في القرن الثالث عشر الميلادي. وترد في المصادر التي تورد حوادث هذا العصر اسماء عمارات وابنية لم تصل الينا اخبار بنائها ولا اماكن انشائها بصورة مضبوطة مثل الاربعيني ودار العبادة اللؤلؤية بالجانب الشرقي من بغداد.

ـ العراق في عهد سيطرة القره قوينلو(1411ـ1467).

بعد انهيار سلطة الايلخانات في ايران في عام 1335 توزعت املاكهم بين الاسر المغولية ومن بينها الاسرة الجلائرية التي استقلت في العراق بزعامة شيخ حسن الكبير واتخذت بغداد حاضرة لها، كما برز التركمان الذين تدفقوا على غربي اسيا بسبب الضغط المغولي قادمين من خوارزم واطراف بحيرة ارال وشرقي بحر قزوين، والخزر، استقروا في الشمال الغربي، وشمالي الجزيرة الفراتية، واستغلوا ضعف ايلخانات ايران بعد وفاة الايلخان ابي سعيد بهادر في عام 1335 فاخذوا يغيرون على مناطق الاطراف. واشهر هذه القبائل التركمانية التي ادت دورا فاعلا في الحياة السياسية قبيلتان هما القره قوينلو بزعامة قره يوسف بن قره محمد، والاق قوينلو بزعامة اوزون حسن.

كانت قبيلة القره قوينلو(الخروف الاسود) يطلق عليها اسم البارانية نسبة الى قبائل الغز التركمانية التي نزحت من تركستان الغربية الى جهات اذربيجان وسيواس في اواخر القرن الثالث عشر الميلادي وتحديدا في عهد الايلخان المغولي ارغون(1284–1292)، وتمكنت من اقامة كيان سياسي لها في جنوب شرق الاناضول في الاراضي الواقعة شمالي بحيرة وان في ارمينية، على تخوم السلطنة المملوكية، ومملكة طرابزون المسيحية في جهات ارمينيا والبحر الاسود واتخذت ارغيش الواقعة في شمالي شرقي البحيرة عاصمة لها، وشاع اسمها قره قوينلو واصبح اصطلاحا خاصا بها لاشتهارها باقتناء الخروف الاسود، أو لان رايتها تحمل شارة خروف اسود. وتشير المصادر التاريخية الى ان عشيرة بهارلو، وهي بطن من قبيلة قره قوينلو اشتهرت بصرامة رجالها وشدة بأسهم، وتولى رؤسائها الزعامة بين القره قوينلو، وكان بيرم خواجة بن تورمش اول امراء القره قوينلو الذي تعاظمت شأن القبيلة في

عهده، وقد نجح في توسيع حدود دولته بحكم اتصاله بالسلطان معز الدين اويس الجلائري، ووضع خدماته تحت تصرفه عام 1373، وعلى اثر وفاة هذا السلطان عمت الفوضى وشاعت الفتن والاضطرابات، فانتهز بيرام الفرصة واستولى على الموصل بعد حصار دام اربعة اشهر ثم احتل سنجار، وارغيش، واونيك عام 1374، وبعد وفاته عام 1381، خلفه في زعامة الامارة الناشئة اخوه مراد خواجة لمدة قليلة، فلما توفي تولى الزعامة تورمش بن بيرام خواجة، ثم ولده قره محمد، وقد اشتبك في حرب مع حاكم ماردين المدعو القاهر. وقد استمرت القره قوينلو في عهده في تقديم الخدمات للجلائريين في عهد السلطان احمد الجلائري الذي كان بأمس الحاجة الى قوتهم، وذلك لاستخدامهم في مواجهة التيموريين ومعالجة الاوضاع المضطربة في بغداد، وكان قره محمد قد زوج ابنته الى السلطان احمد الجلائري، وقد ارسله الاخير للقضاء على تمرد اخيه الشيخ علي عندما اعلن سلطنته على بغداد، كما انتهز فرصة الفوضى التي احدثتها حملة تيمور لنك على ايران فاستولى على تبريز وعين ولده مصر خواجه حاكما عليها، ولكن عودة تيمور الى ايران عام 1387 ادت الى فرار قره محمد، الذي دفع حياته ثمنا لتبعيته للدولة الجلائرية، اذ قتل في معركة ضد تيمور لنك جرت قرب تبريز عام 1389. غير ان موقف القره قوينلو من الجلائريين لم يتغير اذ استمر الامير الجديد قره يوسف بن قره محمد في مساندة السلطان احمد ضد التيموريين.

مرت على الامارة ابان الغزوات التيمورية في اواخر القرن الرابع عشر سلسلة من الانتكاسات، فقد واجه قره يوسف بن قره محمد في اوائل عهده خطر تيمورلنك الزاحف الى غربي اسيا للقضاء على نفوذ الحكام المحليين ومنهم قره يوسف(1390-1420) نفسه والسلطان احمد الجلائري في العراق، فتحالف الزعيمان لمقاومته، غير انهما لم يصمدا طويلا في وجهه واضطرا الى الفرار الى الاناضول للاحتماء بالسلطان العثماني بايزيد الاول(1389-1403). فدخل تيمورلنك العراق في عام 1398 وكان قد سيطر على خراسان ومازندران وكردستان واذربيجان وشروان وارمينيا وارزن الروم وارزنجان. ثم تمكن من السيطرة مؤقتا على بغداد في عام 1402، ولكنه اجبر الى الفرار الى الشام مع حليفه

احمد الجلائري، ثم توجها الى مصر لطلب المساعدة من السلطان الناصر فرج بن برقوق(1399-1412) الا انه قبض عليهما وزجهما في السجن حرصا على صداقته مع تيمور لنك.

بعد وفاة تيمور لنك، فقد اطلق الناصر فرج سراح قره يوسف زعيم قبيلة القره قوينلو مع حليفه احمد الجلائري، فتوجه قره يوسف في تشرين الاول 1406 على رأس الف مقاتل الى اذربيجان للسيطرة عليها، وكانت تحت حكم ابي بكر ميرزا بن ميران شاه، واستولى في طريقه على قلاع عدة انتزعها من القادة التيموريين، فاصطدم به بالقرب من نخجوان وانتصر عليه وانتزع منه مدينة تبريز وطارده حتى جرجان وهزمه ثانية، وقتل ابي بكر ميرزا في المعركة وسيطر قره يوسف على كامل اذربيجان. وبعد عامين تمكن قره يوسف من تحقيق نصر كبير على ميران شاه في معركة انتهت بمقتله. عقب ذلك هاجم قره عثمان الباينديري زعيم الاق قوينلو وانتصر عليه، وضم ديار بكر الى املاكه واحتل الموصل خلال عامي 1408-1409. وسرعان ما اندلع الصراع بين حلفاء الامس، اذ لم تعد امارة القره قوينلو ترى فائدة من تبعيتها للدولة الجلائرية، اذ ان دائرة نشاطها العسكري امتد ليشمل اجزاء مهمة من المناطق الخاضعة لنفوذ الدولة الجلائرية حتى انه عند وفاة تيمور لنك وعودة السلطان احمد الى بغداد كانت حدود الامارة قد اتسعت لتشمل اراض تمتد من اذربيجان الى ماردين والموصل، الامر الذي دفع السلطان احمد الى التفكير في تقليص نفوذهم لاسيما وان الظروف السياسية الجديدة التي اعقبت مصرع تيمور لنك قد حكمت على الدولة التيمورية بالزوال وجعلت السلطان احمد لا يعبأ بالقوة العسكرية التي كانت تمده بها امارة القره قوينلو كما ان السلطان احمد كان يخشى من ان يتطور نفوذ القره قوينلو فيهدد مركزه في العراق ويؤذن بنهاية الحكم الجلائري. وهكذا شن السلطان احمد هجوما عام 1410 على القره قوينلو في جهات اذربيجان، غير ان قره يوسف وجموع القره قوينلو تمكنوا من الحاق هزيمة بالسلطان وجيشه، وقد اسر السلطان نفسه مع عدد كبير من قادته واتباعه، فامر قره يوسف بقتله لتنكره ونسيانه الجميل الذي اسداه القره قوينلو اثناء الغزو التيموري للدولة الجلائرية، ثم الحق به

من تبقى من قادته واتباعه، فالت الى القره قوينلو ممتلكات الجلائريين في جهات اذربيجان واهمها تبريز والسلطانية.

بعد القضاء على السلطان احمد بعث قره يوسف ابنه محمد شاه الى بغداد، وكانت قد الت حكومتها الجلائرية الى صبي يعرف بشاه محمود بن شاه ولد وهو حفيد السلطان اويس الجلائري، وكانت زوجة والده دوندو خاتون صاحب السلطة الفعلية في بغداد، وكان جل اهتمامها هو حماية العرش الجلائري والتشبث في حكم بغداد قدر الامكان. وقد ابتدعت حيلة من اجل ابعاد خطر القره قوينلو، اذ اوعزت الى احد الامراء المنقادين لها وهو بخشايش ليتولى حكومة بغداد موعزة له الترويج الى ان السلطان احمد مختبئ في بغداد وانه سوف يظهر بعد حين، وكانت الاشاعات قد دارت حول هزيمته ومقتله. ويبدو ان الترويج لفكرة اختفاء السلطان في بغداد كانت تجد اذانا صاغية من قبل بعض السكان، وقد انقسم سكان بغداد في وسط هذا الجو المشحون بالقلق والاضطراب بين مصدق ومكذب لفكرة بقاء السلطان حيا، بينما كانت حملة الشاه محمد في طريقها الى بغداد، وقد طلب بخشايش من دوندو خاتون ان تزوجه ابنتها. ويبدو ان بخشايش الذي وجد في هذه الظروف فرصة سانحة للاستئثار بعرش السلطنة عن طريق الزواج بأميرة من الاسرة الجلائرية، فضلا عن ذلك اراد ان يضمن ابقاء دوندو خاتون بجانبه حتى الفصل الاخير من اللعبة التي خططا لها سوية. ولم يكن امام دوندو خاتون التي احيطت علما باقتراب الحملة من بغداد غير التظاهر بالموافقة، ثم عملت على اغتياله. ويبدو ان عبد الرحيم بن الملاح الحاكم الجديد لبغداد الذي شعر بالزهو لاستلامه مقاليد الحكومة، اخذ يروج بحماس لفكرة اختفاء السلطان، ثم اصدر الاوامر بتزيين بغداد اجمل زينة على شرف خروج السلطان احمد من المكان الذي يختبئ فيه. ويبدو ان مسألة الاشاعة التي راجت في بغداد بكون السلطان احمد ما زال حيا، كانت تستهدف ايهام الشاه محمد بقوة هذه المدينة، بحيث اضطر الى الانسحاب منها لفترة محدودة ومن ثم العودة اليها. وبينما كان البغداديون منهمكين في تزيين بغداد انسلت دوندو خاتون ليلا مع افراد اسرتها واموالها من بغداد نظرا لإدراكها استحالة الوقوف بوجه حملة

محمد شاه، فاتجهت بسفينة الى واسط ومنها الى شوشتر متجنبة الوقوع بيد القره قوينلو الذين دخلوا بعد بضعة ايام بغداد عام 1411. وتبدو مشاعر الغضب ازاء ما حصل في بغداد واضحة في سلوكه تجاه الجماعة التي اشاعت فكرة بقاء السلطان احمد حيا وقرب ظهوره، اذ طلب قائمة بأسماء كادت تستوعب معظم وجهاء بغداد الامر الذي جعل الشاه محمد يتردد في معاقبتهم جميعا واكتفى بقتل الشيخ احمد السهروردي باعتباره على رأس المروجين لتلك الاشاعة. تولى محمد شاه حكم بغداد متمتعا باستقلال اداري واسع طوال ولايته التي دامت 23 عاما، وقد قام بدوره بتوزيع المناصب لأقربائه في اهم المدن العراقية على شكل اقطاعيات استغلال(اولكة). وقد تدهور الوضع السياسي في العراق بعد احتلال الشاه محمد لمدينة بغداد، وذلك لان سلطة القره قوينلو لم تكن تشمل الا بعض المراكز المهمة، ففي الوقت الذي كان للقره قوينلو حكام على مدن كركوك واربيل والموصل وداقوق والدجيل، فان باقي انحاء العراق ظلت بيد حكامها المحليين أو بيد حكام الاسرة الجلائرية السابقة، وقد نازع هؤلاء جميعا سلطة القره قوينلو، التي اتسمت بالضعف.

اما قره يوسف فقد واصل عملياته العسكرية خلال عامي 1412-1414، فاتجه شمالا وهاجم شروان، والكرج، وسيطر على سلطانية وساوه وقزوين وطارم، ثم تقدم باتجاه الغرب حتى وصل الى حلب. ونعرف انه اضطر الى مهاجمة العراق مرة ثانية عندما امتنع ابنه شاه محمد عن تقديم الاموال المترتبة على حكومته فحاصرها في عام 1418 واجبر ابنه على تسليم الاموال. من جانب اخر وضعت الرغبة في التوسع قره يوسف وجها لوجه امام شاه روخ الحاكم التيموري على خراسان، بفعل تجاور املاكهما، وقد خشي شاه روخ من امتداد النفوذ التركماني الى اراضيه، فنهض للقضاء على قره يوسف، غير ان مرضا الم به وتوفي عام 1420.

بعد وفاة قره يوسف بدأت المنافسة على اشدها بين ولديه اذ سعى اسكندر للسيطرة على تبريز، بينما كان اسبان يطمح الى انتزاع بغداد من اخيه محمد شاه وقد تمكن من تحقيق ذلك لاحقا. ونتيجة سيطرة اسكندر على اذربيجان اضطر الى مواجهة الامبراطورية التيمورية، وكان شاه روخ يتقدم باتجاه اذربيجان، وجرى اللقاء الدامي بينهما في عام 1420،

اسفر عن انتصار شاه روخ، وفر اسكندر مع اخيه جيهان شاه من ارض المعركة، ودخل القائد التيموري اذربيجان، وبعد ان رتب اوضاعها عاد الى خراسان. استغل اسكندر عودة شاه روخ الى بلاده، فجمع قواته وهاجم الحاميات التيمورية في اذربيجان، فطردها واستعاد البلاد، وهاجم شروان وأران وبلاد الاكراد، واستولى على السلطانية التابعة لشاه روخ في عام 1429، فاضطر الحاكم التيموري للعودة الى اذربيجان للمرة الثانية لتأديب اسكندر، فاصطدم به في سلماس في اذربيجان، وعلى الرغم من استبسال الامير التركماني الا انه تعرض لهزيمة قاسية، وفر من ارض المعركة باتجاه الاناضول، وعاد شاه روخ بعد انتصاره الى خراسان. وفي الوقت الذي كان اسكندر يقارع بقايا الامبراطورية التيمورية اندلع الصراع على العراق، ففي عام 1421 راسل اكثر وجهاء بغداد السلطان اويس الثاني الجلائري الذي كان يحكم شوشتر من اجل استعادة بغداد وبالفعل قدم هذا وحاصرها، الا ان امر المراسلة قد انكشف فامر محمد شاه بالقبض على جميع من لهم علاقة بها وعددهم احد عشر شخصا، وقتلهم، اما اويس الثاني فقد فشل هجومه وقتل. هذا ولم ينجو العراق من هجمات الامبراطورية التيمورية، ففي عام 1434 ارسل ابراهيم بن شاه روخ الذي كان حاكما على شيراز من قبل والده جيشا الى البصرة للسيطرة عليها، ووقعت معركة بين اهالي البصرة والقوات التيمورية التي هزمت فيها وتراجعت. ثم تعرضت بغداد الى هجوم واسع في العام نفسه شنه اسبان بن قره يوسف في محاولة لانتزاع الولاية من اخيه محمد شاه، وبعد معارك طاحنة سيطر اسبان على بغداد والحلة وواسط، وهرب محمد شاه ثم قتل. وحكم اسبان بغداد بصورة مستقلة عشر سنوات حتى وفاته في عام 1444. وقد اراد اسبان السيطرة على اربيل فارسل حملة حاصرت المدينة، فلما عجز عن احتلال القلعة، ارسل بعض جنوده اليها بحجة هروبهم منه، وارسل معهم سماً ليرمونه في ابار القلعة، ففعلوا ذلك، مما ادى الى وفاة عدد كبير من الناس نتيجة تسميم مياه الابار مما سهل عليه احتلال القلعة.

اما اسكندر فقد واجه حملة ثالثة من قبل شاه روخ في عام 1435 نتيجة استعادته لأذربيجان مرة ثانية. ولكن انضمام جيهان شاه وبعض امراء القره قوينلو الى صفوف

التيموريين، بعد فشل اسكندر في حسم الصراع لصالحه مع شاه روخ، اجبر اسكندر على الفرار من امامه من دون قتال، متوجها الى الاناضول للاحتماء بالعثمانيين، وقد تصدى له قره عثمان البايندري قرب ارزنجان لقطع الطريق عليه، لكنه جرح في القتال الذي جرى بينهما وتوفي على اثرها في اب 1435. وقد استاء اسكندر من انقلاب اخيه عليه وانضمامه الى شاه روخ فهاجمه الا انه تعرض للهزيمة وفر الى نخجوان، حيث قتل على يد ابنه قباذ في عام 1437. خلفه اخاه جيهان شاه، الذي وصلت امارة القره قوينلو في عهده الى ذروة قوتها، وكان تابعا لشاه روخ الذي اضاف اليه حكم فارس وكرمان والعراق، الذي يحكمه فولاذ ابن اسبان، فقاد جيهان شاه جيشه وحاصر بغداد في عام 1445 مدة ستة اشهر تمكن في نهايتها من دخولها فخربها وسجن فولاذ الذي لم يلبث ان توفي في سجنه، وقد ربطت بغداد مباشرة بتبريز، ووليها ابن السلطان جيهان شاه محمدي ميرزا(1447–1449) ، ثم حكمها بعده ابنه الاخر بير بوداق(1449–1467). وكانت وفاة الحاكم التيموري في عام 1447 قد غيرت الاوضاع السياسية في المنطقة، فقد اعلن جيهان شاه استقلاله عن التيموريين، وتمسك بما تحت يده من املاك، واراد ان يتوسع على حسابهم، فزحف شرقا واستولى على سلطانية وقزوين واصفهان في عام 1452 وفارس وكرمان في العام التالي وتلقب بلقب سلطان وخاقان، ثم استولى على هراة عاصمة التيموريين في عام 1458، غير انه توقف عن الزحف فجأة، ويعود السبب في ذلك الى ان توسع جيهان شاه اثار ضده كلا من ابي سعيد بن شاه روخ الذي نهض من تركستان على رأس جيش كبير لاستعادة املاك التيموريين ولاسيما العاصمة هراة، واوزون حسن زعيم الاق قوينلو الذي خشي من ان يهدد جيهان شاه املاكه في ديار بكر. وواجه جيهان شاه خطرا ثالثا تمثل بثورة ابنيه حسن علي في اذربيجان، وبير بوداق حاكم فارس والعراق، وكان قد استولى على بغداد واعلن ثورته منها. وهكذا وقع جيهان شاه بين فكي كماشة، التيموريين من الغرب والاق قوينلو من الشرق، فاضطر عن التوقف عن متابعة الزحف للاستعداد لمواجهة هذه الاخطار. وقد عمل جيهان شاه على تصفية مشاكله مع ابي سعيد فعقد صلحا معه تنازل له بموجبه عن خراسان وعاد الى تبريز.

لقد شجع الصراع المتواصل بين القره قوينلو وبقايا الامبراطورية التيمورية، بير بوداق على الاستقلال عن حكم ابيه السلطان جيهان شاه، وكان بير بوداق قد اظهر طموحا كبيرا لمد نفوذه على اجزاء اخرى من ممتلكات القره قوينلو، دفعه للإغارة على مناطق تعد اداريا ضمن نفوذ امراء اخرين من عائلة القره قوينلو. كما انه لم يتوان عن الزحف الى تبريز منتهزا فرصة غياب ابيه جيهان شاه عنها وانشغاله في بلاد الكرج، وذلك خوفا من ان تقع بيد غيره اذا ما طرأ حادث لوالده. ولكنه عاد ادراجه الى بغداد بعد عودة جيهان شاه معتذرا بخوفه من سيطرة امراء اخرين من القره قوينلو عليها. وقد اضطر جيهان شاه الى قبول هذا العذر على مضض منه. والملاحظ ايضا ان بير بوداق كان يتطلع دائما نحو شيراز، لذا فانه عمل ما في وسعه من اجل مساومة والده وحثه لضمها الى دائرة نفوذه، وقد شجعته على ذلك طلبات ابيه المتكررة لتعزيز نفوذ القره قوينلو في فارس. ففي عام 1452، قاد بير بوداق حملة من اجل الاستيلاء على شوشتر من اجل ضمها الى دولة القره قوينلو، بعد وفاة سلطانها محمد بن بايسنقر التيموري، فكان له ما اراد. وبعد عامين ترأس بير بوداق مع ابيه لاستعادة اصفهان الى حظيرة الدولة، وفي عام 1460 قاد حملة ثانية لقمع عصيان اندلع في اصفهان ايضا. ويبدو ان جيهان شاه اقتنع في النهاية بضرورة مكافئة ابنه، الا انه كان يخشى من تعاظم نفوذ ولده بحيث ينتهي به الامر الى السيطرة على تبريز نفسها، فعرض على ابنه حكم شيراز بعد ان الت اليه مدينة شيراز والتخلي عن بغداد، ولكن بير بوداق كان يطمع بالاثنين معا، فتجاهل عرض ابيه مفضلا حكم بغداد على شيراز ولعل السبب في ذلك هو ان بغداد البعيدة نسبيا عن مركز دولة القره قوينلو في تبريز التي كانت في وضع استراتيجي افضل من شيراز. لا شك ان سياسة جيهان شاه هذه تركت اثارا سيئة لدى بير بوداق لذلك نراه يعمد الى جمع ارباب الحرف والصناعات في مدينة شيراز فيلحقهم بركبه ثم يسرع الخطى نحو مدينة بغداد خشية وصول امير جديد عليها، فلما وصلها عام 1462 عمل على قطع الاموال عن ابيه مدة ثلاث سنوات على التوالي، الامر الذي ادى الى نشوب الحرب بينهما. لذا توجه جيهان شاه الى بغداد ووصلها عام 1466، وفرض عليها الحصار. شعر بير بوداق بان حكمه شارف

على الزوال، ولذلك قرر التشبث والمقاومة حتى النهاية. اما جيهان شاه فلم يكن امامه سوى القضاء على بير بوداق الذي اجبره على قيادة حملة توجه خلالها من تبريز الى بغداد. ومهما يكن من امر فقد كان الحصار شديدا على اهالي بغداد الذين لاقوا الامرين من عنت وعناد المقاتلين. وشهدت المدينة مجاعة مخيفة اضطرت الكثير من السكان الى ترك المدينة واللجوء الى معسكر جيهان شاه مجازفين بحياتهم بالرغم من العقوبات الصارمة التي كان بير بوداق يوقعها بالفارين أو بذويهم واخيرا استسلم بير بوداق وطلب الامان وهكذا فتحت ابواب بغداد عام 1467 غير ان بير بوداق لقي حتفه على يد اخيه محمد ميرزا.

اما ثورة حسن علي الابن الثاني لجيهان شاه فقد نجح الاخير من اخمادها، ثم التف لحسم الصراع مع الاق قوينلو. وكان اوزون حسن زعيم قبيلة الاق قوينلو في ديار بكر قد اغتنم حالة الانشقاق التي حدثت بين جيهان شاه وولداه، وما رافق ذلك من اضطراب، فمد سلطته الى المناطق المجاورة التابعة للقره قوينلو، فزحف جيهان شاه على رأس جيشه الى ديار بكر في عام 1467، غير ان شتاء ذلك العام كان قاسيا فتعذر عليه متابعة الزحف وتوقف في سنجاق، فباغته اوزون حسن وقتله وهو يهم بالفرار وذلك في 11 تشرين الثاني 1467، كما اسر ولداه محمدي ميرزا، وابو يوسف ميرزا. ثم سار اوزون حسن بعد انتصاره الى بغداد وحاصرها ولكن حاميتها قاومت، فاضطر الى رفع الحصار، والتوجه الى تبريز للقضاء على حسن علي الذي تولى السلطة هناك بعد مقتل والده جيهان شاه، وكان دولة القره قوينلو قد تضعضعت بعد مقتل جيهان شاه، وفقدت اهميتها ولاسيما في عهد ابنه حسن علي، الذي لم يحسن تدبير الامور، واسرف في تبذير الاموال، وقتل عددا من امراء القبيلة، ولما تعرض لهجوم اوزون حسن هرب الى همدان وربما قتل على يد احد اتباعه أو انتحر في نيسان 1469، كما قتل اخوه ابو يوسف عندما حاول احياء الامارة في فارس. وفي بغداد آلت حكومتها الى الامير بير محمد الطواشي بن زينل الذي اشترك في قتل بير بوداق وحكمها مدة ثلاث سنوات(1467–1470)، ثم تولاها الامير حسين علي بن زينل مدة عام واحد، واخيرا تولاها منصور بن زينل قرابة شهرين الذي بمقتله انقرض حكم قره قوينلو في العراق ليبدا عهد امارة تركمانية جديدة هي الاق قوينلو .

ـ العراق في عهد سيطرة الاق قوينلو.

وهي من بين الامارات التي اقامتها العشائر التركمانية النازحة من تركستان الغربية الى اذربيجان والاناضول في اواخر القرن الثالث عشر، وعرفت باسمها لاشتهارها باقتناء الشياه البيض. وكان لها عند بداية ظهورها، قوة ونفوذ نظرا لاتباعها سياسة مؤيدة لتيمورلنك، وحصل زعيمها بهاء الدين عثمان قره يولك البايندري على مكانة مرموقة، وثبت اقدام امارته في ديار بكر واتخذت امد عاصمة لها. وقد تمكن من تحقيق نصر على حاكم طرابلس المملوكي برسباي الذي حاول مد النفوذ المملوكي الى امد، ثم سرعان ما دحر حاكم سيواس برهان الدين واستولى على المدينة. ولكنه اصطدم مع سلطان القره قوينلو اسكندر بن قره يوسف عام 1435 في معركة هزم على اثرها ثم توفي، تاركا حكم الامارة الى ابنه حمزة بيك، في وقت كان ولده الاخر يعقوب يحكم ارزن الروم شريكا مع ابن عمه جهانكير بن علي بيك بن عثمان. وبعد وفاة حمزة بيك عام 1444 تولى الحكم جهانكير بن علي بيك، ولكن سرعان ما انتزع اخاه اوزون حسن بن علي بيك الحكم منه عام 1454. وقد ازدادت قوة الامارة في عهده ونافست غريمتها امارة القره قوينلو، فاستولى اوزون حسن على ارمينيا الغربية والوادي الاعلى لنهر دجلة وادخل الاكراد في هذه المنطقة في طاعته، وتمكنت من القضاء عليها في معركة حاسمة التي دارت في ديار بكر عام 1467، حينما قتل عاهلها جيهان شاه، وضم لإمارته ممتلكاته كافة ومنها العراق.

ان سيطرة اوزون حسن على املاك دولة القره قوينلو وضعته وجها لوجه امام ابي سعيد الحاكم التيموري لخراسان الذي خرج على رأس جيش كبير الى اذربيجان

لاستعادة حقوقه في غربي ايران، الا انه هزم امام اوزون حسن عام 1469 الذي سيطر بعد ذلك الانتصار على جميع انحاء ايران واتخذ تبريز عاصمة له. من جهة اخر كان اوزون حسن يشعر بالخطر العثماني على ممتلكاته لذا سارع الى عقد معاهدة مع دولة البندقية ضد الدولة العثمانية وبذلك اخذ اوزون حسن يشكل عقبة امام التوسع العثماني في الشرق، وكان اوزون حسن قد ارسل قوة عسكرية عام 1471 وصلت الى توقات في الاناضول وبعد ان نهبتها وصلت الى بلاد قرمان، ولكن اشتبكت مع الجيش العثماني الذي يقوده مصطفى ابن السلطان محمد الفاتح وتمكن من دحر قوات الاق قوينلو، لكن ذلك لم يثنيهم، اذ سرعان ما تحرك اوزون حسن بعد عامين واصطدم بالعثمانيين في معركة عند مدينة بابيرت في اذربيجان اسفرت عن هزيمة ثانية للاق قوينلو.

اما العراق فقد تولى حكمه مقصود بيك بن اوزون حسن، وقد نال شيئا من الاستقرار والعناية، ولكن سرعان ما شاع الارتباك في الامارة اثر وفاة اوزون حسن في عام 1477 بسبب الصراع على السلطة بين اولاده واحفاده، اذ تولى العرش السلطان خليل بن اوزون حسن الذي لم يدم حكمه سوى اقل من ستة اشهر اظهر فيها تعسفا، وانغماسا باللهو والترف، فاندلعت حركات التمرد، اذ ثار ابن عم السلطان خليل المدعو مراد بن جهانكير حاكم بغداد، وحاول احتلال مدينة السلطانية، الا انه اندحر امام قوات السلطان وقتل. والتف الامراء الناقمون على خليل حول اخيه يعقوب بيك وهو الابن الثالث لأوزون حسن واسندوا ثورته في ديار بكر، فتشجع يعقوب بيك، وتقدم بجيشه الى اذربيجان، واوقع هزيمة ساحقة بقوات السلطان وقتله واعلن نفسه سلطانا في تبريز عام 1478، وظل يحكم حتى عام 1490، وتمتعت الامارة خلال تلك الحقبة بشيء من الاستقرار. وبوفاة يعقوب تجددت الاضطرابات، وكثرت الحروب الاهلية بين مختلف الطامعين من السلالة الحاكمة، وادى ذلك الى تفكك سلطة الاق قوينلو، وقد اصبح العراق اقليما مهملا من دولة مجزأة يتنافس فيها الطامعون لفرض سيطرتهم بالسلب تارة والقتل تارة اخرى. وقد

تولى الحكم بعد يعقوب اخيه مسيح بيك، الا ان انشقاق حدث بين امراء الاق قوينلو اسفر عن اختيار علي بيك بن خليل بيك، ولكن الامور لم تهدأ وانتهت بتولي بايسنقر بن يعقوب العرش وهو فتى في العاشرة من عمره فطمع الامير رستم بن مقصود بالعرش ونجح في دحر قوات بايسنقر ودخل العاصمة تبريز في عام 1491 مجبرا السلطان على الفرار. وتتابعت حركات التمرد والعصيان في عهد الغاصب الجديد ولم تنته الا بعد ان تمكن الامير احمد من احفاد اوزون حسن من دحره وقتله عام 1495، وقد اعلن احمد نفسه سلطانا، ولكن حكمه لم يدم اكثر من ستة اشهر قتل على يد مراد بن يعقوب، وسرعان ما اعلن ثلاثة من الامراء في وقت واحد انفسهم سلاطين وكان العراق وبلاد فارس من حصة مراد وهو احد هؤلاء السلاطين الثلاثة. وفي مطلع عام 1500 انقسمت ممتلكات دولة الاق قوينلو بين الوند ميرزا والسلطان مراد، وكان الاول يحكم اذربيجان، والثاني يحكم اقليم الجبال، وهناك عدد كبير من امراء الاق قوينلو يحكمون فارس ويزد وكرمان والعراق وديار بكر بصورة مستقلة، ولا يدينون بالطاعة للسلطان مراد أو الوند ميرزا. وفي هذه الفوضى تردت الاوضاع الى حد كبير ولم ينقذ الوضع المتردي سوى ظهور اسماعيل الصفوي شاه ايران الجديد الذي اخذ على عاتقه توحيد ايران تحت سلطته، وقد حقق انتصارا على حاكم الاق قوينلو الوند ميرزا بن يوسف بيك بن اوزون حسن عند نخجوان في عام 1501 وضم اذربيجان الى املاكه. ومن خلال هذا الاستعراض السريع للمنازعات والحروب الاهلية التي عمت الامارة، يتبين لنا ان العراق في هذا العهد مر بسلسلة من الاضطرابات كانت جزء من فوضى عامة سفكت خلالها دماء العراقيين ارضاء لجشع المتنافسين وتسابقهم على السلطة ومحاولاتهم لجمع وتكديس الاموال وصرفها على ملاذهم الخاصة، ولم يكن احدهم اذا ما نجح مؤقتا في الوثوب الى الحكم، ان يفكر في القيام أي اصلاحات للوضع في العراق.

ـ موقف العراقيون من سيطرة القره قوينلو والاق قوينلو على العراق

بعد سقوط الحكم الجلائري وتسلط القوى الغازية الجديدة من القره قوينلو، سادت العراق حالة من الفوضى والتصارع العسكري فيما بينهم من جهة، وبين بقايا الجلائريين في العراق من جهة ثانية، وبقايا الامبراطورية التيمورية في فارس من جهة ثالثة، واصبحت السلطة معدومة واشبه ما تكون من دويلات المدن الى حكومة مركزية قوية، وهذا ما ساعد على افساح المجال بشكل اوسع امام الاحلاف القبلية العربية، لتكون صاحبة السلطة الحقيقية في البلاد، وقد تصدت تلك القبائل لسلطة المحتلين كما هو الحال في الحقب السابقة وبدأت بمد نفوذها وتوسيع سيطرتها باتجاه المدن العراقية التي بقي بعضها بيد القوى الاجنبية. والقوى القبلية العربية الموجودة في هذه الحقبة تمثلت بمشيخات عديدة مثل مشيخة بني اسد في الاحواز، والمنتفك في الفرات الادنى، وعنيزة في ضواحي الانبار، وبنو شيبان في الموصل، وال جود ،وال جحيش في جهات الحلة. وعلاوة على ال الفضل الطائيين في المناطق الغربية من الفرات وامارة المشعشعين التي تجمعت تحت نفوذها مجموعة من القبائل العربية مثل قبيلة عبادة وبني ليث وبني حطيط وبني سعد وبني اسد وفروع من بني طي.

وقد اضطلعت هاتان الامارتان(امارة ال فضل والمشعشعين) بدور مهم في التصدي لحكم القره قوينلو، وفي الحقيقة لم يكن النشاط العسكري للطائيين جديدا وانما امتدادا لمقاومتهم السابقة في فترات الايلخانيين والجلائريين والتيموريين. ففي المناطق الغربية من العراق استطاعت قبيلة ال فضل ان تقيم امارة مركزها الرحبة وتضم كلا عانة والحديثة

في الانبار، لها كيانها المستقل عن دولة القره قوينلو ويتناوب رئاستها الامراء العرب انفسهم. وكان نفوذ هذه القبائل يمتد احيانا الى مناطق اوسع من تلك التي تحت سيطرتها، الى مناطق تقع ضمن النفوذ السياسي للقره قوينلو، فهاجم عذرا بن علي بن نعير امير ال فضل مدينة الحلة عام 1421، على اثر خلاف وقع بين عرب ربيعة هناك، وقد تمكن من دخولها للحيلولة دون سقوطها بيد القره قوينلو، وعين فيها نائبا عنه لحكمها، وفعلا اخرت هذه العملية العسكرية سقوط الحلة بيد القره قوينلو مدة تقارب عشر سنوات. وقام الشيخ مدلج بن علي بمواصلة شن الهجمات ضد مراكز القره قوينلو. ففرضت الامارة بذلك وجودها ونفوذها على مناطق اعالي الفرات والحلة بفضل قواها العسكرية، وهذا ما جعل حكام القره قوينلو يسترضون شيوخ هذه الامارة ويستعينون بهم في نزاعاتهم الداخلية. ففي عام 1432 استقبل الشيخ حارث بن عذرا حاكم حديثة-الذي كان يتظاهر بالولاء لسلطة القره قوينلو-محمد شاه حاكم بغداد على اثر خلافه مع شقيقه اسبان فصحبه الى الموصل حيث تمكن الحاكم التركماني من الاستيلاء على الموصل واربيل، فاقطع الموصل للشيخ العربي. وقد ساعدت تلك النزاعات على استمرار وتوسيع نفوذ الامارة وتصاعد قوتها العسكرية حيث شمل علاوة على المناطق السابقة منطقة الجزيرة والموصل.

والامارة العربية الثانية التي اضعفت وجود القره قوينلو في العراق وارهقتهم عسكريا فكانت امارة المشعشعين التي اسسها محمد بن فلاح المشعشع(1440-1461) الذي بدأ بالسيطرة على الحويزة التي كانت خاضعة لإيران عام 1441. وقد اتخذ المشعشع من مدينة الحويزة مركزا لنشاطه العسكري في مواجهة القره قوينلو والفرس، وبدأ يشن هجمات على البصرة وواسط والحلة ثم بغداد، وقد تمكن من اقامة امارة ضمت فضلا عن الاحواز العراق الاوسط والجنوبي تعاقب على حكمها اولاده واحفاده لفترة طويلة. من الجدير بالذكر ان المنطقة التي اختارها محمد بن فلاح المشعشع للقيام بحركته كانت عاملا مساعدا على نجاحها، وهذه المنطقة هي الجزائر(البطائح) التي تمتد بين واسط والبصرة والاحواز، وهي منطقة مستنقعات واسعة صعبة المنال لمن اراد التوغل فيها. وقد خشي

حاكم بغداد اسبان بن قره يوسف من تعاظم قوة المشعشعين، فزحف اسبان بجيشه باتجاه الحويزة وتمكن من السيطرة عليها، وعلى اثر ذلك اتجه محمد المشعشع الى منطقة الدوب وهي قرية تقع بين العمارة والحويزة، التي لم يكن بوسع اسبان الوصول اليها فتراجع نحو البصرة، اما المشعشع فقد قام بمراسلة غانم بن يحيى حاكم البصرة العربي، بشأن التعاون بينهما للقضاء على اسبان بيد ان امر هذه المراسلة قد وقع بيد اسبان، لكن محمد بن فلاح من جانبه هاجم السفن التي ارسلها اسبان من البصرة الى واسط وقتل من كان بها من جنده. وبدأت قوة المشعشع تزداد بعد عام 1450 بانضمام قبائل عربية جديدة تحت سلطته، ثم جهز جيشا على واسط فحاصرها وضربها بالمنجنيق وعين عليها شخصا لحكمها من قبله يدعى دراج. وفي عام 1454 توجه علي بن محمد المشعشعي بحملة عسكرية الى النجف. وبسبب هذا الواقع اضطرت حكومة القره قوينلو في بغداد الى ارسال جيش لمقاتلته بقيادة دوه بيك وانظمت اليه قوات عسكرية من الحلة وتمكن المشعشع من دحر قوات القره قوينلو وهرب قائد الحملة ومعه بسطام حاكم الحلة وقواتهم العسكرية، فتابع المشعشعون القوات المهزومة الى الحلة والحقوا بها هزائم جديدة فاضطر الحاكم بسطام الى الانسحاب الى بغداد. وواصل المشعشعون هجماتهم على المدن الخاضعة للقره قوينلو ففي عام 1456 توجه علي المشعشع الى مهرود وبعدها بعقوبة حتى وصل الى المدائن بالقرب من بغداد، ولم تقتصر عمليات الامير المشعشعي على العراق بل امتدت لتشمل شيراز عاصمة بير بوداق ولكنه لم يتمكن من احتلالها. وقد اتسع نفوذ المشعشعين على عهد محسن بن محمد بن فلاح(1461-1499) الذي امتدت املاكه الى انحاء واسعة من الاحواز ووسط وجنوب العراق وسواحل الخليج العربي. وقد تمكن الامير محسن المشعشع من الاستيلاء على الحلة قبل وفاة جيهان شاه وبقيت بيده الى عام 1467. ويظهر من العمليات العسكرية السابقة ان المشعشعين كان لهم التفوق العسكري على القره قوينلو من جنوب بغداد ووسط العراق والاحواز الى رأس الخليج العربي ووقوف امراء القره قوينلو عاجزين عن الحد من سيطرتهم ونفوذهم وايقاف عملياتهم العسكرية، ويدلل ذلك بوضوح على التطور الذي طرأ

على الامكانية العسكرية للقبائل في ظل الامارة العربية، فلولا تنظيمها وحسن تسليحها وانضباطها لما استطاعت تحقيق هذه الانتصارات العسكرية على القره قوينلو. كما ان هجمات المشعشعين العسكرية على المدن والمناطق الريفية الاخرى في وسط العراق في حقبة الاق قوينلو لم تتوقف، اذ اغتنم الامير محسن بن محمد المشعشع فرصة موت اوزون حسن عام 1477 فقام بالإغارة على اطراف الحلة وبغداد، مهاجما كل المناطق التي كانت تقع تحت سيطرة حكام الاق قوينلو، وقد رجعت قوة المشعشعين دون أي مقاومة تذكر من حكومة الاق قوينلو في بغداد، هذا مما دفع الامير المشعشع الى مهاجمة الاق قوينلو فوصل في عام 1478 الى نواحي بغداد من جديد ودخل ديالى ومضى الى الخالص. لقد اثار امتداد نفوذ المشعشعين سلطات الاق قوينلو، لذلك فان السلطان يعقوب الذي اعقب والده اوزون حسن عام 1478 اتخذ اجراءات جديدة لمواجهتهم كان في مقدمتها عزل حاكم بغداد المسمى كلابي لاتهامه بالتقصير في صد الهجمات التي تعرضت لها بغداد. كما قرر السلطان يعقوب توجيه ضربة قوية للمشعشعين في عام 1484، فوجه القائد بايندر الى العراق للذهاب الى الجزائر عبر بغداد، واوعز الى امراء فارس الاخرين بالتوجه الى الحويزة وشوشتر للتعرض لممتلكات محسن المشعشع، ويبدو ان هذه الحملة قد تمكنت من المشعشع والحقت به هزيمة في عقر داره، فضلا عن ذلك فقد استغل يعقوب الخلافات التي وقعت بين محسن المشعشع واولاده فتدخل لمناصرة الامير حسن وأواه في بلاطه. وقد ظل المشعشعون يتمتعون رغم الحملة السابقة بنفوذ كبير في العراق والاحواز حتى عام 1508. وفضلا عن قوة المشعشعين اخذ نفوذ امراء العرب الاخرين مثل المنتفك في عهد سيطرة الاق قوينلو بالتزايد، فاستولوا على الجزائر والبصرة الى حدود الرماحية والحلة. كما ظلت سيطرة ال فضل من الطائيين في اعالي الفرات وغربه هي الغالبة وهكذا ظل نفوذ الاق قوينلو ضيقا ومقتصرا على بعض المدن لا يستطيع التحرش بقوة تلك القبائل أو التأثير عليها.

ـ الاوضاع العامة في العراق خلال عهد سيطرة القره قوينلو الاق قوينلو.

دام حكم القره قوينلو ستين عاما كانت البلاد خلالها مسرحا للتطاحن بين الامراء المتنافسين من الاسرة الحاكمة، وقد ترك هذا التطاحن حالة مريعة من الفوضى والاضطراب، كان من مظاهرها البارزة اعمال التخريب والفتك بالسكان، فضلا عن نهب المدن وانتشار الامراض والاوبئة، وحدوث المجاعات.

ان السياسة التي اتبعتها دولتي القره قوينلو والاق قوينلو الاقتصادية استهدفت السيطرة على جميع موارد العراق الاقتصادية، وقد انحصرت هذه السياسة ما بين الاستحواذ الكامل على مرافق البلاد الاقتصادية الزراعية منها والتجارية أو التصرف بها دون مراعاة لمصلحة البلاد، الى الاستيلاء المتكرر على ثروات السكان الخاصة من خلال السلب والنهب، أو من خلال فرض ضريبة الامان(الحماية) على الناس، أو جباية الاموال منهم دون وجه حق. لقد اضرت هذه السياسة كثيرا بمصلحة البلاد والناس، وهو امر نلمسه بصورة واضحة لدى حكام القره قوينلو المتعاقبين. فالقره قوينلو بعد استيلاءهم على العراق قسموا اهم مدنه على شكل اقطاعيات ما بين افراد هذه الاسرة، وهذا ما نجده بالنسبة لمناطق الدجيل وحربي والخالص وكركوك واربيل والتون كوبري والموصل. وليس ذلك فحسب بل ان العراق احيانا كان يعد اقطاعا لحكام القره قوينلو في تبريز، كما حدث خلال حكم الشاه محمد بن قره يوسف الذي عصى والده في دفع ما بذمته من اموال مقررة، فهاجم قره يوسف بغداد وحاصرها وحصل على الاموال. وتصرف حكام القره قوينلو بأموال حكومة بغداد بشكل مسرف، من ذلك ان احد الامراء التركمان ويدعى شيخي بيك، قام في اثناء

توجه جيهان شاه لمحاصرة بغداد عام 1445، فتح خزائن بغداد وقسمها على الجند من اجل حثهم على مقاومة الحصار الامر الذي سبب انهيار قيمة النقود. وصاحب دخول حكام القره قوينلو الى بغداد فرضهم ضرائب على الناس، تعرف احيانا باسم ضريبة الامان أو الحماية، ففي عام 1434 عندما استولى اسبان على بغداد الزم الرعايا على دفع ما يستطيعون دفعه من الاموال لأغراضه الخاصة. وتكرر مثل هذا الامر ايضا عندما دخل بير بوداق الى بغداد عام 1461 فرض على اهلها مبلغ 1800 تومان، وعندما عجز البغداديون عن دفعه عمد الى تعذيب الاهالي بغية استحصاله منهم قسرا. والاكثر من هذا سوء فقد تحولت ضريبة الامان على يد القره قوينلو حتى اصبحت نوعا من الالتزام مقابل مبلغ من المال، فبير بوداق قد اوكل جمع هذه الضريبة على شخص يدعى فضيل تمغاجي بغداد فراح هذا يجمعها بمنتهى القسوة والوحشية حتى ضجر الناس منه. وعمد بير بوداق الى الامر نفسه عند محاصرة والده جيهان شاه لبغداد عام 1464، اذ لما طالت مدة الحصار واراد الناس الخروج من المدينة اقترح عليه احد امرائه ويدعى حسين ترخان بان يأخذ اموال الناس قبل خروجهم من بغداد.

لقد كانت سلطة حكام قره قوينلو تتركز في داخل المدن، وهي في الغالب لا تتعدى اسوارها، لذلك كان سكان المدن هدفا لأية حملة عسكرية، اذ كان الالاف يقضون نحبهم اثناء الحصار أو عند اقتحام المدينة من قبل الجيوش المتحاربة. ففي عام 1446 وضع جيهان شاه السيف في اهالي بغداد حتى وصفت المصادر عمله بانه لا يقل وحشية عن اعمال تيمور لنك، كما تعرض الالاف من سكان بغداد للموت والتجويع اثناء حصار جيهان شاه لمدينة بغداد عام 1465، ويذكر ان بير بوداق ابن جيهان الذي اعتصم في مدينة بغداد اثناء حصارها المذكور، قد عامل البغداديين بمنتهى القسوة والوحشية، وذلك اعتقادا منه بأن اجراءاته هذه ستمنع الجنود والاهالي من الهرب، وكان من ضحاياه الكثير من ابناء وازواج الهاربين الذين القى بجثثهم في نهر دجلة تشفيا وانتقاما. وكان دخول جيهان شاه للمدينة اثر الحصار الاخير كارثة حقيقية فقد رافق ذلك قتال عدد كبير من السكان. كما كان كثرة الصراعات بين حكام القره قوينلو ادى الى نهب المدن اثناء تلك الحروب، وكان حكام القره

قوينلو يذيعون بين عساكرهم مدة محددة تستباح فيها المدن المحتلة، وذلك تشجيعا لقواتهم على اقتحام المدن المحاصرة. فمحمد شاه بن قره يوسف الذي احتل بغداد عام 1411 اجاز لقواته بنهب المدينة يوما كاملا، وهذا اسبان الذي ارتبط دخوله لمدينة بغداد بسلب جميع اموال الناس ونهبها وتشتيت الناس في البلاد وتعطيل الحركة الاقتصادية فيها. ولم يقتصر الامر على بغداد، بل امتد الى الموصل والنجف اللتين سلبت اموالهما، وجرد الناس فيهما عن كل ما يملكونه حتى تشتتوا في البلاد ووصلت منهم مجموعات الى بلاد الشام ومصر. ان هذه السياسة تركت انعكاسات سيئة على وضعية البلاد الاقتصادية، فمن ناحية انحسرت الحركة الاقتصادية بسبب هجرة الناس العاملين فيها، ومن ناحية اخرى عمل القره قوينلو على توطين العناصر الفارسية في العراق، بعد اجبار اهل البلاد على تركها. وفي عام 1447 دخل جيهان شاه بغداد واجاز لعساكره نهب المدينة ثلاثة ايام بلياليها، ولم يقتصر اعمال النهب والابتزاز على ايام حصار المدن واحتلالها، بل يمكن ان نقول ان عملية النهب والابتزاز كانت عملية منظمة يقوم بها حكام القره قوينلو حتى في الظروف والاحوال الاعتيادية ايضا. كما نتج عن اعمال النهب التي تعرضت لها المدن وابعاد السكان عن مراكز تلك المدن، تجريد المدن الرئيسة في العراق عن صفتها الحضرية، وتحولها من مدن قائمة على الانتاج المديني الى مدن قائمة على الانتاج الرعوي. وشملت اثار التخريب وزوال الصفة الحضرية عن عدة مدن منها: بغداد والموصل والنجف. ولم يختلف الاق قوينلو عن من سبقهم بشيء في سياستهم الرامية الى تهجير اهل البلاد. اذ تشير المصادر ان اوزون حسن هجر عددا كبيرا من اهل بغداد وضياعها الى ديار بكر وذلك بعد ان رفع حصاره عن المدينة عام 1467. وبلا شك فان مثل هذه الحالة كانت ذات مردود سلبي على النواحي الاجتماعية، ذلك لأنها تفكك التركيب الاجتماعي للسكان في المدن العراقية، فضلا عن مردوداتها الاقتصادية السيئة حيث انها تفقد هذه المدن العناصر القادرة على العمل فيها. وقد شهد العراق انتشار الامراض والاوبئة وهي نتيجة طبيعية لأحوال البلاد المتردية الناجمة عن تطاحن الجيوش والفتك بالسكان، واهمال السدود والقنوات، وكثرة المستنقعات.

ولاشك فانه في ظروف كهذه تكون الامراض المتوطنة مسألة طبيعية. كما ارتبطت حدوث المجاعات بظروف البلاد السياسية ولاسيما ابان حوادث حصار المدن، ففي عام 1430 وقعت مجاعة رهيبة في الحلة اثناء حصار اسبان لها. كما شهدت مدينة واسط مجاعة شديدة اثر حصار المشعشعين لها عام 1455. اما النواحي الادارية فلم تسجل خلال هذا العهد أي تطور اداري واضح لان العراق خلال حكم هذه الامارات التركمانية كان مسرحا للتطاحن بين امرائها، وبالتالي فيندر وجود أي انجاز اداري خلال هذه المدة، واكتفوا بالاعتماد على الانظمة الادارية السابقة في العراق.

ـ الاحتلال الصفوي الاول للعراق(1508ـ1534).

1. قيام الدولة الصفوية :

ان معلوماتنا عن اصل الاسرة الصفوية التي اسست تلك الدولة قليلة وغير واضحة. لقد عرفت الدولة الصفوية بهذا الاسم نسبة الى الشيخ صفي الدين اسحق الاردبيلي (1252/ 1253 – 1334م). وينتسب هذا الى اسرة ثرية معروفة في مدينة اردبيل الواقعة في الجزء الشرقي من اذربيجان . وقد ذاعت شهرته بوصفه وليا من الاولياء ومؤسس طريقة صوفية عرفت بالطريقة (الصفوية) وكانت هذه الطريقة واحدة من طرق صوفية عديده نشأت في انحاء المشرق الاسلامي ابان عهود الاضطراب والقلق السياسي. وكان الشيخ صفي الدين اسحق الاردبيلي رجلا زاهد درس العلوم الدينية والعقلية في صباه ثم تعمق في اسرار المحبة الالهية والصوفية، وتتلمذ على يد شيوخ عدة، وفكر بالرحيل الى فارس لكنه نزل في مدينة شيراز حيث اتصل بالشاعر سعدي الشيرازي، ونصحه الامير عبد الله الفارسي، وهو من اعيان شيراز، بالاتصال بالشيخ تاج الدين ابراهيم الجيلاني المعروف بالشيخ الزاهد، وظل صفي الدين يلازم هذا الشيخ بعض الوقت ثم زادت الصلة بينهما وتوثقت بزواج

الشيخ صفي الدين من فاطمة ابنة شيخه ومرشده . وحين احس الشيخ الزاهد الجيلاني بدنو اجله، اوصى بان يحل صفي الدين محله في رئاسة الطريقة التي كان يتوارثها عن الجنيد البغدادي عن السري السقطي عن معروف الكرخي، وحرم ابنه الذي كان يدعى جمال الدين من تولى هذا المنصب. وقد حظي صفي الدين الاردبيلي بمكانة كبيرة عند الايلخان ابي سعيد بهادر خان ووزيره رشيد الدين وابنه غياث الدين وغيرهم من امراء المغول. وقد انتقلت لصفي الدين رئاسة هذه الجماعة الدينية الكبيرة، ومشيخة هذه الطريقة الصوفية التي كان لها كثير من الاتباع والمريدين في جيلان وأذربيجان ويقال ان عددهم كان مائة الف مريد، منهم اثناء عشر الفا في حضرة الشيخ وكان له اربعمائة خليفة يتولون ارشاد هذه الجماعة والاشراف على شئونها. وتكمن اهمية الشيخ صفي الدين الاردبيلي في تحويله الطريقة الصفوية من مجرد طريقة صوفية محلية الى حركة دينية لم يقتصر نفوذها وتأثيرها ضمن حدود ايران حسب، بل في بلاد الشام والأناضول. وقد تحقق ذلك من خلال نشاط الدعاة الصفويين، الذين نجحوا خلال المراحل اللاحقة في كسب العديد من القبائل التركمانية في تلك الاتجاه وشكلت هذه القبائل التركمانية فيما بعد نخبة القوة العسكرية الصفوية(القزلباش). وبعد وفاة صفي الدين الاردبيلي عام 1334م تولى ابنه صدر الدين موسى مشيخة (بير او مرشد) الحركة الصفوية حتى عام 1392م . وكانت هذه الفترة تتسم بعدم الاستقرار في ايران ، وقد اشرنا الى ذلك سابقا بدء من وفاة السلطان ابو سعيد في 1335م وانتهاء بغزو تيمور لنك للمنطقة منذ 1381م . وفي مثل هذا الوضع واصل صدر الدين موسى الدعاية الصفوية بنشاط لكسب المزيد من المريدين. وبدأت في عهده تطلعات الاسرة الصفوية نحو العمل السياسي مما اثار ضده الحاكم المغولي في اردبيل الاشرف جوبان بن تيمور تاش الذي نفاه الى تبريز، لكن مكانة الشيخ صدر الدين موسى في نفوس الاتراك في اردبيل دفعت الحاكم المغولي الى اعادته، الا انه فكر في القضاء عليه ثانية عن طريق دس السم له، ولما علم صدر الدين موسى غادر اردبيل الى جيلان واستقر عند اخواله واتباع الشيخ ابراهيم الزاهد الجيلاني، مما اثار فزع الاشرف جوبان، وظل هناك الى ان

هاجم جاني بيك، حاكم القبيلة الذهبية المغولية، اذربيجان عام 1357 وانتزعها من ايدي الجوبانيين، وتمكن احد الامراء المغول ويدعى ارغون من قتل الاشرف جوبان، فعاد صدر الدين الى اردبيل. وتذهب المصادر التاريخية الى القول بان العديد من نبلاء المغول اصبحوا من مريديه وفي عهده ايضا وصل دعاة الحركة الصفوية الى مدينة هراة حيث اقام احد هؤلاء ويدعى (قاسم الانوار) مركزا للدعوة الصفوية فيها منذ (1377-1378م).

وقد انتقلت مشيخة الصفويين بعد صدر الدين موسى الى ابنه خوجة علي الذي لقب بـ(سياه بوش) أي لابس السواد، والذي ينسبون اليه- كما ينسبون لبقية زعماء هذه الاسرة تقريبا، الكثير من الكرامات خاصة مع تيمورلنك الذي كان يعتقد في هذا الشيخ اعتقادا كبيرا، من ذلك ما يروونه من ان تيمور اثناء عودته منتصرا من حربه ضد السلطان العثماني بايزيد مر بأردبيل وكان قد حمل معه عدد من الاسرى اغلبهم من رؤساء ورجال عشائر تركية هي روملو، شاملو، قاجار، استاجلو، افشار، بيات، ذو القدر، تكلو(تكه لو)، وانضم الى هذه العشائر والقبائل التسع فيما بعد صوفية قراباغ. وطلب تيمور من الشيخ علي سياه بوش ان يتمنى اي شيء فطلب منه الشيخ ان يطلق سراح الاسرى الروم (العثمانيين) الذين كانوا معه، فامر تيمور على الفور بأطلاق سراح هؤلاء الاسرى والسبايا، ولم يكتف بهذا بل اشترى تيمور ما حول اردبيل من مزارع وضياع من ماله واوقفها على زوايا الصفويين وتكاياهم في اردبيل ، كما منح خراج تلك البلاد لهذه الاسرة وخصصها لهم. وهكذا اجتمعت لهذه الاسرة كل مقومات الرئاسة والزعامة دون مشقة، اذ انتقلت الى صفي الدين رئاسة جماعة دينية كبيرة دون ان يشقى في تكوينها او يتعب في انشائها ، ثم منح تيمور لحفيده الشيخ علي اعدادا كبيرة من الاسرى الاتراك اصبحوا من مريدي هذه الاسرة واتباعها المخلصين وكونوا قوتها الضاربة كما سنرى، بل اصبحوا عصب الحركة الصفوية كلها وعرفوا باسم (القزلباش) لاحقا. وبعد وفاة خوجة علي عام 1427 أو 1428 في فلسطين وهو عائد من اداء فريضة الحج، تولى ابنه ابراهيم مشيخة الصفويين واستمر فيها لحين وفاته عام 1447 وعندها تولى ابنه جنيد المشيخة.

تعد فترة جنيد(1447-1460م) من المراحل المهمة في تاريخ الحركة الصفوية، ففي عهده اتخذت الحركة الصفوية طابعا سياسيا واضحا . فقد كان جنيد اول زعيم صفوي يعبر علنا عن طموحه في ان يصبح ملكا(باد شاه) الى جانب كونه مرشدا روحيا للصفويين. ولتحقيق ذلك نظم جنيد الحركة الصفوية على اسس عسكرية، وجعل اتباعه يظهرون مظاهر التقديس تجاهه الى حد العبادة. وقد كان هذا الامر مثار قلق جيهان شاه اخر حكام دولة القرة قوينلو في ايران . ولذا فانه أمر جنيد بان يفرق اتباعه ويرحل عن اردبيل، وهدده بتدمير اردبيل ان لم يستجب لذلك، فترك جنيد اردبيل وامضى بضع سنين متنقلا في الاناضول وبلاد الشام الى ان دعاه حاكم الاق قوينلو اوزون حسن الى بلاطه في ديار بكر عام 1456م، وكانت علاقات الاخير عدائية مع القرة قوينلو أيضا . وقد امضى جنيد ثلاث سنين (1456-1459م) في بلاط اوزون حسن وتزوج من خديجة بيكوم شقيقة اوزون حسن . ومن هناك حاول جنيد استرداد اردبيل سنة 1459م ، وعندما اخفق في ذلك توجه بقوته لقتال الشراكسة، ولكنه قتل في اذار 1460 م على يد حاكم مقاطعة شيروان، الواقعة قرب مدينة باكو جنوب القفقاس، عند مروره (اي جنيد) بأراضيه متوجها لقتال الشراكسة.

استمر التحالف بين الصفويين والاق قوينلو في عهد الشيخ حيدر الذي تولى زعامة الحركة الصفوية بعد مقتل ابيه جنيد، وعزز حيدر هذا التحالف بزواجه من ابنة اوزون حسن. وفي عهد حيدر اتخذ الصفويون غطاء رأس مميز لهم يسمى (تاج حيدري)، وهو عمامة حمراء ذات 12 طية(لفة) ترمز الى الائمة الاثني عشر، ومن هنا كانت تسمية الصفويين بـ(القزلباش) وهي تسمية تركية معناها الرؤوس الحمراء دلالة على لبس العمامة الحمراء. ومع ان مدلول القزلباش اختلف من وقت لأخر ومن منطقة لأخرى الا ان استخدمت عموما للدلالة على القوة العسكرية الصفوية المؤلفة من القبائل التركمانية. وتشير الروايات الصفوية الى السبب في لبس هذه العمامة، اذ يذكر ان حيدر شاهد الامام علي بن ابي طالب(ع) في المنام وقد صنع له عمامة من الصوف الاحمر بها اثنا عشر لفة. وقد وهب السلطان حيدر عمامة من هذه العمائم لكل واحد من اتباعه ومرديه او طلب منه عملها ولبسها، وبهذا تميزت

هذه الجماعة او الفرقة الصوفية بهذا الزي المميز، وقد اصبحت هذه الفرقة في عهد حيدر جماعة مستقلة. وقد وافق اوزون حسن على هذا الاستقلال والانفراد بلبس عمامة مميزه للجماعة تميزها عن سائر الناس.

لقد اخذ التحالف بين الصفويين والاق قوينلو يضعف تدريجيا بعد نجاح الاق قوينلو في القضاء على دولة القره قوينلو ،ومن ثم توليتهم حكم مناطق مهمه في ايران.

بوفاة اوزون حسن سنة 1478م انتهى ذلك التحالف تماما. وتفسير ذلك ان الاق قوينلو صاروا، بعد تولي مقاليد الامور في ايران، هدفا للمطامع السياسية والعسكرية للأسرة الصفوية التي كانت قد عادت الى اردبيل. ومن جهة اخرى ادرك الاق قوينلو، شأنهم في ذلك شأن القره قوينلو سابقا، الابعاد السياسية للحركة الصفوية ولذا عملوا على محاصرتها بغية القضاء عليها. فلما توفى اوزون حسن وخلفه ابنه السلطان يعقوب (1478-1490م) منع الناس من لبس العمائم الحمراء وتوعد من يلبسونها بأشد العقاب، ولم يجد حيدر مفرا من ترك أردبيل والخروج بدعوى الجهاد في سبيل الله ونشر الاسلام في ديار الكفار، لذا فقد غزا الكرج مرتين عامي 1483 و1487، لتأمين موطئ قدم أو غنائم تساعده في تموين جيشه بعد ان حصل على اذن خليل حاكم شروان التي تقع على طريق زحفه الى بلاد الكرج، ثم طمع بالاستيلاء على شيروان، بحجة الثأر لمقتل ابيه جنيد الذي قتله حاكم شيروان من جهة اخرى، وكان اول دليل على انهيار التحالف بين الطرفين موقف الاق قوينلو من الصدام المسلح الذي وقع بين حيدر وحاكم شيروان فقد دعم الاق قوينلو حاكم شيروان، وسارع السلطان يعقوب بإبلاغ حاكم شيروان بخروج حيدر اليه، ولم يكتف بهذا بل ارسل جيشا لمساعدة شيروان من اجل القضاء على حيدر، وكان هذا الدعم عاملا حاسما في انتصاره على الصفويين ومقتل حيدر في ميدان المعركة في تموز عام 1488. تكمن اهمية الشيخ حيدر في انه اخرج الحركة الصفوية من طورها الديني الى طورها العسكري بعد ان نظم مريديه تنظيما عسكريا جيدا.

بعد مقتل حيدر بوقت قصير تجمع عدد كبير من اتباع الصفويين في اردبيل حول ابنه سلطان علي (1488-1494م) . وقد جاء قسم من هؤلاء لتهنئته بتولي قيادة الحركة الصفوية، والقسم الاخير لحثه على الانتقام لمقتل ابيه. وعندما وصلت هذه الانباء مسامع السلطان يعقوب حاكم الاق قوينلو شعر بالقلق وارسل قوة عسكرية الى اردبيل القت القبض على السلطان علي واخيه ابراهيم واسماعيل، وارسلهم الى سجن في قلعة اصطخر بشيراز جنوب ايران حيث امضوا هناك قرابة اربع سنوات ونصف (من اذار 1489 لغاية آب 1493م) وكان اسماعيل، مؤسس الدولة الصفوية فيما بعد، اصغر الاخوة سنا ولا يتجاوز عمره السنتين. وفي أب 1493 اطلق رستم بن مقصود بيك، الذي ألت اليه مقاليد الامور في دولة الاق قوينلو(1492-1497م)، سراح سلطان علي واخوته لكي يستفيد من دعم الصفويين له في صراعه ضد منافسه على السلطة بايسنقر بن سلطان يعقوب، وقد حصل رستم على هذه الدعم من الصفويين فعلا، فقد حارب سلطان علي بايسنقر وتمكن من قتله عام 1492، لذا فقد كافأ رستم بن مقصود الشيخ سلطان علي واستقبله في عاصمته بالترحاب، وسمح له بالعودة الى اردبيل ليتولى رئاسة مريديه. ولكن مع دعوة سلطان علي الى اردبيل وتجمع عدد كبير من اتباعه فيها، صار رستم مثل يعقوب سابقا، يشعر بالقلق من احتمال تهديد الصفويين لحكمه في نهاية المطاف، لذا القى القبض على سلطان علي واخوانه مره اخرى عام 1494م وارسلهم الى مدينة خوي الواقعة شمال غرب بحيرة أورميه لمنع اي اتصال بينهم وبين اتباعهم، وقرر رستم في نهاية الامر التخلص من سلطان علي وخطط أيضا للقضاء على اتباع الصفويين ومؤيديهم في تبريز واردبيل . وعندما علم سلطان علي بخطط رستم هذه هرب مع اخوته واتباعه المقربين من خوي متجها الى اردبيل ولما كان سلطان علي يشعر بعدم الامان فقد اوصى بان يكون اخوه اسماعيل خلفا له وهو في طريقه الى اردبيل. وارسل اسماعيل مع سبعة من اتباعه المختارين الى اردبيل امامه . وكانت مخاوف سلطان علي وتوقعاته في محلها اذ سرعان ما فاجأته قوه من الاق قوينلو وقتلته، اما اسماعيل فقد نجح في الوصول الى اردبيل بسلام. ومن هناك نقله اتباعه الى مدينه لاهيجان في مقاطعة

كيلان لتجنب حملة تفتيش عنه قام بها الاق قوينلو في اردبيل من منزل الى منزل. وفي لاهيجان وفر له حاكمها، كاركيا ميرزا علي، الرعاية والحماية ورفض عدة طلبات من الاق قوينلو لتسليمهم اسماعيل الصفوي. ومع ان رستم حاكم الاق قوينلو خطط لمهاجمة لاهيجان ومقاطعة كيلان الا ان المنازعات الداخلية بين الامراء والاق قوينلو منعته من ذلك.

امضى اسماعيل حوالي خمس سنوات (1494-1499م) في لاهيجان، وقد عين كاركيا ميرزا علي له مدرسا هو مولانا شمس الدين لاهيجي ليعلمه القران الكريم واللغتين العربية والفارسية. ومع انشغال امراء الاق قوينلو بمنازعاتهم الداخلية تهيأت الفرص لاتباع اسماعيل بالذهاب اليه حيث بقي قسم منهم في لاهيجان، وعاد القسم الاخر الى مناطقهم لمواصلة الدعاية للصفويين فيها. وكان هؤلاء الاتباع يدعون اسماعيل بلقب (مرشدي كامل) بوصفه زعيما روحيا لهم وبلقب (بادشاه) اشارة الى قبولهم اياه بوصفه زعيما دنيويا، في وقت كان دولة الاق قوينلو تسير نحو الانحلال فقد برز ثلاثة امراء يتصارعون على السلطة وهم مراد بن يعقوب، ومحمد ميرزا واخوه الوند ميرزا بن يوسف بيك، وقد تمكن الوند ميرزا من التفرد بالسلطة بعد سجنه السلطان مراد، وارتقى عرش الاق قوينلو عام 1497-1500. ومع ظهور بوادر انحلال دولة الاق قوينلو بسبب المنازعات الداخلية قرر الصفويون التحرك مرة اخرى في عام 1499-1500م . وفي اقل من عام كان اسماعيل واتباعه قد انتقموا من حكام مقاطعة شيروان، ثم تحركوا صوب اذربيجان حيث انزلوا هزيمه ساحقة بجيش الاق قوينلو الذي يقوده الوند ميرزا في موقعة (شرور) قرب نخجوان في ربيع عام 1501م . وفي صيف ذلك العام دخل اسماعيل مدينة تبريز وتوج ملكا على ايران متخذا لقب (شاه) مع ان سلطته كانت لا تتعدى حدود اذربيجان. وخلال السنوات القليلة اللاحقة بسط اسماعيل الصفوي سيطرته على معظم انحاء ايران التي دخلت مرحلة جديدة من تاريخها.

امضى الشاه اسماعيل السنوات العشر الاولى من حكمه في بسط سيطرته على ايران والتوسع على حساب المناطق المجاورة. وكانت قوة الصفويين تزداد باطراد في هذه الاثناء

بسبب تدفق تركمان الأناضول الى ايران بعد ان بلغتهم انباء انتصارات الشاه اسماعيل وتوزيعه الغنائم بسخاء على اتباعه. وقد وجه الشاه اسماعيل اهتمامه أولا نحو القضاء على بقايا قوات الاق قوينلو، وكان السلطان يعقوب في اعقاب هزيمة غريمه السابق الوند ميرزا، قد اعلن نفسه شاها عام 1501 على فارس وخوزستان والعراق، الا انه دحر امام الشاه اسماعيل في معركة قرب مدينة همدان عام 1503م، وبذلك ضمن اسماعيل السيطرة على وسط وغرب ايران. ثم اخضع مقاطعات مازندران وجرجان على بحر قزوين ومدينة يزد في عام 1504م. كما الحق ديار بكر بدولته وامن حدوده الغربية بين سنتين 1505-1507م. اما سلطان الاق قوينلو مراد فقد توجه الى شيراز ومنها توجه الى بغداد محاولا اعادة الحياة الى امارته المتداعية، وحاول مصالحة الشاه اسماعيل وارسل اليه وفدا يعرض عليه ان يبقى في بغداد ويدفع جزية للشاه، الا ان اسماعيل لم يسمح للوفد بالوصول اليه وامر بذبحهم جميعا. قضى السلطان مراد في العراق خمس سنوات يشوبها الذعر والقلق بسبب تصاعد واتساع قوة خصمه اسماعيل الذي بسط حكمه على كل الهضبة الايرانية ثم وجه انظاره الى العراق.

3. احتلال بغداد:

كان السلطان مراد بن يعقوب يدرك عجره عن الوقوف وحده امام اطماع الشاه، ولذلك استنجد بإمارة ذي القدر في الأناضول ولكنها كانت تعاني الخور والضعف في اواخـر ايامها، ولهذا بـاءت محاولات الاسناد التي قدمها اميرها علاء الدين له في 1502و1507م بالفشل، وتعرضت اراضي الامارة في الاناضول الى تخريب شامل ومذابح مروعة ارتكبتها قوات الشاه. فاتجه السلطان الى قانصوه الغوري اخر سلاطين المماليك في مصر والشام الذي كان يدرك خطورة استيلاء الشاه اسماعيل على العراق، وقد اتخذ الغوري بعض الاجراءات الاولية لإعداد حملة ضد الشاه، وفرض الضرائب على اهل دمشق لتمويل كتائب المشاة التي ستتحشد في حلب استعدادا لمجابهة الشاه. ولكنه في واقع الامر، لم يكن مستعدا عمليا لنجدة مراد بن يعقوب وانقاذ العراق. فالظروف العامة

التي كانت دولة المماليك تواجهها حينذاك، لم تسمح للسلطان الا بمناورات عسكرية فقط دون ان يتورط في حرب حقيقية على الشاه. فالتهديد البرتغالي للبحار العربية، جعل السلطان يوليه اهتماما كبيرا، مفضلا عدم فتح جبهة جديدة غير مستعد لها. وهكذا ترك حاكم العراق يواجه مصير بمفرده. ويعود تطلع الشاه لاحتلال الى عاملين:

1. **العامل السياسي**: ان الاستحواذ على بغداد قلب العالم الاسلامي يعطي للشاه اسماعيل مكانة رفيعة لدى المسلمين، طبقا للطموحات التي كانت تساوره.
2. **العامل الاقتصادي**: ان خصب العراق الزراعي يمكن ان يسد الكثير من حاجات سكان ايران، فضلا ان الشاه اراد السيطرة على الطريق التجاري المار بديار بكر والموصل والذي يقطع عمق العراق الى الخليج العربي عبر بغداد، وتعد الموصل رأس هذا الطريق، الباب الطبيعي لشمالي العراق عبر اتصالها بأقاليم الاناضول وبلاد الشام.

استطاع الشاه اسماعيل التقدم الى بغداد بجيش كبير، وارسل في المقدمة فرقة من الفرسان القزلباش يقودها حسين لاله، وبالرغم من ان حاكم بغداد استعد لمواجهة تلك القوات، الا انه وجد نفسه اضعف من ان يستمر في الدفاع عن المدينة التي لا تربطه بها رابطه قوية، ولا سيما بعد انتشار الروح الانهزامية بين قواته التي ارعبتهم انباء الفظائع التي كان ينزلها الشاه اسماعيل بالقوى التي تقف امامه، ولذا سارع الى الفرار قاصدا مدينة حلب ومن هناك اتجه الى ديار بكر. تقدمت قوات الغزو من كرمانشاه الى خانقين، وما ان علم باريك بيك برناك والي الاق قوينلو على بغداد، بزحف القوات الصفوية حتى غادر المدينة فدخلتها القوات الصفوية من دون قتال، وخطب للشاه اسماعيل على منابرها، كما سكت النقود باسمه دلالة على ضمها الى ممتلكاتها الدولة الصفوية. كان اول عمل قام به هو زيارة العتبات المقدسة في النجف وكربلاء، ونظم الشاه اوضاع العراق، فعين خادم بيك واليا عليه ومنحه لقب خليفة الخلفاء، وبالرغم من ان الشاه دخل بغداد سلما، الا انه امر بمذبحة راح ضحيتها عدد كبير من السكان دون مبرر. بعد ذلك غادر الشاه بغداد الى الحويزة وكانت

تحكمها الامارة المشعشعية في عهد الامير فياض فاشتبك معه وقتله واستولى على املاكه عام 1509.

ان الاحتلال الصفوي للعراق لم يدم طويلا، ولم تترك الدولة الصفوية اي اثر مهم في تاريخ العراق السياسي والاقتصادي لأنها كانت لا تزال في طور التأسيس فظلت جميع الانظمة والمناصب الادارية السابقة في العراق قائمة، وبقى النظام الزراعي كما كان عليه من ضمور وتخلف. وكل ما حدث بعد الاحتلال هو تعيين بعض القزلباش او الموالين لهم في المناصب الرئيسة، وحتى هذه التعيينات كانت تجري على نحو مرتجل واضح. وكان مما يلفت النظر حقا من الزاوية الادارية خلال مرحلة الاحتلال الصفوي للعراق، واطلاق الشاه اسماعيل لقب (خليفة الخلفاء) على الوالي الذي عينه على بغداد، وهوه امير ديوانه خادم بك طالش الذي سماه ابا المنصور. واستحدث هذا الشاه منصب مساعد الوالي واسنده الى احد العراقيين وعد ذلك خطوة توفيقية. كما سك الشاه اسماعيل عملة نقدية عثر على بعض قطعها في العراق. ومن اهم الاثار العائد للصفويين جامع الكواز في البصرة الذي امر بتشييده الشيخ سري بن الشيخ حسن العباسي عام 1514، وجدد بناؤه الشيخ عبد القادر الكبير العباسي عام 1523، كما قام الشاه اسماعيل الصفوي بإعادة تجديد المشهد الكاظمي، وقد شمل التجديد توسيع الروضة وتبليط الاروقة بالرخام، وتزيين الحرم واطرافه الخارجية بالطابوق الكاشاني ذي الآيات القرآنية والكتابات التاريخية، كما امر بأن تكون المآذن اربعا بعد ان كانت اثنتين، وقام بتشييد مسجد كبير في الجهة الشمالية للحرم متصل به، واحال امر التنفيذ الى امير الديوان خادم بيك.

- قائمة المصادر:

-ابراهيم خليل احمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني 1516-1916، (الموصل: مطبعة جامعة الموصل، 1986).

-ابراهيم خليل احمد وخليل علي مراد، ايران وتركيا: دراسة في التاريخ الحديث والمعاصر، (الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر، 1992).

-احمد بن يوسف القرماني(ت1019هـ/ 1610م)، اخبار الدول واثار الاول في التاريخ، دراسة وتحقيق: احمد حطيط وفهمي سعد، (بيروت: عالم الكتب، 1992)، ج2.

______________ اخبار الدول واثار الاول في التاريخ، دراسة وتحقيق: احمد حطيط وفهمي سعد، (بيروت: عالم الكتب، 1992)، ج3.

-ارمنيوس فامبري، تاريخ بخارى منذ اقدم العصور حتى العصر الحاضر، ترجمة: احمد محمود الساداتي، مراجعة: يحيى الخشاب، (القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، 1987).

-اسماعيل احمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، (الرياض: مكتبة العكيبان، 1995).

-اوليا جلبي، "بغداد في رحلة اوليا جلبي 1645و 1652"، ترجمة: صبحي ناظم توفيق وانيس عبد الخالق محمود، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة-بغداد، العدد: 33، لسنة: 2012.

-برهان نزر محمد علي المياح، "خانات بغداد من القرن التاسع وحتى مطلع القرن العشرين"، مجلة المورد، المجلد: 8، العدد: 4، لسنة: 1980.

-جمال الدين ابو المحاسن يوسف بن تغري بردي الاتابكي(ت874هـ/ 1470م)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد امين، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986)، ج4.

-جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى، ترجمة: محمد فتحي الشاعر، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992).

-ابن حجر العسقلاني(ت 852هـ)، انباء الغُمر بأنباء العُمر، تحقيق: حسن حبشي، (القاهرة: بلا.مط، 1969)، ج1.

______________، انباء الغُمر بأنباء العُمر، تحقيق: حسن حبشي، (القاهرة: دار التعاون للطباعة والنشر، 1998)، ج4.

-حسن الجاف، الوجيز في تاريخ ايران، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2003)، ج2.

-حسن الجاف، الوجيز في تاريخ ايران، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2003)، ج3.

-حكيم امين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية، (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، 1966).

-حمزة بن احمد بن عمر المعروف بابن سباط الغربي، (ت926هـ/ 1520م)، صدق الاخبار، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، (طرابلس: جرس برس، 1993)، ج2.

-خالد خليل حمودي، "خان مرجان في بغداد وعمارته"، مجلة التراث العلمي العربي، العدد: 6، لسنة: 2009.

-دونالد ولبر، ايران ماضيها وحاضرها، ترجمة: عبد المنعم محمد حسنين، (القاهرة: دار الكتاب المصري، 1985).

-سالم يونس محمد المولى، "سياسة الدولة المملوكية تجاه الغزو التيموري للعراق وبلاد الشام"، مجلة التربية والعلم، جامعة الموصل، المجلد: 12، العدد: 4، لسنة: 2005.

-سليمان الدخيل، الفوز بالمراد في تاريخ بغداد، تقديم وتعليق: محمد زينهم محمد عزب، (القاهرة: دار الافاق العربية، 2003).

-شاهين مكاريوس، تاريخ ايران، (القاهرة: دار الافاق العربية، 2003).

-شعبان طرطور، الدولة الجلائرية، (القاهرة: دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، 1987).

-شمس الدين ابي عبد الله الذهبي(ت746هـ)، دول الاسلام، (بيروت: منشورات الاعلى للمطبوعات، 1985).

-شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (بيروت: دار الجيل، 1992)، ج1.

-شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (بيروت: دار الجيل، 1992)، ج6.

-صالح محمد العابد وعماد عبد السلام رؤوف، "العراق بين الاحتلالين المغولي والصفوي"، بحث ضمن كتاب العراق في التاريخ، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1983).

-صالح محمد العابد، "النظام الاداري"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985)، ج10.

-صادق ياسين الحلو، "الجيش والسلاح منذ احتلال بغداد حتى العصر العثماني 1258-1534"، بحث ضمن موسوعة: الجيش والسلاح، (بغداد: دار الحرية للطاعة، 1988)، ج5.

-طارق جواد الجنابي، "العمارة العراقية"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985)، ج10.

-طارق نافع الحمداني، "واسط حاضرتها وقبائلها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر"، مجلة المورد، المجلد: 34، العدد: 2، لسنة: 2007.

-طالب محيسن حسن الوائلي، الصفويون من الطريقة الصوفية حتى تأسيس الدولة، (دمشق: رند للطباعة والنشر، 2011).

-عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2004)، ج2-3.

-عبد الله بن فتح الله البغدادي المعروف بالغياثي، تاريخ الدول الاسلامية في الشرق، (بيروت: دار مكتبة الهلال، 2010).

-عبد الرحمن بن خلدون، (ت 808هـ/ 1406م)، تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000)، ج5.

-عبد العزيز نوار، تاريخ الشعوب الاسلامية، (القاهرة: دار الفكر العربي، بلا.ت).

-عبد السلام الترمانيني، احداث التاريخ الاسلامي بترتيب السنين، (دمشق: دار طلاس، 1997)، ج4.

-عطا الحديثي، "خان مرجان وصيانته"، مجلة سومر، المجلد: 30، لسنة: 1974.

-علي شاكر علي، "العراق والغزو القره قوينلو في القرن الخامس عشر الميلادي"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 28، لسنة: 1986.

-عماد الدين خليل، "تيمورلنك في ديار بكر"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 15، لسنة: 1980.

-عماد عبد السلام رؤوف، "الجيش: القوى والمؤسسات العسكرية"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985)، ج10.

-فاروق عمر فوزي ومرتضى حسن النقيب، تاريخ ايران: دراسة في التاريخ السياسي لبلاد فارس خلال العصور الاسلامية الوسيطة 21-906هـ/ 641-1500م، (بغداد: منشورات بيت الحمة، 1989).

-كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة: نبيه امين فارس ومنير البعلبكي، (بيروت: دار العلم للملايين، 1968).

-كولن تيرنر، التشيع والتحول في العصر الصفوي، ترجمة: حسين علي عبد الساتر، (كولونيا: منشورات الجمل، 2008).

-محمد بن ابراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة(ت779هـ/ 1377م)، رحلات ابن بطوطة، (بيروت: دار صادر، 1992).

-محمد اسعد طلس، تاريخ الامة العربية: عصر الانحدار، (بيروت: دار الاندلس للطباعة والنشر، 1963).

-محمد حسن ال ياسين، "المشهد الكاظمي من بدء الاحتلال المغولي الى نهاية الاحتلال العثماني"، مجلة سومر، المجلد: 19، لسنة: 1963.

-محمد حسين العيدروس، القاجار والجزر العربية 1797-1912، (دبي: دار الكتاب الحديث، 2002).

-محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الصفوية في ايران، (بيروت: دار النفائس، 2012).

-محمد ماهر حمادة، دراسة وثائقية للتاريخ الاسلامي ومصادره من عهد بني امية حتى الفتح العثماني لسورية ومصر، (الرياض: مؤسسة الرسالة، 1988).

-نصر الله فلسفي، ايران وعلاقاتها الخارجية في العصر الصفوي، ترجمة: محمد فتحي يوسف الريس، (القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، 1989).

-ناصر النقشبندي، "الديناران الصفوي والعثماني"، مجلة سومر، المجلد: 17، الجزء: 2، لسنة: 1961.

-نظمي زاده مرتضى افندي، كلشن خلفا، ترجمة: موسى كاظم نورس، (النجف: مطبعة الاداب، 1971).

-نوري عبد الحميد خليل العاني، "حملات تيمور على بغداد 795-807هـ/ 1393-1405م"، مجلة المورد، المجلد: 8، العدد: 4، لسنة: 1980.

________________، العراق في العهد الجلائري، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1986).

________________، "صمود البصرة ومقاومتها للغزو الاجنبي 1258-1508"، مجلة المورد، المجلد: 23، العدد: 2، لسنة: 1995.

-ياسين خير الله العمري الخطيب الموصلي، غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام، قدم له واعتنى به: سامي عبد الله باشعالم العمري، (القاهرة: شركة العاتك للطباعة والنشر والتوزيع، 2006).

الفصل الثالث

الدولة العثمانية
وتنظيماتها الادارية والعسكرية

ـ اصل العثمانيون ونشأة دولتهم.

ينحدر الاتراك العثمانيون من حشود البدو الذين تجولوا في منطقة جبال ألتاي، شرق منطقة السهوب الأوراسية وجنوب نهر ينسي وبحيرة بايكال، وذلك في الاراضي التي تمثل حالياً جزءاً من منغوليا الخارجية. وهؤلاء البدو الألتائيون كانت لديهم حضارة بدائية قائمة على الحياة الجبلية ولم تكن لهذه القبائل حكومة، وقوانين كتلك التي تميز المجتمعات المتقدمة. وفي القرن الثاني قبل الميلاد، ادت التغييرات السياسية والحربية والاحوال المناخية في المناطق الألتائية، الى حدوث هجرات بدوية متتابعة ضد الحضارات المستقرة الواقعة على حدود السهوب، وقد عرفت القبائل التي تحركت الى الجنوب والغرب نحو شرق أوربا، والشرق الاوسط وآسيا الوسطى، باسم الأوغوز، وسموا كذلك بالتركمان أو الترك عند الشعوب التي تعرضت لهجماتهم. وقد اجتاح الترك في طريقهم بحثاً عن مأوى لهم ولقطعان ماشيتهم الشعوب المستقرة محدثين دمارا كبيرا بالمناطق التي مروا بها، وعندما استقر الترك اخيرا سمحوا للشعوب المستقرة التي بقيت حية أن تستعيد اوطانها وأنشطتها السابقة، ولهذا فأن الغزوات التي قام بها الترك لم تترك اية تغييرات دائمة في الانماط العرقية والاقتصادية.

يحيط الغموض بأصل العثمانيين، وهي مشكلة شغلت أذهان الباحثين، وذلك نظرا لغياب المصادر المعاصرة عن تاريخهم، فضلا عن الروايات المختلفة عن أحداثهم . اذ لم تكن للعثمانيين سجلات مكتوبة عن الفترة السابقة على فتح القسطنطينية سنة 1453، كما لا يشير البيزنطيون بما يستحق الذكر إلى اصل العثمانيين، لاسيما وأنهم لم تتوفر لديهم وسائل الحصول على معلومات لها قيمتها. أما الكتاب الاوربيون الاوائل فليس لمعلوماتهم أية

قيمة من حيث اعتبارها انعكاساً لفكرة اوروبا عن العثمانيين حين اصبحوا خطراً يهددها، هذا الى ان المصادر العثمانية التقليدية لم تشر الا قليلا للعثمانيين قبل استقرارهم في الاناضول، كما تتجاهل تاريخ الاتراك بوجه عام قبل اعتناقهم الاسلام.

ان الرواية التاريخية السائدة بين المؤرخين العثمانيين تقول ان العثمانيين ينتسبون الى احدى قبائل الغز التركية وأن زعيم احدى هذه القبائل وهي قبيلة قايي خان، نزحت من اواسط اسيا وحكمت منطقة ماهان بالقرب من مدينة بلخ الصغيرة في الجزء الشمالي الغربي من ايران في اواخر القرن الثاني عشر الميلادي. ويقال أن سليمان شاه زعيم تلك القبيلة هرب من الزحف المغولي بقيادة جنكيز خان ومعه الالاف من الاتراك الاخرين، حتى لا يواجه الموت او العبودية في ايدي الغزاة الجدد القادمين من اسيا الوسطى، واستقر في أخلاط الواقعة في شرق تركيا الحالية قريبة من بحيرة وان في هضبة ارمينية، ولكن اقامته لم تدم طويلاً فقد اراد سليمان شاه العودة الى بلاده، فسار الى قلعة جعبر واثناء عبوره مع عشيرته نهر الفرات سقط في النهر وغرق في عام 1231 قبل أن يبلغ غايته، وعندئذ انقسم قومه بين ابناءه الاربعة، وعند موضع يدعى ياسين اوه سي قاد اثنان منهم وهما سنقور زنكي وكون طوغدي معظم قومه عائدين الى خراسان للدخول في خدمة المغول، بينما تابع الاخوان الباقيان المسيرة غرباً الى الاناضول وتولى ارطغرل زعامة هذا الجزء من القبيلة. ويعني اسم ارطغرل" الرجل ذو القلب الابيض". وتقول الرواية التاريخية ان لارطغرل هذا ثلاثة ابناء هم كوندز، وصارو بني، وعثمان، وانه مكث في الموضع الذي افترق فيه مع اخوته وهو ياسين اوه سي يجاهد الكفار بلا شك المقصود بهم البيزنطيين. ثم ارسل ابنه صارو بني الى حاكم قونية وسيواس السلجوقي علاء الدين كيقباذ يستأذنه في الدخول الى بلاده، ويطلب منه موضعا ليستقر فيه مع عشيرته، فأذن له السلطان السلجوقي ومنحه قره جه طاغ الذي استوطنها مع 400 من عشيرته. ولكن رواية ثانية تقول أن أرطغرل أبو عثمان الذي نسبت اليه الدولة العثمانية قاد جماعة مؤلفة من حوالي اربعمائة فارس وعائلاتهم وفي اثناء سير ارطغرل(1231 1288) وعلى غير المتوقع، شاهد معركة دائرة بين فريقين لا يعرفهما،

وكان احد من الفريقين قد ضغط على الأخر وبضراوة، فحث عثمان اتباعه على مساعدة الفريق الخاسر، وتم النصر لهذا الفريق. وتبين فيما بعد ان الجيش الذي جرى انقاذه من الهزيمة المؤكدة كان بقيادة سلطان دولة الروم السلاجقة الاول علاء الدين كيقباذ(1219 - 1237م) في حين كان الجيش الاخر مغوليا وقيل في روايات اخرى بيزنطيا، فما كان من السلطان الا ان كافأ ارطغرل بمنحه وقبيلته أرضاً كإقطاع على الحدود البيزنطية، هي سكود شمال غرب الاناضول وهي مقاطعة تابعة لدولة سلاجقة الروم، على بعد أقل من خمسين ميلاً من بحر مرمرة، واقل من مائة ميل من القسطنطينية نفسها كما منح السلطان السلجوقي ارطغرل لقب (محافظ الحدود). ولكن ارطغرل لم يقنع بمهمة المحافظة على الحدود، بل شرع يهاجم باسم السلطان علاء الدين ممتلكات الدولة البيزنطية في الاناضول، وتستمر الروايات التاريخية لتقول ان السلطان السلجوقي هاجم قلعة كوتاهية وكانت تابعة للبيزنطيين عام 1286، وعين ارطغرل قائدا للحملة التي تكللت بالنجاح. وبعد وفاته عام 1288 عين السلطان السلجوقي ولده عثمان(1288-1326) محل في رئاسة عشيرته. وتتحدث الروايات التاريخية العثمانية عن اعتناق عثمان للإسلام، وتشير الى زواج عثمان أكبر اولاد أرطغرل ببنت رجل صالح يدعى الشيخ العارف اده بالي القرماني كان قد رآها مصادفة وعلق بها ولكن ابى والدها ان يزوجها له فحزن عثمان لذلك وأظهر الصبر والجلد ولم يرغب الاقتران بغيرها، حتى قبل أبوها بعد أن قص عليه عثمان مناماً رآه ذات ليلة في بيت هذا الصالح، وهو أنه رأى القمر صعد من صدر هذا الشيخ وبعد أن صار بدراً نزل في صدره أي صدر عثمان، ثم خرجت من صلبه شجرة نمت في الحال حتى غطت الاكوان بظلها، ورأى اكبر الجبال تحتها، وخرج النيل ودجلة والدانوب من جذعها، ورأى ورق هذه الشجرة كالسيوف يحولها الريح نحو مدينة القسطنطينية، فتفاءل الشيخ من هذا المنام وبشره بأن اسرة عثمان ستحكم العالم، وزوجه ابنته. وقد اخذت قوة الامارة الناشئة تدريجيا بالتزايد وان كنا ما نزال نجهل الظروف التي ادت الى ذلك، فالروايات التقليدية تقول ان عثمان هذا استغل كبر سن السلطان السلجوقي فاعلن استقلاله في الاراضي التي يسيطر عليها

عام 1299، واتخذ لقب بادشاه أي سلطان كدلالة على قيام دولته. ثم وسع رقعة امارته على حساب البيزنطيين مستغلاً الفوضى والاهمال المسيطرين على الاراضـي البيزنطية بالأناضول، فسيطر على قلعة بيلجيك، واينه كل، ويني شهر(يكي شهر). كما هدد منطقة نيقيا في المعركة التي خاضها البيزنطيون في قوين حصار سنة 1301. يبدو ان ابرز النتائج التي تمخض عنها تزايد قوة عثمان هو نشاطه العسكري الذي توج باحتلال مرمرة عام 1307، ثم اتخذ يني شهر عاصمة له، كما مد نفوذه الى حصون كته، ولفكه، واق حصار، وقوج حصار، وخلال الاعوام التالية كان عثمان قد تمكن من احكام قبضته في الاناضول بعد ان احتل عدة حصون هناك عام 1312، يظهر ان قوته بلغت حد كما تشير الروايات التاريخية حد ان هاجم بروسا بعد عشر سنوات الا انه توفي قبل ان يحتلها تاركا الامر لابنه اورخان.

يرفض المؤرخون المحدثون الكثير من الروايات التقليدية المرتبطة بمؤسس الاسرة عثمان، وان كان المؤرخ محمد فؤاد كوبرلي قد ايد ان العثمانيين كانوا قسم صغير من الغز المعروفين بعشيرة قايي قد وفدوا على الاناضول ايام الحروب السلجوقية وسكنوا اماكن مختلفة منه، وظلوا يعيشون في اواخر القرن الثالث عشر في شمال غرب الاناضول على الحدود التركية-البيزنطية ويمكن الظن بأن هذا القسم كان يحارب جيرانه من البيزنطيين تحت قيادة احد الامراء الاقوياء. ولكن المؤرخ بول ويتك رفض تماما الاسطورة القائلة بانتماء العثمانييون الى قبيلة قايي الغزية ويعتقد ان سليمان شاه الذي تقول الرواية الرسمية انه جد عثمان ليس الا شخصية اسطورية، وأن اسمه وذهابه الى بلاد الروم استعيرا من رواية حقيقية عرفت آنذاك عن احتلال التركمان الغزاة (المجاهدين) للأناضول في القرن الحادي عشر وارتباط ذلك باسم الامير السلجوقي سليمان بن قتلمش الذي ارسله السلاجقة الحاكمون في بغداد في الربع الاخير من القرن الحادي عشر لينظم عمليات أولئك الغزاة، فتمركز في نيقيا ولكنه عاد بعد احتلال نيقيا من قبل الصليبيين في سنة 1097م باتجاه بغداد بقصد الاستيلاء عليها وطرد اقربائه السلاجقة منها، فقتل في طريق عودته وغرق ابنه قليج ارسلان في نهر الخابور. اما المؤرخ الانكليزي غيبونز فيؤيد الكثير مما جاء في الرواية التقليدية، ولكنه يرفض

القصة الواردة بخصوص اسلام عثمان، اذ يعتقد ان عثمان وعشيرته اتراكاً كفاراً يزاولون الرعي، فلما عاشوا في بيئة اسلامية دخلوا الاسلام شأنهم في ذلك شأن ابناء جلدتهم من السلاجقة وقد اثار فيهم الدين الجديد رغبة ادخال الناس فيه فأرغموا جيرانهم الاغريق الذين كانوا يعيشون معهم في وفاق على الدخول في حوزة الاسلام كذلك، في وقت لم يكن تحت قيادة عثمان قبل دخول الاسلام غير اربعمائة محارب يقيمون في دورهم ويزاولون حياة بسيطة. لكن عددهم سرعان ما تضاعف بين سنتي (1290–1300) وامتدت حدودهم حتى تاخمت حدود البيزنطيين، وادى ذلك الى ظهور جنس جديد انتسب الى رئيسه(عثمان) ذلك هو الجنس العثماني. ولم يكن هذا الجنس تركياً خالصاً منذ بداية امره ولكنه كان جنساً جديداً مختلطاً ناشئاً من ذوبان العناصر الاصلية وقوامه الاتراك الوثنيون والاغريق المسيحيون. وقد زاد عدد العثمانيين بنسبة كبيرة في وقت قصير، ومن الخطأ تعليل ذلك بالإمدادات البدوية الجديدة الوافدة من الشرق، لأن اراضي العثمانيين كانت تقع غرب الاناضول، وكان لابد للكتل البشرية لكي تبلغ ذلك المكان من الالتحاق بخدمة حكام اخرين في شرق الاناضول اولاً وان تأخذ منهم اراضي ثانيا. ومن هنا لا يمكن تعليل الزيادة الا بذوبان العنصر المحلي المكون من الاغريق. ولكن هناك الكثير من الاعتراض حول فرضية غيبونز.

ففي الحقيقة ان الفترة الممتدة من القرن الثامن الى القرن الثالث عشر قد شهدت تدفق كثير من العناصر الجنسية الى الاناضول. ففي خلالها كان العنصر اليوناني، أو بشكل اكثر تحديدا التنظيم الهليني للنظم الامبراطورية البيزنطية، قد تراجع الى مدن السواحل التي جاء منها في البداية، وذلك باستثناء ما حدث على طول سلسلة جبال طوروس ووديان الانهار التي تصب في بحر ايجة. مرجع ذلك ان استمرار الفتوح الاسلامية قد ادى الى هجرة كثير من العناصر السورية العربية التي كانت تعتنق عقائد مختلفة الى الاناضول. اما طلائع الاتراك الذين وفدوا الى المنطقة عن طريق فارس فقد كانوا احد روافد الحركة السلجوقية العظمى، وسرعان ما اصبحوا عنصرا محليا بعد ان استقروا في كل مكان فتحته الجيوش السلجوقية امام الهجرة التركية.

كان اتراك الهجرات الاولى هذه بسطاء في التفكير يميلون الى التسامح مع الاخرين ولا يشعرون على الاطلاق بالمزايا والالتزامات الخاصة بمجتمع منظم، ومن ثم موقفهم سلبي من التغيرات السياسية التي كثيرا ما تعرض لها الاناضول منذ قدومهم. وخلال الربع الاول من القرن الثالث عشر تقدمت هجرة كبيرة اخرى صوب الاناضول، ولكن تفرق جزء كبير منها في جبال ارمينية، في حين اتجه جزء اخر منها صوب الجنوب الى سوريا وكيليكية ووصل بعضها الى مناطق قريبة من مصر. وفي وقت كان الغزو السلجوقي الاول كان غزو من اجل الاستقرار يتبع جيشا منتصرا، كانت هذه الغزوة الاخيرة غزوة لاجئين هربوا من عدوا مخيف هو جنكيز خان وقبائله المغولية. ولما كان هؤلاء المهاجرين يشتملون على عائلات تحمل كل ما تستطيع حمله من متاعها، ولما كان على المهاجرين ان يحثوا الخطى دون ان يكون لهم مستقر واضح، فان اغلبيتهم لم تتقدم كثيرا. وبعد ان استقر معظمهم في جبال ارمينيا وفي اعالي الفرات بعض الوقت، اغرتهم وفاة جنكيز خان بالعودة الى بلادهم. ورغم ان الجبال الوعرة ووديان الاناضول الضيقة لم تغرهم بالتقدم صوب الغرب، فقد تغلغل اكثرهم في الاناضول بعد ان فقدوا معظم نسائهم واطفالهم. ولما كانوا يشكلون مجموعات صغيرة من المحاربين، فقد قرروا الانخراط في جيش علاء الدين كيقباذ اخر سلاطين السلاجقة البارزين. واغلب الظن انه فزع لمجيء هذه العصابات المحاربة وتردد في قبول انخراط الكثير منهم في قواته، اذ لم يكن بإمكانه الركون الى اخلاصهم له في مواجهة الخوارزميين الذين كانوا يحاربهم في ذلك الوقت، أو في مواجهة المغول. لهذا اتبع سياسة حكيمة تقضي بمقاومة انخراطهم في جيشه ومنح زعمائهم اقطاعات على حدود دولته الاخذة بالانكماش، حيث كان عليهم على البقاء في مواجهة البيزنطيين. وفي مثل هذه الظروف كانت القبيلة المحظوظة هي التي شغلت الاقطاع الاقرب الى القسطنطينية وما تبقى من الامبراطورية البيزنطية، وتلك القبيلة التي كان زعيمها كما تشير الروايات يدعى عثمان، تلك القبيلة التي لم تحتك حتى عهد السلطان اورخان بالقبائل التركية الاخرى التي استطاعت ان تقيم بأمارات مستقلة على اثر انهيار الدولة السلجوقية.

لما كانت الامارة العثمانية، مواجهة للأراضي البيزنطية فضلاً عن وقوعها على الطرق الرئيسة التي تصل بين القسطنطينية والمدن العربية الكبرى في بلاد الشام والعراق فقد استطاعت ان تتفوق على الامارات المجاورة لها وتزداد قوة وتوسعاً لأسباب متعدد: فوقوعها قرب البيزنطيين جعل المجاهدين يسمون الغزاة، وهم الذين يحمون الثغور الاسلامية، لا يجدون عملاً في الامارات الضعيفة الاخرى التي قامت في النصف الغربي من الاناضول ومنها امارة منتشا على الساحل الجنوبي الغربي، وامارة تكة على ساحل الاناضول الجنوبي، وامارة سينوب على البحر الاسود، فهرعوا الى الامارة العثمانية وزادوا من قوتها . كما ان موقعها الاستراتيجي سهل مجيء العلماء والعناصر المنظمة، كالتجار والصناع، من داخل العالم الاسلامي اليها، وحلت تبعاً لذلك مشكلة موارد الامارة. وقد نشط علماء المدارس الاسلامية وطبقوا تعاليم الدين في نظم الامارة. وكان التجار والصناع منظمين في ما يشبه نقابات، تسمى الاخية او الاخوان يتعاون فيها اصحاب كل مهنة وتنشأ بينهم رابطة ولاء ودفاع عن مصالحهم. واتخذت هذه الرابطة مظهراً عسكرياً، وقد سادت بين الغزاة والحاكمين منهم ومنظمات الاخية مجموعة من التقاليد في الاخلاق والسلوك مبنية في الغالب على التقى مع مزيج من التصوف، وقد استفادت امارة عثمان من هذه الخصائص، ومن كثرة العنصر المحارب فيها. وعلى صغرها فقد اخذت تتوسع ببطء في وجه مقاومة البيزنطيين وكان كل انتصار يجلب اليها غزاة اكثر ، وهكذا ازدادت امكاناتها العسكرية وتحتم عليها متابعة الغزو في كل من الاناضول وشبه جزيرة البلقان. وكان من حسن حظ العثمانيين ان بيزنطة قد انشغلت بكثير من القلاقل والفتن في العاصمة وفي البلقان بالصدام المستمر مع اعدائها من امارات الثغور الاسلامية الواقعة على حدودها امثال امارة جرميان وصاروخان ومنتشا وقرة سي، لذا لم تستطع التحرك ضد عثمان، ونتيجة لذلك سقطت بيد العثمانيين أماكن كثيرة ، وكان عليها ان تدافع عن نفسها بقوات محلية. في عهد اورخان(1326-1360) احتل العثمانيون بروسة التي اتخذها اورخان عاصمة له عام 1326، التي تعد احدى اهم النقاط العسكرية في الاناضول، وسرعان ما احتل العثمانيون

نيقوميديا(ازنكميد) عام 1337م، ولما كانت بيزنطة قد انشغلت بكثير من الفتن بعد وفاة امور بك حاكم ولاية ايدين فقد عنيت كثيراً بأن تضمن لنفسها مساعدة اورخان بن عثمان الذي صار يتدخل بقواته في امور بيزنطة. وما لبت العثمانيون ان اجتازوا البحر عام 1345، اذ افادوا من زلزال دمر اسوار غاليبولي (جناق قلعة) فدخلوها، واستوفد اورخان كثيراً من اتراك الاناضول وخاصة من ولاية قرة سي التي مدوا نفوذهم اليها، وكذلك بعض العشائر التركية فوطنهم هناك. وبشكل عام فقد اتسم عهد اورخان بأمرين هما:

1. اتساع العمليات العسكرية العثمانية في عهده.
2. تنظيم الحكم في الدولة بعد اتساع رقعتها، فقد عمد السلطان اورخان الى اصدار مجموعة من القوانين لتنظيم امور الحكم وضرب العملة الذهبية والفضية واسس الجيش الجديد.

مثل عهد مراد الاول(1360-1389) ثورة في الامتداد العثماني، سواء في الاناضول ازاء الامارات التركمانية أم في البلقان، فقد دحر امارة قرمان القوية في الاناضول ودخل عاصمتها انقرة عام 1360 بعد قيام حاكمها علاء الدين خليل بن محمود بتحريض العشائر التركمانية ضد العثمانيين، وقد اضطر علاء الدين ان يبرم صلحا مع العثمانيين الاقوياء بعد ان اعلن ولاءه لهم. اما بيزنطة فقد بدأت تحس بالخطر العثماني بأوسع معانيه الان فقد كان الاتراك قد استقروا نهائياً على ساحل اوروبا متخذين من غاليبولي نقطة متقدمة لعملياتهم الحربية التي استطاعوا دفعها حتى تراقيا. وقد استولى الاتراك من قادة اورخان ومن اولى الخبرة في غزواتهم سنة (1360 1361) على اهم الاماكن الاستراتيجية في تراقيا. في وقت كان قسم من اهل تراقيا قد فروا امام الزحف العثماني، مما افاد العثمانيين، اذ سرعان ما كان الاتراك القادمين من الاناضول يعمرون اماكنهم الخالية كنمط من الاستيطان الحقيقي. وسرعان ما احتل مراد الاول ادرنة عام 1361 ونقل العاصمة من بروسة الى ادرنة التي ظلت عاصمة الدولة العثمانية حتى عام 1453، واخذ يتوغل في البلقان، ويظهر ان هذا التوغل قد دفع البابا اوربانوس الخامس ان يدعو الى شن حرب على العثمانيين، فلبت دول فرنسا

واسبانيا والمانيا الدعوة وانظمت جيوشها الى جيش انشأ بعد حلف بين المجر وبولندا وصربيا والبوسنة، وقد اصدم الاوربيون بالجيش العثماني في معركة جرت عام 1362 بالقرب من نهر ماريتزا انتهت بانتصار الجيش العثماني. في عام 1386 اخذ العثمانيون يتوغلون شمالا في بلغاريا وغربا في مقدونيا وتمكنوا من الاستيلاء على صوفيا ونيش وسالونيك، وهكذا وفق مراد في مدة سلطنته في تحقيق غايته وهي بسط سلطة العثمانيين على البلقان، كما استولى على تراقيا ومقدونيا وبلغاريا وملأوها بجماعات كثيفة من الاتراك والمهاجرين. ان التوسع العثماني في البلقان قد ارعب ملوك صربيا وبلغاريا والبانيا وطلبوا من البابا ان يدعوا ملوك اوروبا لمساعدتهم فاستجابوا لندائهم وجرت بين الجيش العثماني والجيوش المتحالفة معركة في سهل كوسوفو عام 1389 انتصر فيها العثمانيون وزال استقلال صربيا وبلغاريا والروميلي وضمت الى الدولة العثمانية. وفي الواقع كان مراد الاول قد وسع حدود دولته بما يعادل خمس مرات لما كانت عليه في عهد اسلافه، وقد وصلت الدولة العثمانية في عهده الى شواطئ الدانوب، وجهات البوسنة في عمق اوروبا الشرقية. ولما كان مسيحي البلقان الذين دخلوا في حوزة الحكم العثماني لم يعيشوا مثل مسيحي الاناضول قروناً طويلة في جوار المسلمين، فقد ابتدعت في عهد مراد الاول طرق جديدة لإدخالهم في الاسلام ومن ذلك عتق الاسرى في حالة دخولهم الاسلام، لكن لما كانت هذه الطريقة لا تطبق الا في دائرة محددة، فقد كانت نتائجها كذلك محدودة وظهر عندئذ الضرورة لتأسيس جيش جديد هو الجيش الانكشاري من ابناء المسيحيين. كما ابتدع نظام الدوشرمة الذين تتم عملية ادخالهم في الدين الاسلامي لذلك كانت العناصر اليونانية والسلافية في البلقان تفضل دخول الاسلام على تسليم ابنائها الى العثمانيين. فان ادخلنا في اعتبارنا أن الجيش الانكشاري لم يكن له حتى في القرن الخامس عشر اهمية عددية، ولم يكن هو العنصر الاساسي في الجيش رجحنا انه لم يكن تشكيلاً يراد به تقوية الجيش وانما كانت وسيلة لنشر الاسلام. ولما عظمت قوة العثمانيين بانتصاراتهم في البلقان استطاعوا توسيع حدودهم داخل الاناضول على قسم كبير من اطرافها وعلى قسم كبير من الاراضي التابعة لإمارات كرميان وحميد وقهروا امارة قرمان.

وعندما اعتلى ابنه بايزيد الاول(1389–1403) العرش خلفا له، كان هدف الدولة قد اضحى واضحا، فحدد سياسته على قاعدتين:

1. تصفية الاسر الحاكمة في الاناضول والبلقان وضم ولاياتهم الى دولته الناشئة.
2. تأسيس دولة مركزية في تلك المناطق متخذا من النظام المركزي في الدول الاسلامية المشرقية وتشكيلاتها كأساس لهذا التوجه.

من اجل ان يحقق بايزيد الهدفين الذين وضعهما نصب عينيه استهل حكمه بعقد صلح مع امير صربيا عام 1391، لكي يتفرغ لصراعه المقبل مع الامبراطورية البيزنطية والدويلات السلجوقية(التركمانية)، فاحتل مدينة الاشهر المعروفة عند البيزنطيين باسم فيلادلفيا وهي اخر مدينة بيزنطية بقيت بيدهم في اسيا. ثم استأنف عملياته العسكرية في اوروبا فاكمل احتلال بلغاريا عام 1393، ثم اصطدم بجيوش الدول الاوربية التي عقدت حلفا عسكريا لإيقاف التوسع العثماني فانتصر عليها في معركة قرب نيقوبوليس عام 1397، وفرض حصارا على القسطنطينية استمر ست سنوات ولكنه اضطر الى تركها بعد وصول تيمور لنك بقواته الى الاناضول واحتلاله سيواس، وكان بايزيد قد استولى على الامارات التركمانية في الاناضول الواقعة غربي الفرات، فاستنجد امراءها بتيمور لنك، الذي ارسل الى بايزيد يطلب منه رد تلك الامارات الى اصحابها، لكن بايزيد رفض ذلك بشدة في وقت تلقى تيمور لنك من امبراطور القسطنطينية وملك فرنسا رسائل يحرضونه فيها على قتال العثمانيين، فاجتاح تيمور لنك اراضي السلطنة العثمانية والتقى بقوات بايزيد في معركة انقرة عام 1402 انتهت بهزيمة ساحقة للعثمانيين واسر السلطان بايزيد ثم وفاته، وعلى اثر هذه المعركة تنازع ابناء السلطان بايزيد على السلطنة ، فاستقل كل واحد منهم في اقليم من اقاليم الدولة. غير انه بعد انتهاء هذه الفترة، التي اسماها المؤرخون العثمانيون باسم(فاصلة السلطنة) بانتصار السلطان محمد الاول (–1402 1421)، على اخوته، فضلا عن انتصاراته مع الامـــارات التركمانية لإرجـــاع السيادة العثمانية عليها. وفـــي عهد ابنه مراد الثاني(1421–1451) عاد العثمانيون توسعهم في اوروبا بعد ان تجاوزوا صدمة معركة

انقرة وقد تمكن السلطان من تحقيق نصر ساحق على الاوربيين في معركة كوسوفو الثانية. وقد تولى العرش من بعده محمد الثاني الملقب بالفاتح(1451-1481) الذي تمكن من فتح القسطنطينية واتخذها عاصمة له تحت اسطنبول، ومكن لسلطته في شمالي البلقان ليواجه المجر التي اثبتت خلال العهود السابقة انها عقبة رئيسة امام التوسع العثماني في اوروبا، فتوغل في بلاد الصرب وفتح مدنا عدة، واستعصت عليه بلغراد، كما احتل المورة في اليونان، والبوسنة والهرسك، وسقطت في قبضته كلا من طرابزون اخر معاقل البيزنطيين في اسيا الصغرى وسينوب والقرمان، كما احتل بلاد القرم وزنطا وكورفو وسان موري وكفالونيا، ودخل في حرب طويلة الامد، ستة عشر عاما، مع البندقية واجبرها على التنازل عن بعض مستعمراتها في اليونان وجزر الارخبيل.

ـ نظام الحكم العثماني.

اولا: التنظيمات الادارية للدولة العثمانية.

تعد السلطنة العثمانية امتدادا للسلطنة السلجوقية، أو بديلا لاستمرارية ثوابتها كتجربة تاريخية، ذلك انها نشأت على انقاضها، ومن خلال دور الغزاة المجاهدين الذين احتضنهم السلطان السلجوقي في اسيا الصغرى على ثغور البيزنطيين، وانتسبت الى اسرة مؤسسة هي اسرة ال عثمان. فالدولة العثمانية بهذا المعنى تندرج في المعاني التي اكتسبتها عملية تأسيس الدولة القائمة على الاستيلاء، شأنها في ذلك شأن الدول الشرقية التي سبقتها.

كان السلطان العثماني يعرف بلقب (خنكار) أو (بادشاه)، أو(بادشاه الاسلام)، أو بادشاه ال عثمان، وكلمة بادشاه تعني من ضمن معانيها ملك الملوك، السلطان الاعظم او الرئيس الاعلى للدولة والجيش ويشترط فيه ان يكون تركي الاصل، لذلك تركز الولاء في الدولة العثمانية لآل عثمان (عثمانلر) وحدهم وهم اسرة تركية تدعي الانتماء في الاصل-

ولو دون مبرر- الى قبيلة اوغوز التي انحدر منها السلاجقة كذلك من قبل. وقد تشبثت الاسرة العثمانية بأصلها العرقي هذا لتستهوي به رجال القبائل التركية.

كان السلطان العثماني اعلى شخص في الدولة العثمانية وكانت سلطته مستمدة من قوة الجيش الانكشاري، وكانت السلطنة هي اعلى مؤسسة في الدولة العثمانية ويترأسها السلطان العثماني، ولم تكن سلطة السلطان الهية حسب نظرية حق الملوك الالهي، كذلك لم تكن خلافة دينية بالمعنى الاسلامي الصحيح، بل كانت السلطنة مستمدة من قوة الجيش وولائه للسلطان، ولم يكن السلطان من الناحية النظرية مطلق التصرف، بل كان يسير في الحكم حسب الشريعة الاسلامية، وكانت جميع القوانين التي تصدر من الباب العالي يجب الا تتعارض واحكام الدين الاسلامي، كما يجب ان يراعي عند تشريع أي قانون العادات والتقاليد المتعارف عليها في البلاد، والتي تكون مختلفة من منطقة لأخرى، ولكن من الناحية العملية تمتع السلطان العثماني بسلطة مدنية مطلقة، فالأمر الذي يصدر منه كان يكفي لإعدام الاشخاص ومصادرة اموالهم دون محاكمة او سؤال مع ان صلاحياته كانت تبدوا مقيدة بصورة نظرية بأحكام الشريعة الاسلامية، الا ان العلماء اي رجال الدين كانوا لا يتأخرون عن ايجاد الاحكام واصدار الفتاوى التي تخدم مآرب السلاطين وتضفي على اوامرهم وتصرفاتهم صفة الشرعية. والسلطان هو رئيس الدولة والقائد الاعلى للقوات العثمانية، ورئيس الهيئة الحاكمة(قولار)، وهو المرجع الاعلى لكل شان مهم، فلا يمكن تجاوزه في شيء، اذ لا يمكن تعيين وزير أو موظف كبير مدنيا كان ام عسكريا بدون امره، كما لا يصدر أي قانون الا بموافقته.

وكانت الدولة العثمانية في جميع ادوارها التاريخية تستعمل بعض الرموز والاساليب المستمدة من اصول قبيلة تركية كأذناب الخيل (الطوغ) التي كانت علامة على الرتبة في الحكومة . وكانت التركية لغة البلاط والقيادة في الجيش ودوائر الحكومة ولكن هذا لا يعني، وخاصة في المراحل الاولى ان هناك تركيزاً على عرق او جنس معين، فالموظف في خدمة السلطان العثماني لم يكن يعد نفسه بحكم الضرورة تركياً في اصله ولو انه كان

يستعمل اللغة التركية. وقد تمسك العثمانيون منذ البدء بكلمة عثماني تعزيزاً بالانتساب الى عثمان من جهة واستعلاء على اجناس تركية متخلفة في نظرهم، كانت تقطن في آسيا من جهة اخرى. وكثيراً ما استخدم العثمانيون حتى اوائل القرن التاسع عشر كلمة تركي بمعنى الفلاح الجاهل تهكماً به او تحقيراً له.

وكانت من اهم مؤسسات السلطنة هو البلاط وكان اعضاءه يتمتعون بامتيازات كبيرة، وكان للنساء دور كبير في البلاط لاسيما ابان ضعف الدولة العثمانية حيث كانت ام السلطان أو زوجته تلغي بعض القرارات التي يتخذها السلطان، وهذه الامور بالتأكيد تؤدي الى ضعف الدولة وانهيارها. وتمثلت الهيئة الحاكمة في الدولة العثمانية من السلطان واسرته وضباط حرسه والجيش النظامي، الذي كان مكونا من الفرسان والمدفعية والمشاة والبحرية، والى جانب هؤلاء هناك اصحاب الاقطاعات وفرسانهم، اما الهيئة الاسلامية فقد كانت تشغل وظائف الدولة كمعلمين ورجال دين وقضاة. ويلي السلطان من حيث الاهمية (شيخ الاسلام) وهو الرئيس الاعلى للعلماء، وبيده جميع التشريعات والمحاكم والمدارس الملحقة بالمساجد، وممتلكات الاوقاف، والقضاة الشرعيين، والقضاة العسكريين والمفتين ايضا، وكان يطلق على مقر شيخ الاسلام اسم باب المشيخة. وهناك الصدر الاعظم اي رئيس دولة الوزراء وكان يقوم بإعانة السلطان في اصدار القوانين وادارة البلاد. ويطلق على الحكومة المركزية للدولة اسم (الباب العالي) ويتولى الشؤون الخارجية (ريس افندي) وهو بمثابة وزير الخارجية وهو مساعد الصدر الاعظم. وكان ثمة ديوان مركزي يترأسه السلطان ويضم كبار رجال الدولة المدنيين والعسكريين ورجال الدين. وهذا الديوان لا يحكم وانما كان يناقش المسائل ويخطط السياسة العامة للدولة .وكان السلطان يواظب على حضور جلساته ولكن بعد عهد السلطان سليمان القانوني تلكأ السلاطين في حضور جلساته واكتفوا بالسماع إلى ما كان يدور فيه من مناقشات، فكان ذلك من اسباب تدهور الدولة العثمانية.

تألفت الدولة العثمانية من وحدات ادارية وعسكرية عرفت بالإيالات، وكانت كل ايالة منفصلة عن الاخرى اداريا وقضائيا وماليا، والايالة هي اكبر وحدة ادارية وتقسم الى

سناجق اي الوية، وقد كانت مساحة الايالة غير ثابتة وكانت تتغير باستمرار تبعا لقوة ونفوذ الوالي المعين في الايالة. وكان يعهد بشؤن الايالة الى(باشا) يسمى(بكلر بكي) بمعنى (بيك البكوات) ويعد برتبة(مير ميران) بمعنى (امير الامراء) ويعهد بشؤون اللواء الى(بيك) يسمى (سنجق بكي) بمعنى (بك اللواء) ويعتبر بمرتبة(ميرلوا) بمعنى(امير اللواء) ولقد بلغ عدد الايالات التي تألفت منها الدولة العثمانية في اوائل القرن السابع عشر (32) ايالة، منها(15) كانت عربية. اما السناجق فقد كانت تتكون من عدد من الاقضية تتراوح بين 5-10 اقضية، وكان يعهد الى القضاء بموظف يدعى قائمقام. وكان القضاء يشمل عددا من النواحي التي هي اصغر اداريا من القضاء، والنواحي عادة تشمل عددا من القرى.

اما في القرن التاسع عشر ،فقد اصبحت الدولة العثمانية تقسم الى وحدات ادارية سميت بالولايات، وتنقسم الولاية الى سناجق (الوية) والالوية الى اقضية والاقضية الى نواح . وكان على رأس الادارة في الولاية الوالي، وفي كل لواء (متصرف) وفي كل قضاء (قائمقام) وفي كل ناحية (مدير ناحية) وبلغ مجموع الولايات العربية خلال الفترة المذكورة (12) ولاية، و(4) متصرفيات مستقلة. وكان السلطان العثماني هو الذي يعين الولاة، ومعظمهم اتراك ومن حاشيته الخاصة. ويلقب الوالي رسمياً ب (الباشا) وله سلطة واسعة قد تصل الى حق الاعدام، ومصادرة الاموال. ولم يكن في استطاعة الوالي التمادي في استغلال سلطته تلك، لأن الشعب يحاول اللجوء الى القاضي ورجال الدين اذا ما طغى واستبد دون وجه حق، وكانوا يرفعون الشكاوي الى السلطان مباشرة. وقد يثورون على الوالي احياناً بل ويطردونه احياناً من البلاد. ويلعب قادة الحامية العثمانية(الاوجاق) دوراً في تقييد سلطة الوالي بحكم ما كان تحت امرتهم من قوة مسلحة. لم تكن مدة الوالي طويلة، فالقاعدة العامة هي ان يتول الوالي لمدة سنة ويجدد تعيينه الى ثلاث سنوات في الغالب وقد تطول مدته، ومما يلحظ ان مدة حكم الوالي قصيرة بحيث لا تمكنه عن القيام بمشاريع طويلة الامد وقد يعود الوالي احياناً الى ولايته اكثر من مرة او يعين في ولاية ثم يتولى ادارة ولاية اخرى فيكون من ذلك من الاسباب التي تكسبه خبرة دقيقة بأمور البلاد الا ان همه

الرئيس يبقى في المحافظة على الوضع القائم وتزويد نفسه وحكمه بأسباب الحماية. وكان الوالي في الولايات العربية يتسلم مرتباً سنوياً يسمى (سالیانة) يقتطعه من الاموال التي يجمعها من ولايته. ويجمع الوالي بين السلطتين المدنية والعسكرية . وقد يتولى الوالي جباية الضرائب والرسوم في ولايته. ويعمل الى جانب الوالي عدد من الموظفين يسمون بأركان الولاية وابرزهم نائبه الكتخدا او الكهية ويكون مسؤولاً عن الامن، والدفتر دار، وهو المسؤول عن الامور المالية في الولاية، ويعينه السلطان وله حق محاسبة الوالي ومصادرة امواله، وارسال قدر مناسب من الاموال الى خزينة السلطان. وهناك المكتوبجي، وهو المسؤول عن تحريرات الولاية، والخزنة دار، أي امين الخزانة الخاصة. اما اغا الانكشارية فهو قائد الحامية العسكرية ويعين من قبل السلطان. وتسند الامور القضائية في الولاية الى القاضي الذي كان يعين باقتراح من شيخ الاسلام وبفرمان سلطاني، وتلحق به دار الافتاء ويرأسها مفتي المدينة، وكان للقاضي نواب في سائر انحاء الولاية، وهناك نقباء الاشراف في عواصم الولايات والمدن العربية الكبيرة . وكان الاشراف في العهد العثماني وقبله يقومون بدور الوسيط بين الحكام والسكان المحليين من عامة الناس، وكانوا في اهم الامور موالين للسلطان مخلصين له، مع كونهم في الوقت نفسه الزعماء في مدنهم. وقد حاول الاشراف في بعض الاحيان ان يحدو من جماح السلطة العثمانية، وكانت وسائل القيام بهذا العمل متاحة لهم، لأنهم كانوا يستطيعون تعبئة الرأي العام عن طريق استخدامهم الوعاظ ومشايخ الحارات وزعماء الطوائف الحرفية. بالإضافة الى ما كان لهم من تأثير ونفوذ عن طريق الروابط المتصلة بينهم وبين اصحاب الوظائف الدينية على اختلاف درجاتهم في جميع انحاء الدولة العثمانية وفي مقدمتهم العلماء في اسطنبول. وقد انتظم الوالي وأغا الانكشارية والدفتر دار والقاضي في مجلس استشاري يرأسه الوالي ويطلق عليه الديوان .ومع انه انشئ ليكون الهيئة العليا القادرة على محاسبة الوالي، الا انه اهمل اهمالاً تاماً ولم يعد اداة من ادوات الحكم، واصبح مجرد هيئة استشارية تجتمع في المناسبات الرسمية لاستقبال كبار الزوار. اما التنظيم الاداري خارج الولاية فكان محدوداً، اذ لكل سنجق حاكم مسؤول عن

جميع النواحي العسكرية والاقتصادية، ويعين حسب رغبة الوالي. كما تركت ادارة العشائر لشيوخها حسب عرفها وما تتبعه من قوانين وتقاليد عشائرية وقد يرجع ذلك بدون شك الى عجز الدولة بأنظمتها وادواتها المعروفة حتى القرن التاسع عشر عن ان تبسط الحكم الفعال القوي في ولاياتها.

ثانيا: المؤسسة العسكرية العثمانية.

كانت الطابع العسكري هو السمة الغالبة على الدولة العثمانية منذ نشأتها، لذلك حظيت المؤسسة العسكرية العثمانية برعاية السلاطين العثمانيين، ويعد الجيش العثماني من اخطر المؤسسات للنظام العثماني كله. وقد بدأ نظام المؤسسة العسكرية العثمانية منذ بداية نشؤها، واعتمد على جمع اعداد من المتطوعين الذين يحاربون في سبيل نشر الاسلام، ويعود هؤلاء الى بيوتهم بعد الانتهاء من الحرب. وكانت من ابرز الانظمة العسكرية العثمانية هي:

1. نظام الدوشرمة/ ضريبة(الغلمان):

ضريبة ادمية فرضتها الدولة على رعاياها الذين يعتنقون مذهب الكنيسة الارثوذكسية الشرقية، وكلمة الدوشرمة اصلاً يونانية تعني جمع الاولاد من العائلات المسيحية، وكان هؤلاء يمثلون خمس اطفال الدولة المهزومة في مقدونيا والصرب وبلغاريا والبانيا والمجر وغيرها كحصة بيت مال المسلمين. وكانت الدولة العثمانية تجمع اطفال الدوشرمة، وهم صغار وتحولهم الى الدين الاسلامي وتنظم لهم دراسات علمية مدنية وعسكرية، لتجعل منهم ادوات اسلامية للقتال والحكم في خدمة الدولة. وقد ملأ اطفال الدوشرمة بعد تعليمهم وتدريبهم صفوف فرقة الانكشارية وقوة الخيالة النظاميين ومنهم كانت تستقي نسبة كبيرة من موظفي الدولة، وباتساع الدولة كان الاتراك يشكلون الفئة المهيمنة فيها، على حين أن اطفال الدوشرمة كانوا يشكلون قمة جهاز الحكم ويسيطرون على الاتراك ذاتهم. وكانت الحكومة

العثمانية ترسل وكلاء الى المناطق المأهولة بالعائلات المسيحية، فيجتمع كل هؤلاء الوكلاء بقسيس القرية، ويطلب منه كشفاً باسم الاطفال الذكور الذين قام بتعميدهم. ولم يكن هناك قانون معين أو لائحة تحدد طريقة اختيار الطفل، بل كل ما في الامر أن الدولة تحدد لكل وكيل عدد الاطفال الذين يتعين احضارهم للسلطان. وكان العثمانيين يمارسون في العادة جمع الاطفال من الريف والقرى. وكانوا يأخذون اولاد المزارعين، ومما يجدر ذكره ان العثمانيين كانوا يستجيبوا لدواعي الرحمة، فلا يأخذون الطفل وحيد والديه ولا الاطفال في سن الرضاعة، لأن امثالهم يشكلون عبئاً ثقيلاً على الموظفين المختصين بتنشئة الاطفال وتربيتهم، وكانت الحكومة العثمانية لا تأخذ الاولاد الذين تجاوزوا الحلم لأنه يصعب فصل امثال هؤلاء الاولاد عن ماضيهم وعن اهلهم وعن بيئتهم الاولى، ولذلك كان وكلاء الدولة العثمانية يأخذون في معظم الاحوال الاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين السابعة والعاشرة ومنذ أن يتحرك الوكيل بهؤلاء الاطفال الى عاصمة الدولة تنقطع الصلة نهائياً بين الاطفال و ذويهم. وكان الوكيل الحكومي يخرج من القرية بحصيلة مالية وبشرية تتمثل الحصيلة المالية في الرشوة التي يحصل عليها من بعض الاباء الموسرين في سبيل التغاضي عن جمع اولادهم. وكانت هذه الحصيلة تختلف قلة وكثرة تبعاً لثراء الاباء من ناحية ومدى جشع الوكلاء من ناحية اخرى. ومع ذلك فأن اغلب المؤرخين يقررون ان غالبية الاباء كانوا يرحبون بتقديم أولادهم ، ونظروا الى العملية كلها على انها امتياز لهم اكثر منها عبئاً نفسياً ثقيلاً ويؤكدون هذا الرأي بقولهم أن العائلات المسلمة كانت تطلب الى الاسر المسيحية أن تقدم اولادها الى وكيل الحكومة على انهم مسيحيون بدلاً من اولاد هذه الاسر المسيحية. وكانت مزايا نظام الدوشرمة واضحة امام اعين المسلمين من البوسنة الذين رتبوا لإرسال ألف من ابنائهم في سنة 1515 الى مدارس التدريب الخاصة بالقصر الامبراطوري .وكذلك عمل اليهود على حشد اولادهم ضمن حصيلة الدوشرمة على انهم مسيحيون، وبذلك تسري في غفلة من الحكومة، على اولاد المسلمين واليهود الامتيازات التي تعود على ابناء الاسر المسيحية. ومن المرجح ان تطور الدوشرمة الى نظام دوري يقوم على جمع الاطفال المسيحيين لملأ الوظائف في القصر والادارة قد تم في عهد السلطان بايزيد الاول (1389-1402)

وطبق بوجه عام في عهد مراد الثاني ومحمد الفاتح. وفي اسطنبول كان يتحول اطفال الدوشرمة الى الاسلام وتجري لهم جراحة الختان ويتلقون تربية دينية ويحضرون دراسات في اللغة التركية والتاريخ الاسلامي العام والتاريخ العثماني فينشؤون على التمسك بالدين الاسلامي والتعلق بالدولة العثمانية وكانوا الى جانب ذلك يتلقون تدريباً عسكرياً خاصاً. وكان من تبدو عليهم صفات استثنائية من الناحيتين العقلية والجسمية يدربون باعتبارهم غلماناً في الخدمة الداخلية في القصور السلطانية، وكان يطلق عليهم ايج أوغلانات (مفردها ايج اوغلان) اما الباقون فكانت الدولة تعدهم لشغل الوظائف المدنية الكبرى، ويتلقون تعليماً عسكرياً ومدنياً خاصاً، ووصل بعضهم الى الصدارة العظمى اي رئاسة الوزراء، وكان بإمكانهم الانخراط في الخدمة العسكرية في جيش القبوقولو (عبيد الباب العالي). وهناك ما يدل على ان الموظفين العثمانيين الذين كانوا من(الدوشرمة) اصلا ظلوا يتذكرون طفولتهم عندما اخذوا صغاراً من ذويهم ويحنون الى ذوي القربى منهم. فإبراهيم باشا الصدر العظم في عهد السلطان سليمان القانوني كان من اصل يوناني وظل في منصبه مدة ثلاثة عشر عاماً قبل ان يشنق في عام 1536 لارتكابه اخطاء كثيرة من بينها انه كان يحمي اقربائه اليونانيين ويرعى مصالحهم ومحمد صرقوللو الصدر الاعظم(1564-1579) لم يكن يتصل فقط اتصالات خاصة بعائلته بل ساعد ايضاً اهالي الصرب من خلال محاولة اقناع السلطان بإعادة تأسيس اسقفية بيك في عام (1557)، بالاشتراك مع اخيه رئيس الاساقفة.

2. الانكشارية:

ان القوة الحقيقية للجيش العثماني في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي كانت تكمن في جماعة الانكشارية (المشاة النظاميين) والسباهية(الخيالة) فطبقاً للشريعة الاسلامية كان غير المسلمين من غير سكان دار الحرب هم وحدهم الذين يحل استرقاقهم، كما ان حكماً اخر من احكام الشريعة كان يخصص للإمام خمس الغنائم بما في ذلك الاسرى من غير المسلمين. وكان السلاطين العثمانيون أئمة بالدرجة التي تؤهلهم للتمتع بهذه الميزة، ومن

ثم امتلاكهم عدداً كبيراً مطرد الزيادة من الاسرى الارقاء الذين كان بيعهم امراً عادياً. وكان للسلطان حق الاختيار الاول في الغنائم وفضلاً عن ذلك كان السلطان يشتري الاسرى الصغار الاقوياء بأرخص الاسعار ويصنفون كأبناء بالتبني وعبيداً له. وقد اطلق عليهم السلطان(الفرق الجديدة) التي تسمى بالتركية ينى شري. وبعد ان يتم ختانهم وتحويلهم للإسلام كان السلطان يقوم بتعيينهم حراساً له وكافأهم بالهدايا الكثيرة ويمنحهم المناصب العالية ويسمح لهم السلطان بمشاركته الطعام والشراب. ويذهب العثمانيون الى ان فرقة الانكشارية يرجع انشاؤها الى عهد اورخان(1326-1362) ابن السلطان عثمان وخلفه، وكانت الفرق الرئيسة عند العثمانيين قبل هذا العصر هي فرق الفرسان الذين يسمون قينجي (الفرسان الخفاف) يشد ازرهم الجنود المشاة الذين يسمون وبالتركية(يايا). ويرجح ان الذي اوحى الى الترك ان يعززوا فرسانهم بجنود مشاة مدربين هو ما شاهدوه من فرق الجيوش البيزنطية. وهنا نلاحظ انه لا يوجد دليل على ان فرقة الانكشارية كانت اداة للتحول القسري الى الاسلام عن طريق ادخال الاولاد المسيحيين الى الجيش العثماني قبل عهد السلطان مراد الاول (1362-1389). ولما كان المؤرخون يجمعون على الانكشارية لم يجندوا الا من مسيحيي اوروبا فلم يكن باستطاعة اورخان ان يفكر بالقيام بذلك، لأن المشكلة التي جرى حلها بهذه الكيفية لم تنشأ الا بعد وفاته. ويقال ان مصطلح انكشارية (اصلها: ينى شرى) مصدره درويش هو الحاج بكتاش، وتتحدث رواية ان السلطان أورخان قد اصطحب الطليعة الاولى من هؤلاء المجندين الى مسكن الحاج بكتاش في أماسيا، ورجاه ان يباركهم ويخلع عليهم، اسما فوضع بكتاش كمه فوق رأس احد الواقفين في الصف الاول، ثم قال للسلطان: "ان القوات التي انشأتها ستحمل اسم ينى شرى، وستكون وجوههم بيضاء وضاءة وستكون اذرعهم اليمنى قوية، وسيوفهم بتارة، وسهامهم حادة وسيوفقون في المعارك ولن يبرحوا ميدان القتال الا وقد انعقدت لهم الوية النصر"، وتخليداً لبركة بكتاش، كان الانكشارية يضعون على رؤوسهم قلنسوة من الصوف الابيض شبيهة بقلنسوة الدرويش من خلفها قطعة طويلة من القماش اسطوانية الشكل، باعتبارها رمزاً لكم

الحاج بكتاش الذي بارك به رقبة زميلهم. وهناك شك حقيقي في صحة تلك الرواية على اساس ان الحاج بكتاش كان قد توفي قبل انشاء الانكشارية بقرن من الزمان ولكن الثابت تاريخياً الانكشارية كانوا ملتصقين التصاقاً قوياً بالطريقة البكتاشية. وبوصفهم عبيداً للسلطان فإن الانكشارية كانوا يربون في روح ولاء وانضباط مطلقين. وكان يجري انزال العقاب عن المخالفات التي يرتكبها اي انكشاري عن طريق الضرب بالعصي، او التنقل الذي ينزل بالمخالفين الى رجال حاميات عاديين في قلاع المقاطعات. وفي الاصل كان يحرم على الانكشارية الزواج طالما يقومون بالخدمة العسكرية، والغى هذا التحريم في عهد السلطان سليم الاول (1512-1520). ويتضح من السجلات العثمانية ان عدد فرقة الانكشارية في الاصل كان ستة الاف انكشاري ثم نمت وازداد عددها سنة بعد اخرى، ففي عهد السلطان مراد الاول وصل عددها الى عشرة الاف انكشاري، وفي عهد محمد الفاتح(12000)، وفي عهد سليمان القانوني(20000)، وفي عهد محمد الرابع منتصف القرن السابع عشر لم يزد عدد الفرقة عن(40000)، وخلال ثلاثمائة سنة قدر ان ما يزيد عن خمسة ملايين من الاطفال المسيحيين قد اصبحوا انكشارية. ولم يكن هناك لأحد سلطة على الانكشارية سوى قائدهم والسلطان العثماني، وكان معروفاً عنهم شهرتهم كمحاربين مهرة وولائهم للسلطان، وقد حاربوا كفرق مشاة. والانكشارية جعلوا الجيش العثماني من افضل جيوش العصر، ان لم يكن افضلها، حتى القرن السابع عشر. وفي حوالي سنة (1500) تم تسليح الانكشارية ببنادق يدوية، وكان رسوخ اقدامهم في القتال، وترابطهم في جماعات محاربة، ومهاراتهم في استخدام هذه الاسلحة قد تسبب في اندحار الجيوش المملوكية، وفي التعجيل بفتح العثمانيين لبلاد الشام ومصر خلال عامي (1516-1517). كما شتت الانكشارية اخر محاولة يائسة لسلاح الفرسان المسيحي في معركة موهاكس الفاصلة التي انتهت بانتقال مملكة المجر لحكم السلطان سليمان القانوني في سنة (1526). وفي الاوقات التي لم تكن تستلزم قيام الانكشارية بمهام الحرب كان يعهد اليهم بالمحافظة على الامن في اهم مواقع الامبراطورية العثمانية. وفي اسطنبول كانوا يقيمون بحراسة الديوان اثناء اجتماعاته التي

يرأسها السلطان، كما كانوا يقومون في المدينة بمهام الشرطة وقوة المطافئ وبحراسة بوابات المدن الهامة والحصون، ويشكلون قوات الشرطة في الولايات. وقد زاد محمد الفاتح رواتب الانكشارية وامتيازاتهم الى حد كبير بعد فتح القسطنطينية. وحين اتسع ملك العثمانيين في اوروبا جرى اختيار غلمان الانكشارية من اوروبا بدلاً من اسيا، ولاسيما من بلغاريا والبانيا والبوسنة. على انهم ما لبثوا ان شكلوا قوة سياسية في الدولة، ففي أواخر القرن الخامس عشر قام الانكشارية بثورة امكن اخمادها. ومنذ عهد محمد الفاتح اصبح من المعتاد ان يقوم كل سلطان جديد بتوزيع(نقود الانكشارية) لضمان ولائهم. على اية حال، وجد السلاطين العثمانيون في الانكشارية ولاء واخلاصاً وشجاعة في القتال حتى صاروا مصدر وفزع لأوروبا المسيحية فهم الذين اقتحموا اسوار القسطنطينية سنة 1453 ولمدة قرنين بعد ذلك لم تستطع اي قوة حربية التغلب على الانكشارية. وفيما بعد تغيرت احوال الانكشارية فصاروا مصدر الاذى والخراب لحياة كل سكان تركيا بما فيهم السلطان العثماني نفسه الامر الذي جعل السلطان المستنير محمود الثاني يصدر امراً بالقضاء عليهم في سنة 1826.

3. السباهية:

كانت قوة الفرسان التي يكونها السباهية اكبر قوات الدولة العثمانية العسكرية، وكانوا يقومون بما يوكل اليهم من مهام عسكرية مقابل الاقطاعات التي منحتها لهم الدولة مقدماً. اذ كان السلطان يمنح ارضاً زراعية لأفراد من الفرسان، ويستقرون فيها ويشرفون على زراعتها بمساعدة الفلاحين الذين كانوا يقومون بزراعتها بصفتهم مستأجرين، وكانت هذه الاراضي تسمى اقطاعيات، ويطلق على الفرسان الذين يحصل عليهم الجيش العثماني عن طريق الاقطاع الحربي اسم (السباهية). وينسب الى اورخان (1342–1362) استخدام السباهية في الجيش العثماني لأول مرة وقاموا في بداية الامر بمهمة الحرس الشخصي للسلطان، وبتزايد عددهم أصبحوا يشكلون قلب الجيش وعصبه، وكان القوس والسهم

سلاحهم الرئيسي، او على الاقل السلاح الذي استخدموه ضد العدو عندما كانوا يهاجمون بخيولهم السريعة. وما ان تنفذ سهامهم فأنهم يستخدمون الرماح والسيوف المعقوفة وكذلك الخناجر. ومن المعروف ان العثمانيين احتفظوا بمبدأ كان متبعاً ايام السلاجقة يقضي بأن تقسم الاراضي المفتوحة الى اقطاعيات متفاوتة المساحة والقيمة، تعطى اقلها للسباهية لقاء خدماتهم العسكرية ،وتعطى احسنها واكبرها بصفة (زعامت) للقادة الاكبر مركزاً وكفاية قتالية، بشرط ان يسلحوا عدداً من الجند يتناسب مع إقطاعاتهم. ولما كانت اراضي السباهية وراثية، فقد ولدت نوعاً من الارستقراطية الزراعية متينة الاسس. وكان الاقطاع الذي يمنح للسباهي يطلق عليه التيمار ويطلق على حائزه (تيمارجي) وكانت الارض ملكاً للسلطان، ولم يكن لورثة صاحب التيمار اي حقوق قانونية في وراثتها (وإن كان الميراث هو العرف المتبع). وكان اصحاب هذه الاقطاعيات ملزمين ان يتجمعوا ومعهم اسلحتهم وخيولها عندما يستعدون لأداء الواجب العسكري وكان عليهم ان يحضروا معهم جنداً اخرين ويدفعوا لهم اجورهم، بما يتناسب تناسباً طردياً مع مساحة الاقطاع الحربي ومع الايرادات التي تغلها هذه الاقطاعيات. وكان اصغر السباهية مركزاً يذهبون الى الحرب دون اتباع راكبين خيولهم ويرتدون صديريات من الزرد ومعهم خيامهم. وهكذا كان الاقطاع او التيمار يقوم مقام المرتب في مقابل استمرار السباهية في القيام بواجباتهم العسكرية واعالتهم لاتباعهم وامدادهم بالأسلحة والمؤن والطعام، مما تحتاج اليه الحملة العسكرية. وكان السباهية يعيشون في القرية التي توجد بها اراضي التيمار ويقومون بجباية الضرائب من الفلاحين، وهي في العادة ضرائب نوعية. وكان على الفلاحين ان يوفروا للسباهية نصف المحصول، بالإضافة الى كميات من العلف والخشب .وكان بإمكان الفلاح ان يشتغل في الارض طالما يقوم بزراعتها ودفع الضرائب المقررة عليها، كما كان بإمكانه ان يورث ابنائه حق شغلها. وفضلاً عن الدخول التي كان التيماري يستقيها من الضرائب التي يدفعها الفلاحون، كان بإمكانه ان يخصص لنفسه قطعة من الارض يقوم الفلاحون المأجورون او فلاحوا التيمار بزراعتها. الى جانب مسؤولية التيماري عن ضمان فلاحة الارض وتحصيلها،

وكان يضطلع بحفظ الامن في القرى في اوقات الحروب، وكان عشرة بالمائة من التيماريين يبقون في السنجق لحفظ الامن وجباية الضرائب. وكان الاقطاع العثماني من وجهة نظر الفلاحين ذا مزايا متعددة ذلك ان السيد الاقطاعي غالباً ما يكون غائباً في المعارك طوال فترة الصيف منكباً على جميع الغنائم والاسلاب يوليها اهتماماً اكثر من اهتمامه باغتصاب ما يملكه الفلاحون التابعون له. ومن مزايا هذا النظام انه ساعد على التوسع الافقي والرأسي في مساحات شاسعة من الاراضي داخل الاقاليم العثمانية في اوروبا واسيا واطمأنت الدولة الى ان جهوداً صادقة تبذل للنهوض بزراعتها بدافع المصلحة المشتركة بين الاتباع الاقطاعيين وبين الفلاحين. كما ان هذا النظام كفل للدولة الحصول في زمن الحرب على قوات من الفرسان كانت تبلغ في بعض الاحيان مائتي ألف رجل دون تكاليف لأن التابع الاقطاعي كان يذهب الى الحرب ومعه جواده وسلاحه. وفوق كل هذه المزايا فقد امتاز السباهية بالمستوى الحربي العالي الذي كان يتمتع به الفرسان الاقطاعيون.

قائمة المصادر:

-ابراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، بلا.ت).

-ابراهيم خليل احمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني 1516-1916، (الموصل: مطبعة جامعة الموصل، 1986).

-احمد زكريا الشلق، العرب والدولة العثمانية من الخضوع الى المواجهة 1516-1916، (القاهرة: مصر العربية للنشر والتوزيع، 2002).

-احمد عبد الرحيم مصطفى، في اصول التاريخ العثماني، (القاهرة: دار الشروق، 2003).

-احمد محمود علو السامرائي ومحمد حمزة حسين الدليمي، "الانكشارية ودورهم في الدولة العثمانية حتى سنة 1826"، مجلة التربية والعلم، جامعة الموصل، المجلد: 17، العدد: 44، لسنة: 2010.

-احمد بن يوسف القرماني(ت1019هـ/ 1610م)، اخبار الدول واثار الاول في التاريخ، دراسة وتحقيق: احمد حطيط وفهمي سعد، (بيروت: عالم الكتب، 1992)، ج3.

-اسماعيل احمد ياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، (الرياض: مكتبة العبيكان، 1997).

-اماني بنت جعفر بن صالح الغازي، دور الانكشارية في اضعاف الدولة العثمانية(الجيش الجديد)، (القاهرة: دار القاهرة، 2007).

-بثينة عباس الجنابي، "نظام الحكم والادارة العثمانية في الوطن العربي"، مجلة كلية التربية الاساسية، الجامعة المستنصرية، العدد: 71، لسنة: 2011.

-بيتر شوجر، اوروبا العثمانية 1354-1804، ترجمة: عاصم الدسوقي، (القاهرة: دار الثقافة الجديدة، 1998).

-حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، (القاهرة: دار النهضة العربية، 1983).

-حيدر علوان حسين، "الادارة في الدولة العثمانية"، مجلة التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، العدد: 1، لسنة: 2012.

-خير الدين التونسي، اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، (القاهرة: دار الكتاب المصري، 2012).

-دونالد كواترت، الدولة العثمانية، ترجمة: ايمن ارمنازي، (الرياض: مكتبة العبيكان، 2004).

-ستيفان تسفايج، ساعات القدر في تاريخ البشرية، ترجمة محمد جديد، (بيروت: دار المدى للثقافة والنشر، 2005).

-سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 2000).

-طالب محبيس حسن الوائلي، "هزيمة العثمانيين في انقرة: دراسة في مقدمات الصدام التتاري-العثماني ومجريات الحرب"، مجلة كلية التربية-جامعة واسط، المجلد: 4، العدد: 16، لسنة: 2008.

-عبد السلام الترمانيني، احداث التاريخ الاسلامي بترتيب السنين، (دمشق: دار طلاس، 1997)، ج4.

-عبد السلام عبد العزيز فهمي، السلطان محمد الفاتح: فاتح القسطنطينية وقاهر الروم، (دمشق: دار القلم، 1993).

-عزتلو يوسف بك اصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان، (القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر، 2011).

-علي خليل احمد، "جهود السلطان محمد الاول في اعادة بناء الدولة العثمانية"، مجلة جامعة كركوك للدراسات الانسانية، المجلد: 3، العد: 1، لسنة: 2008.

__________، "محنة العرش العثماني في عهد السلطان مراد الثاني 1421-1451"، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، جامعة تكريت، المجلد: 2، العدد: 4، لسنة: 2010.

__________، "التوسع العثماني في الروميلي في عهد السلطان مراد الثاني"، مجلة جامعة كركوك للدراسات الانسانية، المجلد: 7، العدد: 3، لسنة: 2012.

-عماد البحراني، "فتح القسطنطينية في عهد السلطان محمد الفاتح 1453"، دورية كان التاريخية، العدد: 3، لسنة: 2009.

-فيصل شيخ الارض، نظام الحكم والادارة في الدولة العثمانية في عهد مرادجه دوسون للمؤلف مرادجه دوسون سفير دولة اسوج في الاستانة المتوفى سنة 1807، (رسالة قدمت الى دائرة التاريخ في جامعة بيروت الامريكية، 1942).

-محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الصفوية في ايران، (بيروت: دار النفائس، 2012).

-محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، تحقيق: احسان حقي، (بيروت: دار النفائس، 1981).

-محمود سعيد عمران، الامبراطورية البيزنطية وحضارتها، (بيروت: دار النهضة العربية، 2002).

-محمود محمد الحويري، تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى، (القاهرة: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، 2002).

-نيقولو باربارو، الفتح الاسلامي للقسطنطينية: يوميات الحصار العثماني 1453، دراسة وترجمة وتعليق: حاتم عبد الرحمن الطحاوي، (القاهرة: عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، 2002).

-يلماز اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: محمود سلمان، مراجعة: محمود الانصاري، (اسطنبول: مؤسسة فيصل للتمويل، 1988)، ج1.

الفصل الرابع

الاحتلال العثماني الاول للعراق
(1514 - 1638)

ـ التوسع العثماني باتجاه العراق (1514ـ1534):

1. بدايات الصراع الصفوي العثماني

لقد تطورت العلاقات الصفوية-العثمانية مع مرور الزمن واتخذت شكلا تصاعديا، ووصلت الى القمة في معركة جالديران. ومن المعروف انه ساد العلاقة بين الطرفين هدوء نسبي بعد القضاء على دولة الاق قوينلو من قبل اسماعيل الصفوي، ذلك ان السلطان بايزيد الثاني الذي خلف اباه محمد الفاتح كان بطبعه ميالا الى المسالمة، فلم يفكر بإنجاز فتوحات اخرى لا في الجبهة الشرقية ولا في الجبهة الغربية، كما لم يكن على استعداد لمساعدة حاكم الاق قوينلو في حربه ضد الشاه اسماعيل الصفوي عدوهما المشترك، لكنه لكان حذرا على أي حال، فقد طلب من رستم بيك مكري كرد حاكم ديار بكر ان يوافيه بتقرير عن حقيقة نوايا الصفويين بالتوسع باتجاه الغرب، واستعدادات الشاه اسماعيل الصفوي العسكرية ومدى قوته بالمقارنة مع قوة سلطان الاق قوينلو، لكن هذا الطلب جاء متأخرا، فقد هزم الشاه سلطان الاق قوينلو، وهو على وشك اجراء مفاوضات مع المماليك في مصر بهدف التعاون ضد العثمانيين، وارسال حملة عسكرية الى ديار بكر ومرعش. ونتيجة لذلك بدأت العلاقات بين الدولتين الصفوية والعثمانية تسير نحو الاسوأ بعد القضاء على الاق قوينلو، بفعل تنافسهما على اقتسام ممتلكات هؤلاء التي تقع على حدودهما المشتركة، فكان من الطبيعي ان يتصاعد الخلاف السياسي بينهما، على ان هذا التنافس استمر مستترا طيلة عهد السلطان بايزيد الثاني بفعل الاضطرابات في بلاد العثمانيين الناتجة عن ثورات (القزلباش) والتنافس الاسري على العرش، ويبدو ذلك من خلال الرسائل المتبادلة بين العاهلين. وعندما استولى الشاه على العراق وضمه الى املاك الصفويين، ارسل اليه السلطان

العثماني رسولا هو محمد جاوش بالابان وحمله الهدايا الكثيرة ورسالة تهنئة غير متوقعة بفتح فارس واحتلال العراق، ويبدو انه كان يهدف الى تدعيم العلاقة الجيدة مع الشاه، من دون ان يدرك مدى ما يشكله من خطر على دولته. وعندما هاجم الشاه اسماعيل مرعش والبستان في حربه ضد علاء الدولة دلقادر(ذو القدر)، واضطر ان يعبر الحدود العثمانية عند قيصرية، امر جنوده بعدم التعرض لأرواح واموال الرعايا العثمانيين، واعتذر للسلطان عن اختراق الاراضي العثمانية، واعلمه بانه لا يفكر مطلقا في تعكير صفو العلاقة بينهما. ولكن في الوقت الذي كان فيه العاهلان يتبادلان الرسائل الودية، كان الامير سليم بن بايزيد الثاني يقاتل اتباع الصفويين في الاراضي العثمانية، ويتعقبهم خارج حدودها، ووصل في احدى حملاته ارزنجان واسر ابراهيم، شقيق الشاه اسماعيل، فارسل هذا رسالة احتجاج الى السلطان العثماني مع التذكير بالصداقة الصفوية-العثمانية، ولكن السلطان بايزيد الثاني لم يحسن استقبال السفير الصفوي، وعامل الشاه اسماعيل السفير العثماني الذي حمل اليه الرد بالمثل فأهانه بشدة، ومنذ تلك اللحظة تبدلت العلاقات الودية بين الدولتين الى مواجهة سافرة. ومما ساعد على هذا التحول عاملان اولهما: بروز الامير سليم كخليفة محتمل لوالده من واقع مساندة الانكشارية له وتفضيلهم اياه على اخويه احمد وقورقود. وثانيهما: نشاطات الشاه اسماعيل الذي يعمل على زيادة نفوذه في الاناضول، وقد نجح في كسب عشائر القزلباش الذين قاموا بأرسال الهدايا والنذور اليه. وقد بقيت التحركات الصفوية السياسية نشيطة في الاوساط التركمانية-الاناضولية التي وجدت من الدعاية الصفوية صدى بين العشائر التركمانية التي كانت متذمرة من التدابير المالية والادارة العثمانية بل وهيأت السبيل لحدوث اضطرابات كبيرة في الاناضول. وازدادت العلاقات بين الدولتين سوءا في عام 1511 اثر الثورة التي فجرها شاه قولي بن حسن خليفة في ولاية تكة في الاناضول، أي قبل مجيء سليم الاول للحكم بأشهر، وهو رئيس عشيرة تكلو القزلباشية، الذي نجح في استغلال سخط العشائر التركمانية، ونجح في كسب العديد من المؤيدين له في الاناضول. وقد التف حوله عدد كبير منهم بوصفه ممثلا للشاه اسماعيل. وكان شاه قولي

قد ارسال دعاتـــــه الى قلب الاناضول مستغلاً، الانقسامات الاسرية في البيت العثماني الحاكم والنزاع الذي نشب بين ابناء بايزيد الثاني. لذا عمل السلطان بايزيد في بادئ الامر الذي ارتاب من نوايا الشاه المعادية بإرسال جيشا الى مناطق الحدود لرصد الموقف، واقدم في الوقت نفسه على تهجير العديد من السكان من مؤيدي الشاه الى المورة، ثم اغلق الحدود بين الدولتين بهدف عزل الشاه عن قاعدته في الاناضول الشرقي، الا ان هذا الاجراء لم يكن فعالا لان اتباع الشاه استفادوا من السماح للقوافل التجارية بالمرور عبر الاناضول فتغلغلوا في ربوعه. وقد تلقى الثائرون امدادات من القزلباش المنتشرين في مختلف انحاء الدولة العثمانية، فكانت النتيجة ان وقع معظم وسط وجنوب شرقي الاناضول بيد شاه قولي، فقد تمكن الثوار من قتل القائد العثماني الذي كلفه السلطان بإخماد ثورتهم، وعندما اشتدت قوتهم هاجموا منطقة قرمان وانتصروا على حاكمها قرة كوز باشا، واجتاحوا ولاية سيواس، مما دفع السلطان العثماني الى ارسال الصدر الاعظم خادم علي باشا على راس جيش كبير قوامه 8000 مقاتل، للقضاء على الثورة، فهزم الصفويين، وقتل شاه قولي وانهارت بذلك قوته وحركته السياسية وفرت بقايا القزلباش الى الشاه في ايران. وقد اكتفى السلطان العثماني الذي كان يعاني آنذاك من تدهور في صحته، ومن تنازع اسري على العرش بين اولاده الثلاثة احمد وقورقود وسليم، بان ارسل الى الشاه اسماعيل يؤنبه على تشجيعه لاتباعه في الاراضي العثمانية وتأييده لهم في انتفاضتهم ضد السلطة.

2. وصول السلطان سليم الاول لعرش السلطنة العثمانية:

ادى تفكك الاناضول المرتبط بالعجز الواضح للسلطان بايزيد الثاني الى تفجر ازمة سياسية، والى تنافس ابناء السلطان الثلاثة على العرش ما كان له اثر سيء على قدرات الدولة. وكان سليم الاكثر قلقا على مستقبل السلطنة، وبغضا للشاه اسماعيل، فطلب من والده ان يعينه حاكما على احدى ولايات اوروبا، فرفض طلبه، عند ذلك شق عصا الطاعة وتقدم على رأس جيش جرار الى بلاد الروملي، وظهر امام مدينة أدرنه في عام 1511م

واجبر والده على تلبية طلبه، فعينه السلطان واليا على سمندرية وفيدين والاجه حصار ونيقوبوليس، فوطد اقدامه فيها بهدف انشاء دولة جديدة له في الشمال على ما يبدو. وقد استغل سليم التمرد الذي حصل في تكة وغياب والده عن العاصمة فزحف من مقر اقامته الى أدرنه واعلن نفسه سلطانا على العثمانيين، وكان ذلك اكثر ما يمكن السكوت عليه، فارسل السلطان بايزيد الثاني اليه جيشا هزمه واجبره على الارتداد الى بلاد القرم. وبدا لأخيه احمد في هذا الوقت، ان باستطاعته التوجه الى العاصمة لإعلان نفسه سلطانا، لكن الانكشارية، الذين اتهموه بعدم الكفاءة، فتمردوا عليه وارغموه على الانسحاب. وبدأت الاحداث تسير لصالح الشاه اسماعيل الذي دبر في مطلع عام 1512 تمردا اخر قاده نور علي خليفة في توقات واماسيا، ويعد التمرد الوحيد ذا الصلة الوثيقة بالشاه الذي اداره بنفسه، مما اثار غضب الانكشارية الذين ازعجنهم خسارة سليم وانتصار الشاه، فالحوا على السلطان ان يعفو عنه، فاستجاب لطلبهم واعاد ابنه الى سمندرية. ولكن حدث اثناء انتقاله ان سانده الانكشارية الذين وضعوا ثقتهم به، فدخلوا العاصمة وضغطوا على السلطان للتنازل له عن العرش، فوافق مرغما وذلك في 25 نيسان 1512.

3. الصراع الصفوي-العثماني في عهد السلطان سليم الاول: عوامل الصراع.

- العامل السياسي:

شكل وجود الدولة الصفوية عائقا سياسيا امام العثمانيين، فمن المعروف ان الاناضول التركي يعد امتدادا طبيعيا للأراضي الايرانية واراضي اسيا الوسطى، بفعل ان العنصر التركي ذا الاصول الاسيوية، قد سيطر في وقت من الاوقات على مجمل اراضي اسيا الوسطى حتى البحر المتوسط، واقام دولة واسعة في هذه المناطق. وقد ظل السلاجقة ومن بعدهم العثمانيون، يعتمدون على المهاجرين التركمان القادمين من الشرق، في بناء المجتمع التركي ونموه في الاناضول أو في البلقان. وقد شكل قيام الدولة الصفوية في ايران حاجزا

سياسيا قطع الاتصال بين العثمانيين وبين اصولهم الشرقية، مما كان دافعا لهم لهدم هذا الحاجز واعادة الاتصال مع الشرق. كما ان السلطان سليم ادرك ان الشاه اسماعيل يشكل عاملا خطرا من عوامل تفكك الاناضول العثماني، واثبتت احداث التمرد التي قامت في اواخر عهد السلطان بايزيد الثاني ذلك، وان حل المشكلة الاناضولية يمر عبر القضاء على الدولة الصفوية. يضاف الى ذلك ان المواجهة الصفوية-العثمانية يمكن النظر اليها على ضوء العلاقة المتعارضة لكل من الطرفين مع المماليك والاوزبك وحكام الهند المغول من جانب، ومع اوروبا من جانب اخر من واقع الصراع على مناطق اسيا الوسطى حتى البحر المتوسط. وشكل نجاح الشاه اسماعيل في تأسيس الدولة الصفوية خطرا على العثمانيين والمماليك الامر الذي زعزع الاستقرار في هذه المنطقة واستغله الصفويون لتنفيذ اهدافهم. وكان واقع المواجهة العثمانية-الصفوية مزدوجا، فهو من جهة رد فعل عثماني على طموحات الشاه اسماعيل السياسية، ومن جهة اخرى فهو مواجهة مذهبية. ويبدو ان العلاقة بين العثمانيين والصفويين كان يسودها الفتور في هذه الفترة بالذات اي في بداية تولي سليم الاول السلطنة، اذ انه بعد اعتلائه العرش وصله سفراء البندقية والمجر ومصر وسورية لتقديم التهاني له بهذه المناسبة ولم يصله سفير من ايران وادرك الجميع في هذا الوقت بالذات ان الحرب ستقع بين سليم وخصمه الشاه اسماعيل. فضلا عن ذلك كانت تحركات الشاه في الوقت الذي اعتلى فيه سليم العرش العثماني، قد طالت المناطق الشرقية والجنوبية المجاورة لدولته في اقليم الجزيرة، فاخذ ينظر بعين الريبة لأنها تستهدف السيطرة على المواقع الاستراتيجية، ولاسيما بعد ان تهاوت المناطق التي تربط ايران بالأناضول عبر العراق والتي يسكنها الاكراد بيد القزلباش. ومن اجل ان يتصدى السلطان لطموحات الشاه كان عليه ان يثبت اقدامه في الحكم، وان يتفاهم مع الدول الاوروبية الفاعلة لتهدئة الجبهة الغربية، وكانت النزاعات الاسرية لا تزال ناشطة وكذلك حركات التمرد، وكان الشاه قد التزم بشكل علني جانب الامير العثماني احمد الذي ثار على السلطان سليم فيما بعد، كما جعل قصره ملجأ للأمراء العثمانيين المعارضين لسلطنة سليم. ولكن السلطان العثماني

تمكن من التخلص من اخويه احمد وقورقود اللذين نافساه على السلطة، واخمد حركات التمرد المدعومة من الشاه، لذا قام بمذبحة شنيعة في شرقي الاناضول وراح ضحيتها اربعون ألف من القزلباش دون ان يراعي السن او الجنس وبهذا قضى على اي محاولة للتمرد قد تحدث في المستقبل. ثم التفت السلطان سليم بعد ذلك الى تهدئة الجبهة الغربية، فعقد معاهدات سلام مع البندقية والمجر وروسيا، فاتحا بذلك عهدا جديدا من العلاقات السلمية مع اوروبا، مما شكل انتصارا سياسيا له. وحتى يشتت قوى الشاه، كتب الى عبيد الله خان الاوزبك في عام 1514 يعلمه بنوايا في التحرك الى غربي ايران، ويطلب منه ان يهاجم خراسان، في الوقت نفسه للانتقام لمقتل عمه محمد شيباني خان على يد الشاه اسماعيل الصفوي. وكان هدف سليم من ذلك ان يجعل ايران بين شقي الرحى بهجومه من الغرب وهجوم خان الاوزبك من الشرق، فيضطر الشاه الى القتال على جبهتين. وقد وافق خان الاوزبك على طلب سليم الاول، فهاجم سمرقند وانتصر على القوات الصفوية. وازاء ذلك كان من الطبيعي ان يرد الشاه اسماعيل على تدابير السلطان المعادية، فشرع في ايواء الفارين من الاتراك الى ايران ومنحهم المساكن، لاستغلالهم بعد ذلك في اشعال التمرد في الاناضول، كما سعى للتحالف مع بعض الدول الاوروبية لتكوين جبهة موحدة ضد العثمانيين، ولم يكتف بهذا بل وسعى الى اقامة تحالف مع الخصم الثاني للعثمانيين وهو السلطان المملوكي في مصر، فسارع الى ارسال وفد ضخم اليه لإبلاغه عن هذه الحرب المتوقعة ودعوته للتحالف معه ضد السلطان سليم، كما سعى للتحالف مع علاء الدولة حاكم امارة ذي القدر في اسيا الصغرى. ويبدو ان السلطان الذي لم يكن غافلا عن تحركات الشاه اسماعيل كان يسعى لعزل الشاه اسماعيل دولياً وافشال اي تحالف قد يقيمه مع الدول المجاورة فأرسل هو الاخر وفداً الى المماليك دعاهم الى التحالف. وبعد مباحثات طويلة اثرت الدولة المملوكية التزام الحياد، وبغية مواجهة الموقف المستجد جراء التصعيد الخطير بين الدولتين العثمانية والصفوية رأي المماليك انه من المناسب ارسال قوات الى اطراف حلب لمرابطتها هناك.

ـ العامل الاقتصادي:

لقد سعى السلطان سليم الى الوصول للهند وتحقيق سيطرة عثمانية على طرق التجارة الشمالية بفعل احتكار البرتغاليين تجارة التوابل، وسيطرتهم على الطرق التجارية الجنوبية مع الهند. هذا وقد شهد بداية عهده تطورا في الحرف والاعمال التقنية السائدة في البلاد آنذاك، مما جعل متطلبات الدولة تزداد مع تطور هذه الاعمال. ثم استمرار زيادة ارتفاع اسعار الحبوب في اوروبا في ذلك الوقت، وهو ما يشكل اساسا لازدهار تصدير الحبوب من الاناضول، وزيادة عدد السكان في اسيا الصغرى، مما يحملنا على الاستنتاج بانه رافقه توسع في الانتاج الزراعي. يضاف الى ذلك الاستهلاك المتزايد في اوروبا للمنتوجات الشرقية ولاسيما التوابل والحرير، مما دفع السلطان الى السيطرة على الطرق التجارية الشمالية واحتكار التجارة بين الشرق والغرب. فضلا عن ذلك رغبة السلطان سليم من منع الصفويين من الاستفادة من المواد الخام الخاصة بصنع الاسلحة والذخائر مثل النحاس والحديد التي اشتهرت بها الاناضول، كما فرض حصارا تجاريا على الدولة الصفوية، ولاسيما على تجارة الحرير التي تمر عبر الاراضي العثمانية عن طريق حلب–الاسكندرونة في طريقها الى اوروبا الذي يقوم بمقايضتها بالذهب، مما خفض ايرادات الصفويين بشكل ملحوظ. وخطا السلطان خطوة اخرى، حين اخذ يصادر البضائع الايرانية من جميع التجار لشحنها من الجانب الاوربي في الروملي، ما اثر على حركة التجار الذين تحولوا نحو الجنوب عبر العراق. واخيرا قرر الاستيلاء على الطرق التجارية الشمالية مع الهند، ولما كانت الدولة الصفوية تقوم حجر عثرة في سبيل ذلك فقد قرر القضاء عليها.

ـ العامل الاسري:

فضلا ن العاملان السالفي الذكر كان من عوامل الصراع ايضا العامل الاسري، فقد كان سليم الاول حفيد من ناحية امه عائشة خاتون لعلاء الدولة بك حاكم امارة دلقادر(ذو القدر)الذي احتل اسماعيل الصفوي امارته، كما كان السلطان مراد اخر سلاطين الاق قوينلو

متزوجا من عمة السلطان مراد. لذا يبدو ان عاملا شخصيا كان محركا لسليم الاول ضد الدولة الصفوية.

4. مراحل الصراع الصفوي ـ العثماني:

ـ المرحلة الاولى: (1514)...معركة جالديران.

تقدم سليم عبر ارزنجان وارضروم الى اعالي الفرات ، ولم تكن قوة الجيشين العثماني والصفوي متكافئة، لا في العدد ولا من حيث التسليح والتجهيز. فقد بلغ عدد افراد الجيش العثماني 140.000 مقاتل، في حين لم يتعد عدد افراد الجيش الصفوي العشرين الف. وكان الجيش العثماني مجهزا بقوات الفرسان والمشاة والمدفعية وتسانده قوة بحرية كبيرة، في حين افتقد الجيش الصفوي الى وسائل التسليح المتطورة كالمدفعية، وكان في جهل تام بالسلاح الناري الذي استخدمه العثمانيون. لذا تجنب الشاه اسماعيل القتال هرباً من تفوق قوات سليم، عازماً على سحبه الى اراضي شمالي ايران الجبلية حيث تمكنه طبيعة الاراضي ومشاكل التموين من موازنة قوة الجيشين. وفي اواسط اب 1514 قرر السلطان سليم الزحف على تبريز لإرغام الشاه اسماعيل على خوض القتال دفاعاً عن عاصمته. وكان اسماعيل يفضل التراجع لولا ضغط قبائل القزلباش التي غضبت بسبب اتهام العثمانيين لها بالجبن وطالبت بخوض غمار القتال. واخيراً وقعت الموقعة الفاصلة في سهول جالديران في منتصف الطريق بين ارزنجان وتبريز في 23 اب 1514، وكانت المعركة بمنتهى الضراوة الى درجة وصفت من قبل المؤرخين الاتراك بيوم القيامة أو يوم الفناء. وقد انتصر السلطان سليم بفضل اسلحته النارية المتطورة الجديدة وذلك بعد ان قتل الافاً من رجال قبائل القزلباش، وتمكن الشاه اسماعيل من النجاة بصعوبة كبيرة بعد ان اصابته بجروح. وبعد الموقعة ضم سليم الى دولته ولايتي ديار بكر وكردستان واحتل تبريز ونقل ألفاً من أبرز تجارها وحرفيها وعلمائها الى الاستانة. ورغم ذلك فقد قرر اخلاء المدينة خشية تناقص التموين خلال فصل الشتاء، وتراجع الى قره باغ في القوقاز على امل أن يعود في العام القادم

لاستكمال احتلال ايران. ولكن استرجاع الصفويين لتبريز واستمرار مشاكل التموين وهبوط الروح المعنوية في جيش سليم ارغمه في النهاية على سحب جيوشه إلى الاناضول حيث أدى الشتاء القارص الى موت عدة الاف من قواته، مما ادى الى عجز سليم الاول على معاودة قتال الصفويين خلال الربيع وفقاً لما كان قد قرره. وقد ترتب على معركة جالديران نتائج عدة اهمها:

1. ان معركة جالديران او بالأحرى الانتصار العثماني الحاسم على الصفويين شكل منعطفاً في تاريخ الاناضول الشرقي، وكان الحاق الهضاب المرتفعة هناك بعد المعركة مهما من الناحية الاستراتيجية للدولة العثمانية فقد تم ادخال الاناضول دائرة الامان تجاه الاخطار القادمة من الشرق وفضلاً عن هذا فان ارضروم ووان وديار بكر اي الاقاليم التي تشكل الاناضول الشرقي ستستخدم قواعد عسكرية للعمليات المزمع القيام بها في كل مكان من ايران والعراق والقوقاز في القرن السادس عشر الميلادي. فضلا عن ذلك كان الحاق المنطقة بالدولة العثمانية له اهميته من الناحية الاقتصادية لا تقل شأناً عن الناحية الاستراتيجية. اذ سيطر العثمانيون بهذا وبشكل كلي على طريق تبريز- حلب وتبريز - بورصة اي على طريق الحرير، كما ان المدن الغنية الواقعة على الطريق التجاري اصبحت تدر اموالا طائلة لخزينة الدولة العثمانية .واهم من ذلك كله ارتباط امراء الاقاليم الواقعة في المنطقة بالدولة العثمانية بعد ان غيروا ولائهم من الدولة الصفوية.

2.اخذ الامراء الاكراد في شمال العراق الذين كانوا خاضعين للسيطرة الصفوية بالانضواء تحت لواء العثمانيين، فبعد هذه المعركة بدأ العد التنازلي لالتحاق هذه المناطق او الاجزاء المتبقية منها الى الدولة العثمانية، اذ اصبح الطريق مفتوحاً امام العثمانيين للتقدم نحو مراكز الاقاليم والقلاع لضمها الى ممتلكات الدولة العثمانية، بل اصبح الطريق امامهم ممهداً لاحتلال كل العراق والمنطقة الشرقية للجزيرة العربية فيما بعد.

3.خمود المشكلة الصفوية مدة عشرين عاما تقريبا، ذلك ان الضربة التي تلقتها الدولة الصفوية لم تكن قاضية، وتعذر على العثمانيين ان يسقطوا الحكم الصفوي.

ـ المرحلة الثانية:(1515ـ1516).

كانت ديار بكر من اهم القلاع والمدن الواقعة في جنوب شرق الاناضول وكانت كغيرها من القلاع واقعة تحت الحكم الصفوي .وبعد معركة جالديران مباشرة جند السلطان المؤرخ الكردي المشهور إدريس البدليسي لإخضاع المناطق الشرقية والجنوبية الشرقية من الاناضول للدولة العثمانية. وكان البدليسي يعمل كاتبا في ديوان الاق قوينلو قبل ان يسيطر عليها الصفويون. وبعد معركة جالديران دخل في خدمة الدولة العثمانية، وسعى ادريس بكل ما اوتي من قوة للقيام بهذه المهمة. في بادئ الامر تمكن من اقناع امراء بعض الاقاليم بالخضوع للسلطان العثماني. ثم التقى بحاكم صوران الامير سيد بن شاه علي واخضعه للسلطان ورغَبه بتخليص بلاد اربيل من ايدي الصفويين . كما كسب الامير سيف الدين حاكم العمادية وابنه الامير سلطان حسين الى العثمانيين وقدم له الهدايا التي ارسلها السلطان اليه. وتمكن ادريس في نهاية المطاف من كسب 25 اميراً من امراء الكرد وبضمنهم امراء جزيرة ابن عمر وحسنكيف وسعرد وبتليس وحيزان واخضعهم للدولة العثمانية. ولم يكتف الامراء الاكراد بإعلان الولاء للسلطان العثماني بل سعوا الى تصفية الحكم الصفوي في المنطقة واستبداله بالحكم العثماني. فعلى سبيل المثال قام حاكم بوختي بأخذ الجزيرة والموصل من ايدي الصفويين وغنم اموالهم، كما خلَّص حاكم صوران سيد بيك اراضي اربيل وكركوك من الصفويين وخطب باسم السلطان العثماني. وفي هذه الاثناء اعلن وجهاء ديار بكر ولائهم للسلطان العثماني بعد ان حثهم الملا ادريس على ذلك وطردوا الصفويين من قلعتها وقتلوا رجال محافظها الصفوي اوستالجو محمد خان ونهبوا اموالهم وحلوا محلهم لحماية القلعة، ثم ارسل امراء ديار بكر رسائل بواسطة الملا ادريس الى السلطان سليم يعلنون فيه ولائهم وخضوعهم له. وبالمقابل قدَّر السلطان ما قاموا به وذلك في مناشير ارسلها لهم. ولكي يكون لهذه المناشير وقع مؤثر فقد تم توزيعها من قبل الملا ادريس نفسه، كما كتب السلطان رسالة الى ادريس اثنى عليه لما قام به ورفع شأنه وارسل اليه الهدايا. ويعود سبب نجاح الملا ادريس في هذا الصدد الى التأثير العام لمعركة جالديران، فالعثمانيون

حققوا النصر وانهم سيتوجهون لا محالة نحو المناطق الكردية التي تعاني من التفكك السياسي ولن يكون اما الاقاليم الصغيرة خيار غير الخضوع للقوي المنتصر وفضلاً عن هذا كان ادريس ذا اطلاع واسع على الظروف السياسية والاجتماعية في تلك الارجاء وهو ابن المنطقة ومن بدليس (بتليس) بالذات ودخل في خدمة دولة الاق قوينلو قبل ان يسيطر الصفويون على ممتلكاتها. وعلاوة على هذا كان عالما فاضلاً معروفا بين الاكراد بشخصيته الفذة وقدرته على الاقناع ومن هنا جاء اعتماد السلطان سليم عليه في تنفيذ ما عهد اليه. ويبدو ان الحكم العثماني لم يترسخ في منطقة ديار بكر والقسم الشمالي الشرقي من العراق في هذا الوقت بالذات، اذ كان هذا الامر مرتبطا بوجود السلطان سليم الاول وجيشه في المنطقة وزوال الحكم الصفوي منها. ويبدو من مجريات الاحداث ان العثمانيين على الرغم من خضوع امراء الاقاليم الكردية للدولة العثمانية لم يرابطوا بأي قوة عسكرية في المنطقة، ولم يأخذوا في الحسبان ان خضوع هذه المناطق مرتبط بالوجود الفعلي للقوات العثمانية فيها. فبعد مغادرتهم المنطقة اختل التوازن من جديد لغير صالحهم. فبانسحاب السلطان العثماني سليم الاول من تبريز عاد الشاه اسماعيل الصفوي اليها. وبدأ بإصلاح ما خربه العثمانيين فأعاد تنظيم جيشه وشرع في اعادة نفوذه المنهار الى المنطقة من جديد. ثم سعى الى استعادة ديار بكر واعادة الامراء الذين غيروا ولائهم الى حظيرة دولته. وعهد هذه المهمة الى قرة خان شقيق اوستالجو محمد خان والي ديار بكر السابق الذي قتل في معركة جالديران وارسله على راس قوة عسكرية لاستعادة ديار بكر. وحاصر قرة خان مع جيشه المتكون من خمسة الاف مقاتل ديار بكر وحاول اقناع امرائها بتسليم المدينة من غير فائدة. وقد استمر حصار الصفويين لديار بكر سنة كاملة ولم يتمكنوا من اقتحامها، وابلغ ادريس الوضع للسلطان وطلب منه ارسال قوات لإنقاذ آمد دون تأخير. واثر هذا امر السلطان سليم بيقلي محمد باشا الذي تقلد ادارة مناطق ارزنجان وبايبورد بالسير الى ديار بكر على رأس قوة عسكرية، ولم يكن الملا ادريس غائبا من هذه المهمة، اذ سعى الى حشد الامراء الاكراد والانضمام الى القائد العثماني. كما انضم شادي بيك والي اماسيه وسيواس مع خمسة الاف فارس اليهم. وادرك الوالي الصفوي قرة خان امام هذا الحشد الهائل من المقاتلين والقوات

المحلية، عدم تمكنه من مواجهتهم فترك ديار بكر الى ماردين التي كانت تحت سيطرة الصفويين . وفتح امراء ديار بكر ابوابها الى القوات العثمانية والمتطوعين الاكراد في 10 ايلول 1515، الا ان القائد العثماني بيقلي محمد باشا لم يدخل المدينة بل سار نحو ماردين لمقابلة القوات الصفوية بقيادة قرة خان، الذي خاف من البقاء في ماردين وانسحب نحو سهل سنجار. ودخلت القوات العثمانية الى ماردين بعد ان فتح أمراؤها الابواب لهم بسعي من الملا ادريس. وحدث بعد ان فتح ماردين مباشرة ان دب الخلاف بين بيقلي ومحمد باشا وشادي بك ، وتمخض هذا عن انسحاب القوات العثمانية من ماردين، الامر الذي استغله قرة خان الى اعادة السيطرة عليها وطلب التعزيزات من تبريز. وعندما علم السلطان سليم بكل ذلك ارسل خسرو باشا والي قرمان على رأس قوة كبيرة الى ديار بكر، كما ارسل الشاه اسماعيل الصفوي هو الاخر تعزيزات عسكرية الى قرة خان.

انظمت التشكيلات العسكرية للقادة الثلاثة خسرو باشا وبيقلي باشا والشيخ البدليسي، وتوحدت فصائلهم، فكان جيشاً عثمانياً اثمرت عملياته عن نتائج مهمة في حسم الموقف الاقليمي لصالح سليم. وفي بداية الامر ارسلت قوات مؤلفة من 4000 مقاتل، فالتقت بالصفويين، ودارت معركة ضروس لم يسلم فيها من الجند العثماني الا الف رجعوا منهزمين امام الصفويين. وربما اراد العثمانيين اختبار قوة الصفويين. وبدأ فصل المواجهة بين القوات العثمانية وجيش الصفويين في تلك الاقاليم بقيادة قرة خان وعلى مقربة من قوج حصار الواقعة بين اورفة ونصيبين من شهر نيسان 1516. كان الجيش العثماني يتألف من قوة خسرو باشا على الميمنة، وقوات البدليسي على الميسرة وقوات البيقلي في القلب، فدارت رحى معركة عنيفة عرفت غاية في الضراوة وهي الثانية في مواجهة قرة خان الذي اصيب برصاصة اردته صريعاً، فوهنت قواته، وانهزم جنوده شر هزيمة وقد سميت هذه المعركة بمعركة (قره غين دده) نسبة الى المكان الواقع في جنوبي ماردين. واثر هذه المعركة استسلمت بعض المواقع الحصينة في المنطقة الى العثمانيين كما فتحت مدينة ماردين ابوابها للقوات العثمانية، الا ان قلعة ماردين التي كانت في عهدة سليمان بك اخي قره خان

لم تستسلم فحاصرتها القوات العثمانية. وفي هذه الاثناء كان السلطان سليم الاول يقود حملته العسكرية في بلاد الشام وارسل الى بيقلي محمد باشا الذي عين والياً على ديار بكر وامره بالالتحاق به ولهذا فأن الاستيلاء على هذه القلعة قد تأجل الى اجل غير مسمى. وبعد ان انجز السلطان سليم الاول المرحلة الاولى من حملته الى بلاد الشام ومصر والتي توجها بتحقيق النصر على المماليك في معركة مرج دابق، اصدر أوامره الى بيقلي محمد باشا لأخذ القوات التي كانت تحت امرته والتوجه نحو ماردين وفتح قلعتها. وعاد محمد باشا الى المنطقة وفتح قلعة ماردين على اثره تمت السيطرة على القلاع الموجودة هناك. وعلى الرغم من هذه العمليات العسكرية وما رافقها من انتصارات وخضوع قلاع ومراكز واماكن كـ ديار بكر وماردين للحكم العثماني الا ان كل ذلك لم يكن كافياً لإخضاع كردستان واقامة الادارة الفعلية للعثمانيين فيها طالما بقيت مواقع حصينة كـ الرها (اورفة) والرقة والموصل لم تخضع للدولة العثمانية. وبالفعل لم يكتف بيقلي محمد باشا بفتح ماردين بل واصل فتوحاته وسيطر على الرها ثم توجه نحو الموصل، وكان حاكمها الصفوي احمد بك الافشاري يدافع عن قلعتها، الا ان محمد باشا تمكن وبدعم من بدر بك حاكم جزيرة ابن عمر من أخذها. وسرعان ما وقعت الموصل بيد العثمانيين ولا نعرف مصير القوات الصفوية المرابطة فيها، ويبدو انها انسحبت من المنطقة برمتها بعد ان اخلت القلاع والمراكز. وذكر وبعد الحاق محمد باشا الموصل بالحكم العثماني انضوت كل من قلاع سنجار وتلعفر وارغني وسيوه رك وبيره جك بالكامل تحت الادارة العثمانية وعدت كل الاراضي الكردية جزء من الدولة العثمانية. فضلا عن ذلك كانت البلاد التي تسكنها قبائل بكر ومضر وربيعة التي كانت تشكل سناجق ديار بكر والرها والموصل قد خضعت للدولة العثمانية بفضل الكفاءة العسكرية لبيقلي محمد باشا وبفضل المفاوضات الناجحة التي اجراها البدليسي مع امرائها وكان ادريس يسعى لتنظيم الادارة الداخلية لهذه البلاد واشاعة الامن والنظام فيها بكل التدابير المتاحة وتعزيز روابط الامراء الذين اخضعهم لأوامر الدولة العثمانية. واقر السلطان جميع هذه الاجراءات وابلغ ادريس بذلك في فرمان ارسله اليه. ولكي يكمل ادريس المهمة التي باشر بها بشكل موفق، قسم ديار بكر الى بضعة سناجق (الوية) وذلك لتيسير الادارة فيها،

وفي السنة التالية، تم قبول حكومتي الرها والموصل فيها ايضاً. الا انه لم يكن بالإمكان اطلاق حكومة مطلقة في المنطقة وذلك لأن كردستان كانت تضم امراء بعدد قلاعها ويغلب على افكار امرائها اي رؤساء عشائرها نزعة الاستقلال. واخضع ادريس هذه البلاد بمساعيه المتواصلة وكان لابد من استخدام اللين والاستمالة معها. وقد اعلن زعماء الاقاليم والعشائر وامراء المقاطعات ولاءهم للدولة العثمانية، ولكنهم اشترطوا على البدليسي استمرارهم في حكم اقطاعاتهم، وقد قطع الشيخ البدليسي لهم جميعا مواثيق سياسية يبدأ العمل بها من خلال ما تنص عليه من مواد قانونية هي:

1. الاحتفاظ بعائدية تلك الاقطاعات واستغلالها.
2. يجري حكم الوراثة من انتقال الاقطاع الى اولاده الذكور، واذا اراد التصرف بها حسب الاعراف المحلية السائدة، فيستوجب آنذاك اصدار فرمان سلطاني بالموافقة على ذلك.
3. تقوم هذه الاقطاعات بتقديم المساعدات للدولة في جميع حروبها.
4. تحافظ الدولة على هذه الاقاليم ضد الاعتداءات الخارجية.
5. دفع الصدقات والرسوم الشرعية لبيت المال الخاضع لسلطان الدولة.

وقد ارسل السلطان سليم خلعاً كثيرة الى الامراء الاكراد وعلى رأسهم ادريس للخدمات التي اسدوها في فتوح المنطقة كما ارسل منشوراً الى ادريس أثنى فيه على الجهود التي بذلها والخدمات التي اسداها الى الدولة العثمانية.

ـ المرحلة الثالثة: حملة بيري محمد باشا الى غربي العراق والسيطرة العثمانية على منطقة عانه ـ هيت (1518).

يبدو ان العثمانيين اكتفوا بما حققوا من انجازات عسكرية في جنوب شرق الاناضول وشمال العراق وتوجهت جهودهم نحو تعزيز وجودهم السياسي والعسكري في المناطق الجديدة، لكن السلطان سليم الذي كسر شوكة الصفويين وانهى الحكم المملوكي في مصر

وبلاد الشام كان عليه ان يواصل عملياته العسكرية ويؤرق بها الشاه اسماعيل الصفوي، ولهذا نراه بعد عودته من مصر الى حلب، يرسل الوزير الاعظم بيري محمد باشا على رأس حملة الى شمال العراق. وانطلق الوزير الاعظم على رأس قوة من ألفي مقاتل من الانكشارية وعددا من جنود الاناضول والروملي وتوجه على امتداد نهر الفرات في 19 ايار 1518 اي الى غربي العراق وتوّج بيري محمد باشا حملته بالاستيلاء على مدينتي عانه وهيت الواقعتين الى الشمال الغربي من بغداد وعلى الشاطئ الايمن من نهر الفرات وبهذا امن وضعاً هدد فيه بغداد التي كانت تحت الحكم الصفوي . اي انه لم يواصل تقدمه وبقي مدة من الزمن على شاطئ نهر الفرات ورأى انه لم يصدر اي رد فعل من الشاه اسماعيل الصفوي، ولهذا عاد الى أدرنه تنفيذاً لأمر تلقاه من السلطان. ويرى بعض المؤرخين العثمانيين ان قيام السلطان سليم بأرسال الصدر الاعظم بيري محمد باشا من حلب الى الحدود الايرانية لم يكن الهدف منه ان يجعله يواجه الشاه اسماعيل الصفوي واشعال الحرب بينهما، بل استدراج الشاه الى داخل الاراضي العثمانية للقيام بحملة جديدة والحاق شمال العراق بالكامل بالدولة العثمانية . وقد افصح السلطان سليم عن نيته هذه الى بيري باشا. ويبدو ان حملة الصدر الاعظم بيري محمد باشا الى منطقة عانة وهيت كانت اخر حملة عثمانية الى العراق في هذه الفترة، اذ لم تورد هذه المصادر العثمانية اي عملية عسكرية اخرى، وتلتها فترة كانت بمثابة الهدوء الذي يسبق العاصفة. وانهت حملة بيري محمد باشا المرحلة الاخيرة من الحملات العسكرية الاولى التي حققت للعثمانيين السيطرة على اجزاء واسعة من منطقة الجزيرة تشمل منطقتي سنجار والموصل في الشمال وحتى تكريت جنوباً وتمتد من تكريت شرقاً الى الجنوب الغربي اي منطقة حوض الفرات الممتدة من الحدود العراقية-السورية الحالية الى مدينة هيت مشتملة مركزين مهمين هما عانة وهيت. ويستشف من هذا التحديد ان المنطقة الشمالية الشرقية من العراق ظلت خارجة عن نطاق هذه المناطق المحتلة من قبل العثمانيين.

لقد شكلت منطقة الجزيرة ولاية متميزة في السلطنة العثمانية، وظلت مدن الموصل وعانة ومناطق اخرى في شمال العراق سناجق من تلك الولاية حتى عام 1524. وعلى

حدود مناطق الدولة الصفوية رابطت حاميات عثمانية قوية، واقام في مختلف القرى قرابة عشرة الاف فارس عثماني، كما طبق النظام الزراعي الاقطاعي المشروط بالخدمة العسكرية. وقد ساهمت السلطة العثمانية هناك في انتعاش الحياة الاقتصادية لهذه المنطقة الغنية بالأراضي الزراعية، وقد استصلحت الاراضي المهجورة من جديد على ايدي المزارعين الاشوريين الذين تركوا المناطق الجبلية الصعبة واخذوا ينزحون بكثافة الى سهول الجزيرة. وطبقت القوانين العثمانية لاستغلال الاراضي في مختلف المناطق، ونظمت لذلك دفاتر خاصة. وقد الغى العثمانيون الضرائب الجائرة وعمليات ابتزاز الاموال التي كانت تمارس على الفلاحين في عهد الاق قوينلو والصفويين. وفي عام 1518 ظهرت اولى القوانين-نامه لديار بكر واورفة وماردين وغيرها من سناجق منطقة الجزيرة.

5.التوسع العثماني اتجاه العراق عام 1534 : حملة السلطان سليمان القانوني:

ـ الاحداث التي سبقت حملة سليمان القانوني:

لم تمض على المعركة العظمى التي وقعت بين الدولتين العثمانية والصفوية والتي قادها زعيما الدولتين اي معركة جالديران إلا 19 او 20 سنة كانت بمثابة هدنة غير موقعة بين الطرفين رغم حدوث بعض المعارك التي قادها قادة ميدانيون، وتمخض عنها تثبيت الحكم لعثماني في القسم الاكبر من شمال العراق. وفي هذه الفترة توفي السلطان العثماني سليم الاول عام 1520 وتقلد العرش ابنه سليمان الذي تلقب بالقانوني، كما توفي الشاه اسماعيل الصفوي عام1524 واعتلى ابنه طهماسب الاول عرش الدولة الصفوية، التي اتسمت السنوات العشر الاولى من عهده بالاضطرابات والصراع على النفوذ بين زعماء القزلباش. ولم ينته الصراع بين الدولتين العثمانية والصفوية بل ساد جو من العداء على العلاقة بينهما، ولم يتوقف العثمانيون من اتهام الصفويين بالقيام بنشاطات معادية ضدهم وبخاصة في الاناضول. وتنتهي هذه الفترة بالحملة السلطانية الثانية الى المنطقة، والتي قادها السلطان

سليمان بنفسه، وتسمى في التاريخ العثماني (عراقين سفري) اي الحملة على العراقين عراق العرب وعراق العجم.

لقد سبق قيام السلطان سليمان القانوني بحملته على ايران ثم العراق بعض الاحداث التي سرعت في اندلاع الصراع مجددا. فقد شهدت تخلي الامير الكردي شرف خان امير بتليس عن تبعيته للعثمانيين ولجوئه للصفويين، وتلقيه دعماً عسكرياً منهم، وكان شرف خان من الامراء الاكراد الذين يحكمون في المنطقة منذ القرن الثامن، وكان قد خضع للحكم العثماني في عهد السلطان سليم وعهد اليه بحكم بتليس. ولا نعرف دوافعه لهذا العمل، وربما تأثر بالدعاية الصفوية التي تزايدت في المنطقة. بالمقابل نعرف عن لجوء الوالي الايراني أولامه تكلو خان الى الدولة العثمانية، اذ عينه السلطان سليمان القانوني والياً على حصن كيف (حسنكيف) وجميع اراضي بتليس اي الاراضي التي كانت تحت عهدة شرف خان، ومنح له 400 الف دوقة (مليوني آقجه) كمخصصات سنوية. ويبدوا ان اولامه لم يتمكن من الدخول الى بتليس رغم محاصرته لها، واضطر الى التراجع بعد وصول قوة ايرانية بقيادة شرف بك (وربما شرف خان حاكم بتليس الذي التجأ الى الصفويين) وقد وصلت اخبار هذه الهزيمة الى مسامع السلطان سليمان. من جانب اخر نجد ان الشاه طهماسب شجع الثورات الي قامت في الاناضول ضد العثمانيين، منها تلك التي قام بها بابا ذو النون عام 1526، وقلندر جلبي عام 1527. ولعل ابرز الاحداث التي سبقت حملة 1534 هي اعلان ذو الفقار خان تبعيته للدولة العثمانية بعد قيامه بحركته الاستقلالية ضد الدولة الصفوية. فقد استغل احد الزعماء الاكراد من قبيلة موصلو وهو ذو الفقار بن علي بك ضعف النفوذ الصفوي في العراق الاوسط والجنوبي، فقام في صيف 1527بحركة بارعة اغتال فيها ابراهيم خان والي العراق الصفوي اثناء توجهه للقاء الشاه طهماسب . وانضمت القوة التي كان يقودها ابراهيم خان على الاثر الى اتباع ذو الفقار وتوجه على رأس تلك القوات الى بغداد فدخلها وحاصر القلعة ثم استولى عليها واعلن استقلاله عن الدولة الصفوية. وتشير رواية تاريخية اخرى ان ذو الفقار كان الوالي الصفوي المعين من قبل الشاه طهماسب وقد

لقب بـ(خليفة الخلفاء) ولا يعرف السبب الذي دفعه الى تغيير ولائه للدولة العثمانية. لقد ادرك ذو الفقار منذ بداية حركته ان امكاناته لا تقارن ازاء سطوة الصفويين. ولهذا بادر الى الاستعانة بالدولة العثمانية، فأظهر ولائه لها وامر بذكر اسم السلطان سليمان القانوني (1520-1566) في الخطبة ونقش اسمه على النقود، وبعث اليه بسفارة للإعراب عن ولائه له. ويبدو ان ما اقدم عليه ذو الفقار لقي ترحيباً كبيراً عند العثمانيين اذ لم يتأخروا في الاقرار بالأمر الواقع واصدار السلطان سليمان القانوني اوامره بتقليد ذو الفقار لواء بغداد وذلك في 12 نيسان سنة 1529. ولكن يظهر ان الخطوة العثمانية تجاه ما قام به ذو الفقار لم تتجاوز ارسال كتاب التقليد والهدايا اليه، وذلك لأن وضع الدولة العثمانية لم يكن يسمح بأن تقوم بأكثر مما قامت به لأسباب قد يأتي في مقدمتها انشغالها في الحروب في اوروبا وعدم امكانية توجيه قسم من ثقلها العسكري نحو المنطقة، لأن ذلك يعني المواجهة مع الصفويين، الامر الذي يتطلب تدخل السلطان شخصياً في المسألة وقيادته حملة عسكرية وهذا ما حدث بالفعل ولكن بعد خمس سنوات. لذلك جهز الشاه طهماسب الذي تولى العرش في 1524 جيشاً كبيراً تقدم به الى بغداد وفرض عليها الحصار. وفشلت هجمات الجيش الصفوي كافة امام صلابة المقاومة، التي قادها ذو الفقار، غير ان اخوين من اقرباء ذو الفقار قاما باغتيال الثائر غدراً عام 1530 فانهارت المقاومة وعادت سيطرة الصفويين الى العراق مرة اخرى. وعين الشاه طهماسب واليا جديدا على بغداد هو محمد خان تكلو. كما عين عدداً آخر من الشخصيات الفارسية حكاماً على عدد من مدن العراق وامر بتعزيز دفاعات بغداد ثم عاد الى قزوين. وفي الوقت الذي سقطت فيه بغداد بيد الصفويين، تعرضت البصرة الى الحملة البرتغالية. فقد بدأ الاهتمام البرتغالي بالبصرة منذ نهاية العقد الثاني من القرن السادس عشر، وقد جاءتها اول حملة برتغالية في عام 1529 عندما استعان راشد بن مغامس امير البصرة بالبرتغاليين ضد خصمه امير الحويزة، فبعث نائب الملك في الهند حملة بقيادة تافرز دي سوزا غير ان خلافا دب بين القائد البرتغالي وامير البصرة فقام بتدمير بعض القرى التابعة للبصرة ثم عاد ادراجه الى هرمز. وقد كان سبب الخلاف هو رفض راشد بن مغامس مساومة

البرتغاليين له حول بعض شروط التجارة. وقد لفت هذان الحدثان: عودة الاحتلال الايراني الى العراق والتهديد البرتغالي لرأس الخليج العربي، نظر السلطان سليمان القانوني الى خطورة الحالة التي تهدد ظهر الدولة العثمانية نظراً لسلسلة المحالفات السياسية والعسكرية بين الصفويين والقوى الاوربية، في وقت كانت الدولة فيه منصرفة الى قتال الامبراطورية الرومانية المقدسة في شرق اوروبا والبحر المتوسط وشمال افريقيا. ولهذا بدأ السلطان يفكر جدياً في مدة سلطانه الى العراق. واخذ بالاستعداد لأرسال حملة كبيرة الى ايران قدر لها الاستيلاء على بغداد وبقية العراق في نهاية عام 1534.

ـ اسباب حملة السلطان سليمان القانوني:

1. السبب الاقتصادي:

ان رغبة العثمانيين في السيطرة على طريق الحرير الوارد من تبريز نحو ارضروم وطوقاد الى الاناضول ومنها الى بورصة كان من اهم الدوافع لشن حملة جديدة على الدولة الصفوية. والحقيقة ان هذا الطريق اصبح سالكاً امام التجار منذ حملة سليم الاول، الا ان محاولة الصفويين استعادة ما فقدوه في هذه الحملة جعل الطريق في خطر، الامر الذي تطلب من القانوني التدخل العسكري لتأمين بقاء هذا الطريق سالكاً، وفضلاً عن هذا كان العثمانيون يسعون السيطرة الفعلية على طريق التوابل الواردة عن طريق البصرة- بغداد-حلب. وان هذا الطريق كان يداهمه خطران في آن واحد: الخطر البرتغالي في خليج البصرة والخطر الصفوي الذي مازال يسيطر على الاجزاء البرية منه. لكل ذلك اصبحت السيطرة على طريق بغداد-البصرة والرغبة في تأمين السيطرة على الطرق التجارية الممتدة من البصرة الى بلاد الشام والاناضول من اولويات الاهتمام العثماني. وينبغي ان لا ننسى هنا ان ايصال النفوذ العثماني الى البصرة، أي الثغر الشمالي للخليج العربي سيضع العثمانيين في مرحلة جديدة وهي السيطرة على الطريق البحري بين الهند والشرق الاوسط.

2. السبب السياسي:

اثناء انهماك العثمانيين بالحرب مع النمسا، جرى اتصال سري بين الصفويين والمجريين، اسفر عن تعاون الطرفين ضد العثمانيين، العدو المتكافئ لكليهما، كما تمكن الشاه طهماسب من تحقيق تحالف مع الامبراطور شارل الخامس امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة الذي كان في حالة حرب مع العثمانيين، وقد ارسل الامبراطور موفدين الى بلاط الشاه في عام 1529 لتعزيز علاقات الصداقة. زيادة على ذلك ان حوادث الحدود بين الدولتين الصفوية والعثمانية، الناجمة عن تحركات القبائل الكردية كانت احدى الاسباب المباشرة لإذكاء الحرب بينهما، فضلا الى الاوضاع المضطربة التي تحكم الاقاليم الصغيرة الواقعة على الحدود بين الطرفين والسياسة المتقلبة لحكامها. بل كان هناك نزاع مستمر بين اتباع الصفويين في الحدود الشرقية من الاناضول وبين امراء الحدود العثمانيين. واتُهم الشاه اسماعيل الصفوي بأنه بعد وفاة السلطان سليم عام 1520 استغل انشغال السلطان سليمان القانوني في حملاته في بلغراد ورودس واعطى زخماً لنشاطاته الدعائية في الاناضول وسعى الى شن الغارات على الحدود العثمانية في شرقي الاناضول واقامة النفوذ على العشائر في المنطقة. كما استاء العثمانيون من محاولات الشاه طهماسب اثارة القزلباش في الاناضول، مقتفيا خطى والده اسماعيل، فعلى الرغم من قيام السلطان سليم الاول بمذبحته المشهورة تجاه القزلباش في الاناضول الشرقي لم يؤد الى استئصالهم في المنطقة. ومهما يكن من امر هذه الدوافع فلم يكن بإمكان العثمانيين التخلي عن فكرة الوصول الى الخليج العربي والامتداد الى مسلمي الهند وتحجيم دور الصفويين في المنطقة، ولتحقيق هذه الغاية كان لابد من السيطرة على الطريق البري المؤدي الى الخليج العربي عبر بغداد ثم البصرة. والا لو كانت المسألة تتعلق بالصفويين وما يشكلونه من تهديد في الجزء الجنوبي الشرقي من الدولة العثمانية لاقتصرت العمليات العثمانية على ردع الصفويين او القضاء عليهم بالتوغل الى اعماق اذربيجان وايران وليس الاكتفاء بالمناطق الحدودية ثم التوجه نحو العراق وليس متابعة السير نحو الشرق واحكام السيطرة العثمانية على العراق ومد نفوذهم الى البصرة لتكون منفذاً لهم الى الخليج العربي.

ـ حملة السلطان سليمان القانوني لاحتلال العراق:

شهدت العلاقات العثمانية-الصفوية ازمة كبيرة في عهد السلطان سليمان القانوني، وكان العثمانيون منشغلين بعملياتهم العسكرية في اوروبا، ولم يكن بوسعهم فتح جبهة ثانية ضد الصفويين في نفس الوقت، فكان لا بد من تعليق العمليات العسكرية في اوروبا للتفرغ من اجل التعامل مع الامر الواقع في الجبهة الجنوبية الشرقية للدولة طالما اصبحت الحرب مع الصفويين حالة لا يمكن العدول عنها .وبالفعل قام السلطان سليمان القانوني بحل المسائل العالقة في اوروبا وذلك عندما تبوء الشاه طهماسب عرش بلاد فارس.

كانت بداية الحرب العثمانية-الصفوية عندما خاض اولامه تكلو وهو احد المنشقين عن الدولة الصفوية، معركة ضد شرف خان المنشق عن السلطنة العثمانية وتمكن من التغلب عليه وقتله في 21 تشرين الاول سنة 1533، وأثر هذا حشد ابنه شمس الدين قواته وتقابل مع اولامه تكلو الا انه ادرك انه لن يتمكن من مقاومته فاتصل بالوزير الاعظم ابراهيم باشا معلنا طاعته للعثمانيين ولهذا عهد اليه ابراهيم باشا بتليس ووعد اولامه باشا بتقليده وظيفة اخرى وكان الاجراء الذي اتخذه الوزير الاعظم صائبا وفي محله، اذ لو قام بتوجيه ادارة بتليس الى شخص اخر من غير الاسرة التي تديرها بالوراثة ، فان الامراء الاكراد الذين كانوا يديرون اقاليمهم بنفس الطريقة سيفقدون الثقة بالحكومة العثمانية ويوجسون خيفة ويستغلون بالتالي اية فرصة سانحة لإعلان تبعيتهم وولائهم للدولة الصفوية.

كان شاه ايران طهماسب قد ورث عن ابيه اسماعيل عداءً مستحكماً مع قبائل الاوزبك في اقصى الشرق وكان يقودهم عبيد خان(1539-1540) من بلاده من جهة ومع العثمانيين المتاخمين له في الغرب من جهة اخرى، فبادر اولاً الى محاربة الاوزبك ، الا ان السلطان العثماني سليمان القانوني (1524 – 1566) استغل حرب الشاه مع الاوزبك واراد السيطرة على طريق تبريز التجاري لذا ارسل اولامه تكلو، على رأس قوة صغيرة الى اطراف اقليم أذربيجان لاستطلاع الاوضاع العسكرية ولاستمالة سكان الاقليم الى جانب الدولة العثمانية قدر المستطاع. ثم اصدر السلطان اوامره الى صدره الاعظم ابراهيم باشا في

تشرين الاول 1533 بالتوجه هو الاخر على راس جيش كبير قدر بـ 100.000 مقاتل للالتحاق باولامه. وكان الصدر الاعظم ابراهيم باشا قد انطلق من اسطنبول صوب المنطقة ووصل الى حلب في كانون الاول 1533 وامضى فصل الشتاء فيها وقبل ان يخطو ابراهيم باشا اية خطوة قام بجمع المعلومات المتعلقة بتحركات الشاه والاوضاع السائدة في بغداد وارجائها وكلف بهذا سليمان باشا الذي ربما عين في ايالة الاناضول بعد عام من عزله من ولاية ديار بكر 1532م. وبعد ان اجمع سليمان باشا بعض المعلومات، ارسل رسالة غير مؤرخة الى ابراهيم باشا اشارت الى ان محمد خان تكلو عين حاكماً على بغداد بعد ذو الفقار خان وجمع مؤناً تكفيه لمدة 3-4 سنوات ويسعى الى تحصين موقعه. وان علاقته مع العشائر العربية في ارجاء بغداد غير جيدة وعدائية وهو يقيم في داخل بغداد نفسها. كما اورد سليمان باشا في رسالته انه طلب من امير سنجق الموصل احمد بك ومن حسين بشري (وهو عربي كان يدير اقطاعاً للسلطان دون ان يذكر محل اقامته) طلب منهما احاطته علما بالوضع في ارجاء بغداد. وقام حسين بشري بالتوجه مع جمع من الرجال الى ارجاء تاووق (داقوق) في كركرك واغاروا على الصفويين المتمركزين هناك وتغلبوا عليهم واسروا واحدا منهم وارسلوه اليه. وازاء هذا الوضع اوصى سليمان باشا القائد العثماني ابراهيم باشا، بالتاني والتريث لحين تمكنه (أي سليمان باشا) من الذهاب الى الموصل والحصول على اصح الاخبار ليتسنى له اتخاذ التدابير اللازمة على ضوئها. وكان سليمان باشا يرى ان بغداد قلعة حصينة جداً وينبغي فتحها عن طريق بذل الامان لأهاليها وإلاّ ينبغي تجهيز الجيش بمعدات من 3000-4000 فأساً ومثلها معولاً وهناك احتمال كبير ان ابراهيم باشا امضى الشتاء في حلب اثر هذا التقرير. وقد قرر ابراهيم باشا عقب ذلك، بالتوجه الى بغداد مثلما كان مقررا في السابق الا انه وباقتراح من الدفتر دار اسكندر باشا قصد ديار بكر (ايار 1534)، وقد وصل الصدر الاعظم الى مدينة (آمد) اذ مكث فيها ستة اسابيع للتموين اتجه بعدها الى قلعة (اونيك) ثم الى قلعة (وان) ثم الى (عادل جواز) ومن هذه الاخيرة توجه الى اطراف اذربيجان حيث امر فيها اولامه وجيشه بالتقدم الى اردبيل، في الوقت الذي زحف هو على

مدينة تبريز. ولما سمع الشاه طهماسب بتوغل اولامه في اراضيه وعلم بنجاح ابراهيم باشا باقتحام تبريز، بادر الى عقد صلح مع الاوزبك وارسل فرقة من (القزلباش) لمواجهة الحملة العثمانية ولما علم ابراهيم باشا بالأمر بعث الى السلطان سليمان يستقدمه على جناح السرعة وذلك لعجزه على مواجهة الشاه طهماسب لوحده وقد استجاب السلطان لطلب صدره الاعظم واعد جيشاً في ايار 1534 قاصداً به تبريز، وفي تشرين الاول 1534وصل مصيف (اوجان) في اذربيجان فهب ابراهيم باشا فيه لاستقباله ولما كان في نية السلطان سليمان مواجهة طهماسب وجها لوجه فانه غادر مصيف اوجان في طريقه الى (سلطانية) ليزحف منها الى قزوين عاصمة الدولة الصفوية آنئذ لدحر الشاه في عقر داره، الا ان الامطار الغزيرة التي هطلت والثلوج الكثيرة التي تراكمت في الطرقات ادت الى هلاك عدد كبير من رجال الحملة العثمانية وولدت تذمراً بين افراد الجيش ولكن رغم ذلك استطاع السلطان قيادة جيشه باتجاه قزوين وقد نشرت انباء زحفه الهلع في صفوف الجيش الصفوي ولاسيما أولئك المتمردين منهم حيث مال فريق منهم الى تأييد السلطان سليمان، كما اعلن بعضهم العصيان في وجه الشاه الا ان سوء الاحوال الجوية خدمت الشاه فالشيء الذي لم يستطع فعله في مواجهة جيش السلطان سليمان فعله الطقس، حيث ان الامطار والثلوج الكثيرة التي تراكمت خلفت الاوحال في الطرقات وادت الى غوص العربات والمدافع فيها فأثر هذا الوضع على نفسية الجيش العثماني وزاد في قلقه وتذمره واضطرابه لدرجة ان فريقاً منه تجرأ وطالب بالعودة الى الوطن ونتيجة لذلك اضطر السلطان الى مغادرة مدينة السلطانية ولما كان الرجوع الى اذربيجان في ذلك الفصل يعني مواجهة القحط والمجاعة لذا قرر التوجه الى الموصل عن طريق شهرزور لقضاء فترة الشتاء والعودة بعدها الى مواجهة طهماسب في بلاده ثانية عند حلول فصل الربيع. في اثناء ذلك وصله وفد من الحامية الفارسية في بغداد يحمل اليه مفاتيح المدينة علما ان حاكم بغداد محمد خان كان قريبا لاولامه تكلو. ومن المعروف ان الاوضاع في بغداد كانت قد اضطربت نتيجة فزع الحامية الفارسية حيث كانت اخبار الجيش العثماني تتوارد الى العراق عن طريق رسائل كان يبعثها باستمرار اولامه تكلو

والصدر الاعظم العثماني الى بغداد بقصد اضعاف معنويات حاكمها، وقد ادت تلك الرسائل الى انقسام ابناء قبيلة تكلو في بغداد الى مجموعتين احداهما تؤيد الشاه والثانية تروم التعاون مع الدولة العثمانية، وقد حاول محمد خان اقناع الفريق الثاني بالعدول عن موقفه والتعاون معه لصد الهجوم المتوقع والدفاع عن بغداد وقلعتها بعد ان وصلته رسائل سليمان القانوني وهي تتضمن الاغراء والتهديد، الا ان هذا الفريق أبا ذلك. وفي هذه الاثناء وصله رسول من الشاه يدعوه حاميته للتوجه الى قزوين، ولما عرض الامر على قبيلته رفضت الدعوة بل تحصنت في المدرسة المستنصرية، واعلنت التمرد ضده وجاهرت بالولاء للدولة العثمانية ولما لم يكن في استطاعته الدفاع عن بغداد، كما لم يكن في مقدوره مغادرتها وحده اتصل بقادة المعارضين وتظاهر امامهم بأنه قد غير رأيه واخبرهم بموافقته على تسليم بغداد الى السلطان وطلب منهم تنظيم وفد من زعمائهم للذهاب اليه واستقدامه فرحب القادة المعارضون بقراره وهرعوا الى السلطان فرحين لاستدعائه، وعندئذ انتهز خلو المدينة منهم فجمع ماله وحاشيته وعبر نهر دجلة ليسلك الطريق البري فاراً الى البصرة. وقد تسلم سليمان القانوني مفاتيح بغداد من وفد من قبيلة تكلو وكان آنذاك على مشارف سهل ماهي دشت بالقرب من كرمان في طريقه الى العراق، لذا تحرك على الفور بهدف الوصول الى بغداد. لقد فتح السلطان سليمان بغداد دون قتال في كانون الاول 1534، وقد دخل بصحبة حاشيته فقط الى المدينة ومن الامور الهامة التي يجب الاشارة اليها، ان السلطان لم يسمح لجيشه بدخول المدينة خوفاً من عدم استطاعته كبح جماحه وتلافياً لأعمال النهب، ولو اخذ بنظر الاعتبار ما صاحب جيش سليمان من مجاعة عبر الطريق الشاق الطويل وما عاناه من كثرة هطول الامطار وتراكم الثلوج لاستطعنا تصور حالة بغداد لو سمح للجيش بدخولها، لذا سلمت المدينة من السلب والنهب والهدم، وهذا ما لم يعهده سكانها في تلك الايام من المحتلين. ومن الجدير بالذكر ان مدينة بغداد كانت عند دخول السلطان سليمان القانوني محاطة بسور على شكل قوس يتخلله حوالي 150 برج وفيه اربعة ابواب يدعى الشمالي منها باب الامام الاعظم، والجنوبي يسمى الباب المظلم، والشرقي الباب الابيض، اما الباب

الغربي فاطلق عليه باب الجسر، الذي كان يؤدي الى قلعة لطيور في الجانب الغربي من (الكرخ) وكان يحيط السور خندق عميق، اما المدينة فأنها كانت خربة لا اثر لدور العلم والمدارس والمساجد التي اشتهرت بها في العصور السالفة، فالمدرسة المستنصرية مثلاً كانت قد تحولت الى مخزن للبضائع في الوقت الذي اصبحت المدرسة النظامية اثراً بعد عين. وخلال مكوث السلطان في بغداد قام ببعض الاعمال العمرانية، منها توسيع مرقد الامام ابي حنيفة وبناء قبة عليه ومدرسة وجامع وزاوية الى جواره وسور حوله ووضع حامية بقربه لحماية زواره ومن جهة اخرى قصد السلطان مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني وامر المعمار العثماني سنان باشا بتشييد قبة للمسجد، فانجز هذه القبة البيضاء ودار السبيل، وفي اطراف بغداد زار السلطان مراقد الائمة والمشايخ والاولياء كما قصد العتبات المقدسة في الكاظمية وكربلاء والنجف. ومن اعماله الهامة محاولة تعميقه نهر الحسينية الذي يروي مدينة كربلاء وبساتينها. فضلا عن امره ببناء سدة ترابية لإنقاذ المدينة من الغرق الذي كان يصيبها في سنوات فيضان نهر الفرات، ولا تزال هذه السدة تسمى باسمه روف السليمانية. ومن كربلاء سلك الطريق الصحراوي الى النجف لزيارة مرقد الامام علي ابن ابي طالب(ع) ومنها قصد الكوفة ثم توجه الى الحلة ومنها عاد الى بغداد وخلال مكوثه فيها امر بإصلاح اسوار وابراج المدينة وقلعتها، ولكن مع الاسف قام باستبدال باب السلطان الاثرية بباب خشبية من الصاج المضرب بالمسامير الحديدية وبيض واجهتها بالجص وبذلك ازال ما كان عليها من كتابة اثرية. ومن جهة اخرى قسم البلاد الى وحدات ادارية وادخل نظام الاقطاع الذي كان معروفاً في المقاطعات الاخرى من دولته، ومنح التيمار والزعامات الى الجنود والقادة الذين اظهروا البطولة في الحملة الخيرة على بلاد فارس والعراق كما نظم سجلات للأملاك الخاصة والاوقاف واوكل ولاية بغداد الى سليمان باشا وعقد عدة اجتماعات للديوان وزود الحاكم الجديد بحامية من حوالي الف جندي مزودين بالأسلحة النارية والف فارس وتموين كاف للدفاع عن المدينة ان اقتضت الضرورة امام هجمات الشاه طهماسب المتوقعة في المستقبل.

لقد اخضع الجهاز الاداري بعد احتلال السلطان سليمان القانوني للعراق لعملية اعادة تنظيم شاملة. فاستحدثت ولايات بغداد والموصل بعد فصل الاخيرة عن ولاية ديار بكر عام 1534. كما تطلب الامر اقامة نظام حقوقي جديد وسن قوانين-نامه محلية في الموصل وتكريت وبغداد وغيرها من المدن بهدف القضاء على الظلم والاستبداد. وفي نيسان غادر سليمان القانوني العراق وبقيت في البلاد قوات عثمانية بلغ عددها نحو 22000 تضم الفرسان-الخيالة(السباهية). ولو اضيفت اليها الفصائل المسلحة التابعة للأمراء الاكراد والبدو لبلغت هذه الجيوش درجة عالية من القوة. لقد تحول العراق في النصف الاول من القرن السادس عشر الى اقوى رأس جسر للقوة العسكرية العثمانية في الشرق.

في نهاية عام 1534 عاد السلطان الى اسطنبول، وعندما وصل الى مكان يدعى كوك تبه سمع بان الشاه طهماسب الاول قد بعث برسالة الى امير اربيل عز الدين شير، مما اثار شكوك السلطان العثماني فامر بقتله، وعهد بحكم اربيل الى الامير اليزيدي حسين بك الداسيني، ثم اضاف السلطان العثماني امارة سوران بكاملها الى اربيل وسلم ادارتها الى الامير اليزيدي المذكور. في فرمان 14 شباط 1537 ثبت السلطان سليمان قانون-نامه بغداد، اعلن انه لا يسمح لاحد بعد هذا القانون ان يعامل سكان المدن والقرى خلافا للقانون والشريعة. وكلف قاضي وبكلر بكي بغداد اعلام الجميع بذلك. وللتأكد من ذلك امر السلطان بقراءة قانون-نامه في جميع المدن والقرى ومناطق التجمعات السكنية. ووضعت في الوقت ذاته مبادئ لفرض الضرائب واستغلال الارض كما اجري مسح تفصيلي ونظمت الدفاتر سجلت فيها كل التفاصيل المتعلقة بالمقاطعات والاملاك.

ـ احتلال العثمانيون لبقية انحاء العراق:

1. خضوع البصرة الى الدولة العثمانية:

لا شك ان بغداد لم تكن تعد مركزا للمنطقة فحسب بل شرياناً حيوياً يتحكم بكل العراق، وهذه الخصوصية لا تجدها في المراكز الاخرى كالموصل والبصرة، فبعد خضوع الموصل للعثمانيين ظلت بغداد تحت الحكم الصفوي ولم تتأثر من الناحية الاستراتيجية. كما لم تعد الموصل مفتاحا لاحتلال بغداد، بل تم احتلال المدينة بوصول القوات السلطانية اليها من الناحية الغربية اي عبر خانقين. وبهذا كان احتلال بغداد على ايدي العثمانيين ايذاناً بدخول المناطق المتبقية من العراق تحت حكمهم. ويبدو ان حكام هذه المناطق يعرفون هذا الامر جيداً ولهذا نجدهم يعلنون ولائهم للسلطان العثماني ولاسيما بعد ان لمسوا التفوق العثماني على الدولة الصفوية ولم يكن بمقدور هؤلاء التحرك خلاف هذا الامر. فكما حدث شمال العراق حيث اعلن الامراء خضوعهم للدولة العثمانية في عهد سليم الاول وبهذا حافظوا على اماكنهم، نجد ان الامراء في جنوب العراق اتخذوا نفس الموقف. ويأتي على رأس هؤلاء الامراء بلا شك امير البصرة الذي لم يتأخر في اعلان ولائه للسلطان سليمان. وكانت البصرة تابعة للصفويين اخذها الشاه اسماعيل الصفوي في عام 1508 من دولة الآق قوينلو. الا ان هذه التبعية لا تعني حكماً صفوياً مطلقاً بكل معنى الكلمة، اذ وقعت المنطقة تحت سيطرة بعض القبائل العربية ولهذا لم تشهد الاستقرار في الادارة. وكانت البصرة ومنذ مدة طويلة تدار من قبل عائلة راشد بن مغامس وتقرأ الخطبة باسمهم وتسك النقود باسمهم ايضاً، وربما كان النفوذ الصفوي فيها اسمياً. وعند وصول السلطان سليمان القانوني الى بغداد كان يدير البصرة راشد ابن مغامس، وعندما علم بما آل اليه الامر في

بغداد، قصد السلطان سليمان واعلن خضوعه له، وفضلاً عن هذا قام رؤساء العشائر العربية في منطقة البصرة وفي الغراف والحويزة بإعلان ولائهم للسلطان، كما ورد الرسل من القطيف والبحرين يعلنون ولاء حاكمهم للسلطان. وفي عام 1538م ارسل الامير راشد بن مغامس وفداً برئاسة ابنه مانع وضم وزيره وقائد جنده مع هدايا كثيرة الى السلطان وسلمه مفاتيح مدينة البصرة واعاد اعلان خضوعه للدولة العثمانية، وإثر هذا عهد السلطان اليه بالبصرة على ان يقوم بضرب النقود وقراءة الخطبة باسم السلطان، ويعود سبب اتصاله بالسلطان الى خشيته من تحركات البرتغاليين في ارجاء المحيط الهندي ومضيق هرمز. وقد عهد السلطان بحكومة البصرة اليه تحت اسم (إيالة البصرة). وقد قام راشداً بسك النقود في البصرة باسم السلطان العثماني كما قرأ الخطبة باسمه ايضاً وذلك في 1538م . لقد تجسدت سلطة الباب العالي في هذه المرحلة وبشكل رئيس في تكريس خطبة الجمعة للسلطان ونقش اسمه على النقود. وفي افضل الحالات كان العثمانيون يرسلون السلاح ويبنون الحصون ويركزون الحاميات الصغيرة. وكان ينبغي على راشد بن مغامس طالما عد اميرا عثمانيا ان يدير ايالته وفق القوانين الشرعية وبشكل ينسجم مع اوامر بكلربكي بغداد. ولكننا لا نمتلك معلومات عن كيفية ادارة راشد للبصرة، والذي نعرفه انه وبعد راشد حل محله ابنه مانع، غير انه اضطر الى التنازل عن موقعه ليحيى شيخ بني امان. ويستشف من نوايا وتوجهات العثمانيين في هذا الوقت بالذات انهم كانوا يعدون العدة او يستهدفون الوصول الى سواحل خليج البصرة. وبمعنى اخر الوصول الى بوابة الدخول والخروج المهمة للمحيط الهندي، ولهذا فان وجود كيان مستقل في البصرة كان من شأنه عرقلة وصولهم الى هناك. ولم يمر وقت طويل حتى ظهر الدافع الذي يوجههم في الحركة نحو البصرة . ففي سنة 1546 طالب السلطان سليمان الشيخ يحيى بإعادة بعض الاشخاص المطلوبين من قبل العثمانيين والذين فروا الى البصرة، الا ان يحيى لم يكترث بهذا الطلب، وبهذا اصبح كمن يدعو القوات العثمانية للتحرك نحوه . وبعد ان تلقى إياس باشا بكلربكي بغداد امر التحرك نحو البصرة قام بتسيير اسطول مكون من 120 سفينة سلم قيادته الى سنجق بكي (امير سنجق) الموصل، كما ارسل القوات البرية تحت امرة علي الذي ينتسب الى اسرة

ذو القدر. لقد سعى القائد العثماني في خلال تقدمه الى اخضاع القبائل المنتشرة بين بغداد والبصرة، ونجح في الحاق هزيمة بشيخ مشايخ ال قشعم الذي يلقب بشيخ العراقين أي شيخ الكوفة والبصرة. وعندما وصلت هذه القوات الى القرنة وحاول ابن عليان حاكم منطقة الجزائر (شمال البصرة) صد هذه القوات اذ سار على راس ثلاثة الاف من اتباعه المقاتلين الى العثمانيين الا انه انهزم كما انهزمت امام العثمانيين القوات الواردة من اطراف البصرة. وهذه القوات هي بالتأكيد كانت تحت امرة الشيخ يحيى الذي كان يتحكم بالبصرة، الامر الذي ادى الى هروب المدافعين عن البصرة. فبقيت المدينة دون دفاع فدخلها العثمانيون بقيادة إياس باشا في كانون الاول سنة 1546. وعين إياس باشا في ايالة البصرة بشكل مؤقت بلال محمد باشا واصبحت البصرة تحت السيطرة المباشرة للدولة العثمانية وفقدت ميزتها في الحكم المحلي الذاتي، ثم عين بلال محمد باشا بكلربكي فيها بساليانه (مخصصات سنوية) مقدارها مليون آقجه سنويا ويكون بذلك اول والي عثماني يتولى ادارة البصرة بشكل مباشر. لقد تحول جنوب العراق الى ولاية تابعة للسلطنة العثمانية، وقد خفض الوالي العثماني الضرائب والغى ابتزاز الاموال غير القانوني الذي كان يمارسه راشد بن مغامس، وادخل النظام العثماني العام للأراضي والضرائب، كما نشر بين الشعب قانون-نامه البصرة. وما اتسم بالأهمية البالغة ان والي بغداد حول جمارك البصرة التي كانت تتقاضى مبالغ طائلة من الرسوم المفروضة على البضائع الهندية المستوردة الى ممتلكات عامة تابعة للحكومة. وفي عام 1551 استكمل تحضير الدفتر العثماني الاول الذي سجلت فيه تفاصيل املاك الحاكم الخاصة والمقاطعات ونظام لإقطاع في ولاية البصرة.

على الرغم من السيطرة العثمانية فان الاستقرار الاداري لم يتحقق دائما في البصرة وارجائها بل اصبحت مسرحا للاضطرابات او سيطرة العشائر العربية عليها، فسرعان ما ثارت القبائل العربية بزعامة علي ال عليان كبير مشايخ الجزائر عام 1549، فكلف السلطان والي بغداد تمرد علي باشا لإخماد الثورة، واصدر اوامره الى والي سيواس محمد باشا البالطه جي للتقدم على رأس قوة من الانكشارية للمساعدة في انهاء الثورة. وقد تقدمت القوات العثمانية الى واسط ومنها توجهت الى المدينة وتقع بالقرب من القرنة مركز ال

عليان. وبعد معارك شديدة بين رجال القبائل والقوات المهاجمة، فشل العثمانيون في تحقيق نتيجة حاسمة، وبسبب طبيعة المنطقة غير المواتية للحروب النظامية، وامام شدة المقاومة، وجد القائد العثماني تمرد علي باشا نفسه مجبرا على الانسحاب، وقد كلفه فشله منصبه، اذ صدر الامر بعزله وتعيين محمد البالطه جي باشا لمنصب والي بغداد. ولكن الدولة العثمانية، نظرا لأهمية جنوب العراق لاسيما البصرة من الناحيتين الاستراتيجية والتجارية، وخوفا من استغلال البرتغاليين وحلفائهم الصفويين المتربصين عند مداخل الخليج، استمرت في سياستها الهادفة الى اخضاع القبائل واتباع سياسة قمعية شديدة. لكن كان لفشل الاسطول العثماني في صراعه مع البرتغاليين بين عامي (1551-1553) اثر في اضعاف هيبة العثمانيين في المنطقة، فاستغلت القبائل العربية ذلك لمعاودة الثورة على العثمانيين، واستطاع ال عليان في عام 1553 من صد حملة عثمانية ارسلت لقمع ثورتهم. وتزايدت على اثر ذلك جرأة القبائل واخذت تهاجم الحامية العثمانية في البصرة بشكل متواصل. وقد اشتدت ثورة ال عليان خطورة في عام 1566-1567، فنظمت حملة كبرى اشتركت فيها حاميتا شهرزور والموصل، كما ارسلت 450 سفينة مزودة بـ 200 مدفع عن طريق بيره جك عبر الفرات، وانيطت قيادة الحملة بوالي بغداد اسكندر باشا. وقد استطاع العثمانيون تحقيق بعض النجاح، ولكن رجال القبائل واصلوا المقاومة بأسلوب حرب العصابات، وكبدوا القوات العثمانية خسائر كبيرة. فلم يكن من اسكندر باشا الا ان يواصل ضغطه العسكري، ولكنه فشل في احراز نصر حاسم على رجال القبائل، فامر بقطع اشجار النخيل واتلاف المحاصيل التي تعيش عليها القبائل، مما اضطر ال عليان الى طلب الصلح لقاء دفع ضريبة الى خزينة البصرة، وتسليم احد اولاده رهينة لدى السلطان.

2.خضوع المنطقة الشمالية الشرقية الى الحكم العثماني:

كانت المناطق الشمالية والشمالية الشرقية من العراق فقد خضعت للحكم العثماني باستثناء منطقة شهرزور الواقعة في الشمال الشرقي منه. ومن المعروف ان قلاع الحلة وشهربان

ولورستان وواسط ومشعشعة والقطيف الحقت بالدولة العثمانية في الوقت الذي كان السلطان سليمان القانوني ما يزال في بغداد، اي ان الحاق هذه المناطق تبع احتلال بغداد مباشرة . اما منطقة شهرزور الواقعة في المنطقة الشمالية الشرقية من العراق فقد كان يسكنها الاكراد على شكل عشائر. وقبيل الحكم العثماني خضعت المنطقة الى الصفويين الذين اقروا امرائها المحليين في ادارة المنطقة. والمعروف ان انضواء منطقة شهرزور تحت الحكم العثماني تحقق خلال حملة ابراهيم باشا التي كانت مقدمة لحملة القانوني وخلال هذه الحملة وكذلك بعدها قامت القوات العثمانية بفتح الكثير من القلاع الواقعة على الطريق وسيطرت على حوالي خمسة وعشرين قلعة في منطقة شهرزور وحدها وذلك حوالي اواخر سنة 1534 وبداية سنة 1535، وبعد مغادرة القانوني بغداد بعد احتلالها متوجهاً نحو اذربيجان سيطرت القوات العثمانية التي كانت تتقدم في منطقة شهرزور على قلاع كثيرة فيها، كما اعلن بعض رؤساء العشائر المشهورة في المنطقة ولائها للدولة العثمانية. غير ان التحكم العثماني في المنطقة كان مرهونا بالوجود الفعلي للقوات العثمانية في المنطقة ولهذا اصبحت هذه المنطقة مسرحاً للنزاع العثماني-الصفوي، ولم يكن للزعماء المحليين الا الخضوع لأحد الطرفين المتخاصمين. ويبدو ان قلعة ظالم مقر ولاية شهرزور كانت اهم القلاع في المنطقة قاطبة.

ـ البصرة قاعدة بحرية للصراع العثماني-البرتغالي:

شهد العراق في العهد العثماني صلات كبيرة ربطت ما بينه وبين اقطار الخليج العربي الاخرى، وكانت هذه الصلات تتفاوت مدا وجزرا وتختلف من وقت الاخر. وكان لظهور الخطر البرتغالي اثر كبير في توجه العثمانيون نحو البصرة ثم الخليج العربي.

بدأ الاهتمام البرتغالي بالبصرة منذ نهاية العقد الثاني من القرن السادس عشر، وقد جاءت اول حملة برتغالية في عام 1529 عندما استعان راشد بن مغامس امير البصرة

بالبرتغاليين ضد خصمه امير الحويزة فبعث نائب الملك البرتغالي في الهند حملة بقيادة تافرز دي سوزا، غير ان خلافا دب بين القائد البرتغالي وامير البصرة فقام بتدمير بعض القرى التابعة للبصرة ثم عاد ادراجه الى هرمز. وقد كان سبب الخلاف هو رفض راشد بن مغامس مساومة البرتغاليين له حول بعض شروط التجارة

لقد اتخذ العثمانيون من البصرة نقطة انطلاق لهم نحو التقدم في مياه الخليج العربي لضم اقطاره الواحدة تلو الاخرى الى إمبراطورتيهم الشاسعة، وكانوا بهذا يصارعون الزحف الاوروبي من جهة والامبراطورية الفارسية من جهة اخرى. لقد كانت تلك المحاولات في البداية بطيئة وضعيفة ذلك لان العثمانيين عجزوا عن تثبيت نفوذهم في البصرة نفسها وما حولها، فبقي ال عليان حكام المدينة في حالة تمرد مستمر، وقد فشل الاسطول العثماني عام 1553 من احتلال حصونهم، ولاقى العثمانيون فشلا مماثلا في الحويزة، وبقيت عشائر المنتفك مصدر ازعاج مستمر للولاة. اما الحالة في البصرة نفسها فهي لا تختلف عما كان يجري من حولها، فمرة كانت تتعرض لغزو ايراني، ومرة تنفصل عن بغداد وهكذا. وكان من العسير على ولاة بغداد ان ينقذوها من متاعبها، وان الاسطول الذي انشاءه العثمانيون فيها كان ضعيفا مهلهلا ومفككا، لذا فانه لم يوفق في احراز أي نصر يذكر. وفشلت جميع المحاولات التي بذلت للسيطرة على بعض اجزاء الخليج العربي، ذلك انها جوبهت بمقاومة اوربية شديدة: برتغالية-هولندية-انكليزية من جهة، ومقاومة فارسية على ضفة شط العرب اليسرى من جهة ثانية، وبمجابهة العصبيات المحلية من جهة ثالثة. وكانت القوات البحرية العثمانية في كل هذا بعيدة عن مراكز تموينها في البحر المتوسط، قبل فتح قناة السويس. ومع هذا فأن العثمانيين بذلوا مساعي كبيرة من اجل جعل البصرة قاعدة لعملياتهم البحرية في الخليج العربي ضد البرتغاليين. واولى تلك المحاولات كانت عام 1552 اذ جعلها بيري بك ريس نقطة تجمع لأسطوله، بعد فشله في الاستيلاء على هرمز. وقد بقي قسما من اسطوله في البصرة وعاد الى السويس بالقسم الباقي. وتكررت المحاولة عام 1554 اذ قاد حاكم القطيف وهو مراد بك ريس اسطول البصرة متوغلا في الخليج العربي، ولكنه عاد من

حيث انطلق بعد فترة قصيرة. على ان ما اصاب الاسطول العثماني بعدئذ على يد سيدي علي ريس عام 1554 كان ضربة قوية وجهت الى الاسطول العثماني في البصرة جعلته لا يستطيع ان يفيق منها فترة طويلة. فقد بدأ قائد الاسطول مغامرته قاصدا القطيف، وليتتبع خطوات الاسطول البرتغالي الذي فاجأه عندما اتجه جنوبا مجتازا هرمز، وكانت خسارة كبيرة لا تعوض للعثمانيين عندما اضطر سيدي علي الى بيع قطعات اسطوله التي نجا بها بعد ان قذفته الامواج الى الساحل الهندي. وقد فشل العثمانيون في اخراج البرتغاليين من الخليج العربي، وحتى عندما ضعف الاخيريين عند انضمام بلادهم عام 1580 الى اسبانيا، كان العثمانيون بدورهم قد وهنوا وبرزت قوتان جديدتان هما هولندا وبريطانيا. ولم يلاحظ على العثمانيين انهم قاموا بأي نشاط يذكر في الخليج العربي باستثناء محاولتهم في احتلال البحرين عام 1559. وكانت حصيلة العثمانيين هو احتلالهم بمساعدة قبائل المنتفك مقاطعة الاحساء، الا ان هذا الاحتلال لم يتم عن طريق البحر، وانما حققه جيش من المشاة عن طريق البر عام 1592 بقيادة فتحي باشا.

ـ الادارة العثمانية في العراق:

1. التقسيمات الادارية :

بادرت الدولة العثمانية على اثر الاستيلاء على بغداد في 1534م، والحاق البصرة على نحو مباشر بالدولة في 1546، الى وضع تقسيم اداري منظم للعراق لكونه احد اهم ولاياتها من ناحية ولأنها لم تجد تقسيما اداريا واضحا له، من ناحية اخرى، وقد روعيت في التقسيم الاوضاع الخاصة بالبلاد، ولا سيما ما يتعلق بالعشائر العربية والكردية التي تؤلف نسبة كبيرة من السكان. وقد طبق العثمانيون على العراق نظام الايالات المعمول به في بقية انحاء الامبراطورية. والايالة او الولاية هي اكبر وحدة ادارية وتقسم الى وحدات ادارية اصغر تعرف

بالسناجق ومفردها سنجق اي لواء وحاكمها يعرف بالسنجق بك اي امير اللواء. وقسم العراق اول الامر على اربع ولايات اخذت شكلها المنتظم في اوائل القرن السابع عشر الميلادي وهي بغداد والموصل والبصرة وشهرزور (كركوك)، ثم اضيفت ولاية الاحساء.

من الصعوبة وضع حدود دقيقة للولايات العراقية وذلك لعدم الثبات الذي اتسمت به، اذ كانت عرضة لتغيرات مستمرة حيث تم نقل قسم من السناجق من ولاية الى اخرى، او زيادة عدد سناجق الولاية نفسها، ولنا مثال جيد هو اربيل وشهرزور، فقد جعل العثمانيون اربيل سنجقا تابعا لولاية بغداد، واستمرت كذلك طيلة القرن السادس عشر، ثم التحقت في القرن السابع عشر بولاية شهرزور التي كان مركزها مدينة كركوك، وقد ادى بروز وتنامي قوة الامارة البابانية منذ اواخر القرن السابع عشر وسيطرة حاكمها بابا سليمان(1669-1699) على مدينة كركوك عام 1660 واستمرارها تحت حكم البابانيين حتى عام 1701، الى دفع العثمانيين الى الغاء ولاية شهرزور من التقسيمات الادارية للعراق منذ بداية القرن الثامن عشر. ويبدو ان هذا الالحاق شمل توابع كركوك ايضا ومنها اربيل التي استمرت تبعيتها لولاية بغداد. وتشير المصادر التاريخية الى مثل هذه التبعية، ففي عام 1804 كان حاكم اربيل هو سليمان بك ابن اخت والي بغداد المملوكي علي باشا(1802-1807)، وفي عام 1821 عين الوالي المملوكي داوود باشا(1816-1831) اخاه احمد باشا حاكما على اربيل. ونجد مثالا اخر لهذا الاضطراب الاداري، فقد كان سنجق السليمانية تابع اداريا لإيالة شهرزور التي اعيد تشكيلها عام 1849، بعد ان كان تابعا لبغداد، ويعود سبب هذا التغيير الى بعد سنجق السليمانية عن بغداد، مما جعل هناك صعوبة في تامين الامن والنظام فيها. ولكن في عام 1851 الحقت ايالة شهرزور نفسها بإيالة بغداد، بعد ان قررت الدولة العثمانية اقامة ادارة موحدة وموسعة في العراق بغية تسهيل حل مشاكل البلاد. وكذلك نجد الحالة ذاتها في كربلاء فقد عدت هذه المدينة قضاء تابعا لإيالة بغداد وشهرزور عام 1845 قبل ان تفرد الاخيرة بإيالة مستقلة، ثم اتخذت الدولة العثمانية قرارا عام 1858 بإعادة تشكيل ايالة بغداد واصبحت كربلاء سنجقا، وفي عام 1874 أُنزلت الى درجة قضاء.

كانت السناجق تقسم على وحدات ادارية صغيرة يطلق على كل منها قضاء. والاقضية تقسم على نواح وقرى صغيرة. ويدير الاقضية على نحو عام القاضي والصوباشي والسباهية الموجودون في القضاء. في حين يدير النواحي والقرى شيوخها الذين يسمون كتخذا، يعاونهم نائب القاضي الموجود في الناحية. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، طبق على العراق نظام (تشكيل الولاية) الذي اصدرته الحكومة العثمانية عام 1864. وقسم العراق بموجبه على ولايات ثلاث هي: بغداد والبصرة والموصل. وقسمت كل ولاية على عدد من الالوية وهذه بدورها قسمت على وحدات ادارية اصغر تدعى كل منها بالقضاء، والقضاء قسم على النواحي، وهذه انقسمت على اصغر الوحدات الادارية التي هي القرية. وتدار هذه الوحدات حسب تسلسلها من قبل: الوالي، المتصرف، القائم مقام، مدير الناحية، المختار.

2.الولايات العراقية في العهد العثماني:

بـغـــداد:

اهم واكبر ولايات العراق، بل تعد من اهم المدن الخاضعة للسلطان العثماني، ويطلق عليها احيانا كما اشار رحالة ايطالي في منتصف القرن السابع عشر باسم بغداد المقدسة. وكانت المدينة قاعدة مهمة للعمليات العسكرية ضد ايران، ولكونها هدفاً مستمراً لكل الحملات الايرانية. وباشا بغداد اعلى باشوات العراق رتبة ، وغالبا ما يعهد اليه الاشراف على الولايات الاخرى وحمايتها مما قد تتعرض له من خطر. وفيها ثمانية عشر سنجقاً او لواء. وولاية بغداد من النوع الذي يطلق عليه في نظام الادارة العثماني مصطلح (ساليانة) وكانت وارداتها مع سناجقها تعطى بالالتزام (بروجه تخمين) وترسل وارداتها بعد استقطاع مصاريف الولاة والسنجق بكيه وبقية الموظفين واحتياجات الولاية الاخرى الى خزانة الدولة تحت اسم (مال ارساليه). وبمقتضى هذا النظام، كانت الدولة تعهد الى شخص من ذوي النفوذ والثراء بجباية الضرائب المقررة على منطقة معينة مدة زمنية محددة

اول الامر. وكان عليه قبل مباشرة عمله ملتزما (مقاطعجي) ، ان يدفع مبلغا من المال يعادل ضريبة سنة من الضرائب المقررة على المنطقة التي تسمى (دائرة الالتزام) التي يمارس فيها اختصاصاته، يسدده الى دائرة تعرف باسم ديوان الروزنامة (المسؤول عن تحرير وضبط الحسابات في الدفاتر الرسمية) ليحمل لقب (ملتزم) مع المستندات الرسمية التي توضح منطقة التزامه ومقدار الاموال المقررة عليها. وكان ديوان الروزنامة يصدر في الوقت ذاته (تذاكر ديوانية) الى سكان المنطقة المعينة يحدد فيها اسم الملتزم ومقدار المال الواجب دفعه، وذلك من قبيل الرعاية لمصالح السكان، فلا يطالبهم الملتزم بأكثر مما هو مقرر عليهم. ومع ذلك كان الملتزم يحقق في ظل هذا النظام ارباحاً مادية مختلفة منها حصوله على (الفائض) وهو الفرق بين ما دفعه وحصيلة ما يجبيه فعلاً من السكان في دائرة التزامه. وبالرغم من اشتراط الدولة على الملتزم عدم الحصول على اكثر من النسبة المحددة، الا ان تدهور مؤسساتها شجع الملتزمين على استغلال مناصبهم وجمع ما يزيد على المبالغ القانونية كثيراً، فأساءوا الى الفلاحين واقتصاد الريف اساءة بالغة. وتسلل نظام الالتزام الى مختلف نواحي الدخل الحكومي، فكانت المدن والقرى تمنح بموجبه، كما كان شيخ العشيرة يلتزم بجمع الاموال الاميرية من افراد عشيرته. وقد الغى هذا النظام بموجب مرسوم الاصلاح (خطي كولخانة) الذي صدر في 3 تشرين الثاني 1839م . وفي شهر كانون الاول من السنة نفسها، صدر قانون تقرر فيه ان يجمع حكام الولايات ابتداءً من اول اذار 1840م الضرائب القانونية فقط، وان يتولى جمعها جباة مدنيون يتقاضون رواتبهم من الدولة. الا ان تطبيق ذلك ظل متعثراً، وبقي الالتزام ساري المفعول بالرغم من صدور مرسوم سلطاني اصلاحي اخر في 18 شباط 1856م عرف باسم (خطي همايون) منع فيه الموظفون واعضاء المجالس المحلية من الاشتراك في اي (التزام) كخطوة اولى للقضاء على هذا النظام نهائياً. وقد ظل نظام الالتزام مطبقاً على العراق على الاراضي العشائرية والاميرية، حيث كان يسند الى الشيوخ التزام ديرة عشائرهم وساد هذا الاسلوب طويلاً حتى توقف في اواخر القرن التاسع عشر.

المــوصـــل:

وهي اولى مناطق العراق التي دخلت في حوزة الدولة العثمانية منذ عام 1516، وقسمت الى سناجق في عهد السلطان سليمان القانوني كما توضح ذلك سجلات الدولة العثمانية الخاصة بولاية الموصل. وطبق عليها منذ منتصف القرن السادس عشر نظام الاقطاع الحربي العثماني وبموجبه كان السلطان يمنح ارضاً لأفراد من سلاح الخيالة يستقرون فيها ويشرفون على زراعتها بمساعدة الفلاحين الذين كانوا يتولون زراعتها بصفتهم مستأجرين. وكانت هذه الاراضي تسمى اقطاعات. ويطلق على الفرسان الذين يحصل عليهم الجيش عن طريق الاقطاع الحربي اسم (السباهية الاقطاعية). وهم لا يتقاضون مرتبات نقدية من الحكومة بل يعتمدون على واردات اقطاعاتهم التي يطلق عليها المصطلح التركي (مال مقاتلة)، وفي مقابل ذلك كان على هؤلاء الفرسان ان ينضموا الى الجيش حالما تشتبك الدولة في حرب ومعهم عدد من الاتباع بخيولهم واسلحتهم. وكان عدد هؤلاء الفرسان الاقطاعيين يتناسب مع مساحة الاقطاع ومع الايراد الذي تغله هذه الارض الاقطاعية التي كانت على ثلاثة انواع رئيسة هي :

1. اقطاع مساحته صغيرة نسبيا يسمى (تيمار) يغل على صاحبه ايراداً يبلغ ثلاثة الاف اقجة (عملة فضية لا يزيد وزنها على ربع مثقال من الفضة وقيمتها لم تكن مستقرة)، وكان عليه ان يقدم الى الجيش وقت الحرب عدداً من الفرسان يتراوح ما بين اثنين واربعة بخيولهم واسلحتهم.

2. اقطاع اكبر مساحة يسمى (زعامت) يمنحه السلطان الى الفارس الذي اظهر كفاية قتالية، ويغل على صاحبه دخلاً يصل الى مئة الف اقجة، وعليه ان يقدم للجيش وقت الحرب عدداً من الفرسان يتحدد بنسبة فارس واحد عن كل خمسة الاف اقجة. وهذان النوعان (تيمار وزعامت) يخضعان لنظام التفتيش الذي يقوم به (الدفتر داريون).

3. اقطاع اكبر مساحة من النوعين الاولين اسمه (خاص) لا يخضع للتفتيش، ويمنح عادة للولاة الذين يكونون في الخدمة الحكومية، ويتجاوز وارده مائة الف اقجة. وبجانب هذه الاقطاعات الحربية، كانت هناك بعض الاقطاعات التي هي من نوع (خاص) ملكاً للسلطان ويطلق عليها (خواص همايون) وهي اكبر واهم الاقطاعات. وكل مجموعة من هذه الاقطاعات كانت تشكل وحدة ادارية يطلق عليها (سنجق او لواء) على رأسها (سنجق بك) وهو مسؤول عن ادارة الشؤون المدنية في لوائه، فضلاً عن مهامه العسكرية.

كانت حدود الموصل تتوغل قليلاً في كردستان شرقاً، وفي تكريت جنوباً الا ان تلك الحدود لم تكن واضحة تماماً . وتختلف المصادر حول عدد سناجقها وعلى الارجح كانت ستة سناجق.

البصـــرة:

لقد كان موقع البصرة منحها خصوصية بالنسبة للدولة العثمانية، نظرا لقيامها بالوظيفة الدفاعية بدلا من السلطة العثمانية، فالبصرة في موقعها على رأس الخليج العربي تحيطها مخاطر انية واخرى دائمة، فمن ناحية الشرق فان لإيران دور مهم في تأجيج الصراع من خلال هجماتهم على المدينة، اما من ناحية الغرب فان متاعبها متأتية من القبائل المتنقلة في الصحراء.

صنفت من ولايات الساليانة، وهناك خلاف تاريخي حول تقسيم البصرة الى وحدات ادارية، فبعض المصادر تشير الى ان البصرة لم تقسم على سناجق بسبب تركيبها العشائري، ومع ذلك تشير مصادر اخرى ان البصرة مؤلفة من ثمانية سناجق، وكانت تجبى ضرائبها بالالتزام وعدت وحدة ادارية واحدة يتسلم الوالي المعين لإدارتها راتباً سنوياً على شكل ساليانة في حين ان هناك ما يدل على ان ولاية البصرة قسمت على ثمانية سناجق وغالبيتها

عبارة عن قلاع حربية فيها حاميات عسكرية لمواجهة انتفاضات القبائل وتهديدات حكام ايران. ويبدو ان عدد سناجقها ارتفع الى سبعة عشرين سنجقاً في الربع الاخير من القرن السادس عشر. ومن العسير تحديد مواقع السناجق والقلاع كافة بدقة لاندثار الكثير خلال مدة لا تزيد على القرن ، بفعل الحروب والكوارث الطبيعية. استمرت البصرة ولاية مستقلة يحكمها وال مثل غيرها من الولايات، الا انها الحقت بولاية بغداد في 1733 حيث اصبح والي بغداد يعين عليها متسلماً ينوب عنه في حكم المدينة. وظل الوضع الاداري في البصرة على هذه الصورة حتى منتصف القرن التاسع عشر حينما صارت ولاية قائمة تحت ادارة (باشا) شبه مستقل وقد ضمت الاراضي الواقعة على شط العرب والفرات الى السماوة، وعلى دجلة الى العمارة التي ادخلت ضمن حدودها و تشمل الحي وشط الغراف. وقد منح والي البصرة صلاحية الاتصال المباشر مع الباب العالي، ولكن في الشؤون العسكرية والمالية ظل يتبع والي بغداد. على ان الوضع الاداري للولاية لم يستقر كلياً، فأحيانا تلحق بولاية بغداد ثم تنفصل عنها فيلحق بها او تنتزع منها مناطق تقع بين المدينتين. ولكنها على نحو ما تبقى حتى في حالة انفصالها ولاية مستقلة تابعة لولاية بغداد التي يتمتع واليها بصلاحيات واسعة في ادارتها. فعلى سبيل المثال غدت البصرة عام 1869 لواء تابعاً لولاية بغداد ، وفي عام 1875 م رفعت مرتبتها من لواء الى ولاية، وفي عام 1880، انزل درجتها مرة اخرى من ولاية الى متصرفية (لواء) عام 1884، واستمرت حتى الاحتلال البريطاني عام 1914.

شهرزور (كركوك):

طبق فيها نظام الاقطاع الحربي، وقسمت على عشرين سنجقاً خلال القرن السادس عشر، ارتفع الى اثنين وثلاثين في منتصف القرن السابع عشر. وغالبية تلك السناجق قلاع تتحكم بالممرات المهمة، بسبب طبيعة المنطقة العشائرية، والتهديد الايراني المستمر لها، وغالب اسمائها لا تعرف اليوم.

الاحســـاء:

استولى العثمانيون على الاحساء سنة 1550 ولم تقسم الى سناجق، بل ظلت وحدة ادارية واحدة، فقد اصبحت ايالة الاحساء من الايالات العراقية في عهد السلطان مراد الرابع (1623 ـ 1640).

3. الجهاز الاداري:

استهدف العثمانيون من وراء تنظيم ولاياتهم عدم تركيز السلطات بيد مسؤول واحد تلافياً لظهور النزعات الانفصالية التي تراود ذلك المسؤول. ولهذا كانت هيئة الادارة في كل ولاية تتألف من الوالي وموظفيه: الكتخدا، المتسلم، رئيس الكتاب، الخزنة دار، والدفتر دار (المسؤول المالي) واغا الانكشارية الذي يترأس قوات الدولة النظامية الموجودة في مركز الولاية وقلاعها المختلفة، والقاضي والى جانب هؤلاء يقوم ديوان استشاري يظم ابرز موظفي الولاية ووجوهها من السكان والمفتي ونقيب الاشراف.

ـ الوالي:

وهو راس الجهاز الاداري للولاية وارفع منصب واهمه فيه. فهو ممثل السلطان وسلطاته غير محدودة، بل يوصف احيانا بانه حاكم مطلق مستبد، لا يخضع الا لسيده السلطان العثماني، وقد اتخذ بعض ولاة بغداد مثل سليمان باشا الكبير(1780-1802) لقب الخليفة باعتبار ان بغداد مدينة الخلفاء. وكان للوالي القيادة العليا على القوات المتواجدة في بغداد، بحيث كان الولاة الاقوياء يتجاوزون في كثير من الاحيان على اختصاصات الموظفين الكبار الاخرين في الولاية كالقاضي وآغا الانكشارية، وله حق مصادرة اموال الاشخاص الذين يرتاب بولائهم. ويتم تعيين الوالي او تجديد ولايته سنوياً بفرمان (مرسوم) سلطاني يكتب بنسختين، ترسل الاولى اليه وتحفظ الثانية في العاصمة اسطنبول. ومنذ اواخر القرن السادس عشر، اصبح الوالي يحمل رتبة وزير ولقب باشا. ولم

تكن هناك قاعدة ثابتة لتعيين الولاة او نقلهم فقد يقلد شخص معين المنصب كوسيلة من وسائل المكافأة او التكريم او يحصل عليه لقاء رشوة معينة. وعلى نحو عام كان الوالي لا يظل في ولايته مدة تزيد على ثلاث سنوات مع استثناءات نادرة. فقد حكم بغداد ما بين عام 1639–1704م اربعة وثلاثون والياً. والهدف من وراء عملية التنقلات المستمرة، منع استقرار الوالي وتقوية علاقته بالسكان والقوى الموجودة داخل ولايته خوفاً من ان يتعزز مركزه مما قد يدفعه طموحه الى التفكير في الانفصال. ولتغطية نفقات الوالي في الولايات المطبق فيها اسلوب الاقطاع الحربي، منح اقطاعاً من درجة (خاص) مثل الموصل وشهرزور. اما في ولايتي بغداد والبصرة، فكان الوالي يتقاضى راتبا سنوياً (ساليانه). اكتسب ولاة بغداد اهمية خاصة تفوق ولايات العراق الاخرى وتتوضح هذه الاهمية من جعلهم مسؤولين عن المناطق الكردية والبكوات الاكراد كما كان لهم حق تعيين الموظفين دون الرجوع الى الباب العالي، فضلا عن ذلك كان يسمح لوالي بغداد ان يستعمل سفنا شبيهة بتلك السفن التي يستعملها السلطان العثماني. وسلطة الوالي ودرجة اهميته كانت تعتمد على شخصيته وقوته داخل الولاية وعلاقته المؤثرة فيها. واهم واجبات الوالي المحافظة على الولاية وضمان ولائها للسلطة العثمانية وضبط الامن والنظام والعدل، والاشراف على تطبيق القوانين، وحماية ارواح الناس وممتلكاتهم والعناية بتحصين القلاع والمدن، وارسال الاموال المفروضة على الولاية الى العاصمة سنويا والمشاركة الفعلية في الحروب التي تنشب بين الدولة واعدائها من الدول الاخرى. كما كان الوالي في اوقات الفيضانات يشرف على اعمال الصيانة الخاصة بالسدود، ويذكر الرحالة الامريكي فوك ان رديف باشا والي بغداد بعد فيضان بغداد عام 1874 قام بإصدار امر بأغلاق جميع الاسواق والدكاكين، واوجب على كافة الذكور من السكان باستثناء الاجانب ان يعملوا اربعة ايام في اصلاح السدود، وارسل نصفهم للعمل شمال النهر، وظل الباقون يعملون تحت اشراف الرجال الرسمين لإصلاح السدود المحيطة بالمدينة، وكان الباشا بنفسه في موقع العمل، محاطا بحاشيته يقوم بالإشراف على عمليات الاصلاح، وكانت هذه التدابير الحيوية سببا في انقاذ المدينة.

كان على الوالي ايضاً ولاسيما في ولايتي بغداد وشهرزور مراقبة تطورات الاوضاع في ايران وارسال تقارير منتظمة الى الباب العالي حول ذلك. ولما كان من واجبات الوالي المحافظة على الاوضاع الراهنة في الولاية فمن غير المتوقع منه احداث تغييرات اقتصادية واجتماعية لإصلاح الامور العامة.

كانت الحكومة العثمانية تطلع على شؤون الولايات عن طريق ارسال مبعوثين عنها في اوقات مختلفة لمراقبة احوالها وكتابة التقارير عن الاوضاع العامة فيها ومركز الوالي والتزامه بتنفيذ واجباته. على ان سلطات الوالي اخذت بالتقلص في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فقد حصرت وزارتا الداخلية والمالية بموجب اوامر اصدرتها في عام1885م الشؤون المالية كافة في الولاية بيد مدير مالية الولاية (الدفتر دار). كما قلصت سلطات الوالي على كثير من الدوائر التي كانت تدار من اسطنبول مباشرة، واقتصرت واجباته على التنسيق فقط . وكانت تلك الدوائر تضم: دائرة العدلية ودائرة تسجيل الاراضي ومصلحة الصحة ومصلحة التعليم ودائرة الدين العام ودائرة الجمارك ودائرة الاوقاف وادارة الاملاك السَنية. فكان رؤساء تلك الدوائر يرفعون تقاريرهم الى الحكومة المركزية مباشرة كما كانوا يتلقون اوامرهم منها.

- الكتخدا او الكهية:

وهو مساعد الوالي ومعاونه في الشؤون الادارية والاقتصادية والمالية والعسكرية المختلفة، او اي امر من الامور التي يكلفه بها. وله مقر خاص يعرف بدار الكتخدائية، ومصيره مرتبط بمصير الوالي. ويلاحظ انه كثيرا ما تختلط اختصاصات الكتخدا باختصاص رئيس ديوان الانشاء او بمهام المتسلم. حيث حل الاخير محله بشأن النيابة عن الوالي عند غيابه او وفاته، واخذ الاول مكانه في المجالين الاداري والعسكري، فكتب الرسائل وقاد الجيوش حتى غدا كلا المنصبين واحداً. وسلطات الكتخدا ترتبط بشخصية الوالي، فاذا كان قوياً تضمحل سلطته اما اذا كان الوالي ضعيفاً فان قوته تزداد. والمنصب بمثابة الدرجة

الاخيرة في السلم للوصول الى مرتبة الوالي، فصاحبه مؤهل بصورة عامة للتعيين بذلك المنصب. وتعرض هذا المنصب الى تغيرات مستمرة في القرن التاسع عشر ، حيث الغي عام 1872. واعيد عام 1880 والغي مرة اخرى بعد سنة واحدة، وظل ملغياً حتى عام 1907 ، حينما صدر مرسوم سلطاني بإعادته، وحددت واجبات معاون الوالي بالنظر في المراسلات التي ترد الى الوالي من دوائر الولاية وغيرها من المراسلات التي يخوله الوالي النظر فيها، وتقديم خلاصة بتلك المراسلات.

ـ المتسلم:

نائب الوالي واشبه ما يكون بوالي مؤقت، ويقوم (بتسلم) مهام ادارة الولاية عند غياب واليها لأي سبب، وتعيينه يأتي من الوالي نفسه دون الرجوع الى سلطة اعلى. وقد يعين لحكم منطقة او سنجق نائبا عن الوالي اي بمثابة قائم مقام مثل متسلم البصرة الذي كان يعينه والي بغداد حينما تحولت البصرة الى (متسلمية) تابعة لبغداد. والمتسلم شخص عادة يتولى مقاليد الامور بين عزل الوالي ووصول الوالي الجديد. وفي هذه الحالة اما ان يرسله الوالي الجديد او ان يقوم وجوه الولاية واعيانها باختيار متسلم حتى وصول وال جديد.

ـ رئيس الكتاب (ديوان افنديسي):

وهو بمثابة امين سر الوالي للشؤون الكتابية ويرأس ما يعرف بديوان الانشاء، وهو جهاز يتبع الوالي مباشرة ويضم مجموعة من الكتاب والمترجمين، ويختص بتحرير كتب الوالي ورسائله باللغات المتداولة وتسجيل الاوامر الحكومية الواردة للولاية وحفظها. واشتملت واجباته في القرن التاسع عشر على مراسلات الولاية، واعداد (السالنامات) وهي القرارات التي كانت تصدرها الحكومات المحلية في الولايات سنوياً. واصبح يطلق عليه اسم (مكتوبجي) او مدير مراسلات الولاية.

ـ الخزنة دار:

وهو الموكل بخزانة الوالي وضبط اداراتها ومصروفاتها، ويشرف على امور شتى منها تسجيل الفرمانات الواردة للولاية، وتسجيل مقدار الضرائب الواردة الى الولاية، وتسجيل مقدار الضرائب المفروضة على القرى وتثبيت مقدار ما استحصل منها.

ـ الدفتر دار:

وهو المسؤول عن ادارة المالية في الولاية وعصب النظام المالي القائم على الالتزام. ووظيفته منفصلة عن سلطة الوالي، ويعين مباشرة من الباب العالي بفرمان سلطاني شأنه شأن الوالي أو القاضي. وكان للدفتر دارية في الولايات العراقية دائرة خاصة تعرف بـ (الدفتر خانة) مستقلة عن سراي الوالي. ويوجد في ايالة بغداد ثلاثة انواع من الدفتر دارية هي دفتر دار خزينة، ودفتر دار تيمار، وكتخدا دفتر دار، علما انه لا توجد في الموصل هذه الانواع من الدفتر دارية، في حين كانت ولاية شهرزور فيها نوعين فقط من الدفتر دارية اذ لا يوجد فيها دفتر دار خزينة. ويعد الدفتر دار ممثلاً للسلطان في الشؤون المالية للولاية، واجبه ضبط حساباتها. ولهذا يحتفظ بالدفاتر والسجلات التي تبين الموارد المالية للولاية سواء كانت اموالاً سائلة او عينية، ومقدار الاموال الحصلة والمنتظر انفاقها والفائض والاحتياطي، وكيفية الحصول على موارد مالية اخرى في حالة حدوث عجز في ميزانية الولاية. ولكن الى جانب التخصص المالي نجد بعض الدفتر دارية يشاركون في العمليات العسكرية. وبما ان الدفتر دار مسؤولا عن احوال الولاية، لذا لم يكن يسمح للوالي المعزول أو أي موظف اخر ان يغادر الولاية الا بعد ان يثبت براءة ذمته. وان استقلال سلطة الدفتر دار عن الوالي لم تكن تراعي دوما، حيث تمكن بعض الولاة من السيطرة على الامور المالية في الولاية جميعاً، حتى لم يبق للدفتر دار دور مهم يقوم به مثلما حدث في ولاية الموصل خلال حكم اسرة آل الجليلي (1726-1834) الذين اخذوا على عاتقهم مسؤولية جمع الضرائب وارسال الاموال المطلوبة الى العاصمة سنوياً ويساعد الفتر دار موظف يسمى (روزنامجي) واجبه مسك السجل الخاص بالوارد والمصروف، انه

بمثابة كاتب حسابات الدفتر دار. وفي القرن التاسع عشر، اصبح مدير مالية الولاية (الفتر دار) مسؤولاً عن حسابات الولاية كافة، وكان من واجباته ان يبلغ الوالي عن اية مخالفة مالية يرتكبها موظفو الولاية وان يعرض في الامور التي تتعلق بتعيين او عزل المحاسبين ومدراء المالية. وغدا الدفتر دار هو المرجع الوحيد لكل مل يتعلق بالشؤون المالية في الولاية.

ـ مجالس الادارة:

من التطورات المهمة التي حدثت في الجانب الاداري في أواخر القرن التاسع عشر تشكيل مجالس ادارية في الولايات العراقية ووحداتها الادارية السنجق (اللواء) والقضاء. وتألف مجلس ادارة الولاية من اعضاء طبيعيين واعضاء منتخبين. والاعضاء الطبيعيين في مجلس ادارة الولاية هم: القاضي، مدير المالية، مدير مراسلات الولاية، المفتي، ونقيب الاشراف واحياناً معاون الوالي. اما الاعضاء المنتخبون فكان يتم انتخابهم من لجان خاصة تعرف بلجان التفريق، ومن بين الرجال الحائزين على ثقة المواطنين، على ان لا يكونوا من اقارب اعضاء مجالس الادارة الطبيعيين. وكان عدد هؤلاء يتراوح ما بين اربعة الى ستة اعضاء في المجلس. وتنعقد مجالس الادارة اربع مرات سنوياً برئاسة رئيس الوحدة الادارية . واشتملت اعمالها على اجراء المبايعات والمقاولات الحكومية، وتدقيق واردات الولاية ومصروفاتها، والنظر في امور الضرائب ومتابعة الخدمات العامة، والنظر في الشكاوى التي يقدمها المواطنون ضد تصرفات الموظفين. والى جانب تلك المجالس المحلية يقوم مجلس الولاية العمومي في مركز كل ولاية ويتألف من اربعة اعضاء منتخبين من كل سنجق (لواء) ويعقد دورة واحدة سنوياً تدوم اربعين يوماً برئاسة الوالي او من يخوله من كبار الموظفين في حالة غيابه. واهم واجباته النظر في وسائل تحسين الاوضاع الاقتصادية في الولاية ونشر الثقافة فيها والنظر في امور الضرائب وانشاء ابنية الخدمات العامة واصلاحها وصيانتها، وفتح الطرق وتشييد الجسور. مع ان وظيفة المجلس استشارية، الا ان الوالي المسؤول عن نقل توصياته الى الحكومة العثمانية لاستحصال الموافقة عليها.

ـ السلطة القضائية:

نظرت الدولة العثمانية الى مرفق القضاء نظرة موضوعية لغير المؤهلين علمياً بتقلد مناصبه ووضعت نظاما دقيقاً لتعيين القضاة وترقياتهم وتنقلاتهم ومتابعة اعمالهم. بل جرت محاولات لم يقدر لها الاستمرار من اجل اجراء امتحانات للقضاة عند كل تعيين جديد. ويمكن القول استنادا الى ذلك، ان القضاء كان اكثر نفاذاً وبقاء في الولايات العثمانية من النفوذ السياسي او العسكري للدولة في تلك الاقاليم. كانت المحاكم تنظر انواع القضايا المختلفة، سواء كانت مدنية او جنائية . وكان القضاة يفصلون في القضايا في ضوء ثلاثة مبادئ اساسية هي :

أ. الشريعة الاسلامية.

ب. القانون نامة (ملخصات الفرامين واوامر السلاطين التي تتعلق كل منها بحادثة او قضية معينة) وهي مجرد تذييل للشريعة وليست بديلاً عنها.

جـ. العرف

وكان القضاة يحصلون على دخلهم من مصدرين الاجور اليومية التي تمنحها الدولة للقضاة في اثناء خدمتهم الفعلية كل حسب درجته، والرسوم القضائية على مختلف القضايا التي تعرض عليهم وتعرف باسم اجرة صكوك، والغرامات التي يحكمون بها، وكلا المصدرين يدران ايرادا وفيراً. وكان منصب قاضي بغداد اعلى المناصب القضائية وارفعها في الولايات العراقية، وتصنف مرتبته ضمن المراتب القضائية العليا في الدولة المعروفة التي يطلق عليها (المولويات الصغار)الذين كان قضاتها من خريجي المدارس الدينية العليا الموجودة في اسطنبول، ولم يكن يمنح هذا المنصب الا لمن قضى مدة طويلة في الدراسة واثبت كفاية ونزاهة في اصدار الاحكام. وكانت صلاحية تعيين قضاة بغداد وعزلهم تعود الى قاضي عسكر الاناضول، ويقترن بصدور فرمان سلطاني يحدد فيه صلاحياتهم وواجباتهم كافة. وكانت خدمة القاضي دورية ومحددة بسنة واحدة قانونا،

حيث ينقل بعدها الى محل اخر بدرجته نفسها ، او يرقى الى مرتبة اعلى. الا ان هذه القاعدة لم تكن مطلقة كلياً حيث تولى بعض قضاة بغداد مناصبهم بضعة اشهر، في امضى قضاة اخرون في مناصبهم مدة تزيد على السنة. على انتهاء مدة خدمة القاضي في الولاية ، لا تعني عدم عودته الى الخدمة ثانية، حيث يمكن للقاضي ان يعين اكثر من مرة في المنصب ذاته. وكان قضاة الولايات العراقية الاخرى (الموصل والبصرة وشهرزور) من فئة القضاة العاديين الذين يشكلون الغالبية العظمى من عدد قضاة الهيئة التشريعية، وحددت مدة بقائهم بسنة واحدة ايضاً. اما في المدن الصغيرة فيشغل المنصب القضائي مسؤول يطلق عليه نائب القاضي، وينظر في القضايا باسم القاضي الذي انابه. علماً بانه كان هناك نواب قضاة الى جانب القاضي في مراكز الولايات يساعدونه وينوبون عنه ويصدرون احكامهم في قضايا شتى عند مرضه او تغيبه. والنائب لا يتقاضى مرتباً من الحكومة ولكنه يحصل على ايرادات كبيرة من حصيلة الغرامات المالية التي يحكم بها على المخالفين. والجدير بالذكر ان حصول النائب على منصبه يتم بواسطة نظام الالتزام ، كما ان على القاضي الحصول على مصادقة قاضي العسكر عند اختياره لنوابه. وطريقة الالتزام في تعيين نواب القاضي اثرت سلبياً في هيكل النظام القضائي، حيث اصبح النائب الذي حصل على منصبه بالالتزام لا يفكر الا بالحصول على اكبر قدر من المال، ويتم ذلك في كثير من الاحيان على حساب العدالة . وكانت سلطات القاضي واسعة جداً في منطقته القضائية، فهو المكلف بتطبيق الاحكام الشرعية بين الناس، بل وكان من المفترض فيه ان يراقب اعمال الوالي نفسه والنظر في مطابقتها للشريعة. وكان عليه النظر في الدعاوى والفصل فيها ومعالجة القضايا الشرعية الاخرى مثل تقسيم التركات وعقود الزواج وتنفيذ الوصايا، ويشرف على امور الضرائب ومدى مطابقتها لما هو مسجل في سجل المحكمة الشرعية. ولهذا نلاحظ ان معظم المراسيم التي تخص الشؤون المالية كانت توجه باسم الوالي والقاضي والدفتر دار. ومن واجباته المهمة تسعير السلع والمواد الغذائية في الاسواق ومراقبة التقيد بها. كما كان يمارس نوعا من الاشراف على الامور الادارية في الولاية او

السنجق، الذي يعمل فيه وكان عليه حال انتهاء خدمته في الولاية تقديم تقرير الى المسؤولين في اسطنبول يبين فيه اوضاع المنطقة التي انهى خدمته فيها.

ـ المفتي:

شكل المفتون قطاعاً مهماً في الهيئة التشريعية الاسلامية، ويقومون بمهام منصبهم بجانب القضاة ولكنهم ادنى منهم درجة. ويظل المفتي في منصبه مدى الحياة، ولا تحاط وظيفته باي نوع من انواع المظهرية التي كانت تحاط بها المناصب الاخرى في الولاية . ومهمة المفتي اصدار الرأي القانوني في المسائل التي يطلب منه بحثها. فيعكف على دراستها، ثم يسجل رأيه كتابة على ورقة معدة ومختومة من قبل. والرأي الذي ينتهي اليه يسمى(فتوى) ومع ان غالبية المفتين يعملون في المدن الرئيسة مع القضاة، نجد بعضاً منهم الى جانب رجال الحكم في الولايات مستشارين مدنيين.

ـ الصوباشي:

لقب حربي قديم، وقد شاع استعمال هذا اللقب في الاناضول منذ القرن الرابع عشر الميلادي، وقد اصبح لقب صوباشي من اشهر الالقاب الحربية المستعملة في سلك الشرطة في الدولة العثمانية التي اقتبسته من السلاجقة الحاكمين في اسيا الصغرى. ثم اصبح للصوباشية اقطاعاتهم (تيمار)، وكان لهم ايضاً الاشراف على السباهية في الولايات، وقد اصبح الصوباشي في الولايات من كبار ضباط الشرطة الذي يعاون (الجاوش باشي) رئيس الشرطة، في اعماله اليومية، ثم اصبح لقب صوباشي يستعمل للدلالة على رتبة عسكرية خاصة في سلاح فرسان. وكان للصوباشي مهام اخرى منها التجوال في الاسواق والمحلات ومراقبة نظافتها، واخبار رئيس المعمارين بما هو متداع من الابنية وكذلك التجوال ليلاً والقبض على الذين يعكرون صفو الامن. فوظيفة الصوباشي في زمن السلم ضبط الامن في الولاية.

4. القوات العسكرية:

تكونت قوات الولايات العراقية من ثلاث اصناف:

القوات النظامية: وتعرف باسم قبو قولي وهي مرتبطة بالحكومة المركزية في الاستانة، حيث مقر قيادتها العليا، ولكنها تصبح بأمرة الوالي في حالات الحرب والحملات العسكرية. وهذه القوات تأتي للخدمة العسكرية في مركز الولايات دوريا، أي انها في الحالات الطبيعية تبقى ثلاث سنوات في مكان معين حتى تحل مكانها قوة اخرى. وتقسم القوات النظامية الى:

-**الانكشارية(المشاة):** وتشكل العنصر الرئيس من القوات النظامية في الولايات العراقية، وتمثل السلطة المركزية اذ انها ترتبط بشخص السلطان والقيادة العليا في العاصمة وليس للولاة. وتخدم هذه القوات دوريا مدة معينة وعند انتهائها تعود الى مقراتها في العاصمة لتحل محلها القوة البديلة. ويتحتم على القوات الانكشارية الموجودة في الولاية الا تترك مواقعها الى حين وصول القوات البديلة، وقد هيأت الدولة سجلات خاصة لتنظيم الخدمة الدورية عرفت باسم قيشلاق دفتري. وقسمت هذه القوات الى مجموعات تعرف كل واحدة باسم اورطة على رأس كل واحدة منها ضابط برتبة جورباجي، يساعده ستة من الضباط اقل مرتبة هم: الاورطة باشي أي رئيسة الثكنة، ووكيل خرج، وهو المشرف على الانفاق والمؤونة، والبيرقدار أي حامل العلم، والباش اسكي وهو رئيس الحرس وهو اكبر افراد الاورطة سنا واقدمهم خدمة، وهناك الاشجي باشي أي رئيس الطهاة، والسقا باشي رئيس السقائين، يضاف اليهم كاتب يحفظ سجلات الثكنة. ولم يكن هناك عدد ثابت لجنود الاورطة الواحدة، اذ يختلف العدد حسب المكان والزمان والحالة السياسية، لكنه يتراوح بشكل عام ما بين 50-500، فعلى سبيل المثال بلغ عدد الانكشارية في بغداد عام 1605 من مجموع كل القوات المخصصة لحماية المدينة البالغ عددها اربعة عشر الف حوالي1500 انكشاري، وفي عام 1678في بغداد 3800 موزعين على 19 اورطة، أي بمعدل 200 رجل لكل واحدة، بينما بلغ عدد انكشارية البصرة في العام نفسه 1200 رجل. اما في كركوك مركز

ولاية شهرزور فتوجد اورطة واحدة تتألف من حوالي 150 رجلا. وكان القائد الاعلى لقوات الانكشارية في كل من الولايات العراقية عرف بلقب اغا الانكشارية يساعده الكتخدا. والاغا يرتبط بالسلطة المركزية في العاصمة، ولا يتسلم الاوامر من الوالي الا حين تشترك قواته في الحملات العسكرية المهمة التي يقودها الوالي. وتشمل سلطة اغا الانكشارية كافة القوات النظامية الاخرى. وقد اختلف عدد افراد الانكشارية من ولاية الى اخرى حسب وضعها الخاص ووضع الدولة عامة. ولكن بغداد تضم عددا اكبر من اية ولاية عراقية اخرى، وقد تراوح عددهم ما بين 7000-10000، بعد نجاح السلطان مراد الرابع(1623-1640) من استعادة بغداد من ايدي الصفويين عام 1639. ولكن العدد انخفض الى 5000 عام 1648، وزاد على 5500 عام 1670، لينخفض الى ادنى حد عام 1685 وهو 2202، بسبب الكارثة التي حلت بالجيش العثماني امام اسوار فينا عام 1683. وعند منتصف القرن الثامن عشر ارتفع العدد مرة اخرى فوصل الى 4914 انكشاريا، بسبب التهديدات الايرانية للعراق في عهد نادر شاه. اما ولاية الموصل فيتوزع الانكشارية فيها على ثلاث اورطات، عدد افرادها حوال 800 رجل، ثم ارتفع العدد في النصف الاول من القرن الثامن عشر الى خمس اورطات. وفي البصرة اعلى رقم وصلته اعداد الانكشارية في النصف الثاني من القرن السابع عشر هو 1800 انكشاري. تتوزع القوات الانكشارية في مراكز الولايات، وعلى مختلف سناجق الولاية وقلاعها المهمة. وكان واجبها الدفاع عن الولاية والحفاظ على الامن والنظام فيها وحراسة اسوار وابواب المدن. وفي حالة الحرب تتحشد اورطات الانكشارية تحت قيادة اغا الانكشارية الذي يتبع الوالي في اثناء الحملات العسكرية. ويحصل الجندي الانكشاري على راتب من الدولة يحسب بالأجر اليومي، ويوزع على اربعة اقساط سنويا. والى جانب الراتب يحصل الانكشاري على مخصصات خدمة اضافية بدل وجـوده خـارج العاصمة. اما اسلحة الانكشارية فكانت البنادق والسيوف والرماح والاقواس والسهام، ومن الجدير بالملاحظة ان الانكشاري يسمح له باختيار السلاح الذي يروق له.

-**الجبه جيه(صناع ومصلحو الاسلحة)**: يطلق على الصنف الثاني من المشاة النظامية المرتبطة بالعاصمة ويخدم افراده على نحو دوري في الولايات، ومهمتهم صناعة وصيانة اسلحة الانكشارية ونقلها الى ميدان الحرب وتوزيعها عليهم قبل المعركة. وبعد انتهاء الحملة العسكرية يتسلم الجبه جيه الاسلحة مجددا، ويتم ايداعها في الجبه خانه أي المستودع، لحفظها واصلاحها. ومن مهمات هذه الفرقة ايضا الاهتمام بالحيوانات الخاصة بالنقل والعربات المخصصة لنقل السلاح. ونظرا لأهمية هذه المهمة، ووجود الاسلحة والذخيرة بحوزتهم، فقد جرت العادة على وجودهم مع الاسلحة في مؤخرة الجيش، عندما يعسكر في موقع معين. ويجدر التنويه هنا ان افراد هذا الصنف دربوا كجنود مشاة يستخدمون الاسلحة النارية اليدوية. وتوزع هذه الفرقة على اورطات غير ثابتة العدد، وهي تحت امرة قائد يعرف باسم جبه جي باشي يساعده جبه جيلر كاتبي. اما القيادة العليا فبيد اغا الانكشارية. ويصنف الجنود حسب اختصاصهم فمنهم من تخصص في صناعة وصيانة الدروع، والاسلحة النارية، أو الرماح، والملابس، وهناك مختصون بالحبال والفتائل والبارود. ويلاحظ ان عددهم كان قليلا نسبيا، نظرا للكفاءة الفنية التي يجب ان يتصف بها المنتسب الى هذا الصنف، فقد كان مجموعهم لغاية عام 1574 بحدود 625 رجلا، لكن العدد اخذ بالارتفاع بشكل سريع بعد ذلك التاريخ، كجزء من ظاهرة تزايد اعداد الفرق العسكرية، وتدهور المستوى النوعي والانضباط الذي ميز الجيش العثماني في عصر التدهور. وكانت اعداد الجبه جيه تتبع اعداد الانكشارية، فتزيد وتنقص تبعا لها. وكانت (جبه خانه) انكشارية بغداد في (ايج قلعة) حيث يخزن البارود. وليست هناك معلومات دقيقة عن اعداد الجبه جيه في الولايات العراقية، ولو ان احدى الوثائق الرسمية العثمانية ذكرت ان عددهم في بغداد عامي 1647-1648 كان 160 رجلا.

-**الطوبجية(صنف المدفعية)**: على غرار الانكشارية كانت هذه الفرقة مرتبطة بالعاصمة، وكان رجال المدفعية يخدمون دوريا في ولايات الدولة وقلاعها مدة ثلاث

سنوات، ويراس الصنف ضابط يسمى طوبجي اغاسي أو سر طوبجي أي رئيس المدفعية، وهو يتبع اغا الانكشارية. وكان عدد المدفعيين يختلف من ولاية الى اخرى حسب موقعها ومتاخمتها لأراضي العدو، وعدد قلاعها الحدودية التي تتطلب وضع المدافع لتحصينها. وقد بلغ عدد الطوبجية في بغداد عام 1647-1648، سبعة وستين رجلا. وارتفع العدد الى 219 عام 1685، وفي العام نفسه كان عددهم في البصرة 182، وفي كركوك كان 50. وليس لدينا رقم دقيق لعدد المدافع، ولو ان بعض التقديرات قدرت العدد في بغداد في منتصف القرن السابع عشر بحوالي 60 مدفعا كبيرا، و150 مدفعا صغيرا على اسوار بغداد. وقدر العدد في النصف الاول من القرن الثامن عشر بـ 70 مدفعا. وقد اهتمت الدولة ببناء دور لصب المدافع وصيانتها(طوب خانه) في معظم الولايات المهمة، فكانت هناك طوب خانه في قلعة كلعنبر بالقرب من حلبجة في ولاية شهرزور في القرن السادس عشر، واخرى في بغداد الى جانب البارود فيها(البارود خانه). ولما كان نقل المدافع والقذائف يؤخر من سرعة وحركة الجيش فقد تم تشكيل تنظيم عسكري اضافي، وهو كتائب عربات المدافع(طوب عربجية) مهمة رجاله نقل المدافع والقذائف والبارود خلال الحملات العسكرية، وصناعة وصيانة عربات النقل وتم توزيع رجال هذا الصنف في ولايات الامبراطورية الى جانب رجال المدفعية.

قوات الوالي: ترتبط بالولاة مباشرة وهم يولونها اهتماما شخصيا لتعزيز مراكزهم في ولاياتهم ومساعدتهم على الوقوف بوجه القوات الاخرى في حالات العصيان والتمرد، أو الاستعانة بهم في ضرب الحركات القبيلة. وابرز الفرق التابعة لقوات الوالي هي: الجند الخيالة (اللاوند) -الفرسان الفدائيون (الدالاتية) -المتطوعون المشاة (السكبان) -حملة البنادق(التفنكجية).

القوات المحلية(برلي قولي): وتتكون من قوات حرس الحدود والقلاع من المتطوعين والفرسان الاقطاعيين(السباهية).

5.القوات البحرية:

بدأ اهتمام العثمانيين بالقوة البحرية في البصرة منذ منتصف القرن السادس عشر، حيث شهد هذا الوقت ذروة الصراع العثماني-البرتغالي في مياه الخليج العربي والمحيط الهندي، وذلك من خلال الحملات البحرية العديدة التي وجهها العثمانيون الى تلك المناطق بقيادة كل من بيري ريس ومراد ريس وسيدي علي ريس. لكن العثمانيين لم يكتب لهم النجاح في تلك الحملات بسبب تفوق القوة البحرية البرتغالية. وفي غضون ذلك حاول العثمانيون جعل البصرة قاعدة لعملياتهم العسكرية في الساحل الشمالي للخليج العربي، ووضعوا مسؤوليات كبيرة على عاتق حكام البصرة، الذين كان عليهم آنذاك ان يقوموا بتزويد الاحساء والبحرين بالمؤن والمعدات وحماية حركة الملاحة في الخليج. ولكن خلال القرن السابع عشر لم تعد القوة البحرية العثمانية في البصرة تحرز تقدما مساويا مع ما احرزته الاصناف العسكرية الاخرى. وينقل لنا الرحالة البرتغالي تخيرا صورة عن السفن في اوائل هذا القرن، ففي البصرة هناك دار لصناعة السفن، وعدد كبير من المدفعية جيدة الصنع، وبعض القوادس القليلة المصنوعة من قطع الخشب الصغيرة، وهي رديئة الصنع. وهذه القوادس لم تكن معدة ضد البرتغاليين بل ضد العرب. ويمكن ان يعزى سبب تدهور البحرية العثمانية الى:

1. ان الوجود العثماني في البصرة قد انتهى في اواخر القرن السادس عشر، وذلك على اثر قيام حكومة ال افراسياب في هذه المدينة، وممارستها سياسة عربية مستقلة بعيدا عن أي شكل من اشكال التبعية المباشر للسلطة العثمانية ما بين 1596-1668، ولهذا لم يعد للعثمانيين أي اتصال بالخليج العربي.
2. نظرا لابتعاد العثمانيين عن الخليج العربي انصب اهتمام العثمانيين على بناء السفن الحربية الصغيرة واستخدامها في انهار العراق، ومن ناحية اخرى يبدو ان ال افراسياب في البصرة قد نهجوا الاسلوب نفسه فاكثروا من استعمال السفن النهرية الصغيرة لا البحرية، ذلك لانهم احتاجوا للأنواع الاولى لصد

الهجمات الفارسية المتكررة على مدينتهم، أو استخدامها للسيطرة على القبائل العربية في منطقة الجزائر.

3. لم يعد هناك حاجة الى السفن البحرية بعد انتهاء المواجهة مع البرتغاليين في منتصف القرن السادس عشر، وعدم الاصطدام بقوة بحرية اخرى خلال القرن السابع عشر.
4. استمر تركيز العثمانيين على بناء السفن الحربية الصغيرة واستخدامها في البصرة حتى بعد عودة نفوذهم اليها في نهاية القرن السابع عشر.

في القرن الثامن عشر استمر انخفاض عدد السفن البحرية الكبيرة بشكل واضح، اما السفن الصغيرة فهناك تأكيدات كثيرة على تزايدها طوال القرن الثامن عشر، وقد استمر الضعف ملازما للقوة البحرية الموجودة في البصرة حتى نهاية حكم المماليك في العراق، ولم نعد نسمع بوجود أي دور لهذه القوة في منطقة الخليج العربي.

كان القبودان باشا على رأس العاملين في القوة البحرية في البصرة، والذي تسميه المصادر المحلية باسم رئيس المراكب البحرية، أو ناظر البحرية. وكان القبودان باشا من الشخصيات المهمة ذات النفوذ الكبير في البصرة، وذلك لأنه كان يعين مباشرة من السلطان العثماني في اسطنبول، ولم يكن خاضعا للوالي أو المتسلم. ولكن منذ ان اصبح العراق تحت حكم المماليك وعقب اندماج البصرة ببغداد في مطلع القرن الثامن عشر، اصبح القبودان باشا يعين من قبل والي بغداد وتناقصت سلطاته الى حد كبير. وكان مقر القبودان باشا في البصرة في قرية المناوي الواقعة على شط العرب، ما بين نهري العشار والخورة، حيث تصطف قطعات الاسطول عادة هناك. والى جانب القبودان باشا فقد كان هناك البحارة الذين كان اغلبهم من اليونانيين والايطاليين العاملين في خدمة الاسطول العثماني، اما المقاتلين الموجودين على ظهر السفن في البصرة فقد كان اكثرهم من الاتراك، ويبدو ان هناك بعض المتطوعين من السكان المحليين. وعلى الرغم من ان رواتب العاملين في الاسطول كانت تدفع من قبل الخزينة المركزية لتبعيتهم المباشرة للسلطان، الا ان الامر قد تغير عندما اصبح

يخصص للقبودان والعاملين معه واردات بعض المقاطعات الكبيرة في كل من بغداد والبصرة، وذلك لتأمين نفقات الاسطول كاملة. كانت مهمة السفن العسكرية العثمانية في البصرة بشقيها البحرية والنهرية هي حماية سواحل العراق وانهاره الرئيسة. ويبدو ان القوة العسكرية النهرية كانت ذات دور فعال اكثر من القوة البحرية. وتاريخ العراق مليء بالحملات العثمانية النهرية التي استخدمت فيها سفن عسكرية صغيرة للقضاء على انتفاضات العشائر العربية، او لحماية الحركة التجارية في انهار العراق. اما ابرز انواع السفن في العهد العثماني في العراق فهي:

1. **الغراب**: وهي من السفن الحربية التي كانت معروفة في البحر الاحمر والخليج العربي، وعرفت في العراق خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، واستعملت هناك باعتبارها احدى السفن الحربية الصغيرة.
2. **فرقاطة**: تحتوي هذه على عدد من المقاعد يتراوح بين 10–17 مقعد ويبدو بان هناك نوعين من هذه السفن منها ما هو صغير ومنها ما هو كبير.
3. **القاليتة**: وهي سفن حربية، تحتوي على 20–24 مقعدا، وهي تحمل حوالي 220 مقاتل في الحرب، وتسير بالمجاذيف والاشرعة. وهناك نوع اخر من هذه القاليتة من النوع الكبير تسمى باشتردة تحتوي على 26–36 مقعدا.

ـ الصراع الصفوي ـ العثماني على العراق:

ان الحالة السياسية في العراق اثناء الاحتلال العثماني الاول 1534م كانت غير مستقرة، اذ تميزت بكثرة الثورات والتمردات التي كان بعضها تُغذى من لدن الدولة الصفوية، وقد تعاقب على حكم بغداد ولاة كان لا يهمهم الاصلاح سوى اشباع رغباتهم المادية عن طريق فرض ضرائب جائرة واستعمال القسوة في جبايتها. وكان البعض منهم لا يقف عند حد اشباع رغبته المادية بل يعمد الى الانفراد بحكم الولاية في اطار التبعية الاسمية للسلطان العثماني.

ان الاحتلال العثماني للعراق لم يقض نهائيا على الصراع الصفوي-العثماني، وظل الجانبان يتنافسان من اجل السيطرة النهائية على هذا البلد، واضحى الصراع بينهما ظاهرة سائدة في القرن السادس عشر. اذ سرعان ما اندلعت الحرب مجددا بين الدولتين عام 1548-1549، ثم استؤنفت عام 1553-1555، والتي انتهت بعقد معاهدة اماسيا في 29 ايار 1555 التي انهت الحرب بين الدولتين، وفيما يخص العراق منها انها اكدت تبعية العراق للدولة العثمانية، كما تم الاتفاق على تخطيط حدود ولاية شهرزو، منعا لوقوع حوادث معكرة لصفو السلام بين الطرفين، كما تعهد العثمانيون بتحقيق امن وسلامة الحجاج الايرانيين. ولكن في الواقع كانت معاهدة اماسيا تمثل سلاما هشا بين الدولتين نظرا لكثرة المسائل التي يمكن التنازع عليها والتي يمكن لأي من الطرفين ان يتذرع بها واهمها:

1. النزاع بين عشائر الحدود وامرائها ولاسيما في منطقة كردستان التي كانت تحكمها العشائر المحلية والتي تتمتع بشبه استقلال عن الدولة، وكثيرا ما تنازع امراء العشائر ولجأوا الى الجانب الايراني أو بالعكس.
2. هجوم عشائر البدو على القوافل سواء التجارية منها أو قوافل الحج.

والحقيقة ان صلح اماسيا تعرض لأول اختبار حقيقي، عندما اندلع نزاع اسري بين ولدي السلطان سليمان القانوني بايزيد وسليم عام 1560 وقد ساند السلطان سليم، مما دفع بايزيد الى الالتجاء للبلاط الصفوي مع جنده البالغ عددهم عشرة الاف واربعة من ابنائه. وقد استغل الشاه طهماسب الاول الصراع بين الاخوة من اجل الضغط على الدولة العثمانية لتعديل بنود معاهدة اماسيا. وقد دخل العثمانيون في مفاوضات مع الشاه لتسوية الامر استغرقت عامين، وارسل خلالها السلطان مبعوثيه علي باشا حاكم مرعش وحسن اغا جاشني كرباجي مه هدية الى قزوين تحت عنوان المحافظة على معاهدة اماسيا وتجنب وقوع حرب بين الجانبين. فرد الشاه بسفارة تحمل كتابا يتضمن طلبا بحكومة بغداد مقابل ذلك، لكن السلطان رفض طلبه. فارسل سفارة ثانية حملها رسالة طلب فيها ان توضع النجف وكربلاء تحت ادارة اولاده، فرفض السلطان ايضا طلبه هذا. وفي عام 1562 انتهت

الازمة بين الدولتين عن طريق اجراء تعديلات طفيفة على معاهدة اماسيا. استمرت حالة الصراع الصفوي-العثماني قائمة بعد وفاة كل من السلطان سليمان القانوني والشاه طهماسب الاول وقد استغل كلا من الطرفين المشاكل الداخلية التي تنتاب الدولة الاخرى للتدخل في شؤونها أو التوسع على حسابها. وفي عام 1580 تمكن الصفويون من تحقيق نصر اخر على العثمانيين بالقرب من بغداد. ثم عقدت معاهدة اسطنبول الاولى أو معاهدة فرهاد باشا بين الدولتين في 21 اذار 1590 لتسوية المشاكل الحدودية بينهما. ولكن الدولة العثمانية في مطلع القرن السابع عشر اصابها الضعف، فقد اصيب البلاط العثماني والدوائر الحاكمة في الدولة بفساد شديد، وقد حكم الدولة العثمانية عدد من السلاطين لم يكن احدهم على مستوى يؤهله لان يمارس الحكم الا بوساطة وزراء كانوا احيانا مثالا للفساد. وبالمقارنة مع مرحلة القرن السادس عشر المجيدة فان الفترة الممتدة على مدار القرن السابع عشر اتخذ مظهرا اقل روعة، على الرغم من ظهور عدد من الشخصيات القيادية عملت على صون هيبة الدولة. وكانت الانتكاسات التي لحقت بالعثمانيين، في اواخر القرن السادس عشر واوائل القرن السابع عشر، في المجر والبلقان والكرج واذربيجان، وحركات التمرد التي نشبت في الاناضول، ولاسيما الثورة التي قام بها اصحاب الطريقة الجلالية الذين سيطروا على بعض الاقاليم الشرقية في اذربيجان، وتلقوا مساعدة من الشاه عباس الكبير(1588-1629)؛ كل ذلك كان بمثابة شواهد واضحة على ما اصاب الدولة العثمانية من ضعف، فضلا عن ذلك الانتصار الكبير للبحرية الاوروبية على البحرية العثمانية في معركة ليبانت عام 1571. ولم تكن اوضاع العراق الداخلية بأفضل حالا من السلطنة نفسها، فضعف الادارة والفساد كانا مسيطران عليه، فضلا عن التهديدات الايرانية والتمردات العسكرية، ففي عام 1604 هاجمت قوة صفوية العراق بقيادة علاء وردي خان وزير الشاه عباس الكبير، وقد اسر 300 جندي في احدى المعارك الصغيرة بالقرب من اسوار بغداد مما ادى الى نشر الذعر في داخلها، ولكن القوة الصفوية انسحبت بسرعة خاطفة، بعد ان ترك علاء وردي خان امتعته وراءه، من غير معرفة سبب هذا الانسحاب. ثم حوصرت المدينة حصارا جزئيا في العام التالي. وفي عام 1605 اندلعت حركة تمرد قادها القائد الانكشاري محمد بلوك باش بن

احمد الطويل، الذي نجح في السيطرة على بغداد، وعبثا حاولت القوات العثمانية التي ارسلها السلطان احمد الاول(1603-1617)، بقيادة نصوح باشا والي ديار بكر ان تفعل شيئا اذ هزم بسبب خيانة الجند المرتزقة. وقد استتب الامر لمحمد بلوك، لكنه اغتيل فجأة عام 1607 من قبل كاتب ديوانه، ونصب اخاه مصطفى بيك مكانه. لذا عملت الحكومة العثمانية على القضاء على الانقلابيين، اذ ارسل محمود باشا بغية اقصاء مصطفى بيك، ومن ثم يتولى باشوية بغداد، وبلغ الموصل، ودخل في مفاوضات سرية انتهت بتوليه باشوية بغداد في حين نصب ابن الطويل واليا على الحلة عام 1608.

ويبدو ان الصفويين لم يكونوا غافلين عن تلك الاوضاع السيئة التي تمر بها الدولة العثمانية لذا وسرعان ما اندلعت الحرب مجددا بين الدولتين، انتهت بعقد معاهدة اسطنبول الثانية في 20 تشرين الثاني 1612 نصت على اعتماد الحدود التي كانت تفصل بين الدولتين في عهد السلطان سليمان القانوني وفيما يخص العراق منها هو:

1. تتعهد الدولة العثمانية بعدم منع المسافرين الايرانيين من المرور بأراضيها، وتسمح لهم بسلوك طريق بغداد-البصرة.
2. لقد اكدت المعاهدة تبعية منطقة شهرزور الواقعة بين اربيل وهمدان للدولة العثمانية، في حين تعهد الشاه بعدم حماية حاكمها هلو خان، وهذا يعني ان الدولة العثمانية ارادت ان ترفع يد الصفويين عن هذه الولاية نظرا لأهميتها السياسية والاقتصادية.

ورغم المعاهدة المعقودة بين الطرفين الا ان ذلك لم يمنع الطرفين من استئناف الحرب، اذ هاجمت القوات العثمانية الاراضي الايرانية عام 1615، اما الصفويين فقد هاجموا العراق عام 1616 ونهبت قوات صفوية مدينة مندلي، غير ان باشا بغداد استعادها بشدة وسرعة. وسرعان ما تم توقيع معاهدة جديدة بين الدولتين عرفت بمعاهدة سراب في 29 ايلول 1618 التي اكدت بنود معاهدتي اماسيا واسطنبول الثانية.

بدت العلاقات بين الدولتين الصفوية والعثمانية اثر اتفاقية سراب وكأنها تسير نحو الاحسن، لكن الشاه الذي يبدو انه لم يكن راضيا تماما على هذه المعاهدة، ظل يتحين الفرص للانقضاض على الدولة العثمانية، وسرعان ما سنحت له الفرصة لتنفيذ سياسته. فقد سعى الشاه الى اضعاف الدولة العثمانية من خلال فرض حصار اقتصادي عليها ضمن مشروع اتفق على تنفيذه مع انكلترا، ويقضي بضرب البرتغاليين في هرمز وطردهم من الخليج العربي، وقد تم ذلك عام 1623، فسيطر الشاه على هرمز واخذ يصدر الحرير منه الى اوروبا، على سفن تابعة لشركة الهند الشرقية الانكليزية، مما حرم الدولة العثمانية من الاستفادة من ضريبة المرور(الترانزيت). وصادف ذلك اضطراب الاوضاع داخل الدولة العثمانية، فقد حدثت اضطرابات داخلية انتهت باغتيال السلطان عثمان الثاني، واعادة تنصيب السلطان مصطفى الاول مرة اخرى عام 1623. ولكن كانت الفرصة السانحة للشاه عباس الكبير لاستعادة العراق عندما حدث تمرد بكر صوباشي.

لقد كان بكر صوباشي احد قواد الانكشارية في بغداد والذي كان تحت امرته عدد كبير من السكبانية وهم من فرق المشاة المحلية من رماة البنادق، فضلا عن 1000 من العزب، وهم من فرق المشاة غير النظامية التي تتقدم الجيش العثماني اثناء الهجوم، كما كان تحت امرته 4000 من الانكشارية، وقيل ان عدد القوات التي كانت تأتمر بأمره بلغت 12000 رجل. وقد كان الصوباشي هو الحاكم الحقيقي بينما لم يكن ليوسف باشا والي بغداد من السلطة الا الاسم وقد بدأ نفوذ كر صوباشي بالتزايد منذ 1619. وقد ادى طغيان نفوذ بكر الصوباشي الى نقمة كبار الانكشارية عليه، والذين كانوا ينتظرون الفرصة السانحة للتخلص منه، ووجدوا تلك الفرصة عام 1621 عندما خرج بكر الصوباشي على رأس ثلة من اتباعه الى منطقة الفرات الاوسط، بعد ان اناب ابنه محمد اغا بلوك بدلاً عنه في بغداد. لقد تضاربت اراء المؤرخين حول سبب توجه بكر الصوباشي الى منطقة الفرات الاوسط فالبعض يعتقد انه توجه الى الحلة لجباية الضرائب من الفلاحين الذين امتنعوا عن دفعها الى السباهية. في حين يرى فريق اخر من المؤرخين انه خاض صراعاً عنيفاً مع بعض كبار

الانكشارية الذين لجأوا الى السماوة فأخذوا يحرضون الفلاحين في التمرد على السباهية. واي كان السبب فقد ادى ببكر صوباشي الى ان يخرج بجيش قوامه خمسة الاف من الانكشارية. فوجد المعارضون لبكر صوباشي ان غياب خصمهم خير فرصة لهم للإطاحة به او ابعاده عن بغداد، وكان على رأس هؤلاء محمد اغا قنبر الذي اجتمع مع كبار الانكشارية واشراف المدينة ووضح لهم نوايا الصوباشي وانفراده بالسلطة ثم اعلن عن عزمه على التخلص منه ولكن انباء المؤامرة وصلت الى مسامع بكر صوباشي فاسرع في العودة الى بغداد واول عمل قام به ان فرض حصاراً شديداً على القلعة، وامر بقصفها من جميع الجوانب ، وقتل اثناء الحصار والي بغداد يوسف باشا، اذ اصابه برصاص عندما كان يصدر اوامره العسكرية الى المدافعين عن القلعة التي اخذت تعاني نقصاً في الذخيرة والعتاد. ولم يبق امام محمد اغا قنبر ازاء هذه الحالة الا طلب الامان والاستسلام لبكر صوباشي. فسلم نفسه لخصمه الذي عامله بمنتهى القسوة والكراهية اذ وضعه واتباعه في قارب وامر بصب الكبريت والقار عليهم فاحرقوا جميعاً. لقد اصبح بكر صوباشي بعد القضاء على التمرد الاخير سيد بغداد بلا منازع، فكتب الى الباب العالي ان ينعم عليه بباشوية بغداد لقضائه على التمرد الاخير وقبل ان يتلقى جواباً، وزع منشوراً مزوراً اعلن فيه انه اصبح والياً على بغداد. لكن الصدر الاعظم قره حسين باشا رفض طلب صوباشي ومنح حكم بغداد الى سليمان باشا والي ديار بكر فارسل هذا الى متسلمه علي اغا لاستلام الولاية. الا ان بكر صوباشي رفض مقابلة المتسلم، ولم يتورع بالرد عليه بقسوة ثم اخبره بان اهل بغداد ليسوا بحاجة الى وال جديد. فرجع علي اغا الى الباب العالي واخبر الصدر الاعظم بأمر صوباشي، فاصدر هذا امراً الى حافظ احمد باشا والي ديار بكر قيادة حملة عسكرية الى بغداد لتأديب الثائر صوباشي. فتوجهت الحملة التي ضمت قوات من مرعش وسيواس والموصل وكركوك نحو بغداد ووقف الصدر الاعظم في الموصل قليلاً منتظراً وصول قطعات عسكرية جديدة من اورفة وبيكات الاكراد في العمادية وامراء سوران ثم توجه الى كركوك، ومن هناك بعث بقوة استطلاعية مع سليمان باشا وبستان باشا ومعهما بعض البيكات من الاكراد ثم تقدم

احمد حافظ متوجها نحو بغداد فخيم في شمال المدينة قرب الاعظمية. وقد حاول حافظ احمد باشا ان يستدرج بكر صوباشي الى الاجتماع معه غير انه رفض ذلك وبشدة واسمع الصدر الاعظم كلمات مهينة مؤكداً له انه سيبذل كل ما في وسعه للحفاظ بولايته. اخذ صوباشي منذ اليوم الاول للحصار يباغت الجيش العثماني ليلاً ويلحق به خسائر فادحة حتى استطاع ذات مرة ان يفرق شمل الجيش العثماني الذي تراجعت بعض قطعاته الى ديالى. فجمع حافظ باشا جيشه المشتت وقرر القيام بهجوم عام على المدينة بعد ان قطع جميع الطرق الموصلة اليها بهدف فرض حصار اقتصادي شديد على المدينة، واذا كان الهجوم لم يتم فأن اثار الحصار بدت واضحة في المدينة التي بدت تعاني المجاعة القاتلة. واصبح هلاك المحاصرين في بغداد قاب قوسين او ادنى، مما حدا بالتمرد صوباشي ان يبعث الى شاه ايران عباس الكبير بواسطة حاكم لورستان حسين خان مفاتيح بغداد. وفي الواقع ان الشاه كان يراقب التطورات العسكرية في بغداد عن كثب قبل اتصال بكر صوباشي. اذا كانت الاستعدادات قد اتخذت قبل فترة، فالحدود الشرقية كانت تشهد كل يوم اصطفاف مزيد من القوات الفارسية فجاء طلب صوباشي بمثابة فرصة ذهبية لعباس الكبير الذي ارسل جيشا من 30000 رجل بقيادة صفي قلي خان حاكم همدان. عقد حافظ باشا اجتماعاً حربياً بعد ان تأكد له اتصال صوباشي مع الشاه واحتمال قيام بكر بسك النقود باسم الشاه، وعندما كانت المناقشات مستمرة حول كيفية حل هذه المشكلة. جاء رسول من القائد الصفوي قرجغاي خان الى حافظ باشا زاعماً ان بغداد اصبحت فارسية فرد حافظ باشا على الرسول بان هذه الارض ليست بفارسية ، وان العثمانيين يقومون بتأديب ثائر من الثوار. فعاد الرسول مردداً كلمات التهديد بينما اصبح الهم الاول لحافظ احمد باشا بعد رجوع الرسول الفارسي، هو اقناع بكر صوباشي للعدول عن رأيه قبل فوات الاوان، فعرض عليه باشوية الرقة وعلى ابنه حكم سنجق الحلة، الا ان هذا العرض رفض بشدة من قبل بكر صوباشي. فاستمر الحصار على بغداد. غير ان حافظ باشا قرر في الاخير الخضوع للأمر الواقع وذلك بمنح حكم ولاية بغداد الى بكر صوباشي. لقد كان قرار حافظ باشا بتوجيه الايالة الى بكر صوباشي

قراراً صائباً كما كانت محاولة اخيرة لعدم التفريط بالمدينة اذ ليس بإمكانه الاستمرار في الحصار خاصة وان القوات الفارسية بدأت تقترب رويداً رويداً من بغداد، كما ان طلباته العسكرية لم تنل اهتمام المسؤولين في الباب العالي بسبب وصول علي كمانكش الى الصدارة العظمى والذي كان من اشد اعداء حافظ باشا. فبقاء بغداد بيد ثائر على السلطان افضل بكثير من ان تكون ولاية فارسية . انسحب حافظ احمد باشا الى الموصل ومنها الى ديار بكر اما بكر صوباشي الذي ظن ان كل شيء اصبح على ما يرام بعد منحه الولاية، فقد استقبل وفداً من الشاه يطلب تسليم المدينة للشاه غير ان صوباشي رد بكل رقة على الرسول واعلن انه مستعد لتحمل نفقات الحملة الايرانية ولكن ليس من الممكن تسليم بغداد. لذا فقد دهش الرسول من كلام صوباشي وهذا التحول العجيب في موقفه فعاد الى الشاه مردداً كلمات التهديد والوعيد. واخبر الشاه الذي كان قد وصل لتوه الى اطراف بغداد في صيف 1623.

فرض الجيش الصفوي حصاراً قاسياً على بغداد، وقيل ان الشاه عباس عرض على صوباشي باشوية بغداد مقابل اعلان تبعيته الاسمية للدولة الصفوية غير ان صوباشي قد رفض ذلك بشدة واعلن عن عزمه الدفاع عن بغداد حتى الرمق الاخير كما ارسل رسائل الى الباب العالي والى حافظ باشا طالب فيها امداده بمعونات عسكرية للوقوف بوجه الهجوم الصفوي، غير ان هذه الرسائل لم تلق اذناً صاغية من لدن المسؤولين في الباب العالي. استمر الحصار الصفوي نحو ثلاثة اشهر، عانى اهل بغداد خلاله الامرين من جراء القحط الشديد والغلاء الفاحش حتى اكلوا الميتة ولحوم الدواب والكلاب، ولم يكن من المستغرب من هذا الوضع المزري ان يتسلل الى معسكر الشاه كل ليلة اتباع الصوباشي لينجو بأنفسهم من مخالب الموت المحتم. وقد تضاربت اراء المؤرخين حول دخول القوات الصفوية الى داخل بغداد، فالبعض يرى ان بكر صوباشي عجز عن مقاومة قوات الشاه فأرسل احد اتباعه يرجوه ايقاف القتال ويعرض عليه التسليم، في حين يرى مؤرخون اخرون ان محمد بن بكر صوباشي لما رأى اشتداد المجاعة اتصل بالشاه عباس وطلب منه الامان لقاء تسلم القلعة له

فرضي الشاه بذلك وامنه على نفسه واتباعه ووعده بأن يجعله من خواص خدمه كما ووعده بولاية بغداد في حالة فتحه ابواب المدينة في حين في حين يرى فريق ثالث من المؤرخين ان الصفويين اخذوا في الليل ينفذون الى القلعة اثنين اثنين فما اصبح الصباح حتى ملئت القلعة بالألاف من الجنود بينما تشير رواية اخرى الى حدوث تمرد داخل القلعة مما هيأ الظروف الملائمة لاندفاع القوات الصفوية الى داخل القلعة في ليلة 28 تشرين الثاني 1623. لقد قام الجيش الصفوي بقتل كل من يصادفه من اتباع صوباشي والاف من السكان الابرياء بل قيل ان من سلم من القتل لم يسلم من التعذيب ، اما الامان الذي اعلنه الشاه فلم يكن الا خدعة، فقد امر الشاه باللقاء القبض على الجنود العثمانيين وتجريدهم من السلاح . اما مصير بكر صوباشي فقد قيل انه جيء به مكبلاً الى مجلس الشاه الذي كان يضم ابن بكر صوباشي محمد. فامر الشاه بسجن بكر صوباشي وأخاه عمر ثم اعدمهما بعد ذلك وقيل ان الشاه وضع صوباشي واخاه عمر في زورق ثم امر بصب النفط عليهما فأحرقوا في الحال. لقد ادت حركة صوباشي الانفصالية الفاشلة الى وقوع بغداد بيد الصفويين ، ولم تقف الدولة العثمانية التي كانت تعتبر اعادة بغداد الى حظيرتها مسألة مهمة بالنسبة لها بموقف المتفرج ازاء هذا الاحتلال بل جردت الحملات الواحدة تلو الاخرى في محاولة لاسترجاع بغداد من الصفويين.

بعد احتلال الصفويين لبغداد توجهت قوة صفوية بقيادة قرجغاي خان الى كركوك، فاستسلمت له دون مقاومة بعد فرار واليها الى ديار بكر، ثم توجه قرجغاي خان الى الموصل وحاصرها ثم تمكن من دخولها رغم المقاومة الشرسة للمدينة نتيجة وصول تعزيزات جديدة من الشاه عباس. وقد بقيت الموصل تحت السيطرة الصفوية لمدة ثلاث اعوام الى ان تمكن العثمانيون من احتلالها مجددا عن طريقة حملة ارسلت بقيادة جركس حسن باشا.

- قائمة المصادر:

-ابراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، بلا.ت).

-ابراهيم خليل احمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني 1516-1916، (الموصل: مطبعة جامعة الموصل، 1986).

-ابراهيم خليل احمد، "بدايات التوجه العثماني نحو منطقة الخليج العربي"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 43، لسنة: 1990.

-ابراهيم خليل احمد وخليل علي مراد، ايران وتركيا: دراسة في التاريخ الحديث والمعاصر، (الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر، 1992).

-ابراهيم خوري، "توسع الدولة العثمانية في الخليج العربي ونتائجه الاقتصادية 1498-1625"، بحث ضمن ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية بعنوان: الصلات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية، 19-21 نوفمبر 1988.

-احمد زكريا الشلق، العرب والدولة العثمانية من الخضوع الى المواجهة 1516-1916، (القاهرة: مصر العربية للنشر والتوزيع، 2002).

-احمد عبد الرحيم مصطفى، في اصول التاريخ العثماني، (القاهرة: دار الشروق، 2003).

-اسامة عبد الرحمن الدوري، "البلاد العربية في الوثائق العثمانية مصدرا وثائقيا لدراسة تاريخ البصرة منتصف القرن السادس عشر"، مجلة آداب البصرة، المجلد: 2، العدد: 63، لسنة: 2012.

-اسماعيل احمد ياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، (الرياض: مكتبة العبيكان، 1997).

-اوليا جلبي، "بغداد في رحلة اوليا جلبي 1645و 1652"، ترجمة: صبحي ناظم توفيق وانيس عبد الخالق محمود، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة-بغداد، العدد: 33، لسنة: 2012.

-باسم حمزة عباس، "ايران في عهد الشاه طهماسب الاول 1524-1576"، مجلة الخليج العربي، جامعة البصرة، المجلدك4، العدد: 1-2، لسنة: 2012.

-بان راوي شلتاغ الحميداوي، "التقسيمات الادارية لسنجق السليمانية خلال العهد العثماني الاخير 1869-1918"، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، جامعة القادسية، المجلد: 8، العدد: 3، لسنة: 2009.

-بيدرو تيخيرا، رحلة بيدرو تخيرا من البصرة الى حلب عبر الطريق البري 1604-1605، ترجمة: انيس عبد الخالق محمود، (بيروت: المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، 2013).

-جان بابتيست جاك لوي روسو، وصف باشوية بغداد سنة 1809، ترجمة: خالد عبد اللطيف حسن، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2012).

-جميل بيضون وشحادة الناطور وعلي عكاشة، تاريخ العرب الحديث، (اربد: دار الامل، 1992).

-حسن الجاف، الوجيز في تاريخ ايران، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2003)، ج3.

-حسن صالح شهاب، "البحرية العثمانية ومهمة التصدي للمخطط البرتغالي في البحر الاحمر والخليج العربي"، بحث ضمن ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية بعنوان: الصلات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية، 19-21 نوفمبر 1988.

-حسين محمد القهواتي، "حملة السلطان سليمان القانوني على بغداد عام 1534"، مجلة المورد، المجلد: 8، العدد: 4، لسنة: 1980.

-حسين مؤنس، الشرق الاسلامي في العصر الحديث، (القاهرة: مطبعة الحجازي، 1938).

-حميد احمد حمدان التميمي، "خطوات السيطرة العثمانية في المشرق والخليج العربي"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 47، لسنة"1994.\\

-حميد حمد السعدون، امارة المنتفق واثرها في تاريخ العراق والمنطقة الاقليمية 1546-1918، (عمان: دار وائل للنشر، 1999).

-رأفت الشيخ، تاريخ العرب الحديث، (القاهرة: عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، 1994).

-سامي ناظم حسين، "التقسيمات الادارية لسنجق كربلاء 1845-1916"، مجلة الباحث، جامعة كربلاء، المجلد: 3، العدد: 1، لسنة: 2013.

-ستيفن هيمسلي لونكريك، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر خياط، (بغداد: منشورات مكتبة اليقظة العربية، 1985).

-سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 2000).

-سيار كوكب علي الجميل، تكوين العرب الحديث، (الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر، 1991).

-شاهين مكاريوس، تاريخ ايران، (القاهرة: دار الافاق العربية، 2003).

-صالح محمد العابد، "عهد الحكم العثماني الاول"، بحث ضمن كتاب العراق في التاريخ، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1983).

________، "النظام الاداري"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985)، ج10.

-صالح محمد العابد وخليل علي مراد، "القوات المسلحة في العراق بين 1534-1831"، بحث ضمن موسوعة: الجيش والسلاح، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1988).

-طارق نافع الحمداني، "القوة البحرية والنهرية العثمانية في العراق وتطورها 1534-1831"، بحث ضمن موسوعة: الجيش والسلاح، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1988).

-طالب جاسم محمد الغريب، "الوعي السياسي للأسر البصرية في العهد العثماني: دراسة تاريخية"، مجلة آداب البصرة، العدد: 49، لسنة: 2009.

-طالب محبيس حسن الوائلي، "هزيمة العثمانيين في انقرة: دراسة في مقدمات الصدام التتاري-العثماني ومجريات الحرب"، مجلة كلية التربية-جامعة واسط، المجلد: 4، العدد: 16، لسنة: 2008.

-عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2004)، ج4.

-عبد السلام الترمانيني، احداث التاريخ الاسلامي بترتيب السنين، (دمشق: دار طلاس، 1997)، ج4.

-عبد العزيز عوض، دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث، (بيروت: دار الجيل، 1991)، ج1.

-عبد العزيز نوار، تاريخ الشعوب الاسلامية، (القاهرة: دار الفكر العربي، بلا.ت).

-عثمان بن عبد الله بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، (الرياض: مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، 1983)، ج2.

-عزتلو يوسف بك اصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان، (القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر، 2011).

-علي شاكر علي، تاريخ العراق في العهد العثماني1638-1750، (الموصل: مطبعة اوفسيت الشعب، 1985).

________"التنظيمات المالية في البصرة خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 27، لسنة: 1986.

-علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، (بيروت: دار الراشد، 2005)، ج1.

-عماد عبد السلام رؤوف، "الجيش: القوى والمؤسسات العسكرية"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985)، ج10.

-فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني: رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية، (بيروت: دار المدار الاسلامي، 2003).

-فنشنسو ماريا دي سانتا كاترينا، "رحلة فنشنسو الى العراق في القرن السابع عشر"، ترجمة: بطرس حداد، مجلة المورد، المجلد: 5، العدد: 3، لسنة: 1976.

-فيريير سوفبوف، "العراق في رحلة كونت فيريير سوفبوف 1785"، ترجمة وتعليق: خالد عبد اللطيف حسين، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة-بغداد، العدد: 34، لسنة: 2012.

-كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة: نبيه امين فارس ومنير البعلبكي، (بيروت: دار العلم للملايين، 1968).

-لازم لفته المالكي وخلود عبد اللطيف عبد الوهاب، "البعد الاقتصادي للغزو البرتغالي للخليج العربي للمدة 1506-1652"، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة البصرة، العدد: 1، لسنة: 2005.

-محمد حسن العيدروس، السياسة العثمانية تجاه الخليج العربي، (ابو ظبي: دار المتنبي للطباعة والنشر، بلا.ت).

-محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الصفوية في ايران، (بيروت: دار النفائس، 2012).

-محمد عبد الله عودة وابراهيم ياسين الخطيب، تاريخ العرب الحديث، (عمان: الاهلية للنشر والتوزيع، 1989).

-محمد عبد اللطيف هريدي، الحروب العثمانية-الفارسية واثرها في انحسار المد الاسلامي عن اوروبا، (القاهرة: دار الصحوة للنشر والتوزيع، 1987).

-محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، تحقيق: احسان حقي، (بيروت: دار النفائس، 1981).

-مصطفى عبد القادر النجار، "البصرة اول قاعدة بحرية للتوسع العثماني في الخليج العربي 1546-1869"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد: 3، لسنة: 1986.

-الموسوعة العربية الميسرة، (بيروت: المكتبة العصرية، 2009)، 7ج.

-نادية محمود مصطفى، العصر العثماني من القوة والهيمنة الى بداية المسألة الشرقية، (القاهرة: المعهد العالي للفكر الاسلامي، 1996).

-نزار قازان، سلاطين بني عثمان بين قتال الاخوة وفتنة الانكشارية، (بيروت: دار الفكر اللبناني، 1992).

-نصوح افندي السلاحي، رحلة مطراقي زاده، ترجمة: ناظم صبحي توفيق، تحقيق: عماد عبد السلام رؤوف، (ابو ظبي: المجمع الثقافي، 2003).

-نظمي زاده مرتضى افندي، كلشن خلفا، ترجمة: موسى كاظم نورس، (النجف: مطبعة الاداب، 1971).

-نيقولاي ايفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574، ترجمة: يوسف عطا الله، (بيروت: دار الفارابي، 2004).

-نيقولو باربارو، الفتح الاسلامي للقسطنطينية: يوميات الحصار العثماني 1453، دراسة وترجمة وتعليق: حاتم عبد الرحمن الطحاوي، (القاهرة: عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، 2002).

-هشام سوداي هشام، "اربيل في كتابات الرحالة الاجانب في العهد العثماني"، مجلة التربية والعلم، جامعة الموصل، المجلد: 15، العدد: 30، لسنة: 2008.

-وجيه كوثراني، "اشكاليات في التاريخ العربي للدولة العثمانية ومجتمعاتها: مراجعة المفاهيم"، بحث ضمن كتاب: العرب وتركيا، تأليف: مجموعة من الباحثين، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012).

-وليم بيري فوك، "احوال العراق في القرن التاسع عشر"، ترجمة: عبود الشالجي المحامي، مجلة سومر، المجلد: 16، الجزء: 1-2، لسنة: 1960.

-يلماز اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: محمود سلمان، مراجعة: محمود الانصاري، (اسطنبول: مؤسسة فيصل للتمويل، 1988)، ج1.

الفصل الخامس

العراق في العهد العثماني الثاني

1638 ـ 1750

الأوضاع السياسية في الدولة العثمانية عند اعتلاء السلطان مراد الرابع العرش:

اعتلى السلطان مراد الرابع العرش في 10 ايلول 1623م، وكان صبيا لا يتجاوز عمره الثانية عشرة، ويعد من السلاطين القلائل الذين استطاعوا في السنوات الاخيرة من حكمهم، أن يحكموا حكما فعليا، فقد كانت والدته (كوسه م) هي المهيمنة على الحكم حتى سنة 1632م وبعد هذه السنة استطاع مراد الرابع أن يأخذ زمام الحكم بيده بعد أن تخلص من المشاكل الداخلية.

تسلم مراد الرابع عند اعتلائه العرش تركة مثقلة بالمشاكل الداخلية والخارجية، فعلى الصعيد الداخلي استمر تمرد الانكشارية وتدخلهم في عزل ونصب الصدور العظام، فقد كانت الانكشارية في هذه الفترة فقدت حيويتها واندفاعها وتحولت إلى عنصر فوضى وفساد تاركة التدريب الصارم واصبحت اشبه ما تكون بطبقة مدنية تكره الرقابة النظامية وتتدخل في عزل الوزراء والسلاطين كأنها هي الحاكمة في الدولة وليس السلطان. فقد بدأت فوضى الانكشارية في اعقاب وفاة السلطان القوي سليمان القانوني، فهم لم يسمحوا لسليم الثاني(1566-1574) باعتلاء العرش حتى يدفع لهم الاعطيات. وفي تطور خطير اصبح للانكشارية دور في تحديد مصير كبار رجال الدولة في عهد السلطان مراد الثالث(1574-1595)، فقد تم قتل الدفتر دار وبكلربك الروملي امام عجز السلطان عن حمايتهم وكان ذلك عام 1589 في الحادثة المعروفة باسم واقعة البكلربك. كما اسهم الانكشارية في عزل السلطان عثمان الثاني(1618-1622)، ثم مقتله على يديهم، وعلا نتيجة ذلك شان الانكشارية فاخذوا يولون الوزراء ويعزلونهم. ولم يكتف الانكشارية بهذا

بل انهم عزلوا مرة اخرى السلطان مصطفى الاول(1622-1623)، وولوا مكانه السلطان مراد الرابع(1623-1640). وفي عهده اقدموا على قتل الصدر الاعظم داماد حافظ باشا(تولى الصدارة في 1625-1626و 1632)، بعد ان تمردوا عام 1632، واجبروا السلطان على تولية الداماد رجب باشا صدرا اعظما.

وكذلك فان علماء الدين الاعلام الذين كانوا يمثلون القوة الروحية في الدولة العثمانية بدأوا يتسامحون في الامور الشرعية، والأسوأ من ذلك افلاس الخزينة الذي لم يكن سببه قلة واردات الولايات فحسب بل أيضاً التبذير المفرط في امور اللهو التي كانت تجري في بلاط السلطان خاصة على الحريم اللواتي كن احد الاسباب في ضعف الدولة العثمانية وانهيارها.

أمّا على الصعيد الخارجي، فقد كانت الاتجاهات اللامركزية والنزاعات الانفصالية واضحة للعيان في بعض الولايات العثمانية، تلك الاتجاهات والنزعات التي تكشف لنا عن مدى ضعف الدولة العثمانية، ففي اسيا الصغرى حمل الثائر أباظة باشا الذي كان قد تجمع تحت امرته اربعين الف انكشاري، لواء العصيان واخذ يقوم بهجمات على الولايات المجاورة، بل وانه اخذ في جباية الضرائب ويجند الجنود بحجة الانتقام لدم السلطان عثمان الثاني (1618-1622م) وقد مد سيطرته على انقرة وسيواس، بل كادت بروسة أن تقع في قبضته ولولا قلعتها الحصينة، كما أن الامير الدرزي في لبنان الامير فخر الدين المعني الثاني (1572-1635م)، كانت له علاقات وثيقة مع القوى الاوربية المناهضة للدولة العثمانية، وخاصة تلك التي كانت لا تزال متمسكة بضرورة استمرار الحروب الصليبية بشكلها التقليدي السابق مثل فلورنسا والبابوية، وكانت امال هذه القوى معلقة بفخر الدين المعني الذي قام بزيارات سرية إلى ايطاليا واجتمع مع البابا بولس الخامس وعند عودته سنة 1618 شرع في تقوية امارته وتوسيعها لمواجهة الصدام الذي كان يتوقع حدوثه اجلا أو عاجلا مع القوى العثمانية في طرابلس ودمشق. ولم تكن الاضطرابات الدائرة في الولايات العثمانية الأخرى اقل خطورة، فحكام مصر كانوا تابعين للسلطان اسميا فقط، والادهى من ذلك أن

بغداد اصبحت في قبضة الصفويين سنة 1623م بعد حادثة بكر صوباشي التي ادت إلى نتائج خطيرة كما ذكرنا سابقا.

وهكذا نرى أن الدولة العثمانية كانت تعاني من مشاكل داخلية وخارجية عند اعتلاء السلطان مراد الرابع العرش، غير أن السلطان مراد الذي اشتهر بانه اخر السلاطين العظام الذي تمكن من اعادة الحيوية والنشاط إلى جسم الدولة العثمانية لم يترك بقاء هذه الاوضاع على ما كانت عليه، بل اتخذ سلسلة من الاجراءات في مواجهة القوى المناهضة للدولة العثمانية، والقضاء على المعارضة الداخلية المتمثلة بالانكشارية.

ـ الحملات العثمانية لاستعادة العراق(1625ـ1638):

كان سقوط بغداد في ايدي الصفويين امر في غاية الخطورة بالنسبة الى الدولة العثمانية، وعلى الرغم من مرحلة الضعف التي كانت تمر بها آنذاك، فإنها لم تتوان عن محاولة: "استعادة انبل مدن اسيا". لذا فقد ارسلت الحملات العسكرية الواحدة تلو الأخرى، هذه الحملات التي يمكن أن نسميها بالحملات الاسترجاعية التي اخفقت في تحقيق هدفها، ومن هذه الحملات:

1.حملة حافظ احمد باشا 1625:

اسندت السلطنة العثمانية مهمة استرجاع بغداد الى الصدر الاعظم حافظ احمد باشا، في نفس الوقت لما كان السلطان مراد الرابع مهتما جدا باستعادة بغداد لذا فقد ارسل قوة من حرسه الخاص للسيطرة على الحلة وكربلاء. وعندما وصلت اخبار التحركات العثمانية الى الشاه عباس الكبير ارسل قوة تقدر بثمانين الف مقاتل من القزلباش بقيادة زينل خان بهدف مساعدة الحامية في بغداد، وقد تقدمت هذه القوات حتى وصلت الى شهربان وعسكرت

هناك. بعد ذلك زحفت القوات الصفوية الى بهرز وتمكنت من مد جسر من السفن على نهر ديالى لتعبر قواته باتجاه بغداد. ولما كان هدف القيادة العسكرية العثمانية قطع خط الاتصال بين القوات الصفوية المتمركزة في النجف والحلة، وبين القوات الصفوية المتواجدة في بغداد، فان قوة عثمانية بقيادة مـراد باشا والـي ديـار بكر زحفت نحو بغداد في تشرين الثاني 1625م، والتحقت به قوات امير امراء الاناضول الياس باشا حتى بلغ عدد قوات الحملة حوالي خمسة عشر الف جندي، واصطدمت هذه القوة بتلك التي يقودها زينل خان الا انها لم تتمكن من صد القوات الصفوية وبالتالي اخفقت في مهمتها لقطع خط الاتصال، إذ استطاع عدد كبير من القوات الصفوية دخول بغداد، في هذا الوقت كان الصدر الاعظم حافظ احمد باشا الذي كلف بمهمة قيادة الحملة الزاحفة نحو بغداد، قد خرج من العاصمة بعد أن تجمعت تحت رايته قوات من الروميلي والاناضول ومصر والشام، فسلك طريق ماردين، ثم اسكي موصل، والزابين الكبير والصغير حتى وصل إلى كركوك. وقد عقد الصدر الاعظم في كركوك مجلسا حربيا، لمناقشة كيفية التوجه نحو بغداد، وكان من راي الصدر الاعظم السيطرة أولاً على نقاط الحدود ومراكز الامداد الصفوية في درنة ودرتنك، ثم التوجه نحو بغداد، لان التوجه المباشر لا يجدي نفعا، خاصة وان حملة مراد باشا لم تحقق هدفها في السيطرة على الحلة والنجف لمنع وصول تعزيزات صفوية إلى الحامية الايرانية في بغداد.

انقسم قادة الحملة إلى فريقين بين مؤيد لراي الصدر الاعظم ومعارض له، وسادت صفوف الجيش موجة من الفوضى والاضطراب نتيجة هذا الانقسام، واخيرا وافق الصدر الاعظم على رأي الفريق المعارض والقاضي بالتوجه المباشر نحو بغداد، قبل تحرك الحملة من كركوك، استقبل الصدر الاعظم رسولا من حاكم بغداد الفارسي صفي قولي في تشرين الأول 1625م، وقد عرض الرسول على الصدر الاعظم فكرة مراسلة الشاه، إن كان مصرا على فتح بغداد، ولكن الصدر الاعظم رفض ذلك. ويظهر أن مهمة الرسول ليست مهمة عرض مراسلة الشاه، وانما كانت مهمة جاسوسية لغرض الاطلاع على تحركات الحملة

وعددها، والحصول على معلومات عن خططها العسكرية، ومهما يكن من امر فان مجيء الرسول الصفوي قد اثر في خطة الحملة العسكرية، فقد اجرى الصدر الاعظم بعض التغيرات في قيادة الجيش، كما ارسل سليمان باشا إلى الموصل لغرض جمع الذخيرة وامر الصدر الاعظم ببقاء بستان باشا في كركوك خوفا من هجوم صفوي مباغت من جهة الشرق.

وصل الصدر الاعظم إلى جوار مرقد الامام الاعظم في 11 تشرين الثاني 1625م وعلامات التعب بادية على جيشه، وبعد يومين أي في 13 تشرين الثاني، كان الجيش العثماني، قد اتخذ اماكنه المقررة حول سور بغداد كما كان السكبانية قد دخلوا المتاريس التي حفرت ساعة نزول الحملة، وقد استمر الحصار الذي ضربه الجيش العثماني ساعة نزول الحملة، استمر الحصار الذي ضربه الجيش العثماني حوالي شهرين انفجر خلالهما اثنان وخمسون لغما، وكان الجيش العثماني يملأ الخنادق بسعف النخيل ولكن دون أن يقوم باي نشاط عسكري، فمل كثير منهم من طول الحصار بينما كان الصفويين يشعلون الاف المشاعل كل ليلة، ويقيمون الاحتفالات ايذانا بوصول امدادات عسكرية جديدة لهم يقودها الشاه الصفوي نفسه، وبالرغم من الحصار المفروض على بغداد، فقد كانت القوات الصفوية تدخلها كلما وجدت فرصة لها، وقام الجيش العثماني بهجوم عام، ولكن الصفويين تمكنوا من صد الهجوم بالرغم من انفجار الالغام التي وضعها الجيش العثماني في بعض المناطق من السور وقد خسر العثمانيون في هذا الهجوم، كثيرا من الجند، اضافة إلى الخسائر التي منيت بها القوات العثمانية في شهربان على يد القائد الصفوي زينل خان. بعد هذه النكسة العسكرية، عقد حافظ باشا اجتماعا حربيا لاتخاذ التدابير اللازمة لوقف هذا التدهور الخطير، وقد ارتفعت اصوات الانكشارية مطالبة القتال ورفض فكرة الرجوع التي طرحت من قبل بعض القادة، فوافق الصدر الاعظم على الاستمرار في القتال وطلب إمدادات عسكرية من الباب العالي والبصرة. واثناء عقد الاجتماع، كان القائد الصفوي زينل خان يلحق ضربات قوية بقوات والي سيواس طيار محمد باشا في منطقة ديالى، كما كانت القوات العثمانية المتمركزة في النجف واطرافها تعاني هي الأخرى من هزائم متكررة امام الجيش

الصفوي، فاخذ الضبط العسكري في الجيش العثماني ينحل تدريجيا، وبدأ القادة كل واحد يتهم الاخر بتحمل مسؤولية هذه الهزائم، وسط هذا الفزع والقلق الذي كان يسود صفوف الجيش العثماني من جراء الاخفاق في السيطرة وقوة المقاومة الصفوية، جرت مناوشة بين الطرفين، لكن لم تسفر عن اية نتيجة سوى وقوع بعض الاسرى من الطرفين.

بدأ الصفويين يضيقون الخناق على العثمانيين، عندما سيطروا على جميع الطرق الموصلة إلى بغداد، كما وقعت مخازن العتاد في الفلوجة تحت سيطرة الصفويين واستمرت المراسلات بين الطرفين إذ طلب الشاه من الصدر الاعظم فصل بغداد عن الدولة العثمانية زاعما انها مقاطعة صفوية لكن الصدر الاعظم رفض ذلك بشدة. وجرت المعركة الاخيرة بين الطرفين في 27 ايار 1626م، وكانت غير متكافئة بسبب وصول امدادات عسكرية للصفويين وعلى راسها الشاه عباس، وكان وجود الشاه بين جنده باعثا على رفع معنوياتهم. فبدأ الصفويون هجومهم من ثلاث جبهات في وقت واحد، وكان الشاه يرفع معنويات جنده بخبطة الرنانة، فيزيد من اندفاع جنده، ولم يكن الجيش العثماني اقل اندفاعا في القتال، ولكنه كان جيشا ينقصه الضبط والقيادة الحازمة اضافة إلى قلة الذخيرة والاسلحة، ومع ذلك فقد احرز في بداية المعركة انتصارات ملحوظة خاصة تحت قيادة خسرو باشا الذي استطاعا التوغل إلى عمق القوات الصفوية، ولكنه اضطر إلى التراجع نتيجة هبوب غبار كثيف جعل الاستمرار في التقدم امرا مستحيلا. ثم دخل الطرفان العثماني والصفوي في مفاوضات لإيجاد حل لهذا المأزق فعقد الصدر الاعظم سلسلة من الاجتماعات مع ممثل الشاه، الاجتماع الأول اثار ممثل الشاه بعدم جواز القتال بين الاخوة المسلمين، وفي الاجتماع الثاني اكد ممثل الشاه المزاعم حول تبعية بغداد للدولة الصفوية، واقترح في اجتماع اخر ترك مدينة النجف للشاه مقابل اعادة بغداد للعثمانيين، فكان جواب الصدر الاعظم بالرفض القاطع لمطالب الشاه. وفي اثناء عقد الاجتماعات بين الصدر الاعظم وممثل الشاه، حصل انشقاق خطير في صفوف الانكشارية حول ما دار في هذه الاجتماعات المطولة وما كاد الاجتماع الاخير ينتهي حتى هجم بعض الجند على خيمة الصدر الاعظم

والقوا عليه القبض متهمين اياه بالتواطؤ مع الشاه وسجنوه في قبة الامام الاعظم على مشهد من ممثل الشاه، لكنه افرج عنه بعد ساعات قلائل نتيجة موقف احد القواد الذين طلب من الانكشارية بانه لا يحق لهم عزله سوى السلطان، واثر هذا الكلام في نفوس الانكشارية فعدلوا عن موقفهم، واخيرا اضطر الصدر الاعظم الى الانسحاب نحو الموصل. وهناك اسباب عديدة لفشل حملة حافظ احمد باشا في استعادة بغداد وهي:

1. قلة الارزاق وتفشي المرض في صفوف الجيش العثماني.
2. انهيار معنويات الجند العثماني نتيجة الفشل في تحقيق نصر حاسم على الصفويين.
3. تمرد الانكشارية بسبب طول فترة الحصار وعدم وصول الامدادات.

وعند وصوله العاصمة، اقصى عن الصدارة العظمى لفشله في استرداد بغداد من يد الصفويين وحل محله خليل باشا الذي اقصى بعد اشهر قلائل، فاصبح في الصدارة خسروا باشا البشتناقي في 6 نيسان/ 1628م، وقد وصف هذا بانه كان مشهورا بالشجاعة والاقدام، إلاَّ انه كان ميالا إلى الدسائس وسفك الدماء، فقد استطاع أن يزيل جميع العقبات التي اعترضته بالدم المسفوك، وتميزت السبل التي سلكها للوصول إلى اهدافه بسلسلة من احداث القتل.

2. حملة خسرو باشا 1629م:

تجددت العلاقات العدائية بين الصفويين والعثمانيين في عهد الشاه صفي(1629–1642)، وتركز الصراع بينهما عل بغداد وارمينيا، فقد استغل السلطان مراد الرابع وفاة الشاه القوي عباس الكبير وصغر سن خليفته، فنهض لاستعادة بغداد من الصفويين، فارسل الصدر الاعظم خسرو باشا على رأس حملة كبيرة في محاولة ثانية لاستعادة بغداد، فبدأ خسرو باشا زحفه من اسكودار في ايار 1629، بعد أن اناب في الصدارة رجب باشا، وسلك طريق اق شهر وقونية ثم حلب، وعند وصوله إلى بيره جك امر بنقل المعدات والتجهيزات إلى

الفلوجة ثم واصل زحفه ووقف قليلا عند ديار بكر حيث انضم إلى حملته بعض البيكات من الاكراد ووصل الموصل في 17 كانون الأول 1629م، حيث كانت المدافع الضخمة التي ارسلت عن طريق قوج حصار ونصيبين في انتظاره. وقد عقد الصدر الاعظم في الموصل اجتماعا حربيا، وبعد مناقشات طويلة استقر رايه التوجه أولاً نحو شهرزور بسبب رداءة الطريق نتيجة كثرة هطول الامطار، واحتمال قيام امراء اردلان بالهجوم على مؤخرة الجيش في حالة التوجه المباشر نحو بغداد، ومن ثم من اجل اتخاذ شهرزور قاعدة عسكرية تحمي ظهر الجيش الزاحف نحو بغداد. ولم يصادف خسرو باشا في اثناء زحفه نحو شهرزور اية صعوبات تذكر، بل قدم كثير من امراء الاكراد، وكذلك بعض امراء اردلان المنشقين عن احمد خان حاكم اردلان، طاعتهم له، اذ ان تسعا وثلاثين قرية كردية قدمت الطاعة إلى الصدر الاعظم، وساعدت ظروف اخرى خسرو باشا في السيطرة على شهرزور هي تورط الشاه صفي مع المغول في الحدود الشرقية من بلاده. امر الصدر الاعظم خسروا باشا بتجديد بناء قلعة (كلعنبر) واستغرق العمل في تجديدها قرابة شهرين، وقد تحمل الجيش العثماني الكثير من الصعاب من جراء العمل المتواصل.

لقد رأى خسرو باشا ان استعادة العراق لا تتم الا اذا عزل عن ايران، ولا يتحقق ذلك الا بالسيطرة على اذربيجان، لذلك اجتاز الاراضي الكردية ودخل الاراضي الايرانية ووصل الى اذربيجان. وعندما علم الشاه صفي بتوغل خسرو باشا داخل الاراضي الايرانية، ارسل قوة عسكرية مؤلفة من خمس واربعين الف مقاتل بقيادة زينل خان للتصدي له، ووقف زحفه، وخرج بنفسه على رأس قوة عسكرية اخرى باتجاه بغداد، وتصدى زينل خان للقوات العثمانية عند قلعة مريفان/ مهربان في 5 ايار 1630 الا انه تعرض للهزيمة ودفع حياته ثمنا لذلك. فتحت معركة مريفان الطريق الى همدان امام القوات العثمانية، فتقدم خسرو باشا الى همدان وفتحها في 9 حزيران، وواصل تقدمه باتجاه قزوين وهناك تصدى له حسين خان حاكم لورستان عند دركزين على طريق همدان-قزوين الا انه انهزم امامه، وعندما علم الشاه صفي بنتيجة المعركة لاذ بالفرار الى الداخل الايراني. وقيل ان خسرو باشا ارسل رسالة إلى

الشاه يباركه بتقلده منصبه الجديد ويعزيه بوفاة جده الشاه عباس ويدعوه للصلح. وبفعل هذا الاندفاع استعاد العثمانيون ايران الغربية، أي كرمنشاه وكردستان ولورستان وخوزستان، كما استعادوا في الوقت نفسه جنوبي العراق عندما هاجم مصطفى باشا حاكم طرابلس الشام الحلة وكربلاء والنجف والكوفة وانتزعها من ايدي الصفويين. وفي دركزين وصل كتاب السلطان مراد الرابع الى خسرو باشا يأمره بالتوجه الى بغداد فاضطر إلى ترك الاراضي الايرانية، واثناء عودته التقى بحملة صفوية بقيادة موراوي خان اصطدم بها وتغلب عليها واحرق مدينة نهاوند، ثم اندفع نحو بغداد فمر بحلوان ودرتنك ثم قصر شيرين وبغداد حيث وصلها في 16 ايلول 1630م، وعد وصوله بفترة وصلت مدافعه من الموصل، فنصب سبعة مدافع باتجاه باب الامام الاعظم، ووضع حامية في قلعة الطيور (قوشلر قلعة سي) لمنع وصول الامدادات إلى الحامية الايرانية من النجف وكربلاء والحلة. كما امر بنصب بعض المدافع في الجانب الغربي من نهر دجلة، واتخذت بعض القوات العثمانية امكانها في مناطق متفرقة من السور بحيث سدت المنافذ جميعها. ثم قام الجيش العثماني في 9 تشرين الثاني 1630م بهجوم عام واستطاع خلاله قسم من الجند اجتياز الخنادق والمتاريس، إلاَّ أن شدة المقاومة الصفوية اجبرت الجيش العثماني على التراجع، بعد أن تكبد خسائر فادحة، وقد قتل في هذا الهجوم احد قادة الجيش العثماني هو كنج عثماني الذي اصيب برصاص في رجله، لذلك سادت موجة من الفوضى والاضطراب صفوف الانكشارية، وارتفعت الاصوات بين مطالب للرجوع ومعارض له حتى اضطر خسرو باشا إلى تنفيذ حكم الاعدام بحاكم اشقوردة اناؤود اسكندر الذي كان من اشد اعداء الصدر الاعظم والذي وقف بوجهه واسمعه كلمات نابية. من جانب اخر كان الشاه صفي في غضون ذلك قد خرج من عاصمته صوب بغداد لمشاركة حاميتها في الدفاع عنها، وعندما علم خسرو باشا بقدومه رأى وهو وسط معارضة الانكشارية ان من الافضل ان يفك الحصار عن المدينة ويعود ادراجه، وهذا ما حصل في 14 تشرين الثاني 1630م، بعد أن استمر الحصار اربعين يوما، وقد سلك الطريق الجنوبي الى اسطنبول عبر حلب، وذلك لاستيلاء القوات الصفوية بقيادة توختة

خان، على درنة ودرتنك وشهرزور. وقد وصل الشاه الى بغداد، ثم توجه الى وسط وجنوب العراق، لاستعادته من العثمانيين وكان خسرو باشا قبل انسحابه قد عين خليل باشا واليا على الحلة ومعه عشرة الاف جندي، ولكن الشاه صفي ارسل قوة مؤلفة من اربعين اف وفرض الحصار على الحلة التي قاومت لمدة ثلاثة اشهر، انتهت بسقوط المدينة بيد الصفويين، ثم عاد الشاه صفي الى اصفهان، وهناك مسببات عديدة يمكن ان تبرز من اجل ان تعليل الفشل العثماني في استعادة بغداد وهي:

1. ان خسرو باشا قد اضاع كثيرا من وقته في تجديد قلعة كلعنبر، الى درجة دفعت البعض الى القول ان هدف الحملة هو تجديد القلعة، وليس فتح بغداد.
2. التكتيك الفني الذي لجأ اليه الصفويون الذين كانوا يبطلون الالغام التي يضعها الجيش العثماني وذلك بصب الماء عليها.
3. الانشقاق الذي حصل بين الانكشارية مما اضطر خسرو باشا إلى التخلي عن الحصار.

يبدو أن هذه الاسباب مجتمعة عملت على فشل حملة خسرو باشا الذي عزل عن الصدارة بعد وصوله العاصمة، في 25 تشرين الثاني 1631م، فحل محله حافظ احمد باشا مجددا وكان عزله بمثابة الشرارة التي اشعلت فتنة الجند في الاستانة والاناضول وهي الفتنة التي اطاحت براس الصدر الاعظم حافظ احمد باشا وكادت أن تؤدي إلى خلع السلطان مراد الرابع نفسه. يظهر أن هذا المشهد الدموي، قد اثر في نفسية السلطان مراد الرابع فصمم على قطع دابر الفوضى، فبدأ أولاً بإيقاف جباية الاطفال المسيحيين الذين كانوا يجلبون صغارا، ويدخلون في مدارس خاصة يتعلمون فيها اللغة التركية وتعاليم الدين الإسلامي اضافة إلى التدريب العسكري الصارم، ليكونوا مؤهلين للدخول في الجيش لانكشاري واستطاع بمساندة بعض الفرق الانكشارية التي اعلنت ولاءها للسلطان، أن يقضي على زعماء التمرد، إذ دعاهم إلى الاجتماع عند البسفور ودبر هناك مكيدة لهم، إذ ابيد كثير منهم، كما قام بإرسال الكثير منهم بمهمات عسكرية إلى انحاء متفرقة من الدولة حيث كان يوصي بالتخلص منهم وكما

اصدر السلطان مجموعة من الاجراءات كانت تهدف وقف الانحلال الذي كان يسود صفوف الجيش الانكشاري، كما وزع الجواسيس في طول البلاد وعرضها، وكان هؤلاء يوافونه بتقارير يومية عن الاوضاع السياسية، بل كان يخرج احيانا بنفسه متنكرا لمراقبة الاوضاع العامة، كما وضع قادة الانكشارية تحت المراقبة. لقد نجح مراد الرابع بعد هذه الإجراءات في فرض سيطرته الكاملة على الدولة، لذا أشار المؤرخون عادة إلى سنة 1632م بانها بداية حكم السلطان مراد الرابع الفعلي، بعد أن تخلص من المشاكل الداخلية، وبدأ يحكم حكما يتسم بالصرامة والقسوة، فاستعادت الدولة العثمانية في عهده بعض هيبتها ونشاطها، في وقت كانت الدولة الصفوية قد اصبحت مسرحا للفوضى السياسية في عهد الشاه صفي الذي لم يكن بذلك الحاكم القدير الذي يستطيع أن يضع حدا للمعارضة الداخلية، فاضطر أن يقوم بسلسلة من الاعدامات في قادة الجيش الصفوي، فتدهورت الاوضاع في عهده إلى درجة كبيرة، وكان ذلك عاملا مساعدا للدولة العثمانية كي تتحرك من جديد لإنقاذ بغداد من السيطرة الصفوية.

3. حملة السلطان مراد الرابع لاستعادة بغداد:

كانت مسالة استعادة بغداد بالنسبة للسلطان امرا يحتل اهمية كبرى، خاصة وان سيطرة الصفويين لتلك المدينة، قد شجعهم على مد تحرشاتهم إلى بعض المناطق الشرقية في الاناضول. وقبل أن يباشر مراد بمشروع الحملة على بغداد، قاد جيشه في ربيع سنة 1635م متوجها نحو الاقسام الشرقية من اسيا الصغرى لإبعاد الصفوين من المدن التي كانت ضمن حدود الدولة العثمانية والتي دخلوها مستغلين فترات الفوضى التي عانت منها الدولة. وما أن حلت سنة 1638، حتى شرع مراد بالتوصية لإعداد حملة لاستعادة بغداد من ايدي الصفويين، وبدأت الاستعدادات في الاناضول للحملة التي كلف بها الصدر الاعظم بايرام باشا التي شملت الذخائر، وتوفير مستلزمات النقل البري والنهري وتم انشاء 800 مركب مائي، فضلا عن توفير مخازن تموينية رئيسة لإسناد الحملة واقعة في بير جك وديار بكر والموصل بشكل خاص لكونها واقعة بالمحور المؤدي الى بغداد.

اشرفت الاستعدادات المتعلقة بحملة استرداد بغداد على نهايتها في اوائل شباط 1638م، وامضى الجيش في اسكودار مدة تسعة وعشرين يوما، تم في اثنائها انجاز مختلف الامور المتعلقة بحركات الحملة واختيار الطريق الذي ستسلكه القوات ومناطق راحتها، وقد قسم الطريق ما بين اسكدار وهدف الحملة النهائي، بغداد، إلى مائة واحدى وعشرين مرحلة خلال خمسة عشر يوما، ثم تتوقف للراحة في محطات اعدت مسبقا. كان هدف السلطان من وراء هذا التقسيم المحافظة على النظام وروح الضبط في الجيش وعدم ارهاقه لحين الاطباق على الهدف المحدد، وتمشيط ودراسة الاوضاع العامة في مناطق الدولة التي تمر منها قوات الحملة واقرار الامن والاستقرار فيها. وعلى امتداد سير الحملة، وجهت عناية خاصة لحالة الطرق وتحسينها.

تحركت الحملة من اسكودار في 8 ايار 1638، وبعد ان قطع عدة مراحل توقف في جافيد خاني، التحق بالجيش بلغار احمد باشا، بيك طرابلس السابق، وواصلت القوات تقدمها فوصلت الى كوك ميدان بالقرب من حلب، في 11 تموز، حيث استراحت فيها القوات العثمانية مدة ستة عشر يوما، وفي هذا الموقع انضم إلى قوات الحملة جيش من مصر يقوده رضوان بك، وقد بلغ عدد هذا الجيش 1500 رجل ارسلهم والي مصر سلطان زاده، مساهمة مع السلطان لاسترداد بغداد.

وصلت القوات العثمانية الى بيره جك قرب نهر الفرات في 19 تموز، ومكثت فيها خمسة ايام، وفيها اتخذت الترتيبات لعبور الجيش نهر الفرات، فبني جسر من اربعين طوافة عبرت عليه القوات العثمانية، في حين عبر السلطان إلى الجانب الثاني في زورق خاص يرافقه المفتي يحيى افندي، وفي خلال فترة التوقف هذه، تم نصب خمسة مدافع كبيرة، اثنان منها بحشوة عشرين اوقية من البارود وثلاثة بحشوة ثمانية عشر اوقية، كما التحق بالجيش في هذا الموقع بكلر بيك سيواس واسير بوزاوق شمس بك زادة، وفي موقع قريب، تم بناء ثمانمائة زورق لنقل الذخيرة والتموين. واصل السلطان سيره وبعد اسبوع واحد، وصل الجيش إلى منطقة جلاب، وفيها توفى الصدر الاعظم بيرم باشا،

وعين لمنصب الصدارة العظمى والي الموصل، طيار محمد باشا، وعين بصفة مؤقته قره مصطفى باشا.

وصل الجيش إلى ديار بكر في 14 ايلول، وكان في استقباله امير الصحراء ابن ابي ريشة، وعسكر فيها لمدة تسعة ايام. واثناء وجود الجيش في ديار بكر التحق بالسلطان الصدر الاعظم الجديد، على راس جيش كبير، وقبل التحرك نحو الموصل، جرى تنظيم السير بحيث يكون كل من أمير الصحراء ابن أبي ريشة وباشوات حلب وطرابلس الشام على مقدمة الجيش، تحت امرة والي ديار بكر درويش باشا، وامرهم بالتوجه نحو بغداد كقوة استطلاعية. وفي منطقة حكمية، والتي وصلها الجيش، قدم عرب البادية إلى مقر القيادة وهم يصحبون خمسمائة اسير من القزلباش اسروا قرب بغداد وقد امر السلطان بإعدامهم جميعا، وبعد مرحلتين أي في كفر زمان، جرى عبور نهر دجلة بدون جسر، ودخل الجيش العثماني مدينة الموصل، وعسكرت فيها القوات للراحة واتخاذ الاجراءات النهائية لمدة عشرة ايام، وفي الموصل استقبل السلطان سفيرا من ملك الهند، وهو يحمل رسالة إلى السلطان مع هدايا ثمينة. وإن السبب في تلك السفارة، يعود إلى سماع ملك الهند بنبأ حملة السلطان ضد الصفويين لاسترجاع بغداد، ولذا فقد اشار ملك الهند في كتابه المرسل إلى السلطان انه بدوره قد حشد قواته لمهاجمة قندهار واستعادتها من الصوفيين، وقد كان لهذا النبأ وقع طيب في القيادة العثمانية. ثم غادر الجيش العثماني الموصل زاحفا إلى بغداد فوصل كركوك، التي امضت فيها القوات يوما واحدا للراحة، ثم تحرك الجيش من كركوك وصل الى طاش كوبري، حيث امر الجيش بالتحشيد والراحة ليوم واحد، وهنا وصل إلى السلطان خبر انتصار حاكم اخسخة، سفر باشا، على حاكم روان الصفوي، واستولت على ذلك الموقع، كما وصلت أيضاً انباء نجاح الغارة العثمانية على منطقة شهرزور.

عبر الجيش العثماني بعقوبة ثم بهرز، ووصل بغداد في 15 تشرين الثاني، وبدأت اجراءات فرض الحصار على المدينة. مما يلاحظ ان السلطان قد حشد قواته على الجهة الشرقية من بغداد، لان استحكامات الصفويين في هذه الجهة كانت ضعيفة، لاعتقادهم ان

السلطان سيهمل هذا الجانب كما فعل قادة الحملات السابقة. وقد وصلت المدافع العثمانية التي رافقت الجيش عن طريق البر، فوزعت على الفور على جميع الجبهات. بوشر بالقتال بين الطرفين ويظهر من مجريات المعارك ان الغلبة كانت للجيش العثماني، وكانت المدفعية العثمانية قد اثبتت تفوقها في ضرب الجيش الصفوي، ففي بواكير اليوم الثالث انطلقت المدافع من ثلاث جبهات لقصف الاسوار. وتواصل القتال خلال اليومين اللاحقين، وقد اشتد قصف المدفعية من الجانبين. وفي اليوم الرابع من الحصار ارسل السلطان بعض قواته بقيادة شاهين باشا لترابط في اطراف ديالى لتكون قوة دفاعية، ولتقطع الطريق على القوات الايرانية في حالة زحفها نحو بغداد لإمداد الحامية المحاصرة. ونتيجة لعجز القوات الصفوية من فك مساعدة الحامية المحاصرة طلب الشاه عقد الصلح مع الصدر الاعظم لكن السلطان رفض عقد الصلح. وفي اليوم الثامن من الحصار أي في 23 تشرين الثاني كانت المتاريس العثمانية قد وصلت بالقرب من الخندق، في وقت تهدمت فيه الكثير من الابراج بفعل قصف المدفعية العثمانية. وجرت في البداية مناوشات بين الطرفين اسفرت عن اسر اثني عشر صفويا، امر السلطان بإعدام اربعة منهم في الحال. وفي نفس اليوم قام الصدر الاعظم طيار محمد باشا بهجوم مباغت اسفر عن احداث ثغرة في جانب الباب الابيض من سور بغداد بطول ثمانين ياردة. وقد استطاعت المدفعية العثمانية احداث تدميرا بالغ في تحصينات اسوار بغداد اذ نجحت في تدمير سورين من اسوار بغداد، وكما استمر القتال بين الطرفين بدون انقطاع معتمدا على القصف بالمدافع وتبادل النيران. واشترك مع القوات العثمانية في فرض الحصار على بغداد امير العرب (أبو ريشة) الذي كان يقود قافلة مؤلفة من عشرة الاف جمل محمل بالأرزاق للجيش، وفي اثناء ذلك تقدمت قوات الشاه نحو ديالى لكن قوات السلطان تقدمت لصد هذه القوات التي انسحبت فيما بعد لسماعهم بنبأ وصول القوات العثمانية.

شن الصدر الاعظم في 24 كانون الاول 1638 هجوما كاسحا على بغداد ومن جميع الجهات، وقد قتل الصدر الاعظم اثناء الهجوم، فتولى القبودان مصطفى باشا منصب

الصدارة العظمى، الذي استأنف القتال، وبدأ هجوم القوات العثمانية من الخنادق التي كانوا يتحصنون بها، وتمكنت القوات العثمانية من السيطرة على كافة الابراج والسيطرة على بغداد في يوم 25 كانون الاول بعد حصار اربعين يوما. ونتيجة لذلك تقدم الحاكم الصفوي لبغداد (بكتاش خان) ليسلم نفسه إلى السلطان وطلب منه بإخلاء القلعة وتوجيه الكتب والرسل إلى بقية الضباط الصفويين للإعلان استسلامهم وتسليم القلعة. كما وافق مراد الرابع على منح الامان للحامية الصفوية وفق شرطين:

1. اخلاء بغداد من الصفويين في الحال.
2. ان المحاصرين مخيرون بين الالتحاق بالشاه أو الانضمام الى الجيش العثماني.

ما ان بدأ الجيش العثماني بالتدفق الى داخل بغداد حتى عاد القتال من جديد بين الطرفين، فأصدرت الاوامر من السلطان بقتل كل من يريد المقاومة من جانب الجيش الصفوي من القرلباش. وعلى اثر سيطرة القوات العثمانية على بغداد والقضاء على المقاومة الصفوية، صدرت الاوامر بالمحافظة على حياة السكان المدنيين، وعدم نهب ممتلكاتهم.

المفاوضات العثمانية ـ الايرانية
وعقد معاهدة زهاب أو معاهدة قصر شيرين الحدودية:

ترك الصدر الاعظم بغداد في 15 اذار 1639م وبالقرب من شهربان استقبل الصدر الاعظم وفدا ايرانيا برئاسة محمد قولي خان، الذي اجتمع مع الصدر الاعظم في 23 نيسان 1639م غير أن هذا الاجتماع لم يؤد إلى نتيجة، فقرر عقد اجتماع اخر في موضع يقال له قزلرباط.

اثار الصدر الاعظم في هذا الاجتماع مشكلة التحشيدات الصفوية في الحدود الشرقية، وسيطرة الصفوين على بعض القلاع التي تشكل مصدر خطر للدولة العثمانية،

واخيرا اشار الصدر الاعظم على الوفد الصفوي، انسحاب القوات الصفوية من درتنك ودرنة واعتراف الشاه بتبعية قلعة قارص للدولة العثمانية، كشرط اساسي للدخول في مفاوضات للصلح. رجع الوفد الصفوي لعرض وجهة النظر العثماني على الشاه صفي الصفوي، إلا أن الصدر الاعظم ارسل رسالتين الأولى إلى رستم خان قائد الحامية الصفوية في درتنك ودرنة، والثانية إلى الشاه صفي طالبا رد جواب الأولى في ثلاثة ايام، والثانية في ستة ايام. وقد تناهت للصدر الاعظم اخبار انسحاب القوات الصفوية من درتنك، فتقدم الجيش العثماني نحو خانقين وفي موضع يقال له زهاو وصل المندوب الصفوي صاروخان في 14 ايار 1639م حاملا موافقة الشاه صفوي على المطاليب العثمانية واستعداد بلاده لإنهاء الخلافات بين الدولتين.

بدأت الجلسات الصفوية – العثمانية الأولى برئاسة صاروخان والعثمانية برئاسة الصدر الاعظم مصطفى باشا، وبعد مناقشات طويلة تم الاتفاق التام بين الطرفين على انهاء النزاع حول الحدود. بعد تطابق اراء الطرفين حول النقاط المطروحة على بساط البحث، وقع المندوبان على محضر الجلسات في 17 ايار 1639م، وباللغتين التركية والفارسية، ثم جرى التصديق على المعاهدة من قبل الدولتين في السنة نفسها اذ صادق عليها الشاه صفي في 21 ايار 1639 ثم ارسلت للسلطان مراد الرابع فوقعها في 3 حزيران من العام نفسه، واعتبرت المعاهدة نافذة المفعول من تاريخ التوقيع، واستمرت سارية المفعول دون اعتراض من الجانبين لفترة طويلة من الزمن. وقد نصت على تكون بغداد والبصرة والموصل وكردستان الغربية وشهرزور من نصيب الدولة العثمانية، في حين تكون اذربيجان الشرقية وراوندوز وارمينيا الشرقية وبلاد الكرج من نصيب الدولة الصفوية.

إن معاهدة زهاب تعتبر أول معاهدة بين الطرفين بالمعنى الصحيح من حيث اقرار الحدود وتعريفها بشكل واضح، وتأشيرها المناطق العائدة إلى كل جانب ويجدر بنا أن نشير إلى النقاط التالية التي اتسمت بها هذه المعاهدة:

1. امتازت هذه المعاهدة بانها حددت مناطق الحدود الممتدة من الشمال حتى الجنوب بعكس المعاهدات السابقة التي اقتصرت على تحديد جزء معين من الحدود مثل معاهدات 1555م، 1568م، 1590م، 1613م، وهي معاهدات لم تعط تعريفا واضح للحدود بين الدولتين، وكل ما يستفاد منها، بانها كانت توفر حالة من الاستقرار والامن في مناطق معينة من الحدود.
2. المعاهدة اخذت بنظر الاعتبار العامل الطبيعي في رسم الحدود بين الدولتين.
3. فرض الجانب العثماني شروطا معينة لعقد الصلح منها هدم بعض القلاع الواقعة على الحدود، وهذا يعني أن العثمانيين كانوا ينطلقون في مفاوضاتهم مع الجانب الصفوي من منطق القوة.
4. إن معاهدة زهاب كغيرها من المعاهدات التي تعقد بين دولتين اسلاميتين يغلب عليها الطابع الديني، وقد وردت في المقدمة الاية الكريمة ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وفي الخاتمة وردت الاية الكريمة ﴿ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً ﴾ وقد اشار الطرفان في الخاتمة إلى انهما سيلتزمان ببنود المعاهدة، وكل من يخالف هذه المعاهدة سيقع عليه اثم عظيم وانه مسؤول امام الله.
5. شطرت هذه المعاهدة بعض العشائر الكردية مثل عشيرة الجاف، إلى شطرين بحيث بقي قسم منهم في الجانب العثماني واخر في الجانب الصفوي فقد بقيت عشيرة ضياء الدين وهاروني، وهما فرعان من الجاف في الجانب العثماني بينما ظلت بيره وزودى من نفس العشيرة في الجانب الايراني وقد اصبحت هذه العشيرة نتيجة لهذا لتقسيم مصدر متاعب لكلتا الدولتين.
6. اهملت هذه المعاهدة الاشارة إلى طبيعة الحدود بين العراق وايران في المناطق الجنوبية، وبوجه خاص منطقة عربستان التي اصبحت فيما بعد من المناطق المتنازع عليها بين الدولتين العثمانية والصفوية.

7. إن معاهدة زهاب اوجدت بعض الهدوء والاستقرار النسبيين على الحدود بين الدولتين استمر حتى بداية القرن الثامن عشر، ولم يكن الباعث على هذا الهدوء والاستقرار رغبة الفريقين الالتزام ببنود المعاهدة نصا وروحا، بل لانشغالهما بمشاكلهما الداخلية وحروبهما في الجهات الأخرى.
8. نصت المعاهدة على دخول (درتنك ودرنة) في حكومة بغداد مع أن هاتين المنطقتين كانتا ضمن ولاية بغداد، وقد فرط العثمانيون بهما عندما تنازلوا عنهما بموجب معاهدة سراو عام 1618م وان اعادتها تصحيح لحالة غير طبيعية على الحدود.
9. لقد فرط العثمانيون بأراضي عراقية عندما تنازلوا عن مهروان (مهربان وتوابعها) للدولة الصفوية، وهذه المنطقة كانت ضمن ولاية شهرزور، وقد اعترفت الدولة الصفوية بتبعيتها للعراق بموجب معاهدة 1590م.

ـ الاوضاع في العراق بين(1638 ـ 1704):

قبل استعراض اوضاع العراق خلال العهد العثماني الثاني لابد من تبيان الميزات العامة التي امتاز بها الحكم العثماني، وايضاح الظروف السيئة التي عاشها العراق خلال هذا العصر. لقد سببت سنوات الاحتلال الصفوي وحروب الاسترداد العثمانية الكثير من الدمار والخراب في بغداد. وقد تميز تاريخ ولاية بغداد حتى اوائل القرن الثامن عشر بالاضطراب وكثرة تغير الولاة، اذ حكم في الحقبة من 1639-1704 تسعة وثلاثون واليا، لم يترك أي واحد منهم عند عزله أو نقله اثر يذكر باستثناء اربعة قام احدهم ببناء ثلاثة ابراج لسور بغداد وجامع الازبك، وبنى الثاني جامع الخاصكي، وقام الثالث بتطهير نهر الدجيل، اما الرابع فبنى مدرسة بالقرب من جامع القمرية. وقد ساعدت سرعة تغير الولاة على خلق حالة عدم

الاستقرار. ومن المظاهر الاخرى لهذا العهد، كثرة تمردات الانكشارية، واضطراب حالة الامن خارج اسوار المدن وادى ذلك الى نتائج اقتصادية سيئة في الزراعة والتجارة. ورافق ذلك كثرة الاوبئة والفيضانات والقحط التي اسهمت في تعطيل الفعاليات البشرية.

قام مراد الرابع بعد انجاز احتلال بغداد بالتوجه لزيارة مقام الامام الاعظم ثم زار مرقد الامام موسى الكاظم. ومن اجل تنظيم الادارة في بغداد اتخذ السلطان عدة ترتيبات، فعين كوجك حسن اغا الانكشارية واليا على بغداد، كما قرر ترك حامية مؤلفة من 8.000 جندي للمحافظة على بغداد، وعين على قيادتها بكتاش اغا، كتخذا الانكشارية، كما عين سلحدار باشا بمنصب القبودان، أمّا منصب قاضي بغداد فقد عهد به إلى مصطفى التذكره جي، وقيل اسمه تذكر جي موسى افندي. لقد كان هم الباشا الجديد هو ترميم اسوار بغداد التي تهدمت اكثر جوانبها اثناء حصار بغداد بفعل المدفعية العثمانية، والعمل على اعادة السكان الذين التجأوا فزعا إلى اطراف بغداد، غير أن حسن باشا عزل في 4 ايار 1639م، فحل محله درويش محمد باشا، وقد حدثت في الايام الأولى من حكمه اضطرابات عشائرية في منقطة السماوة، إذ قام امير الخزاعل مهنا بن علي بفرض سيطرته على السماوة واطرافها حتى منطقة الجوازر، فبعث درويش محمد باشا كتخداه علي اغا لضربهم، وقد سيطر هذا على هيت ثم توجه إلى السماوة ففرق جموع الثائرين وقتل كثير منهم، وعند رجوعه احتل العرجة التي اصبحت تحت نفوذ والي بغداد. وقد خلف درويش محمد باشا في حكم الولاية عام 1642م، كوجك حسن وللمرة الثانية، وقد قام ببناء ثلاثة ابراج قرب باب الامام الاعظم في المحل المعروف بـ (طابية ذي الفقار)، وشيد جامعا عرف باسم جامع عتيق حسن باشا تمييزا له عن جامع اخر يعرف بهذا الاسم والذي شيده وال بنفس الاسم، وجاء بعد عزل حسن باشا إلى حكم الولاية حسين باشا دللي، الذي كان من مرافقي السلطان مراد الرابع، غير أن حكم الباشا لم يستمر طويلا إذ عزل في عام 1644م بعد حكم دام اقل من ستة اشهر، وبسبب عزله وصول خصمه محمد باشا كوبرلو إلى الصدارة العظمى، وخلفه في حكم بغداد عام 1645م، محمد باشا ال حيدر الذي عزل هو الاخر بعد حكم دام سنة واحدة،

ليخلفه موسى باشا. ويعد النزاع العنيف الذي حدث بين الجيش الانكشاري والقوات المحلية في عهد ابراهيم باشا الذي تسلم حكم الولاية في ايلول 1646م، من الحوادث المهمة، والذي يدل على مدى ضعف سلطة الوالي وعدم انصياع الجيش الانكشاري لأوامره فقد نقم الجيش الانكشاري على ابراهيم باشا الذي اتهم انه يقرب القوات المحلية ويبذر عليهم الاموال، لذا كانوا ينتظرون الفرصة السانحة للتخلص من واليهم الذي يميز بينهم وبين القوات المحلية، وقد وجدوا تلك الفرصة عندما تناهت اخبار وفاة الصدر الاعظم صالح باشا الذي كان اكبر سند لإبراهيم باشا، فقرروا التخلص منه. لقد وجد ابراهيم باشا نفسه امام مأزق خطير، فخصومه في الباب العالي، سيسلكون كل السبل لإزاحته عن منصبه، هذا من جهة والجيش الانكشاري الغاضب عليه من جهة اخرى، لذا قرر مصالحة الانكشارية قبل فوات الاوان، غير أن وصول متسلم ولاية بغداد وهو يحمل فرمان عزله افسد عليه هذا المسعى. لقد رفض ابراهيم باشا مقابلة المتسلم، وقرر الدفاع عن ولايته معتمدا على القوات المحلية التي كانت تأتمر بأوامره، وهنا لجأ احمد اغا التنجي رئيس الانكشارية إلى خطة ذكية، فقد امر بعضا من الجيش الانكشاري الاحاطة بالسراي فذهب بنفسه إلى ابراهيم باشا، واعلمه أن الانكشارية يتهمونه بانه يحاول أن يستبد بحكم بغداد والخروج عن طاعة السلطان العثماني، وعندما انكر الوالي ذلك، طلب منه أن يذهب بنفسه إلى القلعة ليفهم الانكشارية بذلك، فقام الوالي فتوجه إلى القلعة، وعند دخوله القي القبض عليه، فوقع بذلك في الفخ الذي نسبه له احمد اغا التنجي رئيس الانكشارية ولم يستطع الجيش المحلي انقاذ الوالي بالرغم من الهجمات المتكررة على القلعة. يبدو إن هذه الخطة لم تكن من بنات افكار التنجي، وانما كانت من صنع دهاة العاصمة اسطنبول، بدليل أن الميراخور قد وصل إلى بغداد بعد ايام قلائل من القاء القبض على ابراهيم وهو يحمل فرمان اعدام الوالي المعزول، فنفذ به حكم الاعدام. وسرعان ما وصل والي بغداد الجديد موسى باشا السمين الذي كان شخصا مشهورا بالبدانة المفرطة، وكان أول عمل قام به أن أنزل جام غضبه على كل شخص يشك فيه بانه من انصار الوالي المعزول، واضطر كثيرا من سكان بغداد أن يلتجئوا إلى اطراف بغداد مخافة أن يصيبهم غضب الحاكم، لقد دفع هذا التصرف من قبل الوالي السكان إلى

تقديم شكوى إلى الباب العالي، فتشكلت لجنة للتحقيق في الامر، وعندما ثبت صحة ادعاء السكان استدعى موسى باشا إلى الباب العالي ونفذ فيه حكم الاعدام عام 1648م، فخلفه في حكم بغداد احمد باشا الذي لقب بـ (الملك) لسلوكه الحسن وفضائله وزهده في حياته اليومية، وحسن معاملته للناس، وخاصة الفقراء منهم الذين تلقوا كل عناية وحماية من لدنه، ترك احمد باشا حكم بغداد عام 1650م، وارتقى الصدارة العظمى في نفس السنة، وقرر منح بعض الاراضي الاميرية عن طريق الالتزام في ولاية بغداد. ويبدو أن الدافع وراء اتخاذ الصدر الاعظم هذا الاجراء هو عجز الخزينة العثمانية الذي بلغ إلى درجة، أن اضطرت الدولة إلى فرض ضرائب تصاعدية واستيفاء ضرائب سنتين مقدما من الولايات ولكن ذلك لم يؤد إلى نتيجة إذ تدهورت القيمة الشرائية للعملة العثمانية. ومعروف أن الاجراء السابق الذي اتخذه الصدر الاعظم بشان منح الاراضي الاميرية عن طريق الالتزام، كان ذو وجهين، الأول انه في صالح الخزينة العثمانية إذ يضمن مورد ثابت لها، أمّا الثاني فقد تضرر الفلاحون منه بسبب جور الملتزمين وقساوتهم في جمع الضرائب والرسوم، لكي يحققوا الارباح التي يبغونها، دون أن يعيروا ادنى التفاته إلى الكوارث الطبيعية التي تحدث بين آونة واخرى والتي تؤثر على كمية المحصول ويجبر الفلاح على ترك قريته في حالة عجزه عن دفع الضرائب والرسوم المفروضة عليه من قبل الملتزم، جاء إلى حكم بغداد سنة 1650م، ارسلان باشا نغاى زادة الذي مات بمرض الزحار بعد حكم دام اقل من ستة اشهر، ولم يكن خلفه حسين باشا احسن حظا منه، إذ مات هو الاخر بالمرض نفسه بعد ستة اشهر أيضاً.

وفي عهد الوالي قره مصطفى باشا الذي قدر له أن يكون واليا على بغداد ثلاث مرات متباينات، زار الرحالة الفرنسي تافرنيه بغداد عام 1652م الذي ذكر أن المدينة ساذجة البناء، لا جمال فيها اللهم إلاَّ إذا استثنينا اسواقها المسقفة، ووجد في المدينة خمسة جوامع، وعشر، خانات بناءها قديم ما عدا اثنين منها ينال المسافرون فيها قسطا من الراحة، وذكر أن تجارة المدينة واسعة ولكن ليست كما كانت في ايام الاحتلال الصفوي، وقدر عدد سكان بغداد بخمسة عشرة الف فقط، وهذا الرقم اقل بكثير مما ذكره المؤرخ الاقتصادي التركي

عمر لطفي بركان الذي قدر عدد سكان بغداد ما بين سنة 1570-1590م استنادا إلى الوثائق العثمانية بـ 39379 الف مسلم عدا البدو الرحل، واليهود والمسيحيين، ويجب أن لا نستغرب من ضالة هذا العدد، فالحروب التي شهدتها بغداد بين الجيوش العثمانية والصفوية خلال النصف الأول من القرن السابع عشر، والكوارث الطبيعية التي حلت بها، اضافة إلى ظلم بعض الولاة، وفي ايلول عام 1653م، جاء إلى حكم بغداد مرتضى باشا بعد أن حكم في ولايتي دمشق وارضروم، وقد عرف بنزعته الدينية واطعامه للفقراء وحبه لهم، وتواضعه مع الناس حتى احيط بهالة من التقديس، وشاعت حوله كثير من الروايات التي كانت تدور حول تواضعه، وقد جاءت نهايته عام 1655معندما اخفق في حملته على البصرة، فجاء من بعده اق محمد باشا (الابيض) عام 1655م الذي حكم سنة واحدة واربعة اشهر، وكان طوال مدة حكمه مريضا غير قادر على إدارة دفة الحكم، فاستغل الانكشارية ضعفه عليه، ولكن الباشا الابيض استطاع أن يستدرج قائدهم المدعو عبدي إلى مجلسه بحجة مصالحته، وعند جلوسه امر جلاده بقطع راسه. لقد اثار عمله هذا نقمة الانكشارية الذين صمموا على اخذ ثار قائدهم، وصادف ذات يوم أن خرج الباشا الابيض لإداء الصلاة في مسجد الامام الاعظم، فتصدى له اثنان من الانكشارية وشهرا بوجهه سيفهما، وتبعهما الكثير من الناس، فاضطر الوالي رغما عنه العودة إلى السراي لاتخاذ ما يلزم لقطع دابر هذه الفوضى، وفي هذه الاثناء وصل مبعوث سلطاني وهو الخاصكي حسين اغا للاطلاع على شؤون الولاية وعندما وجد الحالة المزرية، والفوضى الضاربة في بغداد اخبر السلطان العثماني محمد الرابع (1648-1687م) فاصدر هذا فرمانا خوله بموجبه اعادة الاوضاع إلى سابق مجراها. ولم يجد الخاصكي بدا من عزل محمد باشا الابيض ثم القضاء عليه فيما بعد، جاء الوزير محمد باشا الخاصكي إلى الحكم عام 1656م، والذي اشتهر بنزعته الدينية ورغبته المعروفة في تعمير المساجد واصلاحها، فبنى مكان كنيسة القديس يوسف المتهدمة جامعا يؤمه المسلمون واعلى قبته وبنى له منارة، وجعل طبقاته مقرنصة واتخذ له جدرانا قوية فسمي باسم جامع الخاصكي أو جامع نور سلحدار محمد باشا، وحدثت في عهده ثورة قامت بها بعض العشائر في منطقة الجوازر، فاقتضى الحال إرسال قسم من الانكشارية

لتأديبهم، غير أن فتنة خطيرة نشبت بين افراد الجيش المرسل قبل الوصول إلى الجهة المقصودة فانحل الضبط العسكري وتشتت شمل الجيش الذي بدأ ينسحب نحو بغداد. أمّا الخاصكي فقد ازعجته انباء الانشقاق في صفوف الجيش فاجتمع مع اغا الانكشارية وعرض عليه فكرة منع دخول الجيش المنشق إلى بغداد حتى يسلموا رؤوس الفتنة، فعلى هذا اغلقت ابواب المدينة وخيم الجيش الرابع حول السور ثلاثة ايام، ولكن شيئا حدث قلب الامور راسا على عقب، إذ حدث اتصال سري بين الجيش الراجع وبعض قادة الانكشارية في داخل بغداد والذين سهلوا فتح ابواب المدينة، فاندفع المتمردون إلى داخل المدينة التي اصبحت مسرحا للفوضى والاضطراب، أمّا الخاصكي فقد تسلل سرا إلى الجانب الغربي من بغداد فهرب تاركا بغداد تئن تحت رحمة ثلة من الانكشارية.

لقد حدث انقسام خطير بين الجيش الانكشاري المتمرد بعد هروب الوالي، فانقسموا إلى فريقين، فريق يرى ضرورة مصالحة الوالي وارجاعه إلى منصبه وفريق اخر يرى عكس ذلك واخيرا انتصر راي الفريق الأول وقبض على افراد الفريق الثاني، وتوجهوا إلى الوالي الذي كان في الكاظمية يلتمسون منه العذر عما بدا منهم فرجع الخاصكي وانزل جام غضبه بكبار المحرضين وقطع رواتب الكثير منهم، كما شهد عهد الخاصكي في عام 1656م فيضان مدمر كان أول حادث خطير دون عن غرق بغداد في العهد العثماني الثاني، ففي تلك السنة امطرت السماء امطارا وابلة وزادت مياه دجلة فغطت الزرع وتدفق سيل الماء إلى خندق بغداد العميق وتهدم برج الفتح (بالقرب من باب الطلسم) كما تهدمت ابراج اخرى في عدة اماكن وقد بذل الخاصكي كل ما في وسعه في تشييد ما هدمه الفيضان، وصرف من اجل ذلك اموالا كثيرة وانتهى حكم الخاصكي في منتصف صيف 1659م، وتلاه مرتضى باشا وللمرة الثانية، وكان مرتضى باشا منذ أن ترك بغداد قد ابلى بلاء حسنا في قمع الحركة الانفصالية التي كان يتزعمها اباظة باشا في منطقة الاناضول وقد اشترط عند تعينه حاكما على بغداد القيام بالأعمال التالي:

1. اعادة حفر نهر الدجيل الذي تراكم فيه الغرين.

2. جمع الواردات الرئيسية لخزانة الدولة.

3. إرسال مائتي كيس من الذهب إلى العاصمة مع كمية من البارود.

إن أول عمل قام به مرتضى باشا عند تسلمه الحكم هو جرد الخزينة وسجلاتها، فظهر له أن في ذمة الوالي السابق 600 كيس فاخبر الباب العالي ولما كان الوالي السابق من انصار الصدر الاعظم محمد باشا كوبرولو، فقد خفض المبلغ إلى مائتين وستين كيسا يدفع بإقراض لأجل غير معين. ثم انصرف مرتضى باشا إلى تطهير نهر الدجيل، فاصدر اوامره إلى حكام القرى والضواحي طالبا منهم تقديم العون البشري في تطهير النهر وقد تم تطهيره خلال ثلاثة اشهر وكان لهذا العمل تأثير كبير في بعض النشاط الزراعي، كما قام مرتضى باشا بأجراء اصلاحات مالية جديدة، فقد الغي ما كان يتقاضاه الموظفون والدفتريون من المخصصات السنوية البالغة اكثر من مائة كيس، كما ثبت الوارد والمصروف من الخزينة ودونهما في دفاتر خاصة، وكان هدفه من هذه الاجراءات هو تنفيذ ما وعد به عند استلامه باشوية بغداد، ويظهر انه عجز عن إرسال المبلغ المذكور فعمد على رفع سعر القرش من ثمانين بارة إلى تسعين بارة، فاثقل بذلك كاهل دافعي الضرائب والرسوم، ولكي يتقرب إلى المسؤولين في الباب العالي كان لا ينفك عن إرسال الهدايا إلى كبار رجال الدولة في العاصمة، وجاءت نهايته سنة 1661م حيث عزل عن منصبه ونقل إلى جزيرة كريت ولكنه رفض الاذعان لهذا الامر، واخيرا قتل بأمر السلطان.

جاء إلى حكم بغداد مصطفى باشا قنبور (الاحدب) ثم عزل في عام 1663م، فخلفه مصطفى باشا بمبوغ (القطان) الذي سرعان ما قضى نحبه، فجاء من بعده قره مصطفى باشا في العام نفسه، وفي عهده زار الرحالة الفرنسي ثيفنو بغداد وامضى فيها اسبوعا، وقد ذكر أن المدينة قليلة السكان بالنسبة إلى سعتها، واشار إلى أن الانكشارية يرتكبون الاعمال السيئة، وليس بمقدور قادتهم معاقبتهم، كما جلب انتباهه وجود عدد من المسيحيين في خدمة الباشا، وان بعضهم يعمل في تطبيب الناس بشفقة بالغة. وليس من بين الولاة الذين تعاقبوا على حكم بغداد بعد سنة 1664م، من يستحق الذكر إلاَّ عمر باشا الذي جاء إلى حكم بغداد

سنة 1678م، الذي قام بإجراء ترميمات في جامع الاعظم ومرقد الامام أبي يوسف، كما بنى المدرسة العمرية بالقرب من جامع القمرية، وعين لها مدرسين وخصص لها رواتب، وقد قام الوزير ابراهيم باشا الطويل الذي جاء إلى حكم بغداد سنة 1681م بكسر شوكة الانكشارية، عندما نفى فرقة اليساقجية من بغداد، التي كانت مصدر خطر وعبث وفوضى في الولاية.

لقد عانت بغداد كثيرا من سرعة تنقل الولاة من منصبهم، هذا التنقل الذي يخلق نوعا من عدم الاستقرار السياسي، إذ لا يتيح للوالي الفرصة الكافية للتفكير بأحوال ولايته، لذا لم يتسن لكثير من ولاة بغداد القيام بإصلاحات اقتصادية واجتماعية وثقافية، عدا البعض منهم مثل مرتضى باشا الذي اعاد حفر نهر الدجيل، وعمر باشا الذي اجرى تصليحات في بعض المراقد الموجودة في بغداد، بالإضافة إلى سرعة تنقل الولاة، فان الكوارث الطبيعية هي الأخرى كانت تعمل على ايجاد نوع من عدم الاستقرار، ففي عام 1649م، فاض نهر دجلة وكادت أن تغرق بغداد، كما حدث في عام 1693م فيضان مدمر اثر تأثيرا كبيرا على المزروعات التي اتلفت اكثرها، وانتشر في عام 1690م مرض الطاعون في بغداد واطرافها، وفتك بالناس فتكا ذريعا، واضطر بعض السكان النزوح إلى المناطق المجاورة، وانتهزت العشائر هذه الفرصة، فقامت بأعمال النهب والسلب. وقد بلغ التدهور الاقتصادي في العراق درجة بحيث ان علي باشا والي بغداد عام 1703 ارسل في طلب 400 كيس اقجة لدفع رواتب الجند المحليين بسبب عجز خزينة الولاية.

واذا اردنا أن نبحث عن الاسباب الكامنة وراء هذا التبدل السريع في ولاة بغداد، فعلينا أن نبحث عن بعضها في العاصمة العثمانية أولا ثم في الولاية ثانيا ويمكن أن نحدد هذه الاسباب بالنقاط التالية:

1. بعد أن كان حكام الولايات يعينون في بادئ الامر مدى الحياة أو ما دام سلوكهم حسنا، فان القانون الذي سنه السلطان مراد الثالث (1574-1595م)، كان يقضي بعزل حكام الولايات في كل ثلاث سنوات ثم خفضت هذه المدة

في النهاية إلى سنة واحدة، وبالرغم من أن هذه القاعدة لم تكن ثابتة فقد وجد بعض الولاة من حكم اكثر من سنة، إلاَّ أن هذا القانون كان له تأثيره السيء على سلوك الولاة.

2. لقد ترتبت نتائج خطيرة على الغاء نظام الدوشرمة، إذ تضاعف عدد المرشحين للوظائف العليا، ورفع من اقدار عدد كبير من الانكشارية الذين لم يتلقوا التدريب الصارم الذي كان يفرض في الايام الأولى، وقد دخل هؤلاء في صراع عنيف فيما بينهم، من اجل الوصول إلى الصدارة، واصبح لكل من هؤلاء انصار وحلفاء لذا كان حكام الولايات، يعيشون تحت عقدة الخوف من مؤامرات منافسيهم. والنتيجة الاخرى التي ترتبت على الغاء الدوشرمة أن اصبح لقب الوزير، يمنح بإسراف بعد أن تضاعف عدد شاغلي الوظائف العليا.

3. الصراع بين القوات المحلية والانكشارية، فكثيرا ما سبب هذا النزاع عزل الوالي أو قتله أو أن الوالي ينقل إلى منصب اعلى.

4. قلة كفاءة بعض الولاة، وجهلهم بأساليب الحكم والادارة وظلمهم للناس وان البعض من هؤلاء الولاة كان مريضا عاجزا عن إدارة دفة الحكم، فضلا عن دور العشائر العربية التي كانت تتباهى بعصيان الحكومة والخروج عليها، يبدو أن كل هذه الاسباب مجتمعة، كانت تعمل على سرعة نقل الولاة، وبالتالي فقدان الامن والاستقرار السياسي في ولاية بغداد.

ـ مقدمات الحكم الذاتي في العراق:

1.أسرة افراسياب في البصرة:

تعرضت الدولة العثمانية منذ نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر الى كثير من الازمات التي ادت الى تدهور وضعف سيطرتها على المناطق الخاضعة لها، وانعكس هذا الامر على **المناطق العراقية ايضا**، فازدادت الانتفاضات العشائرية، وتدهورت سلطة الولاة العثمانيين هناك، فدخلت العلاقات العثمانية مع تلك المناطق مرحلة جديدة لاسيما في البصرة، ذلك لان ضعف سلطة الولاة العثمانيين في البصرة قد ادت الى عجزهم عن السيطرة التامة داخل المدينة وخارجها، وفشلهم في درء الاخطار الخارجية التي تعرضت لها وكان حصيلة ذلك كله انحسار النفوذ العثماني عن المنطقة وقيام حكومة محلية في البصرة، ففي عام 1596 اشترى افراسياب البصرة لقاء ثمن بخس ثمانية أكياس رومية (يساوي الكيس الواحد ثلاثة الاف محمدي) على أن لا يقطع الخطبة عن السلطان العثماني، وان يدفع الضريبة السنوية للخزينة العثمانية، ويظهر أن افراسياب كان في وضع اقتصادي مرموق، فاستغل سوء الأوضاع الاقتصادية في البصرة فاقدم على شراء باشوتيها من علي باشا الذي شنق ساعة وصوله إلى الباب العالي. وقد استطاع افراسياب أن يكون اسرة مستقلة بالفعل في البصرة عن الدولة العثمانية، غير أن صلته لم تنقطع عن الباب العالي إذ كان يصرح في رسائله إلى اسطنبول بولائه للسلطان العثماني الذي كان عليه أن يرد على هذه الرسائل بأسلوب ينم عن تقديره لافراسياب. لقد ازدهرت التجارة في عهد افراسياب وفتحت ميناء البصرة للتجارة الاوربية، وفي عام 1623، طلب الشام عباس من افراسياب اعلان تبعيته له وسك النقود باسمه، وذكر اسمه في الخطبة، وان يتخذ الازياء الايرانية

ويكون مقابل ذلك واليا على البصرة ولا يقدم شيئا من الضريبة، وله كل ما اراد من صلاحيات محلية، ولكن افراسياب رفض ذلك بشدة، واعلن تمسكه بالبصرة.

لقد كان الشاه مصرا على السيطرة على البصرة لأسباب اقتصادية جوهرية لان البرتغاليين الذين اخرجوا من هرمز عام 1622 نقلوا نشاطهم التجاري إلى البصرة وتحكموا في تجارة القطيف والاحساء فلم يكن طردهم من هرمز في نظر الشاه كافيا، لكي تتركز التجارة الخارجية بيد الايرانيين، ثم أنهم كانوا يفتقرون إلى اسطول بحري يستطيع التحكم في مياه الخليج العربي، فرأوا أن الحصار البري عمل مجد للقضاء على النفوذ البرتغالي في البصرة، لهذا السبب امر الشاه عباس امام قلي خان حاكم شيراز بالتوجه إلى البصرة: "لمعالجة الاوضاع غير الاعتيادية فيها والتي ادت إلى توقف حركة بندر عباس التجارية"، وكان ذلك في عام 1624 غير أن امام قلي خان فشل في السيطرة على البصرة، لان السفن البرتغالية بدأت تطلق النيران على الجيش الفارسي الذي كان يفتقر إلى مثل هذه السفن. لذا قرر إمام قلي خان الهجوم على البصرة مرة ثانية في اذار عام 1625 فزحف أولاً على الحويزة التي هرب حاكمها إلى البصرة مع قواته البالغة خمسين رجلا. لقد كان على حاكم البصرة علي باشا افراسياب الذي اعقب والده عام 1623م، أن يواجه هذا الخطر بمفرده خاصة وان القوات الايرانية كانت تسيطر على بغداد والحلة وكربلاء، فمن الصعوبة على الدولة العثمانية أن تمد يد المساعدة له، ثم انها منهمكة بمشاكلها الداخلية. لذا فقد طلب علي باشا أن يقدم كل بيت رجلا مسلحا لمواجهة الهجوم الصفوي وبالفعل استطاع أن يعبئ البصريون تعبئة كاملة للدفاع عن مدينتهم فقد نجح علي باشا افراسياب في منع الصفويين من العبور إلى الساحل الغربي من شط العرب، بعد أن ثبت بقواته التي كانت تضم قبائل عربية يزيد عددها على سبعمائة شخص مسلح، ثم جرت مصادمات عنيفة بين الطرفين يوم 16 آذار 1625م اشتركت فيها السفن البرتغالية الموجودة في البصرة باعتبار أن الصفويين عدو مشترك للطرفين، غير أن القوات الصفوية انسحبت فجأة في 23 آذار بناء على اوامر مستعجلة من الشاه. لقد كان الرحالة الهولندي بترو دي لا فالا في البصرة في هذه الفترة، ويذكر انه لم يكن

هناك أي خطر حقيقي على البصرة نفسها لان الخنادق والحفر المنتشرة حولها كانت مملوءة بالماء ولا يتوقع أن ينحسر عنها قبل مدة ثلاثة اشهر تقريبا، ثم يذكر أن علي باشا رجع إلى البصرة في 5 نيسان 1625، ويبدو أن سبب بقاء علي باشا خارج المدينة راجع إلى خوفه من أن يكون هذا الانسحاب الفجائي خدعة عسكرية من قبل الصفويين لكي يقوموا بهجوم مباغت على البصرة مرة اخرى.

لقد اخذت الدولة العثمانية تفكر بشكل جاد بالقضاء على امارة افراسياب لاسيما بعد وصول السلطان القوي مراد الرابع لعرش السلطنة الذي كان عازما وضع حد لهذه الاسرة التي اصبحت لها مكانة ممتازة في البصرة، كما انها لم تشارك في حملة السلطان مراد الرابع وقيل أن مراد كان عازما على القضاء على هذه الاسرة اثناء حملته الشهيرة على بغداد غير أن هطول امطار كثيرة هي التي انقذت البصرة من جيوش مراد الرابع. ثم حاولت الدولة العثمانية عام 1640 القضاء على اسرة افراسياب عندما قدم سكان العرجة عريضة إلى والي بغداد درويش يطلبون فيها الانضمام إلى باشوية بغداد بدلا من البقاء تحت حكم علي باشا افراسياب فارسل درويش محمد ثلة من جيشه نجحت في ضم العرجة لدائرة نفوذ باشا بغداد. وفي عام 1645 بدأ علي باشا افراسياب بالتحرش بحدود ولاية بغداد، إذ سيطر على قلعة الزكية الواقعة على الحدود، فبعث موسى باشا الصغير والي بغداد حملة عسكرية سيطرت على القلعة المذكورة واستولت على بعض القرى التابعة للبصرة.

إن قيام علي باشا افراسياب بالتحرش بحدود ولاية بغداد فضلا عن تحسن علاقته مع الدولة الصفوية، كانت تزعج الدولة العثمانية، التي اخذت تتحين الفرص لإزالة هذه الاسرة من الوجود، وقد وجدت تلك الفرصة عندما انفجر الصراع في اسرة افراسياب عام 1653، أمّا سبب هذا الصراع، فالمصادر العثمانية تشير إلى رغبة حسين باشا في التوسع على حساب الاراضي المجاورة ومحاولته في ضم الاحساء تحت حكمه، غير أن هذه الرغبة، كانت تلقى معارضة شديدة من قبل عميه احمد بيك وفتحي بيك المدعومين من قبل العشائرية العربية، وقد استعمل حسين افراسياب خطة بارعة للتخلص من مشاكلهم إذ دعاهم إلى الاجتماع

لغرض تلافي ما حصل، وما أن اجتمعا به حتى القى عليهما القبض ونفاهما الهند، غير أنهما استطاعا الافلات من ايدي الحراس والالتجاء إلى حاكم الاحساء محمد باشا، ومن هناك كتبا إلى مرتضى باشا والي بغداد يخبراه بما فعله بهما حسين باشا افراسياب، فاسرع هذا واخبر الباب العالي الذي اصدر فرمانا بتعيين مرتضى باشا قائدا للحملة الموجهة إلى البصرة.

ارسل مرتضى باشا قبل تحركه كتخداه رمضان اغا على راس حملة صغيرة كفرقة استطلاعية ثم تبعه هو حتى وصل إلى العرجة، ومنها إلى البصرة، فدخلها دون أية مقاومة لان حسين باشا افراسياب حاول أن يشكل جيشا دفاعيا من الاهليين، غير انه فشل في ذلك، فاضطر الهرب إلى بهبهان. دخل مرتضى باشا البصرة، واستقبل استقبالا رائعا من قبل الاهالي والاعيان والاشراف الذين قدموا ولاءهم له واصبح احمد بك حاكما على البصرة. وقد بدأ مرتضى باشا أولاً بمصادرة اموال حسين باشا واموال ابيه علي باشا واولادهما واحفادهما واودعهما في مكان يقال له (قبان)، وقد دفعه الجشع إلى قتل احمد بيك وفتحي بيك ومصادرة اموالهما. عندما انتشر نبأ اغتيال احمد بك وفتحي بك، هبت العشائر التي كانت تساندهما تهاجم قوات الباشا التي لم تصمد امام هذه الهجمات، التي اتخذت طابع حرب العصابات إذ كانوا يفاجئون هذه القوات ليلا ويلحقون بها خسائر فادحة، متخذين من الاهوار مراكز لانطلاقهم، مما ادى الى انسحاب القوات العثمانية، ويظهر لنا هذا، مدى تعلق سكان البصرة والعشائر بأحمد بك وفتحي بك، وحبهم لهما.

بعد انسحاب مرتضى باشا من البصرة رجع حسين باشا لحكم البصرة من غير ذكر لأية مقاومة ضده من قبل الاهالي وذلك لسوء سياسة مرتضى باشا، ولم يكن من المتوقع أن يترك حسين افراسياب، والي الاحساء محمد باشا دون عقاب والذي كان له دور كبير في تحريض عميه احمد بك وفتحي بك في الخروج عليه، ففي سنة 1664م استطاع أن يستميل براك رئيس عشيرة بني خالد إلى جانبه واتفق معه على طرد محمد باشا والي الاحساء، لقد استطاع براك أن يسيطر على الاحساء بفضل المساعدة التي تلقاها من حسين افراسياب الذي ارسل جيشا بقيادة امير سلمان، غير أن براك بعد طرده محمد باشا تمرد على حسين افراسياب

ورفض تبعيته له، فقاد حسين باشا افراسياب حملة عسكرية على الاحساء وضمها إلى امارته. اتخذت الدولة العثمانية من تجاوزات حسين افراسياب على الاحساء حجة لتجريد حملة ثانية على امارة افراسياب.

اصدر الباب العالي الفرمانات إلى ولاة ديار بكر ابراهيم باشا والرقة صاري محمد باشا ووالي شهرزور كنعان باشا يأمرهم فيها بالانضمام إلى الحملة التي سيقودها ابراهيم باشا الطويل ضد امارة الفراسيان عام 1665. وقد بلغ عدد افراد الحملة خمسين الف مقاتل اضافة إلى عدد من بيكات الاكراد الذين جاءوا بقواتهم غير النظامية، وقبل تحرك الحملة كتب ابراهيم باشا كتابا إلى حسين باشا افراسياب يطلب فيه الانقياد والطاعة له غير أن حسين باشا رفض ذلك بكل اصرار واتخذ الاستعدادات اللازمة للدفاع عن مدينته بعد أن ارسل عياله وامواله إلى ايران، وتحصن في قلعة القرنة القوية.

تحركت الحملة من بغداد وعيون ابراهيم باشا ترنو إلى الطريق منتظرة وصول خبر استسلام حسين باشا الفراسيان، ولكن هذا الشيء لم يحصل، حتى وصل بالقرب من البصرة وخيم في محل يسمى المنصورية، وقد جرت هناك مناوشات بين القوات العثمانية واتباع حسين افراسياب الذين صمدوا امام هجمات الجيش العثماني الذي كان يحارب في ارض وعرة ذات شعاب كثيرة ووعرة المسالك، يصعب على جيش غير معتاد على القتال في مثل هذه المناطق أن يحرز انتصارا حاسما.

لقد وسع حسين افراسياب دائرة تحركه العسكري، وبدأ يشن هجمات مباغتة على مناطق مختلفة من البصرة، ولم تسلم من هذه الهجمات السفن التجارية التي كانت راسية في شط العرب والتي كانت تقع غنيمة بيد اتباع حسين باشا افراسياب الذين كانوا يعانون من قلة الارزاق.

إن هجمات اتباع حسين باشا افراسياب على السفن التجارية، قد شلت الحياة الاقتصادية داخل البصرة التي اصبحت مسرحا للفوضى والاضطراب بسبب عدم وجود حاكم يدير امرها، فاجتمع الاهلون وكتبوا إلى قائد الجيش العثماني يطلبون فيه إرسال من ينوب عنه في حكم البصرة، فارسل صولاق حسين، الذي ما أن دخل البصرة حتى وجد نفسه في مأزق

خطير إذ حدث انقسام حاد بين التجار والاهالي حول دعوة صولاق حسين إلى حكم المدينة، فضلا عن اتصال محمد بن بداق احد المعارضين لتسليم البصرة الى العثمانيين بحسين باشا افراسياب طالبا معونة عسكرية لقيادة حركة مضادة داخل البصرة فوعده حسين باشا افراسياب بذلك، وبدأ محمد بن بداق بجمع اتباعه القليلين، غير أن حركته اُفشلت بعد ساعات قلائل من قبل التجار والشيوخ المعارضين لحكم اسرة افراسياب، الذين فتكوا بمحمد بن بداق واتباعه وسيطروا على شوارع البصرة ، غير أن هؤلاء الذين استمتعوا بنشوة النصر كانوا قد تركوا ابواب البصرة مفتوحة على مصارعيها، مما فسح المجال امام اتباع حسين باشا القيام بهجوم على مداخل المدينة وقتل كل من يصادفهم ونهب ما يحتاجونه من اموال.

في هذه الفترة كان حسين افراسياب قد تلقى مساعدة من الحويزة، كما انضم اليه عدد من شيوخ العرب الناقمين على حكم العثماني خاصة شيوخ عشائر المنتفك التي كانت تسيطر على ضفتي الفرات حتى القرنة والجزء الاكبر من البطائح، لم يستطع الجيش العثماني خلال ثلاثة اشهر أن يحقق أي نصر على حسين باشا افراسياب الذي تحول من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم خاصة بعد أن أحكم سيطرته على الخطوط الحربية للجيش العثماني المحاصر الذي اصبح هو الاخر محاصرا حصارا نصفيا من قبل العشائر العربية المنتشرة في الاهوار ذات المتاهات والشعاب الكثيرة. لقد مل الجيش العثماني هذا الوضع المزري وانحل الضبط العسكري لدى افراده وهبطت الروح المعنوية إلى درجة أن اقدم ابراهيم باشا والي ديار بكر على فتح باب المفاوضات مع حسين باشا افراسياب دون علم قائد الجيش العثماني، فاتفق الطرفان على شروط بسيطة، مفادها أن تبقى حكومة البصرة بيد الاسرة نفسها، على أن تنقل من حسين إلى ابنه افراسياب، وان يذهب حسين باشا نفسه إلى مكة، وان يرفع إلى السلطان اعتذارا رسميا عما صدر منه، وان يعود محمد باشا إلى حكم الاحساء، وترجع الغنائم إلى السكان، وتدفع الجراية السنوية المترتبة بذمته في الحال إلى الخزينة العثمانية.

بدأت القوات العثمانية بالانسحاب متوجهة نحو بغداد بعد أن تكبدت خسائر فادحة، أمّا حسين باشا افراسياب فقد ارسل يحيى اغا إلى الباب العالي وهو يحمل اعتذاره عما بدا

منه من تصرفات تجاه السلطان، عندما وصل يحيى إلى العاصمة التقى هناك بوفد بصري من اسرة الكواوزة، يضم احمد بن محمود وابراهيم بن علي واشخاصا اخرين، وحصل تواطؤ بين يحيى اغا والوفد البصري على خلع حسين باشا، فعرضوا الامر على السلطان العثماني الذي وافق على خلع حسين باشا افراسياب وتعيين يحيى اغا حاكما على البصرة.

اصدر الباب العالي امرا إلى الوزير قرة مصطفى باشا والي بغداد، لقيادة حملة عسكرية على البصرة 1667، كما امر ولاة ديار بكر ابراهيم باشا ومحافظ شهرزور كنعان باشا ومير ميران الموصل موسى باشا ودلاور باشا أمير الرقة بالالتحاق بقواتهم النظامية بالحملة المذكورة.

لقد ادرك قره مصطفى باشا الاخطاء التي وقع بها ابراهيم باشا، فعمل على تلافيها إذ جهز الحملة بمدافع ضخمة التي كان تأثيرها كبيرا على قوات حسين باشا افراسياب. وقد ترك قره مصطفى باشا بعد أن ارسل مدافعه الثقيلة عن طريق نهر دجلة إلى البصرة – بغداد في 24 تشرين الثاني 1667، فمر بالإسكندرية ثم كربلاء حيث زار قبر الامام الحسين (ع) ثم توجه إلى الحلة ومنها إلى النجف الاشرف حيث زار قبر الامام علي (ع) ثم الرماحية ومنها إلى العرجة حيث عقد هناك اجتماعا حربيا، وبعد مناقشات طويلة استقر الرأي على القيام بهجوم عام ومن جميع الجهات على اتباع حسين باشا افراسياب وبعدها توجه قره مصطفى باشا إلى (كوت معمر)، وهناك جرت مناوشات طفيفة بين الجيش الزاحف والشيخ عثمان رئيس عشائر المنتفك التي تشتت شملها خلال ساعات قلائل، ثم واصلت الحملة زحفها حتى وصلت إلى المنصورية، وهناك عقد اجتماع اخر تقرر فيه أن يقود دلاور باشا حاكم الرقة الجناح الايمن أمّا حاكم الموصل وقائد قواد الانكشارية فعليهم تأمين عبور الجيش إلى الجانب الاخر من شط العرب.

بدأ الجيش العثماني يدك قلعة القرنة الحصينة بوابل من قذائف المدافع التي كانت تحصد اتباع حسين باشا افراسياب حصدا وتلقي الرعب في قلوبهم، ووفق الخطة المرسومة قاد دلاور باشا قائد الجناح الايمن هجوما مباشرا على مواقع اتباع حسين باشا افراسياب والحق بهم خسائر فادحة وغرق كثير منهم عند محاولتهم العبور إلى الجانب الاخر من شط الزكية.

اصبح حسين باشا افراسياب امام الامر الواقع، عندما، اقتربت القوات العثمانية من مقره، فلم يجد من وسيلة غير اللجوء إلى الحويزة، وقد قدر له أن لا يعود إلى البصرة مرة اخرى، هكذا زالت هذه الامارة من الوجود، فأصبحت البصرة تحت السيطرة العثمانية المباشرة، وعين يحيى باشا حاكما عليها، ورابطت فيها حامية عثمانية قدرت بألف وخمسمائة انكشاري اضافة إلى ثلاثة الاف من القوات المحلية.

لعبت امارة افراسياب دورا مهما في الاحداث السياسية المحلية، واصبحت لفترة طويلة مصدر ازعاج وقلق للدولة العثمانية التي كانت عليها أن تتعامل مع هذه الامارة بأسلوب مرن بسبب موقعها الجغرافي القريب من الدولة الصفوية، ويجب أن لا ننسى أن هذه الامارة تدين في بقائها هذه المدة إلى بعدها عن الدولة العثمانية أولاً وانهماك الدولة العثمانية بحروبها مع الدول الاوربية والدولة الصفوية ثانيا، ثم أن طبيعة المنطقة كانت عاملا اخر اطال من عمرها، فكثرة الاهوار والمستنقعات كانت تعرقل نشاط الجيوش العثمانية عند زحفها نحو البصرة، كما أن هذه الامارة قد استفادت من المنافسة التجارية بين الشركات العاملة في البصرة والتي كانت تفضل التعاون مع اسرة محلية تتساهل في القضايا الجمركية بدلا من التوجه إلى الدولة العثمانية.

ـ علاقة البصرة بالإحساء في ظل حكم ال افراسياب:

لقد رأينا سابقا كيف انتهت المرحلة الاولى من محاولة التوسع العثماني في الخليج العربي عن طريق البصرة بالفشل الكبير، ولكن العثمانيين كانوا ما يزالون يهدفون للتوسع هناك عن طريق البصرة. فعندما انفرد ال افراسياب بالسلطة في البصرة كانت الاحساء من مناطق نفوذ العثمانيين. وقد استمرت في تبعيتها الاسمية لهم. وحتى هذه التبعية الاسمية ما كانت تخلو من تأرجح، فقد حدث ان ايد والي الاحساء محمد باشا ثوار البصرة ضد اميرها حسين افراسياب(1647-1667). الامر الذي دفع افراسياب لإعداد الخطط لمعاقبة والي الاحساء، فاستمال اليه عشائرها وفي مقدمتهم بني خالد بزعامة براك بن عريعر الخالدي، الذي كان يطمع

في الحكم، وقد نجح افراسياب بوساطة جيشه الذي ارسله عام 1664 بقيادة احد امرائه وبمساعدة بني خالد من الاستيلاء على الوضع. ولكن براك تنكر للحلف بعد النصر، واخرج جند البصرة واستقل بالإحساء، الا ان اجبر على الفرار بعد ان وصل اليه جيش افراسياب بقيادة يحيى باشا. ومن الملاحظ ان حكم ال افراسياب في الخليج العربي لم يترك أي اثر يذكر، وهو في حقيقته تحالف مع قوى القبائل في الاحساء اكثر منه حكما اداريا. وقد كان ممثل افراسياب خلاله خاضعا بشكل او باخر لما تفرضه عليه القيم القبلية وسلطات الشيوخ المحليين من تبعات. ورغم ذلك لم يدم حكم ال افراسياب طويلا في الاحساء. وقد حدث ان لجأ محمد باشا الوالي السابق للإحساء الى شريف مكة، ومنه الى بغداد، حيث اخذ من هناك يستنجد بالسلطان، فصدرت الاوامر الى الجيش العثماني بالقضاء على حكم ال افراسياب فتم ذلك عام 1667.

2.عهد حسن باشا واحمد باشا في بغداد:

ـ ولاية حسن باشا(1704ـ 1723):

يدخل تاريخ بغداد في دور جديد منذ أن نصب الباب العالي حسن باشا[1] 1704م واليا عليها، فقد كان من اكفا الشخصيات في النواحي السياسية والعسكرية والادارية، وقد حكم مدة تزيد عشرين سنة، كانت مليئة بالأعمال الجليلة والاصلاحات المهمة، لذلك يعتبر عهده نقطة تحول بارزة في تاريخ العراق.

1– ولد حسن باشا في حدود 1657م، في قترين وهي منطقة من مناطق الروميلي من ابوين هما مصطفى بك وفاطمة خاتون، وكان ابوه سباهيا في الجيش العثماني المرابط في قترين وقد شب وترعرع في مدارس السراي وتثقف بثقافتها، وكانت امارات الذكاء والسيرة الحسنة والشجاعة بادية عليه منذ صغيره، مما ادى إلى اعجاب الصدر الاعظم مصطفى باشا به، ثم ادخاله ضمن الافراد المرافقين له وبدا يصحبه في حملاته العسكرية، وقد اظهر حسن باشا في تلك الحملات شجاعة فائقة بالرغم من صغر سنه ثم انضم إلى خدمة البلاط العثماني، فتدرج في عدة مناصب إلى أن انعم عليه السلطان مصطفى الثاني (1695–1703م) رتبة الوزير في سنة 1697م، مع تعيينه حاكما في ولاية قونية، ثم تولى حكم ولاية حلب سنة 1698م، وبقي فيها سنتين حيث نقل إلى ولاية الرها واهم ما قام به في هذه الولاية تأديبه لأعراب المناطق المجاورة والذين كانوا قد عاشوا فسادا في اطرافها، كما شيد فيها دارا جديدة للحكومة، وبعد حكم دام سنتين نقل إلى منصب باشوية ولاية ديار بكر (أمد) سنة 1702م، ومن اعماله المهمة هناك، انه اخضع عشائر الملية من الاكراد لطاعته، ثم نقل إلى ولاية بغداد سنة 1704م.

كان حسن باشا قد قضى شطرا من حياته في الباب العالي وتدرج في عدة مناصب، فهو بلا شك قد وقف عن كثب استخدام الجراكسة الارقاء الذين كانوا يجلبون اطفالا ويدربون تدريبا خاصا ليصبحوا خدما للسلطان العثماني. وعندما تسلم حكم ولاية بغداد كان امام امرين لا ثالث لهما: أمّا أن يحكم كما حكم اسلافه من الباشوات ويترك الامور تجري في طريقها الاعتيادي راضيا من السلطة الاسم فقط، أو يستخدم قوة مرتزقة خاصة به تأتمر بأوامره.

لقد اختار حسن باشا الامر الثاني، وهو استخدام قوة من المرتزقة، وسيلة لإقرار الامن والنظام في ولايته، إذ كان من الصعب عليه أن يستند إلى القوى المحلية بسبب تحكم العصبية القبلية بينها، كما أن الانكشارية اصبحوا إلى اشبه ما تكون بطبقة مدنية تكره الرقابة النظامية والتدريب العسكري الصارم، ادى كل هذا إلى أن يفكر حسن باشا في تكوين جيش من عنصر جديد غير متأثر بمفاسد الانكشارية وهم المماليك الذين اثبتوا جدارة وقابلية في الاضطلاع بالشؤون الجسام، فبدأ بشراء المماليك من اسواق تفليس التابعة لبلاد الكرج والزاخرة بالرقيق الابيض ومن عشائر القوقاز، وقسم هؤلاء إلى جماعات كل جماعة أو فرقة تقيم في ثكنة مخصصة لها ولكل فرقة اسم مثل فرقة (الخاص) و(وكلاء الخزينة)، وبعد أن يبلغوا سن المراهقة كانوا يضعون في مدارس خاصة اسست لغرض تدريبهم وكان نظام الدراسة في هذه المدارس يسير سيرا منتظما، ففي كل مدرسة هناك مؤدب، يقوم بتعليمهم القراءة والكتابة كما كانوا يتلقون تدريبا عسكريا صارما، ودقة اصابة الهدف وركوب الخيل والسباحة في احواض خصيصا لهذا الغرض، وبعد اتمام دراستهم وتدريبهم، كانوا يدخلون في صف (اغوات الداخل) والذين كانوا مرتبين على شكل جماعات فكان منهم الخواص والامناء (أي امناء الصندوق) ورجال المخازن، ولذلك كان بإمكان أي شاب من هؤلاء أن يصبح بعد ترفيعه من صنف لأخر أو من درجة لأخرى شخصية من شخصيات السراي ولم يكن الانتماء إلى هذه المدارس مقتصرا على المماليك فقط بل أن قسما من ابناء الموظفين العراقيين والاتراك كانوا يدخلون فيها أيضاً، ولكن عدد هؤلاء كان قليلا بالقياس إلى عدد

المماليك، ولم يقم وحده بمهمة شراء المماليك، إنما بدأ بعض كبار الموظفين في السراي يشترون المماليك، ويظهر انهم كانوا يستعملونهم لأغراض الخدمة في البيت.

لقد وضع حسن باشا باستخدامه المماليك اساس النظام المملوكي في العراق والذي ابتدأ رسميا بحكم سليمان باشا 1749م واستمر حتى سنة 1831م، فازداد عدد المماليك بسرعة واثبت بعضهم جدارة واخلاصا متفانيا في خدمة سيدهم حتى وصلوا إلى اعلى المناصب في الولاية ومن هؤلاء سليمان اغا الذي اصبح كتخدا احمد باشا (1723-1747م) ابن حسن باشا، وكان احمد باشا يعتمد عليه كثيرا ويثق به إلى درجة انه قد زوجه ابنته عادلة خانم.

قام حسن باشا بإصلاحات مهمة في مرافق الحياة العامة، لم تشهدها ولاية بغداد سابقا، فقد دفعه تدينه الاهتمام بمراقد الائمة والصالحين، فاكثر من تأسيس الجوامع ومنح الاراضي للأغراض الدينية، فقد اعاد تجديد جامع السراي، فاصبح يعرف باسم جامع جديد حسن باشا، كما امر بإجراء ترميمات في مراقد الائمة (عليهم السلام) في الكاظمية وكربلاء والنجف، وعمر الخانات الكائنة في شرقي بغداد وغربيها وشيد خانا جديدا بين النجف وكربلاء لاستراحة زوار العتبات المقدسة، وعين له حراسا لمحافظته، كما دفعه تسامحه أن يسمح بتأسيس دار للبعثة التبشيرية الكرملية في بغداد عام 1721م، ومن اصلاحاته الأخرى المهمة انه الغى بعض الضرائب التي كانت ثقيلة على الناس فقد الغى ضريبة التمغا وضريبة الباج، كما انه الغى العادة العشائرية التي كانت سائدة في بغداد وهي ضرورة دفع جميع اهل المحلة الدية (إذا قتل فيها قتيل جهل قاتله)، وكما اجرى حسن باشا ترميما في جسر التون كوبري، فضلا عن قناطر اخرى بين الموصل وكركوك، وشيد مسناة جديدة لجسر بغداد، وامر بفتح فرع جديد لنهر الحسينية المعروف باسم النهر السليماني.

إن الولاة العثمانيين الذين سبقوا حسن باشا في حكم ولاية بغداد، وقفوا عاجزين امام الهجمات العشائرية على القوافل التجارية وعلى المدن، ولم يتبعوا اية سياسة ايجابية تهدف إلى توطين العشائر، واعمار الاراضي، وانما اتبعوا السياسة التقليدية في توجيه

حملات عسكرية على العشائر الثائرة، والتي كانت ترجع خاسرة في اكثر الاحيان، إلاَّ أن الامر اختلف مع حسن باشا الذي كان مؤهلا لدوره الاصلاحي برصيد غني من الخبرة تراكمت بالخدمة في اجزاء مختلفة من الدولة العثمانية، فقد ادرك أن امن واستقرار العراق يتوقف على حل المشكلة العشائرية أو التخفيف من حدتها، ولم يجد اسلوبا انجح من استخدام القوة لكبح جماح العشائر الثائرة، فبدأ في السنة الأولى من حكمه بحملة على عشائر ال شهوان وال غرير في جنوبي الموصل وانتصر عليهم في موقعة (الخانوقة) وعند رجوعه إلى بغداد عمم منشورا على العشائر العراقية دعاهم فيه إلى ضرورة الانقياد للسلطة، وقد هدد في منشوره بانه سوف يستعمل اقصى درجات العنف والقسوة مع كل عشيرة تحاول العبث بأمن الولاية.

يظهر أن العشائر لم تأخذ بنظر الاعتبار هذا التهديد وحسبته مثل تهديدات الولاة السابقين، إذ ما لبث أن ثارت عشيرة بني لام في شرقي دجلة فجرد عليهم حسن باشا حملة عسكرية وشتت جموعهم، وقد فر قسم منهم إلى خارج البلاد، وفي سنة 1705م، جرد حملة كبيرة على الشيخ سلمان العباسي رئيس عشيرة الخزاعل الذي كان قد اتخذ من الحسكة مقرا له، وبدأ يهاجم القوافل التجارية، وقد لجأ الشيخ سلمان إلى البصرة بمجرد سماعه بتوجه حسن باشا نحوه، وفي سنة 1707م، جرد حملة على عشائر الزبيد في غربي دجلة، وقد قتل حسن باشا كثيرا منهم وقيل انه استعان في ضربهم ببعض العشائر المناوئة للزبيد مثل العبيد وبعض العشائر الكردية، كما وجه حملة كبيرة على الشيخ مغامس شيخ المنتفك الذي كان قد هدد البصرة وواليها خليل باشا، واخذ يهاجم القوافل التجارية، ويفرض الضرائب، وقد عانت البصرة كثيرا من عشائر المنتفك حتى اصبحت خزينة البصرة عاجزة عن دفع رواتب اللواندات، فتوجه حسن باشا على راس جيش كبير نحو البصرة، وعند وصوله القرنة، فر مغامس المانع إلى الحويزة، وقد انعم الباب العالي على حسن باشا بحكم البصرة تكريما وتقديرا لجهوده في القضاء على الشيخ مغامس، فتحولت البصرة إلى مجرد متسلمية تابعة لولاية بغداد سنة 1706م.

ولم تكن جميع حملات حسن باشا على العشائر العربية، وانما قاد بعض الحملات على العشائر الكردية أيضاً، ففي عام 1711م، جرد حملة على عشائر البلباس في شرقي اربيل وانتصر عليهم، كما جرد في عام 1715م، اكبر حملة على القبائل اليزيدية في منطقة سنجار، وبالرغم من ضخامة الحملة إذ ضمت قوات من شهرزور وبعض البيكات الاكراد، واستخدام المدفعية، فقد قاوم اليزيديون حسن باشا اكثر من ثلاث ساعات لانهم كانوا قد حضروا المتاريس واقاموا الطوابي الدفاعية، غير أن حسن باشا استطاع أن يلحق بهم هزيمة في موضع يقال له الخاتونية بالقرب من سنجار وعين محمد الدياب حاكما على سنجار التي اصبحت تابعة إلى ولاية بغداد، وقد عامل حسن باشا الاسرى والنساء والشيوخ واطفال اليزيدية، معاملة حسنة فقد امرهم بالرجوع إلى اماكنهم، وكان هذا دأبه في كل حملاته. ولم تقف حملات حسن باشا على العشائر عند حدود العراق، فنتيجة لحملاته الناجحة على العشائر العراقية، فقد كلفه الباب العالي سنة 1720م بقيادة حملة على العشائر العربية في صحراء حلب، والمعروفة بالعشائر العباسية التي كانت لا تنفك عن القيام بقطع طرق القوافل التجارية، وتجبر التجار على دفع الاتاوات، فاستطاع حسن باشا أن يشتت جموعهم ويقتل كثيرا منهم.

إن حملات حسن باشا تجاه العشائر، كانت مهمة لأنها تضمنت عملية امتصاص وادماج فقد تحولت البصرة إلى متسلمية تابعة إلى بغداد، كما دخلت سنجار وحرير تحت نفوذ حكم بغداد، ثم أن العشائر بدأت تخشى السلطة، وتحس بوجود حكومة قادرة على كسر شوكتها بعد أن كانت تتجاهلها أو تنظر إليها بعين اللامبالاة في السابق، كما أن هذه الحملات الناجحة ادت إلى تأمين سلامة الطرق التجارية من خطر قطاع الطرق واللصوص.

أمّا علاقة حسن باشا بالباب العالي فكانت جيدة تخلو من التوتر إذ بعث هدية إلى السلطان كدليل على ولائه واحترامه له، كما كان السلطان هو الاخر يكن لحسن باشا احتراما وتقديرا فقد بعث له هدية بمناسبة مجيء مولود جديد له، وكان حسن باشا يظهر احترامه وتقديره لموظفي الباب العالي عند قدومهم إلى بغداد، والذين كانوا يعاملون معاملة خاصة

تتضمن المبيت ليلة في الاعظمية ثم التوجه بموكب فخم إلى المدينة في اليوم التالي والنزول في دار الضيافة، وقد كان هذا التقدير في الاستقبال يترك انطباعا حسنا لدى موظفي الدولة، وفي الوقت نفسه تظهر اهمية والي بغداد لدى الجمهور البغدادي الذي كان يقع تحت تأثير هذه المراسيم فيزداد حبه للوالي، كما كان حسن باشا يرسل بانتظام الواردات إلى الباب العالي.

لقد عاش حسن باشا مخلصا للدولة العثمانية حتى اخر رمق من حياته فقد توفي، وهو في طريقه إلى احتلال همدان عن عمر يناهز السادسة والستين، فحملت جثته إلى بغداد ودفن في مقبرة الامام الاعظم، وقد حزن عليه اهل بغداد واقاموا له المأتم في كل مكان لما كان له من الفضائل والمناقب ولما امتاز عهده بالاستقرار والسلام، فخلفه في حكم بغداد ابنه احمد باشا الذي كان لا يقل عنه جدارة في إدارة دفة الحكم.

ـ ولاية احمد باشا:

تعد فترة حكم احمد باشا[1] الذي تولى باشوية بغداد عام 1723،من الفترات المهمة في تاريخ العراق الحديث، إذ شهدت هذه الفترة احتدام الصراع العثماني الايراني على العراق، لذا قضى احمد باشا جزء كبيرا من عهده الطويل في صد التدخلات الخارجية في شؤون العراق.

لقد سار احمد باشا على سياسة والده في استخدام المماليك والاعتماد عليهم في ضرب العشائر العربية والكردية الثائرة التي كانت تستغل انشغال احمد باشا في صد هجمات نادر خان عن بغداد فتخرج عن طاعة الحكومة بل أن احمد باشا اندفع اكثر من والده في

1- ولد احمد باشا في حدود 1685 في جفلكة بالقرب من اسطنبول، ورافق والده في مختلف الوظائف التي اسندت إليه لذلك اهمل تثقيفه فنشأ اميا لا يحسن القراءة والكتابة طوال ايام حياته، غير أن ذكاءه وشخصيته العسكرية قد جعلت من سيرته شيئا كبيرا في تاريخ العراق. جاء احمد مع والده إلى بغداد، وعاش فيها فترة من الزمن ثم عهدت اليه عام 1715م حكم ولاية شهرزور ثم اصبح واليا على قونية عام 1716م وبعدها نقل إلى ولاية حلب عام 1717م، ثم نقل إلى ولاية اورفه عام 1721م ودامت ولايته فيها سنة واحدة حيث نقل بعدها إلى البصرة التي ظل فيها حتى وفاة والده عام 1723م، حين نقل إلى باشوية بغداد.

الاعتماد على المماليك، عندما عمد على نفي بعض الفرق الانكشارية من بغداد، وكان يقصد كما يبدو، من وراء ذلك كسر شوكتهم، وجعلهم كقوة ثانوية لا تأثير لهم على سير الاحداث السياسية في الولاية. وبسبب انشغال احمد باشا بحروبه مع الدولة الايرانية، فلم يتح له الوقت الكافي للقيام بإصلاحات مهمة في ولايته مثلما فعل اباه، ولكنه حذا حذو ابيه في توحيد العراق بأكمله تحت سيطرته، فعين بعض افراد اسرته ومماليكه حكاما على البصرة وشهرزور وكركوك، غير انه لم يستطع أن يمد نفوذه على الموصل، لأنها كانت تحت حكم الاسرة الجليلية.

وكما أن احمد باشا الذي خاض حروبا كثيرة في الدفاع عن ولايته، قد اتهم من قبل خصومه بشتى الاتهامات، فقد قيل انه لم يكن منزها عن الخطأ في علاقاته مع الباب العالي ولم يكن يرسل من الاموال إلاَّ قليلا. بل ذهب مناوئيه إلى أبعد من هذا فاتهموه انه كان متواطئا مع نادر شاه، ويريد أن يكون تابعا له كما قيل أن احمد باشا هو الذي تسبب في هجوم الايرانيين على البصرة سنة 1743م بهدف اظهار قوته واهميته و البقاء في الباشوية لفترة اخرى، وكانت هذه هي الوسيلة التي يستطيع بها الحصول على اموال واسلحة من الباب العالي.

ومما يتضح انه ليس لهذه الروايات نصيب من الصحة، فالسلطان العثماني كان بأشد الحاجة إلى شخصية عسكرية محنكة مثل احمد باشا تستطيع منازلة نادر شاه ودفع غائلته، كما انه لو كان يفكر في أن يكون تابعا لنادر شاه لم يكن ذلك بأمر صعب عليه، وخاصة وهو الحاكم على ماردين وبغداد والبصرة وشهرزور، وانه عندما نقل من ولاية بغداد سنة 1734م إلى حلب لم يصدر منه أي عمل يبعث الشك في نفس السلطان، كما تقبل برحابة صدر عندما صدر امر بإعادة تعينه في باشوية بغداد مرة اخرى، فقد ظل مخلصا لدولته حتى اخر لحظة من حياته.

اتبع احمد باشا سياسية شديدة تجاه العشائر لاسيما تلك التي انظمت الى صفوف نادر خان اثناء هجومه على العراق، أو تلك العشائر التي اغتنمت فرصة انشغال حكومة

احمد باشا بصد الخطر الايراني فعاثت بالبلاد فسادا، ومنها عشير شمر التي ساعدت نادر خان مساعدة كبيرة، اذ قام بعض افرادها بدور الادلاء والجواسيس له فكانوا ينقلون له الاخبار يوميا ويطلعونه على كل صغيرة وكبيرة. وقد بدأ احمد باشا بتأديب عشير شمر، ثم اعقبها بعشيرتي قشعم وزبيد. ولم تدم طاعة العشائر الا قليلا ففي العام التالي ارتأت الدولة العثمانية نقل احمد باشا الى ولاية اورفه، ولم يكد الوالي الحازم يغادر بغداد حتى عادت العشائر الى عادتها القديمة. ولم يقتصر الامر على العشائر فقط بل اخذ الانكشاريون يشاغبون ايضا واكثروا من القتل والفوضى في بغداد. وعندما ادركت الدولة العثمانية ان العراق يختلف عن غيره من الولايات العثمانية من حيث كثرة العشائر فيه، وحاجته الى حاكم قوي قادر على قمعها، فأرجعت احمد باشا الى ولاية بغداد. وعندما وصل احمد باشا الى بغداد عام 1736 استقبله الاهالي بفرح عظيم، وقد بدأ مباشرة بتأديب الانكشارية فقتل بعض رؤسائهم، وابعد البعض الاخر منهم، ثم توجه نحو بني لام وتمكن من انهاء تمردهم. وفي عام 1738 ثار سعدون شيخ المنتفك ومعه عشر الاف مقاتل، ونزل في موضع بين النجف والكوفة، وارسل قوة لمحاصرة الحلة، واخرى لمحاصرة البصرة، وقد استمر الشيخ سعدون في حركته زهاء اربع سنوات، واستطاع ان يسيطر على مناطق واسعة من الفرات الاسفل والاوسط، وفرض الاتاوة على المسافرين، ولم يسلم منه حتى وكلاء الشركات الانكليزية والفرنسية في البصرة، غير ان حركته انتهت بمقتله في عام 1741 على اثر معركة بينه وبين الجيش. وفي عام 1747م قاد احمد باشا حملة ضد سليم خان زعيم البابانيين وانتصر عليه وعند عودته توفي في منطقة دللي عباس (ناحية المنصورية) عن عمر يناهز الستون، فدفن في مقبرة الامام الاعظم قرب والده، قد حزن عليه اهل بغداد كحزنهم على ابيه، واقاموا له المأتم، ولم يترك احمد باشا نسلا من الذكور ولكنه كان قد زوج سابقا نائبه سليمان اغا من ابنته عادلة خاتون، وكان هذا مطمح انظار الجمهور البغدادي في استخلاف سيده المتوفي خاصة وانهم خبروه خلال خمس عشرة سنة، اثبت خلالها في ميداني الحرب والسلم انه الاكفأ والاقدر على إدارة شؤون البلاد التي عرف مشكلاتها وحذق اساليب حكمها.

إن أول أجراء لجأت اليه الدولة العثمانية هو فصل البصرة عن باشوية بغداد، ثم اصدرت اوامرها بإجراء تغيرات في حكام الولايات، فأسندت حكم ولاية بغداد إلى الصدر الاسبق ووالي ديار بكر احمد باشا والبصرة إلى احمد باشا الكسرية لي، أمّا سليمان اغا صهر احمد باشا فقد عين واليا على اطنة فرحل إليها ولكن عيونه ظلت ترنو إلى بغداد. يبدو أن قيام الدولة العثمانية بإجراء تغيرات في حكام ثلاث ولايات وفي أن واحد قصد من ورائها اخفاء نيتها في ازاحة المماليك عن مسرح السياسة في بغداد خاصة وان البغداديين كانوا ينظرون إلى سليمان اغا كوال مرتقب لهم، غير أن ابعاد سيدهم عن بغداد جعلهم يثيرون المشاكل والعراقيل بوجه الوالي الجديد كرد فعل لإجراء الباب العالي. وعندما وصل احمد باشا إلى بغداد وجد نفسه امام وضع صعب ازاء الانكشارية الذين ثاروا يطالبون بدفع رواتبهم التي تأخر دفعها، ولما كانت الخزينة خاوية لذا طلب الباشا من الانكشارية مهلة لطلب الاموال من الباب العالي، ولكن هؤلاء سرعان ما هاجموا السراي وبدأوا يطلقون النار على الباشا طيلة النهار، ثم طلب الباشا امهاله مدة شهرين فقط لتلبية طلباتهم، فتظاهروا بالموافقة، ولكنهم سرعان ما عادوا إلى اطلاق الرصاص مرة اخرى واستمروا على ذلك ثلاثة ايام ثم شنوا هجوما عنيفا على السراي وخربوا المباني المجاورة، وعندما حاول الباشا مفاوضتهم اعلنوا له انهم يكرهونه ويطلبون خروجه من بغداد، وهذا يدل انهم اتخذوا مسالة تأخير دفع رواتبهم وسيلة لتحقيق غايتهم في طرد الباشا الذي لم يجد بدا من الهرب إلى الجانب الايمن من بغداد، وقد اعلن الانكشارية عزله فتولى الولاية وكالة رجب باشا الذي كان في طريقه إلى ايران.

احيط اولي الامر في الباب العالي بما حدث في بغداد، فقامت الدولة العثمانية بإعادة توزيع المناصب من جديد فأسندت ولاية بغداد إلى احمد باشا الكسريه لي والبصرة إلى حسين باشا آل عبد الجليل. جاء الكسريه لي إلى بغداد وهو يحمل شيئا من المال لدفع رواتب الانكشارية بعد أن جمعه من اسطنبول ومن مصادرة املاك احمد باشا المعزول، غير أن الوالي الجديد، ما أن وصل حتى ثار على الانكشارية، وهبت العشائر العراقية لمقاومته

أيضاً، قام احد شيوخ العرب، الذي كان والد زوجة احمد باشا بمهاجمة بغداد ومحاصرتها بالنظر إلى عدم ترشيح سليمان اغا لها، ومن هذا يفهم أن العشائر أيضاً كانت تساند سليمان باشا، فعزل الكسريه لي عن حكم بغداد وجاء بعد محمد باشا الترياكي عام 1748م، وكان سليمان اغا وهو في اطنه يتطلع إلى ولاية بغداد، وقد وجد في تجدد الاضطرابات العشائرية في ولاية البصرة وعجز واليها في توفير الامن والنظام فيها فرصة سانحة لكي يكون قريبا عن هدفه فتعهد للسلطان بتأديب العشائر الثائرة في البصرة، ودفع ما بقي في ذمة سيده احمد باشا من ديون، فقبل طلبه ورقي الى رتبة مير ميران مع رتبة الوزارة، ثم انعم عليه بحكم ولاية البصرة، وعند مروره ببغداد وهو في طريقه إلى تسلم منصبه الجديد حصل سوء تفاهم بينه وبين محمد باشا الترياكي، ويظهر أن السبب في ذلك هو اتصال سليمان اغا باتباعه لتحريضهم لإثارة المشاكل بوجه الباشا العثماني، الذي قدم شكوى إلى الباب العالي ضد سليمان اغا، فعين الباب العالي احد موظفي السراي وهو مصطفى بك لإجراء تحقيق في الموضوع، كان السلطان محمود الأول يوجس خيفة من نوايا سليمان اغا، كما اصدر السلطان اوامره إلى ولاة سيواس وحلب والرقة وديار بكر والموصل ومرعش بالتوجه بقواتهم النظامية نحو بغداد خوفا من استغلال ايران الاوضاع المضطربة في بغداد للقيام بهجوم عليها. لقد كان التحقيق الذي اجراه مصطفى بك في صالح سليمان اغا كما اقترح على الباب العالي اناطة حكم بغداد له، أن موقف المبعوث السلطاني هذا اثار غضب الترياكي الذي عزم على مقاومة دخول سليمان اغا إلى بغداد، أمّا سليمان اغا فقد زحف من البصرة بقواته الخاصة حتى وصل إلى الحسكة (السماوة) وهناك قابل مبعوثا من الترياكي يطلب منه أن من مصلحته العودة إلى ولايته قبل أن يزج نفسه في موقف خطير، غير أن سليمان اغا لم يكترث لهذا الطلب فواصل زحفه حتى وصل الديوانية حيث كان حاكمها علي اغا من الموالين له، وتوجه علي اغا إلى بغداد واخبر الباشا الترياكي عن تقدم سليمان اغا فجمع الباشا جيشا قوامه 1000 شخص فتقابل مع سليمان اغا الذي كان عدد جيشه يقارب 800 شخص في جوار الحلة، لقد استغرب الترياكي من محاولة سليمان اغا مقابلته بهذا العدد القليل من جنده، ولكنه كان غافلا من أن علي اغا خلال زيارته لبغداد قد استمال

جميع رؤساء جيشه إلى جانب سليمان اغا، وكما هو مقرر فقد هجم سليمان اغا بجيشه القليل على الباشا مباشرة، فارغمه على الفرار من ساحة المعركة إلى بغداد فوجد أن ابوابها مغلقة بوجهه، أمّا سليمان اغا فقد توجه نحو بغداد فدخلها وسط مباهج الفرح والانتصار وكتب إلى الباب العالي ما جرى له مع الترياكي فاضطر السلطان أن يوافق -على مضض منه- بتعيينه واليا على بغداد وكان ذلك سنة 1749م وبه ابتدأ رسميا حكم المماليك في العراق.

العلاقات العثمانية ـ الايرانية واثرها على العراق(1639ـ1750):

ـ المرحلة الاولى(1639ـ1733):

اتسمت العلاقات العثمانية-الايرانية منذ عقد معاهدة زهاب عام 1639م بطابع الود والاستقرار على الحدود، ولم تحدث حوادث تعكر صفو الامن بينهما، ويعكس ذلك مدى رغبة الطرفين في ان يجنحا للسلم ويخلدا الى الهدوء والسلام بعد قرن وربع القرن من الحروب والتوتر في العلاقات التي سادت بينهما. ويبدو ان الصفويين كانوا يحرصون على استمرار صفحة العلاقات الحسنة التي فتحت مع الدولة العثمانية بعد معاهدة زهاب عام 1639، وبادلهم العثمانيون التوجه نفسه، ففي عام 1656 ارسل الشاه عباس الثاني(1642-1667) هدايا الى السلطان العثماني ومبعوثا يحمل رسال يطلب فيها الحفاظ على الصلح الذي ابرم بين الدولتين الصفوية والعثمانية، فبادر السلطان بإجابة الطلب وحمل رسوله الذي حمل الجواب الى ايران هدايا الى الشاه. وفي عام 1689 ارسل الايرانيون مبعوثا الـى العاصمة العثمانية استنبول للتبريك بجلوس السلطان سليمان الثاني(1678-1691) والتأكيد على قواعد الصلح التي ارستها معاهدة زهاب بينهم وبين

العثمانيين. وقد استمرت هذه العلاقات الحسنة بين الدولتين العثمانية والصفوية حتى اواخر سنوات الربع الاول من القرن الثامن عشر، ففي عام 1717 هاجمت عشيرة الجاف انحاء بغداد وقتلت امير باجلان مع اثنين من رجاله، ولم يتمكن والي بغداد حسن باشا من معاقبة هذه العشيرة لهروبها واحتمائها بالجبال. ولما كانت هذه العشيرة تقطن ايران آنذاك، وتابعة للحكومة الايرانية، كتب حسن باشا الى شاه ايران يشكو له امرها، فبادرت الحكومة الايرانية الى معاقبة بعض خانات الحدود وعزلهم لتهاونهم في منع تجاوز الجاف على الاراضي العثمانية.

غير أن التطورات التي حصلت في ايران في العقد الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، ادت إلى تصدع العلاقات العثمانية-الايرانية، وان هذه التطورات تمثلت في الغزو الافغاني لإيران، ففي نهاية عام 1719 توجه مير محمود بن مير ويس على رأس قوة عسكرية كبيرة تألفت من 11000 مقاتل نحو مدينة سيستان واحتلها، ثم توجه نحو مدينة كرمان واحتلها لمدة تسعة اشهر على الرغم من المقاومة التي ابداها حاكمها علي خان، ثم انسحب منها لمواجهة بعض الاخطار التي هددت مركزه في قندهار. في عام 1722م، ظهرت قوة افغانية ذات تدريب عسكري عال بقيادة مير محمود بن مير ويس الافغاني، الذي توجه بهذه القوات الى يزد المؤدية الى اصفهان، فسقطت في يده، وفتح امامه الطريق المؤدي الى غربي العاصمة، لكنه توقف في كرمان لإعادة تنظيم صفوف قواته والاستيلاء على بعض المعاقل الرئيسة قبل ان يستأنف الزحف نحو العاصمة، فاستولى على فرح اباد بسهولة بعد ان فرت منها الحامية الصفوية. وتجاه هذا التقدم الافغاني ارسل الشاه حسين سفارة الى مير محمود عرضت عليه مبلغا كبيرا من المال لقاء عودته الى افغانستان، فاعتقد الزعيم الافغاني بان الصفويين لم يقدموا على هذه الخطوة الا لانهم عاجزين عن التصدي له ووقف زحفه مما شجعه على التقدم الى اصفهان، وعبثا حاول الصفويون، ايقاف التقدم الافغاني الكاسح إذ انهم منوا بهزيمة كاسحة في موقعة كلناباد في شرقي اصفهان في 8 اذار 1722، فانسحبوا إلى داخل المدينة ففرض مير محمود حصارا قاسيا على اصفهان، استمر فترة طويلة

من الزمن، وقد نجح احد ابناء الشاه حسين وهو طهماسب من اختراق الحصار ليلة 7/ 8 حزيران 1722، متوجها الى قزوين مع 600 رجل على امل تجهيز قوة عسكرية هناك لأنجاد العاصمة المحاصرة. ولكنه اخفق في ذلك وكتب الى ابيه يدعوه للهرب من العاصمة التي كان وضعها يزداد سوءا بسبب الحصار وقلة المؤن، وعانى اهلها الكثير من المجاعة والاوبئة. ولم يكن امام الشاه الصفوي في مثل تلك الحال سوى الاستسلام دون شروط لمير محمود في 12 تشرين الاول 1722، وبعد حوالي اسبوعين من ذلك دخل مير محمود العاصمة حيث توج ملكا في 25 تشرين الاول 1722 من قبل الشاه الذي اقتيد بعدها الى السجن.

ان التطورات التي حدثت في ايران بدءا من الاحتلال الافغاني شجعت جارتيها القويتين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية على استغلال الفرصة والتوسع على حسابها، فالدولة العثمانية كانت تريد تعويض خسائرها في اوروبا، في حين كان قيصر روسيا الشهير بطرس الكبير(1682-1725) يركز جهوده على التوسع في منطقة السهول الواسعة بين البحر الاسود وبحر قزوين، لان السيطرة على هذه المنطقة ستمكن روسيا القيصرية من اقامة طريق تجاري عبر بحر قزوين والسيطرة على البحر الاسود. وكانت روسيا تعد حرية الملاحة في البحر الاسود وحرية الوصول منه الى مياه البحر المتوسط عبر المضائق التركية(البسفور والدردنيل) امرا جوهريا لها لتصبح قوة عظمى.

عندما استقر مير محمود على سدة العرش في ايران، ارسل والي بغداد حسن باشا مبعوثا من قبله الى اصفهان للوقوف بوجه على نواياه تجاه السلطنة العثمانية، فأبدى هذا ولاءه لها وارسل سفيرا من قبله الى والي بغداد وهو محمد صادق خان لتأكيد هذا الولاء والطلب من حسن باشا توفير الدعم العثماني للأفغان، للاستيلاء على جميع الممتلكات الصفوية، فارسل حسن باشا تقريرا مفصلا بذلك الى اسطنبول.

لقد استغل العثمانيون الفوضى التي اعقبت الغزو الافغاني، فاصدر السلطان العثماني امرا إلى حسن باشا والي بغداد بقيادة حملة إلى بلاد ايران، وقد حدد الفرمان السلطاني بعدم

التعرض، للأقاليم التي هي تحت سيطرة مير محمود الافغاني. فتحرك حسن باشا إلى بغداد، بعد أن تجمعت تحت رايته قوات من شهرزور والموصل والبصرة وبعض بيكات الاكراد وعدد من الانكشارية، فتوجه بهم نحو كرمنشاه، وفي 16 تشرين الأول 1723م، سقطت المدينة بيد حسن باشا دون مقاومة، بعد ان خرج اليه حاكمها عبد الباقي خان مع اعيان البلدة وسلم له مفاتيح المدينة، في وقت استطاع عبد الرحمن باشا والي شهرزور، أن يزيح قوة افغانية بقيادة علي مردان خان، الذي حاول التصدي للقوات العثمانية بالقرب من خرم اباد، بعد كرمنشاه سقط اردلان، وفي ربيع عام 1723م تهيأ حسن باشا لاحتلال همدان، غير أن وفاته حالت دون ذلك، فخفى امر موته عن جنده وارسلت جثته إلى بغداد. في الوقت نفسه استغلت روسيا هي الاخرى هذه الفرصة، اذ بدأ بطرس الكبير عملياته العسكرية ضد ايران عام 1722 عندما هبط عن طريق نهر الفولغا على رأس قوة من 22000 واستولى على دربند الواقعة على الساحل الشمالي الغربي من بحر قزوين، واتجه من هناك الى مدينة شماخي للاستيلاء عليها، الا ان مبعوثا عثمانيا وصل الى معسكر بطرس الكبير معلنا احتلال العثمانيين مدينة شماخي ومحذرا الروس من أي تقدم اخر. وتوترت العلاقات بين الطرفين كاد ان يوقع الحرب بينهما ولكن تدخل فرنسا ووساطتها ساعد على التوصل الى تفاهم بينهما، اذ سرعان ما دارت مفاوضات بين الروس والعثمانيين حول تقسيم ايران مقابل اعتراف الدولتين بالشاه طهماسب شاها على فارس، وانتهت بتوقيع معاهدة تقسيم فارس في 24 حزيران 1724 والتي نصت على ان تحتفظ كل واحدة من الدولتين بالأراضي الايرانية التي تستولي عليها، أي تحتفظ روسيا القيصرية بالمناطق الواقعة في سواحل بحر قزوين، اما مناطق بلاد الكرج وشروان وقره باغ واذربيجان فمن نصيب الدولة العثمانية، الامر الذي فتح المجال امام العثمانيين للتوسع على حساب الاراضي الايرانية لاسيما المجاورة منها للأراضي العراقية.

كانت الدولة العثمانية بحاجة ماسة إلى قائد عسكري منحك، يستطيع انقاذ الموقف الذي تردى بعد وفاة حسن باشا، فجاء رد الباب العالي بتعيين احمد باشا ابن حسن باشا

قائدا للحملة العسكرية وواليا على بغداد. توجه احمد باشا بعد أن اقام مراسيم العزاء في بغداد نحو كرمنشاه، وقد تجمعت تحت رايته قوات ضخمة، قدرت بأكثر من 100 الف جندي اضافة إلى 22 مدفع باليمز وثلاثة مدافع هاون و 648 جبه جي، وقبل زحفه نحو همدان ارسل رسولا إليها يطلب التسليم، غير أن اهالي المدينة رفضوا ذلك، فزحف إليها وفرض حصارا شديدا عليها من جميع الجوانب، وقامت المدفعية العثمانية بقصف سور المدينة المنيعة، إلاَّ أن تأثيرها كان قليلا بسبب متانة السور، فلجا العثمانيون إلى وضع الغام تحت السور ولكن اهالي المدينة كانوا يبطلون مفعولها بصب الماء عليها، وفي اليوم الثامن والخمسين من الحصار احدثت المدفعية العثمانية فجوة في سور المدينة، اندفع منها الجند إلى الداخل، وقد شهدت المدينة قتالا ضاريا لمدة ثلاثة ايام بلياليها، وانتهى الامر بتسليم المدافعين انفسهم لأحمد باشا في 31 اب 1724م، بعد الاتفاق على شروط الاستسلام التي تضمنت ان تكون همدان ولاية عثمانية وان يذكر اسم السلطان العثماني في الصلاة العامة، وعين احمد باشا، قره مصطفى باشا واليا عليها، وقد قوبلت انباء فتح همدان بثناء عظيم في الباب العالي وكتب السلطان إلى احمد باشا يشكره على انتصاره العظيم. وزحف احمد باشا بعد فتح همدان نحو نهاوند التي سقطت دون مقاومة تذكر، ثم اصبحت لورستان تحت السيطرة العثمانية أيضاً، وبعدها عاد احمد باشا إلى بغداد 1725م.

وخلال احتلال القوات العثمانية لكرمنشاه وهمدان، حدثت تطورات خطيرة في العائلة الافغانية، فمير محمود لم يسلك سياسة حسنة مع الافغانيين الذين ذاقوا الامرين من فتكه واسرافه في القتل والاضطهاد، فقد كشف اسرافه في الفتك بالناس عن كونه مجنونا، مما دفع زعماء الافغان إلى عزله واطلاق سراح ابن عمه اشرف خان، وتنصيبه ملكا عليهم في 23 ايار 1725م، وقد بدا اشرف خان يقترب من العائلة الصفوية، إذ قيل انه تزوج ابنة الشاه حسين الصفوي، يبدو أن اشرف خان كان شخصا ذكيا ذا حنكة سياسية ومعرفة بالأساليب الدبلوماسية ودراية بطرق اثارة الراي العام على السلطان العثماني، فبعد اعتلاء العرش ارسل في تشرين الأول 1725م وفدا إلى الباب العالي، وقد عرض الوفد احتجاج اشرف

خان على تلك المعاهدة التي عقدها السلطان العثماني مع دولة مسيحية (روسيا) ضد دولة اسلامية (أي ايران) كما طلب بإعادة جميع المقاطعات التي سيطر عليها العثمانيون في حربهم الاخيرة.

لقد كانت الحجة الافغانية قوية، وذات تأثير فعال على الراي العام في الاستانة والذي وقف إلى جانب اشرف خان، ولم يكن تأثير هذه الحجة قاصرا على الباب العالي، بل أن احمد باشا والي بغداد، عرض على المسؤولين في العاصمة انتشار تأثير الحجة الافغانية في صفوف جيشه فأسرعت الدولة العثمانية إلى اصدار منشور وقع عليه شيخ الإسلام، الذي اجاز محاربة اشرف خان باعتباره مارقا عن الدين الإسلامي. وبناءً على فتوى شيخ الإسلام، كلف السلطان العثماني احمد باشا لقيادة حملة على البلاد الايرانية، وقد تجمعت تحت رايته قوات من ديار بكر وهمدان والبصرة اضافة إلى عدد من امراء البابان حتى بلغ عددهم اكثر من ثمانين الف مقاتل و 70 مدفعا من النوع الكبير وثلاثة مدافع هاون. فتحركت الحملة من بغداد متجهة نحو اصفهان، وبالقرب من المدينة في موضع يقال له نجدان، تقابلا الجيشان العثماني والافغاني الذي كان اقل عدد وعدة، وفي 1 تشرين الثاني 1726م استعد الجيشان لخوض المعركة الحاسمة، غير أن اشرف خان لجا إلى اسلوب الخداع، فارسل عدد من العلماء الافغان، ليسالوا احمد باشا، لماذا الحرب بين حكومتين مسلمتين، وهل أن الشريعة تجيز أن يشهر المسلم السيف على اخيه المسلم، وكان رد احمد باشا بانه يقوم بتنفيذ واجبه كقائد خاضع للسلطان العثماني الذي يجب أن يطاع امره، حدث القتال بين الطرفين في 2 تشرين الثاني سنة 1726م وقد احرز الجيش العثماني في بداية المعركة انتصارا حاسما، ولكن في اليوم الثالث حدث شيء لم يكن بالحسبان، قلب حلاوة النصر إلى مرارة، إذ انسحب فجأة معظم الاكراد من ساحة المعركة التي بدأت تميل لصالح اشرف خان، وقد تكبد الجيش العثماني خسائر فادحة على يد الافغانيين، حتى اضطر إلى التراجع إلى كرمنشاه في حالة يرثى لها تاركا جميع المدافع والامتعة غنيمة بيد اشرف خان. وتشير المصادر العثمانية إلى أن السبب في

انسحاب الاكراد من ساحة المعركة، يعود إلى وعود اشرف خان المعسولة لهم، وانه سوف يترك لهم بعض الاراضي الايرانية في حالة مساعدتهم له، فضلا عن عدم ثقة الأكراد بالحكومة العثمانية. ارسل احمد باشا تقريرا مفصلا الى اسطنبول يشرح فيه وضعه، فارسل اليه الباب العالي يأمره بمواصلة القتال، فزحف مرة اخرى الى اصفهان، وتعرض مير اشرف في غضون ذلك لخطر داخلي تمثل بتنامي قوة الشاه طهماسب الثاني، فاضطر ان يتفاهم مع العثمانيين للحفاظ على قواته من جهة، ومواجهة هذا الخطر من جهة اخرى، فاتصل بأحمد باشا واقترح عليه توقيع اتفاقية صلح بين الجانبين، وبادر بأطلاق سراح الاسرى العثمانيين كدليل على حسن نيته، ويظهر اسفه على ما اصاب الجيش العثماني من اضرار في الارواح والاموال في الحرب الاخيرة. عرض احمد باشا طلب اشرف خان بعقد الصلح مع الدولة العثمانية التي وافقت على ذلك، فوقعت في 3 تشرين الثاني 1727م معاهدة بين الطرفين، تألف من اثنتي عشر مادة وتضمنت المادتان العاشرة والحادية عشر تفصيلات عن المناطق الايرانية التي منحت للدولة العثمانية. ويمكن تلخيص المعاهدة بالنقاط التالية:

1. تبقى الاقاليم التي سيطر عليها الجيش العثماني تحت السيطرة العثمانية، وهي اقاليم ايران الغربية والشمالية الغربية، مقابل احتفاظ اشرف خان بأصفهان، ومناطق وسط ايران وشرقها، واعتراف الدولة العثمانية بحكمه.
2. يعمل العثمانيون على حماية قوافل الحجاج الذاهبة إلى العتبات المقدسة في العراق وايران، وعدم قبول المجرمين أو الفارين لدى كلتا الدولتين.
3. اعترف مير اشرف بتبعيته للدولة العثمانية، وان السلطان العثماني خليفة على المسلمين، واعترف السلطان بأشرف شاها على ايران.
4. تعهد اشرف بإعادة جميع المدافع التي سيطر عليها في الحرب الاخيرة.
5. تدخل الحويزة في اطار الدولة العثمانية.

المرحلة الثانية : حملة نادر خان على العراق عام 1733.

كان ظهور نادر قلي، الذي عرف فيما بعد بنادر شاه، في ايران ايذانا بتحولات عسكرية وسياسية مهمة في المنطقة، عاني منها العراق الكثير. فقد استطاع هذا القائد المغامر الذي ينتمي الى قبيلة افشار التركمانية ان يستغل حالة الفوضى والتمزق التي سادت ايران على اثر الغزو الافغاني والروسي والعثماني، ليوسع نفوذه بصفته زعيما لقبيلته من ناحية، وحاكما على احدى مدن خراسان، فادعى انه يتوسع باسم سيده طهماسب ميرزا المدعي بالعرش الصفوي، فضم خراسان وبلاد الافغان، مما دعا بالشاه طهماسب الى ان يجعله قائدا عاما لقواته ومنحه لقب طهماسب قلي خان أي عبد طهماسب، وتمكن نادر خان من الحاق الهزيمة بقوات الافغانيين التي كان يتزعمها اشرف خان في معركة مهماندوست عام 1725، فتخلى على اثرها الافغان عن العاصمة اصفهان منسحبين الى شيراز، ودخل نادر خان بقواته اصفهان واعلن عودة الحكم الصفوي الى ايران، ثم تحرك لملاحقة القوات الافغانية في جنوبي البلاد حتى عام 1730، ففي ناحية شمال شرق شيراز حدث الصدام المتوقع بين قوات الطرفين، فكان النصر حليفا لنادر خان، وتقهقر الافغان نحو بلادهم الاصلية بعد ان فقدوا معظم قواتهم، وقائدهم اشرف خان نفسه. وبعد هزيمة الافغان وسقوط اصفهان، وجه نادر خان اهتمامه صوب العثمانيين، الذين كانوا يسيطرون على مناطق من غربي ايران، فقام بمهاجمة الحامية العثمانية في نهاوند عام 1730، ثم تقدم واستولى على همذان واردلان وكرمنشاه، وعلى مناطق الشمال وعاصمتها تبريز، كما اجبر طهماسب الثاني على أن يطلب من السلطان العثماني اعادة جميع المقاطعات التي هي تحت السيطرة العثمانية وهدد بالحرب في حالة رفض السلطان ذلك وارسل طهماسب وفدا إلى الباب العالي لغرض عقد صلح بين الدولتين وقد نجح الوفد الايراني في عقد صلح مع الدولة العثمانية، نص على اعادة جميع المقاطعات الايرانية إلى طهماسب الثاني مقابل دفع ايران ما صرفته الدولة العثمانية من اموال عند فتحها هذه الاقاليم، لقد اثار توقيع السلطان احمد الثالث على المعاهدة، السخط والغضب لدى الراي العام العثماني، الذي اتهم السلطان بالضعف

والعجز، وقام الانكشاريون بتمرد على السلطان، اسفر عن خلعه، وتنصيب محمود الأول (1730-1754م)، فقام محمود الأول بإصدار فرمان إلى احمد باشا والي بغداد بقيادة حملة على ايران، يبدو انه قصد من وراء ذلك امتصاص نقمة الراي العام الهائج من جراء توقيع الصلح المذكور، وقد استطاع احمد باشا أن يلحق هزيمة منكرة بالشاه طهماسب في كورجان قرب همدان التي ما لبثت أن سقطت بيد العثمانيين في 18 ايلول 1731م وبعدها سقطت تبريز في 15 تشرين الثاني 1731م، وقد اضطر الشاه طهماسب إلى أن يطلب الصلح من احمد باشا الذي وافق على ذلك، وتنازل بموجب الصلح الذي عقد في 10 كانون الثاني 1732م عن كثير من الاراضي الايرانية لصالح العثمانيين. لقد رفض نادر خان الاعتراف بالصلح، واتخذها حجة لخلع طهماسب الثاني وتنصيب ابنه الطفل عباس الثالث، الذي كان صبيا لا يتجاوز عمره ثمانية اشهر، على أن يكون هو وصيا عليه، وكانت الخطوة التالية هي عقد معاهدة مع روسيا عرفت باسم معاهدة رشت 1732م، وقد امنت هذه المعاهدة حدود ايران الشمالية، بعد هذه الخطوات التفت نادر خان إلى خصومه العثمانيين فبعث برسالة إلى السلطان العثماني يصرح فيها عدم اعترافه بالصلح، كما بعث برسالة اخرى إلى احمد باشا والي بغداد، يخبره بانه سيقود جيشه المظفر الى بغداد.

سارع والي بغداد احمد باشا الى تحصين مواقع الحدود في درنة، ومندلي، وبدرة، وعزز حامياته في زهاب وقصر شيرين، ثم اصلح مراكز الدفاع الموجودة في سور بغداد.

تحشدت قوات نادر خان في همدان وتجمع لديه قوة تقدر بـ 100000 مقاتل فسار بهذه القوة الى كرمنشاه ودخلها بسهولة لان حاميتها لم تقو على الصمود، وبعد ان ترك مدافعه الثقيلة وامتعته في ماهي دشت تقدم صوب زهاو وتمكن بسهولة من تدمير قوات احمد باشا باجلان الكردي وتسخير قلعته في زهاو، وبعد هذا الانتصار عبرت قواته الحدود العراقية وانظم الى قواته لطف علي بك نائب حكومة اذربيجان، ودخلت القوات الايرانية الى قلا جولان قرب السليمانية الحالية. واخذت القوات الايرانية تزحف نحو مدن العراق، من عدة جهات عام 1733م بهدف فتح جبهات عسكرية متعددة امام احمد باشا والي بغداد،

فقد توجهت قوة ايرانية باتجاه كركوك-اربيل عن طريق درنه نحو شهرزور، بقيادة لطفي بيك كوسه احمد لو، كما قاد نركز خان حملة باتجاه الموصل، وكان الهدف من ارسال قواته الى كركوك والموصل من اجل قطع اتصالها مع بغداد. وقد اضطرت القوات في محوري كركوك-اربيل والموصل الى التقهقر بعد ان تكبدت خسائر فادحة وقتل قائد القوات المهاجمة للموصل. أمّا نادر خان قد وصل إلى طوز خورماتو، وهناك عقد اجتماعا حربيا مع قادة الجيش الايراني وتقرر في هذا الاجتماع، توزيع الجيش الايراني على الشكل التالي:

1. فرقة عسكرية ترابط في كفري وقره تبه.
2. فرقة عسكرية تتوجه نحو كركوك وترابط فيها.
3. فرقة عسكرية ترابط في داقوق.

بعد هذا الاجتماع، زحف نادر خان نحو بغداد، وفي طريقه هاجم القرى المنتشرة في اطراف طوز خورماتو، وقيل انه امر بإجلاء عشيرة البيات إلى خراسان، ويتحدث احد المعاصرين لهجوم نادر خان على بغداد عن الاعمال الوحشية التي قام بها الجيش الايراني عند احتلاله لكركوك، فقصف القلعة كان يبدأ منذ الصباح الباكر حتى غروب الشمس واستمر الحال هكذا مدة عشرة ايام، حتى استسلمت القلعة، وقد قام جيش نادر بمجزرة فظيعة في القلعة قتلوا كل من صادفهم رجلا كان أو امرأة وبعدها توجهت القوات الايرانية نحو (قوريا) وهي قرية تبعد عن القلعة بمسافة قصيرة، فقتلوا غالب سكانها، واتلفوا مزروعاتهم، ثم توجهت هذه القوات إلى قرية بشير، فوضع السيف في رقاب اهاليها، والذين كانوا نحو الفي نسمة، ولم ينج منهم إلاّ القليل، ممن استطاع الهرب إلى القفر المسمى (براوون)، وكان الجيش الايراني يتلقى اوامره من مقره الكائن في (يوخاري زيوه). أمّا نادر خان، فقد زحف نحو بغداد، وعند وصوله إلى شهربان تصدى له جيش عثماني قوامه 12 الف جندي، غير انه استطاع أن يهزمهم، ثم مر ببهرز ثم إلى بغداد التي اغلقت ابوابها منتظرة مصيرها المجهول.

فرض نادر خان حصارا قاسيا على بغداد، كما بعث بقواته نحو سامراء والكاظمية في 3 كانون الأول 1733م، وقد استعان نادر خان بمهندس اوروبي كان يرافق حملته في انشاء

جسر عائم من جذوع النخيل، على بعد عدة اميال من شمال بغداد، وذلك لتمكين القوات الايرانية من العبور الى الجانب الغربي من نهر دجلة، اذ امر احمد باشا سكان جانب الغربي بالانسحاب العام إلى الجانب الشرقي، ليكونوا في حماية سورها المنيع، وقد صحب هذا الانتقال هلاك كثير من الناس من جراء الازدحام، خاصة الشيوخ والاطفال. وفي اثناء ذلك قامت ارتال من القوات الايرانية قد بعثها نادر خان باحتلال سامراء والحلة وكربلاء والنجف والحسكة(الديوانية).

قد عمت المجاعة بغداد حتى اضطر الناس إلى اكل الحيوانات الميتة وامتصاص دمائها ومضغ جلودها. ارسل نادر خان إلى علماء بغداد، مفتي الجيوش الايرانية، ومعه رسالة يقول فيها بانه يحملهم ما يجري للناس من مجاعة وهلاك ويطلب منهم الاستسلام. وهنا لجأ احمد باشا إلى خطة رائعة، بان جمع كل الخبز الموجود في بغداد، وعرضه على الوفد الايراني الذي اعتقد أن كل الاشاعات عن مجاعة بغداد هي مختلفة وغير صحيحة، إلاَّ أن هذه المداعبات، لم تكن لتخفف من ازمة المجاعة الشاملة التي تعيشها بغداد، وتداعي معنويات البعض الخائف من المستقبل، خاصة وان نادر خان كان يرسل بعض الارتال من جيشه الاصلي إلى اطراف بغداد ثم يأمرها بالعودة، لكي يوهم اهل بغداد، بوصول نجدات عسكرية جديدة له وعلى هذا فلم يكن من المستغرب أن يتسلل بعض اتباع احمد باشا إلى جيش نادر خان في الليل بالرغم من محاولات احمد باشا لرفع معنوياتهم عن طريق منشوراته بقرب وصول امدادات عسكرية من الباب العالي. لقد دام حصار بغداد سبعة اشهر، ولولا صمود السكان وحنكة احمد باشا العسكرية، وشجاعته الفائقة لكانت بغداد في قبضة نادر خان، إلاَّ انه استطاع أن يصمد للحصار القاسي، لحين وصول طوبال عثمان على راس جيش كبير لإنقاذ بغداد من نادر خان.

كلفت الدولة العثمانية طوبال عثمان باشا (أي عثمان الاعرج) قيادة الجيش نحو بغداد، واعطائه صلاحيات غير محدودة، فتجمعت تحت رايته قوات ضخمة اختلفت المصادر في تحديد عددها.

سلك طريق ديار بكر – الموصل ثم كركوك، واستغرق مسيره ستة اشهر، وربما يعود السبب في تأخره إلى جهله بالموقف الحرج في بغداد، ومن كركوك بعث برسالة احمد باشا يخبره بوصوله، وعندما قرا احمد باشا رسالة الاعرج، لم يصدقه جنده حتى اضطر إلى عرض ختم وتوقيع القائد الاعرج. وقد تسلم طوبال عثمان في كركوك رسالة من نادر خان تمنى فيها له رحلة سريعة نحو حتفه، وهدده بانه سيقبض عليه، كما يقبض على الطفل في مهده، ثم ارسل له رسالة اخرى لا تختلف كثيرا عن الاولى. سلك طوبال عثمان في سيره طريق كركوك–بغداد، وقد عمد القائد العثماني الى تتبع تحركات نادر خان عن كثب بوساطة جواسيسه الذين كانوا يراقبون التحركات العسكرية لجيش نادره شاه ويوافونه باخر المعلومات الاستخبارية. فقد وصلت اخر الاخبار العسكرية لطوبال عثمان بان نادر خان قد ترك في بغداد اثني عشر الف جندي وتوجه نحو غربها، فاسرع طوبال عثمان الى السيطرة على موارد الماء في دجلة والتمركز حولها منتظرا وصول نادر خان. وفي صباح يوم 18 تموز 1733 اصبح الجيشان العثماني–الايراني وجها لوجه في موضع بالقرب من الدجيل، وفي اليوم التالي اندلعت معركة عنيفة، احرز في بدايتها نادر خان انتصارا ساحقا على الجيش العثماني الذي بدأ يتقهقر ويتراجع نحو الخلف، تاركا بعض المدافع غنيمة لنادر خان، ومما زاد من سوء وضع الجيش العثماني انسحاب بعض بيكات الاكراد من ساحة المعركة، فاصبح الجناح الايمن للجيش العثماني مكشوفا للجيش الايراني الذي ركز هجومه عليه، ازاء هذه الحالة اضطر طوبال عثمان إلى استدعاء جيشه الاحتياطي المؤلف من عشرين الف جندي، وزج بهم في ساحة المعركة التي بدأت تميل في صالح العثمانيين، لقد كان الجيشان يحاربان في ظروف جوية صعبة، من تصاعد الغابر الكثيف في اجواء المعركة، واشعة الشمس المحرقة، اضافة إلى ذلك أن الجيش الايراني كان يحارب في حالة عطش شديد بسبب سيطرة الجيش العثماني على موارد الماء، وقد سقط نادر خان مرتين من جواده، وهرب لوائه من ساحة المعركة لاعتقاده أن نادر قد قتل. بعد تسع ساعات من الحرب العنيفة، لاحت بوادر الهزيمة في الجانب الايراني، وقد فر نادر خان من ساحة المعركة

مجروحا، بعد أن ترك جثث قتلاه في ميدان القتال، إذ بلغت خسائره اكثر من ثلاثة الاف قتيل حسبما تشير إلى ذلك المصادر الايرانية نفسها. أمّا المصادر العثمانية فتبالغ في تقدير عدد القتلى، فتوصل هذا العدد إلى خمسة عشر الف قتيل، وبعضها 30 الف قتيل، والسبب في مبالغة هذه المصادر يرجع إلى مفاخرة مؤرخي الدولة العثمانية بأنزال ضربة قاصمة بخصمهم نادر خان. وفي اللحظة التي سمع بها احمد باشا بانتصار طوبال عثمان على خصمه، اندفع نحو الحامية المحاصرة لبغداد، فقتل الكثير منهم، وفر الباقون نحو ايران تاركين جميع معداتهم غنيمة لأحمد باشا. لقد رجع طوبال عثمان إلى بغداد، ودخلها بدون ابهة وحاشية واستقبله الاهالي استقبالا رائعا، وتوافد عليه الاهلون ويظهرون فرحهم على زوال خطر نادر خان عنهم، وغادر بغداد متوجها إلى كركوك، وقيل أن احمد باشا هو الذي عرض عليه مغادرة بغداد، لقلة المؤن عنده.

إن هزيمة نادر خان، كان من المؤكد ستؤثر على سمعته أولاً كقائد عسكري محنك، ويفقد نادر خان تلك الشعبية التي يتمتع بها بين الايرانيين ثانيا، غير انه عمل كل ما في وسعه على اعطاء صفة شرعية لهزيمته، معزيا ذلك إلى انها (مشيئة الله) يجب أن تقع، كما دفع لكل جندي فقد حصانه عشرة تومانات، وبعد ثلاثة اشهر من هزيمته امام طوبال عثمان، اصبح نادر خان مستعدا للحرب من جديد بجيش اقوى من السابق ومجهز بأحدث الاسلحة وبإعداد تفوق ما كانت عليه في السابق، بهذا الجيش زحف نادر خان من همدان في 2 تشرين الأول 1733م متوجها نحو العراق، وقد تصدى له قرب زهاب جيش عثماني قوامه عشرين الف مقاتل بقيادة ممش باشا إلاَّ انه استطاع أن يهزمه ثم توجه إلى منطقة سليمان بك ومنها إلى كركوك حيث يمكث خصمه طوبال عثمان.

لكن نادر خان لم يتعرض لخصمه، بل زحف نحو سورداش كما ارسل بعض القوات نحو اق دربند في محاولة لجر طوبال عثمان الخروج من كركوك، وفي الوقت نفسه ارسل نادر خان، محمد خان قاجار على راس جيش كبير لفرض الحصار على بغداد التي كانت لا تزال تئن تحت المجاعة. لقد قرر طوبال عثمان خوض المعركة غير المتكافئة، وعند سهل

ليلان جنوبي شرقي كركوك التقت القوات العثمانية بالصفوية في 24 تشرين الاول 1733، ودارت معركة عنيفة عند مضيق اق دربند ، بالرغم من أن الجيش العثماني كان قليلا قياسا إلى جيش نادر خان، فقد استطاع أن يحرز في بداية المعركة بعض الانتصار، غير أن الخيالة الفرس استطاعوا التوغل إلى عمق الجيش العثماني، مما اضطر القائد الاعرج أن يترك مكانه، ويمتطي جواده ليصد هجوم الجيش الايراني إلاّ انه سرعان ما سقط من جوداه وخر صريعا في ساحة المعركة ثم استسلم بقية الجيش العثماني لنادر خان. إن مقتل طوبال عثمان، بهذه الصورة المؤلمة، لا ترجع إلى اخطاء من الرجل نفسه وانما انعكست مساوئ الباب العالي على الموقف. وان من اسباب هزيمة طوبال عثمان في هذه المعركة مع نادر خان هو نتيجة انتصار عثمان في النزاع الأول مع نادر خان فقام بتسريح الكثير من جنده مما جعل الميزان العسكري يميل إلى جانب الايرانيين فضلا عن مرض طوبال عثمان الذي طلب من الباب العالي اعفاءه من قيادة هذه الحملة، كل هذه العوامل جعلت المعركة غير متكافئة بين الطرفين لا من حيث العدد ولا العدة.

لقد احتل الايرانيين بعد معركة ليلان شهرزور ودرنه وكركوك أمّا نادر خان فقد طلب من بعض قواته المرابطة في سامراء بقيادة حاكم لورستان بابا خان بالاستيلاء على المدن المهمة في جنوب العراق مثل الحلة والنجف وكربلاء من اجل منع ايصال التموينات الى القوات العثمانية المتبعثرة بعد هزيمتها. ثم توجه نحو بغداد التي توقعت عودته إليها، وكانت الاوضاع فيها ليست جيدة اذ ما ان وصل نبأ مقتل عثمان باشا طوبال اليها حتى ساد الهلع فيها، وارتفعت اسعار المواد الغذائية.

اما احمد باشا فقد سارع بترميم اسوار بغداد وتحصينها، ولم يسمح للهاربين من جيش طوبال عثمان الدخول إلى بغداد، كما اصدر احمد باشا اوامره بالسماح لكل من يرغب ترك بغداد واللجوء إلى الاطراف، وبعث هو بعائلته إلى البصرة.

كان والي بغداد الذي ادرك صعوبة مقاومة القوات الايرانية قد قرر الدخول في مع نادر خان مفاوضات في كانون الاول 1733، مع ذلك بدا حصار الاخير لبغداد في كانون

الثاني 1734م، غير أن هذا الحصار لم يدم طويلا إذ اضطر نادر خان إلى رفع الحصار بسبب حدوث تمرد في شيراز بقيادة محمد تقي بلوش، فتم استئناف المفاوضات التي انتهت باتفاق بين الطرفين على صلح يتضمن نقاط لا تخرج عن الاعتراف بالحدود التي رسمت بموجب معاهدة زهاب 1639م، والتسريح العام للأسرى من الطرفين، اضافة إلى تسهيل مهمة الحجاج الايرانيين للعتبات المقدسة.

ان معاهدة الصلح هذه لم تحظ بتصديق الحكومة العثمانية في اسطنبول مما ادى الى تجدد الحرب بين الطرفين لاسيما وان نادر خان استطاع ان يقضي على الاضطرابات في ايران، وقد نجح نادر خان الحاق هزيمة اخرى بالجيش العثماني قرب قارص في 18 حزيران 1735، ونجح في الاستيلاء على تفليس وكنجه ويريفان. كما ارسل قوة للسيطرة على البصرة بقيادة لطيف خان قائد الاسطول الايراني، الذي استطاع الدخول إلى شط العرب على راس اسطول صغير يتألف من ثلاث سفن كبيرة من نوع الغراب، و 50 سفينة صغيرة من صنف الترانكي، وعدد من الزوارق، كما اصدر اوامره إلى 8000 جندي ايراني بالزحف عن طريق البر لمساعدة الاسطول الايراني في احتلال البصرة، غير أن قائد الاسطول الايراني قام بالزحف نحو البصرة قبل وصول القوات الايرانية البرية، وعندما علم متسلم البصرة، بأمر توجه الاسطول الايراني نحو البصرة، طلب من مقيم شركة الهند الشرقية الانكليزية مارتن فرينج، وضع السفينتين العائدتين إلى الشركة وهما رويل جورج ودين، تحت تصرفه، وعندما رفض المقيم طلبه، استولى المتسلم عنوة على السفينتين وامر مائتي من الجنود لامتطائها والتوجه لملاقاة لطيف خان واستطاع المتسلم عن طريق السفينتين مواجهة الاسطول الايراني في منطقة ضيقة من شط العرب واستمر تبادل اطلاق النار ثلاثة ايام، اضطر الاسطول الايراني في الاخير إلى الانسحاب.

لقد اعقب انسحاب نـادر خان من البصرة الى توقيع معاهدة القسطنطينية في 17 تشرين الاول 1736 بين الدولة العثمانية وايران بقيادة عاهلها الجديد نادر شاه الذي توج شاها لإيران في 18 شباط 1736. وقد اقرت المعاهدة حدود عام 1639 بين الدولتين

ونصت على تبادل السفراء بينهما، وكان ذلك لأول مرة، فضلا عن امتيازات حصلت عليها ايران بشأن زوارها الى العتبات المقدسة، وحقها في تعيين امير للحج، وتبادل الاسرى.

المرحلة الثالثة: حملة نادر شاه على العراق عام 1743.

اصبح العراق في مأمن من خطر نادر شاه بعد عام 1736م لانشغاله في قمع المعارضة الداخلية، ولقيادته حملته المشهورة على الهند في عام 1738م. وفي عام 1741م، تقدم نادر بطلبات إلى الدولة العثمانية تضمنت حرية التجارة التامة، ولأكساء الكعبة الشريفة من قبله، وعدم بيع وشراء الاسرى من كلا الطرفين، غير أن الدولة العثمانية رفضت هذه الطلبات، فاتخذ نادر شاه هذا الرفض حجة لهجومه الثالث على العراق.

في تموز عام 1743م بدأت القوات الايرانية التي تقدر بـ 170000 جندي تتجه نحو الاراضي العراقية عن طريق محور كركوك-اربيل، وقد سيطرت هذه القوات على قسم من شهرزور ودرنه ومندلي، كما قامت في الوقت نفسه قوات ايرانية اخرى بالهجوم على ارضروم بهدف اشغال الدولة العثمانية بالحرب على جهتين، وقد وصلت إلى مسامع احمد باشا والي بغداد اخبار عبور القوات الايرانية حدود العراق الشرقية، فبذل كل ما في وسعه تموين بغداد وترميم اسوارها وسد الثغرات فيها، غير أن نادر لم يتعرض هذه المرة إلى بغداد وانما توجه نحو شمال العراق وذلك لرغبته في قطع طرق المواصلات العثمانية في شمال العراق، فالقوات العثمانية في جميع حملاتها كانت تنطلق من الموصل وتتجه نحو بغداد، فسيطرته على الموصل تعني أن بغداد والبصرة اصبحت في متناول يده، وعلى هذا الاساس زحف نادر شاه نحو شمال العراق. فتوجه نادر شاه نحو كركوك وفرض حصارا شديدا على قلعتها، وبدأت المدفعية الايرانية تقصفها وبشكل مركز، واستمر القصف لمدة يومين، استسلمت المدينة بعد هروب حاكمها حسين باشا جمال اوغلي، وقامت القوات الايرانية بمجزرة رهيبة في القلعة. ومن كركوك بعث نادر شاه بواسطة حسن افندي قاضي كركوك ومعه اثنين من اعيان المدينة وهما محمد افندي ومصطفى اغا، برسالة إلى والي الموصل

حسين باشا الجليلي والى مفتي الموصل يحيى افندي، وقد ذكر في رسالته فتوحاته في الهند والحاقه الهزيمة بالعثمانيين. كما طالب في رسالته الاستسلام قبل فوات الاوان، ثم توجه نادر شاه نحو اربيل، وفرض حصارا عليها، وما لبث أن سقطت هي الأخرى بعد حصار دام اربع ساعات، وفي اربيل تسلم نادر شاه جواب حسن باشا الجليلي والي الموصل، وقد ذكر الجليلي في رسالته أن الموصل مستعدة لرد كيد كل محتل اجنبي، وتوجه نادر شاه من اربيل نحو الموصل، وقبل تحركه ارسل احد رجاله مرة اخرى إلى حسين باشا الجليلي يطلب منه التسليم إلاَّ أن الجليلي رفض ذلك بكل اباء، واعاد قوله أن الموصل مستعدة لرد كل اجنبي وانهم مستعدون لملاقاتهم، وقد اغضب هذا الرد نادر شاه الذي عزم على فرض سيطرته على مدينة الموصل.

كانت اخبار دخول القوات الايرانية الاراضي العراقية، قد تسربت إلى الموصل قبل وصول نادر شاه إلى كركوك، وقد يكون ذلك التسرب عن طريق القوافل التجارية التي تسلك طريق بغداد – الموصل، وعند وصول رسالة نادر شاه إلى اهل الموصل جمع حسين باشا الجليلي الموصليين عند الجامع الاحمر، وفي اجتماع تاريخي حافل قرأ عليهم نص رسالة نادر شاه، فتعالت الاصوات من كل جانب طالبة التمسك بالمدينة والدفاع عنها حتى الرمق الاخير، كما انهم اكدوا للباشا الجليلي عزمهم على خوض غمرات الاخطار والمهالك في سبيل انقاذ الموصل من غائلة المحتل الاجنبي واقسموا امام واليهم، بانهم سوف يقومون بقتل جميع النساء كيلا يقعن بيد الايرانيين إذا ما انتصر عليهم نادر شاه.

بذل حسين باشا الجليلي كل ما في وسعه لترميم سور المدينة وسد الثغرات فيه وتحصين القلاع وتعميق الخندق حتى بادر إلى نقل التراب بنفسه، كما اصدر اوامره إلى سكان الاطراف، بالتوجه إلى داخل الموصل للاحتماء بأسوارها المنيعة خوفا من تعرض نادر شاه لهم.

في 15 تموز 1743م، ظهرت قوات ايرانية تقدر بحوالي عشرة الاف جندي في الجهة الشرقية من الموصل، فارسل حسين باشا الجليلي اخاه عبد الفتاح بك على راس جيش كبير

لاعتراض سبيل الجيش الايراني الزاحف، إلاَّ أن الايرانيين استطاعوا أن يكبدوا جيش عبد الفتاح بك خسائر فادحة، فاضطر أن يرجع إلى الموصل التي اغلقت ابوابها منتظرة مصيرها المجهول، كما تعرض الجيش الايراني لقوات عثمانية جاءت من حلب بقيادة واليها حسين باشا القازوقجي لمساعدة الموصليين. وفي 10 ايلول 1743 وصلت قوات ايرانية الى قرية يارمجة شرقي دجلة على بعد زهاء خمسة كيلومترات عن مدينة الموصل، فاسرع الوالي حسين باشا الجليلي بإرسال ثلة من الخيالة يقدر عددها بثمانمائة مقاتل للتصدي لها، وبعد قتال عنيف، تمكنت هذه القوة من الانسحاب الى المدينة بالرغم من محاولة الايرانيين قطع طريق عودتها. وفي 26 ايلول 1743م، وصل نادر شاه إلى مشارف الموصل بجيش قوامه 150 الف جندي، وخيم في يارمجة، وهي قرية بالقرب من الموصل، واتخذها مقرا له، وبعد ثلاثة ايام نصب نادر شاه جسرا على نهر دجلة لعبور قواته إلى جانب المدينة، وامر ببناء اثني عشر برجا من الاحجار في قبالة ابراج المدينة ووزع على هذه الابراج مدافعه الضخمة. وفي 28 ايلول 1743م، بدأت المدفعية الايرانية تقصف المدينة وبشكل مكثف، لقد استمر القصف مدة ثلاثة ايام بدون انقطاع، إلاَّ أن هذا القصف العنيف والمركز لم يثن عزم المدافعين الذين كانوا يباغتون جيش نادر شاه ليلا ويلحقون به خسائر فادحة.

رأى نادر شاه أن قصف المدينة من كل الجهات، لا يجدي نفعا، فعمد على تغيير خطة القصف، فامر بقصف المدينة من جانب واحد، بهدف احداث ثغرة في سورها، فبدأت المدفعية، توجه نيرانها على برج باش طابية الشمالي والذي كان مقرا لحسين باشا الجليلي، الذي اضطر إلى ترك مقره، والتوجه إلى السراي، لقد ادى القصف الشديد إلى تصدع جدران البرج، وفتح ثغرة واسعة في السور، تمكن بعض الخيالة الإيرانيين من الاندفاع منها إلى الداخل إلاَّ أن المحاصرين كانوا يطلقون النار عليهم، فيردونهم إلى اعقابهم، وقد استطاع الموصليون بناء ما تهدم من السور، كما اقاموا حائطا ضخما خلف الثغرة مباشرة واوصلوها بالسور، بل انهم استطاعوا في احدى الليالي أن يسرقوا مقر قيادة الايرانيين ويأتوا بالغنائم إلى الخندق الذي كان خاليا من الماء حيث القى لهم اصحابهم الحبال وتسلقوا بها إلى اعلى

السور. امر نادر شاه بقصف المدينة ومن جميع الجاهات مرة اخرى، ولمدة خمسة ايام بدون انقطاع، حتى قدر ما القى على المدينة من قنابل بأربعين الف قنبلة ومائة الف قذيفة هاون، إلاَّ أن تأثير هذه القنابل كان قليلا، لان مفعولها كان يبطل بفعل ابار الخندق القائمة خلف السور، أو انها تنفجر في الهواء وبعضها تسقط بين البيوت دون أن تنفجر، فيلجأ الموصليون إلى جمعها واستعمالها مرة اخرى ضد الجيش الايراني. لقد ادرك نادر شاه أن المدينة لن تسقط بسهولة، فلجا إلى خطة عسكرية اخرى، وذلك باستغلال عامل الزمن لصالحه عن طريق فرض حصار التعطيش والتجويع، فأمر بتحويل احدى فرعي نهر دجلة عن الموصل، وسد جميع الطرق الموصلة إلى المدينة، وتوجه هو إلى مهاجمة القرى المحيطة بالموصل، والتي لم تسلم من فتكه، وانزل جام غضبه على اليزيدية في سنجار وقتل كثيرا منهم، كما بعث بعض قواته إلى التون كوبري التي رفعت راية الاستسلام حال اقتراب القوات الايرانية منها، وبعد أن نهب نادر شاه القرى المحيطة وفتك باهلها، عاد إلى الموصل، ليجرب خطة عسكرية اخرى، هذه الخطة هي حفر انفاق ارضية تحت سور المدينة لنسفه بالبارود، وكانت الخطة المرسومة، أن يقوم بعض الجنود الايرانيين باعتلاء اسوار المدينة بواسطة الحبال، غير أن هذه الخطة قد فشلت بسبب عدم انفجار الالغام بسبب الرطوبة، إذ لم ينفجر من الالغام إلاَّ اثنان الحقا بالقوات الايرانية ضرر اكثر مما الحقا بالموصلين، وقد وقع الجنود الذين كانوا قد نزلوا إلى اسفل سور المدينة فريسة بيد اتباع حسين باشا الجليلي الذي امر بقتلهم جميعا.

بعد أن استنفذ نادر شاه كل الوسائل العسكرية من اجل السيطرة على الموصل، ادرك أن طلب الصلح خير له من البقاء في الموصل بعيدا عن مقر سلطنته خاصة وان اخبارا تناهت له بحدوث تمرد جديد في فارس وشيروان، فقرر فتح باب المفاوضات مع حسين باشا الجليلي الذي رفض أول الامر مقابلة وفد ايراني لخوفه أن يكون الامر خدعة عسكرية، ثم ارسل نادر شاه وفدا اخر برئاسة ملا باشي مفتي الجيوش الايرانية، واجتمع هذا مع حسين باشا مفتي الشافعية وقره مصطفى بك قاضي الموصل ووسط مظاهر الحفاوة والتكريم تم

الاتفاق على شروط غريبة للصلح، لا تزيد على طلب نادر شاه عدد من الخيول ومقدارا من الزيت، فقفل نادر شاه راجعا إلى بغداد في 15 تشرين الأول 1743م. لقد كان دفاع الجليليين عن الموصل وصمودهم امام نادر شاه، مدعاة إلى رفع منزلتهم لدى السلطان العثماني محمود الأول الذي كافأ حسين باشا الجليلي بتمليكه قرية (قره قوش) التي كانت من خواص آيالة شهرزور.

في الوقت الذي كانت الموصل تدافع عن كيانها اصدر نادر شاه اوامره إلى خواجة خان قائد القوات الايرانية، في الحويزة بالزحف على البصرة والسيطرة عليها، فبعث خواجة زادة برسالة إلى متسلم البصرة يطلب فيها تسليم المدينة، وقد رد متسلم البصرة بكل دقة على رسالة خواجة زادة، بانه من اتباع السلطان العثماني وخاضع لوالي بغداد احمد باشا، فكيف يمكنه تسليم المدينة له. في 28 اب 1743، قامت القوات الايرانية البلغ عددها اكثر من 12000 جندي باجتياز شط العرب على جسر من القوارب شيد لهذا الغرض، أو بوساطة السفن، وبعد اتمام عملية العبور الى الضفة الغربية من شط العرب، واصل تقدمه بمحاذاة النهر، فاستولى على قرية السبيليات الواقعة على ضفة شط العرب، على بعد 13كم من مدينة البصرة، حيث ارتكبت مذبحة رهيبة، قتل فيها الرجال، واسترق النساء والاطفال. ثم واصل تقدمه مجتازا الانهار والجداول العديدة التي تأخذ مياهها من شط العرب، حتى وصل الى قرية السراجي، على النهر المنسوب اليها، وهي قرية تبعد زهاء كيلومترين فقط، فاستولى عليها، وارتكب فيها مذبحة كما فعل مع سابقتها، وعاثت قوات الغزو في عدد من القرى في حين اضطرت قرى اخرى الى اعلان خضوعها للغزاة، خشية تعرضها لنفس المصير. ولم تنج الزبير وهي بلدة مهمة تقع على حافة البادية الى الجنوب من البصرة، من الغزو والتخريب. كانت القوات الايرانية قد بدأت بفرض حصارها على البصرة في 28 اب وقد اصدر المقيم البريطاني في البصرة مستر دوريل اوامره بمغادرة جميع السفن الانكليزية مياه شط العرب وعدم الاقتراب منها، بل وامر بأبعاد فرقته الصغيرة التي كان يملكها هو شخصيا، ولكن بحارة هذه الفرقة كانوا من العرب

فارغموا قائدها على أن يرجع بها إلى البصرة، لقد قام المتسلم بسجن المستر دوريل بسبب رفضه اعارة سفنه، في خيمة بالقرب من اسوار المدينة، وقد رضخ في دوريل، لإرادة المتسلم. وقد فشلت عدة هجمات شنتها القوات الايرانية في اثناء الحصار، فقد كانت هذه القوات تفتقر الى المدفعية الثقيلة، كما ان تسليحها كان بوجه عام تسليحا خفيفا، وقد احست القيادة الايرانية بهذا النقص، وكانت التقارير المرفوعة الى نادر شاه تطالب بتزويد الحملة بمدفعية ثقيلة العيار يمكن ان تلعب دورا حاسما في الحرب. وفي 27 تشرين الثاني وصلت الى مواقع القوات المهاجمة مدافع ثقيلة لاستخدامها في الحصار. ورغم عدم وجود معلومات عن عدد هذه المدافع ومدى فاعليتها فان بإمكان المرء ان يتصور اهميتها في تعزيز القوات الغازية، فقد قصفت المدينة قصفا شديدا اضر ببعض المنشآت، وقد استمر القصف ليل نهار، اصيبت فيه بعض المباني المهمة مثل القنصلية الفرنسية وخان الكرملين. ثم شددت القيادة الايرانية من ضغطها على القوات المدافعة فازداد قصف مدافعها، ثم قامت بهجوم اخر الا ان قوات البصرة نجحت مرة اخرى من صدها ودحرها، وسرعان ما اصدر نادر شاه اوامره إلى قائد الحملة بفك الحصار في 27 تشرين الثاني 1743م، يبدو أن انسحاب القوات الايرانية يرجع إلى اعتقاد نادر شاه انه لا جدوى من استمرار الحصار بعد أن اخفق في احتلال الموصل، والتي تشكل عقدة المواصلات بالنسبة للقوات العثمانية، واحتلالها يعني من الوجهة العسكرية سقوط بغداد والبصرة عسكريا، ومهما يكن من امر، فان نادر شاه بعد فشله في السيطرة على الموصل، رجع إلى اطراف بغداد التي خيم عليها الخوف والقلق، غير أن هذا الخوف سرعان ما تبدد بعد أن اعلن نادر شاه بعد زيارته لمرقد موسى الكاظم (ع) انه يرغب في عقد اجتماع بمدينة النجف الاشرف للتباحث في الامور التي اختلف عليها المسلمون، ويضع حدا للنزاع بين الطرفين العثماني – الايراني، وقد اختار فعلا كل من نادر شاه واحمد باشا عدد من العلماء للاجتماع في النجف، وبعد مناقشات طويلة بين علماء الطرفين، اصدروا ما يمكن أن نسميه بالبيان الختامي لمؤتمرهم، تضمن امورا تتعلق بالبحث على امور وحدة المسلمين

وضـرورة معاملة الاسـرى باللطف والاحسان وتعيين السفراء في كلتا الدولتين، وبعد انتهاء مؤتمر النجف عاد نادر شاه إلى بلاده لقمع التمرد الذي حدث ضده، وفي 14 ايلول 1746م، توصلت الدولتان العثمانية والايرانية إلى عقد معاهدة جديدة تضمنت الاعتراف بالحدود التي رسمت على اساس معاهدة زهاب 1639م، وتسهيل سفر الحجاج الايرانيين إلى بيت الله عن طريق بغداد الشام، وتبادل السفراء بين الدولتين، وعدم جواز بيع لأسرى وفسح المجال لعودة الراغبين منهم. وتنفيذا لبنود المعاهدة الجديدة تم تعيين احمد باشا كسريه لي سفيرا لدى ايران، وعين الشاه بدوره مصطفى خان سفيرا لها في اسطنبول. وحمل كل واحد من السفيرين، وهو متوجه الى مقر عمله الهدايا ونسخة مصدقة من المعاهدة، والتقيا في بغداد، ولكن السفير العثماني رجع الى بغداد بعد وصوله الى همدان لسماعه بمقتل نادر شاه الذي اغتيل في 20 حزيران عام 1747، اما السفير الايراني فمكث في بغداد ريثما ينجلي الموقف في بلاده.

لقد اصبح العراق بعد مقتل نادر شاه بمأمن من الخطر الايراني، لان ايران اصبحت مسرحا للفوضى والاضطرابات والصراع بين الطامعين على السلطة، ولم تحاول الدولة العثمانية التدخل في شؤونها الداخلية لأنها كانت تحاول القضاء على النفوذ المملوكي في بغداد بعد وفاة احمد باشا سنة 1747م، ولأنها ادركت أن تدخلها في الشؤون الداخلية لا يجدي نفعا، لاسيما وانها قد مرت بتجارب من هذا القبيل، عندما استغلت الغزو الافغاني لإيران حين امرت ولاة بغداد التدخل في شؤون ايران الداخلية، واحتلت بعض المدن المهمة، ثم اجبرت على التخلي عنها بسبب بروز شخصية نادر شاه وكانت تخشى لو تدخلت في شؤونها الداخلية أن يظهر مغامر مثل نادر شاه، عندئذ تتكبد خسائر فادحة، وتضطر إلى اخلاء المناطق التي سيطرت عليها، فضلا عن انشغال الدولة العثمانية في حروبها ومشاكلها الاوروبية لاسيما مع روسيا. ومن اجل ان تحافظ الدولة العثمانية على بنود المعاهدة التي ابرمتها مع نادر شاه عام 1746 فقد رفضت الاستجابة للسفير الايراني مصطفى خان الذي طلب مساعدتهم للوصول الى العرش الايراني.

ـ المصالح الاوربية في العراق:

لقد شهد القرن السابع عشر تزايد التنافس الاوربي حول العراق، وقد اندلع صراع محموم حوله بين البريطانيين والفرنسيين والهولندين، وسيقتصر الحديث الان على النفوذ الهولندي، مرجئين الكلام عن التنافس البريطاني-الفرنسي الى فصل لاحق.

كان القرن السابع عشر الميلادي بداية فعلية لظهور المصالح الهولندي في العراق، اذ كانت شركة الهند الشرقية الهولندية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد واحدة من اكثر القوى الغربية اهمية في الخليج العربي، كما كان لها بعض المصالح التجارية مع البصرة. لقد ظهرت اول سفينة هولندية في البصرة عام 1639 غير انها كانت سفينة مستأجرة من قبل شاه ايران، كما انها لم تقم ببعثة تجارية لشركة الهند الشرقية الهولندية، وظلت الحالة عدة سنوات الى ان بعث في نهاية الامر، مدير المنشآت أو المؤسسات التجارية الهولندية في الخليج العربي، ووليبراند جيلنسن دي يونغ عددا من السفن الى البصرة لاستقصاء الامكانيات التجارية، وقد سببت هذه البعثة الكبيرة نسبيا المؤلفة من ثلاث سفن نوعا من الهلع لدى لبريطانيين الذين كانوا حتى ذلك الوقت الوحيدين الذين يتاجرون في البصرة على مقياس محدود جدا. ولكن البعثة الهولندية انتهت بكارثة عندما دمرت النيران احدى السفن الهولندية، ففقدت على اثر ذلك جميع حمولتها، وبذلك فقد تردد الهولنديون لعدة سنوات في تكرار التجربة، وحتى حينما تكررت فإنها كانت بنسبة اصغر بكثير من الاولى. ومنذ عام 1651 فصاعدا كانت هناك حملات تجارية هولندية تجارية سنوية الى البصرة تحت اشراف ومسؤولية المدير في بندر عباس علما بان هناك بعض التوقفات أو المعوقات. وتمثل النشاط الرئيس للشركة في البصرة ببيع منتجات شرق وجنوب شرق اسيا من البهارات

والسكر والانسجة القطنية الهندية، والقصدير والاواني الخزفية الصينية، كما جلبت في بعض الاحيان المنتجات الاوربية الى البصرة وبالأخص الانسجة الصوفية الهولندية، وكانت ارباح مثل هذه الحملات التجارية السنوية محدودة نسبيا في العادة.

في تسعينيات القرن السابع عشر تدهورت تجارة البصرة حتى وصلت اخيرا الى مرحلة التوقف، ويرجع ذلك الى الحروب التي سادت المنطقة، وقد تراجع الهولنديون اخيرا عن البصرة عندما صار الموقف في المنطقة سيئا جدا بحيث صارت فيه التجارة امرا غير ممكن تماما. ومع ذلك ظل الهولنديون يترقبون امكانية العودة ثانية الى البصرة، وقد اعاد الهولنديون فتح مؤسساتهم التجارية في البصرة حالما ظهرت المناسبة لذلك في اوائل القرن الثامن عشر. ولكن كانت الارباح في البداية ضئيلة ويرجع ذلك الى تعكر صفو التجارة بشكل جدي نتيجة لاضطراب الاوضاع الداخلية، غير انها اخذت تتحسن ببطء، ومع ذلك فان هذا كان له اهمية كبيرة على اعتبار ان التجارة مع ايران قد تدهورت بشكل كبير ابان الفوضى السياسية المتنامية في ايران خلال السنوات الاخيرة لحكم الصفويين، وفيما بعد ابان فترة الحكم الاستبدادي لنادر شاه. وقد اسفر ذلك التدهور الى سيادة الفقر بين الايرانيين وبالتالي ضعف التجارة.

لقد حرص الهولنديون في البصرة على المحافظة على الحياد بين السلطات العثمانية في المدينة وبين القبائل العربية. وقد سببت هذه الحالة بين الحين والاخر مشاكل مع العثمانيين الذين كانوا يتهمون في بعض الاحيان الهولنديين بالتعاون مع الثوار العرب. وقد تزايدت اهمية التجارة الهولندية مع البصرة، وتمثلت تلك الاهمية بالنسبة للهولنديين من اجل احراز تحقيق كامل الامتيازات التي منحها السلطان للأوربيين منذ عام 1612 في البصرة. ولم يكن الحصول على ذلك بالأمر السهل وذلك لان متسلمي الجمارك سيحصلون على دخل اقل اذا ما دفع الهولنديون ٪3 بدلا من ٪5 غير انه بفضل الجهود التي بذلها السفير كورنيلس كالكوين في اسطنبول صار الوالي اخيرا راغبا في تطبيق جزء من الامتيازات فالضرائب انقصت الى ٪4، والواقع ان هذه لم تكن تشكل منفعة كبيرة، اذ انها ادت الى تدهور العلاقات مع السلطات العثمانية المحلية.

لقد واجه رخاء البصرة ومكانتها اضطرابا الى حد ما، فقد اعتمدت المدينة على ما يصل اليها سنويا من قوافل الزوارق المنحدرة اليها عن طريق انهار العراق، وكانت تلك السفن تحمل كميات كيرة من الذهب والفضة والاموال لابتياع البضائع التجارية في البصرة، وكانت هذه التجارة محمولة بأيدي التجار الارمن واليونان والجورجيين. وقد تضرر هؤلاء كثيرا من المطالبات بالدفع غير النظامية المفروضة عليهم من قبل العثمانيين اصحاب المناصب الرفيعة. وكان التجار العرب والايرانيين والاوربيون يبيعون منتجاتهم في البصرة، وكانت السلع المصدرة من البصرة لها منفعة محلية فقط.

كانت اثمان معظم السلع المستوردة تدفع نقدا، وفي بعض الاحيان يدفع اللؤلؤ مقابل اثمانها. ولقد ادى النزاع بين السلطات العثمانية والقبائل المحلية الى سد الطرق التجارية فتضرر لذلك التجار كثيرا وان لم يكونوا طرفا في هذا النزاع.

كانت اربعينيات القرن الثامن عشر واوائل الخمسينيات منها من الفترات التي ازدهرت فيها البصرة كثيرا، وفي الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية الايرانية تتدهور، فان قسما من تجارتها كان يسلك الطريق البحري عن طريق الخليج العربي بينما كان طريق القوافل يسير عبر العراق، ومؤشرا الى تنامي اهمية البصرة، مقابل تدهور اهمية بندر عباس، فان المقيم الهولندي في البصرة صار مستقلا عن الدائرة في بندر عباس وصار المقيمون الهولنديون في البصرة مسؤولين بشكل مباشر للحاكم العام للهند الشرقية الهولندية. غير ان الهولنديين لم يكونوا محظوظين تماما هناك، اذ ان العلاقات مع الموظفين العثمانيين كانت دائما صعبة. ووقعت الازمة حينما قاوم المقيم الهولندي تيدو فردريك فان نبهاوزن عام 1753 المطالبات العثمانية الجديدة، وانتهت الازمة بغلق المقيمية الهولندية في البصرة. ومن الواضح ان رؤساء شركة الهند الشرقية لم يقصدوا ان تكون هذه الحالة نهائيا، اذ انهم عارضوا نبهاوزن عندما عرض مبنى الشركة الهولندية في البصرة للبيع. غير ان الشركة لم ترجع ابدا الى المدينة وان كانت هناك بعض المبادرات من جانب التجار المحليين أو من جانب الادارة العثمانية.

- قائمة المصادر

-ابراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، بلا.ت).

-ابراهيم خليل احمد وخليل علي مراد، ايران وتركيا: دراسة في التاريخ الحديث والمعاصر، (الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر، 1992).

-احمد محمود علو السامرائي ومحمد حمزة حسين الدليمي، "الانكشارية ودورهم في الدولة العثمانية حتى سنة 1826"، مجلة التربية والعلم، جامعة الموصل، المجلد: 17، العدد: 44، لسنة: 2010.

-اوليا جلبي، "بغداد في رحلة اوليا جلبي 1645و 1652"، ترجمة: صبحي ناظم توفيق وانيس عبد الخالق محمود، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة-بغداد، العدد: 33، لسنة: 2012.

-باسم عبد الحميد حمودي، "في حصارات البصرة وصمودها"، مجلة المورد، المجلد: 23، العدد: 2، لسنة: 1995.

-تحسين اونال، "استحضارات السلطان مراد الرابع للحملة على بغداد 1638"، ترجمة: صيحي ناظم توفيق، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة، بغداد، العدد: 34، لسنة: 2012.

-جميل موسى النجار، العلاقات العثمانية-القاجارية وانعكاسها على العراق 1823-1843، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2010).

-حسن الجاف، الوجيز في تاريخ ايران، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2003)، ج3.

-حسين مؤنس، الشرق الاسلامي في العصر الحديث، (القاهرة: مطبعة الحجازي، 1938).

-حميد حمد السعدون، امارة المنتفق واثرها في تاريخ العراق والمنطقة الاقليمية 1546-1918، (عمان: دار وائل للنشر، 1999).

-ستيفن هيمسلي لونكريك، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر خياط، (بغداد: منشورات مكتبة اليقظة العربية، 1985).

-سعيد الديوه جي، "صمود البصرة امام غزو نادر شاه سنة 1156هـ"، مجلة المورد، المجلد: 15، العدد: 3، لسنة: 1986.

-سيار كوكب علي الجميل، تكوين العرب الحديث، (الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر، 1991).

-سير دي لوار، "العراق في رحلة سير دي لوار: القصة الحقيقية للحصار الاخير الذي فرضه السلطان مراد الرابع على بغداد 1638"، ترجمة وتعليق: خالد عبد اللطيف حسين، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة-بغداد، العدد: 32، لسنة: 2012.

-شاهين مكاريوس، تاريخ ايران، (القاهرة: دار الافاق العربية، 2003).

صالح محمد العابد وعلاء موسى كاظم نورس وعماد عبد السلام رؤوف، "العثمانيون يستعيدون حكم العراق"، بحث ضمن كتاب العراق في التاريخ، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1983).

-طارق نافع الحمداني، "صمود البصرة ومقاومتها للهجمات الفارسية المتكررة في العقد الثالث من القرن السابع عشر"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 25، لسنة: 1984.

عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2004)، ج5.

-عبد الجبار محمود السامرائي، "انماط من الحصار على العراق 1156هـ/ 1743م"، مجلة المورد، المجلد: 23، العدد: 2، لسنة: 1995.

-عبد العزيز نوار، تاريخ الشعوب الاسلامية، (القاهرة: دار الفكر العربي، بلا.ت).

-عبد الواحد ذنون طه، "حسن باشا مؤسس نظام المماليك في العراق"، مجلة المورد، المجلد: 3، العدد: 3، لسنة: 1974.

-عزتلو يوسف بك اصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان، (القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر، 2011).

-علاء موسى كاظم نورس، "حملة نادر شاه على بغداد"، مجلة المورد، المجلد: 8، العدد: 4، لسنة: 1980.

--علي شاكر علي، تاريخ العراق في العهد العثماني1638-1750، (الموصل: مطبعة اوفسيت الشعب، 1985).

__________، "تكريت في العهد العثماني 1518-1733 بين الحصار والمقاومة"، مجلة المورد، المجلد: 23، العدد: 2، لسنة: 1995.

-علي شعلب، بطرس الاكبر قيصر روسيا، (بيروت: دار الفكر اللبناني، 1992).

-علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، (بيروت: دار راشد، 2005)، ج1.

-فيصل شيخ الارض، نظام الحكم والادارة في الدولة العثمانية في عهد مرادجه دوسون للمؤلف مرادجه دوسون سفير دولة اسوج في الاستانة المتوفى سنة 1807، (رسالة قدمت الى دائرة التاريخ في جامعة بيروت الامريكية، 1942).

-كمال مظهر احمد، دراسات في تاريخ ايران الحديث والمعاصر"، (بغداد: الامانة العامة للثقافة والشباب، 1985).

-محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الصفوية في ايران، (بيروت: دار النفائس، 2012).

-محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، تحقيق: احسان حقي، (بيروت: دار النفائس، 1981).

-مصطفى عبد القادر النجار، "البصرة اول قاعدة بحرية للتوسع العثماني في الخليج العربي 1546-1869"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد: 3، لسنة: 1986.

-نادية محمود مصطفى، العصر العثماني من القوة والهيمنة الى بداية المسألة الشرقية، (القاهرة: المعهد العالي للفكر الاسلامي، 1996).

-نظمي زاده مرتضى افندي، كلشن خلفا، ترجمة: موسى كاظم نورس، (النجف: مطبعة الاداب، 1971).

-ياسين خير الله العمري الخطيب الموصلي، غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام، قدم له واعتنى به: سامي عبد الله باشعالم العمري، (القاهرة: شركة العاتك للطباعة والنشر والتوزيع، 2006).

-يلماز اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: محمود سلمان، مراجعة: محمود الانصاري، (اسطنبول: مؤسسة فيصل للتمويل، 1988)، ج1.

الفصل السادس

عهد الاسر المحلية
الحاكمة في العراق

شهد العراق منذ منتصف القرن الثامن عشر، وحتى منتصف القرن التالي تكون عدد من الحكومات المحلية في مدنه الرئيسة، شأن معظم ولايات الدولة العثمانية عامة، والولايات العربية منها خاصة. فقد ادى ضعف السلطة المركزية، والانحسار الفعلي للوجود العثماني المباشر عن اقاليمها العديدة، الى قيام سلطة محلية قوية تتمكن من ملء الفراغ الناجم عن ذلك الانحسار، فظهرت في اقاليم عربية مختلفة، حكومات محلية نسقت بدرجات متفاوتة، بين استقلالها الاداري والعسكري الفعلي، وبين وجودها ضمن السيادة العثمانية الرسمية، مثل ال العظم في دمشق، وال القرماني في طرابلس الغرب، وحكومة علي بك الكبير في مصر. وكانت الولايات العراقية قد شهدت، منذ مطلع القرن السابع عشر محاولات متعددة لقوى محلية مختلفة استهدفت تأسيس حكومات وراثية، وكانت ابرز هذه المحاولات في النصف الاول من القرن الثامن عشر حين استطاعت قوى محلية، بعضها جلب من الخارج تحت ضغط ظروف معينة، ونشأت اجيال منه في العراق، وهم المماليك الذين تولوا السلطة في بغداد والبصرة، والبعض الاخر من اسر عراقية صميمة، كالجليليين، والبابانيين الذين تولوا حكم مناطق مهمة اخرى من العراق. وقد ساهموا جميعا في تغيير خصائص الحكم العثماني في البلاد تغييرا واضحا على نحو ميز عهدهم عن سائر عهود السيطرة العثمانية، واسبغ عليه خصائص اجتماعية وسياسية جديدة.

1. المماليك في بغداد:

ـ بدء ظهور طبقة المماليك:

قبل البحث في كيفية قيام المماليك بتأسيس حكمهم في العراق لابد من دراسة الظروف التي ادت إلى تفوقهم في المجتمع العراقي وهم غرباء عنه، لقد وجد الوالي حسن باشا (1704-1723) نفسه أمام مشاكل كثيرة، منها تفكك القوات الانكشارية، وتحللها من المسؤولية وتحولها إلى آلة فساد وفوضى حتى أن اكثرهم لم يعد يلتزم بالحضور في الثكنات إلاَّ لاستلام المرتبات ثم اخذ الكثيرون منهم يشتغلون بمهن مختلفة، وصار عدد كبير منهم لا يجتمعون إلاَّ لرفع صوت العصيان، بمطالبة زيادة الرواتب، أو بطلب عزل وزير، أو نصب وزير، يضاف إلى ذلك مشاكل المجتمع العراقي الذي تسوده العادات العشائرية وتتحكم فيه العصبية القبلية التي تحول دون احترام الحكومة واطاعة انظمتها، ونتيجة لذلك وجد حسن باشا نفسه امام طريقتين: أمّا أن يحكم كما حكم الولاة قبله ويترك الامور تجري في طريقها الاعتيادي، أو يستخدم قوة مرتزقة من غير العراقيين. وقد وجد حسن باشا الطريق الثاني هو الافضل لإقرار الامن والنظام، إذ كان من الصعب عليه أن يتخذ من العراقيين آنذاك قوة يستند عليها في تحقيق ما يريده لصعوبة انقيادهم بسبب تحكم العصبية القبلية فيهم، وكان حسن باشا قد الف استخدام الجراكسة الارقاء في السراي السلطاني، وشاهد جدارتهم وقابلياتهم العسكرية والادارية.

قام حسن باشا بشراء المماليك من أسواق تفليس الزاخرة بالرقيق الابيض وكان هؤلاء يجلبون اطفالا فيودعون في مدارس خاصة بهم ليتعلموا القراءة والكتابة والسباحة والفروسية وفنون القتال، وقد كانت هذه المدارس تضم أيضاً البعض من ابناء الاسر العراقية

والتركية إلاَّ أن عدد هؤلاء كان قليلا بالنسبة لعدد المماليك وكثرتهم، وبعد أن يتخرج هؤلاء من المدارس يدخلون في سلك الجيش أو الوظيفة الحكومية. وقد تم تأسيس دائرة خاصة في بغداد تعرف بـ (ايج دائرة سي) أي الدائرة الداخلية مهمتها الاشراف على شراء المماليك وتدريبهم وقد تكاثروا بالتدريج وكانت اقلية صغيرة منهم من تولد بغداد. ولقد بذل هؤلاء المماليك منتهى جهدهم ليثبتوا وجودهم في المجتمع البغدادي وتفوقهم على غيرهم، واصبحوا بعد وفاة حسن باشا قوة لا يستهان بها، وازدادت هذه القوة تماسكا في عهد ولاية ابنه احمد باشا الذي سار على نهج ابيه في جلب المماليك والعناية بهم وبذلك تعاظم في حكمه المماليك الجراكسة[1] وثبتت اقدامهم في العراق.

ـ الحكم المملوكي في العراق:

ـ سليمان باشا (أبو ليلة) ـ1750 1762:

كان سليمان باشا (أبو ليلة) أول من تولى الحكم في العراق من المماليك، كما اشرنا اليه سابق، وقد كان من بين الكرج الذين اشتراهم حسن باشا وتعهدهم بالرعاية، وقد حصل هذا المملوك على حريته بخدماته لابن سيده، وبشجاعته التي أبداها في الدفاع عن بغداد عند حصارها من قبل نادر شاه عام 1732، ثم تزوج عادلة خانم (البنت الكبرى لأحمد باشا) في السنة نفسها، وقد شغل منصب كتخدا سنين عديدة وظل ينتقل من درجة إلى درجة اعلى واخيرا عهدت اليه ولاية البصرة عام 1736. وقد استمر سليمان على تقديم المزيد من الخدمات بأمانة واخلاص وكان يسارع في تنفيذ ما يؤمر به حتى اصبح الساعد الايمن للباشا كان يرسله من وقت لأخر لتأديب العشائر المتمردة وقد كان يعود منها في كل مرة منتصرا، حتى كوفئ على ذلك بحصوله على لقب باشا. ولما كان الاهالي يهمهم بالدرجة الأولى توفير الامن والاطمئنان فقد صاروا ينظرون إلى سليمان نظرة اجلال وتقدير، واصبح اسمه

1- الجراكسة تسمية عامة اطلقت على الشعوب التي استوطنت شمال القفقاس.

يتردد على السنتهم مقرونا بالهيبة وقوة الشكيمة، ولهذا فان توليه باشوية بغداد سنة 1750 لم يكن أمرا غريبا عليهم إذ خبروه مدة طويلة، ولقد واجه خلال سنين حكمه الأولى بعض حركات التمرد العشائرية إلاَّ انه استطاع بحملاته السريعة الحاسمة من القضاء عليها ونال بفضل انتصاراته تقدير البلاط السلطاني، وقد اهدى اليه السلطان في عام 1752 خلعة ووساما تقديرا لانتصاره في حملة سنجار، بالإضافة إلى الهدايا الأخرى التي ارسلت للأمراء الذين كانوا معه، وفي بداية عام 1753 صدر الفرمان السلطاني بجعله وزيرا دائما لكل من بغداد والبصرة، وصدر مثل هذا الفرمان أيضاً عندما توفي السلطان محمود خان عام 1754 وخلفه السلطان عثمان خان، وقد كان استلام الوالي لهذه الفرامين التي كان يحملها من الاستانة رئيس التشريفات يجرى بموجب مراسيم واحتفالات.

لقد اظهر سليمان باشا همة كبيرة في الإدارة والحكم، واصبح العدو المخيف للعشائر الثائرة لشدة بطشه واقدامه حتى انهم اطلقوا عليه اسم (أبو ليلة) لحملاته التي تغير عليهم دائما في الليل، وفي بغداد سمع الرحالة الدنماركي نيبور الناس يسمونه (سليمان الاسد)، وكانت تروى عن شجاعته وبسالته قصص كثيرة حتى قيل انه توجه إلى بلاد الشام وطارد بعض القبائل المتجولة التابعة لمنطقة دمشق بسبب تعرضهم لقافلة تجارية كانت قد خرجت من بغداد متوجهة إلى بلاد الشام، وفي عهده اصبح الطريق بين بغداد والبصرة سواء عن طريق الفرات أو دجلة أو البر امنا حتى للمسافرين دون حماية قبيلة من القبائل الامر الذي شجع الكثير من تجار ايران على اختيار طريق بغداد- البصرة على بلادهم التي كانت تسودها الفوضى والاضطراب. ومع كل هذه الشهرة الحسنة التي نالها فان السكان كانوا ينتقدونه بسبب خضوعه لزوجته عادلة خانم التي كانت امرأة قوية ذات نفوذ باعتبارها ابنة احمد باشا الذي كان زوجها أحد عبيده، وكانت تحاول أن تزج بنفسها في الامور السياسية والحياة العامة بتدخلها في كل شيء حتى انها خصصت اياما معينة لاستقبال المراجعين يلتمسونها في تحقيق وانجاز مطالبيهم، وكانوا يجلسون في غرفة خاصة منعزلة عن حريم البلاط ويتولى الحرم أغا سي مهمة استلام العرائض منهم وارجاع جواب سيدته اليهم، وكثيرا ما

كانت تلغي الاوامر التي سبق أن اصدرها زوجها أو كتخذاه، بل وجعلت لنفسها وساما خاصا لها يتكون من شريط حريري يلف حول الرأس، وقد اهدته في البداية إلى الاغوات البارزين الذين كانوا قد خدموا جدها واباها كعلامة شرف. وقد اصبحت عادلة خانم بسبب اعمالها هذه حديث الخاص والعام وصارت تتهم بانها السبب في وقوع الكثير من الحوادث فقد ذكر أن سليمان باشا قام بتحريض منها بحملة على الزعيم الكردي سليم باشا بابان الذي مات والدها احمد في حملة ضده من قبل، واستدرجه إلى بغداد حيث امر بإعدامه شنقا في عام 1758، كما قيل أن قتل زوج اختها عائشة بريئا كان بتحريض منها.

بلغ نفوذ المماليك القمة في عهده حين اكثر من استخدام المماليك في الوظائف المهمة، وبدأ سيل المماليك يتدفق بزيادة من اسواق تفليس إلى بغداد فأسست لهم مدرسة تتسع لمائتين منهم، وصار أبو ليلة يكثر من استخدامهم في وظائفه الحكومية، فكان منهم الكتبة والجباة وقادة الحاميات كما كانوا من كبار حاشيته أيضاً، فادى ذلك إلى حرمان الاسر التركية والبغدادية المعروفة من نصيبها الذي اعتادت عليه في جهاز الحكومة سابقا. وفي 14 ايار عام 1762 توفي سليمان باشا عن عمر ناهز السادسة والستين عاما وذلك على اثر مرض الم به مدة ستة اشهر، وقد ظلت بغداد تردد ذكراه حتى استمع إليها نيبور في عام 1766، وقد كان موت سليمان بداية فترة طويلة من الفوضى.

كانت وفاة أبي ليلة الذي لم يعقب احدا على الحكم ايذانا بنشوب نزاع عنيف بين المتحفزين للحصول على منصب الباشوية، فقد كان هناك سبعة مماليك مرشحين للحكم تولى كل منهم في وقت ما منصب الكتخدا، وكان احد هؤلاء عمر اغا الزوج الثاني لعائشة خانم البنت الثانية لأحمد باشا، وكان الاخر علي اغا متسلم البصرة الذي كان من قبل حاكم الديوانية، وهو الذي ساعد ابا ليلة عند زحفه على بغداد عام 1749. في وقت اراد الباب العالي اسناد ولاية بغداد إلى والي الرقة سعد الدين باشا كمحاولة للحيلولة دون حصر السلطة بأيدي المماليك، غير أن اضطراب الاوضاع في بغداد بسبب تنافس المماليك السبعة جعل الباب العالي يتريث في اصدار الامر، ثم وردت عريضة من بغداد تتضمن اسماء

المرشحين السبعة لكي يختار السلطان منهم واحدا، فصدر الفرمان بتعيين علي اغا للمنصب الشاغر، وقد قيل أن تعيينه كان بتأثير الصدر الاسبق محمد راغب باشا وتوصيات الكثير من ذوي النفوذ في بغداد وما قدمه من هدايا وأموال إلى المسؤولين في الباب العالي. ولم يكد علي اغا يصل بغداد ويتسلم زمام الحكم حتى بدأت المؤامرات تحاك ضده من اجل قتله والتخلص منه، وقد بلغت هذه المؤامرات أوجها عندما تعرض لمحاولة اغتيال اثناء عودته من محاربة عشيرة كعب عام 1763، وبعد فشل هذه المؤامرة راحت القوى المضادة تنشر بين الناس مختلف الاشاعات لإثارتهم ضده، الى حد سرت شائعة تقول انه من فرقة القزلباش وينوي تسليم بغداد لشاه ايران، ومما كان يعطي لهذه الادعاءات مفعولها بين الناس كون علي باشا من اصل ايراني.

لقد كان أهم مروجي هذه الاشاعات اثنان هما: عادلة خاتون إذ فقدت نفوذها في عهده بعدما كانت بمثابة الحاكم الثاني على البلاد في عهد زوجها، والثاني زوج اختها عمر اغا الذي هو من المرشحين السبعة. كان لهذه الاقوال مفعولها بين الاهالي فقد احدثت استياء ضد علي باشا، ثم اندلعت ثورة محلية كان المحرك لها عمر اغا، وكان الانكشارية مادتها، وقد احتل الثوار القلعة، ووجهوا نيران مدافعهم نحو السراي، غير أن علي باشا تمكن من تهدئة الحالة، ثم قام بإعدام الكثير من رؤساء الانكشارية، فساد هدوء مشوب بالتوتر، ثم اعقبته عاصفة هوجاء اعادت الثورة إلى اشد ما كانت عليه بحيث اضطر الوالي في النهاية إلى الهروب من السراي متنكرا بزي امرأة ولجا إلى احدى الدور القريبة منه، ولكن الثوار علموا بمقره فهجموا عليه وأخرجوه وأتوا به إلى القلعة، وهناك قتلوه عام 1764.

ـ عمر باشا (1764ـ 1775):

لقد كان من الطبيعي أن يخلف علي باشا في الباشوية المملوك الغالب وهو عمر اغا قائد الثورة الناجحة وقد اجتمع علماء بغداد واعيانها وكتبوا عريضة إلى السلطان متهمين الوالي القتيل بشتى التهم، ومرشحين عمر لولاية بغداد، فجاءت موافقة السلطان على اسناد

الباشوية اليه. وهكذا اقتدى مماليك بغداد بمماليك القاهرة بخلق المشاكل لمن لا يرغبون فيه من الولاة للاستيلاء على كرسي الحكم.

تولى عمر باشا الحكم في ربيع 1764 وشهد عهده احداثا جساما كان اولها ثورات عشائر الخزاعل والمنتفك والعبيد، ثم الطاعون الذي وفد من اسطنبول الى مدن العراق وداهم بغداد عام 1772 واخذ يسرى إلى سائر انحاء العراق، وقد فتك بالسكان فتكا ذريعا وقيل انه قضى على نخبة ممتازة من ذوي الخبرة وقادة الرأي، لاسيما اولئك الذين لهم المام واطلاع في تمشية الادارة والحكم، وقد حل محلهم مجاميع من العرب والاكراد من الذين لا خبرة لهم ولا دراية مما زاد من سوء الاوضاع. وجاء عام 1774 لتشهد اضطراب الحالة في كردستان وتدخل كريم خان الزند العسكري في العراق في وقت كانت فيه الدولة العثمانية في ختام حربها مع روسيا التي انتهت بمعاهدة كوجك كينارجي. وقد تمكن الايرانيون في عام 1775 من فرض حصار على البصرة الامر الذي جعل السلطان يلتفت إلى العراق وكان قد خرج منذ وقت قليل من حربه الخاسرة مع قيصرة روسيا (كاترين الثانية)، وقد كان الاعتقاد في الاستانة في بداية الامر أن السبب الاكبر في هذا النزاع مع ايران هو عمر باشا لذا فان ابعاده قد يهدأ الحالة في كردستان، وفي البصرة، وكان قد ورد للدولة العثمانية اتهامه بالتعرض للزوار الايرانيين، ومما عزز هذا الاعتقاد ارسال كريم خان الزند سفيرا الى السلطان يشكو من سياسة عمر باشا، وفي الوقت نفسه راح الجميع في الاستانة يفكر في التخلص من حكم المماليك في العراق، غير أن ذلك ليس بالأمر الهين إذ قد تندلع ثورة المماليك في بغداد. لذا فقد عين مصطفى باشا الاسبيناقجي، والي الرقة، لقيادة حملة إلى العراق، وقد وصل إلى بغداد وبصحبته والي ديار بكر عبد الله باشا الطويل ووالي كركوك سليمان الجليل، وعبدي باشا، واتخذوا لهم مقرا خارج المدينة. وقد اعتقد عمر باشا أن هذه القوة إنما جاءته عونا لدحر الاعداء وفك الحصار عن البصرة، لذا طلب من القادة التحرك لإنقاذ البصرة، إلاّ انهم اعتذروا له بحجج مختلفة، منها ان القادة العثمانيين اشاعوا ان معاهدة صلح قد وقعت بين السلطان العثماني وشاه ايران كريم خان الزند. واخيرا كشفوا له عن الحقيقة واخبروه بانهم يحملون

امرا بتعيين الاسبيناقجي لبغداد وبتحويله إلى ديار بكر، فامتثل عمر الامر وترك المدينة ونصب خيامه في (المنطقة) في الجانب الغربي من بغداد استعدادا للسفر ولكن سرعان ما امر مصطفى باشا بهجوم فجائي على مخيمه ليلا، وقد حاول عمر باشا الهروب نحو الكاظمية، ولكنه اثناء هذه المحاولة سقط عن فرسه والتوت رقبته ثم عثر عليه احد الجنود وقطع راسه وذهب به إلى الاسبيناقجي فأرسله هذا بدوره إلى الاستانة. وقد ادعى مصطفى باشا أن الهجوم الذي شن على مخيم عمر كان بسبب البلبلة والاضطرابات التي حدثت في بغداد بإيعاز منه بعد عزله، وان اقامته في الجانب الغربي كان يقصد منها التمرد والعصيان، ثم اصدر مصطفى باشا امرا يقضي بمصادرة اموال الباشا القتيل، وكذلك امر بجباية الاموال من الاغنياء زاعما انها من اجل انقاذ البصرة، وفي الوقت نفسه اخذ يضيق على المماليك الذين ادركوا نياته وعلموا بالتعليمات التي تزود بها، لذا فقد اخذوا يتسللون من بغداد تدريجيا والتفوا حول الكتخذا عبد الله اغا، واخذوا يهددون بغداد ويشنون الغارة على اطرافها، وتمكنوا من احتلال بعض المواقع، وقد اصبح خطر المماليك يهدد بغداد بالسقوط.

لقد كان الباب العالي كما ذكرنا يرمي من تعيين مصطفى باشا إلى القضاء على نفوذ المماليك في العراق إلاَّ أن امله قد خاب فقد فشل الوالي الجديد في تصريف سياسة العراق منذ تعيينه، فلم يكن لهذا الوالي أي المام بأحوال الولايات العراقية، كما لم تكن له المقدرة التي تؤهله لإدارتها، وقد استولت عليه الانانية المفرطة فانصرف الى مصالحه الخاصة ومنافعه الشخصية، وفي الوقت الذي تزايد فيه خطر الايرانيين على البلاد في ظل حصارهم لمدينة البصرة، يظهر ان مصطفى باشا لم يعمل بشكل جاد لفك الحصار عن البصرة، الى درجة اتهم من قبل البعض بانه كان على اتفاق سري مع الايرانيين، وان كنا لا نعرف صدق هذا الاتهام من عدمه ،ولكن مصطفى باشا بكل الاحوال قد كتب الى متسلم البصرة يخبره ان المساعدة المرتقبة اليه من قبل العثمانيين ستأتي في وقت متأخر، ويخيره اما ان يتصالح مع كريم خان الزند، أو يسلم المدينة الى الايرانيين، كما اصدر الاسبيناقجي مرسوما يقضي بوجوب ترخيص للقوات والضباط والامراء الذين كانوا تحت ادارته واعادتهم الى الاماكن

والمحلات التي جلبهم منها، كل ذلك خشية من ان يراقبوا ويطلعوا على سوء ادارته وتصرفاته، ومن اجل ان يبرر تصرفه للباب العالي كتب اليه يعلمه بانه لم يعد بحاجة الى هذه القوات لان الايرانيين قد انسحبوا من الحدود ومن البصرة وما حولها وان الامور عادت الى مجاريها الطبيعية، وكان هذا خلافا للواقع. وسرعان ما سقطت البصرة بيد الجيش الايراني، وازاء ذلك صدر الامر بعزل مصطفى من ولاية بغداد وتعيين والي كوتاهية عبدي باشا خلفا له، ولم يبد مصطفى اية مقاومة، بل هرب إلى الموصل ومنها إلى ديار بكر وهناك وردت الاوامر المستعجلة بتوقيفه ثم نفذ به حكم الاعدام، وكانت مدة توليه الحكم في بغداد ثمانية اشهر أو تسعة. ولما حضر عبدي باشا إلى بغداد وجد الحالة سيئة جدا، فقد تعاظم امر عبد الله اغا واصبح مسيطرا على اواسط العراق جميعا، وازاء هذا الوضع المتدهور وجد الباب العالي نفسه امام الامر الواقع مرة اخرى فقد عجز ولاة الذين ارسلتهم الدولة العثمانية عن حكم العراق وانقاذه، لهذا تخلى عن فكرة القضاء على الحكم المملوكي في العراق، وصدر الفرمان بإسناد باشوية بغداد إلى عبد الله اغا وتعيين حسن اغا حاكم ماردين وكتخذا أبي ليلة السابق، واليا على كركوك، مع توجيه رتبة الباشا اليه. وقد كان والي طربزون قد انتقد في تقريره الذي كتبه عام 1776 وسماه (تاريخ جديد) أو (بادكار تاريخ) ما كنت تفكر به الدولة العثمانية تجاه مماليك العراق من محاولة ابعادهم عن الحكم واحلال الاتراك محلهم، فهو يرى أن خطورة الاوضاع التي يعيشها العراق تتطلب حشد كل الطاقات العثمانية والمملوكية، فهناك جيش اجنبي يحتل البصرة، وهناك ثورات عشائرية عربية وكردية.

تميز عهد عبد الله باشا (1776-1778) بالضعف، ولم يكن لديه المعرفة والقدرة على حكم بغداد، حتى انه وصف من قبل بعض المؤرخين بالأبله، وكان عبد الله باشا قد عين عجم محمد خزنة دار، وهو محمد بك الايراني الاصل الذي عرفه البغداديون باسم عجم محمد، وقد جاء الى بغداد من ايران ايام حكم والي بغداد سليمان باشا ابي ليلة (1750-1762) تصحبه أمه واختاه فألفوا جوقا موسيقيا، اذ كانت اختاه ترقصان، وامه تنقر الدف وهو يغني، واستطاع ان يؤثر على بعض ضعاف النفوس في حكومة بغداد فعين دويدارا

(اي حامل الدواة) في عهد الوالي عمر باشا (1764-1775)، ثم تزايد نفوذه في عهد الولاة الذين جاءوا من بعده، فارتقى مناصب عدة، حتى وصل منصب (الخزنة دار) وصار يطمح لمنصب الباشوية، وتمكن عجم محمد بنفوذه ومركزه في الحكومة من توجيه سياسة ولاية بغداد. وقد اتبع سياسة مالية سيئة اتسمت بالتعسف الى حد اجبرت الكثير من التجار الى الهروب من بغداد. والحقيقة ان السيطرة الفعلية على الادارة في بغداد كانت بيد عجم محمد، وبعد وفاة عبد الله باشا اندلعت حرب اهلية بين الطامعين بالولاية دامت خمسة اشهر تنافس خلالها عجم محمد الذي اسند اليه الوالي عبد الله باشا امور الولاية في اثناء مرضه، واسماعيل اغا الكتخذا السابق الذي عزله عجم محمد وانتهى الامر بتعيين السلطان العثماني حسن باشا والي كركوك ولكن حكم الوالي الجديد لم يكن افضل من سابقيه فقد استمرت الصراعات مع الطامعين بولاية بغداد لاسيما عجم محمد. وفي البصرة كان سليمان اغا يرقب احداث بغداد المضطربة بعين اليقظة نتيجة المصائب والويلات التي تعاني منها المدينة بسبب هجمات انصار عجم محمد وحليفه احمد اغا قائد اللاوند المتكررة والتي اقتربوا في احداها من الاعظمية، وكانوا قد عادوا مرة اخرى على مسرح الاحداث، متخذين من بعقوبة ونواحيها مركزا لتجمعهم، وقد ازداد هياج الاهالي ووضعوا المتاريس في الشوارع وارتاع الوالي خوفا على حياته، وفي 27 تشرين الأول عام 1779 شن الاهالي هجوما على السراي، فهرب الوالي إلى جانب الكرخ، ومنه إلى الموصل، وهناك تلقى خبر نقله إلى ديار بكر فغادر إليها، وعند وصوله الم به مرض توفي على اثره، وبذلك شغرت باشوية بغداد. وقد انتهز سليمان اغا هذه الفرصة وكان قد كاتب السلطان مزينا له اسناد ولاية بغداد اليه، متعهدا بقطع دابر الفتنة وتوطيد الامن.

- سليمان باشا الكبير(1780 - 1802):

كان الباب العالي يرى في شخص سليمان باشا الذي عرف بالكبير(1780-1802) رجل الساعة الذي سيضع حدا للفوضى التي دامت ثمانية عشر عاما (1762-1780). وقد

تحرك سليمان باشا من البصرة لاستلام منصبه الجديد وبرفقته جماعة من الذين اعانوه في امر تعيينه واليا على البصرة وعلى راسهم ثويني شيخ عشائر المنتفك، وكذلك بعض افراد حامية الزبير، وقد خلف لاستقباله عند وصوله العرجة اسماعيل اغا الذي عرفته احداث بغداد طرفا في النزاع الذي نشب بعد وفاة واليها عبد الله باشا، للاستيلاء على منصب الباشوية، ومعه بعض اتباعه ومعتمديه الذين برزوا اثناء الفتن والاضطرابات، غير أن سليمان باشا امر بإعدامه فورا، وعاد اتباعه مخفورين إلى البصرة التي اصبح سليمان اغا القره ماني متسلما عليها، ثم واصل سفره فالتقى بالقرب من السماوة بشيخ الخزاعل حمد الحمود الذي عرف بثوراته منذ عهد الوالي عمر باشا، فنصحه سليمان باشا واكد عليه ضرورة التمسك بالنظام على الامن، ثم عرج بعد ذلك نحو كربلاء وبعد زيارة العتبات المقدسة اتجه نحو الحلة بعد أن كان قد اذن لشيخ عشائر المنتفك بالعودة إلى دياره، وكان في استقباله في الحلة سليمان الشاوي والكثير من افراد عشيرته العبيد، وعند وصوله جسر المسعودي وجد في استقباله والي الموصل وعلماء بغداد ووجوهها، وبعد أن خيم خارج بغداد مدة يومين سار لقتال عجم محمد واتباعه، فعبر ديالى واستطاع بمن معه من قوات عربية وكردية من احراز النصر وانزال الهزيمة بهم، وقد قتل احمد اغا، وهرب عجم محمد إلى لورستان. وبعدما امضى سليمان باشا وقواته في تلك الانحاء قرابة شهر اعاد خلاله الاطمئنان إلى السكان، دخل بغداد مقر وظيفته في تموز 1780م. وبدخوله الى بغداد يبدأ العصر الذهبي لحكومة المماليك في العراق، فقد كانت مجهوداته في سبيل تثبيت قدم المماليك في العراق هي التي جعلت حكمهم يمتد حتى عهد داوود باشا . لقد بذل سليمان باشا الكبير جهودا كبيرة لإصلاح الادارة في بغداد، وجلب اعداد كبيرة من المماليك من بلاد الكرج وسعى الى تعليمهم وتثقيفهم وتدريبهم على اساليب واصول انجاز المعاملات الرسمية وهيأهم لإدارة مناصب الدولة التي تناط بهم، ثم طلب من الاستانة عددا من الانكشارية لتعيينهم بدلا من الانكشارية المقيمين في العراق الذين استشرى فيهم عدم الانضباط، فقام بنقلهم الى انحاء مختلفة من العراق مثل الديوانية والسماوة بحجة المحافظة على الامن ومقاومة القبائل الذين يثورون على السلطة.

لقد شهد عهد سليمان باشا الكبير علاقات جيدة مع العشائر في بداية حكمه، الا انها سرعان ما ساءت الى درجة شهد عهده انتفاضة عشائرية تميزت باتساعها وعمقها ونتائجها، اندلعت في الفرات الاوسط عام 1787 تزعمها سليمان الشاوي شيخ العبيد، وثويني العبدالله شيخ مشايخ المنتفك وحمد الحمود شيخ الخزاعل، واستهدفت القضاء على حكم المماليك وقد تمكن الثوار من فرض سيطرتهم على البصرة، وتولى حكمها الشيخ ثويني العبدالله وهرب متسلمها المملوكي ابراهيم بك الى مسقط. وظلت البصرة تحت حكم الشيوخ العرب بضعة اشهر(6 ايار25- تشرين الاول)، ولم تخرج عن هذا الحكم الا بعد ان حشد المماليك قوات كبيرة لمواجهتها، ودارت معركة رهيبة في مكان يدعى ام الحنطة قرب البصرة انتهت بعودة الهيمنة المملوكية على المدينة ، وفي عام 1788 اتفق البابانيون ومتسلم البصرة على الثورة التي استهدفت قيام حكومة كردية في العراق بمساعدة بعض العشائر العربية، وقبل شروع متسلم البصرة بتنفيذ هذه الحركة بدأ باستمالة القوات التي سبق أن تركها سليمات باشا في البصرة، والمؤلفة من جنود اكراد اللاوند، كما كاتب ثويني حول ما يريد القيام به فأبدى استعداده للمشاركة، ولأجل تشجيعه كتب إلى باشا بغداد يقترح عليه اسناد مشيخة المنتفك اليه بدلا من حمود الثامر الذي تولى المشيخة، وما أن علم حمود الثامر بما يدبر له حتى أسرع بالمجيء إلى بغداد واخبر الباشا بما ينوي متسلم البصرة القيام به. وعندئذ قرر باشا بغداد القضاء على المتسلم بطريقة لا تتطلب إرسال حملة عسكرية ضده، وذلك بان اصدر امرا إلى اسماعيل اغا تكه لي بالعودة إلى بغداد هو ومن معه من القوات وجعل مقره في زنكباد كمحاولة لقطع أي اتصال بينه وبين متسلم البصرة، وفي الوقت نفسه ارسل محمد بك الشاوي إلى البصرة ليسدي النصيحة إلى المتسلم ويحذره من مغبة القيام بعمل يجلب النقمة عليه، ثم يقوم الشاوي باتصاله سرا بقائد الاسطول مصطفى اغا الحجازي، ويطلب اليه باسم الباشا أن يتخذ ما يلزم للقضاء على المتسلم.

لقد علم المتسلم بما يدبر له في الخفاء، فقام بقتل قائد الاسطول، ولما علم الباشا بذلك لم ير بدا من التحرك نحو البصرة على راس قوة عسكرية، وفي اثناء ذلك قدم عليه رسول من سليمان الشاوي يطلعه على المراسلات التي كان قد بعثها اليه عثمان باشا بابان

من السليمانية حول استمالته للاشتراك في الحركة، كما واخبر الباشا بتفاصيل الخطة التي اتفق متسلم البصرة على تنفيذها مع الباشا البابانى، تلك الخطة التي تستهدف احتلال بغداد وازاحة الباشا عن الحكم. وكانت الخطة المقررة تقوم على أن يعلن المتسلم عصيانه في البصرة وعند تحرك باشا بغداد نحوه يدخل الباشا البابانى بغداد بقواته ويستولي على الحكم، لقد انقذ الشاوي بموقفه هذا باشا بغداد من خطر ازاحته عن الحكم، ويبدو أن الشاوي اراد بموقفه هذا أن ينتقم من الافراد الذين كانوا قد ساهموا في الحملات العسكرية التي وجهت اليه حين اعلن ثورته، وكانوا سببا في انتصار حكومة بغداد عليه، وازاء كشف هذا المخطط الخطير عرف باشا بغداد كيف يجلب الباشا البابانى إلى بغداد ويتخلص منه، فقد دعي عثمان باشا البابانى إلى بغداد حيث زُوجت اخته، إلى اخي الكتخدا احمد اغا، وبهذه الوسيلة عزل البابانى عن قواته وعن تأثير حليفه في البصرة، ثم القي القبض عليه واودع السجن.

أمّا متسلم البصرة وحليفه ثويني فقد زحف الباشا نحوهما بقواته في شباط عام 1789 وما كاد يبلغ البصرة حتى هرب المتسلم إلى الكويت، وهرب ثويني إلى البادية، وعلى اثر ذلك اصدر الباشا امرا بتعيين عيسى الماردينى متسلما للبصرة، واعيد حمود إلى مشيخة المنتفك.

إن هذه المقدرة التي كانت يتمتع بها باشا بغداد في معالجة المشاكل وفي قيادة الحملات وتحقيق الانتصارات كان لها الصدى الحسن لدى الباب العالي، إذ كسب بها اعتماد السلطان وثقته به حتى كلفه في عام 1790 بمحاربة الاكراد المليين بزعامة تيمور الملي، وكان هؤلاء قاطنين فيما وراء ماردين شمالا بعد أن عجز ولاة الرقة وديار بكر من اخضاعهم، وقد تمكن باشا بغداد من انزال الهزيمة بهم، وفي طريق عودته إلى بغداد عرج نحو المتمردين من اليزيدية فاعدم زعمائهم وحز رؤوسهم وارسالها إلى الاستانة.

لقد اتعبت هذه الحروب والمشاكل باشا بغداد وانهكت قواه، وظهرت عليه علامات الشيخوخة والعجز حتى قيل انه قدم استقالته في عام 1793 إلى الباب العالي مرشحا بمكانه من كان ساعده الايمن خلال عدة سنوات وهو احمد كهية الشهير بابن الخربندة، غير أن الباب العالي رفض ذلك وابقاه في مكانة تقديرا لخدماته. لقد ادى ترشيح احمد كهية لمنصب الباشوية

في اثارة المؤامرات الداخلية التي اودت في النهاية بحياته. وفي اوائل ايار 1802 ذكر المقيم البريطاني في بغداد هارفورد جونز بريدجس في أحد تقاريره أن الباشا اصبح مشلولا من الخصر حتى اسفل جسمه شللا تاما، أمّا حكومته فقد وصفها بانها وصلت اقصى درجات التفكك والغباء، ثم جاءت نهاية الباشا في يوم 7 اب قبل صلاة الظهر، وقد دفن في مقبرة الامام الاعظم، وكان قد بلغ من العمر الثمانين عاما تاركا ثلاثة اولاد صغار هم سعيد وصادق وصالح، واربعة اصهار هم الكتخذا علي باشا وسليم اغا وداوود اغا الخزنة دار ونصيف اغا كتخذا البوابين.

في اعقاب وفاة سليمان باشا الكبير نشب الصراع مجددا بين الطامعين في ولاية بغداد وحاول بعضهم الاستعانة بالمقيم البريطاني هارفورد جونز كما فعل احمد اغا رئيس الانكشارية، والذي اعلن تمرده على علي باشا مرشح سليمان باشا لولاية بغداد قبل وفاته، إلاّ انه دحر من قبل قوات الوالي الجديد علي باشا الذي تمكن من الحصول على منصبه بتدخل المقيم البريطاني في بغداد، ولكن حكم علي باشا (1802-1807) تميز بعدم الاستقرار وتزايد الثورات العشائرية، كما انتشر الطاعون خلال مدة حكمه في بغداد، مع ذلك لم يخل عهده من بعض الانجازات، فقد انصرف علي باشا الى تشجيع الزراعة والصناعة والتجارة، واستدعى من اوروبا احد الخبراء الفنين وهو المسيو باسيف مع جماعة من امثاله، واشترى المعامل لصنع الخام وصنع الاسلحة، اذ كانت تنتج في اليوم الواحد 12 بندقية، وقد شهدت الحياة الاقتصادية ازدهارا نوعا ما، ثم اتجه الى الناحية العسكرية فانتخب عدد من الضباط المتعلمين وخصصهم لتعليم وتدريب ابناء ورجال المماليك بصورة خاصة، واتخذ من هؤلاء ضباط للجيش الاختياري الاهلي فكان لديه 8000 جندي من المشاة، و10000 من الخيالة والمدفعية. وقد انتهى حكمه باغتياله في 8 اب 1807.

ـ سليمان باشا الصغير(1807 ـ 1810):

لقد كانت رغبة الباب العالي شديدة في انهاء حكم المماليك في العراق في اعقاب مقتل علي باشا وذلك بإسناد منصب الولاية الى الصدر الاعظم الاسبق ضياء يوسف باشا

ولكن سرعان ما تراجع عن موقفه مفضلا اسناد ولاية بغداد إلى الكتخذا سليمان الذي عرف فيما بعد بسليمان باشا الصغير، وذلك للأسباب التالية:

1. وقوف السفير الفرنسي في الاستانة الجنرال سباستياني بجانب سليمان باشا مرشحا اياه لولاية بغداد.
2. عمل سليمان باشا على ارضاء الباب العالي بالأموال، فقد ذكر انه ارسل بيد احد التجار إلى الباب العالي مبالغ كي توزع على المتنفذين من رجال الحكم، كما تعهد بأرسال ما تبقى من اموال سليمان الكبير وما خلفه علي باشا في حالة تعيينه بمنصب باشوية بغداد.
3. الظروف الداخلية التي كانت تعيشها الاستانة على اثر نجاح الانكشارية في قتل السلطان المصلح سليم الثالث.
4. وقوف اهالي بغداد وعلماؤها واعيانها إلى جانب سليمان باشا معلنين رغبتهم في توليه باشوية بغداد، وقد بعثوا بهذا الخصوص التماسا إلى الباب العالي، اكدوه بالتماس ثان. وازاء هذه الاسباب وخشية من عصيان المماليك قرر الباب العالي اسناد باشوية بغداد إلى سليمان باشا – المعروف بالصغير – وبعد تأخر طويل وصل الفرمان السلطاني بتعينه بهذا المنصب إلى بغداد في اواخر ربيع سنة 1808.

بدأ سليمان باشا حكمه بان جرد حملة تولي قيادتها وسار بها نحو كردستان لقتال عبد الرحمن البابان الذي عرف بعدم طاعته لحكومة بغداد وبثوراته المتكررة عليها مستعينا بمؤازرة ايران له. وبالرغم من أن الحملة قد استطاعت أن تلحق الهزيمة بعبد الرحمن البابان في معركة دربند إلاَّ أن التجائه إلى ايران والدعم الذي ناله منها حيث خصصت له عشرين الف تومان ليستعين بها على محاربة حكومة بغداد، قد اضطر باشا بغداد إلى اصدار العفو عنه واعادته حاكما على كردستان. لقد حاول سليمان باشا الصغير الاستقلال عن الباب العالي ويتضح ذلك بما قام به من اعمال، كإلغاء بعض الضرائب والرسوم التي كانت تجبى

سابقا باسم الحسبة أي رسم الاحتساب والخدمة المباشرة وغيرها، التي كانت لا تزال مطبقة في الدولة العثمانية، وكانت هذه الرسوم تستحصل طوعا أو كرها وفي حالة امتناع المسؤول عن دفعها يسفك دمه وتصادر امواله، لذا فقد عد سليمان باشا الصغير هذه الرسوم غير شرعية. كما حاول تجاوز صلاحياته عن طريق محاولة التحكم في تعيين ولاة الموصل بغية فرض سيطرته المباشرة عليها، كما هاجم سنجار لتأديب العصاة ومن هناك اتجه غربا لتأديب عشيرة الظفير التي تقطن قرب مدينة الرقة، وهي مناطق خارج نطاق ولايته، ومن ثم تجاوز حدود ولايته وذلك بالاعتداء على اراضي تابعة لديار بكر. في وقت تربع على عرش السلطنة العثمانية محمود الثاني (1808-1839) الذي اخذ ينظر إلى ما يقوم به باشا بغداد نظرة ارتياب لاسيما عدم ارساله العشرة الاف كيس المتبقية بذمة سلفيه سليمان الكبير وعلي باشا.

اما الباب العالي فقد تزايدت الرغبة لديه لإنهاء حكم سليمان باشا لذا فقد اوفد إلى بغداد لهذا الغرض احد كبار رجال الدولة ممن عرف بالذكاء وسعة الحيلة وهو حالت محمد سعيد المعروف بـ (رئيس افندي). كان حالت افندي عدوا للفرنسيين وللسياسة الفرنسية ولذا اختير لا لتحصيل الاموال فحسب، بل ليقضي على سليمان الصغير الذي لعب الفرنسيين دورا هاما في توليه، ومن ثم القضاء على المماليك إذ ما تمكن من ذلك، وقد فوضه الباب العالي باتخاذ ما يراه ضروريا لتنفيذ ذلك، واعطاه فرمانات مختومة بتوقيع السلطان وترك فيها مكان اسم الوالي شاغرا ليملأه حالت افندي باسم من يراه لائقا لهذا المنصب.

وصل حالت افندي إلى بغداد وقابل واليها سليمان باشا وقد طالبه بالأموال المدين بها فوجده غير راغب في دفعها فحذروه من النتائج الخطيرة المترتبة على موقفه هذا، فاستاء الوالي من تحذيراته وطلب اليه مغادرة بغداد.

غادر حالت افندي بغداد نحو الموصل التي عرفت بعدائها لباشا بغدادن نظرا لأنه كان يسعى إلى السيطرة عليها فجاءت الفرصة التي كانت تنتظرها، ومن الموصل بعث حالت

افندي بتقرير إلى الباب العالي شارحا فيه الحالة الراهنة في العراق وموقف سليمان باشا السلبي، منتظرا ما يأمر به. ولما علم سليم اغا متسلم البصرة وصهر سليمان الكبير بسخط حكومة السلطان على والي بغداد، اعلن عصيانه وقطع علاقته بحكومة بغداد على امل أن ينال بعمله مساعدة المبعوث العثماني في ترشيحه لمنصب باشوية بغداد التي كان طامعا بها، فقد سبق له أن نافس علي باشا على الحكم عقب وفاة سليمان الكبير فبادر والي بغداد وارسل اليه حملة بقيادة اخيه احمد بك، ولما لم يجد سليم عونا له من شيوخ المنتفك، ركب سفينة وغادر البصرة حيث استقر به المقام في بندر بوشهر، فدخل احمد بك البصرة دون مقاومة واصبح متسلما عليها. وفي اثناء ذلك كان السلطان قد اطلع على التقرير الذي بعث به حالت افندي واصدر امره بإقصاء سليمان الصغير بقوة السلاح. قام حالت افندي على الفور بالمداولة مع محمود باشا الجليل واطلعه على المهمة التي ينوي القيام بها، فأبدى كل تأييد واستعداد للمشاركة في تنفيذ ما يأمر به، كما دعا حالت افندي عبد الرحمن البابانى (باشا السليمانية) للمساهمة في الحملة المراد تأليفها، فأبدى كل استعداد، لأنه كان يضمر الانتقام لوالي بغداد الذي سبق أن جرد عليه حملة عسكرية، ومما قاله عبد الرحمن البابانى لحالت افندي انه كان ينتظر مثل هذا الشرف ليقوم بالخدمة المطلوبة. وفي الوقت نفسه عمل حالت افندي أن يجمع حوله المماليك الناقمين على باشا بغداد، وعلى هذا اعد حالت افندي حملة كبيرة للزحف على بغداد شارك فيها بعض زعماء المماليك الذين كان باشا بغداد قد عزلهم فالتجأوا إلى عبد الرحمن البابانى وهما الخزنة دار السابق عبد الله اغا والجوقدار السابق طاهر اغا. كما انظم إلى الحملة عشائر طي والعبيد والعزة والبيات بالإضافة إلى محمود الجليلي وعبد الرحمن البابانى وقواتها. تحركت هذه القوات المختلفة التي كانت تقدر بخمسة عشر الف مقاتل حتى وصلت خزانات بالقرب من بعقوبة، فوجدت أن والي بغداد قد تهيأ لها وارسل قواته إلى هناك بقيادة كتخذاه فيض الله اغا وقد حصلت مناوشات بين الفريقين ولم تقع معركة فاصلة، وفي اثناء ذلك كان حالت افندي يوفد بعض جواسيسه إلى بغداد لاستطلاع الحالة من جهة، وللعمل كرتل خامس، حيث اخذوا يبثون

خبر عزل الوالي وغضب السلطان عليه، فانتشر الامر لدى سكان بغداد بسرعة، واعلن اغوات الانكشارية ثورتهم على الوالي، وراح احدهم وهو الموصلي عبد الرحمن اغا الاورفه لي يحرض الموصليين الساكنين في بغداد ضد الوالي حتى تمكن بمن معه من الانكشارية وبعض البغداديين الناقمين من مهاجمة القلعة واحتلالها بعد أن قتلوا اسماعيل اغا قائد الانكشارية المرابط فيها وارسلوا رأسه إلى حالت أفندي. ولكن ما حدث لم يكن ليضعف من قوة سليمان باشا وصموده، إذ وقف يشد من ازره المماليك، واكثرية الشعب البغدادي، واخذت نيران المماليك تصلي الثائرين من الصباح حتى العصر وتمكنوا من تشتيتهم واسترداد القلعة منهم. كما اخذ بتعقب الموصليين وينتقم منهم وامر بالا يقيم موصلي في بغداد ولو كان ساكنا فيها منذ اربعين سنة وقبض على عشرين رجلا منهم وامر بضربهم بالسياط ثم سجنهم وبذلك اختفى كل الموصليين ولكن الكثير منهم تمكن من الافلات والهروب من بغداد. وقد استغل حالت افندي انشغال سليمان سلمان باشا بهذه الاحداث الداخلية وهجم بقواته على قوات بغداد واضطر قائدها فيض الله اغا على الانسحاب بجنوده إلى بغداد وظل حالت افندي يطاردها ويتعقبها حتى اقترب من الاعظمية ومن هناك اخذ الخزنة دار السابق عبد الله اغا بمراسلة بعض المماليك ليبعدهم عن والي بغداد. واخيرا وقعت المعركة بعد ظهر اليوم الخامس من تشرين الأول 1810 وانتهت بغروبه، وكانت النتيجة أن تخلت عن سليمان معظم قوته، فاندحرت اندحارا تاما، فاتجه إلى الجنوب، للاحتماء عند شيخ المنتفك حمود الثامر ليحتمي به، غير انه قتل هناك على يد رجال من عشيرة الدفافعة من شمر طوقة، ثم قطع راسه وقدم هدية إلى حالت أفندي، فأمر هذا بسلخ الرأس وارساله إلى الاستانة، ولما مر الرأس بالموصل فرح الناس شماتة به. ويتهم البريطانيون بأن لهم اصبعا في سقوط الباشا، لان ريج رفض تقديم اية مساعدة إلى سليمان باشا مدعيا بانه لا يستطيع إلاَّ أن يلتزم بالحياد التام، بالرغم من انه كان يستطيع التوسط له لدى حالت افندي كما توسط لديوان افندي احد موظفي الباشوية وانقذ حياته، إلاَّ أن ريج لم يكن من

مصلحته بقاء باشا كان ميالا للفرنسيين، أمّا ديوان افندي فانه كان قد ساعد ريج في نزاعه السابق مع الباشا وقد يكون في الغد باشا لبغداد.

بعد ان حقق العثمانيون الخطوة الاولى التي انتهت بمقتل سليمان باشا الصغير، برزت مشكلة من سيتولى السلطة، ويبدو ان المبعوث العثماني حالت محمد سعيد افندي كان يرغب بإناطتها الى اغا الانكشارية باعتبار ان ذلك يعني عودة الحكم العثماني المباشر. وفي الوقت نفسه ابدى عبد الرحمن الباباني الذي كان طامعا بولاية بغداد رغبته بتولي السلطة، وتعهد بان يزيد المبلغ الذي تبعثه بغداد الى خمسة اضعاف. غير ان الباب العالي استشار حالت افندي الذي بعث بتقرير الى اسطنبول لم يحبذ فيه اسناد ولاية بغداد للباشا الباباني مقراً بان المماليك وان كانوا مصدر ازعاج للدولة، وترغب في التخلص منهم، الا انهم لم يلجئوا يوما الى دولة اجنبية. فلما علم بذلك عبد الرحمن الباباني اعلن اسناده لاحد المماليك ممن كان لاجئا لديه. فاضطر المبعوث الى القبول بتعيينه بمنصب نائب الوالي، ولكن في الوقت نفسه اخذ يخطط للإطاحة به. فعرض الامر على قائد قوات الموصل احمد الجليلي الذي رفض تنفيذ الخطة بالرغم من ان المبعوث قد وعده بباشوية بغداد. ويبدو ان احمد الجليلي استكبر خطورة العملية تقديرا منه لقوة المماليك، فما كان من المبعوث الا ان اوعز لرئيس الانكشارية بالتحرك واستلام السلطة. وقد عمد هذا قبل اعلان حركته الى تحريض السكان لإخراج القوات البابانية من بغداد، ثم اعقب ذلك بالقيام بحركة فاشلة تمكن المماليك من احباطها، فاضطر المبعوث الى ان يملأ فرمانا باسم المملوك عبد الله اغا، وبذلك اخفق الباب العالي من جديد من ابعاد المماليك عن الحكم.

تولى عبد الله باشا ولاية بغداد بين(1810-1813)، ولكنه دخل في صراع مع سعيد بيك الابن الاكبر لسليمان باشا الكبير وقد انتهى الامر بمقتل عبد الله وتولي سعيد بك منصب باشوية بغداد (1813-1816) بإسناد من حمود الثامر شيخ المنتفك، والذي انتهى عهده هو الاخر بمقتله ليتولى داوود باشا ولاية بغداد.

ـ داوود باشا(1816 ـ 1831):

وهو اخر الولاة المماليك في العراق وتميز عهده بمتغيرات سياسية كبيرة كان من ابرزها بدء حركة الاصلاحات في العراق.

لقد واجه داوود خلال توليه الحكم ما كان قد واجهه غيره من الولاة، من ثورات عشائرية عربية، ومطالبين بالحكم، واضطراب الامور في كردستان، وهذا مما ترتب عليه الكثير من تدخلات ايرانية عسكرية، حتى بلغ الامر أن زحف الشاه زاده محمد علي ميرزا على بغداد. وقد تمكن داوود في بداية حكمه من اخضاع العشائر الثائرة، كعشائر بني تميم والنجادة من الدفافعة وبني عمير، بتوجيه الحملات عليها سواء تلك التي تولى قيادتها بعض ضباطه أو التي اضطلع بها كتخداه محمد اغا ضد عشائر الدليم وشمر الجربا وشمر طوقة. ولكن هذه الاجراءات لم تجده نفعا، إذ سرعان ما تفاقمت عليه الامور واحاطت به الاخطار من كل جانب، فالجيوش ايران اخذت تتحرك نحو العراق، وصادق بك - اخو الوالي السابق- راح يحاول أن ينتهز الفرصة ويعلن العصيان والتمرد، ثم تمكن من الفرار ليلا من بغداد (1818)، والتجأ إلى شفلح الشلال شيخ زبيد، فأواه والتزم جانبه. وقد اراد صادق أن يفعل مثلما فعل اخوه سعيد عندما التجا إلى شيخ المنتفك، فنال كرسي الباشوية بمعونته، ثم ما لبث أن انضم اليه جاسم بك الشاوي، وراح هؤلاء يجمعون العشائر ويحرضونها على القيام بالثورة ضد الحكومة، وكانت باكورة اعمالهم أن اخذوا يشنون الغارات على القرى والمدن ويقطعون الطرق، ولاسيما الطريق النهري بين بغداد والبصرة، وقد اضطر هؤلاء داوود بأعمالهم إلى ايقاف الحملة المنوي ارسالها بقيادة كتخداه محمد اغا إلى كركوك لصد القوات الايرانية المرسلة لمعاونة محمود البابانى وتوجيهها نحو هذه العشائر الثائرة، إذ خشي أن تتكرر حوادث عام 1813 في عهده فتؤدي إلى دخول ابن اخر من ابناء سليمان الكبير إلى بغداد على اكتاف العشائر العربية الثائرة، غير أن داوود سرعان ما علم أن الشاه زاده نفسه قد تحرك من كرمنشاه نحو العراق، الامر الذي جعله يدرك خطورة الموقف ويتهيأ للتحرك بنفسه لمقابلته فأوقف زحف جيش كتخذاه نحو جبهة الجنوب ليتولى قيادته ضد

الشاه زاده وفي الوقت نفسه لجأ إلى الطرق الدبلوماسية للقضاء على عصيان صادق بك ومن معه وذلك بان سلط على الشيخ شفلح الشلال اثنين من خصومه من الذين ينافسونه على المشيخة، وهما علي البندر وشبيب الدرويش، ثم اصدر امره بعزل شفلح وتعيين علي البندر مكانه، وسلح داوود خصوم شفلح واعانهم بمقدار من القوات العربية الموالية، وقد راح الاثنان يعملان على تفريق العشائر الثائرة حتى تقابل الفريقان في مكان يقال له (خشيخشة) فتشتت شمل هذه العشائر الثائرة، وانهزم شفلح الشلال وصادق بك وجاسم بك الشاوي نحو جهات عفك والتجأوا إلى شيوخها وتحصنوا بالأهوار. وقد بقي الامن مضطربا في منطقة الفرات الأوسط عدة اشهر، حتى استطاع داوود باشا بعد أن أتم تسوية الامور مع ايران، أن يبعث بقواته إلى الاهوار، فضيقت الخناق على صادق بك واتباعه، ولم تمض سوى ايام معدودة، حتى قدم الشيخ شفلح طلبا إلى داوود يتعهد فيه بالتخلي عن صادق بك وجاسم الشاوي مقابل العفو عنه واعادته إلى مشيخته فوافق داوود على ذلك وارسل اليه الخلعة مع امر المشيخة، وعندئذ ترك الشيخ جماعته. وقد اضطربت امور صادق بك وتشتت اتباعه، وفارقه أيضاً جاسم الشاوي مع بعض اتباعه، كما تخلى عنه شيوخ عفك وعرضوا طاعتهم على الحكومة، وعندئذ اضطر صادق إلى الهروب حتى وصل الحويزة، ومنها التجأ إلى عشيرة بني كعب، وبعد حين عفا عنه داوود. أمّا جاسم بك الشاوي فقد هرب في اتجاه الشمال وسار نحو اليزيديين في سنجار، وهناك اتفق معهم على التمرد والعصيان، فأرسل داوود باشا قوة لتأديبهم، فكانت الغلبة لهذه القوة التي فرقت شملهم وشتت جموعهم.

ولكن داوود باشا واجه بعد حين خيانة بعض رجال حكومته، فلم يكن يدري أن من عينه قائدا لانكشارية بغداد (عليوي اغا) انه جاسوس للشاه زادة محمد علي ميرزا تعرف به اثناء اقامته في كرمنشاه، وبالرغم من الثقة التي نالها من داوود فانه تمادى في التجسس لحساب ايران وقد ثبتت خيانته وافتضح امره بالعثور على مكاتباته السرية مع الشاه زاده فاعدم وبعث برأسه إلى الاستانة، كما القي القبض على الخزنة دار السابق يحيى اغا بتهمة التجسس لحساب ايران فلقي حتفه. وبعد ذلك جاءت خيانة كتخذا محمد اغا عام 1821

عندما تسبب في انكسار القوات التي كان يقودها في قتاله ضد القوات الايرانية ومن ثم التحاقه بالشاه زادة ولم يكتف بذلك بل رافق الجيش الايراني في زحفه على بغداد مطالبا بالباشوية غير أن عقد الصلح مع ايران جعله يعتمد على العشائر في تحقيق هدفه وقد صدر الامر السلطاني بإلقاء القبض عليه واعدامه فورا.

في عام 1824 قدم الحلة الكتخدا محمد اغا واتخذها مركزا فعاضده اعداء داوود وصار يلتف حوله الكثير وقد اشيع انه ينوي دخول بغداد قريبا، ولكن قوات داوود هزمته 1825 فهرب إلى الحويزة، ثم استدعاه شيخ المنتفك حمود الثامر لإثارة العصيان على الحكومة، غير انهما هزما من قبل داوود، وفي نهاية المطاف لقي الكتخذا محمد اغا حتفه عام 1829 وبذلك بتدبير داوود باشا إذ حرض عليه اتباعه فقتلوه.

لقد تميز عهد داوود باشا بحركة اصلاحات لاسيما في المؤسسة العسكرية، فقد احس والي بغداد بقيمة التفوق والتنظيم في الاساليب الحربية-الاوربية، فضلا عن تأثره بإصلاحات سيده السلطان محمود الثاني، فشرع بتأسيس جيش نظامي مستخدما البريطانيين في تدريب قواته وبأشراف من الكولونيل تايلر، الذي كان ممثلا جديدا لشركة الهند الشرقية المقيم في بغداد، فكون الوحدات المنظمة والمدربة، مزودة بالمدفعية الحديثة والاسلحة الكثيرة. كما احتكر داوود باشا المنتجات العراقية وتصديرها، واستملك البواخر التجارية الصغيرة النهرية والبحرية.

لقد تجددت في عهد داوود باشا فكرة القضاء على الحكم المملوكي، فقد كان السلطان محمود الثاني (1808-1839) الذي افتتح اعماله بالقضاء على الانكشارية، وانشاء الجيش النظامي الجديد، يعمل على تطبيق النظام المركزي المباشر، فأخذ يحاول اقصاء المماليك عن حكم العراق نهائيا. وقد كان داوود باشا يبعث بانتظام في سنوات حكمه الأولى ما عليه من اموال إلى الباب العالي، فكانت بذلك أفضل من غيره من الولاة المماليك الذين لم يكونوا منذ ايام سليمان باشا الكبير ليبعثوا إلاّ بالقليل منها، غير أن هذا الانتظام في

إرسال الاموال تعرض في السنوات الاخيرة من حكمه إلى التوقف والتأخير ثم إلى قطع إرسال هذه الأموال، لأنه كان مضطرا إلى ذلك فبرنامجه الاصلاحي الاقتصادي والعسكري وتهديدات ايران المستمرة والثورات العشائرية ومؤامرات المطالبين بالباشوية كل هذا اجبره على توفير المال اللازم لتحقيق امكانية التحرك في جميع هذه المجالات، ولكن هذا الامتناع في إرسال الاموال صار سببا لتوتر العلاقة بين داوود والسلطان، ثم جاء عام 1827 لتشهد وقوف روسيا وانكلترا وفرنسا إلى جانب ثوار المورة في اليونان، وتطور ذلك إلى اعلان الحرب بين الدولة الروسية والدولة العثمانية عام 1828، واعلن النفير العام في جميع اجزاء الدولة وطلب من كل وال الاسهام في المجهود الحربي بالمال أو بتقديم القوات المسلحة للقتال، وقد قرر الباب العالي أن تقدم باشوية بغداد ستة الاف كيس، بعد أن كان قد قدر ايراد الباشوية بحوالي 24 الف كيس في السنة، غير أن داوود باشا امتنع أيضاً عن إرسال هذه الاموال، فكان هذا الامتناع نذير ازمة خطيرة بينه وبين السلطان، وساد الاعتقاد في الاستانة أن داوود اعلن العصيان على الدولة وانه يجب اقصاءه عن الحكم. وفي عام 1830 في خاتمة الحرب الروسية التي انتهت بمبادرة السلطان إلى طلب الصلح وعقد معاهدة ادرنة عام 1829 اوعز إلى احد رجاله وهو صادق افندي الدفتري بان يذهب إلى بغداد ليطلب من واليها التخلي عن الحكم، كخطوة اولى للتخلص من حكم المماليك، ولكن مبعوث السلطان قتل بمؤامرة دبرها داوود باشا، وعندما علم الباب العالي بحقيقة الامر، قرر تنحية داوود باشا عن الحكم بالقوة، واختار للقيام بهذه المهمة ولتولي باشوية بغداد، والي حلب علي رضا باشا، فهو اقرب الولاة إلى العراق واكثرهم معرفة بأحواله، كما أن له سجلا حسنا لدى الباب العالي، وقد تقبل هذا المهمة غير انه اشترط أن تعطى له ستة الاف كيس من المال، وتزويده بلواء من الجند، وقد تم له ما اراد، كما صدرت الاوامر إلى ولاة ديار بكر وارضروم والى رؤساء الاكراد وغيرهم بوجوب الانضمام إلى حملة علي رضا باشا، وفي الوقت نفسه كتب الباب العالي إلى الحكومة الايرانية يعلمها بما تقرر القيام به ازاء داوود باشا، ورجاها بعدم قوبل لجؤه إليها في حالة هروبه.

في اوائل شباط من عام 1831، تحرك الوالي الجديد من حلب على رأس عشرة الاف جندي مع تسعة مدافع ميدان، وفي طريقه انظم اليه صفوق الفارس شيخ شمر الجربا، وسليمان الغنام احد رؤساء عقيل، واخذ يبعث بالكتب إلى الفئات المتبرمة من داوود باشا، كما اعلن منح المماليك والعسكريين العثمانيين والاهالي الامان، وقد اراد من ذلك كله كسب هؤلاء إلى جانبه واحداث بلبلة في بغداد. وعندما وصل الموصل منحه الباب العالي منصب (سر عسكر) أو (قائد الجيش) تقوية لنفوذه، كما صدرت الاوامر إلى الصدر السابق سليم محمد باشا بان يذهب على راس قوة عسكرية إلى حلب ليكون له عونا وقد ذهب هذا واصبح قائدا للفيلق الثاني، وفي الموصل عين علي رضا باشا، حاكمها قاسم باشا العمري قائمقام لولاية بغداد. وفي اثناء ذلك كان داوود باشا يستعد للوقوف في وجه القوات الزاحفة، وقد استدعى شيخ المنتفك عقيل السعدون مع فرسانه وعشائر اخرى كثيرة، كما ذكر أن داوود باشا ينوي نقل امواله ونفائسه إلى الهند بواسطة القنصل البريطاني في بغداد، وان اضطر سوف يذهب بنفسه إلى هناك. ولما علم الباب العالي بذلك استدعى ترجمان السفارة البريطانية في الاستانة واخبره بما اشيع عن نوايا داوود باشا، وحذر من أن اية مساعدة تقدم له معناها تعرض العلاقات بين الدولتين إلى التصدع، وطلب اليه أن يعلم سفيره بذلك بصورة رسمية ولكن السفير كذب هذه المعلومات، ثم قدم مذكرة إلى الباب العالي يلتمس العفو لداوود باشا فكان الجواب أن داوود باشا يستوجب العقاب الشرعي ولا يمكن العفو عنه، وكان من رأي السفير البريطاني أن من الأولى على الباب العالي بدلا من أن يصرف المبالغ الطائلة للقضاء على داوود باشا، أن يستحصل منه على كثير من الاموال، ولكن الباب العالي كان يرى أن الامر ليس مسالة مبالغ وانما هو اعادة سيطرة الدولة الفعلية على ولاياتها. وفي الحقيقة أن الانكليز لم يكونوا ليتخذوا هذا الموقف من داوود لولا انه اصبح في الفترة الاخيرة متفقا معهم حول مشروعاتهم في العراق والمتعلقة بمحاولة استغلال نهري دجلة والفرات لأغراض الملاحة، كما انهم ارادوا عدم تعرض تجارتهم للخطر، ولذلك نرى الترجمان يؤكد للباب العالي ضرورة المحافظة على البصرة.

لقد حشد داوود جيوشه في الساحة الكبرى قبالة الامام الاعظم بقيادة سليمان اغا الميراخور، وقد زحف قسم منها نحو كركوك لمقابلة جيوش السلطان، ولكن سرعان ما نكبت بالوباء الذي تفشى في افرادها كما تفشي في جميع انحاء العراق، ولما كان علي رضا باشا على وشك التقدم نحو بغداد فان انباء الوباء بعثته على التوقف، ورافق ذلك فيضان نهر دجلة مما اضعف من قوة داوود باشا. وبعد انتهاء الطاعون اصبح الطريق ممهدا امام علي رضا باشا للاستيلاء على بغداد، فقد ذهب الطاعون بمعظم جنود داوود، الذي اصبح هو نفسه ضعيفا عاجزا بسبب اصابته به، كما لم يبق في خدمته من مجموع حرسه البالغ عددهم مائة كرجي سوى اربعة فقط، وبذلك احبطت مساعيه في الدفاع عن بغداد، وقد كان يدرك إن قوات علي رضا باشا لابد أن تكون زاحفة نحو بغداد. وقد جاءت الاخبار تتحدث عن تقدم قاسم باشا العمري – والى الموصل– نحو بغداد على راس طلائع من الجيش السلطاني، ومعه صفوق وسليمان الغنام، بينما بقي علي رضا باشا في الموصل بانتظار معرفة مدى مقاومة بغداد لهذه الطلائع. واصبح لزاما على داوود باشا تدبير خطة دفاع جديدة، فارسل سليمان اغا الميراخور إلى جهات الخالص ليجمع له الاتباع، ولكنه توفي بالطاعون في خانقين فتفرق شمل الذين جمعهم، فأسندت المهمة نفسها إلى محمد افندي المصرف، الذي كان في انتظاره خارج اسوار بغداد محمد باشا البابانى بصحبة عدد من الفرسان الاكراد يتراوح عددهم بين 400–500. وقد ذهب الاثنان إلى انحاء مندلي وخانقين، فاعترضهم في الطريق محمد البردي شيخ شمر طوقه وذلك بتحريض من صفوق شيخ شمر الجربا إذ كانت قد تمت بينهما مراسلات تعهد بها محمد البردي بان لا يدع أي قوة تخرج من بغداد وقد استبسل الفرسان الاكراد في القتال، إلاَّ إن نفاذ ذخائرهم وبعدهم عن الماء عجل بهزيمتهم، فانسحب محمد باشا البابانى من المعركة، أمّا محمد المصرف فقد نهبوا منه كل ما كان معه من اموال، وجردوه حتى من البسته، وقد انقذ نفسه من ايديهم بأعجوبة وبذلك تلقى داوود ضربة اخرى. وفي اثناء ذلك كان قاسم العمري قد وصل إلى الكاظمية، وقرأ فرمان الدولة بتعيين وال جديد على بغداد.

أمّا داوود باشا فقد ادرك حراجة الموقف، فاثر أن يختبئ عن الانظار، وبعد منتصف الليل ركب جوادا وخرج من قصره برفقة مملوك زنجي والتجأ إلى دار حبيبة خانم. وفي صبيحة اليوم التالي علم الناس باختفائه فاجتمع اعيان المدينة وعلماؤها واتفقوا على ضمان سلامته، وتسليمه إلى الباشا الجديد عند قدومه من غير أن يصاب بأذى، فذهب إلى الدار التي لجأ إليها وفد منهم واخرجوه وذهبوا به إلى دار صالح بك الابن الثالث لسليمان باشا الكبير ليكون وديعة لديه حتى يتم تسليمه، وقد اخذوا منه عهدا بان يحافظ عليه، ثم طلبوا من قاسم العمري أن يعجل بالمجيء، فدخل المدينة. لكنه لاقى معارضة كبيرة من قبل اهالي بغداد الذين قتلوه فيما بعد، وعندما وصلت الاخبار الى علي رضا الذي استاء من ذلك وكتم على جيشه هذه المعلومات وامر بالتقدم الى بغداد، فوصلها في تموز وخيم في الأعظمية، فاغلق الاهالي ابواب المدينة، وتهيأوا للحصار الذي سيفرض عليهم.

لقد كانت تحت قيادة علي رضا كتيبتان من الخيالة وفوجان من المشاة، واثنا عشر الفا من المشاة والخيالة غير النظامية، فكان مجموع ما معه من الجند حوالي خمسة عشر الف مقاتل، ولم تكن معه من المدافع إلاَّ القليل، وقد اتخذت بغداد التحصينات اللازمة لمقاومة هذا الجيش، وحشدت خمسمائة جندي وضابط من بقي من قوات داوود النظامية بالإضافة إلى الجنود الموظفة الذين يبلغ عددهم ما بين 600-700 ونحو 500 من المشاة العقيليين الذين أنيطت اليهم والى قوة من الجند النظاميين حراسة ابواب المدينة تحت قيادة رجال من المماليك، وعهدت قيادة القوات الموجودة في القلعة إلى الملا حسين واسند أمر الدفاع عن الروابي إلى عدد من كبار المماليك. وخلال ذلك كان علي رضا يعمل على تشديد الحصار على المدينة، فقد كانت المؤن تتدفق عليها من الباب الشرقي وباب الحلة، فأثار هذا حنق البغداديين واخذ يفكرون في وسيلة لإنقاذ المدينة من الحصار الشديد المضروب عليها، وقد اخذ المجتمعون ومن بينهم مسيو ديفو الخبير العسكري الفرنسي المستخدم عند داوود باشا، ودرويش اغا من المماليك المشهورين الذي كثيرا ما عهد اليه بوظيفة كتخدا من وقت لأخر، بأبداء وجهة نظرهم في معالجة الموقف وقد عرض ديفو خطة هجوم ليلي على

معسكر علي رضا والقضاء عليه، غير إن درويش اغا ابدى رايه بوجوب انتظار جواب السلطان بشان الالتماس الذي بعث اليه، قبل القيام بعمل من شانه أن يثير غضب السلطان، ثم استقر الامر على أن يكتفي بضرب سليمان الغنام وقواته لإزاحته عن مواقعه التي اتخذها امام باب الحلة بغية استمرار تدفق المؤن إلى المدينة، وكلف ديفو بهذه المهمة، فتولى قيادة القوات النظامية وغيرها، وعند بلوغها قنطرة المسعودي علم بها سليمان الغنام بواسطة بعض اتباعه الذين كانوا يترصدون له، فما كان منه إلاَّ أن استعد هو أيضاً وعبأ قوته البالغة الف مقاتل، ثم دار قتال بينهما منيت فيه قوات الغنام بخسائر فادحة ولاذ هو بالفرار وقد ضلت القوات تتعقبهم فوقع العديد منهم بين اسير وقتيل، فارتفعت معنويات البغداديين بهذا الانتصار وتشجعت القوات لخوض ميادين القتال وقد ارسلت قوة للهجوم على معسكر علي رضا إلاَّ أن تعذر اجتياز الطرق التي غمرتها مياه الفيضان، وكثرة الاوحال في طريق هذه القوة حال دون مواصلة تقدمها وعند عودتها تعرضت لنيران مدافع علي رضا فردت عليها بالمثل مدافع قلعة بغداد، وقد اشتد حماس البغداديين لمهاجمة العدو وطرده فتجمهر جمع كبير منهم عند باب المعظم واصروا على فتح الباب وعلى الخروج منه لمقاتلة قوات علي رضا. الا انهم عجزوا عن تحقيق انتصار على القوات العثمانية، في وقت لم ينجح على رضا من اقتحام المدينة.

لقد اصبحت الحالة في بغداد لا تطاق من شدة الحصار، إذ شح الطعام وارتفعت الاسعار، وغشى المدينة المجاعة. وكان داوود باشا لا يزال مريضا تساوره همومه وما لديه من المال لابد من أن ينفذ. وبالرغم مما اصبح عليه علي رضا باشا من قوة ونفوذ فقد ساءت احواله هو أيضاً، إذ نفذت اموال خزانته التي لم يدخلها شيء منذ تحركه من حلب، وسئمت قواته القتال فقد طالت مدة الحصار واوشك الصيف أن ينصرم عنها فيدهمها الشتاء ببرده وامطاره، وبذلك كان وضع الطرفين يزداد وهنا على وهن وسوءا على سوء، وفي هذه الاثناء وصل إلى علي رضا من الاستانة احد الالتماسين اللذين كان اهالي بغداد قد ارسلوها إلى السلطان ومعه امر يطلب اليه أن يدبر الامور بحكمة. فارسل إلى المدينة عقد اجتماع

للتفاوض خارج السور وتعهد بعودة الوفد المفاوض سالما، فكان الملا حسين مندوب البغداديين وحمدي بك مندوب علي رضا باشا، وفي الاجتماع اخبر حمدي بك مندوب البغداديين بان السلطان لم يستجب لالتماسهم وانه مصمم على أن يتولى علي رضا باشوية بغداد، وان الحيلولة دون تنفيذ الفرمان السلطاني معناه التمرد على السلطان وهذا يؤدي إلى عواقب وخيمة، ولذلك فانهم امام امرين: فأما التسليم، فالعفو السلطاني، واما المقاومة فالعقاب الشديد. وقد عاد الوفد واخبر صالح بك بما سمع فأذهلته الصدمة وعقد اجتماعا انتهى دون الوصول إلى حل حاسم، في الوقت الذي انتشر في بغداد خبر اصرار السلطان على فتح المدينة، فساد الاضطراب في بغداد. وقد استغل علي رضا باشا هذه الفرصة وتمكن من اقتحام بغداد في ليلة الرابع عشر من ايلول وقد دخل الجيش السلطاني من الباب الشرقي بدون مقاومة، وبقي الباشا الجديد في معسكره خارج المدينة. ولما بلغت انباء ذلك إلى قوات العقيل المؤيدة لداوود باشا والمرابطة في جانب الكرخ، ارسلت وفدا من رجالها إلى داوود يخبره بسقوط المدينة ويقترح عليه الفرار إلى المنتفك تحت حمايتهم، لكنه رفض لسوء حالته الصحية. وبعد بضع ساعات جاء عدد من ضباط علي رضا باشا إلى داوود وطلبوا اليه بكل احترام أن يذهب معهم إلى خارج المدينة لمقابلة الباشا الجديد، وقد منحه علي رضا باشا الامان وارسله الى الاستانة، ثم اعلن العفو العام في بغداد.

لقد اتبع علي رضا باشا قبل دخوله بغداد سياسة التودد إلى المماليك فاسند إلى بعضهم مناصب مختلفة، وبعدما غادر داوود إلى الاستانة دخل علي رضا بغداد بكل عظمة وابهة، ولما كان السراي قد احترق فقد نزل في دار اتخذت مقرا للحكومة، وفي اليوم الثالث من دخوله دعا جميع المماليك لسماع قراءة الفرمان الخاص بتوليته باشوية بغداد، وفي هذه الاثناء ملأ الدار بالجنود المسلحين، ولما اجتمعوا غادرهم علي رضا بحجة الوضوء، فكانت تلك اشار للبدء بقتلهم، فانقض الجند عليهم وقتلوهم جميعا، حتى من كان منهم مؤيدا للباشا الجديد، ثم قرأت فيما بعد اوامر الاستانة بقتل المماليك اينما وجدوا، وهكذا انتهى حكم المماليك الذي دام اكثر من ثمانين عاما فعاد العراق إلى الحكم العثماني.

2. الاسرة الجليلة في الموصل:

كانت الموصل ولاية قائمة بذاتها، وكان الباب العالي هو الذي يعين واليها، لكنه كثيرا ما كان يعزل أو ينصب من يطلب باشا بغداد عزله أو نصبه. وقد لبثت الموصل مدة غير يسيرة في إدارة مضطربة بسبب ضعف سلطة الباشوات وضعف السلطنة نفسها، الامر الذي ادى إلى أن تصبح العصبيات المحلية هي المسيطرة على المدينة. وقد حدث في عام 1726م أن دارت رحى الحرب بين الايرانيين والعثمانيين فقدم الجليليون خدمات كثيرة للجيش العثماني فكافأتهم الدولة على ذلك بتعيين احدهم، وهم اسماعيل بن عبد الجليل لباشوية الموصل، فكان هذا أول من تولى الحكم في الموصل من الاسرة الجليلة.

والاسرة الجليلة من الاسر العربية، قدم جدها الأعلى من ديار بكر إلى الموصل للتجارة في حدود عام 1591م حيث توفي فيها عن ولد واحد هو عبد الجليل الذي تنتسب اليه الاسرة، وقد كانت سجايا عبد الجليل العالية ومواهبه بارزة في نسله من بعده. وفي عام 1681م، توفي عبد الجليل عن سبعة اولاد ابرزهم اسماعيل الذي قدم للجيش العثماني في حربه مع اشرف خان الافغاني في ايران جهودا جليلة. وقد برز اسماعيل الجليلي كأحد الشخصيات المهمة في الموصل مع بداية الثامن عشر لاسيما وان الموصل في بدء القرن الثامن عشر كانت تعاني من حالة سياسية مزرية، وقد ادى سوء الاوضاع إلى نقص خطير في خزينة الولاية مما فسح المجال لبروز دور اسماعيل الجليلي، ففي عام 1720م اراد الوالي مصطفى باشا بناء قناطر حجرية ثابتة على جسر الموصل، ولكنه عجز عن تنفيذ هذا المشروع بسبب عدم وجود اموال كافية في الخزينة، فتقدم اسماعيل الجليلي، فتبرع بنفقات بناء القناطر، وعندما اراد الوالي المذكور فرض ضرائب جديدة على اصحاب الحرف

والصناعات بهدف سد العجز الحاصل في الخزينة، تبرع اسماعيل الجليلي بثلث الضرائب المفروضة على اصحاب الحرف والصناعات، وقد كانت هذه الاعمال مدعاة إلى رفع منزلة الاسرة الجليلة في نظر الموصليين الذين بدأوا ينظرون إلى اسماعيل الجليلي نظرة ارتياح وتقدير واحترام، وازدادت شعبية الاسرة اكثر عندما تبرع اسماعيل الجليل عام 1722م بمبالغ ضخمة في بناء مسناة لجسر الموصل، وعندما قررت الدولة العثمانية عام 1723م، غزو الاراضي الايرانية بعد سيطرة الافغانيين عليها انبرت الاسرة الجليلية فقررت تحمل نفقات الجيش الموصلي بما يحتاج اليه من الذخائر وامداده بالسيف والمال، وقد كانت هذه المبادرة الطيبة من اسرة محلية خير مشجع للسلطان العثماني الذي كافأ عمل الاسرة بان انعم على اسماعيل الجليلي في عام 1726م حكم ولاية الموصل، غير انه عزل بعد عام واحد من توليه الحكم، فحل محله حسين باشا الدرندي عام 1727م الذي حكم هو الاخر عام واحد، فتولاها بعده محمد باشا رشوان زاده الذي حكم عامين وعزل، فأعقبه احد افراد الاسرة الجليلية هو حسين باشا الجليلي عام 1730م، الذي قدر له أن يلعب دورا خطيرا في تاريخ الموصل فيما بعد، غير انه عزل بعد عشرة ايام فقط، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى حذر الدولة العثمانية من تعاظم نفوذ هذه الاسرة في الموصل.

لقد كانت سياسة ولاة بغداد في النصف الأول من القرن الثامن عشر تهدف الى توحيد العراق بأكمله تحت سيطرتهم، ولكن الظروف الطارئة التي كانت تحول دون تحقيق هذا الهدف، منها التدخلات الايرانية التي كانت تحتم على ولاة بغداد أن يكونوا بمستوى المسؤولية وعدم فتح ثغرة في السياسة الداخلية، وعلى هذا كان والي بغداد احمد باشا حريصا على عدم استفزاز الاسرة الجليلية في الموصل بعد ان اعيد حسين باشا الجليلي إلى الولاية في بداية عام 1732م بسبب ظهور خطر نادر شاه، نظرا لما يتمتع به حسين باشا الجليلي من قابلية عسكرية فذة وتأييد جماهيري واسع، وقد اشتهر الجليليون بمقاومتهم العظيمة لجيوش نادر شاه التي اجتاحت الموصل عام 1732 وتمكنوا من صدها واجبارها على الانسحاب. وقد ابلى حسين الجليلي بلاء حسنا في هذه المقاومة حتى انه لقب

لشجاعته ببطل الدفاع والوزير الكبير. بعد زوال خطر نادر شاه عن بغداد بدأ احمد باشا يتعرض لحدود ولاية الموصل ففي عام 1733م، اغار على اليزيديين في سنجار التابعة لولاية الموصل، ونهب اموالهم وقتل كثيرا منهم، وعند انسحابه، لحق به والي الموصل حسين باشا الجليلي، واسترد منه ما نهبه من اليزيديين. وتكررت محاولة احمد باشا في استفزاز حسين باشا الجليلي وجره إلى الدخول في مواجهة عسكرية معه عام 1738م، وعندما ارسل فرقة عسكرية بقيادة كنج محمد اغا الذي اغار على الموصل، ونهب من صادفه من الناس غير أن حسين باشا الجيليلي لم يبد حراكا ازاء هذا العمل الاستفزازي من جانب بغداد. وسرعان ما عزل حسين باشا الجليلي عن حكم الولاية، وكانت الموصل قد شهدت في عهده استقرارا وازدهارا، غير انها سرعان ما أخذت تعاني من شدة الانقسامات بين افراد الاسرة الجليلية في سبيل الحكم، تلك الانقسامات التي كثيرا ما كانت تؤدي إلى أن تشهد شوارع الموصل ازيز الرصاص ودوي القنابل. غير انه بالرغم من ذلك فقد حافظت الاسرة الجليلة على سمعتها في الاستانة وذلك نتيجة لما كانت تقدمه من خدمات للدولة، ولهذا لم يكن من المستغرب أن يتكرر تعينهم لباشوية الموصل، فقد سمح لحسين باشا الجليلي بارتقاء حكم الولاية عام 1743م أي عند غزو نادر شاه للأراضي العراقية، وقد سارع احمد باشا والي بغداد إلى اصلاح ما تصدع في علاقته مع حسين باشا الجليلي، من اجل اتخاذ الاجراءات اللازمة لمقاومة المحتل الاجنبي، وقد اثبت حسين باشا الجليلي اثناء حصار نادر للموصل انه على قدر المسؤولية، إذ استطاع أن يرد نادر شاه على اعقابه.

يظهر أن العلاقات قد تحسنت بين والي بغداد احمد باشا وحسين باشا الجليلي الذي ارسل عام 1744م وفدا إلى بغداد برئاسة كتخداه محمد باشا الذي استقبل استقبالا رائعا من قبل احمد باشا، إذ اكرمه واظهر له احترامه للأسرة الجليلية، ولم يرد في المصادر بعد هذا التاريخ، ما يشير إلى توتر العلاقة بين الاسرة الجليلية ووالي بغداد احمد باشا. ولكن حسين باشا الجليلي سرعان ما تم نقله إلى عدد من الولايات مثل البصرة، وادنة جنوب الاناضول، ثم قارص في شرقيه، وكوتاهية في غربيه، وسيواس ثم حلب. هكذا نرى أن موقف الدولة

العثمانية كان قائما على الاستفادة من قابليتهم العسكرية عند اشتداد الازمات، والعمل على ابعادهم بعد زوال الاخطار حتى لا تتحول هذه الاسرة إلى قوة محلية تبعيتها قد تكون اسمية. وهكذا نرى ان الدولة العثمانية قد استفادت من الجليليين حتى خارج الموصل، فمحمد امين باشا الجليلي ابن حسين الجليلي كان احد ابرز القادة العسكريين الذين تولوا امر الدفاع عن المدن العثمانية امام الروس في اوروبا الشرقية عام 1769، وتولى عبد الفتاح باشا الجليلي دورا مهما في الساحل السوري حين شارك في التصدي لقوات علي بك الكبير عام 1771، وتولى ولاية طرابلس فضلا عن ولاية الموصل.

كان للموصل اهمية كبيرة لبشوات بغداد اثناء حكم المماليك وقد بلغ عدد من تولى منهم حكم الموصل خلال حكم المماليك خمسة عشر حاكما، تولى قسم منهم الحكم في ولايات اخرى عديدة من ولايات الدولة العثمانية مثل كركوك وبغداد والبصرة وحلب وطرابلس الشام وديار بكر وقارص ووان وكوتاهية وسيواس وغيرها. وكثيرا ما استعان بهم المماليك في بغداد لضرب الاكراد وقتال الايرانيين أو لضرب العشائر العربية المتمردة، ففي عام 1750م جرد أبو ليلة حملة على الاكراد شاركته فيها قوات الموصل كما استعان أبو ليلة أيضاً بقوات الموصل عندما قاد حملة على اليزيديين في سنجار سنة 1753م. وفي عام 1797 بادرت قوات الموصل في حملة سليمان الكبير لقتال عشيرة الخزاعل. وعندما خرج علي باشا(1802-1807) والي بغداد لمحاربة ايران عام 1806م طلب من الموصل بعض القوات فأمده واليها محمد باشا الجليلي بخمسمائة مقاتل، وولى عليها كاتب ديوانه احمد افندي الموصلي، وقد تمكن علي باشا والي بغداد من جعل الموصل تحت سلطته إذ صار يولي ويعزل حكامها.

جاء سليمان باشا الصغير (1808-1810) لحكم ولاية بغداد، وكان اكثر رغبة من سابقه في تحويل تبعية الموصل إلى بغداد، وفي سبيل تحقيق ذلك اثار فيها اضطرابات دموية، وذلك عندما رشح لحكمها شخصا غريب عن الاسرة الجليلية وهو احمد افندي الموصلي. وقد كان سليمان الصغير قد أعد في عام توليه الحكم حملة لقتال عبد الرحمن

الباباني، وقد اعتذر والي الموصل نعمان باشا الجليلي عن قيادة قواته التي ستشارك في هذه الحملة وذلك لأصابته بمرض الفالج، وأناب عنه في القيادة كتخداه احمد افندي الموصلي، وكان نعمان باشا قد ارسل الجليلي بثلاثمائة مقاتل. ولما كان احمد افندي قد اظهر مقدرة عظيمة في قتال عبد الرحمن البابان، وكان نعمان الجليلي قد اشتد عليه مرضه واصبح عاجزا عن إدارة الولاية، فقد استغل والي بغداد ذلك وكتب إلى الباب العالي مرشحا احمد افندي واليا محله، ليبعد الاسرة الجليلية عن الحكم ويفرض سيطرته على الموصل، وقد ذكر أن احمد افندي نفسه كان طامعا بالحكم وانه تعهد لوالي بغداد بإزالة الحكم الجليلي إذا ما ساعده في الحصول على ولاية الموصل. وقد ذهب بعض الجليليين وهم سعد الله بك وحسن بك ولدا حسين باشا الجليلي، ومحمود بك بن محمد باشا الجليلي، إلى بغداد لمقابلة واليها واقناعه سحب ترشيحه لأحمد افندي الموصلي وابقاء حكم الموصل بأيدي الاسرة الجليلية، لكن مساعيهم باءت بالفشل. وفي اثناء ذلك جاءت موافقة الباب العالي بتعيين احمد افندي الموصلي واليا على الموصل، فأثار هذا التعيين نقمة الجليليين الذين لم تكن لهم رغبة في تولي الموصل من قبل والي لم يكن جليليا، وقد تمخضت هذه النقمة عن ثورة اهلية نشبت بعد وقت قصير. فقد قاد والي بغداد سليمان باشا في عام 1809 حملة على اليزيدية في سنجار وعلى عشائر الظفير القاطنة في ذلك الوقت بأراضي اورفه، غير أن حملته هذه قد باءت بالفشل واضطر إلى الانسحاب، فكان ذلك فرصة للجليلين لانتزاع السلطة من احمد الموصلي الذي ساهم في هذه الحملة، لذا ما أن عاد مغلوبا إلى الموصل حتى وجد امامه ثورة اهلية بزعامة احد امراء الجليلين وهو اسعد بك الجليلي الامر الذي اضطره إلى الهروب ثم عاد ليحاصر الموصل بمن معه من قوات وكاد أن يحقق النصر لولا أن الموقف قد تغير في اللحظة الاخيرة من المعركة، إذ اصيب بطلقة طائشة قضت عليه حالا، وما أن وصل خبر مقتله بغداد حتى ذعر سليمان باشا الذي عاد إلى بغداد وشيكا، كما استاء الباب العالي مما يقوم به امراء الموصل ولاسيما اسعد بك وامر والي بغداد بإرسال قوة لإخضاعهم، وفعلا ارسل والي بغداد قوة بقيادة اخيه احمد بك. وما أن وصلت هذه القوة إلى الموصل

حتى اشتبكت مع الجليليين في حرب لم تكن حاسمة، واخيرا عين الباب العالي محمود باشا الجليلي واليا على الموصل، فهدأت الثورة وعادت الامور إلى مجاريها.

قبل أن يتم تعيين محمود باشا واليا على الموصل، كان الصلح قد تم بين والي بغداد واسعد بك الجليلي على أن يدفع له اسعد بك اربعمائة كيس من النقود مقابل قيامه بالسعي لدى الباب العالي بتعينه واليا على الموصل، وقد ارسل له اسعد بك مائتي كيس وتعهد له بمثلها إذ ولي الموصل، غير أن اصدار الفرمان السلطاني بتعيين محمود بك الجليلي واليا على الموصل اغضب اسعد بك واراد بمحاربة قريبه محمود باشا ولكنه لم يوفق في ذلك، ثم تصالح معه، وعندما بلغ والي بغداد خبر تعيين محمود باشا واليا على الموصل ارسل اليه يطالبه بما اتفق عليه مع اسعد بك، فلم ير محمود بدا من ذلك، فارسل اليه ما بقي من النقود. ويعود السبب تعيين في تعيين محمود الجليل واليا على الموصل من أن والي بغداد سليمان باشا كان قد اقترح على الباب العالي تعيين اسعد بك الجليلي غير انه بعد مداولات بين بين رجال الدولة صدر الفرمان بتعيين محمود لأنه اقدر من اسعد بك على تلبية مطاليب الباب العالي المالية. وإن ما بلغه والي بغداد من نفوذ على الموصل وما ترتب على ذلك من اضطرابات كان من العوامل التي ادت إلى إرسال حالت افندي إلى بغداد، كما كان مجيء حالت افندي فرصة للجليليين ليتخلصوا من نفوذ والي بغداد عليهم، ويتجلى هذا في تعاون محمود الجليلي مع حالت افندي ضد سليمان الصغير.

وفي عهد عبد الله باشا والي بغداد (1810-1813) حدث تعاون بين السليمانية والموصل ضد بغداد، غير أن عبد الله باشا استطاع أن ينتصر على عبد الرحمن البابانى في كفري 1812 فيقضي بذلك على امله بالاستقلال عن بغداد، ثم ذهب لتأديب والي الموصل سعد الله باشا الجليلي لتقاعسه عن معاونته في ضرب هذا البابانى الثائر.

عندما تولى داوود باشا الحكم (1817) كان احمد باشا الجليلي واليا على الموصل، ولم يكن هذا الجليلي كأسلافه تبعا لولاة بغداد يتجنب ما يخالف رغباتهم، بل كان يسعى

إلى التخلص من نفوذهم ولذلك اظهر قلة اكتراث بداوود باشا وعدم انصياع لأوامره مما ادى إلى أن يستحكم بينهما العداء، فكتب داوود إلى الباب العالي مقترحا عزله، ولما كان لداوود باشا من النفوذ والسمعة لدى الباب العالي ما يكفل له تحقيق مطاليبه، ولاسيما وجود حالت افندي بين رجال الحكم فقد وافق الباب العالي على ما اقترحه داوود باشا، وصدر الفرمان بعزل احمد الجليلي ونفيه إلى حلب، كما صدر في الوقت نفسه فرمان اخر خاليا من الاسم ارسل إلى داوود باشا ليملأه باسم من يختاره لباشوية الموصل، فاسند الباشوية إلى حسن الجليلي، أمّا احمد الجليلي فانه امتثل لأمر السلطان بالتنازل عن الولاية لكنه شد الرحال إلى بغداد بدلا من حلب وفور وصوله قدم خضوعه للوالي فعفا عنه وكتب إلى الباب العالي يرجو تبديل محل الاقامة من حلب إلى بغداد فتم له ذلك. وسرعان ما اعيد احمد باشا الجليلي لولايته. ويحّمل القنصل البريطاني ريج، داوود باشا تبعة ما يقع في الموصل من اضطرابات، ويقول أن يده وراء كل مؤامرة أو اضطراب، وريج في تحامله هذا يظهر الجانب الرئيس من اتجاهاته السياسية والتي ترمي إلى زعزعة مركز داوود.

لقد استمر نفوذ داوود باشا قويا في الموصل، وعندما اعلنت الدولة العثمانية الحرب على ايران عام 1821 جعلت والي الموصل بمعية داوود باشا القائد العام للجبهة العراقية، ولكن الفوضى كانت قد ضربت في الموصل بسبب اشتداد الصراع بين افراد الاسرة الجليلية على النفوذ والزعامة، وتوالي المصائب عليها من مجاعات وطواعين، زد على ذلك احتكار رجال الحكم للغلة وخزنها لبيعها بأسعار باهظة عند حدوث مثل هذه النكبات، الامر الذي ادى إلى أن يحل بأهالي الموصل ضيق اقتصادي شديد بلغ ذروته في اواخر حكم يحيى باشا الجليلي، ثم تمخض عن ثورة شعبية قادها العمريون في المدينة عام 1826، مما اضطر الوالي يحيى باشا الجليلي إلى الفرار إلى بغداد. وقد علم الباب العالي بما حدث، وساد الاعتقاد بين رجاله بان داوود باشا هو السبب الرئيس لهذه الاضطرابات، في الوقت الذي لم يكن هناك في الاستانة من يدافع عن داوود باشا بعد أن اعدم حالت افندي عام 1823، غير انه رغم ذلك فان الباب العالي لم يتخذ أي اجراء يكف به يد داوود عن الموصل وذلك

بسبب ما كانت تعانيه من مشكلات وحروب في اوروبا، وكتب إلى داوود باشا باتخاذ ما يلزم لإعادة يحيى الجليلي لحكم الموصل، وبعد أن كان قد قضى على خروج يحيى الجليلي من الموصل ثلاثة اشهر ونصف الشهر تمكن من العودة إليها بقوة سلاح داوود باشا، وقد اعتقل معظم الذين ثاروا عليه وقتلهم، ثم جاء الفرمان السلطاني في اواخر عام 1826 بمنح ولاية الموصل إلى عبد الرحمن باشا الجليلي، وفي اواخر عهده نشبت ثورة عنيفة في المدينة تزعمها قاسم العمري وعدد من أعيان المدينة، ارادوا بها ابعاد الاسرة الجليلية عن الحكم، وقد ادت هذه الثورة إلى مصرع عبد الرحمن الجليلي في نيسان 1828 مع محمد الجليلي أخيه وكتخداه.

لقد حسب الثوار انهم تخلصوا بثورتهم هذه من حكم الجليليين، فاجتمعوا فيما بينهم وقرروا أن يعلموا داوود باشا بما حدث، والطلب اليه الموافقة على ابعاد الجليليين عن الحكم، إذ كان قد اصبح له الكلمة العليا في تعيين ولاة الموصل، ولما كان داوود باشا يرى في بقاء حكم الجليليين الضعفاء على الموصل استمرار لنفوذه عليها، فانه التزم جانب الاسرة الجليلية، واقترح على الباب العالي تعيين محمد امين باشا الجليلي واليا على الموصل، فصدر الفرمان السلطاني في عام 1829م بتوجيه ولاية الموصل اليه، وقد كانت باكورة اعماله التنكيل بزعماء الثورة، إذ اصدر امره باعتقالهم ونفيهم إلى تلعفر، لكنهم استطاعوا هناك من اعداد قوة ضاربة من أبناء تلعفر نفسها انظم إليها اربعمائة فارس من عشيرة البو حمد اقتحموا بها الموصل فدار قتال عنيف في شوارع المدينة بينهم وبين الوالي استمر حوالي واحد وعشرين يوما، تمكن الثوار في نهايتها من السيطرة على المدينة واناطة امورها إلى قاسم العمري، وشرعوا بملاحقة اتباع الباشا المهزوم، الذي اضطر إلى مغادرة الموصل والذهاب إلى بغداد. وقد كتب الثوار في هذه المرة إلى الباب العالي وليس إلى والي بغداد، ملتمسين منه أن يصادق على تولي قاسم العمري حكم الموصل، فقبل الباب العالي التماسهم وصدر الفرمان السلطاني بتوجيه ولاية الموصل اليه. وبذلك كان محمد أمين باشا الجليلي اخر من تولي حكم الموصل من الجليليين خلال حكم المماليك في

العراق. لقد خضع داوود باشا لأمر السلطان بتولية قاسم العمري على الموصل وذلك على اساس تقبله للأمر الواقع، غير انه سرعان ما اظهر استياءه من هذا التعيين ونشب الخلاف بينه وبين العمري، وقد استطاع داوود باشا أن يستحصل امرا من الباب العالي بقتله، وقد ارسل اليه الامر مع اغا التتر، فعندما بلغ هذا الساعي الموصل نزل ضيفا على قاسم العمري الذي اوجس خيفة من قدومه لان قدوم شخص كهذا لا يكون إلاَّ لأمر هام، وفي الليل وقد استغرق اغا التتر في النوم، عمد إلى محفظته وفتحها فوجد فيها امر قتله، فأخذه واخفاه، فلما كان الصباح سار اغا التتر قاصدا بغداد وهو لا يعلم ما جرى، وعند وصوله إليها بحث عن الامر في محفظته فلم يجده، فايقن أن قاسم العمري قد سرقه حين نزل ضيفا عليه واخبر داوود باشا بذلك، فبقي العمري في منصبه، حيث أن الباب العالي لم يصدر امرا اخر وذلك لان السلطان كان قد قرر القضاء على المماليك في العراق، ولم يستطيع داوود باشا بعد ذلك أن يعود إلى محاولاته لانشغاله بمشكلة صادق افندي. وفي عام 1832 عاد يحيى الجليلي إلى حكم الموصل إلى عام 1833 حيث انتهى حكم الاسرة الجليلة نهائيا اثناء حكمه للمرة الثانية، وقد اصبحت الموصل منذ ذلك الوقت تحت الحكم العثماني المباشر.

3. الاسرة البابانية:

لقد كان في شمال العراق خلال حكم المماليك اسر حاكمة متجاورة متنافرة، كأسرة البابانيين في السليمانية، والصورانيين في راوندوز، والبهدينانيين في العمادية، وكانت هناك أيضاً عشائر كردية قوية اهمها: الجاف والهماوند وبشدر وبلباس وديزه يي.

إن معلوماتنا عن الامارة البابانية قليلة بسبب قلة المصادر التي تلقي الضوء على نشوء هذه الامارة والظروف التي رافقت تطورها، فكتاب شرف خان البدليسي هو المصدر الوحيد الذي يتناول تاريخ هذه الامارة بشيء من التفاصيل.

كان اصل البابانيون من لاهيجان، ونشأت إمارتهم الاولى في اواخر القرن الخامس عشر أو في مطلع القرن التالي في شرقي امارة سوران، فاستولت على منطقة لارجان وسيوى وسولدز، وقام البابانيون كذلك بتعمير قلعة ماران، ثم استمالوا عشائر موكري وبانه بالقوة والمصاهرة، فتحولوا بعد ذلك الى التوسع جنوبا فاقتطعوا منطقة شهر بازار من امارة اردلان، حتى وصل نفوذهم في ذلك الاتجاه الى كركوك. وكان بير بوداق ابرز زعماء الأسرة البابانية، وعندما مات بير بوداق ولعل ذلك كان في عام 1500، خلفه ابن اخيه بوداق بن رستم الذي حكم عامين، وبوفاة هذا انقرضت الاسرة البابانية الأولى. وحكم بعدها اتباعهم واولهم (بير نظر بن بيرام) الذي استطاع أن ينزع ناحية كفري من حكومة بغداد فضهما إلى الامارة البابانية، ولما انقضى عهد بير نظر، خضعت الامارة البابانية لنفوذ اميرين من امراء بير بوداق وهما: مير سليمان ومير ابراهيم، فتقاسما المملكة بينهما وقضيا فترة من الزمن في الحكم يسود بلادهما الهدوء والسكينة، بيد أن هذه الحال لم تدم طويلا، فقد وقع بينهما النزاع وسلب المير سليمان سلطان المير ابراهيم وحكم احدى عشرة سنة، ثم توفي تاركا اربعة اولاد وهم حسين ورستم ومحمد وسليمان الذي تولى حكم الامارة بعد والده. ولقد لجأ حاجي شيخ بن المير ابراهيم إلى الشاه طهماسب طالبا معونته، غير انه لم يظفر منه بالمعونة، فرجع يائسا إلى بلاده، وعند وفاة مير سليمان تمكن أن يظفر بحكم الامارة البابانية، وبعد احتلال السلطان سليمان القانوني بغداد عام 1534م، بادر حاجي شيخ بن ابراهيم في الحضور إلى بغداد غير انه قتل في ناحية مركه على يد الاكراد الثائرين عليه، وعندما سمع السلطان سليمان بمقتله انعم بحكم امارة بابان على ابنه بوداق، الذي احتكر احفاده حكم الامارة إلى عام 1596م، حيث انتقلت الامارة إلى يد اسرة جديدة من عشيرة (سقر) وهي فرع من قبيلة بلباس القاطنة في ناحية بشدر.

كانت الاسرة البابانية في مطلع القرن الثامن عشر اقوى الاسر الكردية، وتأسست على يد رجل يدعى (فقيه احمد/ فقي احمد الدارشماني) في قضاء بشدر. ويكتنف الغموض زمن بروز فقي احمد على مسرح الاحداث، لعدم توفر اشارات تاريخية دقيقة حول

الموضوع، وربما عاش في منتصف القرن السابع عشر، وقد اتخذ فقي احمد دارشمانه مركزا لحكمه، والذي يشتمل على اقليمي مركه وبشدر اول الامر، وترسخ نفوذه نتيجة اعتراف السلطات العثمانية بسلطته على ما تحت يده من اراضي عندما اشترك في بعض المعارك العثمانية كما يشار الى ذلك.

اخذت الاسرة البابانية تتوسع في عهد فقي احمد وابنه خان بوداق بالاستيلاء على عدة مناطق، فقد تمكن بوداق من الاستيلاء على ماوهت وشهر بازار والاقضية المجاورة، كما تبعت بابان ايضا بعض العشائر المجاورة وبالأخص عشيرة بلباس الكبيرة وبعض فروعها الساكنة في ايران، ثم قام خان بوداق بنقل مركز حكمه الى ماوهت في عام 1665 ليتوفى هناك بعد ذلك بقليل. وتولى بعده ابنه بابا سليمان(1669-1699) الذي يعد المؤسس الحقيقي للأسرة البابانية في منطقة بشدر، وقد طغى في عهده الطابع السياسي للإمارة على طابعها الاقطاعي-القبلي. وقد تمكن خلال حكمه السيطرة على قره جولان واتخذها مركزا له، وقد امتد نفوذه حتى حدود كركوك، فنهض دلاور باشا حاكم كركوك للحيلولة دون زحف بابا سليمان ، غير انه اخفق في رده فسيطر بابا سليمان على كركوك عام1690م وقتل حاكمها، دون أن يعير سمعا لتهديدات والي بغداد حسين باشا، الذي جرد حملة ضمت اضافة إلى قواته، قوات غير نظامية من العمادية ولكنه اخفق في طرد بابا سليمان من كركوك، التي ظلت تحت السيطرة البابانية إلى عام 1701م. لم يكتف بابا سليمان بما ضم لحكمه من املاك جديدة، بل حاول السيطرة على امارة اردلان على الحدود الايرانية أيضاً، غير أن الفشل كان نصيبه في هذه المحاولة نتيجة الدعم الذي كان يتلقاه سليمان خان حاكم اردلان من الدولة الصفوية. وفي عام 1699 جرد والي بغداد اسماعيل باشا حملة على بابا سليمان واسترد كركوك منه واحتل كثيرا من الاراضي التابعة لإمارته حتى اضطر الاخير اللجوء إلى الباب العالي، الذي منحه سنجق بابان بشرط أن يكون تابعا للباشا في كركوك، التي كانت تدار من قبل ولاية بغداد، ويظهر أن ذلك كان محاولة من الدولة العثمانية لإضعاف تأثير هذه الامارة على الاحداث السياسية واعطاء صفة الاشراف المباشر على الامارة من قبل حكام بغداد.

لقد وصلت هذه الامـارة إلـى اوج قوتها عـام 1703م عندما تولى امرها بكر بك(1703-1714) الذي وسع حدود الامارة التي امتدت من ديالى حتى الزاب الصغير، ودخل القسم الجبلي الواقع على الجهة الغربية من طريق كفري - التون كوبري ضمن الامارة البابانية، غير أن نفوذ هذه الامارة بدأ يتقلص تدريجيا عندما جاء الى حكم بغداد حسن باشا سنة 1704م الذي سير إليها جيشا كبيرا قضى على نفوذ بكر بك عام 1714م، وعين متسلما على الامارة والحقها بولاية شهرزور. وفي عام 1721 تولى خانه بك حكم امارة بابان، وتميزت علاقته بالوئام التام مع ولاية بغداد، نتيجة الاستعداد الدائم من جانب امارة بابان لتلبية اوامر ايالة بغداد ومشاركتها في المشاريع والحملات العثمانية المتعددة، كما بلغت الامارة منذ ذلك الحين درجة عالية من الازدهار والتوسع باستفادة خانه بك من الصراع العثماني-الايراني المستمر بعد ان بدأت الدولة العثمانية تطمع في الاراضي الايرانية التي اصبحت فريسة سهلة بعد الغزو الافغاني لها عام 1722. لقد اندفع خانه بك حين اعلنت الدولة العثمانية الحرب على ايران في اوائل عام 1723، وشارك مشاركة فعالة في الجيش العثماني الزاحف على الاراضي الايرانية من جهة الغرب بقيادة والي بغداد حسن باشا. وقد قدر العثمانيون الجهود التي بذلها خانه بك في حربهم في ايران فمنحوه لقب مير ميران التي تعطي حاملها لقب باشا، وحصل كذلك على مكتسبات اقليمية عن طريق اضافة اردلان الى الاملاك البابانية. ولكن لم تستمر تلك العلاقات الجيدة بين العثمانيين وخانه باشا نتيجة انسحاب الاكراد من صفوف الجيش العثماني اثناء المعركة التي دارت بينهم وبين والافغانيين عام 1726. ورغم عودة خانه باشا الى صفوف العثمانيين بعد ذلك ومشاركته في الحروب العثمانية اللاحقة الا ان احمد باشا والي بغداد لم ينس له ذلك الموقف الذي سبب هزيمة نكراء امام الافغانيين، فدبر مقتله بينما كان يحارب في تبريز عام 1728. وتولى امارة بابان بعده اخيه خالد باشا الذي ظلت العلاقات مع الدولة العثمانية في عهده جيدة. ومع ذلك استمر أمراء بابان يشقون عصا الطاعة على حكومة بغداد معتمدين على الدولة الايرانية المتربصة على الحدود الشرقية، ففي عام 1743م سيطر سليم خان على

قلعة قره جولان بتأييد من ايران، فتبعت الامارة البابانية الدولة الايرانية كما يرى بعض المؤرخين. وقد حاول احمد باشا في اخريات ايامه خاصة بعد عقد معاهدة الصلح مع نادر شاه عام 1746م، أن يقضي على نفوذ سليم خان، فجرد عام 1747 حملة على البابانيين الذين تحصنوا في قلعة سروجك، غير انه فشل بسبب انتشار المرض بين افراد جيشه، فقفل راجعا إلى بغداد فتوفي في الطريق. ويلاحظ أن هذه الامارة استفادت كثيرا من موقعها الجغرافي القريب من ايران، هذا الموقع الذي جعل حكام هذه الامارة يشعرون، بان هناك قوة يمكن أن تساندهم إذا ما شقوا عصا الطاعة على والي بغداد.

لقد اتبعت هذه الاسرة الولاة المماليك كثيرا بسبب تنافس امراءها وتذبذبهم بين العثمانيين والايرانيين، وكانت ايران ترحب بمن يلجأ إليها إذ تجد في ذلك فرصة للتدخل العسكري في كردستان، وازاء ذلك كانت حكومة بغداد تسوق الجيوش إلى كردستان بصورة متواصلة الامر الذي جعلها تفتقر إلى الامن والاستقرار.

كان ولاة بغداد يجدون في انقسام الاسرة البابانية على نفسها من جراء التنافس بين افرادها خير وسيلة يمكنهم بواسطتها فرض سيطرتهم على كردستان فقد كانوا يعملون على استمالة بعضهم ضد البعض الاخر حتى انهم خلقوا العداء بين افرادها. ففي عام 1750م سار سليمان أبو ليلة على راس حملة إلى كردستان لقتال سليم باشا متصرف امارة بابان الذي اعلن عصيانه على حكومة بغداد ولما هرب هذا إلى ايران قام أبو ليلة بتعيين ابن عمه سليمان باشا الباباني متصرفا بدله. ورحب سعيد باشا بعبد الله باشا الباباني المطالب بحكم السليمانية والذي كان قد لجأ إلى بغداد، وقد عمد سعيد باشا إلى تعيينه على السليمانية، وجهزه لقتال ابن اخيه محمود الباباني باشا السليمانية. واستطاع داوود باشا كسب حلفاء اقوياء له من بين اعضاء الاسرة البابانية فقد حالفه حسن بك – اخو محمود الباباني باشا السليمانية – فعهد اليه داوود كوى وحرير واستخدمه في حرب اخيه محمود الموالي لإيران. وقد كانت القوة الكردية ذات اهمية كبيرة بالنسبة لباشوات بغداد فكثيرا ما احتاجوا لضرب العشائر العربية المتمردة أو لمطاردة الثائرة وفي بعض الاحيان الاستعانة بها لنيل باشوية

بغداد، وقد كانت هذه الحاجة من اسباب ضعف سيطرة بغداد على كردستان. وقد بلغ البابانيون ذروة مجدهم في عهد عبد الرحمن الباباني الذي تولى امارة بابان عام 1788م فقد كانت اطماعه السياسية ومطامحه القومية ترمي دائما إلى تأسيس حكومة مستلقة في العراق فاجتهد في سبيل ذلك كثيرا، حيث اشتبك مع قوات بغداد في عدة معارك، وكاد أن ينتصر في احدى معاركه الفاصلة على قوات بغداد في معركة جواز كفري عام 1812 لولا أن الفشل لحق به في النهاية. ولم يكن عبد الرحمن الباباني يعمل على تحقيق هدفه بالاستقلال عن بغداد فحسب بل كان طامعا بباشوية بغداد أيضاً وقد عرض رغبته هذه على حالت افندي ثم انه بلغ من القوة بحيث انه هو الذي نصب الوالي المملوك عبد الله باشا على بغداد، وبذلك كان عبد الرحمن حسن الباباني منذ أن تولى امارة بابان حتى وفاته عام 1813 تارة مواليا لبغداد، وتارة متمردا مستعينا بإيران التي كثيرا ما اعادته إلى السليمانية بقوة سلاحها. وبعد وفاة عبد الرحمن تولى ابنه محمود الحكم على السليمانية وذلك بمسعى من الشهزادة محمد علي ميرزا ومعنى ذلك أن اي محاولة لعزله معناه تدخل ايران العسكري لإسناده وهذا ما حدث بالفعل عندما عزله سعيد باشا عام 1815 حيث امدته ايران بجيش قوامه عشرة الاف جندي اعادته إلى السليمانية. غير أن تحالف ايران ومحمود لم يكن ليقبل به داوود افندي الوالي المرتقب لبغداد ولذلك عندما غادر داوود – في اواخر حكم سعيد باشا – بغداد متوجها إلى كردستان جعل اساس تحالفه مع محمود الباباني ضد سعيد أن يقطع كل علاقة له بإيران، وقد بقي محمود امينا على عهده عندما تولى داوود باشوية بغداد غير انه سرعان ما مال إلى ايران بعد وقت قصير فقد عجز عن مقاومة ضغط الشهزادة، بل إن محمودا لكي يؤكد اطاعته لإيران عزم على إرسال اخيه حسن بك حاكم قره داغ إلى كرمنشاه ليكون رهينة لدى الشهزادة. أمّا داوود فانه بعد أن عجز بالطرق السلمية عن اقناع محمود بالعدول عن سياسة التذبذب هذه، لم يبق امامه سوى اشهار السلاح وقد انضم اليه عبد الله باشا – عم محمود الباباني – وكذلك حسن بك (الرهينة المزمع ارسالها)، وعند ذلك عبر الحدود عشرة الاف جندي ايراني فقد استنجد محمود بإيران فوقع القتال بين قوات بغداد والقوات الايرانية

ثم اعقبه صلح بقي بموجبه حاكما على السليمانية وضمت اليه ثانية كوى وحرير. وبعد ذلك قام محمود الباباني بإرسال والدته إلى بغداد لتطلب من داوود أن يعيد اليه اخاه حسن بك الذي كان قد التجا إلى بغداد، ولتعرض عليه أيضاً طلبه بضم اربيل والتون كوبرى اليه، وقد وافق داوود باشا على اعادة حسن بك وقام بأرساله إلى السليمانية وبصحبته دفتر دار بغداد السابق رستم افندي الذي ارسل بيده داوود باشا خلعة إلى محمود الباباني، ووعد داوود باشا بتولية محمود الباباني على اربيل والتون كوبرى. ويلوم كلوديوس ريج داوود على تسليمه حسن إلى اخيه محمود، ويعلل ريج سبب تسليم داوود لحسن بك بان باشا بغداد وجد انه من المستحيل على حسن أن يتحدى محمود باشا والايرانيون يشدون ازره ولذلك عندما علم انه لا خير يرجى من حسن بك قبل أول عرض مؤات عرضه عليه محمود باشا فسلمه إلى اخيه دون الاكتراث بمصيره. ويظهر أن الامر كان على غير ما يرويه لنا ريج، فقد كانت الظروف في السليمانية وبغداد تقضي بقيام مثل هذا التقارب لمواجهة الخطر الايراني المتزايد في ايار - حزيران عام 1820 فقد كان في السليمانية مبعوث ايراني يدعى باقر خان جاء كرسول من الشهزادة محمد علي ميرزا حاكم كرمنشاه ليطالب محمود بدفع ثلاثين الف تومان للشهزادة، فكان هذا عبئا ماليا على محمود الذي وجد نفسه في هذه الازمة بحاجة إلى داوود كما كان داوود في حاجة إلى محمود ليخلص كردستان من نفوذ ايران لاسيما وان ايران بدأت تختلق الحجج على داوود باشا بغية شن هجوم على العراق فقد ساءها تحسين العلاقات بينه وبين محمد الباباني ومما كانت قد احتجت به على داوود قطعه تقديم التبريكات والتهاني المعتادة إلى الشاه في المناسبات والاعياد القومية وعدم حضوره الحفلات الرسمية التي تقيمها معتمدية حكومة الشاه في بغداد وقد كان الاحتجاج الذي بعثته حكومة ايران بيد معتمد الدولة علي اكبر شديد اللهجة وباللغة الفارسية. لم يلتفت داوود باشا إلى هذا الاحتجاج، وارسل جوابه عنه بيد المعتمد المذكور، وتحسبا لأي رد فعل مفاجئ راح يسعى لتقوية الحدود لاسيما وقد علم بان الشاه ينوي تفقد المناطق المتاخمة لكردستان، وما قد ينطوي عليه ذلك من اغراض سياسية وعسكرية. وقد ارسل

داوود باشا إلى الباب العالي صورة من احتجاج حكومة ايران وجوابه عليها واعلمها بما تقوم به ايران من تحرشات. وخلال ذلك كان داوود قد سلم عبد الله باشا إلى ابن اخيه محمود الباباني الذي قرر أن يقضي على النزاع الدموي الامر المدمر بين الامراء البابانيين، وذلك بتوحيد كلمة الاسرة عن طريق جمع كبرائها وجلب من كان قد لجأ منهم إلى كرمنشاه وبغداد ومنحهم من المناصب ما يكفل لهم حياة كريمة. وقد كان محمود الباباني يتوقع أن يقوم الشهزادة محمد علي ميرزا بمحاولة استمالة عمه عبد الله باشا أو احد اخوته إلى جانبه وتحريضه عليها إذا ما رفض أن يدفع الثلاثين الف تومان، ولذلك ذهب محمود بصحبة عمه عبد الله باشا واخويه عثمان وسليمان إلى الشيخ خالد النقشبندي، وامامه اقسم هؤلاء الثلاثة يمين الولاء لمحمود باشا، كما اقسموا بانه إذا تلقى أي منهم كتابا من الدولة العثمانية أو ايران فانه يفتحه في دار الشيخ خالد وبحضور جميع من اتفق على ذلك، وكان عثمان بك أول من اختير في الامر، إذ تلقى بعد مدة قليلة كتابا من الشهزادة يدعو به إلى كرمنشاه ويعده بتقليده منصب باشوية السليمانية، وقد بلغ عثمان بك اخويه بهذا الكتاب فور تسلمه، وتسلم عبد الله باشا كتابا اخر بذات المعنى، ولكنه اخفاه عن الاخرين خلافا لما تم الاتفاق عليه، غير أن داوود باشا عرف بطريقة ما بأمر هذا الكتاب فسارع بإرسال ساع إلى محمود باشا يخبره بذلك ويطلب اليه القاء القبض على عمه، غير أن محمودا لم يكن ليصدق ذلك في بادئ الامر، ولذلك رفض اتخاذ أي اجراء ضده، بل وضعه تحت المراقبة ليتأكد من خيانته للعهد، واخيرا تأكد من خزنة دار عبد الله باشا أن عمه يعد العدة للفرار إلى كرمنشاه فألقى القبض عليه، غير انه سرعان ما اخذته الشفقة عليه فطلب من داوود باشا أن يسمح له بالأفراج عن عمه، ولكن داوود لم يوافق على ذلك. وبالرغم من معارضة داوود، فقد افرج محمود عن عمه، فأخطأ بعمله هذا إذ هرب عبد الله بعد ذلك إلى كرمنشاه، وبذلك كان داوود محقا في معارضة اطلاق سراحه. اما الشهزادة محمد علي ميرزا قد اصدر امره بتعيين عبد الله باشا الذي كان قد التجا اليه، حاكما على السليمانية وجهزه بقوة هائلة سيره معها إلى السليمانية فسير داوود باشا أيضاً إلى السليمانية جيشا مجهزا بأربعين مدفعا بقيادة كتخداه محمد اغا

لمساعدة محمود باشا غير أن هذا الجيش انكسر امام الجيش الايراني الذي نصب عبد الله باشا حاكما على السليمانية وقد كان ذلك في ايلول سنة 1821. وقد ظل محمود البابان ينتظر الفرصة المواتية التي ينقض بها على السليمانية فكانت وفاة الشهزادة في تشرين الأول 1821، واحتدام القتال في جبهة كردستان الشمالية وارضروم بين قوات عباس ميرزا ولي العهد الايراني وقوات الدولة العثمانية، حافزا له ليستأنف نضاله، وقد جهزه داوود باشا بالقوات لمواجهة السليمانية فانتصر محمود ودخل السليمانية في اوائل ايار 1823، غير انه لم يتمتع فيها بهدوء البال، فقد اصيب السليمانية بطاعون قضى على بضعة الاف نسمة، من سكانها، وادى بالباقين إلى أن يهجروها، فاستغل عبد الله باشا هذه الكارثة، وعاد بجيش ايراني لغزو السليمانية، ولما لم يستطع محمود باشا المقاومة والدفاع، غادرها نحو كركوك، وبذلك دخل عبد الله باشا السليمانية مرة ثانية وهكذا صارت السليمانية بيد عبد الله باشا وبيد محمود باشا تارة اخرى الامر الذي عرضها إلى ضيق اقتصادي وتدهور في جميع النواحي، وفي النهاية تم الاتفاق عام 1823 بين حكومة بغداد وحكومة ايران على تعيين محمود باشا حاكما على السليمانية وعبد الله حاكما على كويسنجق. وقد تلا هذه التسوية نزاع على الحكم بين الاخوين محمود باشا وسليمان باشا وبذلك كان من الطبيعي أن تضعف السليمانية وان تقوى على حسابها جارتها راوندوز التي كانت في تقدم مستمر على عهد الباشا محمد الراوندوزي الذي كان يتطلع إلى أن يحل محل البابانيين في كردستان. ولعل داوود باشا مال اليه لأنه كان ضد ايران وضد البابانيين الذين وضعوا كردستان غير مرة تحت أقدام ايران، ولم يعد داوود ينتظر اية فائدة من السليمانية فقد افل نجم حكامها البابانيين وانحط شانهم. وقد استطاع محمد باشا أن يوسع نفوذه بالاستيلاء على سورجي وخوشناي وحرير وكوي ورانية، وقد شجعه داوود باشا على مقاتلة محمود باشا البابائي، غير أن محمود استطاع بمساعدة الجيش الايراني دحر جيش راوزندوز ، وقد ادى ذلك إلى توتر العلاقات بين ايران والدولة العثمانية، فبعث الباب العالي بأسعد افندي للتحقيق في هذه الحادثة، وعند وصوله بغداد دعا محمود باشا لإجراء التحقيق معه، ولكن هذا أبى أن يأتي إلى بغداد

لأنه خشي من غدر داوود باشا به. وقد استمر محمد باشا الراوندوزي في استغلال النزاع بين الامراء البابانيين في توسيع نفوذه واستمر أيضاً تدخل ايران في كردستان، وفي سنة 1850م انقرضت الامارة البابانية، وانهارت لاسيما بعد سقوط السليمانية بيد العثمانيين.

ـ البصرة والنفوذ العثماني في الخليج العربي:

لقد كان لعودة الحكم العثماني المباشر على البصرة بعد القضاء على اسرة افراسياب اثر في النفوذ العثماني في الخليج العربي، فقد بقيت الاحساء بمنأى عن اثاره. والذي حدث ان اسند منصب الولاية في البصرة الى عمر باشا والي الاحساء، فاضطر خليفته عيسى باشا بعد ان عجز عن تثبيت حكمه الى ترك الحكم الى براك زعيم بني خالد، فانتقل بذلك الحكم الى امرائها المحليين. ويعد براك اول من اسس حكم بني خالد بعد طرد العثمانيين منها عام 1670، وبذلك وضع نهاية لاحتلال قام به العثمانيون لتلك البلاد. ويبدو ان الحكم المحلي لآل افراسياب في البصرة ساهم في مد فترة الحكم العثماني في الاحساء، مهما كانت سماته، مدة اطول، في وقت لم يستطع فيه العثمانيون ان يحافظوا عليه بعد عودة حكمهم المباشر الى البصرة. وهذا يعود الى ان حكم ال افراسياب كان اكثر تفهما من العثمانيين لطبيعة الحياة في جهات الخليج العربي، اضافة الى امتلاك ال افراسياب قوة محلية لابأس بها قريبة من تلك الممتلكات استطاعوا بوساطتها ان يهددوا الحركات المناوئة لهم. وقد امتد نفوذ بني خالد من الاحساء الى منطقة نفوذ العثمانيين في العراق، اذ وصلوا الى مشارف مدينة البصرة، وكانت الكويت مقر حكمهم الصيفي. والملاحظ انهم استطاعوا المحافظة على علاقات طيبة –رغم انفرادهم بحكم الاحساء– بولاة البصرة وعدوا انفسهم حلفاء للعثمانيين. والحقيقة ان امراء الخليج العربي بشكل عام كانوا يرغبون ببقاء تحالفهم مع العثمانيين، فمن جهة كانت لهم مصالحهم الاقتصادية والسياسية مع البصرة ما جعلهم

على صلة وثيقة بالعراق. ومن جهة اخرى حاولوا الاستفادة من قوة العثمانيين النامية في الخليج العربي، ومن هنا جاء اندفاع شيوخ الكويت لان يطلبوا الولاء عام 1718 من الوالي العثماني في البصرة، وبذلك تمكنت الدولة العثمانية من الحصول على سيادة اسمية على الكويت وان لم تكن لها اهمية تذكر. وفي الحقيقة ان الكويت ينظر لها في ذلك الوقت انها تابعة للبصرة. ولكن رخائها كان يسير في اتجاه معاكس مع البصرة، حيث انها افادت فائدة كبرى من احتلال الايرانيين للبصرة بعد ان تحولت تجارة الهند اليها في الفترة ما بين عام 1675-1779. كما ان الوكالة البريطانية في البصرة قد تحولت اليها مؤقتا للمرة الثانية في الفترة ما بين عام1793-1795.

تشير وثائق شركة الهند الشرقية البريطانية عن قيام اول ازمة سياسية بين البصرة والكويت حينما قرر متسلم البصرة مصطفى اغا ان يحكم البصرة حكما مستقلا عن بغداد، وقد ايده في فكرته الشيخ ثويني بن عبد الله امير المنتفك وانظم اليه. الا ان قوات باشا بغداد اجبرت الانفصاليين للالتجاء الى الكويت، وعندئذ دارت مراسلات مطولة بين بغداد والكويت لتسليم اللاجئين، لعب فيها صموئيل مانيستي المقيم البريطاني في البصرة دورا كبيرا في تهدئة الامور حيث كتب الى شيخ الكويت عبد الله الصباح(1776-1814) رسالة يشرح فيها الموقف اثر مقابلة اجراها مع سليمان باشا والي بغداد. وقد استطاع المقيم البريطاني من ان يقنع الباشا بالعدول عن ارسال الحملة التي كان يزمع القيام بها ولاسيما ان من كن يطلبهم قد تركوا الكويت الى نجد بنصيحة من شيخ الكويت.

اما الاحساء فنلاحظ ان امرائها من بني خالد سارعوا الى تقديم معونتهم الى متسلم البصرة سليمان اغا عام 1775 للدفاع عن البصرة عندما تعرضت لحصارها الكبير على يد الايرانيين. كما ان احمد بن سعيد امام عمان(1774-1783) ارسل اسطوله للبصرة ليساهم في الدفاع عن ذلك الثغر. وقد تمكن من السيطرة على شط العرب طوال الصيف فأمن وصول ما تحتاجه المدينة. وقد كافأته السلطات العثمانية مكافأة سنوية رصدت له من خزينة البصرة لتعاونه الصادق مع العثمانيين. ومن الجدير بالذكر ان معظم تجارة عمان في ذلك

الوقت كانت مع العراق، ويتضح ذلك بشكل خاص عن طريق اسطول البن الذي يرسله امام عمان كل عام، والذي يعد من الاحداث التجارية المهمة في البصرة. وبصورة عامة فقد حافظت منطقة الخليج العربي على ولائها للعثمانيين، الا ان العثمانيين لم يقدموا لها شيئا، ولم يحاولوا ان يملأوا الفراغ الذي تشكو منه، الامر الذي فسح المجال للدولة السعودية الناشئة في اواخر القرن الثامن عشر في ان يحلوا في تلك الربوع، فاجتاحت جيوشهم الاحساء واستولوا عليها واخرجوا بني خالد منها. وقد التجأ بنو خالد الى البصرة ليطالبوا المماليك بنجدتهم، فخرجت حملتان كبيرتان ضد ال سعود الاولى عام 1797 ابحر فيها ثويني شيخ المنتفك السابق الى الاحساء، وكان قد توقف في الجهرة يجمع مستلزمات الحرب. وكان الاسطول يشمل سبعة الاف تركي وضعف هذا العدد من العرب. ولكن كل هذه الاستعدادات فشلت بسبب اغتيال قائد الحملة قبل الاشتباك في اية معركة، مما جعل الحملة تتقهقر للوراء وتعود الى البصرة امام ملاحقة القوات السعودية لها التي غنمت من الحملة الشيء الكثير. وقد ابحرت في اواخر السنة التالية حملة اخرى بقيادة متسلم البصرة الكتخدا علي باشا، وكانت تشتمل خمسة الاف انكشاري وعدد من الجنود الاجيرة غير النظامية ومدفعية وافرة، ولكن غير مؤثرة، وقطعات من قبائل عقيل والعبيد وشمر وغيرهم. ورافق الكتخدا محمد بك الشاوي مشاورا في شؤون البادية. وصلت هذه الجيوش الى البصرة في 2 كانون الاول 1798، وهناك اضيف الى الجيش قطعات من قبائل الضفير والمنتفك وبني خالد وبذا بلغ عدد القوات العشائرية ما يزيد على عشرة الاف مقاتل. وسارت الحملة نحو الجهرة وقد سلكت طريقين بريا وبحريا في تقدمها نحو الاحساء. وقدم لها شيخ الكويت عبد الله الصباح معونات بحرية ساعدتها كثيرا. ورغم ان الحملة حققت بعض النجاح الا انها فشلت في حصارها لحامية الاحساء، وقد كلفها الحصار ثمنا غاليا زهقت فيه ارواح كثيرة نتيجة الاوبئة وصعوبة المناخ وصمود المحاصرين الامر الذي دعا الكتخدا الى ان يتخذ قرارا بالعودة دون ان يحرز أي نصر. وفي هذه الاثناء وصلت قوات الامير سعود بن عبد العزيز، ولما كانت قوات الطرفين في وضع لا تحسد عليه، قبل الكتخدا

المفاوضات مع القوات القادمة. وقد دارات المفاوضات حول تبعية الاحساء، ووجوب استرداد المدافع التي استولى عليها ال سعود في اعقاب حملة ثويني، والمطالبة ببعض التعويضات عما لحق الحملة من اضرار، وعدم التعرض للحجاج العراقيين في اثناء مرورهم بأراضي ال سعود. وقد رجع قائد الحملة ومعه مثل ابن سعود ليوقع وثيقة الصلح في بغداد، حيث تم عقد الهدنة امدها ست سنوات، وقد وجد الامير عبد العزيز ان من الحكمة ان يصالح حكومة بغداد لذا فارسل هدايا ثمينة وعدد من الخيول الاصيلة لاسترضاء الوالي سليمان باشا. ولكن قوة ال سعود المتزايدة لم تقتصر تهديدها في الفترة اللاحقة على مناطق نفوذ العثمانيين في الخليج العربي فحسب، وانما تعدتها الى العراق نفسه، فأقضت مضاجع حكام بغداد الذي صاروا لا يعرفون سبيلا لدرء خطر ال سعود، اذ استطاع هؤلاء ان ينقلوا ساحات القتال الى الاراضي العراقية، فشنوا هجمات عنيفة على المدن العراقية، وكان ما اصاب البصرة منها هجمات ثلاث، الاولى عام 1803 عندما حاصرت جيوش الامير سعود مدينة الزبير، ثم اتجهت بعدئذ الى مدينة البصرة فضربت عليها حصارا استمر اثنى عشر يوما. والثانية عام 1805، اما الثالثة فكانت عام 1808. وقد اشتدت في تلك الفترة مطالبة سلطان مسقط لولاة بغداد بأن يتدخلوا في مقاومة زحف ال سعود في منطقة الخليج العربي، ولكن لم يثمر طلبه عن شيء يذكر. واذا ما تأملنا اسباب عدم تحمس المماليك في العراق في هذا الوقت للتحالف مع عمان وجدناه يرجع الى عجزهم الظاهر عن الدفاع الخارجي، فضلا عن ذلك انهم لا يملكون من القوة البحرية ما يؤهلهم لمقاومة زحف ال سعود. هذا في وقت كانت سفن مسقط نفسها تساعد باشا بغداد على حفظ مصالحه في الخليج العربي، وقد كوفئ على ذلك بان فسح المجال له لإرسال ثلاث سفن الى البصرة سنويا تفرغ حمولتها من السلع معفاة من الرسوم. ومن هنا يتضح لنا ان النفوذ العثماني في الخليج العربي لم يستطع في هذه الفترة ان يحافظ على وجوده، فقد انتابته هزات عنيفة متوالية كادت تطبق عليه. وكانت السيادة في الاقطار التي امتد اليها النفوذ العثماني اسمية. مع الملاحظ ان البصرة اصبحت عاجزة على ان تقوم بمهماتها الحقيقية، لهذا فقد تركت الامور بيد والي

بغداد. وقد لعبت العصبيات القبلية دورا في حياتها. ولم تقتصر على القبائل التي تحيطها وانما تعدتها الى سلطنة عمان التي بدأت تتخذ مواقف مناوئة للعثمانيين، فلما تعرضت البصرة لحركات المنتفك عام 1826 بسبب عزل داوود باشا للشيخ حمود الثامر من زعامة المنتفك واسنادها الى عجمي السعدون، كان سلطان عمان من المؤيدين لحمود الثامر شيخ المنتفك المعزول. وعندما طلبت المنتفك النجدة لبت عمان النداء، وكان باشا بغداد قد رفض طلب السلطان العماني المتأخر من الجزية السنوية التي تدفعها الحكومة العثمانية له ومقدارها 101 الف روبية، فحاصرت قطعات الاسطول العماني البصرة ولم تتراجع الا بعد ان استطاع متسلم البصرة ان يقنع قائدها بالانسحاب من المعركة وقد استجاب لاهم مطالبه، وقد اصبحت عمان خطرا يهدد البصرة دائما وتعاونت مع البريطانيين ضد داوود باشا، الا ان هذه القوة اخذت تتلاشى في الفترة التالية فتفككت قوتها وضعف بالتالي امر تهديدها للبصرة.

اما الكويت وهي اقرب الامارات الى ولاية البصرة فلم يستطع العثمانيون ان يثبتوا السيادة عليها، وظلت تتأرجح بين الولاء والانفصال لكنها في كل هذا كانت على صلات طيبة مع الولاة العثمانيين، فقدمت لهم المساعدات في مناسبات عديدة، وكان ابرز تلك المساعدات ما قدمه الشيخ جابر الاول الحاكم الثالث للكويت(1814-1859) لمتسلم البصرة عزيز اغا في حربه مع كعب عام 1827، حيث جعل اسطوله البحري في خدمة المتسلم، مما غير مجرى الحرب وحقق نصرا حاسما.

ـ الغزوات الايرانية للعراق 1757ـ1823:

ادى انشغال ايران بمشاكلها الداخلية، على اثر مصرع نادر شاه في عام 1747م الذي كان ايذانا بانتشار الفوضى في جميع ارجاء البلاد، حيث بدأت صراعات دموية على العرش، إلى أن يكون العراق بمأمن من الغزو الايراني مدة عشرة سنوات.

لكن السياسة الايرانية اتخذت صورة اوسع من التدخل في شؤون العراق في عهد كريم خان الزند الذي تولى السلطة في ايران عام 1757 وغزا البصرة في العام نفسه، وهناك عدة تفسيرات حول اقدام الزند بهذا الغزو وهي:

1. أن كريم خان اراد بغزوه للبصرة اشغال الجيش الايراني بمهمات خارج الحدود بعد أن شعر بوجود تذمر بين صفوفه.

2. اعتقاد كريم خان بان احتلاله للبصرة يساعده على اخضاع عمان التي كانت اغلب تجارتها مع هذا الميناء، ويساعده أيضاً على احباط السياسة التي اتبعها الوكيل الانكليزي في البصرة والتي تهدف إلى مقاطعة الموانئ الايرانية وجعل البصرة مركزا رئيسا للتجارة جميعا.

3. أن هزيمة الجيش الايراني في شمال العراق هي التي دفعت كريم خان إلى التفكير بشن الحرب على نطاق واسع، وكان من المتوقع أن ينتقم بعمل ما ضد بغداد أو البصرة، وكانت الثانية هي ارجح الاحتمالين حيث أن كريم خان كان مغتاظا من النجاح التجاري الذي احرزته البصرة التي اتسعت عوائدها وتزايدت اهميتها في تلك المرحلة، في حن تضاءلت الاهمية التجارية لميناء بوشهر بعد أن اغلقت شركة الهند الشرقية الانكليزية وكالتها التجارية في هذا الميناء بسبب متاعبها مع كريم خان، وتركزت في البصرة جميع تجارتها مع الخليج العربي، ومن ثم كان انهيار تجارة بوشهر محتوما.

والحقيقة أن الغزو الايراني للبصرة وان كانت بعض اسبابه تتعلق بتجارتها، إلاَّ انه لا يخرج عن نطاق المشاريع الايرانية التوسعية، فقد سبق أن تعرضت البصرة- لغزو ايراني في السنوات 1624 و 1625 و 1629 و 1735 و 1743. ومهما يكن من امر، فان كرم خان كان يبحث عن ذريعة لتحقيق اطماعه التوسعية تكون بمثابة عود ثقاب يشعل بها نار الحرب، فطالب برأس والي بغداد مدعيا انه يسيء معاملة التجار الايرانيين ويسلب اموالهم، كما اتهم حكومة بغداد بتقديم المساعدة إلى احمد بن سعيد إمام عمان، وكان كريم خان قد ابدى رغبته في مشاركة السفن الانكليزية والعثمانية في الهجوم الذي ينوي القيام به ضد عمان ولمح بانه سيغزو البصرة إذا لم يجب مطلبه. ولم يكن موقف كريم خان إلاَّ حجة لإعلان

الحرب على العراق، فقبل أن يتلقى جواب حكومة بغداد، شنت القوات الايرانية عدوانا واسعا على العراق من عدة جهات، إذ تحركت من شيراز لمهاجمة البصرة قوات تعدادها خمسون الفا بقيادة صادق خان – شقيق كريم خان– اضافة إلى قطعات بحرية تتكون من حوالي ثلاثين سفينة صغيرة، وفي الوقت نفسه كانت هناك قوات ايرانية اخرى يقدر عددها بعشرين الفا قد عبرت حدود العراق الشمالية واحتلت عدة مواقع مهمة، واخذت تتقدم باتجاه محور كركوك – اربيل. وكان الهدف من هذه الخطة العسكرية دفع العراق لان يحارب عدة جهات، مما يسهل مهمة القوات المتقدمة، لاحتلال البصرة الهدف المقصود من شن الهجوم على العراق، لذلك ما أن بدأت القوات الايرانية بمحاصرة البصرة حتى اصدرت القيادة الايرانية اوامرها إلى قواتها في جبهة العراق الشمالية بالانسحاب إلى داخل الحدود الايرانية.

لقد كان الموقف العسكري بالغ الخطورة إذ لم يكن لدى حكومة بغداد من القوات ما تستطيع به مواجهة العدوان الايراني، لذا عرضت الامر على الباب العالي وطلبت المساعدة العاجلة ولكن غير جدوى، ولما كانت الدولة العثمانية قد خرجت منذ وقت قريب من حرب خاسرة مع روسيا انتهت بعقد معاهدة كجك كينارجي 1774، فإنها حاولت إيقاف الحرب بالطرق السلمية حيث اوفدت مبعوثا إلى العاصمة الايرانية ليقابل كريم خان ويتباحث معه حول الموقف ويبلغه بانها على استعداد لعزل والي بغداد إذا كان ذلك يؤدي إلى عودة السلام، غير أن مباحثات المبعوث العثماني لم تسفر عن اية نتيجة إذ رفض الخان سحب قواته من الاراضي العراقية. وفي السادس عشر من آذار 1775 وصلت القوات الايرانية شط العرب واصبحت بالقرب من مصب نهر السويب، فواجهتها قوات عربية كبيرة من عشائر المنتفك بقيادة الشيخ عبد الله السعدون، وكانت قد اتخذت مواقعا على الجانب الغربي من شط العرب لتمنع عبورهم إلى هذا الجانب، وقد تقدمت البصرة بطلب عاجل إلى امام عمان احمد بن سعيد لمشاركة اسطولها في الدفاع عن المدينة، فبعث الامام بخطاب يعد فيه بتلبية الطلب. وكانت قوة البصرة العسكرية إذا ما قورنت بحكم القوة العسكرية

الايرانية تكون سهلة المنال بحكم الحسابات العسكرية التقليدية، لكن هذا الواقع العسكري لم يكن ليؤثر في شجاعة وتضحية هذه المدينة، وبينما كانت المدينة تشهد جهودا كبيرة في تقوية الاستحكامات والتحصينات الدفاعية، وصلها مبعوث ايراني يعرض استعداد حكومته للتخلي عن غزوها مقابل مبلغ كبير من المال، غير أن المبعوث طرد دون أن يتلقى ردا، وبعد ذلك بحوالي اسبوع (23 آذار 1775) وصل وفد ايراني عرض على حكومة البصرة أن تدفع مبلغا جسيما والا فان قواتهم ستحتل المدينة في غضون خمسة ايام، لكن الوفد الايراني طرد دون جواب كما حدث في المرة السابقة.

تواصلت استعدادات البصرة الدفاعية وتم اقامة حاجز يمنع الملاحة في شط العرب ويحول دون وصول الامدادات إلى القوات الايرانية، والحد من عبور المزيد من السفن إلى شمال المدينة، والحاجز عبارة عن جسر من القوارب الكبيرة ربط بعضها ببعض بالسلاسل والحبال وتم حصرها في صدر نهر العشار، كما وصلت من بغداد قوة من الانكشارية يبلغ عددها حوالي مئتي جندي مع رسالة من الوالي إلى حكومة البصرة يذكر فيها بانه سيرسل المزيد من القوات لرد العدوان الايراني. وفي 6 نيسان اقتربت طلائع القوات الايرانية من المدينة، وقدر عددها حسبما جاء في تقارير الوكالة البريطانية في البصرة التي شاهد موظفوها تقدم هذه القوات من شرفة الوكالة، بعدة الاف من الخيالة والمشاة، واخذت بالتمركز قرب باب بغداد الذي يؤدي إلى قلب المدينة المأهول بالسكان، وفي صباح اليوم التالي وصلت مؤخرة القوات وأخذت مواقعها في الخطوط الامامية، وبالرغم من اقتراب القوات الايرانية فان معنويات السكان كانت عالية. وقد حاول ثلاثمائة ايراني في صباح 8 نيسان، الاقتراب من الاسوار للتعرف عليها، غير أن طلقات المدافع سرعان ما انهالت عليهم، وفي الوقت نفسه اجبرت ست عشرة سفينة ايرانية حاولت أن تقترب من المدينة على التراجع. واصلت القوات الايرانية حصارها المفروض على البصرة، وشهد القسم الشمالي من المدينة هجمات عديدة في محاولة لإحداث ثغرة بسوره وكان اعنف هجوم ذلك الذي تعرضت له المدينة في يوم 9 نيسان ودار القتال بين المهاجمين والمدافعين من رجال قبيلة المنتفك

العربية ولم ينته إلاَّ بهزيمة الايرانيين. وازاء ذلك، شدد الايرانيون من حصارهم وتقدمت قواتهم إلى مسافة قريبة جدا من المدينة، وشنت هجمات عديدة باءت جميعها بالفشل، غير انهم تمكنوا في هجوم واسع عنيف من احداث ثغرات بالسور في خمس مواقع، بعد أن دكت المدينة بالمدفعية التي كانت تحت قيادة ضباط اوروبيين، كما هوجم ليلا جسر القوارب الذي كان قد وضع في صدر العشار، واحرق احدها، وكانت قدرة المدينة البحرية قد ضعفت حيث فوجئت في 11 نيسان بمغادرة القطع الحربية الانكليزية وعلى ظهرها الوكيل هنري مور وموظفو الوكالة ومعهم القطع الحربية الاربع التابعة للعراق التي كانت تحت قيادة انكليزية، الامر الذي اثار استياء السكان ونقمتهم واعتبروا هذا العمل - مهما كانت دوافعه - لا يخرج عن كونه خطة ترمي إلى تسهيل عملية الاحتلال الايراني للبصرة. والحقيقة انه منذ أن بدأ الغزو الايراني للبصرة، كانت هناك اتصالات مسبقة بين الفرس والانكليز بقصد تسوية جميع المشكلات القائمة بينهما، فقد وصل بوشهر في 7 نيسان 1775 أي في نفس اليوم الذي بدأت فيه القوات الايرانية حصارها للمدينة، روبرت جاردن احد اعضاء شركة الهند الشرقية في بومباي، في مهمة تستهدف استئناف العلاقات مع كريم خان واعادة فتح الوكالة التجارية في بوشهر، وفي 11 نيسان بعث جاردن بخطاب إلى كريم خان شرح فيه مهمة بعثته، وذكر انه لما كانت الصداقة التامة بين الانكليز والايرانيين موجودة من القدم، فان حكومة بومباي قد فوضته في اعادة فتح الوكالة البريطانية في بوشهر وعودة السفن الانكليزية إلى ممارسة نشاطها التجاري مع الموانئ الايرانية، وقد كان التأكيد الايراني للمبعوث الانكليزي بان كريم خان ليس لديه شيء اكثر اهمية من تأسيس الوكالة الانكليزية في المناطق التابعة لنفوذه. وواضح من التنسيق الايراني مع الانكليز يعيد الى الاذهان تحالفهم مع البرتغاليين في مطلع القرن السادس عشر وقوى اوربية اخرى، ضمن سياسة تهدف الى فرض نفوذهم في منطقة الخليج العربي.

لقد اعتقد كريم خان ان البصرة بعد ان فقدت قوتها البحرية الرئيسية، اصبح امر احتلالها سهلا، الا ان الامر لم يكن كما حسب، فقد استطاعت هذه المدينة ببضعة سفن

صغيرة، ان تواجه باقتدار القوة البحرية الكبيرة المعادية وتحطم العديد من القطع الحربية، كما ان المدفعية الايرانية لم تتمكن من تحقيق اي نجاح في مواجهة الاستحكامات، فقد كان رجال قبيلة المنتفك وغيرها من قبائل العرب مجتمعون لحماية البصرة، وان الصحراء تفيض بالمحاربين، وان لا خطر على البصرة من الجيش الايراني. يضاف الى ذلك ان امام عمان احمد بن سعيد وهو المدرك للأطماع الايرانية في الخليج العربي، تقدم بأسطوله في شهر آب 1775 ليشارك البصرة صمودها امام الايرانيين، وقد اتخذ الاسطول موقعه عند مدخل شط العرب بعد ان حطم السلسلة التي وضعها الايرانيون لعرقلة تقدمه، ودمر العديد من سفنهم، فامن السيطرة على النهر ولو لفترة محدودة، الامر الذي ساهم في دعم صمود ودفاع المدينة. وبعد ان صمدت البصرة اكثر من عام كامل (7 نيسان 1775 - 15 نيسان 1776) دخلت القوات الايرانية البصرة وكانت مؤلفة من ستة الاف جندي، وبعد خمسة ايام (21 نيسان) دخل صادق خان تصحبه قوات كبيرة أحدثت الفوضى وهي تبحث عن مساكن تنزل بها، الامر الذي ارغم العديد من السكان على اخلاء بيوتهم ومغادرتها، ولم يحترم الايرانيون تعهدهم، فآذوا السكان واستباحوا الحرمات، واعتقلوا المتسلم ورجال حكومته وكذلك وجوه اعيان البصرة، وارسلوهم جميعا اسرى الى العاصمة شيراز. وحين تلقى كريم خان اخبار احتلال البصرة، اصدر اوامره بختم البيوت المهجورة وتقديم قائمة كاملة بها، ويبدو ان الغرض من ذلك حصر الاموال والغنائم التي استولت عليها قواته، كما طلب وصفا تفصيليا وواضحا للبلاد الممتدة من البصرة باتجاه مسقط.

لقد عاد الانكليز الى البصرة بعد الاحتلال الايراني، حاملين الهدايا الى صادق خان، ووصف تقرير لمجلس الوكالة البريطانية موقفه من موظفي الوكالة الذين شرعوا بممارسة اعمالهم من جديد إن حالة وكالة الشركة ممتازة، وان صادق خان بنفسه عرض عليهم مودته ورعايته، وابلغهم ان شعبه يحتفظ باحترام خاص للوكيل وللمجلس، وانه اذا كانت الامور قد تعقدت في البداية، فان في مقدورهم اليوم دون شك ان يأملوا في ان تزدهر تجارتهم ايما ازدهار في ظل الحكم الايراني للبصرة.

وفي الوقت الذي كانت فيه البصرة تواجه الغزو الايراني، تعاقب على السلطة في بغداد العديد من الولاة الذي لم يكترثوا للحالة التي تمر بها البصرة آنذاك، فقد انصرف كل منهم الى تعزيز مركزه ومحاربة منافسيه، ورافق ذلك حدوث الكثير من الاضطرابات والثورات الداخلية التي تبين ان احد كبار المسؤولين في حكومة بغداد كان وراءها وهو عجم محمد، الذي مارس بالتنسيق مع ايران دورا تخريبيا حال دون تقديم العون العسكري المطلوب للبصرة، فقد اشارت المصادر الى اتصالاته السرية بالفرس واحتوائه لجميع المحاولات التي استهدفت مواجهة الغزو الايراني.

لقد كانت البصرة، في الوقت الذي يتنافس فيه المتنافسون على تولي السلطة في بغداد، تعاني من وطأة الاحتلال الايراني، ولو لم يعان سكانها وقتئذ تفشي الطاعون المروع، واهوال المجاعة، واحتلال الجند للبيوت، لحدثت ثورة تقضي على المحتلين، وعلى هذا لم يبق في نفوس اهل البصرة الا بصيص أمل كان معلقا بالقبائل العربية المجاورة، لان الايرانيين لم يكن بحوزتهم سوى المدينة نفسها وعدة من البساتين المجاورة، وكانت عشائر المنتفك في مقدمة من تصدى لهم، وقد اقدم رئيسها الشيخ ثامر السعدون على تدبير الخطط لتحرير البصرة، مما حمل الايرانيين على التحرك لغزوها، ففي عام 1777 توغلت قوات ايرانية في ديار المنتفك وشنت هجوما عليها، ودارت معركة عنيفة في مكان يقال له (الفضيلة) غرب نهر الفرات، اسفرت عن اندحار الإيرانيين وتكبدهم خسائر فادحة. واذ ذاك قام الايرانيون في اوائل سنة 1778 بشن هجوم واسع عنيف على مدينة الزبير التي تبعد حوالي عشرة كيلو مترات عن البصرة، فاحرقوا بيوتها وذبحوا عددا كبيرا من اهلها، ثم تقدموا الى قرية كويبدة – على بعد عدة كيلو مترات من الزبير على طريق القوافل الى حلب – ففعلوا بها الشيء نفسه، وانذر القائد الايراني محمد خان، شيخ المنتفك ثامر السعدون، بأن ينزل على طاعته ويذعن لأوامره، ولكن الشيخ أبى كل الاباء واعلن استعداده لمحاربته، وعندئذ تحركت من البصرة قوات ايرانية يبلغ تعدادها عشرة الاف جندي مع ثمانية عشر زورقا نهريا تحمل المدافع لمهاجمة بلاد المنتفك، وعند (ابي حلانة) على بعد سبعة وعشرين كيلو مترا

من البصرة، كان عدد ضخم من رجال المنتفك بانتظار وصول القوات الايرانية فدارت معركة عنيفة بين الطرفين، اضاع فيها القائد الايراني حياته وجيشه بأجمعه تقريبا، وقد كانت لإبادة الجيش الايراني في موقعة ابي حلانة اثرها الكبير على كريم خان، فما وصلت اخبارها اليه حتى اذهلته، ثم اضطرت القيادة الايرانية الى سحب قواتها من البصرة في التاسع عشر من اذار 1779 على اثر وفاة كريم خان الزند ونشوب حرب اهلية في البلاد. وعندما انتهى الاحتلال الايراني، كانت البصرة - كما تصفها المصادر المعاصرة - مدينة خربة وقد اقفرت من سكانها وخمدت الحياة التجارية فيها، بعد ان كانت تعتز بكونها ثرية مكتظة بالسكان، وبكونها ميناء بحريا مزدهرا بسبب ما تتمتع به من موقع جغرافي ممتاز له اهميته التجارية. ويذكر الكولونيل جيمس كابر، الذي وصل البصرة في 18 كانون الاول 1778، انه وجد المدينة يخيم عليها البؤس، حتى خيل اليه ان عدد سكانها لا يزيد على ستة الاف نسمة بما فيهم القوات الايرانية، والشوارع الرئيسية اشبه بالمدافن. ومهما يكن من امر فان البصرة استطاعت ان تسترد مكانتها وتعود الى ما كانت عليه من الازدهار الاقتصادي، حيث يذكر تقرير المقيمة البريطانية ان المدينة اخذت في الانتعاش فازداد عدد سكانها تدريجيا، وعاد اليها التجار الذين هجروها ايام الاحتلال الايراني، وقام كثير منهم، بإعادة الامن والطمأنينة في المدينة، باتخاذ الاجراءات اللازمة لاستئناف عمليات الاستيراد، وقد اخذت السفن الانكليزية وتلك التي يملكها التجار الهنود تتردد اليها مرة اخرى، كما اخذ تجار اسطنبول ودمشق حلب وأورفه ديار بكر وماردين والموصل وبغداد يرتادونها.

بعد استقرار أو شبه استقرار دام ما يربو عن عقدين من الزمان في العلاقات بين العثمانيين والايرانيين، عادت المشاكل بينهما لتبرز من جديد مع ظهور اسرة قوية حاكمة في ايران عام 1795 لها طموحاتها ومطامعها، هي الاسرة القاجارية. والقاجار قبيلة ذات اصل تركي، استقرت لمدة طويلة في ارمينية، وكان تيمورلنك هو الذي احضرها الى ايران، ثم عدت احدى قبائل قزل باش التي كانت تساند الاسرة الصفوية، وقد قسمها الشاه عباس الاول (1587-1629) الى ثلاثة فروع: فرع جعل مقره كنجه بجورجيا لكي يصد هجمات

اللزجين (ساكني الجبال بين جورجيا وبحر قزوين وهم الان من رعايا روسيا)، وفرع ثان خطط له ان يقيم في مرو للدفاع ضد هجمات قبائل الاوزبك من موقعها على حدود خراسان، واما الفرع الثالث فقد استقر استراباد (وهي مدينة على السواحل الشرقية لبحر قزوين).

لقد اتخذت الدولة العثمانية اتجاه الاسرة القاجارية سياسة التهدئة، ولكن ذلك لم يمنع من استمرار التحرشات الحدودية، اذ يعد فتح علي شاه القاجاري (1797-1834) من ابرز حكام ايران الذي تميز عهده بالتدخل المستمر في شؤون العراق واستخدام القوة المسلحة من اجل ذلك وقد حفل عهد فتح علي شاه القاجاري بأمثلة عديدة من هذه التجاوزات، اذ نقرأ في وثيقة عثمانية كيف ان والي بغداد سليمان باشا الكبير قد اعتمد على عشيرة بلباس الكردية في تهديد الحدود العراقية الايرانية، وتتحدث الوثيقة الى ان عشيرة بلباس من اهم عشائر كويسنجق وكانت تظم ما بين 7000-8000 فارس ومسلح بالبنادق. وقد اعتاد فرسان هذه العشيرة والمسلحون بالبنادق فيها على مهاجمة تبريز واطرافها والاستيلاء على اموال الايرانيين. وقد عانى الايرانيون كثيرا في عهد الوالي سليمان باشا من هجمات هذه العشيرة، وفي النهاية كتب فتح علي شاه القاجاري الى الوالي سليمان باشا مقترحا تهيئة قوة من الطرفين للقيام بتأديب هذه العشيرة والتنكيل بها، ولكن الوالي المملوكي اخذ يسوف ويتملص من تنفيذ هذا المقترح لكي يتسنى لهذه العشيرة مواصلة اعمالها تجاه ايران. ولكن هذه السياسة سرعان ما تغيرت في عهد الوالي علي باشا، اذ منعت اسطنبول والي بغداد المملوكي علي باشا(1802-1807) من التوغل في الاراضي الايرانية حرصا منها على استقرار العلاقات مع ايران، وامرته بمغادرتها بعد ان دخلها واستولى على كرمنشاه بسبب ما سمعه عن نوايا ايرانية لاحتلال بغداد بعد الاختلاف مع والي بغداد بشأن تعيين متصرف لسنجق السليمانية. وتشير الوثيقة انفة الذكر الى ان الوالي علي باشا خرج على رأس حملة عسكرية من بغداد وشن هجوما على عشيرة بلباس ونهب بعض بيوتهم في سهل اربيل، ومنذ ذلك الحين اصاب العشيرة خوفا من العثمانيين وقل خطرهم على المدن الايرانية.

على ان حجم المشاكل بين الطرفين لم يكن كبيرا حتى السنوات الاخيرة من العقد الثاني من القرن التاسع عشر. وكانت تلك المشاكل تدور حول محور الرغبة الايرانية في ضم منطقة السليمانية، وما ينجم عن ذلك من تدخل ايراني في شؤون سنجق بابان. بيد ان الامر تطور مع وصول داوود باشا(1816-1831) الى منصب الباشوية في بغداد، لتصل بعض المشاكل الصغيرة والنزاعات العسكرية المحدودة التي كانت تحدث قبل عهده الى غزوات ومواجهات عسكرية واسعة، ربما كان حزم داوود باشا عاملا من العوامل التي ساعدت على تأجيجها.

كما تدخلت ايران في شؤون ولاية شهرزور (السليمانية - اربيل - كركوك) المحاددة لإيران التي كانت تشهد على الدوام حالة من الفوضى والاضطراب بسبب التدخل الايراني في شؤون الامارات القائمة فيها حتى اصبحت المنطقة مسرحا للقوات الإيرانية التي كانت تحاول ان تكون طرفا في تعيين الحكام لهذه الامارات وتغري البعض باللجوء اليها لتدعمه بعد ذلك بالقوة المسلحة. ولعل من ابرزها ما حدث عام 1805 حين اغرت ايران الامير عبد الرحمن البابانى الذي يتولى حكم مقاطعات بابان وكوي وحرير بالتمرد على حكومة بغداد ثم اخذت تتوسط له حين شددت قوات بغداد الخناق عليه واضطر الى الفرار نحو الاراضي الايرانية حيث خصصت له ولاتباعه مقرا في سقز بالقرب من كرمنشاه، ووصل الامر ان ارسل الشاه فتح علي مبعوثا الى حكومة بغداد لطلب العفو واعادته الى منصبه، ولما رفضت الوساطة الايرانية اتخذت ايران موقفا سياسيا مضللا فقد تظاهرت امام مبعوث لوالي بغداد بحرصها للحفاظ على العلاقات بين البلدين وفي الوقت نفسه اتفقت سرا مع عبد الرحمن البابانى على احتلال ولاية شهرزور ووضعت تحت تصرفه عددا من القادة ومبلغا يقدر بخمسين الف تومان، وبالفعل تقدم عبد الرحمن البابانى نحو السليمانية على رأس قوة كبيرة وبغية تسهيل عملية تقدمه عملت ايران على فتح جبهة من جانبها باتجاه خانقين حيث تقدمت قوات ايرانية كبيرة جدا يتولى قيادتها احد ابناء الشاه وهو الشهزادة محمد علي ميرزا حاكم كرمنشاه حتى وصلت القوات الى مدينة السعدية وأخذت تشن هجماتها على القوى

المجاورة لها وتنهب سكانها، وازاء هذا الموقف الخطير ولضمان انسحاب القوات الايرانية اضطر والي بغداد الى الموافقة على تعيين عبد الرحمن البابانى متصرفا للسليمانية. ولم يثن اجراء كهذا ايران عن الاستمرار في التدخل في شؤون العراق ففي عام 1818 شنت هجوما واسعا على جبهته الشمالية حيث تقدمت ثلاثة جيوش كل واحد منها باتجاه معين وعلى الوجه التالي:

1. جيش بقيادة محمد علي خان قوامه عشرة الاف جندي اتخذ مساره نحو السليمانية.
2. جيش من قوات لورستان بقيادة حسن خان باتجاه مندلي.
3. جيش بقيادة علي خان كلهر وكلي علي خان يقدر بأربعة الاف جندي باتجاه بدرة وجصان.

وفي والوقت نفسه تحرك الشهزادة محمد علي ميرزا حاكم كرمنشاه على رأس قوات باتجاه خانقين وبالرغم من توغل القوات الايرانية في الاراضي العراقية إلاَّ انها واجهت مقاومة عنيفة مما اضطرها على التقهقر في عدة أماكن بما في ذلك تلك القطعات التي كان يتولى قيادتها حاكم كرمنشاه حيث اجبرت على التراجع عند مضيق (باي طاق)، ثم توقفت العمليات العسكرية وجرت مفاوضات تعهدت فيها ايران بعدم التدخل في شؤون العراق الداخلية وانسحاب قواتها من اراضيه وفي الوقت الذي نفذت فيه الانسحاب إلاَّ انها استمرت في خلق حالة الفوضى والاضطراب في ولاية شهرزور المحادة لها. والحقيقة أن اوضاع ايران الخارجية في تلك الفترة هي التي املت عليها اجراء مفاوضات الصلح، حيث كانت تواجه خطرا روسيا منذ أن عقدت بينهما معاهدة كولستان في 12 تشرين الأول 1813 إذ تخلت ايران بموجبها عن دربند وباكو وشيروان وشاكي وقره باغ وجزء من تاليش، وتركت عن أي ادعاء بكرجستان وداغستان ومنغريليا وايمرشيا وابخاسيا، كما انها وافقت ضمنا على أن لا يكون لها اسطول في بحر الخزر. ولذا فان ايران سرعان ما عادت مرة اخرى إلى استخدام القوة المسلحة ضد العراق ومن هنا اندلعت الحرب على نطاق واسع

عام 1820، حيث اجتازت قوات ايرانية كبيرة الحدود العراقية من عدة محاور وباتجاه خانقين وحلبجة بهدف احتلال ولاية شهرزور بأكملها، وبعد أن احتلت بعض المواقع هناك على اثر معارك ضارية، عجزت عن فرض سيطرتها على المدن الرئيسية، مما جعل حاكم كرمنشاه الذي كان يتولى قيادة الهجوم بنفسه، يترك بعض قطعاته هناك ويتقدم بالقوة الرئيسية باتجاه بغداد وعند وصوله إلى المنصورية واجه مقاومة عنيفة من قبل عشائر شمر الجربا برئاسة شيخهم صفوق الفارس، غير أن المعركة الفاصلة لم تقع بسبب تفشي وباء الكوليرا في المنطقة، كما أن القائد الايراني نفسه اضطر إلى الدخول في مفاوضات لإنهاء الحرب.

ـ معاهدة ارضروم الأولى 1823:

كانت الدولتان العثمانية والايرانية عشية ابرام معاهدة ارضروم تميلان للصلح وايقاف الحرب التي كانت تدور بينهما ليس في العراق فحسب بل في داخل اراضي الاناضول، وتحولت هذه الرغبة الى مراسلات متبادلة بين عباس ميرزا بن محمد علي ميرزا ورؤوف باشا قائد القوات العثمانية المواجهة للإيرانيين في شرق الاناضول، ثم تم لقاء بينهما، فجلسات مفاوضات في ارضروم كان كل منهما ممثلا رسميا لدولته. وبدأت اولى جلسات المفاوضات في 25 حزيران 1823 وانتهت في 28 تموز 1823، وصودق على المعاهدة في طهران واسطنبول في 23 اب 1823.

لقد اتخذ الجانبان العثماني والايراني من المعاهدة المعقودة في 4 ايلول 1746، اساسا للمعاهدة الجديدة، وكانت تلك المعاهدة قد تضمنت ثلاث مواد أكدت على ضرورة التقيد بما كان قد اتفق عليه في معاهدة سنة 1639 التي وقعت في عهد السلطان مراد الرابع. أمّا الشروط فتتكون مع مقدمة وسبع مواد، وقد جاء في مقدمتها: عدم القيام بعمل من شانه خلق الكراهية والبغضاء بين الدولتين، وتتعهد الحكومة الايرانية اعتبار من التوقيع على هذه المعاهدة أن تعيد إلى الدولة العثمانية جميع ما قد استوليت عليه من قلاع واراض وقرى ومدن عائدة لها في ظرف ستين يوما، وتيمنا بعقد المعاهدة، وتتعهد الدولتان أن تطلق كل

منهما سراح رعايا الدولة الأخرى ممن قد وقع في يدها كأسرى، وتتحمل كل دولة منهما بنفقات تسفير من لديها من الاسرى. اما موادها فنصت على ما يلي:

المادة الأولى: لا يجوز لأي من الدولتين أن تتدخل الواحدة في شؤون الأخرى الداخلية، بصورة خاصة لا يجوز تدخل الدولة الايرانية في شؤون الاكراد في العراق، وبكل ما يتعلق بعزل أو نصب المتصرفين الحاليين واللاحقين، واذا ما عبرت احدى عشائر الدولتين الحدود إلى الدولة الأخرى خلال هجراتها الصيفية أو الشتوية فعلى باشا بغداد وممثل ولي العهد الايراني أن يتفقا على الضرائب التي تفرض على العشائر حتى لا يترتب على ذلك سوء تفاهم بين الدولتين.

المادة الثانية: بأن يراعي الحجاج والزوار الايرانيون كما يراعي سائر المسلمين في البلاد العثمانية، وعدم استيفاء رسوم زائدة منهم، ويؤخذ من الزوار الذين يأتون حاملين معهم البضائع والاموال التجارية الضريبة الجمركية فقط، وكذلك تعامل ايران التجار العثمانيين بالمعاملة نفسها، ويدفع الرعايا والتجار الايرانيون الضرائب نفسها التي يدفعها رعايا وتجار الدولة العثمانية وهي ٪4 من قيمة التجارة، ويمنح التاجر تذكرة تثبت دفعه للضرائب القانونية المطلوبة منه.

المادة الثالثة، منع عشائر (حيدرانلو) و(سبيكي) من النهب والتخريب عبر الحدود في ايران، طالما هم موجودون في الاراضي العثمانية ويسمح لمن اراد السكنى في ايران عبور الحدود واذا عبر الحدود لهذه الغاية لا يسمح له بالرجوع إلى البلاد مرة ثانية، وتمنع الحكومة الإيرانية تجاوزاتهم على الحدود العثمانية فيما إذا كانوا ساكنين في ايران.

المادة الرابعة: امتناع قبول الهاربين من ابناء الدولتين.

المادة الخامسة: اعادة اموال التجار الايرانيين التي حجزت في الاستانة والولايات العثمانية الاخرى إلى اصحابها.

المادة السادسة: تتعلق بطريقة حصول الوارث الايراني على التركات التي يخلفها الايرانيون المتوفون في البلاد العثمانية.

المادة السابعة: تتعلق بأصول التمثيل الدبلوماسي، وايفاد السفراء إلى عاصمة الدولتين وتبديلهما كل ثلاث سنوات.

وقد انتهت المعاهدة بـ (الخاتمة) التي جاء فيه صرف النظر عن مطالبة تعويض الخسائر أو المصاريف الحربية وغيرها واسلوب مبادلة هذه المعاهدة والتشدد في التمسك بها وعدم فتح مجال للخصومات بين الدولتين وازالة الخلافات بالتعاون مع سفراء الدولتين.

يمكننا ان نلاحظ، فيما يتعلق بظروف عقد هذه المعاهدة ومدى تأثيرها في اوضاع ولايات العراق العثمانية، ان التفاوض على ابرام معاهدة ارضروم الاولى والاتفاق على بنودها وتصديقها من قبل الدولتين، تم خلال وقت لم يكن كافيا لمعالجة الارث الكبير من مشاكل العلاقات بينهما ووضع الحلول الجذرية لها، مما يدلل على ان مشاكل انية عديدة، لعل في مقدمتها احتلال ايران لأجزاء من الاراضي العثمانية، حدت بهما على توقيعها على عجالة لوضع حد لتفاقم تلك المشاكل. ومن ثم نجد ان كثيرا من مشاكل العلاقات العثمانية-القاجارية لم تنته بعد عقد معاهدة ارضروم الاولى، واستمرت حتى ادركت الدولتان بعد عقدين من الزمان ضرورة التفاوض لعقد معاهدة جديدة تحل المشاكل الجذرية العالقة بينهما، وفي مقدمتها مشكلة الحدود وتابعية العشائر المتنقلة بين اراضيهما. وبالفعل بدأتا بالتفاوض لتحقيق هذا الهدف عام 1843 وتوصلتا بعد اربع سنوات من المفاوضات الى عقد معاهدة جديدة، هي معاهدة ارضروم الثانية التي سيتم التطرق اليها لاحقا، ومن ثم فان معاهدة ارضروم الاولى لم تعالج مشكلة الحدود التي تعد مشكلة رئيسة بين الدولتين، بما يتناسب مع حجمها واهميتها، فتطرقت اليها قبل المادة الاولى من موادها بشكل اجمالي واكدت ان الحدود العثمانية-الايرانية تبقى كما اقرتها معاهدة 1746 التي استندت بدورها الى حدود معاهدة 1639، وهي الحدود التي ظلت قوات الدولتين تتصارع على اعادة رسمها. كذلك فان التجاوزات على الحدود بين الدولتين لم تنقطع بعد عقد معاهدة ارضروم

الاولى. وفيما يتعلق بانعكاسات مواد المعاهدة على ولايات العراق، يمكن القول ان المعاهدة اكدت على منع ايران من التدخل في شؤون ولاية بغداد فيما يخص تعييناتها لمتصرفي السناجق الكردية، وقبول لجوء الفارين من هؤلاء اليها.

إن معاهدة ارضروم الأولى التي اريد بها وضع حد للحروب بين الدولتين لم تأت بشيء جديد، ذلك لان كثيرا من القضايا المعقدة لم تتم دراستها دراسة علمية ولاسيما فيما يتعلق بمشاكل حدود الدولتين وعشائرهما التي كان من الضروري دراستها دراسة جغرافية وبشرية واقتصادية بغية التوصل إلى قاعدة اساسية يمكن الاتفاق عليها بصورة دائمة بحيث تحول دون قيام أي نزاع في المستقبل.

ـ تزايد النفوذ الاوروبي في العراق:

ـ شركة الهند الشرقية -البريطانية ونفوذها في العراق:

اكتسب العراق أهمية كبرى في السياسة البريطانية، منذ بداية النشاط البريطاني في الخليج العربي، في الربع الأول من القرن السابع عشر، وقد تنوعت المصالح البريطانية في العراق، فهناك المصالح الاقتصادية التي تركزت على شراء المواد الاولية الرخيصة من جلود وصوف وعرق سوس وخيول. وقد عملت بريطانيا على ربط الاقتصاد العراقي بالرأسمال الاجنبي وللتدليل على مدى نمو المصالح الاقتصادية البريطانية في العراق، نذكر تأسيس عدد من الشركات البريطانية امثال شركة لنج وشركة كري مكنزي وشركة اندروير وغيرها من الشركات البريطانية، التي لم يقتصر عملها على النشاط التجاري الصرف، بل كان وجودها يمثل تغلغلا استعماريا، كانت له ابعاده السياسية والاجتماعية والاقتصادية، حيث تمكن رجالات هذه الشركات من الاتصال ببعض الشيوخ والملاكين بالإضافة إلى التجار والجماعات الأخرى المستفيدة، وراحوا عن طريق هؤلاء يهيئون الافكار لتقبل وجودهم.

كانت تجارة الهند وسواحل الخليج العربي وكذلك تجارة ايران والعراق قبل القرن السابع عشر بيد الملاحين العرب من عمان واليمن وعرب السواحل العربية ينتقلون بها بين المحيط الهندي وبين البحر الاحمر وافريقيا فلما ايقنت بريطانيا بأهمية هذا الطريق لاسيما وانها كانت تسيطر على الهند. الفت في نهاية عام 1600م شركة الهند الشرقية-البريطانية التي قامت على دعائهما حكومة بريطانيا في الهند، ودفعتها إلى منافسة البرتغاليين ومن جاء بعدهم من الهولنديين اصحاب شركة الهند الشرقية-الهولندية المؤسسة في عام 1602م، ومن الفرنسيين اصحاب شركة الهند الشرقية الفرنسية المؤسسة عام 1644م، حتى مكنتها بعد نزاع طويل ان تحل عملهم. وكانت هذه الشركة قد وفقت لأنشاء اول محطة لها في سورات في عام 1612م، ولكن لم تكد تحل سنة 1616م حتى صارت لها اربع محطات كبرى في الهند وهي: اجمير، واغرا، وبرهابور، وسورات، ثم اخذت تعمل بجد ونشاط لتثبيت قدمها في الهند وما جاورها فعقدت اتفاقا مع شاه ايران في عام 1622م، عهد به اليها حماية التجارة في الخليج العربي، فبنت المعاقل والحصون على السواحل وجاءت ببارجتين لتعزيز نفوذها وقامت بمفاوضات سياسية طغت اخيرا على اعمالها الاقتصادية، ولم يكد شارل الثاني يجلس على العرش البريطاني حتى جعل بشركة الهند الشرقية-البريطانية الحق في اعلان الحرب، وشن الغارات على من يقف في طريق مصلحتها، فكان ذلك فاتحة تقدم عظيم استمر من عام 1622م إلى 1689م وكانت هذه اولى المحاولات التي سعت بها بريطانيا، إلى بسط سلطتها السياسية على الخليج العربي، والسعي للاستيلاء على ايران، والعراق، وسرعان ما توسعت التجارة الانكليزية وتعدت من الخليج العربي إلى البحر الاحمر.

كانت شركة الهند الشرقية-البريطانية قد أسست مركزا تجاريا لها في البصرة عام 1643م علاوة على المراكز التي اقامتها على بعض ساحل الخليج العربي، وعين وكيل هذا المركز قنصلا لدولته البريطانية في عام 1763م، فأصبحت له صفة سياسية فضلا عن صفته التجارية وعدت البصرة مركزا لتوزيع البضائع الانكليزية في العراق وايران، كما ان

الحكومة البريطانية، ارسلت إلى بندر بوشهر مندوبا دائما ليقوم مقام ممثل الشركة فيها، وتلا ذلك تعيين وكيل اخر بالدرجة نفسها، وللهدف ذاته، في بغداد فولي هذا المنصب في عام 1755م رجل ارمني استبدل بعد عشر سنوات بشخص بريطاني فأخذت علاقات القائمين بمركزي بغداد والبصرة مع الولاة تتحسن بمرور الزمن، بما كانت تقدمه الشركة لهم من السلاح والعتاد بغية حملهم على الاستقلال في العراق لتثبيت النفوذ البريطاني فيه، من جانب، وتصريف تجارتها واستعمال انهارها للبواخر من غير ان تلقى اعتراضا من العثمانيين من جانب اخر. ولكن سرعان ما انقلبت هذه المراكز التجارية إلى دوائر سياسية بالتدريج حتى لقد اعطي المقيم البريطاني في بغداد جميع السلطات القنصلية في عام 1802، وأصبحت بغداد منذ ذلك الحين فصاعدا اهم مركز للنفوذ البريطاني.

في عام 1822م اخذت شركة الهند الشرقية-البريطانية وضعا سياسيا، فعناصرها وسماسرتها اصبحوا مقيمين سياسيين، ووكلاء مستوطنين، وبذلك اجتازت الصلات بين بريطانيا والخليج العربي مرحلتها التجارية، ودخلت في مرحلة سياسية صرفة. وادركت بريطانيا اهمية المراسلات في تحقيق مصالحها التجارية والسياسية في العراق فعمدت شركاتها إلى ربط مدنه الرئيسية بشبكة من الخطوط التلغرافية ووصلتها بالخطوط الممتدة بين الخليج العربي والهند، ومهدت لملاحيها وتجارها سبل الوصول إلى العراق والاتجار مع سكانه، لتثبيت النفوذ البريطاني فيه، فقد كانت أهمية العراق الاستراتيجية بالنسبة للسياسة البريطانية، تتمثل في موقع العراق على رأس الخليج العربي، الذي هو جزء من طريق الهند البري الحيوي لمواصلات الامبراطورية البريطانية، فكانت بعثة جسني التي اوفدتها الحكومة البريطانية في اعوام 1834-1837 اولى البعثات الانكليزية التي درست امكانيات نهر الفرات الملاحية، والتي سارت في الفرات من عانه إلى بغداد، وفي دجلة من بغداد إلى البصرة وضربت رقما قياسيا في تحقيق المصالح الانكليزية في العراق فقد اكتشفت حالة الرافدين، ودرست احوال المياه فيهما ورسمت المصورات المهمة لهما ووضعت الخرائط الدقيقة لسواحلهما فكان عملها هذا عملا فريدا في بابه وقتئذ بحيث اتخذت خرائطها من

جملة الخرائط التي اعدت اساسا لاحتلال العراق في عام 1914م. فضلا عن المجهودات البريطانية التي تناولت حقولا متعددة كإرسال بعثات التنقيب الاثارية، وانشاء خطوط التلغراف وتأسيس الشركات الملاحية.

ـ النفوذ السياسي الاوربي واثره على العراق:

ان الحقبة الممتدة بين عامي 1775-1831 تميزت بظهور ملحوظ للقوى الاوربية في اسناد ترشيح احد الاغوات المماليك لولاية بغداد ممن يجدون في تعيينه ما يحقق لهم المزيد من المصالح في العراق، الامر الذي اضاف عاملا جديدا في ابقاء السلطة بيد المماليك وترسيخ السيطرة العثمانية غير المباشرة. والحقيقة لقد كان لتزايد تغلغل النفوذ الاجنبي في العراق اسبابه الكثيرة، ولا عجب في ذلك نظرا لأهمية العراق الاستراتيجية في الخليج العربي وعلى طريق المواصلات الى الهند. وقد زادت المصالح الاستعمارية المتضاربة المتنافسة من خطورة طرق العراق منذ القرن الثامن عشر، ولاسيما عندما نشبت حرب السبع سنوات(1756-1763)[1]، اذ استخدمت بريطانيا طريق العراق الى الهند خلال الحرب، ورفعت تمثيلها في البصرة الى درجة قنصلية، بعد ان كانت لها وكالة تجارية.

كما اولت فرنسا العراق اهتماما خاصا، وجعلت وكالتها في البصرة تنشط للعمل التجاري والسياسي معا، وعينت لها هناك عام 1765 قنصلا يتولى القيام بهذه الاعمال وتنفيذ ما يوضع له من الخطط، وقد تدفق العديد من الفرنسيين على العراق لجمع المعلومات عنه تحت غطاء السياحة والتنقيب. ويتحدث الفرنسي روسو الذي زار العراق عام 1809 عن القنصلية الفرنسية في بغداد، وكانت المدينة مقر دائم للقنصل الفرنسي، ومهمته كانت محددة وهي: السهر على تأمين انسيابية التجارة الدولية، وحل الخلافات الطارئة التي تحدث احيانا في المركز التجاري.

1- حرب السبع سنوات: حرب اندلعت بين عامي 1756-1763 وقد شاركت فيها بريطانيا وبروسيا ودولة هانوفر ضد كل من فرنسا والنمسا وروسيا والسويد وسكسونيا.

كان سليمان باشا الكبير اول وال مملوكي تولى باشوية بغداد بإسناد من الاوروبيين، فقد وقف إلى جانبه مؤيدا اسناد باشوية بغداد اليه، المستر لاتوش المقيم البريطاني في البصرة، وقد ارسل – لحساب سليمان اغا– مقدارا من المال إلى السفير البريطاني في الاستانة كي يقوم بتوزيعه على كبار المسؤولين هناك بغية الحصول على موافقتهم لهذا التعيين، وفي الواقع أن ترشيح الانكليز لسليمان اغا هو امتداد لعلاقتهم به منذ أن كان متسلما للبصرة قبل الاحتلال الايراني لها، فهم يرون في مساعدته ضمانا لاستيفاء الديون التي قيل انه مدين بها لبعض موظفي الوكالة من جهة، ولاستيفاء ما بذمة حكومة بغداد من ديون لشركة الهند الشرقية، ثم إن توليه باشوية بغداد تعني امكانية تحقيق المزيد من الامتيازات في ارض الرافدين. فكان تعيين سليمان باشا الكبير في ربيع 1780 لمنصب باشوية بغداد جاء بدعم كل من المقيم البريطاني في البصرة، والسفير البريطاني في اسطنبول. وهكذا نال سليمان مطلبه إذ صدر الفرمان بتوجيه ولاية بغداد اليه بالإضافة إلى وظيفته الاصلية، واوعز إلى والي الموصل سليمان باشا آل امين باشا الجليلي بمهمة محافظة بغداد وتولي أمورها لحين وصول واليها سليمان باشا.

وخلال فترة اشتداد التنافس البريطاني–الفرنسي بعد الحملة الفرنسية على مصر(1798–1801) اصبح العراق محورا رئيسا في هذا التنافس، حيث قامت بريطانيا بتقوية تمثيلها الدبلوماسي فيه، فأنشأت مقيمة في بغداد عام 1798، تولى مهمتها هارفورد جونز الذي كانت مهمته ايصال الاخبار ما بين الهند وبريطانيا، ومراقبة نشاط الوكلاء الفرنسيين، والعمل على تحريض باشوية بغداد على افساد مخططاتهم. كما عهد اليه بان يعد تقريرا مفصلا عن احوال العراق الاقتصادية والعسكرية. وفي عام 1802 نجح السفير البريطاني في العاصمة العثمانية ايرل اوف الجين في الحصول على امر سلطاني بقبول هارفورد جونز قنصلا لبريطانيا في بغداد، مع تمتعه بالحصانة الدبلوماسية.

اما فرنسا فقد بذل السفير الفرنسي في الاستانة الجنرال هوارس سباستياني جهودا كبيرة ايضا من اجل تحقيق المصالح الفرنسية في العراق ومواجهة تصاعد النفوذ الفرنسي،

ومارس دورا لا يقل اهمية عن الدور الذي مارسه السفير البريطاني، ويتضح ذلك في وقوفه الى جانب سليمان باشا الملقب بالصغير مرشحا اياه لولاية بغداد عام 1808. وقد جاء في مذكرته التي قدمها إلى الباب العالي أن احوال بغداد في اختلال وان سليمان ذا صفحة بيضاء وفكر مستنير ونيات حسنة وانه سيد بغداد الحقيقي لذا من مصلحة الدولة توجيه الولاية اليه، وانه يرى من واجبه أن يبلغ رايه هذا إلى الباب العالي بصورة ودية، وقد كان النفوذ الفرنسي في ذلك الوقت قد اقترب من ذروته لدى كل من الدولتين العثمانية والايرانية إذ كانت السياسة الفرنسية في الشرق الأوسط تستهدف عقد حلف هجومي ودفاعي بين فرنسا وتركيا وايران ضد انكلترا وروسيا، وكان سليمان باشا مدركا لأهمية الوساطة الفرنسية في حصوله على باشوية بغداد، لذا فانه كان يظهر الود والاخلاص للفرنسيين اثناء ما كان يمارس وظيفة الوالي بالوكالة. الا ان النفوذ الفرنسي لم يستمر طويلا، فالبريطانيين اصبحت لهم الارجحية في عام 1809 على الفرنسيين لدى الدولة العثمانية بما بذلوه من جهود، لذا فقد اخذوا يعملون على ازاحة والي بغداد بعدما دخل في عدة نزاعات مع المقيم البريطاني في بغداد كلوديوس جيمس ريج الذي خلف المقيم البريطاني هارفورد جونز عام 1808، والذي اخذ يسلك كما لو كان واحدا من اكابر رجالات البلد، بدلا من كونه ممثل دولة اجنبية فحسب، فلقد اصبحت دار الاقامة على عهده مجلس اجتماعي محلي، وملتقى اكبر الموظفين والاشراف، وبيتا مفتوحا للضيوف، ودارا للبحث والتنقيب عن الاثار. وقد بلغ التوتر اوجه في خريف 1809 عندما منع والي بغداد المقيم البريطاني وزوجته من دخول بغداد بعدما امضيا فترة من الراحة في قرية واقعة على نهر دجلة والتي تبعد حوالي العشرة كيلومترات عن مدينة بغداد. وقد اثار هذا الموقف غضب المقيم البريطاني، وتدخل الباب العالي في الامر إذ وصلت في نهاية تشرين الأول قافلة تحمل فرمانا يتضمن توبيخا شديدا لوالي بغداد، غير أن والي بغداد لم يلتفت لهذا الفرمان، بل اخبر الترجمان الخاص بان المقيم البريطاني ليس من واجبه التدخل في قضايا البلد وعليه أن يمتثل لأوامره واذا لم يرغب في ذلك فعليه أن يغادر حالا، وعندئذ كتب المستر ادير السفير البريطاني لدى الباب العالي رسالة إلى ريج

اشار فيها إلى أن الفرمان إذا لم يكن مجديا فعليه أن يخبر الوالي بان السفير البريطاني سيتصل بالسلطات العليا ويطلب إليها عزله عن باشوية بغداد، وقد كان لهذه الرسالة اثرها الحسن في نفس ريج إذ تشجع بها وحملت الوالي على ان يحسن موقفه تجاه المقيم البريطاني، وعندئذ استطاع البريطانيون عقد اتفاق مع الباشا بتاريخ 25 كانون الثاني عام 1810، اقر لهم فيه جميع امتيازاتهم المتعلقة في العراق. ولم يكن التهديد العثماني البريطاني لوالي بغداد هو السبب الوحيد الذي جعله يتراجع عن موقفه بل تقديره للأضرار التي تصيب الاقتصاد العراقي لو توقفت التجارة العراقية الهندية.

لقد بلغ الصراع بين حكومة المماليك في بغداد والنفوذ البريطاني ذروته في عهد داوود باشا الذي انتهى لصالح البريطانيين، فالمقيم البريطاني ريج كان عند تولي داوود الباشوية على جانب كبير من النفوذ، بحيث كان الناس لا يقيمون وزنا لوعود باشواتهم واعيانهم إلاَّ إذا كانت مدعومة بضمانة، وكانت المقيمية البريطانية تعد من اوسع المنازل في المدينة وافضلها، وهي تطل على دجلة ويرسو امامها يخت كبير معد لرحلات المقيم، وفي المقيمية جراح وسكرتير ايطالي وعدد من المترجمين والسواس والخدم، وهم يتألفون من الاتراك والعرب والجورجيين والايرانيين والهندوس، وهناك سرية من الجنود يتألف منهم الحرس.

كانت العلاقة بين داوود وريج في بداية الامر حسنة، ولكنها سرعان ما تصدعت، ذلك لان داوود لم يتقبل ما وصل اليه البريطانيون من نفوذ، ولاسيما وان ريج كانت له اتصالاته مع الشاه زادة محمد علي ميرزا وقد طلب منه الشاه زادة أن تمده بريطانيا بالأسلحة، وان ترسل اليه الضباط لتدريب جيشه، فعرض ريج الامر على حكومة بومبي فأوصته أن يترك شؤون ايران إلى الوزير البريطاني المفوض هناك. وان هذه الاتصالات بين ريج والشاه زادة قد اثارت داوود باشا الذي اعتبرها بمثابة تعاون ضده، لاسيما وان العلاقة بينه وبين الشاه زادة كانت متوترة وتطورت إلى صدام عسكري. وفي تموز 1819 كتب ريج تقريرا إلى حكومته يتعلق بشخصية الباشا واحوال البلاد، ومما جاء فيه أن شؤون

الحكومة يسودها الاضطراب، وان منشأ ذلك يعود الى سوء تصرف الباشا واعوانه، وحالة البلاد الداخلية في وضع سيء كسياستها الخارجية، وبذلك كان ريج يشوه حكم داوود امام حكومته إذ وجد فيه ما يحد من نفوذه ومركزه في البلاد. وفي نيسان 1820 عزم ريج أن يقوم برحلة في كردستان فأوجس داوود باشا خيفة من هذه الرحلة واعتقد انها ليست للسياحة فقط، وانما لإثارة الفتن والقلاقل، ومع ذلك سمح له داوود بالسفر فليس له أن يمنعه على اعتبار ما يتوقع منه، وبدأ ريج رحلته في نهاية نيسان، وبينما كان ريج في الموصل (تشرين الثاني 1820) علم عن طريق وكلائه السريين بان شخص يدعى سكوبودا وهو تاجر اوروبي حاصل على الحماية البريطانية في بغداد، قد صودرت امواله بأمر الباشا، فاستاء ريج واوعز إلى تايلر (وكيله في البصرة) بان يقوم في حالة وقوع مثل هذا، بإيقاف أي تعامل مع سلطات البصرة، وبمنع انزال البضائع من أي سفينة محلية أو انكليزية تحمل أو ترفع العلم البريطاني، وبمنع السفن الداخلة في ميناء البصرة من الخروج، وعندما تأكد تايلر من سكوبودا ما وقع له، نفذ اوامر ريج. ولما علم داوود بذلك قرر منع ريج من العودة إلى بغداد متهما اياه بانه كان يثير الفتن بين باشويتي الموصل وبغداد، وقد شكا ريج الامر إلى حكومته مبينا ما يلي:

1. مصادرة اموال سكوبودا بالقوة علما بانه تاجر بريطاني.
2. وضع رسما بلغ اكثر من 11٪ على بضائع التاجر الانكليزي ستورمي بدلا من الرسوم الاعتيادية البالغة 3٪ (وهذا سوف يعتبر سابقة على جميع البضائع البريطانية).
3. انكار حكومة بغداد الاعتراف بالحقوق والامتيازات التي نصت عليها المعاهدات المعقودة مع حكومة بومبي.
4. الظلم المتزايد على الرعايا البريطانيين.
5. حادثة ماردين التي نتج عنها سلب نقود الوكيل البريطاني في ذلك المكان، بالإضافة إلى سلب ضابطين بريطانيين كانا ذاهبين إلى الاستانة من بغداد.

وفي اثناء ذلك صرح داوود باشا بأن حكومة بغداد لا تعترف باي حقوق اوربية، فعزم ريج بعدئذ على العودة إلى بغداد، وركب كلكاً من الموصل، وعند وصوله رفض داوود مقابلته، فاعلن ريج رغبته في الرحيل إلى بومبي لعرض القضية شخصيا على المسؤولين هناك ولكن الباشا منعه من مغادرة بغداد. وفي 25 آذار 1821 علم ريج أن الباشا يستعد لإرسال قوات تقوم بفرض الحصار على المقيمة، فاسرع ريج إلى وضع المقيمية في حالة دفاع، وكان في ضيافة المقيمية يومذاك عدد من ضباط شركة الهند الشرقية، فاظهر هؤلاء والحرس الهنود والخدم ثباتا وتحمسا كبيرين، ولم يمض وقت طويل إلاَّ واحاط جند داوود بالمقيمية، فأمر ريج جميع افراد المقيمية بان لا يحاولوا البدء بأطلاق النار. ثم ادرك داوود خطورة النتائج المترتبة على عمله هذا فارسل بعض رجال حكومته لمفاوضة ريج، غير أن ريج لم يوافق على بحث أي تفاهم أو تفاوض ما لم ينسحب الجند المحاصرون للمقيمية، فانسحب الجند اثناء الليل، وتم الاتفاق على أن يمنح داوود ريج رخصة الخروج من العراق على أن يكتب ريج مقابل ذلك رسالة يرضى فيها عن الباشا. غير أن حاكم بومبي الفنستون قد علم بأوضاع المقيمية في بغداد فاسرع بأرسال كتاب احتجاج إلى داوود باشا، طلب فيه اطلاق سراح ريج وحاشيته دون تأخير، كما وارسل كتابا إلى اللورد سترانغفورد، السفير البريطاني لدى الباب العالي، يطلب اليه الاحتجاج ضد الاهانة التي ارتكبها الباشا بحق الامة البريطانية الممثلة بالمستر ريج في بغداد، إلاَّ أن ريج، بصحبة حاشيته، ترك بغداد في 11 ايار 1821 قبل أن يصل احتجاج حاكم بومبي، وقد طلب داوود من ريج قبل مغادرته بغداد أن يأمر بإخراج البضائع من السفن الموجودة في البصرة فأمر بذلك وتسلم التجار بضائعهم، وفي اليوم التاسع عشر من نفس الشهر وصل ريج إلى البصرة في طريقه إلى الهند وبقي فيها 24 يوما انعم خلالها على اكثر رجاله ورخص لهم بالذهاب حيث شاءوا، وان الجنود (السباهية) الذين كانوا عنده ابقاهم في البصرة، وذهب مع بعض خواصه إلى بوشهر ومنها ذهب إلى شيراز لمشاهدة بعض الاثار، وفي اثناء اقامته تفشت الكوليرا وقد اصيب بها وتوفي في 5 تشرين الأول 1821.

بعد رحيل ريج اخذ داوود باشا يتراجع عن سياسته ازاء الانكليز لكثرة الاحتجاجات البريطانية وضغط الاستانة عليه، وقد طلبت اليه حكومة بومبي بان يخفض الرسوم على التجارة البريطانية إلى الحد الذي عينته الامتيازات، وان يرد المبالغ التي تم تحصيلها زيادة على هذه النسبة، وان يدفع قيمة البضائع التي اتلفت اثناء هذا الاضطراب والتي يملكها سكوبودا وسوتورمي، وان يتعهد بان يعامل ممثل الحكومة البريطانية بالاحترام اللازم في المستقبل، وان يحمي كل الرحالة والمسافرين البريطانيين في باشوية بغداد، وان لا يستوفي منهم شيئا اكثر من الرسوم المقررة مع الاهتمام بمطالبهم، وقد جاء في خطاب حكومة بومبي أن الباشا إذا لم يلتزم بتنفيذ هذه المطاليب فستجد حكومة بومبي نفسها مضطرة لقطع العلاقات التجارية بين بريطانيا والعراق. ولما تلقى الباشا خطاب حكومة بومبي ابدى موافقته على هذه المطالب، غير أن التسوية النهائية ظلت معلقة حتى سنة 1823، ففي يوم 29 آذار من تلك السنة اعلن الباشا اخيرا قبوله لكل الشروط التي فرضتها حكومة بومبي، غير أن السلطات في الهند رأت من الانسب في ذلك الوقت وجوب عقد اتفاقية دائمة وتفصيلية بهذا الصدد، وفي الفترة من نيسان إلى اب 1823 تمكن الكابتن تايلر الذي خلف ريج في منصبه التوصل إليها كتابة، وكانت هذه الشروط الاثني عشر الواردة فيها والتي اقرها الباشا دون تحفظ هي كما يأتي:

1. الالتزام بنصوص الامتيازات الاجنبية كما هي محددة في المعاهدات العثمانية والفرمانات السلطانية القديمة والحديثة..
2. رد المبالغ التي اخذت من مستر ستورمي اكثر من النسبة المقررة للعوائد، كذلك تعويض مستر سكوبودا عن بضائعه التي اتلفت.
3. اتخاذ كل ما من شانه توفير الامن الكامل - في كل مجال من مجالات الحياة- لحياة واملاك وشرف كل وكلاء الحكومة ورعاياهم والعاملين معهم، والاهتمام برغباتهم ووجهات نظرهم وواجب احاطتهم بمظاهر التكريم والاعتراف بامتيازاتهم وحقوقهم القديمة، وحقهم في أن يستخدموا العدد الذي يشاؤون من الخدم.

4. إذا عين وكيل – ليس بريطانيا- لوكالة بغداد فيجب أن يلقى كل الاحترام والتكريم، لمنصبه لا لشخصه.
5. لا تنتزع منهم صكوك الدفع، ولا تجبى منهم اموال أو تنتزع منهم ممتلكات عنوة وقهرا، ولا يحصل منهم شيء اكثر من العوائد التي حددتها الامتيازات.
6. لا ضريبة – إلاَّ الضريبة المحددة- على القوارب أو الممتلكات التي تخص الرعايا البريطانيين ومن في حمايتهم، كعوائد المرور بين البصرة وبغداد مثلا، ولا يستولى على قواربهم للأغراض العامة، كما أن بضائع التجار – سواء كانوا رعايا بريطانيين ام في حمايتهم لا تدخل دار العوائد في البصرة أو بغداد حسب ما هو محدد في نصوص الامتيازات والاتفاقيات.
7. إذا فقد الرعايا البريطانيون أو من في حمايتهم اية ممتلكات في المدينة أو الطرق العامة – سرقة أو اغتصابا – تبذل كل الجهود لاستعادة المسروقات من جانب السلطات.
8. إذا وقع اعتداد من جانب احد الرعايا البريطانيين على أي من رعايا الحكومة التركية يدفع له التعويض فوراً.
9. في المعاملات التجارية لا ترد البضائع المباعة إلاَّ على اسس مشروعة وعادلة، وترفع مشاكل التجارة إلى مجلس من التجار حسب ما جرت به العادة.
10. إذا حدث وهرب بحار انكليزي أو هندي من السفينة فيجب ألا يقسر على اعتناق الإسلام، واذا شاء اعتناق الإسلام برغبته فيجب تسليمه بعد ذلك إلى السلطات المسئولة حتى لا يتسبب في الاضرار بمصلحة سفينته.
11. يرخص للمقيم بتملك قطعة ارض لمنزل وحديقة في المكان الذي يحدده ويرغب فيه.

12. حق البريطانيين في أن يفرضوا حمايتهم على من يشاؤون من الناس مادامت هذه الحماية لا توقع الضرر بأحد.

وقد تم ارجاع المبالغ التي اخذت اكثر من الرسوم المقررة من مستر ستورمي، كما تم تعويض مستر سكوبودا عن بضائعه التي تلفت، وبهذه الاتفاقية التي رفعها تايلر رسميا بتاريخ 5 أيلول 1823، تم وضع اساس العلاقات بين داوود باشا والبريطانيين، وسارت العلاقة بين داوود وتايلر على اسلوب ودي.

- قائمة المصادر

-ابرهام بارسونز، رحلة ابرهام بارسونز من حلب الى الخليج العربي 1774-1775، ترجمة: انيس عبد الخالق محمود، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2013).

-ابراهيم خليل احمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني 1516-1916، (الموصل: مطبعة جامعة الموصل، 1986).

-احمد زكريا الشلق، العرب والدولة العثمانية من الخضوع الى المواجهة 1516-1916، (القاهرة: مصر العربية للنشر والتوزيع، 2002).

-اسماعيل احمد ياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، (الرياض: مكتبة العبيكان، 1997).

-باسم عبد الحميد حمودي، "في حصارات البصرة وصمودها"، مجلة المورد، المجلد: 23، العدد: 2، لسنة: 1995.

-جان بابتيست جاك لوي روسو، وصف باشوية بغداد سنة 1809، ترجمة: خالد عبد اللطيف حسن، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2012).

-جميل بيضون وشحادة الناطور وعلي عكاشة، تاريخ العرب الحديث، (اربد: دار الامل، 1992).

-جميل موسى النجار، الادارة العثمانية في ولاية بغداد من عهد مدحت باشا الى نهاية الحكم العثماني 1869-1917، (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1991).

___________، العلاقات العثمانية-القاجارية وانعكاسها على العراق 1823-1843، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2010).

-حسن الجاف، الوجيز في تاريخ ايران، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2003)، ج3.

-حسين مؤنس، الشرق الاسلامي في العصر الحديث، (القاهرة: مطبعة الحجازي، 1938).

-حميد حمد السعدون، امارة المنتفق واثرها في تاريخ العراق والمنطقة الاقليمية 1546-1918، (عمان: دار وائل للنشر، 1999).

-جميس بيلي فريزر، رحلة فريزر الى بغداد 1834، ترجمة: جعفر الخياط، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2006).

-خليل علي مراد، مختارات من كتاب الموصل وكركوك في الوثائق العثمانية، (السليمانية: مطبعة شفان، 2005).

-ستيفن هيمسلي لونكريك، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر خياط، (بغداد: منشورات مكتبة اليقظة العربية، 1985).

-سعدي عثمان حسين، امارة بابان في النصف الاول من القرن الثامن عشر: دراسة في علاقاتها السياسية مع السلطات العثمانية، (اربيل: مطبعة جامعة صلاح الدين، 2000).

-سليمان فائق بك، تاريخ بغداد، ترجمة: موسى كاظم نورس، (بيروت: دار الرافدين للطباعة والنشر، 2010).

-سيار كوكب علي الجميل، تكوين العرب الحديث، (الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر، 1991).

______________، زعماء وافندية: الباشوات العثمانيون والنهضويون العرب-البنية التاريخية للعراق الحديث الموصل انموذجا، (عمان: الاهلية للنشر والتوزيع، 1999).

-شاهين مكاريوس، تاريخ ايران، (القاهرة: دار الافاق العربية، 2003).

-صالح محمد العابد، "البصرة في سنوات المحنة 1775-1779"، مجلة المورد، المجلد: 14، العدد: 3، لسنة: 1985.

-عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2004)، ج6.

-عباس ياسر الزيدي، "القوى الاستعمارية والخليج العربي 1600-1914"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 12، لسنة: 1980.

-عبد الامير محمد امين، "الشركات التجارية الاحتكارية الانكليزية في منطقة الخليج العربي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 12، لسنة: 1980.

-عبد الرحمن بن عبد الله السويدي البغدادي، تاريخ حوادث بغداد والبصرة، تحقيق: عماد عبد السلام رؤوف، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1987).

-عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داوود باشا الى نهاية حكم مدحت باشا، (القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1968).

-عثمان بن سند الوائلي البصري، مطالع السعود: تاريخ العراق 1774-1826، تحقيق: عماد عبد السلام رؤوف وسهيلة عبد المجيد القيسي، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1991).

-عثمان بن عبد الله بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق: عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله ال شيخ، (الرياض: مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، 1982)، ج1.

-علاء موسى كاظم نورس، حكم المماليك في العراق 1750-1831، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1975).

-علاء موسى كاظم نورس وعماد عبد السلام رؤوف، "عهد المماليك والاسر الحاكمة"، بحث ضمن كتاب العراق في التاريخ، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1983).

-علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، (بيروت: دار راشد، 2005)، ج1.

-كريم مطر حمزة، "الحلة في عهد داوود باشا 1817-1831"، مجلة العلوم الانسانية، جامعة بابل، المجلد: 1، العدد: 1، لسنة: 2010.

-متعب خلف جابر، "العراق في عهد الوالي سعيد باشا"، مجلة الباحث، جامعة كربلاء، العدد: 1، لسنة: 2013.

-مصطفى عبد القادر النجار، "البصرة اول قاعدة بحرية للتوسع العثماني في الخليج العربي 1546-1869"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد: 3، لسنة: 1986.

الفصل السابع

العهد العثماني الاخير

(1831-1918)

ـ ولاية علي رضا باشا:

تمكن باشا حلب على رضا اللاز في عام 1831م من دخول بغداد على راس جيش اعد لإرجاعها لسيطرة الدولة العثمانية المباشرة، وانهاء حكم المماليك شبه المستقل فيها، وقد ساعد الطاعون الذي استشرى في مدينة بغداد، وفيضان دجلة الذي اغرقها اثناء حصارها من قبل اللاز وقواته على استسلام واليها داوود باشا (1817–1831) ليكون اخر ولاة المماليك فيها. وبانتهاء حكم المماليك سيطرت الدولة سيطرة مباشرة على بغداد، وتقلد علي رضا باشا امر الايالة وتوابعها تنفيذا للاتفاق الذي ابرم بينه وبين السلطان واستمر في حكمها لأكثر من احدى عشرة سنة، ثم تتابع بعده عشرة باشوات على حكم الايالة قبل ان يتولى امورها مدحت باشا في عام 1869.

اشر حكم علي رضا باشا(1831–1842) لبغداد بداية لمرحلة جديدة من تاريخ العراق الحديث، وهي مرحلة تميزت بتوطيد علاقات هذه المنطقة مع بقية ارجاء الدولة العثمانية، على اساس الادارة المركزية، وبسعي ولاتها الى ادخال منجزات الحضارة الاوروبية لها. لقد كانت باشوية بغداد التي وصلت الى حاكم العراق الجديد علي رضا باشا بعد ان تعرضت للعديد من الكوارث الطبيعية قد تحولت الى منطقة شبه جرداء خالية من السكان، حتى تناقص عدد سكانها الى خمسين الف نسمة فقط. من جانب اخر استفاد الوالي الجديد من الصلاحيات الواسعة التي تمتع بها بأمر من السلطان، فظلت تتركز بيده جميع السلطات العسكرية والادارية والقضائية والمالية.

لقد بقي علي رضا باشا واليا على بغداد بعد انهاء حكم المماليك طيلة عهد السلطان محمود الثاني، واستمر في حكمها حتى عام 1842، مما يعني ان الايالة قد اعطيت له كمنحة

على قيامه بإرجاعها لحكم الدولة المباشر، دون ان تأخذ الدولة بعين الاعتبار مدى كفاءة هذا الوزير الذي وصف بانه "كان حاكما فاشلا"، فلم يستطع اللاز احكام السيطرة على القبائل، التي كانت تشكل الغالبية العظمى لسكان ايالة بغداد، وكانت خطته الوحيدة في حكم القبائل ان يحرض قبيلة على اخرى، كذلك فلم يتمكن من ضبط المدن، والسيطرة حتى على قواته الخاصة غير النظامية. كما اتصف اللاز بالتبذير والافراط في صرف الاموال الحكومية في غير اوجهها الصحيحة، مما تسبب في خواء خزانة الايالة، فاضطر إلى اتباع اسلوب التغريم والمصادرة الذي كان متبعا فيما مضى، والابقاء على نظام الالتزام في جباية واردات الحكومة، ذلك النظام الذي يفترض ان الدولة قد قضت عليه حينما شاءت اصلاحات محمود الثاني القضاء على كل واسطة بين الدولة ومواطنيها ولم يكن (الملتزمون) الا واسطة بين دافعي الضرائب وخزينة الدولة. وخلاصة القول ان ادارة علي رضا باشا اللاز وصفت بانها اضر على العراق من ادارة المماليك.

لقد شهد العراق خلال مدة ولاية علي رضا باشا اضطرابات كانت نتيجة لقيام دولة محمد علي باشا في مصر في مطلع القرن التاسع عشر، وما صاحب قيام الدولة التي انشاها محمد علي والي مصر القوي في اقطار مصر والشام والسودان والحجاز من تأثيرات قوية على مجمل الاوضاع العامة في الولايات العراقية. فلقد ادى تقويض جيوش محمد علي لأركان السيطرة العثمانية في الشام عام 1832م وضمها مدن دمشق وحمص وحماة وحلب، إلى عدد من التغيرات السياسية والاجتماعية داخل كيانات الولايات العراقية، من ذلك انه نشبت الثورات في عدد من المدن العراقية الكبيرة ضد السلطات العثمانية فيها، وجرت اتصالات عديدة بين الثوار والقيادة المصرية في الشام تحرضها على التقدم لضم العراق بأكمله إلى الدولة الجديدة، ففي منتصف عام 1832 تعهد شيوخ قبائل شمر والعقيل وزبيد، إلى تلك القيادة، بالعمل على تطهير العراق من الوجود العثماني، واظهر متسلما عانة وهيت على الفرات انضمامهما إلى جانب مصر، فزاد ذلك من حراجة الموقف العثماني في بغداد. وكان الوضع السياسي في هذه المدينة قد بلغ غاية

تأزمه، حتى ان قنصل بريطانيا ذكر في تقرير له ان هذه الولاية كانت في اشد حالات البؤس والضيق تحت حكم علي باشا، وانظار الشعب متجهة في المحبة نحو ابراهيم بن محمد علي قائد الجيوش المصرية. وقد شبت الثورة فعلا في الجانب الشرقي من بغداد في ايار 1832م بزعامة مفتي المدينة عبد الغني ال جميل، ولم يستطع والي بغداد آنذاك علي رضا باشا اللاز القضاء على الثورة الا بعد قصف مراكزها بالمدفعية والتنكيل بالثوار وحرق دورهم، ولم تكد الثورة تنتهي حتى نشبت ثورة اخرى في الجانب الغربي من بغداد، ولكن علي رضا نجح في القضاء عليها بعد استعمال مدفعيته مرة اخرى. ونشبت في البصرة أيضاً ثورة تحت قيادة بعض بقايا المماليك الذين انتقلوا اليها بعد سقوط حكمهم في بغداد، وحاول زعيم الثورة "عزيز اغا" متسلم البصرة في عهد داوود ازاحة علي رضا باشا عن حكم بغداد، الا ان ظروفا عامة حالت دون نجاح محاولته، وتعكس الاشاعات التي انتشرت بين الناس في تلك الآونة مدى ضعف السلطات العثمانية وحراجة موقف علي رضا، فقد اشيع انه اعتصم بقلعة بغداد، وانه فر من المدينة، ولقى مصرعه، وان اهل بغداد انزلوا الوالي الذي نصبته الدولة العثمانية عليهم وعينوا مكانه واليا من بينهم. ولم تكن الاوضاع في الموصل بأحسن منها في غيرها من مدن العراق بالنسبة للموقف العثماني، فبعد ان كانت الدولة العثمانية قد عزلت يحيى باشا الجليلي، اخر ولاة الجليليين، عن حكم الموصل عام 1828م، تمكن هذا بمساعدة من بعض القبائل العربية، وبتأييد من سكان المدينة ان يعود إلى حكمها عام 1832م ولكن ليس باسم الدولة العثمانية، وانما باسم محمد علي نفسه. وكان في الموصل على ما ذكر الوكيل السياسي البريطاني في بغداد الكولونيل تايلر حزب قد اخذ جانب مصر، وحاول حتى بعد انتهاء حكم يحيى الجليلي، الانضمام إلى دولة محمد علي في مصر والشام، فاعلن ثورته على علي رضا باشا عام 1839م، الذي لم يتمكن من قمعها الا بعد ان قتل اثنين وسبعين شخصا من قادتها، ونفى سبعة من العلماء إلى البصرة كانت قد ثبتت مراسلتهم للقيادة المصرية في الشام.

ـ ولاية محمد باشا اينجة البيرقدار في الموصل واصلاحاته(1833 ـ 1843):

يأتي محمد باشا اينجة البيرقدار في مقدمة ولاة الموصل الذين طبقوا اجراءات صارمة في الحكم، ومنجزات كبرى في الاصلاحات. فقد تولى حكم ولاية الموصل للفترة 1833-1843، بعد اقصاء الحكم المحلي اثر الاضطرابات الداخلية، والصراع الاهلي بين الاسر الموصلية المتنفذة والطامعة في الحكم. وكان اخر وال حكم الموصل هو محمد سعيد ال باشا ياسين المفتي. وقد عادت السيادة المركزية العثمانية الى حكم الولاية قبل صدور خط شريف كولخانة عام 1839، وكان حكم الوالي محمد سعيد باشا ضعيفا في السيطرة على الاوضاع الداخلية، كما فشل في وضع حلول للتهديدات الخارجية، مما جعل امر تنصيب محمد باشا اينجة البيرقدار واليا على الموصل امر محتما.

يعد البيرقدار من الولاة الاتراك الاقوياء الذين فرضوا مقدرتهم اداريا طوال حكمه للموصل، وكان لوالي بغداد علي رضا باشا دور كبير في تعيين البيرقدار، اذ قدم الاخير على رأس قوة مؤلفة من ثلاث كتائب من الجند النظامية، وقرابة 300 من الخيالة، ودخل الموصل للعمل على استتاب الامن، والسيطرة على الاوضاع الداخلية، ومعالجة المشكلات المحلية وتوطيد الحكم العثماني، فضلا عن بسط النفوذ العثماني على المناطق الشمالية للعراق، واخضاع الامارات الكردية في شمال العراق، كالبابانية في السليمانية، والبهدينانية في العمادية، وامارة محمد باشا مير كور في راوندوز.

التفت البيرقدار بعد ذلك الى اعادة تنظيم ولاية الموصل فقام بإنشاء حكومة محلية قوية في الموصل، استطاع في الاعتماد عليها من اجل تنفيذ اصلاحاته. وكان الموظفون الاكفاء قوام حكومته. اما بشأن مالية الحكومة فقد اعتمد على الضرائب المفروضة التي تجمع بوساطة: المكوس، والاعشار، والمسقفات، ومن تعداد الاغنام، وعشر الحاصلات الزراعية. وكان البيرقدار يدفع رواتب الجند والموظفين وخطباء الجوامع من هذه الاموال. وبغية القيام بأعمال تجديد وبناء بنايات الحكومة، جمع البيرقدار وجهاء المدينة، والتجار،

والملاكين، وطلب منهم ان يساهموا بالمصاريف المطلوبة، فنجح في تعمير دور الحكومة التي كانت تسمى القشلات. وكان ان زار الموصل القائد الالماني فون مولتكه، فطلب من البيرقدار ان يضع له مخططا لهذه المنشآت الحكومية، ففعل ذلك مولتكه فجازاه بان قدم له البيرقدار ساعة ثمينة.

اهتم البيرقدار بشؤون الجيش، وتنظيم اموره الاقتصادية والصحية، فأسس عدة افران خاصة بالجيش، كما انشأ معملا لصنع المدافع والقنابل والبارود اسماه بـ(الطوب خانه)، مستخدما بعض الخبراء من راوندوز، فاكمل صنع ثمانين مدفعا بإشراف الاسطة رجب، كما قام بتشييد مستشفى في الموصل، وفتح شوارع عدة فيها، فضلا عن تجديده بعض المساجد. اهتم ايضا بالنواحي الاجتماعية، اذ وضع بعض العقوبات على من يتعاطى الخمر وارتكاب الرذائل والمحرمات. كما نجح في تنظيم الامن بإلغائه لبعض الاجهزة القمعية واستحدث جهاز الدرك، والشرطة كقوات نظامية مخصصا لهم كلفة خاصة بهم. كما انشأ الثكنات العسكرية الخاصة بالجيش كل حسب صنفه، كالمشاة والخيالة والمدفعية. فضلا عن فرض التجنيد الالزامي، فسبب بذلك اثارة الاهالي عليه، فقد عارضوا ذلك بشدة، فهددهم ونفى بعض زعمائهم، فاذعن الاهالي لذلك القانون، ومن الجدير بالذكر ان الموصل دون بقية المدن والاقاليم العراقية انفردت بذلك، أي كانت السباقة في تطبيق القانون الذي لم يطبق في بقية انحاء العراق حتى عام 1870.

شهد عهد البيرقدار اضطرابات في مدينة الموصل، كما ثارت تلعفر وسنجار ومناطق اليزيدية، مما حمل البيرقدار ان يتعامل مع الانتفاضة بشدة حتى قمعها ولاسيما ضد اليزيدية وعشائر شمر العربية. وكان في اجراءاته قاسيا ضد الثوار. ومما يجدر ذكره ان جميع اجراءات البيرقدار كانت مقتصرة على الجوانب العسكرية المقرونة الشدة الادارية سواء في المدينة ام في أقاليمها وتوابعها، اذا ما قورنت اعماله بأعمال وانجازات ولاة اخرين اهتموا بالنواحي العلمية والاجتماعية والاصلاحات المدنية. اذ لم يهتم البيرقدار بالمدارس، ولم يقدم على انشاء دور للعلم بسبب النزعة العسكرية التي اتصف بها.

ـ حركة الاصلاحات والتنظيمات العثمانية:

تزامن استرجاع بغداد من ايدي الولاة المماليك واخضاعها للحكم المباشر للعاصمة اسطنبول قيام السلطان محمود الثاني (1808-1839) بحركة اصلاحات واسعة، كان استرجاع بغداد احد مظاهرها، تلك الاصلاحات التي كونت اساسا لما عرف بـ(عهد التنظيمات) الذي بدأ بإعلان خلفه عبد المجيد (1839- 1861) للمرسوم الاصلاحي (خط شريف كولخانة) في عام 1839 وقد امتدت التنظيمات، التي شرعت خلالها الدولة جميع قوانينها وانظمتها تقريبا بالاعتماد على النظم والقوانين الاوربية، لتستغرق سنوات حكم السلطانين عبد المجيد، وعبد العزيز (1861-1876) ويمكن القول ان الدولة العثمانية قد تحولت في نهاية عهد التنظيمات من دولة تعيش وضع القرون الوسطى إلى دولة حديثة لها دستور وقوانين وانظمة تسير على هديها.

على ان الاصلاحات التي بدأها السلطان محمود الثاني في النصف الثاني من سنوات حكمه واستمرت طوال سني عهد التنظيمات قد تسربت شيئاً فشيئا إلى جميع ايالات الدولة، ومن بينها ايالة بغداد ووجدت مجموعة القوانين والانظمة التي افرزتها التنظيمات العثمانية طوال العقود الثلاثة التي اعقبت صدور خط شريف كولخانة طريقها للتطبيق في هذه الايالة، وفي بقية الايالات أيضاً ولكن بدرجات متفاوتة. لذلك كان لابد لدراسة اوضاع الادارة العثمانية في بغداد من الوقوف على تلك الاصلاحات التي كانت تجرى في عاصمة الدولة، والتي عرفت في عصر السلطان عبد المجيد بالتنظيمات والاطلاع على مدى انعكاسها على ايالة بغداد، لما لحركة الاصلاح هذه، والقوانين والتشريعات التي صدرت ابانها، من اثر بالغ في سير الادارة الحكومية في الايالة، واجهزتها وتشكيلاتها، ليس قبل عام 1869 فحسب بل في كل سنوات الحكم العثماني التي اعقبته.

ان اسم التنظيمات قد اطلق على حركة الاصلاح التي قامت في الدولة العثمانية منذ صدور خط شريف كولخانة في عام 1839 وحتى اعلان الدستور العثماني، الذي عرف بـ(القانون الاساسي) في عام 1876، وقد اقترن اسم التنظيمات بمرسومين سلطانيين اصلاحيين، كان اولهما خط شريف كولخانة وثانيهما خط شريف همايون الصادر في عام 1856 وقد صدر كلاهما في عهد السلطان عبد المجيد.

كانت حركة الاصلاح في واقع الحال اسبق زمنا من التنظيمات وترجع في بداياتها إلى اوائل النصف الثاني من القرن الثامن عشر واتجهت قبل عهد التنظيمات إلى التركيز على اصلاح الجيش فقد عرف السلطان مصطفى الثالث (1757-1774) باهتماماته بإصلاح الجيش والمالية وكان من الطبيعي، فيما يبدو ان تتجه ايدي الاصلاح إلى الجيش اولا نظرا لما يحتله من مكانة متقدمة في دولة قامت وتوسعت وارست دعائم كيانها عن طريق الحروب وفي ساحات القتال كما ان تقدم الجيوش الاوروبية على الجيش العثماني تسليحا وتنظيما كان من اسباب هزائم العثمانيين المتكررة، مما نبه سلاطين الدولة إلى ضرورة الاهتمام بأمر الجيش واصلاح احواله. وقد سارت حركة الاصلاح في عهد السلطان عبد الحميد الاول (1774-1789) الذي خلف مصطفى الثالث، سيرا وئيدا الا انها انتعشت ابان حكم السلطان سليم الثالث (1789-1807) الذي لم تقتصر اصلاحاته على الامور العسكرية التي كانت محور اهتمام اسلافه من السلاطين، بل امتدت لتشمل مالية الدولة ونظمها الادارية، وان كان امر اصلاح الجيش وادخال النظم الاوربية الحديثة اليه قد تقدم على غيره من الاعمال وحظي من هذا السلطان بمزيد من الرعاية مما كلفه عرشه وحياته ثمنا لذلك بما سبب له من نقمة الانكشارية والمتزمتين من رجال الدولة كما ان اضطرابات الاستانة، التي حدثت عام 1808 والتي كان الانكشارية ابرز ادوات تأجيجها قد ادت إلى ان يلاقي السلطان مصطفى الرابع (1807-1808) المصير نفسه الذي ال اليه سلفه سليم الثالث.

ان نقمة الانكشارية على السلطان سليم الثالث واقدامهم على خلعه ثم قتله لم تكن فيما يبدو، الا بسبب تلك النظم الحديثة التي ادخلها هذا السلطان إلى الجيش، وتشكيله

لفرق من الجند اسماها (نظامي جديد) وهذا ما اضر بطبيعة الحال بالامتيازات التي كان يتمتع بها الانكشارية، تلك القوة التي كانت تعول عليها الدولة في حروبها، واعتمدت عليها اعتمادا كليا في توسعها وبسط نفوذها الا ان الفساد كان قد دب شيئا فشيئا إلى الانكشارية واصبحوا مصدر قلق وارباك للسلاطين وعقبة في وجه كل اصلاح وتجديد للجيش ولأنظمة الدولة. وقد انتكست حركة الاصلاح بطبيعة الحال بموت سليم الثالث الا ان السلطان محمود الثاني (1808-1839) استطاع ان يمسك بزمام الامور ويستأنف الاصلاحات العسكرية، فشكل في 28 ايار 1826 جيشا حديثا وفق الاسلوب ونظام التسليح الاوربي اسماه (عسكري منصوري محمدية) ثم اقدم بعد ايام قلائل على دك ثكنات الانكشارية بالمدفعية واصدر في اليوم التالي أي في 17 حزيران 1826 فرمانا سلطانيا بإلغاء الانكشارية.

كان القضاء على الانكشارية بداية خطة شاملة للإصلاح اعدها السلطان محمود الثاني حيث انطلقت بعد القضاء عليهم عجلة الاصلاح ولم تتوقف عند الاصلاحات العسكرية، بل سارت لتشمل جوانب اخرى، كان في مقدمتها طريقة حكم وادارة الايالات، التي شاء لها محمود الثاني ان تكون طريقة مركزية تقوم فيها العاصمة بحكم ايالاتها بصورة مباشرة، فقام لتنفيذها بالقضاء على الحكم شبه المستقل لبعض تابعيه من وزراء الايالات الذين ينحدرون من اسرة أو عصبية متنفذة ورثت امتيازاتها ونفوذها المحلي، مبتدئا بالعراق منهيا حكم مماليك بغداد عام 1831 كما سبق ذكر ذلك، فحكم اسرة ال عبد الجليل في الموصل عام 1834 ثم بالقضاء على بعض الامارات الكردية في شمال العراق عام 1836 واتبع محمود الثاني تلك السياسة مع بقية ايالات الدولة، فأنهى حكم الاسرة القرمنلية في طرابلس الغرب عام 1834، وتمكن من انهاء نفوذ كثير من اصحاب المقاطعات والمتنفذين في ايالات الدولة وعاصمتها، وعدد كبير من اولئك الذين كانوا يقفون حائلا امام قوة السلطان وبسط حكمه المباشر على اجزاء الدولة كافة. ولم تقف الاصلاحات الادارية للسلطان محمود الثاني عند اخضاع الايالات للحكم المركزي، بل تجاوزتها إلى قيامه بتدريب واعداد الموظفين، خاصة الاداريين الشبان منهم، وتعليمهم اللغات الاوربية

والاساليب الادارية الحديثة كما ان حركة الاصلاح قد شهدت اواخر عهده تقدما ملحوظا عندما شكلت اواخر عام 1837 لجنة دائمة تخطط للإصلاح تخطيطاً شاملا. الا ان ذلك كله لم ينعكس على الادارة الحكومية ومؤسساتها في الايالات الا قليلا، فقد ظلت تلك الادارة في عهده على حالها تقريبا دون تغيير كبير أو تقدم ملموس، ولم تنفع لإصلاحها تلك المركزية التي اتبعها السلطان في حكم الايالات لأنها كانت امراً غير عملي عند التطبيق خاصة في الايالات كإيالة بغداد. ومهما يكن من امر حركة الاصلاح في عهد السلطان محمود الثاني، ومدى انعكاسها على ايالات الدولة، فان هناك حقيقة هامة لابد من الاشارة اليها قبل ان ينتهي الحديث عن حركة الاصلاح في عهده وهي ان هذا العهد كان قاعدة صلبة واساسا قويما لما عرف بـ(التنظيمات) العثمانية، التي بدأت مع اعتلاء خلفه السلطان عبد المجيد لعرش الدولة، واصداره خط شريف كولخانة الاصلاحي عام 1839.

كان خط شريف كولخانة الصادر عام 1839 اول خطوة من خطوات الاصلاح في عهد التنظيمات ووصف بانه اعظم مرسوم اصلاحي على الاطلاق صدر ابان حركة الاصلاح في الدولة العثمانية، وقد قصد بلفظ (التنظيمات) اتجاه حركة الاصلاح إلى اعادة ترتيب وتنظيم القوانين والانظمة الاساسية للدولة على اسس جديدة في جميع الميادين والاتجاهات، والعمل على تحسين نظم الحكم والادارة في عاصمة الدولة وايالاتها في الفترة الممتدة بين صدور خط شريف كولخانة واعلان الدستور العثماني عام 1876. ويبدو ان الباعث على حركة التنظيمات كان حاجة الدولة إلى اصلاح القوانين المدنية واساليب الحكم وشؤون الادارة، قد ادركت الدولة العثمانية ان الحفاظ على كيانها لا يتوقف على اصلاح الجيش فقط دون اصلاح النظام الاداري واساليب الحكم، فجاء خط شريف كولخانة ليكون اللبنة الاولى في صرح التنظيمات وليلبي في الوقت نفسه تلك الحاجة. على ان بعض الباحثين يرون ان للنزاع بين الدولة العثمانية وتابعها محمد علي باشا مصر خلال السنوات 1839-1841 اثرا في اصدار خط شريف كولخانة الاصلاحي، كما ان الدولة ارادت ان تجذب بريطانيا والدول الاوربية إلى صفها في تلك

الازمة، بإظهار عزمها على اصلاح بنيانها الداخلي واخذها بمبدأ المساواة بين مواطنيها على اختلاف اديانهم.

ويلاحظ ان حركة الاصلاح في عهد التنظيمات قد تميزت عما كانت عليه قبل ذلك العهد بأمور عدة اهمها:

1. قيادة المصلحين من رجال الدولة لها بعد ان كان يتبناها سلاطين الدولة منذ ظهور امر الاصلاح إلى وفاة السلطان محمود الثاني وكان ابرز اولئك المصلحين مصطفى رشيد باشا وعلي باشا وفؤاد باشا ومدحت باشا.
2. تعاظم التأثيرات الغربية في عملية الاصلاح، حيث كانت الغالبية العظمى من القوانين والانظمة التي صدرت في عهد التنظيمات تستلهم من القوانين والانظمة الاوربية مع التوفيق بينها وبين نصوص الشريعة الاسلامية في بعض الاحيان.
3. تبني انظمة وقوانين عهد التنظيمات لنظام الحكم والادارة المركزية، والمغالاة في تطبيقها، وقد ادت تلك المركزية الادارية الشديدة إلى ظهور الارتباك والفوضى في حكم الايالات واضعفت من السيطرة الفعلية للدولة عليها.

صدر خط شريف كولخانة في3 تشرين الثاني 1839 في بداية عهد السلطان عبد المجيد كفرمان سلطاني قرئ في بهو (الكولخانة) في قصر طوب قابو بحضور كبار رجال الدولة وعلماء الدين وسفراء الدول الاجنبية ورؤساء الاقليات الدينية وتضمن اعلان السلطان عن رغبته في اجراء الاصلاحات، لأنه قد رأى من الضروري اهمية لزوم وضع وتأسيس قوانين جديدة تتحسن بها ادارة الولايات العثمانية وكان اهم الاصلاحات التي وعد المرسوم بإجرائها هي:

1. العمل على حفظ ارواح واعراض واموال مواطني الدولة، وصيانتها ضد أي اعتداء، وذلك من خلال اصلاح النظام الاداري والقضائي حيث لم يجز القانون تنفيذ احكام الاعدام قبل اجراء محاكمة علنية عادلة بمقتضى القوانين كما منع مصادرة اموال المحكوم عليهم وحرم ورثتهم منها.

2. تنظيم عملية جباية الضرائب وابطال نظام الالتزام في جبايتها.
3. تنظيم الخدمة على اسس سليمة من حيث اعداد المجندين، وتحديد مدة خدمتهم.
4. العمل بمبدأ المساواة في معاملة مواطني الدولة، وعدم التفريق بينهم بسبب معتقداتهم الدينية.
5. تحسين احوال موظفي الدولة وذلك بزيادة رواتبهم وصرف رواتب ثابتة للذين لم تخصص لهم رواتب، لغرض القضاء على الرشوة .
6. وعد المرسوم بتشريع القوانين لإخراج الاصلاحات التي عزم على اجرائها إلى حيز التنفيذ وزيادة اعضاء (مجلس الاحكام العدلية) للقيام بتلك المهمة بالتعاون مع الوكلاء (الوزراء) ورجال الدولة الاخرين وقد تعهد السلطان بتنفيذ القوانين التي ستشرع بعد عرضها عليه مباشرة.
7. ولإثبات جدية السلطان وعزمه الاكيد على تنفيذ الاصلاحات التي وعد بها اوضح ان هذا المرسوم سيبلغ إلى اهالي الاستانة، ولجميع رعايا الدولة في مختلف اجزائها، ولسفراء الدول الاجنبية في عاصمة الدولة ليكونوا شهودا على دوام هذه الاصلاحات.

كان خط شريف كولخانة قد وضع اللبنة الاولى في الصرح "العلماني" الرسمي للدولة حينما قرر معاملة المسلمين وغير المسلمين بمساواة تامة، فكان ذلك كافيا ليوصف خط شريف كولخانة بـ"المرسوم التغريبي" الذي ادى فيما بعد إلى الاخذ بالقوانين والنظم الغربية، الفرنسية منها بصورة خاصة.

ظهرت اثار خط شريف كولخانة عقب صدوره مباشرة، ففي اواخر عام 1839 اصدرت الدولة قرارا يقضي بأن يتقاضى باشوات الايالات ومتصرفو سناجقها الموظفين اداريين، رواتب محددة اعتبارا من 1 اذار 1840، وذلك في محاولة لإلغاء نظام الالتزام كما

تقرر في خط شريف كولخانة كما نص ذلك القرار على ان تعطى الاولوية في التعيين في الوظائف الادارية لأصحاب الاهلية والكفاءة، واوجب على باشوات الايالات، في محاولة ابطال الالتزام أيضاً، ان يقوموا بجمع الضرائب القانونية المحددة فقط، وذلك بواسطة موظفين مدنيين يوظفون لهذا الغرض فحسب. وقد ظهرت بالفعل في بعض ايالات الدولة بوادر على تطبيق ما ورد بذلك القرار حيث ابطل نظام الالتزام في جباية الضرائب، ولكن ذلك لم يستمر الا لمدة قصيرة جدا، فقد اعيد العمل بهذا النظام في شباط من عام 1842 بعدما انتكست حركة الاصلاح بتنحية مصطفى رشيد باشا، مهندس الاصلاح ورائده، عن موقعه اواخر عام 1841 ولكن ذلك لم يمنع سير حركة الاصلاح رغم بطئه ففي عام 1843 نظم الجيش العثماني وقسم إلى خمسة فيالق وصدر قانون دائم ومنتظم للخدمة العسكرية.

عادت عجلة الاصلاح إلى الدوران ثانية بعودة مصطفى رشيد باشا إلى مسؤولياته الرسمية كناظر للشؤون الخارجية عام 1845 ومن ثم كصدر اعظم (رئيس وزراء) عام 1846، حيث اقدمت الدولة عام 1845 على خوض تجربة جديدة في حكم وادارة ايالاتها وذلك بدعوة ممثلين اثنين من وجهاء كل ايالة للحضور إلى العاصمة لتأليف مجلس استشاري ينظر في مشاكل الايالات وادارتها الحكومية، وعقد الاجتماع الاول لهذا المجلس بالفعل لمدة شهرين في العاصمة. كما شكلت في السنة نفسها 1845 مجالس ادارية في ثلاث ايالات اوربية، وايالتين اسيويتين على سبيل التجربة وتألفت تلك المجالس من عدد من الاعضاء من وجهاء سكان الايالة، المسلمين وغير المسلمين ومن اعضاء من كبار موظفيها يعملون جميعا تحت رئاسة باشا الايالة، وكانت مهمة مجالس الادارة تلك مراقبة اعمال الادارة الحكومية والعمل على معالجة مشكلاتها. وقد افاد المجلس الاستشاري الذي انعقد في الاستانة عام 1845 بحضور ممثلين من ايالات الدولة، والمجالس الادارية المحلية التي الفت في بعض الايالات في مراقبة اعمال باشوات هذه الايالات فاصبح من الممكن نظريا محاكمة الباشوات إذا اساءوا التصرف الا ان مجلس الاستانة الاستشاري لم يستمر في عمله طويلا، فالغي بعد عقد اجتماعه الاول واستعيض عنه بـ لجان تفتيش، حيث اوفدت بعد

رجوع اعضائه إلى ايالاتهم، عشر لجان التفتيش تلك دعيت بـ المجالس الاعمارية، إلى عشر من ايالات الدولة، تقاسمتها ايالات الدولة الاوربية وايالاتها الاسيوية بالتساوي، ثم توسع عمل هذه اللجان في عامي 1850، 1851. كما ان جهود تحسين الادارة المدنية في ايالات الدولة قد استمرت إلى ما قبل اعلان مرسوم عام 1856 حيث صدر في 28 تشرين الثاني 1852 مرسوم سلطاني بمنح باشوات الايالات سلطات اوسع في ايالاتهم لمنع رجوعهم المتكرر إلى العاصمة في كل صغيرة وكبيرة من الامور ولدفع عملية تحسين الادارة الحكومية في الايالات خطوة اخرى إلى الامام، وقد وسعت سلطاتهم أيضاً عام 1855 بإضفاء قدر اخر من اللامركزية على ادارتهم. على ان ذلك الكم الكبير من القوانين والاجراءات الاصلاحية التي صدرت في اعقاب مرسوم كولخانة وقبل اصدار مرسوم عام 1856 كان ينقصه، لتنفيذه وتطبيقه عزم مماثل لعزم وقوة السلطان محمود الثاني، إذ ليس من المنطقي الاعتقاد بان كل تلك القوانين والاجراءات الاصلاحية التي صدرت عقب المرسوم، أو التي وردت فيه قد نفذت وليس من العسير على الملاحظ ان يرى الكثير من المشكلات المتعلقة بحكم وادارة الايالات لاتزال باقية، بتفاوت واضح بين ايالة واخرى، وهي على سبيل المثال المتعلقة بالأمن على النفس والمال والعرض وجباية الضرائب والمساواة وغيرها.

اعقب اصدار خط شريف كولخانة مرسوما اخر عرف بخط شريف همايون، وقد صدر هذا المرسوم في 8 شباط 1856م كمرسوم سلطاني موجه من السلطان عبد المجيد لصدره الاعظم محمد امين عالي باشا وقرئ في الباب العالي بحضور وكلاء الدولة واركانها، ورؤساء مختلف الطوائف الدينية العثمانية، وقد شكل هذا المرسوم مع خط شريف كولخانة الاساس الذي استندت عليه حركة (التنظيمات) الاصلاحية.

ومما لاشك فيه ان هذا المرسوم كان حلقة في سلسلة الاصلاحات التي عزم على السير في طريقها المصلحون من سلاطين الدولة ورجالها قبل التنظيمات وبعدها، رغبة في انتشال دولتهم من حالة الضعف التي وصلت اليها والحفاظ على كيانها وممتلكاتها من

دسائس الدول الاوربية واطماعها، الا ان تفاعلات حرب القرم (1853-1856) التي خاضتها الدولة العثمانية مع روسيا كان لها اثر فيما يبدو في اصدار مرسوم عام 1856 الاصلاحي إذ ان تلك الحرب التي شنتها روسيا نشبت حينما امتنع السلطان عبد المجيد الموافقة على طلب هذه الدولة حماية طائفة المسيحيين الارثوذكس من رعايا الدولة العثمانية. ولما كانت مصالح كل من بريطانيا وفرنسا لا تتفق ورغبة روسيا في تمزيق شمل الدولة العثمانية والقضاء عليها وقفت هاتان الدولتان إلى جانب العثمانيين في تلك الحرب، وكانت النتيجة هزيمة روسيا وما كادت الحرب تضع اوزارها حتى اعربت بريطانيا وفرنسا لحكومة الدولة العثمانية وعلى راسها الصدر الاعظم محمد امين عالي باشا، عن رغبتهما في ازالة التمييز الذي كانت تتبعه الدولة العثمانية حسب مفهومهما- في معاملة مواطنيها، وتطبيق مبدأ المساواة عليهم في المجالات كافة قطعا للطريق على روسيا في تدخلاتها بشؤون الدولة العثمانية الداخلية، وقد انطلت تلك الخدعة على الدولة العثمانية، كما انطلى عليها غيرها من خدع ودسائس الدول الاوربية التي لا يمكن ان تكون ناصحة باي حال من الاحوال لأكبر دولة اسلامية في ذلك الوقت فلاقت تلك الرغبة استجابة لدى الصدر الاعظم وناظر خارجيته فؤاد باشا اللذين تم بجهودهما اصدار مرسوم عام 1856 المرسوم الذي ركز اكثر من غيره على عزم الدولة على الاخذ بمفهوم المساواة وعدم التمييز بين المواطنين بسبب الدين.

ابرز ما اكد عليه المرسوم الجديد هو:

1. التاكيد على ما ورد في خط شريف كولخانة بخصوص رغبة الدولة في حفظ ارواح واموال واعراض مواطنيها، كما يلاحظ ان اغلب الامور التي تناولها مرسوم عام 1856 كانت تأكيدا وتفصيلا لتلك التي وردت في المرسوم السابق مع توسع كبير في تناول قضية المساواة بين مواطني الدولة المسلمين وغير المسلمين.
2. تنظيم اعمال المحاكم وتقاضي المسلمين وغير المسلمين امام محاكم واحدة في الدعاوى التجارية والجنائية.

3. وعد بتنظيم واصلاح السجون ورفع المظالم واعادة ترتيب اعمال دوائر الامن (الضبطية).
4. وضع قوانين خاصة ببيع الاملاك والعقارات والتصرف بها والسماح للأجانب بتملك العقارات في الدولة وفق ترتيبات خاصة تعقد مع دولهم.
5. اصلاح نظام جباية الضرائب خاصة العشور (ضرائب الاراضي الزراعية) منها وحظر طريقة الالتزام في جبايتها ومعاقبة المخالفين لذلك.
6. العمل على اصلاح الدولة وتنظيم سجلات سنوية بوارداتها ومصروفاتها.
7. اعادة النظر برواتب موظفي الدولة وتحسينها، وتنظيم طرق اختيار الموظفين وسن قوانين لمعاقبة المتهمين منهم بالفساد والرشوة والظلم.
8. تحسين الزراعة والتجارة وتنشيطها بشق الجداول وفتح وتحسين الطرق.
9. العمل على الاستفادة من العلوم والمعارف الاجنبية ووضعها على التعاقب في موضع الاجراء.

ظهرت اثار مرسوم 1856 في مجال تنظيم الادارة الحكومية ومؤسساتها من خلال سلسلة من القوانين والانظمة التي دأبت الدولة على اصدارها عقب اعلان ذلك المرسوم وحتى منتصف سبعينات القرن الماضي وقد وصلت حركة التنظيمات إلى ذروتها وتكاملت تقريبا مع اعتلاء السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1909) لعرش الدولة واعلانه للدستور العثماني سنة 1876 بعد تنصيبه سلطانا للبلاد.

ـ اثر حركة الاصلاحات والتنظيمات العثمانية في العراق حتى ولاية مدحت باشا.

لقد بدأت الخطوة الاولى على طريق الاصلاح الاداري في العراق في اواخر عهد السلطان محمود الثاني الذي بدأ حركة الاصلاحات في عهد واليه علي رضا باشا رغم قلتها، وتلك الخطوة هي ادخال نظام المختارين الذي كان قد طبق في عاصمة الدولة عام 1829، وفي عام 1835 جرى انتخاب المختارين لمحلات (احياء) بغداد، وانتخب لكل محلة مختار اول ومختار ثان. وكانت مهمة هؤلاء المختارين الاحتفاظ بسجلات للأحوال المدنية لسكان المحلة، تسجل فيها الوقائع والاحوال الشخصية من اثبات وتحويل ملكية العقارات، واصدار وثائق حصر الوراثة، وامور اخرى مثل عقود الزواج، ومعاملات الطلاق، وكانت هذه الوظائف مناطة قبل ذلك بأئمة المحلات، الا انها انيطت عام 1829 بالمختارين حينما ادخل نظام المختارين في احياء الاستانة في تلك السنة تمشيا مع الهدف العام الذي كان يقضي بإحلال سيطرة الدولة المباشرة وتقليل نفوذ علماء الدين.

ان قصور الخطوات الاصلاحية التي وردت في خط شريف كولخانة، والتي اتخذت في اعقابه، عن بلوغ الاهداف المرسومة لها كان امرا طبيعيا، إذ ليس من اليسير اصلاح جهاز اداري ونظام حكم دام على وتيرة واحدة لسنوات طويلة دون علاج الفساد الذي اعتراه شيئا فشيئا بمرور الوقت، ومن ثم فقد تسربت تلك الخطوات الاصلاحية ببطء إلى ايالة بغداد، وبدأت في اول الامر بأبطال نظام الالتزام في جباية ضرائب الايالة، حيث عين بعد مدة قصيرة من صدور مرسوم كولخانة، موظفون مختصون بجبايتها دعوا بـ المحصلين يعملون تحت ادارة موظف يدعى بـ المستوفي الا ان ذلك الاجراء لم يستمر طويلا فعاد بعده نظام

الالتزام في جباية الضرائب وواردات مقاطعات الدولة الزراعية، ولم تتخذ اية خطوات اصلاحية اخرى في الايالة غير هذه حتى عام 1842. ففي اواخر ذلك العام بعثت الدولة بوزير جديد ليتولى امور ايالة بغداد بعد أن عزلت علي رضا باشا اللاز من منصبه الذي استمر فيه منذ عام 1831 وكان باشا بغداد الجديد محمد نجيب(1842-1849) قبل ان تسند اليه ايالة بغداد، يشغل منصبا مماثلا في الشام، وهو من اسرة اسطنبولية ذات مقام رفيع، ومن المقربين للسلطان، واتصف بالحزم والقسوة إلى جانب الذكاء والشجاعة والحيوية، وكل هذا يدل دلالة واضحة على ان الدولة قد عقدت العزم على ان تولي ايالة بغداد قدرا من الاهتمام والرعاية في محاولة لإعادة صياغة طريقة الحكم وانظمة الادارة ومؤسساتها، تلك المحاولة التي استمرت طيلة فترة ما يسمى بـ التنظيمات واتصفت بشيء من الجد والاخلاص من خلال ما يلاحظ على بعض باشواتها من مقدرة وكفاءة، مثل محمد نامق باشا (1851-1853، 1862-1867) ومحمد رشيد باشا الكوزلكي (1853-1857).

اتجه محمد نجيب باشا (1842-1849) منذ الايام الاولى لتوليه امر الايالة إلى العمل على اعادة السيطرة المباشرة للدولة على بعض المدن والمناطق التي لاتزال تحت حكم العصبيات المحلية، واحلال الحاميات العسكرية والموظفين الاداريين الحكوميين فيها، كما بذل محاولات نشطة في سبيل وضع حد لاستقلال العشائر عن سلطة الحكومة، وفي الوقت الذي لم تحرز فيه سياسة اخضاع العشائر لسيطرة الحكومة أي تقدم في عهد نجيب باشا، كانت سياسة اخضاع المدن قد احرزت في عهده تقدما ملحوظا، وخطت خطواتها الاولى حيث تمكن الباشا في 13 كانون الثاني 1843 من دخول مدينة كربلاء، بعد حصارها لما يقرب من شهر وبدء عملية تنظيم الادارة الحكومية فيها بتعيين قاض وامام، وحامية من الجند، كما اخضع نجيب باشا عام 1847 أيضاً، احدى محلات مدينة بغداد التي كانت متمردة على سلطة الحكومة، أمّا جهوده للسيطرة على العشائر فلم تتعد تلك المحاولات اليائسة التي بذلها عام 1848 لإلغاء مشيخة المنتفك. وفي اواخر ولاية محمد نجيب باشا شهدت ولاية بغداد تغييرات في المؤسسات العسكرية، وفي الحقيقة

كانت المؤسسة العسكرية في العراق قد شهدت تدهورا كبير ما بين(1826-1842) للأسباب التالية:

1. القضاء على الانكشارية اذ تمكن السلطان محمود الثاني من القضاء على تشكيلاتها في الاستانة في عام 1826، واصدر امرا الى والي بغداد داوود باشا بالقضاء عليهم في ولاية بغداد.
2. تدهور الحالة الاقتصادية، اذ كانت خزينة داوود باشا مملوءة بالأموال لكنه انفق تلك الاموال في توسيع وتنظيم وتسليح الجيش.
3. اضمحلال جيش المماليك بسبب الطاعون والكوليرا والفيضان وحصار بغداد، فضلا عن مجزرة المماليك التي نفذها علي رضا باشا بالمماليك.

في عام 1841 اعيد تنظيم الجيش العثماني وسمي بالجيش الهمايوني النظامي، وقسم الجيش الى خمسة جيوش وسمي الجيش الخاص بالبلاد العربية عربستان اردوسي. وفي عام 1848 تقرر تشكيل الفيلق الهمايوني السادس، واصبح مقره في بغداد وشمل القوات العسكرية في العراق وشبه الجزيرة العربية. وترك امر تقرير صنوف كل جيش من قوات المشاة والخيالة والمدفعية والاحتياط للظروف المحلية، لذا تباينت اصناف وقوات الجيوش العثمانية الى درجة ما. وقد انتقلت السلطة العسكرية من يد والي بغداد الى قائد هذا الفيلق. وسرعان ما حدث اول صراع بين السلطتين المدنية والعسكرية عام 1849 حينما عارض قائد الفيلق السادس السر عسكر عبدي باشا سياسة الوالي محمد نجيب باشا تجاه تمرد القبائل الرامية الى استخدام القوة ضدها ورأى عدم جدواها، وقد ادى ذلك الى ازياد توتر العلاقات بينهما، فقد رفض الوالي تدخل الفيلق السادس في شؤون ولايته، بينما اصر عبدي باشا على انه لا يتلقى اوامره الا من رئاسة الاركان، منتقدا بشدة ولاية محمد نجيب واصفا اياها بالفساد الكبير.

وعلاوة على جهود محمد نجيب باشا في بسط سيطرة الحكومة، فقد اهتم هذا الباشا أيضاً بإنشاء بعض الابنية للدوائر الرسمية في بعض مدن الايالة عقب توليه امورها مباشرة،

وجرت في ايامه محاولة لتنظيم ماليتها حيث عين عام 1845 اول دفتردار لإيالة بغداد كما ان لجان التفتيش الادارية التي شكلت في اعقاب الغاء مجلس الاستانة الاستشاري عام 1845 تلك اللجان التي دعيت بـ(المجالس الاعمارية) والتي سبق القول بأن تشكيلها كان من ضمن الخطوات الاصلاحية التي اتخذتها الحكومة العثمانية لتحسين ادارتها في الايالات، قد وصلت واحدة منها عام 1847 إلى ايالة بغداد برئاسة راغب باشا، احد رجال الدولة، وبدأت كتابة تقاريرها عن الوسائل اللازمة لتحسين اوضاع الايالة، وكيفية زيادة الايرادات المحلية. وفي عام 1848 رابط ما دعي بـ (الفيلق السادس) العثماني لأول مرة في مدينة بغداد متخذا منها مقرا له كما ذكرنا، وذلك تطبيقا لتلك الاصلاحات العسكرية التي تقررت في عاصمة الدولة عام 1843 والتي سبقت الاشارة اليها. وقد سبق القول أيضاً ان الدولة بدأت منذ عام 1845 بتشكيل مجالس ادارة في خمس من ايالاتها وذلك ضمن خطة لتحسين الادارة في الايالات حيث كانت مهمة تلك المجالس مراقبة اعمال الادارة الحكومية والعمل على معالجة مشكلاتها، الا ان مثل هذه المجالس لم يشرع في انشائها في بغداد الا في عام 1851، حيث تشكل المجلس الكبير (مجلس ادارة الايالة).

لقد تكرر الصراع ثانية بين السلطتين المدنية والعسكرية مرة ثانية، ولكن هذه المرة في عهد الوالي محمد وجيه باشا(1850 – 1851) فقد فضل الوالي استخدام اسلوب التهدئة مع القبائل المتمردة، الامر الذي رفضه محمد نامق باشا قائد الفيلق الهمايوني السادس الذي ساندته المراجع العليا، وعينته واليا لباشوية بغداد بعد عزلها الوالي محمد وجيه باشا. وبسبب خوف الباب العالي من عودة الصراع بين السلطتين المدنية والعسكرية، والاتجاه الحكومي لاستخدام القوة في معالجة المشكلة القبلية، لهذا فان الولاة منذ ولاية محمد نامق باشا(1851–1869)، جمعوا بين منصبي الولاية وقيادة الفيلق السادس. وعلى الرغم من ذلك فقد فشلوا في السيطرة على القبائل العربية المتمردة، فعلى سبيل المثال فشلت حملة عام 1852 المكونة من عشرة الاف من الجنود النظاميين وغير النظاميين مع اسلحة ثقيلة ضد عشائر المنتفك، في تحقيق اهدافها رغم نجاحاتها العسكرية، بسبب المصاعب

اللوجستية التي استمرت في اعتراض طريقها، نتيجة رداءة الطرق وتعرض المؤن الى السلب الى درجة اضطرارها للانسحاب من الديوانية.

ان تعطش الدولة العثمانية للسلطة المركزية، والذي كان واضحا منذ خط شريف كولخانة عام 1839، والقوانين والتنظيمات التي صدرت بعده، جعلها تستمر في سياسة فصل السلطات، فقد جردت الوالي من صلاحياته الامنية، والمالية والقضائية، واصبحت كل وحدة من هذه الادارات مسؤولة فقط امام مراجعها في الباب العالي.

مع ان السلطة العثمانية شعرت من جديد بخطأ سياستها هذه، وادراكها خطر المركزية الزائدة التي ابعدتها عن هدفها الاستراتيجي وهو اخضاع كل الاراضي العراقية لسيطرة القانون، مما دفعها الى تعزيز سلطة والي بغداد الذي اصبح موظفو الادارة المالية والمجالس الادارية في السناجق والاقضية بموجب قانون 1852 تابعين له، فضلا عن ادارة الشرطة التي اضيفت الى سلطاته العسكرية، ولكن على الرغم من ذلك فان الحكم الاستبدادي المطلق لباشا بغداد اخذ بالزوال منذ اوائل خمسينيات القرن التاسع عشر.

ان جميع محاولات الاصلاح التي جرت في ايالة بغداد عقب خط شريف كولخانة ولغاية السنوات الاولى من خمسينات التاسع عشر لم تحل دون استمرار تلك الصعوبات والمشاكل التي كانت عليها الادارة العثمانية في الايالة قبل صدور المرسوم الاصلاحي بل يرى بعض المؤرخين ان تلك المحاولات قد فشل بعضها، وادى بعضها الاخر إلى نتائج معكوسة تماما وليس ادل على ذلك من تلك المشكلات التي برزت للوجود أو التي استمرت فيه في تلك الفترة فكان من المشكلات الجديدة ظهور طبقة من الموظفين الحكوميين نتيجة توسع الحكومة في نشر اجهزتها ومؤسساتها الادارية، وكان اولئك الموظفون بعيدين كليا عن روح الخدمة العامة، وانعدام الكفاءة، ولا يعرفون الناس ولا يتعاملون معهم الا بمقاييس طبقتهم، وكذلك يحتقرون القبائل والفلاحين، ويتكلمون التركية دوما ولو كانوا بين العرب وكانوا فاسدين ويمكن شراؤهم بالمال، وكان التخبط الاداري الذي تعاني منه البيروقراطية العثمانية كانت ملائمة تماما لكل من الوجهاء، ورجال الدين، الذين كانوا يفضلون بيروقراطية

غير محترفة تعتمد عليهم وتحتاج اليهم. فضلا عن ذلك كانت الزعامات المحلية في الغالب موروثة في جملة من العائلات المحافظة على مواقعها عبر اجيال عدة، وكان المنتمون الى تلك الاسر محافظين جدا ومناوئين لكل تغييرات، وبالتحديد تلك التي تخص منها موقعهم الاجتماعي، كما ان العديد منهم كان متمتعا بمكانة دينية رفيعة، فاستمر الاعتماد المتبادل بين البيروقراطية العثمانية والزعامة المحلية التقليدية طالما كان استمرار ميزان القوى يتطلب ذلك، بحيث غدت المحافظة عليه حقيقة واقعة، وهذا يعني انه هناك بالمقابل ادنى فرصة لإحلال أي قدر من التغير أو التقدم الحقيقي.

أمّا المشكلات التي لم تستطع محاولات الاصلاح تلك القضاء عليها، حيث استمرت تنخر في جسد الادارة وجهاز الحكم، فمنها استمرار عملية الالتزام التي اكد على الغائها خط شريف كولخانة بدءاً بمنصب باشا الايالة الذي كان يسند بالالتزام ومرورا بمنصب المتصرف وانتهاء بجباية اقل انواع الضرائب التي كانت تفرض على الناس فباشا بغداد محمد نجيب كان "ملتزم الخطة البغدادية... مقطوعا ببدل هو خمسون الف كيس"، أي ان الباشا يجب ان يدفع سنويا مبلغا مقطوعا للدولة مقداره (50) الف كيس مقابل احتفاظه بمنصبه وهذا يعني ان الخطوة الاصلاحية الاولى التي اتخذتها الدولة عقب صدور خط شريف كولخانة والتي اوجبت ان يتقاضى باشوات الايالات ومتصرفو سناجقها رواتب محددة، كما سبق ذكر ذلك، اعتبارا من اذار 1841 لم تطبق في بغداد، بل تأخر تطبيقها إلى السنوات الاولى من خمسينات القرن الماضي، حيث اشار احد الرحالة الغربيين المارين ببغداد إلى ان محمد رشيد الكوزلكي باشا بغداد كان يتقاضى راتبا محددا ابان وجوده في الايالة، فكان ذلك سببا في تفشي الرشوة على المستويات كافة من باشا الايالة فما دون، وقد اتهم محمد نجيب باشا فعلا بالقسوة في جباية الضرائب، وبالرشوة بالرغم من غطرسته التي اشتهر بها. وحتى عام 1854 كان منصب المتصرف يسند بالالتزام أيضاً كما ان واردات الطرق العامة، والجمارك، وغيرها من الضرائب كانت تجبى بطريقة الالتزام نفسها، تلك الطريقة التي لازمت الادارة العثمانية حتى ايامها الاخيرة في بغداد.

ان اثار مرسوم 1856 والقوانين الاصلاحية التي صدرت بعده كانت بطيئة التسرب إلى ايالة بغداد، ولم تظهر تلك الاثـار بصورة واضحة قبل عهد الوالي مدحت باشا(1869–1872) وربما كان للوضع الجغرافي والتركيب السكاني لإيالة بغداد اثر في بطئ ظهور نتائج تلك الاصلاحات فيها، وقد اعتبرت هذه الايالة بسبب امتدادها من الموصل إلى البصرة، وبسبب التجمعات العشائرية التي تؤلف الغالبية العظمى لسكانها، من اصعب الايالات العثمانية على الحكم، ونتيجة لذلك فقد كرست الدولة جهودها قبل عام 1869 على محاولات اخضاع عشائر الايالة ومدنها للسيطرة الحكومية، تلك المحاولات التي كانت مستمرة منذ عام 1831، ولم تشهد الايالة في تلك الفترة سوى اصلاحات يسيرة تهدف في معظمها إلى تحقيق هذه الغاية. فقد استمرت الجهود الرامية إلى كسر شوكة العشائر والحكام المحليين لبعض المدن عقب صدور مرسوم عام 1856 مباشرة، وذلك من خلال شروع حكومة الايالة بإعادة بناء قلاعها ودوائرها في بعض المدن، كما حدث في مدينة الديوانية عام 1857، بعد ان هدمت مثل تلك المنشآت في هذه المدينة غارات عشائر الخزاعل وال شبل، وفي العام التالي 1858 عينت الدولة قائدا حازما من قوادها في حرب القرم، عمر باشا (1857–1859) الملقب بـ(سردار اكرم) ليتولى شؤون ايالة بغداد، ويواصل عملية اخضاع العشائر وبسط نفوذ الدولة في ارجاء الولاية، وتطبيق ما يمكن تطبيقه من القوانين الاصلاحية.

بدأ عمر باشا اعماله بإعادة تنظيم الوحدات الادارية الواقعة في المناطق التي كانت تحت سيطرة العشائر أو الحكام المحليين، فعين شبلي باشا العريان احد القادة المرافقين له، متصرفا لسنجق الحلة بعد ان كانت مدينة الحلة تحكم قبل ذلك من قبل حاكم محلي يدعى شبيب اغا، وهو رئيس احد العوائل المتنفذة في المدينة، وجعلت مدينة الديوانية قضاء تابعا لهذا السنجق تحت ادارة (قائمقام) كما يلاحظ ان تلك الفترة شهدت وجود عدة قائمقامين يرأسون الادارة الحكومية في عدد من مدن الايالة التي صنفت اداريا كأقضية مثل الهندية وخراسان. ولم تقتصر عملية تنظيم الادارة الحكومية على السناجق والاقضية، بل شملت

المدن الصغيرة التي دعيت حسب التصنيف الاداري، بـ(النواحي) حيث عين في زمن عمر باشا موظفون لإدارة عدد من هذه النواحي، وكان الموظف الذي يرأس الادارة الحكومية في الناحية يدعى بـ(مدير الناحية). وقبيل حلول عام 1869 كان عدد كبير من مدن الايالة قد وضع تحت سيطرة موظفين اداريين، فالقائمقام رئيس للوحدة الادارية التي تعرف بالقضاء، ومدير الناحية رئيس للوحدة الادارية الاصغر التي اصطلح عليها اسم الناحية. وبالإضافة إلى تنظيم الوحدات الادارية وتعيين الرؤساء لها، قام عمر باشا بأعمال اخرى كان منها تنظيم عملية جباية الضرائب، ومحاولة تطبيق قانون الخدمة العسكرية وفرض التجنيد الاجباري على السكان، اذ حاول ان يؤلف جيشا نظاميا من العراقيين مستعملا الصرامة والقسوة في تنفيذ تلك الاعمال إلى الحد الذي اقدم معه على اعدام سبعة من رجال العشائر دون محاكمة، ودون استئذان العاصمة مما دفعها إلى اتخاذ قرار بعزله، غاضة الطرف عن تلك التعليمات التي سبق ان اشير إلى انها قد منحت عام 1858 قدرا من حرية التصرف لباشوات الايالات بقصد تحسين الادارة فيها باتباع اسلوب الحكم اللامركزي. واستمر اهتمام الحكومة المركزية بتحسين الادارة الحكومية في ايالة بغداد في مطلع الستينات من القرن التاسع عشر بما كانت ترسله من لجان تحقيقية وتفتيشية للوقوف على اعمال الباشوات والتحقق من سلامتها، فبعد عزل عمر باشا تعين لإيالة بغداد مصطفى نوري، الباشا الذي ما ان شمت العاصمة رائحة تهم ارتشائه حتى سارعت بإرسال لجنة تحقيق برئاسة احد كبار الضباط العسكريين للوقوف على حقيقة تلك التهم، وحينما ثبت للجنة قيام الباشا ومعاونه بأخذ الرشوة، سارعت العاصمة بعزله، كما ان (لجان تفتيش) الايالات التي سبق ذكر توسعها في اعمالها منذ عام 1860 كنتيجة لمرسوم 1856 قد وصلت واحدة منها إلى ايالة بغداد وباشرت اعمالها في اوائل عام 1862.

عينت الدولة في اوائل عام 1862 محمد نامق باشا لإيالة بغداد، واستمر في حكمها لأكثر من خمس سنوات انجز خلالها الكثير من الاعمال التي دعمت سيطرة الحكومة على مختلف مناطق الايالة، وزادت من نشاط ادارتها، ووسعت من انتشار مؤسسات تلك الادارة،

فقد واصل نامق باشا الحملات على العشائر بقصد اخضاعها لسيطرة الحكومة وحملها على الانتظام في دفع الضرائب المفروضة عليها، ولم تسلم منه حتى عشائر شمر المعروفة بشدة مراسها وعدم خضوعها لسلطة الدولة، وواصل نامق باشا بهذا الصدد تلك المحاولات التي بذلها اسلافه لتقويض مشيخة المنتفك، فأسفرت في بادئ الامر عن استقطاع اجزاء من شمال وجنوب المشيخة، ضمت الاجزاء الشمالية إلى قضاء الديوانية التابع لسنجق الحلة، أمّا الاجزاء الجنوبية فقد كون منها سنجق جديد مركزه مدينة البصرة، ثم اصدر الباشا امره بإلغاء مشيخة المنتفك عام 1863 وجعلها سنجقاً مركزه مدينة (سوق الشيوخ) وعين لإدارته الشيخ منصور السعدون احد شيوخ المنتفك، كقائمقام (متصرف) رسمي من قبل الدولة، مع عدد من الموظفين الاداريين الا ان ذلك لم يستمر سوى شهرين لعدم موافقة بعض عشائر المنتفك وبعض مشايخها على تحويل المشيخة إلى سنجق تحكمه الدولة بصورة مباشرة ولم تتمكن الدولة من الغاء المشيخة الا في عهد الوالي مدحت باشا. وعمل نامق باشا على احكام سيطرة الدولة على الايالة باهتمامه بنشر الامن في ربوعها، وتقوية الجيش النظامي المرابط فيها، فكان يتعقب الاشقياء واللصوص وقام ببناء ثكنة لوحدات الجيش السادس في مدينة بغداد، وبعث بوحدات اخرى منه لتتخذ لها معسكرا دائما في مدينة العمارة، وتأسست في عهده تمشيا مع تحقيق ذلك الهدف عدة ادارات حكومية، كدائرة الجمرك ودائرة البرق كما شرع في بناء ابنية لدوائر حكومية اخرى، وحاول نامق باشا أيضاً اصلاح مالية الايالة بتنظيم طريقة جباية الضرائب، وابطاله لعملية الالتزام في ضرائب بعض المناطق وتشدده في جمعها، فتمكن نتيجة ذلك من دفع رواتب الموظفين المدنيين والعسكريين بصورة منتظمة، وارسال مبالغ جسيمة إلى العاصمة عمّر بها السلطان عبد العزيز قصرا اطلق عليه اسم بغداد، ولعل تلك الاموال التي كان يرسلها هذا الباشا إلى العاصمة كانت السبب في بقائه في منصبه لمدة طويلة بالقياس على مدة حكم معظم باشوات ذلك العهد. كما حدثت في عهده جملة تطورات في مجال المواصلات، فقد قامت في نهر دجلة منذ عام 1862 مواصلات منتظمة لنقل البريد والمسافرين والبضائع بين بغداد والبصرة، فقد عملت اربع بواخر اثنتان منها

انكليزيتان واثنتان عثمانيتان، وانتظمت كذلك في العام نفسه خدمة للسفن التجارية بين بومبي والبصرة، وفي البدء كانت القوارب تصل الى البصرة كل ستة اسابيع، ولكن بحلول عام 1866 قل هذا الوقت الى مرة كل اسبوعين، كما تم ربط العراق مع اوروبا والهند بخطوط للتلغراف عام 1865. لقد ادى كل ذلك الى حصول زيادة ثابتة، لكن محدودة في تجارة العراق المحمولة بحرا.

ومع كل تلك الاعمال التي قام بها نامق باشا منذ اوائل عام 1862 حتى منتصف عام 1867 فان هناك قوانين اصلاحية مهمة كقانوني الاراضي والطابو الصادرين عام 1858 لم تجد السبيل إلى تطبيقها في ايالة بغداد الا في عهد الوالي مدحت باشا، كما ان قانون الولايات الصادر عام 1864 قد تأخر تطبيقه هو الاخر إلى عهد هذا الوالي، في الوقت الذي كان فيه هذا القانون قد وجد طريقه إلى التطبيق في كل ايالات الدولة بحلول عام 1867 عدا ايالتي بغداد واليمن. ونتيجة لذلك كله يمكن القول بان الاصلاحات التي كانت تجري في عهد التنظيمات بصورة عامة، وتلك التي اعقبت مرسوم 1856 بصورة خاصة لم يظهر لها سوى اثر محدود في ايالة بغداد قبل تعيين مدحت باشا والياً عليها، وظلت الدولة منذ مرسوم كولخانة (1839) وحتى عام 1869 تركز على عملية اخضاع مدن وعشائر الايالة لحكمها المباشر، ولم تقدم على تطبيق قوانين اصلاحات عهد التنظيمات فيها الا بشكل ضيق لم ينجح في ازالة مساوئ الحكم والادارة فبقي مثلا نظام الالتزام، بكل ما يحمله من عسف وارهاق للسكان، كما ظل مستوى الامن منخفضا والعشائر لا تخضع، رغم كل محاولات اخضاعها لسلطة الحكومة. واستمر نظام المركزية في الحكم والادارة الذي كان سمة من سمات الادارة العثمانية في عهد التنظيمات، رغم عدم جدواه في مناطق الدولة النائية كإيالة بغداد، ليكون عائقا امام سير الادارة الحكومية وادخال الاصلاحات عليها.

ـ الاصلاحات العثمانية اثناء ولاية مدحت باشا لبغداد.

لم تظهر اثار حركة الاصلاح العثماني في العراق بشكل واضح الا في عهد الوالي مدحت باشا الذي تولى حكم العراق بين سنتي 1869 و1872م، كان مدحت باشا من اوائل المصلحين المتنورين الذين كافحوا في انشاء حكم دستوري يحل محل الحكم الاستبدادي القائم آنذاك في الدولة العثمانية. وقبل تعيينه في بغداد كان واليا على ولاية الدانوب في الفترة بين عامي 1860 و1869 وقد وصل بغداد واليا عليها في 30 نيسان عام 1869م. وجاء في الفرمان المتعلق بتعيينه بان بغداد هي من اهم ولايات الامبراطورية العثمانية وان تربتها وموقعها يجعلانها تستحق كل انواع التقدم وعليه فأن اعز رغبة للسلطان هي ان يرى الولاية تحظى بجمع الوسائل المؤدية إلى التطور، وقد اعترف الفرمان انه بدون وجود حاكم فان التقدم المنشود لا يمكن تحقيقه، وان مدحت هو الشخص الذي سيحقق اهداف السلطان، لذلك منح مدحت كلتا السلطتين المدنية والعسكرية في ولاية بغداد. كما زود بصلاحيات واسعة لتنفيذ اصلاحاته في ولايتي الموصل والبصرة، وقد تجلت اجراءاته في ادخال الاصلاحات الادارية والاقتصادية وخاصة تطبيق قانوني الاراضي والولايات كانت الغاية الرئيسة من وراء تلك الاصلاحات العمل على ربط الولايات العراقية الثلاث بعضها مع البعض الاخر، وتقوية السلطة المركزية عليها. وكان من اهم اصلاحات مدحت باشا هي:

1. نظام الطابو وتوطين العشائر:

كانت سياسة مدحت تجاه مشكلة القبائل تتسم بالحذر والذكاء، فقد اقنع بعض زعماء القبائل بفوائد التجديد، فكان ان وافقوا على انشاء بعض المدن والمرافق الحكومية

في اراضيهم، وفي الوقت نفسه عمد إلى معالجة مشكلة ملكية الارض لربطهم بها وتشجيعهم على الاستقرار والتحول إلى الزراعة، فاخذ يبيع اراضي واسعة من اراضي الحكومة (الاميرية) بأقساط سهلة الدفع لأصحاب الامتيازات القديمة على ان تبقى لهم حرية التصرف (لا الملكية الصرفة)، وللقرويين الذين كروا نهرا أو غرسوا بستانا ولشيوخ القبائل كمقدار يسع القبيلة كلها، ورغم ان النقاط الاساسية في هذا التخطيط كانت مستقاة من قانون الاراضي العثماني، الا ان تطويرات جمة ادخلها مدحت عليه تمشيا مع ظروف العراق وخصائصه الاجتماعية. ولغرض تسجيل العقارات واصدار الوثائق الخاصة بها تم انشاء اول دائرة للطابو (التسجيل العقاري)، كما شكلت لجنة لتسوية الارض اقتصر عملها على منطقة الفرات الاوسط والبصرة. وعلى الرغم مما اعتور المشروع من اخطاء نتيجة لقلة الاداريين النزيهين وانعدام الخرائط والفنيين، فانه كان اول خطوة جدية نحو ارساء قواعد تنظيم الملكية العقارية وتسجيلها في العراق، وهو ما كانت له اثاره البعيدة في تطور المجتمع ابان المرحلة التالية.

2. التنظيم الاداري:

استند مدحت إلى قانون الولايات العثماني الصادر عام1864م لتنظيم ادارة البلاد، فعرف العراق لأول مرة في العصر الحديث تنظيما محكما ارتبطت بواسطته انحاء العراق كافة بمراكز ادارية رئيسة هي النواحي، التي ترتبط بدورها بمراكز اعلى هي الاقضية، التي ترتبط بالسناجق(الالوية) التي تشكل تنظيمات اوسع هي الولايات، فأرسى بذلك دعائم الادارة الحديثة الاولى في العراق، ورغم ان تنظيم البلاد جرى على اساس وجود ثلاث ولايات هي: بغداد والموصل والبصرة فان الاجراءات الادارية الجديدة كانت كفيلة بخلق ادارة مركزية منظمة يكون مركزها بغداد وتتولى الاشراف على شؤون القطر بأجمعه. كما تقرر تشكيل مجالس محلية شبه منتخبة في كل وحدة ادارية فكان مجلس الولاية يتألف من الوالي رئيسا وعدد من الاعضاء بعضهم من الاهالي والبعض الاخر من كبار الموظفين

التنفيذيين، واوجدت مثل هذه المجالس أيضاً على مستويات الالوية والاقضية والنواحي والقرى وقد بقيت هذه المجالس تمارس اعمالها وخاصة مجلس ولاية بغداد حتى الاحتلال البريطاني (1914-1918) وبانسحاب الموظفين الرسميين منه نتيجة لانهيار الدولة العثمانية اصبح هذا المجلس نواة لما عرف فيما بعد بمجلس الوزراء العراقي، وفي الوقت نفسه تشكلت بموجب القانون مجالس بلدية في كل مدينة ضمت عددا من الموظفين والفنيين والاهالي المنتخبين فكان ذلك اول انشاء لنظام البلديات في تاريخ العراق الحديث.

3.التنظيمات العسكرية:

لاحظ مدحت باشا ان القيام بالإصلاحات المطلوبة من دون حكومة قوية يسندها جيش يعتمد عليه عند اللزوم غير ممكن، ولاحظ ان اكثرية الجيش النظامي ليسوا عراقيين، على الرغم من ان هذا الجيش لم يكن يخلو من المتطوعين المحليين، فان اكثرية افراده كانوا من غير العراقيين، كما كان جميع ضباطه من الاجانب، وهم يودون الرجوع الى اوطانهم، فاراد تبديل العناصر غير العراقية بالعراقيين، ليحس السكان بشعور الولاء نحو الجيش، وليكون بالمستطاع تلافي النقص في عدد الجنود الذين كانوا لا يمكثون الا مدة قصيرة في العراق ويسارعون بالعودة الى اوطانهم في الاناضول، ولهذا السبب باشر مدحت باشا بتطبيق نظام التجنيد الاجباري وقد حالفه النجاح في عدد من المدن العراقية، لكنه باء بالفشل في منطقة الفرات الاوسط، إذ رفض افراد العشائر بشدة كل محاولة ترمي إلى جعلهم جنودا في جيش الحكومة، وقد نشبت ثورة عرفت باسم ثورة (الدغارة) استمرت مدة شهرين ووجهت ضد مشروع التجنيد ونظام الضرائب، ووقعت اثنائها اصطدامات عدة بين العشائر وجيش الحكومة وذهب نتيجتها الاف القتلى من الطرفين، ولكنها انتهت بتفوق الجيش، وبإعدام عدد من شيوخ العشائر الثائرة، وقد قام مدحت باشا بإجراء عسكري اخر ضد تمرد وغارات عشيرة شمر الجربا، وهذه القبيلة كانت مسيطرة على منطقة الحدود بين سوريا

والعراق، وكذلك على الطريق الممتد من تكريت إلى الموصل، ولم يكن باستطاعة قافلة ان تمر بأراضي شمر دون دفع ضريبة معينة إلى شيوخها تسمى (الخوة)، وقد نشب قتال بين شمر وجيش الحكومة انتهى بالقبض على الشيخ عبد الكريم شيخ شمر ومحاكمته واعدامه في الموصل، وقد حل مكانه في مشيخة القبيلة اخوه فرحان الذي تصالح مع الحكومة وصار يتسلم منها راتبا شهريا. أمّا عشيرة المنتفك فقد استطاع مدحت حل مشكلتها دون اللجوء إلى عمليات حربية، إذ شجع شيوخها من ال السعدون على تفويض اراضي عشيرتهم والتزام ضرائب الميري، فارتبط ال السعدون منذ ذلك الحين بالحكومة وصاروا اداة لتنفيذ سياسة الحكومة في المنتفك. كما طبق مدحت باشا نظام القرعة في اختيار المكلفين بالخدمة العسكرية ولكنه تجنب تطبيقها بين القبائل خشية اثارة شكوكها بنوايا الحكومة مفضلا ان يتم التجنيد بين سكان المدن والفئات المستقرة حولها، ولم يتردد في استخدام القوة في حمل السكان على قبول فكرة التجنيد هذه، وهكذا تأسس نظام التجنيد وفي خلال ثلاث سنوات تضاعف عدد افراد الجيش وصار مؤلفا من: 16 كتيبة مشاة، وكتيبتين من الخيالة، وكتيبة من المدفعية، يبلغ عدد افرادها نحو 12.000 فرد.

اولت الحكومة خدمات الجيش الاخرى عناية خاصة فتم انشاء معمل للنسيج لإنتاج البزات الرسمية للجند، والخيام، ومعمل للطحين بغية تهيئة الخبز لأفراد الجيش. واعدت ثكنات للجيش وورش لآلاته، وعدة معامل لصناعة البارود. ولتجهيز هذا الجيش بالضباط العراقيين تم تأسيس أول مدرسة رشدية عسكرية في بغداد، ليجتازها الطلاب قبل دراستهم في الاعدادية العسكرية، ثم الانتماء الى المدرسة الحربية في اسطنبول، وبهذا مهد السبيل امام العراقيين لتبوء الرتب والمناصب العسكرية العالية في الجيش العثماني. كما الغى تنظيمات باشي بوزوق[1]، واحل محلها الضبطية لحماية الامن الداخلي، ومنح لهم رواتب، ومع مرور الوقت حلت الشرطة والجندرمة محل الضبطية فاصبح جهاز الشرطة مسؤولا عن الامن الداخلي، وعهد الى الجندرمة(الدرك) حفظ الامن في خارج المدن وفي الارياف،

1- نوع من العساكر غير النظاميين الذين يتطوعون اثناء الحرب، والتحقوا بالجيش النظامي في الدولة العثمانية.

وقد زاد عدد المنتسبين الى الشرطة من (800) إلى (2400) من الخيالة و4000. كما وضع خطة عسكرية للدفاع عن العراق ضد تعديات ايران، وقد حاول مدحت باشا ان يحل مشكلات الحدود مع الحكومة الايرانية، فانتهز فرصة زيارة ناصر الدين شاه للعراق عام 1871، وعرض عليه القضايا التي تثير المشكلات على الحدود، ولكن حكومة الشاه رفضت التعاون في حل تلك المشكلات، لذلك وضع مدحت باشا خطة لمنع الشقاة الايرانيين من الاغارة على القرى والعشائر العراقية، ونهب الاموال، والفتك بالمسالمين وقرر اعداد فوج من المتطوعين المدربين(المغاوير) على ان تدفع اليهم رواتب مجزية، وبناء سلسلة من القلاع والابراج المتقاربة على طول الحدود العراقية-الايرانية من كلعنبر في السليمانية، الى خانقين، وان يكون الاتصال ممكنا بين هذه القلاع، وامداد كل قلعة بين 8-10 من هؤلاء المتطوعين. ثم اراد بناء سلسلة اخرى من القلاع داخل الاراضي العراقية، تضم قواعد اوسع واحكم، وان كانت اقل عددا، وتضم كل قلعة بين 40-50 متطوعا، تدعمهم مجموعة مختارة من الفرسان المدربين، على ان تكون قوات الخط الثاني دائما على اتم استعداد لدعم حامية اية قلعة من الخط الاول عند تعرضه للخطر. ومن اصلاحات مدحت باشا في المجال العسكري انشاءه دار الصناعة البحرية(الترسانة)، وقد قدم الرحالة الامريكي فوك في اثناء زيارته للعراق عام 1874 وصفا لها، اذ يذكر انه زار دار الصناعة البحرية(الترسانة)، ومحل صنع واصلاح المكائن، ومحل المسبك، فوجد هناك ستين رجلا يعملون تحت رئاسة مهندس انكليزي، وكانت جميع المكائن مجلوبة من اوروبا، ولكن العمال جميعهم عراقيون، ويقول فوك ان الملاحظ اعطاه قسما من اعمالهم، فلم يجد في ذلك فرقا بينها وبين تلك القطع المصنوعة في اوروبا. وفي دار الصناعة البحرية شاهد مركبين حديديين، صناعا في كلايد وارسلا قطعا الى العراق، ويجري ضم القطع الى بعضها، والمركبان جاهزان للحركة، يبلغ طول الواحد منهما 110 قدم، وهما مسطحا القعر، ومصفحان بصفائح الفولاذ، ومجهزان بمكائن قوية، ومن المتوقع ان لا يغطس منهما في الماء سوى قدم واحدة، والمقصود استعمالهما في اعالي الفرات.

4. المواصلات:

في ميدان المواصلات اعاد مدحت تشكيل الشركة الحكومية المسماة (الادارة العثمانية النهرية) واصلح بواخرها القديمة، ثم شرع بشراء بواخر جديدة ذات حمولات كبيرة كما انه اسس لهذا الغرض محطات الوقود في مسقط وعدن وبندر عباس وبوشهر وبعد هذا صارت البواخر العثمانية تتحرك بين آونة واخرى بين البصرة واسطنبول عبر قناة السويس التي افتتحت عام 1869م، وفي خلال ولاية مدحت باشا صار عدد البواخر التابعة للإدارة العثمانية ثماني، اربع منها تبحر بين البصرة واسطنبول، والاربع الاخرى تستخدم للملاحة النهرية في دجلة والفرات وشط العرب. أمّا المشروع الثاني الذي انشاه مدحت في حقل المواصلات فهو تراموای بغداد الكاظمية وقد شجع بهذا الخصوص الموسرين من اهالي بغداد للتعاون مع الحكومة وتأسيس شركة مساهمة وفي غضون عام انتهى العمل في سكة الترام ووصلت العربات اللازمة من انكلترا ثم افتتح المشروع عام 1871م. وكانت الكلفة النهائية للتراموای 24 الف ليرة تركية دفع منها 18 الف ليرة من راس مال الشركة المساهمة المال المتبقي فقد تم دفعه من ارباح الشركة التي بلغت 20 بالمئة في العام.

5. النظام القضائي:

على الصعيد القضائي تم الاخذ بمبدأ الفصل بين السلطات التنفيذية والقضائية وانشئ ديوان التمييز للنظر في الدعاوى القانونية المستأنفة.

6. التعليم والحركة الثقافية والعمرانية:

في عهد مدحت باشا دخل التعليم الرسمي الحديث إلى العراق، وانشأت اولى المدارس الحديثة وفي مقدمتها المدرسة الرشدية الملكية (المدنية) ومدة الدراسة فيها اربع سنوات بعد الابتدائية، بالإضافة إلى ذلك انشأ مدرسة الصناعة ومدة الدراسة فيها اربع سنوات بعد الابتدائية يتلقى الطلبة في اثنائها دروسا تثقيفية عامة، ويتخصصون في احدى

المهن: كالتجارة والخياطة والحدادة والطباعة، ويتلقى الطلبة في المدارس الحديثة مواضيع عديدة ابرزها اللغة التركية واللغة الفرنسية، والتاريخ، والجغرافية والجبر والفيزياء، والدين والرسم. كما تم انشاء مدرسة الصناعة للأولاد الايتام، وكان فيها 80 غلاما عام 1874 تتراوح اعمارهم بين 10-15 عاما، وكانوا يرتدون ملابس رمادية انيقة، وكان قسم من هؤلاء الاولاد يعملون على مناسج يدوية فيخرجون نسيجا من الحرير والقطن، وكان هناك اخرون يخيطون ثيابا، وكانت مصنوعاتهم جيدة. وكان الاولاد يتعلمون فضلا عن الحرف مبادئ الهندسة، وكان بعض المعلمين من خريجي المدرسة ذاتها، وتستخدم في التعليم السبورة من اجل رسم الاشكال، وفي المدرسة غرفة للطعام، واماكن للنوم، ومستشفى، وفيها الاردية النظيفة البيضاء.

ان اهتمام مدحت باشا بنشر التعليم في العراق انعكس من خلال تزايد النسبة المئوية للمتعلمين ففي عام 1850م لم تكن نسبتهم تزيد عن نصف في المائة من سكان المدن في حين اصبحت نسبتهم عام 1900م تتراوح بين الخمسة والعشرة بالمائة.

لقد كان مدحت باشا في طليعة الولاة العثمانيين الذين اهتموا بأمور الطباعة، والصحافة فقد اسس مطبعة حكومية باسم مطبعة الولاية واصدر جريدة رسمية باسم الزوراء في 15 حزيران عام 1869م وهي اول جريدة ظهرت في العراق. وكانت الزوراء تصدر مرتين في الاسبوع باللغتين العربية والتركية وقد استمر صدورها حتى الاحتلال البريطاني لبغداد سنة 1917م. أمّا محتوياتها فقد كانت تتضمن البيانات الحكومية والاخبار المحلية والانباء العالمية ونصوص القوانين العثمانية وكذلك المقالات السياسية والادبية وحقلا لرسائل القراء وانتقاداتهم.

7.الحركة العمرانية:

في عهد مدحت باشا تم بناء مدينتي الناصرية 1870 والرمادي 1872، ومن اعماله بناء المستشفيات، وقد شاهد فوك المستشفى العسكري، وكانت بناياته واسعة ولطيفة، وقد

كان فيها 180 مريضا، كلهم جنود. وكانت سقوف الغرف عالية، والتهوية فيها جيدة، والملابس نظيفة، وكانت جميع الترتيبات فيه مماثلة لأي مستشفى اوروبي من نوعه، كما كان في المستشفى صيدلية، وحمامات، وكان مدير المستشفى تركيا درس في الاستانة وكان يتقن الفرنسية. فضلا ن ذلك شيد مدحت باشا دور حديثة للحكومة ومزرعة نموذجية وارسل المهندسين لتنظيم الري. واهتم بردم الكثير من المستنقعات وتحويلها إلى اراض صالحة للزارعة، وشجع على زراعة محاصيل جديدة وابدى التسهيلات اللازمة لزراعتها، واظهر اهتماما بإصلاح نظم الضرائب الزراعية، واسس مصنعا للحدادة ومعملا لتقشير الرز ببغداد، وكان من بين المنشات الصناعية الاخرى التي اسسها مصفاة للنفط في بعقوبة، ومعملا لإصلاح السفن في البصرة، واقام متنزها عاما في بغداد وشجع العراقيين على ارتياده للراحة.

لقد انتهت ولاية مدحت باشا في العراق بتقديم استقالته من منصبه احتجاجا على قرار اصدره الصدر الاعظم محمود نديم باشا بخصم مبلغ كبير من مصروفات ولاية بغداد وتحويله للعاصمة. وقد قبلت استقالته وغادر بغداد في 27 ايار 1872.

لقد بذل مدحت باشا جهودا كبيرة لتحديث العراق، وقد نجحت جهوده في تحقيق تقدم شمل في جميع ميادين الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية مما دفع الكثير من المؤرخين إلى وصفه بأبي الاصلاح. لكن ذلك لم يحل من جهة اخرى دون اخفاق قسم من اصلاحاته أو عدم توفر الفرصة او الاموال الكافية لإنجازها، ومن ذلك اخفاق بعض مشاريع الري واصلاح الانهار وعلاوة على ذلك فقد حفلت سجلات الطابو والتي سجلت فيها الاراضي المفوضة للملاكين الجدد بأخطاء وغموض كبيرين.

لقد استمرت حركة الاصلاحات العثمانية بعد ولاية مدحت باشا، ويذكر الرحالة فوك الذي زار العراق عام 1874 ان الوالي رديف باشا قد انشأ جسر معلق عبر دجلة. وفيما بعد تم انشاء مستشفى عام، ودائرة للمعارف، واخرى للنفوس، وعدد من المحاجر الصحية، ومرافق اخرى في بغداد. وشيئا فشيئا اخذت مظاهر التحديث تفرض نفسها وسط بنيات متخلفة، ففي عام 1879 تقرر تشكيل دائرة بلدية في جانب الكرخ، كما زاد عدد المدارس

الابتدائية والمتوسطة حتى بلغت زهاء مائة مدرسة، وانشأت مدرسة متوسطة للبنات عام 1899، وزاد عددها عام 1900 إلى اربعة، وقبيل الحرب العالمية بلغ عدد المدارس في انحاء العراق 160 مدرسة ابتدائية، منها 13 مدرسة للبنات، و12 مدرسة اعدادية. كما افتتحت مدرسة خاصة بالمعلمين (دار المعلمين)، ومدرسة تطبيقات تابعة لها، ومدرسة للحقوق عام 1908. وزاد عدد القراء والمتعلمين مما ساعد بعض المثقفين على اصدار صحف جديدة غير رسمية كان لها اثرها في اشاعة الوعي القومي. وفي السنين الاخيرة من العهد العثماني اجريت بعض الاعمال الاصلاحية المحدودة، اذ انشئت غرفة تجارة بغداد في 5 نيسان 1884، وفتح المصرف العثماني اول فرع له في بغداد عام 1890، ليتبعه بعد مدة فرعان اخران في البصرة والموصل، ثم اصلح نظام الجندية عام 1909، وفي عام 1913 تم افتتاح سدة الهندية لتنظيم الري في حوض الفرات الاوسط، وفي عام 1915 تم انشاء خطوط تلغراف بين الموصل وسنجار والعمادية.

ـ ولاة بغداد والعلاقات مع الخليج العربي:

لقد رأينا سابقا كيف تطورت علاقة ولاية بغداد والبصرة مع الخليج العربي في ظل الحكم المملوكي، ويبدو ان سقوط المماليك لم يؤثر كثيرا على علاقة ولاة بغداد، بشيوخ الخليج العربي، فقد استمرت صلة الشيخ جابر الاول وثيقة بالعثمانيين، فساهم معهم عام 1836 بالقضاء على خروج اهل الزبير عن السلطة العثمانية. كما اشترك عام 1837 مع علي رضا باشا اللاز في احتلال المحمرة، واستجاب عام 1845 لطلب الدولة العثمانية في حماية ميناء البصرة. وقد حصل الشيخ جابر على اقطاعيات في البصرة منحت له من بعض الملاك الذين ادى لهم بعض الخدمات، فقد اهدى اليه راشد السعدون بساتين نخيل الفاو، كما اهداه سليمان الزهير نخيل الصوفية مكافأة له عندما استجار به بعد فراره من ال ثاقب

الذين ورثوا كرسي الحكم في الزبير. وقد اعلن الشيخ جابر عام 1847 انه ينوي في ظروف خاصة ان يضع نفسه تحت حماية الباب العالي. وفي عهد خليفته الشيخ صباح(1859-1866) كانت الكويت متجهة بخطى سريعة نحو الدولة العثمانية، وقد اكد الشيخ للمقيم السياسي البريطاني ان حكام الكويت كانوا دائما يدفعون الجزية للدولة العثمانية. ولكن رغم هذا فإننا نلاحظ ان الكويت توقفت عن رفع العلم العثماني على سفنها، الا ان هذا الاجراء لم يكن بدافع عدم الولاء للعثمانيين، وانما هو اجراء اقتضته ظروف الكويت الاقتصادية بعد ان وجدت السفن الكويتية نفسها تلقى معاملة غير طيبة في بومباي الامر الذي دفعها الى تغيير اعلامها بأعلام اجنبية. ويبدو ان الازدهار الاقتصادي النسبي الذي جنته الكويت من تجارتها قد جعلها راغبة في ان تؤكد شخصيتها وتحاول ان لا تجعل من علاقتها الوطيد مع الدولة العثمانية سببا يدعو الى اعاقة نموها الاقتصادي. فعندما عزم نامق باشا والي بغداد عام 1866 ان يحول سيطرة الباب العالي على الكويت الى سيطرة فعلية، وقد عقد العزم على اسناد منصب القائمقامية الى حاكمها، واتخذ الترتيبات اللازمة لإنشاء جمرك فيها تمهيدا لتطبيق نظم الادارة العثمانية، لقيت هذه السياسة معارضة من جانب شيوخ الكويت، الامر الذي استدعى من نامق باشا طلب سفينتين مسلحتين من اسطنبول للوقوف بوجه هذه المعارضة. وقد كانت الدوافع الخفية لموقف ال الصباح هذا بلا شك هو خشيتهم من ان تصاب تجارتهم بالوهن لحساب تجارة البصرة لو قبلوا تلك الاجراءات، فضلا الى تخوفهم من ان الادارة العثمانية المباشرة سوف تفقدهم حرية الحركة التي اعتادوها. هذا الى جانب تشجيع البريطانيين لشيخ الكويت في وجوب عدم توثيق العلاقة مع العثمانيين، وقد افصح عن ذلك المقيم البريطاني كامبل الذي عد اجراءات نامق باشا من شأنها ان تجعل حرية الكويت المكتسبة منذ زمن بعيد اثرا من اثار الماضي. وهكذا بقيت الكويت ميناء حرا للتجارة ترفع سفنها الاعلام الاجنبية وحافظت على كيانها.

لقد اخذ العثمانيون يوجهون اهتماما ملحوظا الى الخليج العربي بعد انسحاب القوات المصرية من شبه الجزيرة العربية عام 1840 في محاولة لتلافي ما فاتهم في الفترات

السابقة. وحظيت الاحساء التي هزموا فيها من قبل بقسط كبير من ذلك الاهتمام. وقد اسند السلطان العثماني الى علي رضا باشا اللاز حكمها فضلا عن ولايته على العراق، ولكن الوالي الجديد لم يعمل على ادخال نظم الادارة العثمانية في هذه البلاد، وانما اتبع الاسلوب نفسه الذي يعامل به مشيخات الكويت والزبير وسوق الشيوخ. وكان في هذا خطر كبير على مستقبل هذه الجهات ارتكبه علي رضا باشا وعدد كبير من ولاة العراق العثمانيين اذ تركوا هذه الجهات المطلة على الخليج العربي عرضة للضغوط البريطانية المختلفة. وعليه فان النفوذ العثماني في هذه الفترة لم يستطع ان ينفذ الى القسم الجنوبي من الخليج العربي مما افسح المجال لبريطانيا لان تنمي قوتها فيه، وصارت تقف بوجه كل المحاولات العثمانية التي تهدف الى التقدم نحو الجنوب، وبدا ذلك واضحا عندما سعى العثمانيون الى ادخال البحرين في دائرة نفوذهم. فقد ارسلت سلطات البصرة وفد عثمانيا عام 1858 مؤلفا من بعض شيوخ البصرة وبغداد لتقديم عروض كثيرة الى شيوخ البحرين الذين اظهروا استعدادا كبيرا لقبول التبعية العثمانية، وقد نجح الوفد في اعلان تبعية البحرين للدولة العثمانية وابقاء ممثل لها في الامارة. ووافق شيوخها على رفع العلم العثماني، ولكن بريطانيا ارغمت البعثة العثمانية وممثليها في البحرين الى الانسحاب دون تنفيذ أي شيء من الاتفاق بعد ان احتج بالمرستون لدى حكومة الاستانة التي تراجعت عن موقفها وامرت الوفد بالانسحاب. وقد كان ذلك باعثا لبريطانيا ان تسرع في عقد اتفاقية جديدة مع شيخ البحرين. وبعد هذا التاريخ نلاحظ تجسم الصراع البريطاني-العثماني في الخليج العربي الذي استمر حتى قيام الحرب العالمية الاولى. وقد بدأت علاماته تظهر في الافق منذ ان وجهت الحكومة العثمانية عام 1847 تعليماتها الى باشا بغداد بممارسة حق تفتيش السفن في الخليج العربي بقصد منع تجارة الرقيق حتى اذا كانت ترفع العلم العثماني، ولكن بريطانيا اعترضت على ذلك الاجراء بسبب مخاوفها من امتداد السيطرة العثمانية على البحرين. على ان بريطانيا لم تكتف بذلك بل اخذت بيدها زمام المبادرة لضرب مناطق النفوذ العثمانية، فكان ضرب ميناء الدمام عام 1859، والاعتداء على السواحل النجدية عام 1866 عندما ادعى نامق باشا والي بغداد بانها من ممتلكات الدولة العثمانية.

مع بدأ ولاية مدحت باشا على العراق اعاد العثمانيون رغبتهم بالتوسع مجددا في الخليج العربي وذلك للأسباب التالية:

1. الصراع على السلطة في نجد بين امراء ال سعود ابناء فيصل بن تركي، وهما عبد الله وسعود، اذ استنجد عبد الله بن فيصل بوالي بغداد لإعادته الى العرش بعد ان اقصاه اخوه سعود، فاعد والي بغداد حملة عسكرية لإرسالها الى الاحساء ونجد، هدفها الظاهري اعادة عبد الله الى الحكم لان الدولة العثمانية عدته حاكما شرعيا معينا من قبلها كقائمقام عثماني.
2. عمل مدحت باشا منذ توليه ولاية بغداد على تبني فكرة التوسع في الاقطار الاسيوية لكي تعوض الدولة العثمانية ما خسرته في البلقان، لذا اخذ مدحت على عاتقه مد السيطرة العثمانية على الخليج العربي، لكي يحل النفوذ العثماني المباشر محل السعوديين في حكم الاحساء ونجد.
3. تعد الدولة العثمانية نجد وملحقاتها كالحجاز واليمن وعسير جزء منها.
4. افتتاح قناة السويس وبذلك تم ربط البحر المتوسط بالأحمر، لذا اخذت الدولة العثمانية تعمل على مد نفوذها على كل من اليمن وعسير المطلة على البحر الاحمر لتربط نفسها بالتجارة العالمية.

لذا قام مدحت باشا عام 1870 باحتلال الاحساء، كما اتفق مدحت باشا مع عبد الله شيخ الكويت على جعل الكويت قائمقامية عثمانية تابعة لولاية البصرة، وقد وافق شيوخ الكويت على ذلك للأسباب التالية:

1. ان شيوخ الكويت كانوا لا يرغبون في الانفصال عن الرابطة الاسلامية التي جسدتها الدولة العثمانية.
2. ان شيوخ الكويت كانوا يملكون اراضي في البصرة، وكان العثمانيون يهددون بقطع ايراداتها عندما تتعارض سياسة شيوخ الكويت مع سياستهم.

3. ان الكويت تخشى معارضة الدولة العثمانية لأنها لم تكن آنذاك مرتبطة مع أي من الدول الكبرى بمعاهدة حماية.

وقد بقيت الكويت تابعة للعثمانيين حتى عام 1899 عندما وقع الشيخ مبارك معاهدة حماية مع بريطانيا. وكان مدحت باشا قد احتل ايضا قطر في عام 1871، وعين قاسم بن ثاني قائمقام عليها، كما اقام محطة للفحم وميناء للسفن، وحامية عثمانية ثابتة.

ـ تسوية مشكلات الحدود بين الدولة العثمانية وايران:

مع عودة الحكم العثماني المباشر الى العراق اخذت الدولة العثمانية تعمل من اجل تسوية مشكلات الحدود مع ايران، تلك التسوية التي غطت ما تبقى من الحكم العثماني في العراق. ومما يلاحظ على هذه التسويات الحدودية انها تمت بتدخل كل من بريطانيا وروسيا، وهي:

1. معاهدة ارضروم الثانية 1847:

في 31 اذار 1847 تم التوقيع على معاهدة ارضروم الثانية بحضور المندوبين البريطاني والروسي. وتعد هذه اول معاهدة حدودية تتعرض بالذكر لشط العرب ويمكن تلخيص بنودها بما يلي:

1. تتعهد الحكومة العثمانية رسميا بالسماح لفارس بوضع يدها على مدينة وميناء المحمرة، والمرسى، وجزيرة خضر(عبادان) والاراضي الواقعة على الضفة الشرقية(اليسرى) من شط العرب التي تقطنها قبائل معترف بها بانها من رعايا فارس.

2. تتنازل الحكومة الفارسية عن كل ما لها من ادعاءات في منطقة شهرزور.
3. ان الحدود الممتدة من المحمرة في الجنوب والى الشمال منها ترك امر تسويتها في معاهدات لاحقة.
4. بخصوص ادارة الحدود فقد تقرر ان تجبر كل قبيلة على الاقامة فقط على جانب واحد من الحدود، وان اعمال الغارات والجرائم التي ترتكب عبر الحدود يجب ان يعاقب عليها من قبل سلطات الحدود التي ترتكب فيها هذه الاعمال.

ويمكن ان نلاحظ على معاهدة ارضروم الثانية ما يلي هو تنازل الدولة العثمانية عن اقليم عربي تسكنه قبائل كعب العربية الى ايران، مما يعني ان تلك المناطق لم تكن تابعة للأخيرة من قبل. وقد جرى تبادلها باعتبارها من المناطق المتنازع عليها. واصبحت الحدود بين الدولتين بناء على هذا التنازل هي الضفة اليسرى لشط العرب، وان سيادة ايران على المحمرة وميناءها لا تشمل شط العرب باي شكل من الاشكال، وان مرسى المحمرة يقع على قناة الحفار في مصب نهر الكارون لا على شط العرب. والحقيقة ان هذه المعاهدة لم تنهي النزاع بين الدولتين، وان الحدود بينهما بعد عقد معاهدة ارضروم الثانية ظلت مثار خلاف مستمر واخفقت كافة الاساليب المفاوضات، واستمرت الفوضى والاضطرابات على طول الحدود.

2. بروتوكول طهران 1911:

لم تنقطع حوادث الحدود ومشاكلها بين الدولتين حتى بداية القرن العشرين، وقد فشلت لجنة تخطيط الحدود المنبثقة عن معاهدة ارضروم الثانية في معالجة المشكلة. لذا ونتيجة الوساطة البريطانية-الروسية تم التوقيع في 21 كانون الاول 1911 على بروتوكول طهران بين وزير الخارجية الايراني والسفير العثماني في ايران، وكان الغرض من هذا البروتوكول هو وضع اسس المفاوضات لتخطيط الحدود المشتركة. وتضمن البروتوكول ما يلي:

1. تعيين لجنة مؤلفة من مندوبي الحكومتين تجتمع في الاستانة بأسرع وقت ممكن وتكلف بمهمة تخطيط الحدود وفقا لأسس معاهدة ارضروم الثانية.
2. تقرر اللجنة بإخلاص ودون محاباة خط الحدود بعد الرجوع الى الوثائق والادلة المقنعة، على ان تعقبها لجنة فنية تثبت التحديد النهائي على الارض وفقا للأسس التي تضعها اللجنة السابقة.
3. اقرت الدولتين شرعية معاهدة ارضروم الثانية لعام 1847، وعدتها الدولتان الاساس المعول عليه في تخطيط الحدود.
4. يتم فض الخلافات المحتملة بين الدولتين الى محكة التحكيم الدولي في لاهاي.
5. ضرورة المحافظة على الوضع الراهن، واشترطت الا يتخذ من الاحتلال العسكري للأراضي المتنازع عليها حجة في الادعاء بملكيتها.

وبموجب هذا البروتوكول اجتمعت لجنة تقرير الحدود في الاستانة لتحديد الحدود، وعقد 18 جلسة للفترة من 25 اذار الى 22 اب 1912، ومع ذلك لم يتم حسم مشاكل الحدود، مما دفع روسيا وبريطانيا للتوسط لحل المشاكل بين الدولتين.

3. بروتوكول الاستانة 1913:

تمخضت المفاوضات التي اجراها مندوبو الدول الاربعة(العثمانية-الايرانية-روسيا القيصرية-بريطانيا) عن تعريف خط الحدود في منطقة شط العرب في بروتوكول وقع في الاستانة في 4 تشرين الثاني 1913 الذي نص على:

1. اقر لإيران الجزر التالية: جزيرة محيلة(الحاج صلبوخ)، والجزيرتان الوقعتان بين جزيرة محيلة والضفة الشرقية من شط العرب، فضلا عن الجزر الاربع

الواقعة بين جزيرة شطيط وجزيرة معاوية، كذلك الجزيرتان الواقعتان مقابل منيوحي والتابعتان لجزيرة عبادان.

2. يبقى مرسى المحمرة الى فوق واسفل ملتقى نهر كارون بشط العرب تحت السلطة الايرانية، عملا بما جاء في معاهدة ارضروم الثانية. بيد انه ليس لهذا الامر مساس بحق الدولة العثمانية في استعمال القسم من النهر، كما ان سلطة ايران سوف لا تتناول اقسام النهر الواقعة خارج المرسى.

3. لا يجري تغيير ما في الحقوق والتقاليد الحالية فيما يتعلق بصيد الاسماك في الضفة اليسرى من شط العرب.

4. لا تمتد سلطة الدولة العثمانية الى اقسام الشاطئ الايراني التي قد تغطيها المياه مؤقتا عند ارتفاعها أو من جراء عوامل عرضية اخرى، كما لا تمارس ايران السلطة على جانبها في الضفة اليسرى من الاراضي التي قد تصبح مكشوفة بصورة وقتية ام عرضية عندما يكون مستوى هبوط الماء دون الحد الاعتيادي.

مما يلاحظ على بروتوكول الاستانة ان الدولة العثمانية تنازلت عن جزء من شط العرب يقع امام المحمرة بوصفه مرسى للميناء الى ايران.

4. محاضر جلسات تحديد الحدود 1914:

بناء على احكام المادة الثانية من بروتوكول الاستانة لعام 1913 تم تأليف قومسيون تحديد الحدود بين مندوبي الدول الاربعة(الدولة العثمانية-ايران-روسيا القيصرية-بريطانيا)، ويتضح من محاضر جلسات قومسيون الحدود انه قد تمت تسوية معظم الخلافات، ونتيجة لذلك عد شط العرب كله عدا استثناء واحد بطول 7كم الحدود النهائية بين الدولتين.

ـ التنافس الاستعماري الاوربي على العراق.

1. النفوذ السياسي الاوروبي واثره على العراق.

كان لإسقاط حكم داوود باشا المعادي للمصالح البريطانية وابعاد العراق عن مشاريع محمد علي في استقطابه إلى جانب دولته الجديدة في مصر والشام، بل واتخاذه قاعدة عثمانية لضرب الوجود العسكري المصري في اعالي الجزيرة الاثر الواضح في تزايد النفوذ البريطاني في ارضه إلى الحد الذي صرح فيه احد الضباط البريطانيين في بغداد وهو فرنسيس جسني في تقرير كتبه في اوائل 1831م ان النفوذ البريطاني سائد ومهم الان في الباشوية. وكان الوالي علي رضا باشا قد اصدر في اعقاب استتباب الامر له في العراق- قرارا لصالح البريطانيين في الثاني من تشرين الاول 1831 يؤكد فيه العمل وفق المعاهدات المعقودة بين الدولتين العثمانية والبريطانية، وفي مقابل ذلك طلب السفير البريطاني لدى الباب العالي من روبرت تايلر (الوكيل السياسي البريطاني في بغداد) ان يقدم المساعدات الممكنة لعلي رضا ليوطد اقدامه في الحكم واوصى تايلر حكومته بإمداد والي بغداد بالأسلحة، كما عرض على الوالي ان يتولى ضابط بريطاني قيادة جيشه، وكان ذلك في اطار العلاقات الوثيقة القائمة آنذاك بين بريطانيا والدولة العثمانية لمواجهة مشروعات محمد علي وما ترمي اليه من اهداف تشكل خطرا على وجودها في المنطقة.

لقد تعددت المشروعات التي ترمي إلى توطيد النفوذ البريطاني في العراق، فقد اوفدت حكومة بومبي خلال الفترة (1830-1860) عدة بعثات لتقوم بأعمال المسح والتخطيط فيما بين النهرين بهدف ايجاد طريق للمواصلات بين الشرق والغرب يكون متمما للطريق القديم المار برأس الرجاء الصالح. فالضابط فرنسيس جسني قام بدراسة استطلاعية

عن نهر الفرات وخليج البصرة استغرقت عاما كاملا (حزيران 1830 -حزيران 1831) اعد بعدها تقريرا مفصلا رفعه إلى حكومته يبين فيه صلاحية الفرات لسير الفن التجارية وضرورة اتخاذه سبيلا للمواصلات بين البحر وخليج البصرة كما درس احد مساعديه المدعو هـ. ب. لنج نهر دجلة خلال المدة (1837-1839) ومسح ما بين اعاليه وبغداد، ثم تقدم بالمسح والقياسات إلى شط العرب، وفي حوالي 1840 اسس شركة للملاحة في نهر دجلة وتمت اوسع دراسة تفصيلية عن العراق من قبل قائد في بحرية الهند هو جيمس فلكس جونز، الذي استغرق مكوثه في البلاد عدة سنوات (1850-1852) وتضمن تقريره الذي قدمه لحكومة بومبي جداول تفصيلية عن جميع ما يتصل بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بالإضافة إلى المسح الطبوغرافي، واقترح بان تتخذ الاجراءات لجلب رؤوس الاموال وكذلك المهاجرين لاستعمار العراق، وقد ورد في حديث احد مساعديه المسمى كولنكود وهو ضابط في البحرية الهندية، ما يشير إلى حراجة الظروف التي احاطت به وبزملائه من اتباع جونز، في اثناء قيامهم بتلك الدراسات، فهو يذكر متحدثا عن نفسه: "انني وحدي انجزت تخطيط بغداد، في ظروف جدا عصيبة، إذ كنت مضطرا إلى العمل خفية... وقد حدث احيانا ان قمت بتسجيل المواقع والمحلات على قميصي الابيض، مغتنما الفرصة إذا ما استطعت الحصول حينئذ على قلم الرصاص، وكثيرا ما اوشك امري ان يفتضح حتى انني توسلت بشتى انواع الحيل لدفع الريبة". وكانت تلك المشروعات تمثل في حقيقتها سياسة استعمارية بعيدة المدى، والتي ادت إلى توطيد النفوذ البريطاني في العراق.

في ستينيات القرن التاسع عشر بدأ البريطانيون يتطلعون لمد نفوذهم على الفاو نظرا لموقعها الاستراتيجي، اذ نظرا لاتساع التجارة البريطانية في الخليج العربي وايران في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وما نجم عن ذلك من تشعب في المصالح البريطانية في المنطقة، ولكون العراق اقصر الطرق بين مستعمرات بريطانيا في الهند وبريطانيا نفسها من ناحية، ولان هذا الطريق اكثر امانا من طريق رأس الرجاء الصالح، فقد بادرت الدبلوماسية البريطانية التي تركيز نفوذها في منطقة الفاو، التي كانت تعد الموقع الاستراتيجي لحماية

شط العرب من أي نفوذ اجنبي من طرف، والوقوف عن كثب على تحركات السلطات العثمانية من طرف اخر. ومن هنا بادرت حكومة الهند الى مفاتحة الدولتين العثمانية والايرانية بشأن اهمية مد اسلاك تلغراف عبر اراضيها من اجل تسهيل الاتصالات البرقية بين دولتيهما والعالم الخارجي، وكان قصد حكومة الهند ضمان الاتصال السريع والمباشر بين الهند وبريطانيا، لمواجهة التغلغل الاقتصادي والسياسي الاوربي في كل من ايران والدولة العثمانية، الذي بات يهدد المصالح الاقتصادية البريطانية ولاسيما بعد المباشرة بتنفيذ مشروع قناة السويس من لدن المهندسين الفرنسيين ولتزايد النفوذ الروسي في ايران وحصول روسيا على امتيازات تجارية فيها، وخشية بريطانيا من امتداد ذلك النفوذ الى الخليج العربي. ومن هنا جاء التفكير في انشاء دائرة تلغراف في الفاو لكي تربط دوائرها الرسمية في لندن مع مستعمراتها في الهند من جهة، والحفاظ على المنطقة من أي تدخل من جهة اخرى. ففي عام 1862 عهد الى الرائد باتريك ستيوارت ادارة عمليات البرق الهندية الاوربية، وبذلك اصبح اول مدير مسؤول عن دائرة البرق الهندي. لذا قام بدراسة مستفيضة حول مشروع مد اسلاك التلغراف من الهند الى الفاو، ومن ثم برا خلال العراق الى البحر المتوسط، وبعد مسح كامل للمنطقة رفع توصيته الى وزير الدولة الهندي شارحا فيها امكان مد خط تلغراف الى الفاو التي اختارها وفضلها على الكويت لتكون المكان المناسب التي تصل عند خطوط البرق. ويبدو ان توصية باترك مقبولة حيث قام الملازم ستيف عام 1863 بعملية المسح من جاسك الى الفاو، وكان الهدف من العملية هو التأكد من امكان مد الاسلاك الى منطقة الفاو، وفعلا تمت الاستعدادات في العام نفسه لمد حزمة الاسلاك(الكابل) الى الفاو، وقد افتتح الاتصال البرقي بين الفاو والهند في نيسان 1864. وعلى الرغم من اكمال هذه العملية فانه لم يكن هناك اتفاق رسمي بين الحكومة البريطانية والحكومة العثمانية الا في ايلول من العام نفسه، حيث وقعت الاتفاقية في 3 ايلول 1864 بين الحكومتين نصت على:

1. السماح لحكومة الهند تأسيس دائرة تلغراف في الفاو ويدير المحطة عدد من الموظفين البريطانيين لا يزيد عددهم على الخمسين.

2. مد كابل تحت مياه البحر من الهند البريطانية الى الفاو مار ببوشهر.
3. مد خط برق فوق الارض من بغداد يتصل بكابل ارضي عند الفاو.
4. اقامة موظفي دائرة لتلغراف البريطاني في بناية ملاصقة ببناية دائرة التلغراف العثماني لتسهيل تبادل البرقيات المستلمة من موظفي كل منهما عبر نافذة بين البنايتين، على ان يتم مناصفة نفقات البناية بين ادارة التلغراف العثماني والبريطاني.

رغم انشاء البريطانيون للتلغراف الا ان الحكومة البريطانية لم تستطع فتح مكتب بريد في الفاو مستقلا عن مكتب دائرة التلغراف، وبدأت الخدمة البريدية في عام 1867 وهو العام الذي اصبح الفاو ميناء لرسو سفن البريد. حيث كانت الحقائب ترسل من مكاتب كراتشي وبوشهر والبصرة الى موظفي محطة التلغراف البريطانية في الفاو وتقوم الاخيرة بتسليمها الى بواخر البريد في اثناء مرورها. وفي نهاية 1893 اقترح الرائد موكلر المفوض في بغداد تعيين موظف من محطة التلغراف البريطانية في الفاو ليكون ممثلا قنصليا لبريطانيا هناك. وقد وافقت الحكومة البريطانية على مقترح موكلر، وفي عام 1896 اصدر موكلر امرا اداريا بتعيين منجافش التابع لقسم التلغراف الهندي البريطاني ليكون ممثلا قنصليا لبريطانيا في الفاو. وقد رفضت السلطات العثمانية هذا الاجراء، وفي 22 ايلول من العام نفسه قدمت الحكومة البريطانية مذكرة الى السلطات العثمانية تؤكد فيها ان في حالة عدم موافقتها، فان السلطات البريطانية سوف ترسل سفينة حربية بريطانية الى الفاو لحماية المصالح البريطانية، وفعلا وبعد شهر من رفع المذكرة ارسلت السلطات البريطانية سفينة لابونج. وفي الوقت نفسه سحبت السلطات البريطانية الطلب الخاص في انشاء فرع قنصلي بريطاني في الفاو بعد ان تلقت تأكيدات من الباب العالي بشأن معالمة السفن الهندية البريطانية معاملة حسنة، الا ان السفينة لابونج بقيت قرب الفاو حتى اذار 1897، وبعدها سحبت حينما حققت الهدف الذي ارسلت من اجله، وفي الوقت نفسه اقيم مركز مراقبة على شكل سفينة شراعية خشبية تحمل ثلاث بنادق بالقرب من الفاو. وفي عام 1912 وصل خبراء بريطانيين من اجل دراسة

الامكانات المصرفية في العراق، واسفرت الزيارة عن تأسيس المصرف الشرقي مقره في لندن وفتح فرع له في بغداد، ومن ثم مجموعة فروع في كل من البصرة، والموصل، والعمارة، وكركوك، وتعزز موقع هذا المصرف الى درجة ان الحكومة العثمانية في العراق بدأت تعتمد عليه وتتعامل معه منذ لحظة تأسيسه.

لم يقتصر النفوذ الاوروبي في العراق على البريطانيين، فسرعان ما ظهر النفوذ الالماني، فقد بدأت المانيا تظهر على المسرح الدولي كقوة استعمارية تسعى بنشاط للحصول على مستعمرات، وبدأ ساستها يطالبون بذلك علنا فقد صرح بيلوف وزير الخارجية الالماني في نهاية القرن التاسع عشر في الرايخشتاغ بقوله: "لقد ذهب الوقت الذي كانت فيه الشعوب الاخرى تقتسم فيما بينها الارض والمياه في حين نكتفي نحن الالمان بالسماء الزرقاء فقط...اننا نطالب لأنفسنا بمكان تحت الشمس". لكن ظهور المانيا على المسرح الاستعماري جاء متأخرا لان الدول الاستعمارية الاخرى كانت قد سبقتها في هذا المجال، واستولت على اكثر الاسواق اهمية واغنى المستعمرات وافضلها. ولهذا تحتم على المانيا ان تفكر لا بالاستيلاء على اراضي شاغرة، بل انتزاع المستعمرات ومناطق النفوذ من الدول الرأسمالية الاخرى. وهكذا كان على المانيا ان تخوض صراعا عنيفا من اجل اقتسام الاسواق والمستعمرات واستطاعت ان تحقق في هذا المجال بعض النجاح منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر، فاستولت على مناطق لا يستهان بها في افريقيا واسيا وفي المحيط الهادي.

لقد كانت الدولة العثمانية وعلى الاخص اقطار المشرق العربي الخاضعة لها تحتل مكان الصدارة في مخططات المانيا التوسعية. فقد كانت هذه الدولة حتى بعد ان اقتطعت الدول الاستعمارية الكثير من اقاليمها وفقدت مناطق واسعة نتيجة للثورات التحررية التي قامت بها كثير من الشعوب الخاضعة لها، لا تزال تمتلك اراضي واسعة جدا في بداية القرن العشرين. وكانت هذه الدولة والاقطار العربية التابعة لها بالذات تمتاز بثروات طبيعية هائلة، وموقعي استراتيجي مهم.

فيما يخص العراق من هذه المخططات الالمانية نجد ان الالمان منذ وقت مبكر تنبهوا الى اهميته لمخططاتهم الاستعمارية، فقد اجهد الجنرال البروسي مولتكة نفسه عندما كان يعمل خبيرا في الجيش العثماني في الفترة 1835-1839 في نشر العديد من المقالات في الصحف الالمانية يدعو فيها الاوساط الحاكمة في برلين الى العمل على ان يستوطن الالمان في منطقة ازمير ووادي الفرات مشيرا الى الثروات الهائلة التي تتمتع بها هذه المناطق. وفي عام 1866 نشر البروفيسور شبرنجر وكان قد قام برحلة طويلة في الدولة العثمانية كتابا بعنوان: "بابل اغنى بلد في الماضي واكثر المناطق ملاءمة للاستيطان في الحاضر". وقد اشاد فيه ببلاد ما بين النهرين واسهب في وصف مناخها وجميع ما تمتاز به من خصائص، وخلص من ذلك كله الى التأكيد على انه لا يوجد في العالم كله منطقة اكثر ملاءمة لاستيطان الالمان. وقد زار الدولة العثمانية العديد من المستشرقين المختصين في تسعينيات القرن التاسع عشر بطلب من مختلف منظمات الاستيطان الالمانية وهدفهم البحث عن اكثر المناطق ملاءمة للاستيطان، وظهرت الدراسات التي قاموا بها على شكل تقارير وكتب تدعو الى التعجيل باستيطان اسيا الصغرى وشمال العراق، واشتهر في هذا المجال كتابا زخاو: (رحلة في سوريا وما ين النهرين)، و(على دجلة والفرات)، وكتاب اوبنهايم(من البحر المتوسط الى الخليج العربي). فقد اكد الكاتبان ان شمال العراق هو اكثر المناطق ملاءمة للاستيطان نظرا لما يتمتع به من ثروات طبيعية كبيرة، ومناخ جيد بحيث ان استيطان الالمان فيه سيؤدي الى ان يسود هناك فردوس حقيقي للمزارع على حد تعبير زخاو. ومن اللافت للنظر ان كلا المؤلفين كانا يريدان من الدولة العثمانية ان تساعد الالمان وتمهد لهم ظروف الاستيطان في تلك المناطق، اذ اعتقدا بأن على الدولة العثمانية ان تعلم القبائل العربية العاصية على العقل والبصيرة وان تعلمها احترام التقدم. وبهذا الشكل اراد المؤلفان التخلص من المقاومة العربية التي لابد ان تشتعل ضد مشاريع الاستيطان الالمانية. ويبدو ان تلك المشاريع لم تكن غائبة عن اذهان المسؤولين العثمانيين ونجد ذلك واضحا بما قاله السلطان عبد الحميد حول مؤلف اوبنهايم: "الكتاب الذي الفه البارون فون اوبنهايم

حول الهلال الخصيب يوضح بشكل جيد الاهمية الاقتصادية لوادي دجلة والفرات، هذا الكتاب الذي قرأت خلاصته، تؤيده التقارير التي ارسلها ولاتنا حول مستقبل هذه المنطقة".

اما جنوب العراق الذي يمتاز بجو حار لا يفضله الالمان فأن لهؤلاء المفكرين خططا اخرى بشأنه، فشبرينجر يدعو الى انشاء مزارع المانية واسعة هناك يستغل فيها اصحابها الالمان عمل العرب اهل المنطقة. وقد طور باول رورباخ وهو احد ابرز ايديولوجي الامبريالية الالمانية هذه الافكار وتحمس للدعوة الى التوسع في انشاء تلك المزارع واستغلال عمل الاهالي في جنوب العراق وقد قدم تصورا كيف ان اهالي جنوب العراق السمر سينسابون الى السهل الواسع لكي يجلبوا للألمان الكثير من الغلال.

ما ان حل القرن العشرين حتى كان الالمان قد حصلوا على اول امتياز لهم في العراق، في عام 1900 منحت الدولة العثمانية امتياز سكة حديد الاناضول الى مجموعة شركات المانية. وكانت هذه القضية من اهم المشكلات العالمية التي شغلت الدول الكبرى ولاسيما بريطانيا والمانيا في مطلع القرن العشرين، وكان منح الامتياز اخيرا الى مجموعة الشركات الالمانية حصيلة عقد كامل من النشاط الاقتصادي الالماني في الشرق الادنى. وقد كانت هناك مشروعات ومقترحات لمد الخطوط الحديدية في الاناضول، ومن الساحل السوري الى بغداد والخليج العربي. ولما كان السلطان عبد الحميد الثاني حريصا على زيادة وارداته من الاقطار البعيدة التابعة له، وربط اجزاء إمبراطورتيه بعضها ببعض استراتيجيا، فقد منح احدى الشركات الالمانية في 4/ تشرين الاول/ 1888 امتيازا لبناء سكة حديد من اسطنبول الى انقرة مستهدفا امرار ذلك الخط من الاناضول الى بغداد. وقد انجز هذا الخط في عام 1892، بعد ذلك بدأت المنافسة للحصول على امتياز جديد، واضطر البريطانيين الى الانسحاب من الميدان بعد ان هدد الالمان بوقف تأييدهم لسياستها في مصر. وفي عام 1893 حصلت الشركة الالمانية على امتياز لإيصال الخط من انقرة الى قيصري، ولكن هذا الخط لم يتم انشاؤه، وكذلك لمد خط اخر يمر من المناطق الجنوبية من اسكي شهر الى قونية، وقد انجز هذا الخط في عام 1896 واصبحت قضية ايصال الخط الى بغداد مشكلة انية. وقد

طرحت مشروعات عديدة، وقدمت طلبات كثيرة من قبل بريطانيا، وفرنسا، وروسيا، ولكن الالمان كانوا في المقدمة بين المتنافسين، ولاسيما بعد الزيارة التي قام بها الامبراطور الالماني وليم الثاني الى اسطنبول، والاراضي المقدسة في فلسطين في تشرين الاول 1898، حيث اعلن خلالها صداقته للمسلمين. واخيرا تخلى الفرنسيون عن معارضتهم ووافقوا على التعاون مع المصالح الالمانية. اما البريطانيون فكانوا مشغولين بأمور اخرى، وكانوا قد تمكنوا من الحفاظ على مصالحهم في الخليج العربي، باتفاقية عقدوها مع شيخ الكويت عام 1899، وافق الشيخ بموجبها على الامتناع عن ضم اية اراضي أو التخلي عنها بدون موافقة بريطانيا. اما روسيا فقد ظلت معارضة بشدة للمشروع الالماني، وشنت الصحافة الروسية انتقادات شديدة ضد السلطان عبد الحميد الثاني. ويعود سبب المعارضة الروسية للمشروع الى انها عدته وسيلة لتقوية النفوذ الالماني في الامبراطورية العثمانية، وانه سيسهل نقل وتصدير منتجات الحبوب من كافة ارجاء الامبراطورية العثمانية الى الاسواق العالمية. وفي نفس الوقت يسهل مهمة نقل المنتجات الصناعية الاوربية وخاصة الصناعات الالمانية الى اسواق الشرق، وهذا يهدد مصالح النبلاء الاقطاعيين الروس، واصحاب المصانع والتجار منهم في الوقت الذي يحول فيه الامبراطورية العثمانية الى مستعمرة المانية. ولم يكن المشروع ضد خطط روسيا القيصرية التوسعية في الشرق الادنى فقط بل جاء تهديدا مباشرا لحدودها الجنوبية كذلك. اما المخاطر العسكرية لهذا المشروع فتكمن في انه سيسهل على الدولة العثمانية نقل جيوشها من كافة ارجاء الامبراطورية الى حدود روسيا الجنوبية، وستقوي تركيا عسكريا وهي التي تحتفظ بمفتاح البحر الاسود. كما سيسهل المشروع نقل الجنود من اوروبا الى حدود القفقاس.

ولكن الالمان تمكنوا مع ذلك من الحصول على امتياز مبدئي لمد خط قونية الى بغداد في 25 تشرين الثاني 1899. لقد وجد العثمانيون من مشروع خط سكة حديد بغداد فرصة جيدة لتنمية الموارد الاقتصادية للإمبراطورية العثمانية: "فبفضل خط حديد بغداد سيعود طريق اوروبا-الهند الى سابق نشاطه، فاذا اوصلنا هذا الخط بسوريا وبيروت

والاسكندرية وحيفا نكون قد اوجدنا طريقا تجاريا جديدا. ولن يقتصر هذا الطريق على در الفوائد الاقتصادية العظيمة لإمبراطورتينا، بل سيتعداها الى الناحية العسكرية فيدعم جيشنا هناك. واذا تمكنا من انشاء شبكة ري مدروسة للاستفادة من النهرين التوأمين: دجلة والفرات، لجعلنا هذه الاراضي القاحلة جنة من جنات الدنيا كما كانت قبل الاف السنين". بهذه الكلمات يعبر السلطان عبد الحميد الثاني عن اهمية هذه السكة. ويبدو ان السلطان عبد الحميد كان يريد ربط سكة حديد بغداد، بخط حديد الحجاز. من جانب اخر طالب هوجو كروته وهو احد مفكري الامبريالية الالمانية عام 1902 بان يعترف بالمناطق التي تمتد فيها سكة حديد الاناضول وكذلك سكة حديد بغداد، عندما يتم انشاؤها كمناطق نفوذ لألمانيا، وعد استيطان الالمان على نطاق واسع في الدولة العثمانية عاملا من عوامل ترسيخ النفوذ الالماني في الشرق الادنى، ولهذا نجده ينصح بالتعجيل بتأليف جمعية خاصة تعمل على استيطان الالمان فيما بين النهرين. وكان على هذه الجمعية حسب رأيه ان ترتبط بسكة حديد بغداد. وقد طرح كروته عددا من المطالب عد تنفيذها شرطا رئيسا للاستيطان هي:

1. اعفاء المستوطنين من الضرائب.
2. منح المستوطنين الحق في استيراد المواد التي يحتاجونها بدون ضرائب جمركية.
3. انشاء خطوط ثانوية تتفرع من الخط الرئيس لسكة حديد بغداد باتجاه البحر المتوسط.

واولى كروته اهتماما خاصا لقضية حماية المستوطنات التي سيقيمها الالمان فطالب بإنشاء سلسلة كاملة من المباني الصغيرة المجهزة بحاميات، وبذلك يكون المستوطنون الالمان في الدولة العثمانية قد تحولوا الى دولة داخل دولة، على حد تعبيره. ولم يغفل كروته الاعتبارات السياسية والاستراتيجية حيث نجده يلح على الحكومة الالمانية بان تسعى من اجل ان تحصل على محطة للفحم في الكويت تستخدمها لتجهيز الاسطول الحربي الالماني بالوقود، وطالب ايضا بمد خط تلغراف يربط الخط التلغرافي لسكة حديد

بغداد بخط تلغراف الشرق الاقصى الالماني. وهكذا نجد انفسنا امام خطة متكاملة ومدروسة بعناية تهدف لا الى استيطان اغنى مناطق الدولة العثمانية، وانما تدعو صراحة لاقتسام تلك الدولة وضم اهم مناطقها واثراها ونعني ما بين النهرين الى المانيا، وهذا هو السر في اصرار كروته على ان يظل المستوطنون الالمان محتفظين بجنسيتهم الالمانية، وفي ربطه الاستيطان فيما بين النهرين بإنشاء سكة حديد بغداد، واقامة قاعدة عسكرية بحرية في الكويت. وقد ادخل مفكر الماني اخر هو سيغموند شنايدر بعض التعديلات على خطة كروته هذه حيث اقترح ان يشتمل النص النهائي لامتياز سكة حديد على بند خاص يقضي بمنح شركة الاناضول مناطق واسعة نسبيا بمحاذاة خط سكة حديد بغداد المقبل لكي يستوطنها الالمان على ان يؤلفوا من بينهم حرسا للسكك الحديد. وهكذا ضرب شنايدر عصفورين بحجر واحد فهو باقتراحه هذه يضمن حصول الالمان على اراضي واسعة في اسيا الصغرى والعراق من جهة وانشاء قوة مسلحة في الدولة العثمانية من جهة اخرى. وقد دعت منظمة الاتحاد الجرماني عام 1904 الى ضرورة امتلاك ما بين النهرين، وان تأخذ الحكومة الالمانية على عاتقها الادارة المباشرة في وادي دجلة والفرات.

من جانب اخر حقق امتياز سكة حديد بغداد لألمانيا فوائد اقتصادية كبيرة، ففي 1903 حصلت المانيا على امتياز في انشاء ميناءاً نهريا في بغداد وتسير سفنا في نهري دجلة والفرات، وكذلك الحق في التنقيب عن النفط، وقد بدأ بالفعل التنقيب في الموصل عام 1904.

2. التنافس الاستعماري على نهب الاثار العراقية:

مع اوائل القرن التاسع عشر تزايد اهتمام الدول الاوروبية بالشرق، وسرعان ما تحول هذا الاهتمام الى تنقيب عشوائي عن الاثار رافق ذلك نهب الكثير من الاثار العراقية من قبل قناصل وممثلي الدول الاوروبية. وقد اثارت الرغبة في الكشف عن اثار العراق حماسة العام الاوروبي وبوجه خاص بريطانيا، حتى ان شركة الهند الشرقية المعروفة في لندن طلبت من ممثليها في البصرة ان يرسلوا الى بريطانيا الاجر المختوم بالكتابة المسمارية الذي بدأ

يتسرب الى اوروبا في اواخر القرن الثامن عشر. ونشط العمل اكثر بإرسال مقيما لها في بغداد وهو كلوديوس ريج الذي شغل فضلا عن ذلك وظيفة القنصل البريطاني العام في بغداد عام 1807، وقد بقي في منصبه الى ان توفي وهو في سن مبكرة عام 1821 بمرض الكوليرا. وقد امتاز ريج بموهبة في تعلم اللغات الشرقية، فكان يجيد العربية والتركية، وزار بقايا بابل عام 1811، ورسم مخططات لها كما اجرى بعض التنقيبات فيها، وزار نينوى وجمع منها الالواح المسمارية. وكان مسكنه في بغداد مركزا وملتقى للرحالة والباحثين من امثال بكنغهام وبلينو وكير بورتر. ومن مشاهير في هذه الفترة روبرت مينان(1827-1828) الذي حفر في بابل ووجد اسطوانة من الطين منقوشة بالخط المسماري، وكذلك وليم انزورث وبيلي فريزر في ثلاثينيات القرن التاسع عشر.

خلال منتصف القرن التاسع عشر تزايد التنقيب عن الاثار العراقية، ولكن هذا التنقيب كان بعيدا عن الاساليب العلمية، وكان اقرب ما يكون عن النبش لاستخراج الاثار الكبيرة كالمنحوتات. وقد اهملت الاثار الصغيرة القابلة للتلف مثل الواح الطين المسمارية، وكان الحفارون لا يستطيعون ان يميزوا دائما الجدران المبنية باللبن عن انقاض التراب والطين فأزالوا معالم الابنية القديمة المشيدة بهذه المادة، وتلفت مجاميع مهمة من الاثار بسبب اهمال تغليفها ووسائل النقل. وخلاصة القول كان هم اولئك المنقبين محصورا بالدرجة الاولى في استخراج التماثيل والالواح الحجرية الكبيرة المنحوتة وتزيين المتاحف الشهيرة في اوروبا بها.

بدأ التنقيب المكثف عن الاثار العراقية عام 1842-1843 في العواصم الاشورية في منطقة الموصل، وكان معظم المنقبين من قناصل الدول الاجنبية، واشتد التنافس ما بين الفرنسيين والانكليز، ففي اواخر عام 1842 شرع القنصل الفرنسي بول اميل بوتا بفحص خرائب نينوى من فوق تل قوينجق، وبينما كان ينقب فيه اخبره رجل من اهل خورسباد بانه يستطيع ان يجد اثارا اكثر وافضل في خورسباد، فنقل عمله الى هناك في مطلع عام 1843، وسرعان ما تحققت اخبار ذلك الرجل، اذ بدأ بوتا يستظهر المنحوتات الاشورية الشهيرة

وواصل عمله الى عام 1844 وشحن اول غنائمه الى فرنسا. وظهر على المسرح في هذه الفترة رجل انكليزي يدعى هنري لايارد، وقد شجعه نجاح بوتا في خورسباد على ان ينقب في نمرود عام 1845 وفي نينوى ففاز بكنوز اثارية شحنها الى لندن في عام 1847، فكانت اولى الاثار الاشورية التي حاز عليها المتحف البريطاني. وقد اثار نجاح لايارد اهتماما وحماسا في بريطانيا مكناه من متابعة نشاطه الآثاري بالحفر في نينوى ولاسيما القسم المعروف منها بتل قوينجق، كما واصل العمل في نمرود من عامي 1849 الى 1851 وتحرى ايضا عدة تلول اثرية في المنطقة. وبعد ان اعتزل العمل خلفه في النشاط الآثاري الانكليزي هنري راولنصون(1810-1895)، وخلف بوتا الفرنسي فكتور بلاس. وقام في هذه الفترة تنافس مشين بين الفرنسين والبريطانيين، اما بلاس فقد واصل التحريات في خورسباد، في حين تابع راولنصون ومساعده هرمز رسام التنقيبات في نينوى فظفرا بمجاميع نفيسة من المنحوتات الاشورية. ولم يقتصر التنافس الانكليزي-الفرنسي في نهب الاثار على مناطق شمال العراق، بل امتد الى جنوبي العراق لاسيما في التلول الاثرية المشهورة باسم تلو في الناصرية، حيث سمع القنصل الفرنسي في البصرة اميل دي سارزك بما يحتوي عليه ذلك الموقع من كنوز اثرية، وسرعان ما شرع في نهبه عام 1877-1878 بدون اذن رسمي من الدولة العثمانية، وغنم كميات كبيرة من الاثار السومرية القيمة من بينهما المنحوتات والكتابات، وقد باعها الى متحف اللوفر بمبلغ 13000 فرانك. وفي اثناء غياب دي سارزك اسرع هرمز رسام في نهب المنطقة الاثارية لصالح عن المتحف البريطاني.

دخلت الولايات المتحدة الامريكية الى ميدان التنافس عن الاثار عام 1877 عندما ارسلت جامعة بنسلفانيا بعثة اثارية برئاسة بيترز استاذ اللغة العبرية في تلك الجامعة، ومساعده هلبرشت للتنقيب في منطقة نفر بالقرب من عفك واستخرجت منها عشرات الالوف من الالواح الطينية المسمارية المهمة. ولعل اخر التنقيبات التي سبقت الحرب العالمية الاولى تنقيبات فالتر اندرية الالماني في اشور(1904-1914)، وزميله روبرت كولديفاي(1899-1917) في بابل.

3. البعثات التبشيرية:

وجدت البعثات التبشيرية طريقها الى العراق منذ بداية القرن السابع عشر، ففي عام 1622 قدم الاباء الكوبشيين(نسبة الى القلنسوة التي يرتديها رهبانهم) الى بغداد، ثم قدم الكرمليون(نسبة الى جبل الكرمل في فلسطين) الى البصرة عام 1623 للعمل من اجل نشر الديانة المسيحية بين الصابئة. ومنذ ذلك الوقت توالى النشاط التبشيري في العراق، فاستقر خلال القرن الثامن عشر، وطرأ عليه تطور نوعي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

اعتمد المبشرون عدة اساليب في عملهم التبشيري مثل فتح الكنائس والجمعيات الخيرية والمستشفيات والمدارس والكليات والمكتبات وغيرها، الا انهم ركزوا وبشكل ملفت للنظر على المؤسسات التعليمية، لأنها تمكن المبشرين من التغلغل في المجتمعات وغرس افكارهم في اذهـان الاطفال وغير المتعلمين، ومن ثم العمل على تنصير المسلمين واليهود.

- الارساليات الفرنسية:

كانت فرنسا في مقدمة الدول الاوربية التي استغلت حاجة الدولة العثمانية لمستلزمات حروبها وفتوحاتها من سلاح وتجهيزات حربية، لتقيم علاقات جيدة مع الدولة العثمانية. وقد استفادت فرنسا بالتحديد من الاموال الطائلة التي جنتها من مبيعاتها للسلاح لهذه الامبراطورية الفتية خلال القرن السادس عشر، الامر الذي مهد لها محاولة تنفيذ ما كانت تسعى لتحقيقه في ايجاد طريق تجاري بديل لطريق راس الرجاء الصالح، الذي يعد طويلا نسبيا، اذ كانت ومنذ ايام الحروب الصليبية تعد اسيا الصغرى وبلاد الشام والعراق من المنافذ التجارية القصيرة والتي توصلها الى الهند والصين. فكانت البداية عندما استغلت بوادر ظهور عجز في مالية الدولة العثمانية جراء ما استنزفته حروبها المتواصلة، فعرضت فرنسا عليها بعث النشاط التجاري في عدد من الموانئ والمدن في ولايتها، وقد حصلت فرنسا في ضوء ذلك على عدد من المعاهدات مع الدولة العثمانية سميت بالامتيازات، وكان

اولها معاهدة السلام والصداقة والتجارة عام 1535، التي وقعها السلطان العثماني سليمان القانوني الذي كان بحاجة الى حليف يساعده في الدفاع عن ملكه الذي يهدده ملك اسبانيا شارل الخامس. تلتها معاهدة عام 1569، اباحت بموجبها الدولة العثمانية حرية التنقل للرعايا الفرنسيين بين الموانئ العثمانية وممارسة التجارة فيها، وضمنت لهم الحصانة في منازلهم، واعفائهم من الخضوع للقانون المدني وقانون العقوبات العثماني، فضلا عن غيرها من الامتيازات. وباستمرار حروب العثمانيين مع ايران من عام 1576-1588 والتي استنفذت موجود خزانة الدولة العثمانية، فإنها اضطرت لتوقيع معاهدة جديدة مع فرنسا عام 1581 والتي تم تجديدها عام 1597، وكان الطابع العام لامتيازات هاتين المعاهدتين يتعلق بالأمور التجارية وحقوق الرعايا الفرنسيين، الامر الذي سمح لها بالتغلغل والتمركز في المناطق العربية والتي من خلالها مدت طريقها التجاري باتجاه الهند. كما منحت الدولة العثمانية امتيازا جديدا للفرنسيين بضوء معاهدة عام 1604 التي بموجبها اصبح المبشرين الفرنسيين تحت حماية الدولة العثمانية، حيث سمحت لهم بالإقامة والتنقل دون أي مضايقة وعلى ان ينالوا حسن المعاملة والمساعدة اكراما لملك فرنسا وتعبيرا عن المودة نحوه. اعقب ذلك عقد اتفاقية جديدة عام 1740، التي اكدت حماية فرنسا، وليس الدولة العثمانية لرجال الدين الفرنسيين المنتشرين على الاراضي العثمانية. وفي ضوء تلك الامتيازات تحقق لفرنسا وجود فاعل في ولايات الدولة العثمانية، ومن بينها ولايات العراق، ومن خلال ذلك مارست نشاطاتها التجارية والسياسية والدينية، وقد اهتمت فرنسا كثيرا بموضوع نشر الكثلكة بين مسيحي العراق، وان ذلك سيمكنها من نشر اللغة والثقافة الفرنسية الامر الذي سيوجد لها شريحة اجتماعية من اهل البلاد تدين لها بالولاء الطائفي والديني والثقافي تخدم مصالحها الاقتصادية والسياسية. وكان الفاتيكان قد اسس لأجل ذلك مجمع نشر الايمان عام 1622، هدفه نشر المذهب الكاثوليكي في العراق تحديدا، حيث انطلقت منه عدة ارساليات تبشيرية تحمل اسماء مختلفة وهي الاوغسطينيون، والكبوشيون، والكرمليون، والدومنيكان.

لم يكن عمل الارساليات التبشيرية المسيحية على العموم سهلا، لاسيما في بداياته وذلك بسبب حالات الرفض والتقاطع في الافكار والمفاهيم بين حملة الافكار الدينية الجديدة وبين المواطنين المسيحيين من اتباع المذهب الارثوذكسي الذي يمثل قيم الكنيسة الشرقية.

كانت ولاية البصرة اولى مناطق العراق التي شهدت بدايات النشاطات الفرنسية، وكان ذلك على يد المبشرين الفرنسيين من الاباء الكرمليين الذين وفدوا اليها عام 1623. وقد حضي الرهبان الفرنسيين باحترام ولاة البصرة، وكان مجمع نشر الايمان يتعمد ارسال مبشرين يمتهنون الطب الى جانب واجباتهم الدينية لتكون وسيلة للتقرب من الاهالي، وذلك لانعدام هكذا خدمات في بداية فترة الحكم العثماني لعموم العراق. وفضلا عن نشاطاتهم الدينية فقد مارس الرهبان الفرنسيين في البصرة الواجبات التي اوكلت اليهم لمتابعة امور التجارة، وامور ادارة القنصلية الفرنسية في البصرة في بداية عملها. وسبب قلة ثم انحسار الانشطة الفرنسية عموما في ولاية البصرة، فان نشاطات الاباء الكرملين في مجال التربية والتعليم كانت تقريبا مفقودة طيلة فترة عملهم في البصرة، ولم يظهر هكذا نشاط الا مع بداية القرن العشرين حيث اسسوا في عام 1902 اول مدرستين ابتدائيتين في البصرة، وفي مركز مدينة العمارة، وكانت الدراسة فيهما مختلطة، وفي عام 1906 اسسوا مدرسة ابتدائية للبنات اشرفت عليها راهبات فرنسيات، وهي مدرسة راهبات التقدمة، والثانية عام 1907 وهي مدرسة اللاتين للبنات.

اما في ولاية بغداد فقد شهدت قدوم اولى الارساليات التبشيرية الكاثوليكية عام 1622، وكانوا من الاباء الكبوشيون، وكانوا جميعهم من اصل ايطالي، واستمر تواجدهم الى عام 1708، وقاموا ببناء دير وكنيسة عام 1628 الحقت بها مدرسة ابتدائية لأبناء طائفتي السريان والارمن الكاثوليك، فضلا عن نشاطاتهم الكنسية والتربوية، كما مارس الاباء الكبوشيين الطب. وقد مهد الاباء الكبوشيون الطريق لإرساليات الاباء الكرملين الفرنسيين في بغداد والموصل، حيث قدموا هذه الولايات بعد انتهاء عمل الاباء الكبوشيين. وكان اول

راهب كرملي فرنسي اقام وعمل في المجال الديني التبشيري في بغداد هو الاب عمانوئيل بابيه في عام 1728. ويعد من اهم الاباء الكرملين الذين رسخوا المذهب الكاثوليكي في بغداد. وقد فتح هذا الاب مدرسة ابتدائية للبنين عام 1737. وقد اصبح بابيه فيما بعد اول قنصل فرنسي في بغداد عام 1742، فضلا عن عمله الاساس كرئيس لإرسالية الكرملين التبشيرية، وعلى اثر ذلك وبسبب اتساع نشاطه الكنسي، فقد امر الفاتيكان في العام نفسه ترقية بابيه اذ اصبح او اسقف كاثوليكي في ولاية بغداد، واستمر في عمله القنصلي والكنسي الى وفاته عام 1773. وقد شهدت الفترة اللاحقة لوفاة هذا الاسقف تذبذبا في نشاط الارساليات الفرنسية الى بغداد الى عام 1825. وقد اسست الارسالية الكرملية مدرسة للبنات في بغداد عام 1881 سميت المدرسة المركزية، اشرفت عليها مجموعة من راهبات التقدمة الدومنيكان. كما قام الاباء الكرملين بتوسيع عمل ونشاطات المدرسة الخاصة بالأولاد والتي سبق وان تأسست عام 1737 ليصبح اسمها مدرسة القديس يوسف. وقد اصبحت فيما بعد من اجمل وارقى المدارس في بغداد ضمت المراحل الدراسية الثلاث الابتدائية، والرشدية، والاعدادية، ومدة الدراسة فيها ثمان سنوات. وكانت تدرس فيها اللغة العربية وآدابها، فضلا عن اللغة الفرنسية، والادب، والعلوم طبقا لمناهج المدارس الفرنسية، فضلا عن دروس دينية كانت توضع بإشراف الفاتيكان. وفي عام 1905 افتتح الاباء الكرملين مدرسة ثانوية بغداد وكان يدرس فيها خمسة مبشرين فرنسيين. وفي عام 1888 اسس الاباء الكرملين ديرا جديدا، التحق به عدد من طلاب علم اللاهوت والدراسات الدينية، والذين كانوا يدرسون اللغات مثل العربية والفرنسية وادبهما، وقد تخرج من هذا الدير مجموعة من رجال الدين الكرملين الذين رفدوا حركة الادب والثقافة في بغداد بالعديد من الاعمال الادبية ومن اشهرهم الاب انستاس الكرملي.

اما في الموصل فأن اول تواجد للآباء الكرملين الكاثوليك منذ بدايات القرن الثامن عشر، ولم يكن بينهم أي راهب فرنسي الاصل، وقد اضطروا الى غلق ارساليتهم في مدينة الموصل عام 1724 بضغط من الكنائس الأرثوذكسية. وقد استقر بعد ذلك الاباء

الدومنيكان منذ عام 1750، وكانت ارساليتهم تضم اثنين من الاباء من اصل ايطالي، وكانا يقدمان الخدمات الطبية فضلا عن عملهم الكنسي. وقد استمر عمل الاباء الدومنيكان من الايطاليين الى عام 1856 اذ تم استبدالهم باخرين فرنسيين. وقد رأس اول ارسالية دومنيكية اعضائها من الرهبان الفرنسيين الاب بيسون، وهو اول فرنسي يقيم في مدينة الموصل. وقد افتتحت الارسالية الدومنيكانية عام 1854 مدرسة الاباء الدومنيكان الابتدائية المختلطة في مدينة الموصل، وكانت تدرس فيها مناهج الدراسة الفرنسية. وفي العام نفسه شيد الاباء الدومنيكان مدرستين في ضواحي الموصل، فضلا عن اثنتين في كركوك. وفي عام 1873 تم افتتاح مدرسة اخوات المحبة في الموصل، التي اخذت على عاتقها تعليم وتدريب البنات المسيحيات والمسلمات على فنون الخياطة والتطريز. وفي مجال الطباعة اسس الدومنيكان عام 1858 مطبعة حجرية باسم مطبعة الدومنيكان. كما اسهم الاباء الدومنيكان في اصدار اول مجلة في العراق هي مجلة اكليل الورد عام 1902. كما اسهموا كذلك في ادخال الات التصوير الفوتوغرافي والآلات الموسيقية الغربية لأول مرة الى مدينة الموصل.

ـ الارساليات التبشيرية الامريكية:

لقد بدأ التبشير الامريكي في الدولة العثمانية للمرة الاولى وبشكل شعبي من خلال تشكيل جماعة تبشيرية في كلية وليامز في عام 1806، التي قام افرادها بمناشدة ولاية ماساشوستس المستقلة ليتم دعمها ومساندتها في مجال التبشير. وفعلا تم التعاون الذي نجم عنه تأسيس مجلس المندوبين الامريكان للبعثات التبشيرية الخارجية بجهود جماعة من الكنيسة البروتستانتية المشيخية المستقلة في بوسطن عام 1810. وباشر المجلس اعماله التبشيرية في الدولة العثمانية بأن ارسل في عام 1818 مبشرين امريكيين هما بلينتي فسك، وليفي بارسونس لتنفيذ اعمال تبشيرية في الدولة العثمانية تمهيدا لفتح محطات تبشيرية ثابتة، تلك المحطات التي تأخر فتحها الى عام 1820 حين قدم الى ازمير مبشران امريكيان

واقاما فيها محطة تبشيرية امريكية. ثم اتسع نشاط المبشرين الامريكان في الدولة العثمانية بقسميها الاسيوي والاوربي.

استهل المبشرون الامريكان عملهم التبشيري في العراق في ولاية الموصل في البداية بعمل شبه استطلاعي حيث اوفد مجلس المندوبين المشار اليه سابقا المبشر جوستن بركنز(1805–1865) بصحبة الدكتور اساهيل جرانت الى اورميه غرب ايران عام 1833 لفتح محطة هناك تلك المحطة التي امتد نشاطها الى جبال كردستان والموصل لاحقا. وزار جرانت وبركنز الموصل، ولما عاد جرانت الى الولايات المتحدة اوصى مجلس المندوبين بفتح ارسالية في الموصل. وقد لاقت توصية جرانت اذنا صاغية اذ تمت الموافقة عليها في 18 كانون الثاني 1841، فأرسل المجلس اثنين من المبشرين مع زوجتيهما الى الموصل لإقامة ارسالية تبشيرية هناك وهم كولبي ميتشل وابيل هينسدل، وبعد وصولهما الى الموصل باشرا بتأسيس الارسالية الا ان ميتشل وزوجته توفيا، وبقي جرانت مع هينسدل وزوجته ينظمون مدرسة الارسالية لليعاقبة في الموصل، وبعد اكمال تنظيم المدرسة فتحها جرانت في تشرين الاول 1842، وكان فيها آنذاك 20 تلميذا، ويبدو ان الهدف كان تحويل هؤلاء الى المذهب البروتستانتي، وفي تشرين الثاني انظم الى جرانت مبشر امريكي قدم من الموصل ومعه ثمانية بغال محملة بكتب دينية مطبوعة باللغة السريانية وكتب مدرسية منهجية وتجهيزات مدرسية. وبعد استقرار امر المدرسة رحل جرانت وهينسدل الى اشيثا وهي قرية نسطورية في منطقة هكاري لإقامة محطة تبشيرية امريكية هناك تاركين زوجة هينسدل تدير مدرسة الموصل. ونتيجة للنقص الحاصل في الارسالية بسبب موت ميتشل وزوجته التحق القس توماس لاوري وزوجته بإرسالية الموصل، الا ان هذا لم يحل المشكلة لان الموت بدأ يحصد ارواح مبشري الارسالية فتوفي هينسدل في الموصل بعد عودته من اشيثا لإصابته بمرض التيفوئيد، وتوفيت زوجة لاوري في 16 كانون الاول 1843، وتوفي جرانت في الموصل في 24 نيسان 1844 بسبب اصابته بمرض التيفوس الذي نقله اللاجئون النساطرة الى بيته، ونتيجة لكثرة الوفيات في صفوف مبشري الارسالية قررت الاخيرة تعليق عملها في الموصل.

اما المحاولة الثانية فتمت مبكرا في عام 1835 وتمثلت في ارسال مجلس الكنيسة الاسقفية للإرساليات التبشيرية في الولايات المتحدة للقس ساوثكيت الى الشرق الاوسط لدراسة امكانية التبشير في بلاد فارس والعراق والاناضول. وبالفعل توجه ساوثكيت الى الشرق عام 1836 وبعد ان قضى هناك سنتين اوصى مجلس الكنيسة الاسقفية بفتح ارسالية لطائفة اليعاقبة، ثم قام ساوثكيت باستضافة مطران السريان الأرثوذكس بهنام لدى الارسالية الامريكية في اسطنبول بضعة اشهر ساعده في تلك المدة على دراسة اللاهوت وتلقينه التعاليم الدينية الخاصة، وبعد عودة بهنام الى الموصل شجعه ساوثكيت على فتح المدارس والحصول على الكتب المفيدة باللغة السريانية وعهد الى القس ميخائيل جمالا، احد القسس السريان الارثوذكس، تمثيل الارسالية في الموصل بجمع شمل الانجيليين في الموصل، وفتح المدرسة التبشيرية الامريكية. وبالفعل فتح ميخائيل المدرسة ولكن بعد عدة شهور اصبحت المدرسة بحاجة الى التمويل الذي وعدت به ميخائيل الارسالية في تركيا، ليتمكن من مواصلة نشاطه في تعليم الطلاب، الا انه لم يتسلم أي اموال من اسطنبول فاصبح وجها لوجه امام ازمة مالية، وبسبب عدم ايفاء الارسالية بوعودها قرر ساوثكيت الانسحاب من الموصل حينها اغلق ميخائيل المدرسة وقطع علاقته مع الارسالية الاسقفية وتوجه هو وميخائيل نقار الى المبشر بركنز وحثاه على فتح ارسالية للأثوريين في الموصل عام 1849، فتم فتح الارسالية باسم الارسالية الاثورية في نفس العام، الا ان هذه الارسالية لم تفتح أي مدرسة. ولصعوبة اقامة ارسالية تبشيرية دائمة في الموصل اتُبع طريقة ارسال مبشرين الى الموصل دون البقاء فيها لمدة طويلة لكثرة الامراض والاوبئة، فجاء الموصل المبشر الامريكي الدكتور حسقيل وزوجته وشيدا مدرسة فيها وتركاها في عهدة احد القساوسة البروتستانت وغادرا الموصل عام 1864. كما قام المبشرون في الموصل بشراء اراضي واسعة في الموصل ليشيدوا عليها دورا مريحة ولإقامة مستشفيات، الا ان قلة التبرعات في الولايات المتحدة بسبب الحرب الاهلية(1861-1865)، ولعدم الحصول على الموافقة اللازمة نتيجة قلة اهتمام الوزراء الامريكان بالإرساليات والمدارس خلال المدة(1860-1880) كانت من العوامل التي ادت الى تغيير المبشرين لخططهم، لذلك

قرروا اقامة المشاريع في ماردين، وبعد سنوات اصبحت مدرسة ماردين العالية للبنين والبنات تزود مدارس الموصل بالمعلمين والمعلمات. ثم جعل مجلس المندوبين الامريكي الموصل محطة تبشيرية ثانوية تابعة الى ماردين لقطع الطريق على الارساليات التبشيرية الاخرى التي كانت ترغب بالعمل في الموصل. ونتيجة لعدم جدوى المحطة قرر المجلس التخلي عن الموصل عام 1891 للمجلس المشيخي. ثم تخلت الكنيسة المشيخية عن الموصل عام 1898، واصبحت الموصل بعهدة الارسالية العربية التركية، الا ان هذه الارسالية لم تبدأ عملها في الموصل الا في عام 1900، عندما فتحت مدرستان واحدة للبنين، واخرى للبنات، كما انشأت مكتبة لبيع الكتب الدينية، واستقدمت معلمين من ماردين لخدمة الكنيسة والمدارس.

كانت اخر البعثات التبشيرية الامريكية هي الارسالية العربية، وهي ارسالية بروتستانتية ذات اهداف تبشيرية في منطقة الخليج العربي والجزيرة العربية. لقد ولدت فكرة الارسالية في مطلع ثمانينيات القرن التاسع عشر، واصبحت حقيقة واقعة في اب 1889 بجهود كل من جيمس كانتين، وفيليب فيلبس، وصموئيل زويمر، طلاب المعهد اللاهوتي للكنيسة المصلحة الهولندية في نيوبرونزويك في ولاية نيوجرسي، ود. جون لانسنج استاذ اللغتين العبرية والعربية في ذلك المعهد، واستقر رأيهم في خريف 1891 على تأسيس أول محطة للإرسالية في البصرة، والتي اصبحت لسنوات عدة مراكز وقاعدة لعملياتهم في منطقة الخليج العربي.

لم يكن اختيار البصرة قاعدة ومحطة اولى لعمليات الارسالية امرا عفويا بل كان امرا مدروسا ومخططا نظرا لما يتمتع به موقع المدينة من اهمية استراتيجية في المنطقة كلها، فهي اكبر واهم ميناء يسيطر على رأس الشمالي للخليج العربي، وقد تسهل مهمة النفاذ الى عمق الجزيرة العربية، هذا الى جانب ان الحكومة الامريكية سبق وان انشأت قنصلية هناك استطاع المبشرون ان يعيشوا تحت حمايتها. كما رحبت بهم البعثات التبشيرية الاخرى القريبة من البصرة والتابعة للجمعية الكنسية للبعثات التبشيرية في بغداد، ووعدتهم الجمعية الانجيلية البريطانية التعاون معه ايضا. من جانب اخر رأى اعضاء الارسالية ان البصرة مدينة واسعة

ومجتمعها مختلط الى حد كبير حتى دار في خلدهم بانهم سوف لن يكونوا محط انظار السلطات المحلية، فجاء التأكيد على ان تكون البصرة رسميا أول مقر للإرسالية العربية الامريكية بعد الانتقال من بيروت.

لم يلبث ان اصطدم اعضاء الارسالية بالسلطات العثمانية كانت واعية لما يقوم به المبشرون الامريكان، عندما نفت احد المهتدين الى بغداد، ولم يسمح له بالعودة، كما منعت منتسبي الارسالية من القيام بجولات تبشيرية، وامرت بغلق المكتبة، ومصادرة الكتب ووضعت مسكن الارسالية تحت رقابة الشرطة. رغم ذلك تمكن اعضاء الارسالية من فتح محطة في مدينتي العمارة عام 1895، والناصرية 1897، ثم تم توحيدهما في محطة واحد عام 1910.

ويبدو ان اعضاء الارسالية وصلوا البصرة في الوقت الذي تحول فيه تسامح واهمال الحكومة العثمانية لمشروع الارسالية الى معارضة، لذا كان عليهم بذل كل الجهد لتثبيت اقدامهم اولا وقبل كل شيء، فقرروا توجيه الاهتمام ليس بالجانب التبشيري الديني فقط، بل الاهتمام بالميدان الطبي والتعليمي. فقد انشأوا مدرسة صغيرة عام 1905 ولكن السلطات العثمانية اغلقتها بعد مدة قصيرة، لعدم وجود ترخيص مسبق بها.

لقد واجه العمل التبشيري صعوبات ادت الى فشل الامريكان في نشر مذهبهم البروتستانتي، نظرا: لمقاومة المسلمين والطوائف المسيحية الاخرى، ومقاومة عنيفة من السلطات العثمانية المحلية.

لقد شعر اعضاء الارسالية بشيء من الطمأنينة بعد نجاح الاتحاديين في الاستيلاء على الحكم عام 1908، حيث رفع الحضر على الكثير من الكتب الدينية المطبوعة، وازيلت الكثير من القيود التي فرضت على العمل والسفر، ومن بين ذلك سمحت السلطات العثمانية المحلية للسيد مورديك بافتتاح مدرسة في البصرة، بعد جهد كبير للحصول على ترخيص بذلك فبدأت المدرسة بثلاثين تلميذا، ومن الجدير بالذكر ان النشاط التعليمي للإرسالية الامريكية في البصرة بدأ فعليا في عام 1912 بفضل جهود المبشر الامريكي جون فان ايس الذي وصل الى البصرة عام 1903، وقام بعدة جولات في مدن وقرى جنوب العراق، وفي

عام 1910 خلال زيارته وزوجته الى اسطنبول، نجح في الحصول على ارادة سلطانية (فرمان) منحت الارسالية بموجبه حق ادارة مدارس للبنين والبنات، وبعد عودته وزوجته من اجازتهما في عام 1911 عهدت اليهما الشؤون الثقافية في البصرة فشرعا بتأسيس مدرسة للذكور واخرى للإناث هناك.

في نيسان 1912 افتتحت مدرسة الرجاء العالي الاسم الرسمي لمدرسة البنين، ثم الاسم الرسمي ايضا لمدرسة البنات في كانون الاول من العام نفسه، واقيمت المدرستان بالقرب من احدهما الاخرى في مدينة البصرة. وعند افتتاح الفصل الصيفي لعام 1913 كان عدد المسجلين في مدرسة يربو على الثمانين تلميذا، اما مدرسة البنات فضمت تسع وعشرين تلميذة، ويقرب من نصف العدد في كلتا المدرستين كان من المسلمين. وقد سمحت الحكومة العثمانية لأعضاء الارسالية بتدريس الانجيل للتلاميذ في المدرستين، من المسلمين والمسيحيين على حد سواء، وكانت اللغة العربية لغة التدريس، وادخلت اللغة التركية ايضا ضمن منهج الدروس الذي كان يتضمن اللغة الانكليزية والجغرافية والرياضة وعلم الصحة فضلا الى اعمال الخياطة والتطريز للبنات.

ـ الحركة الفكرية وتنامي الوعي القومي:

ان البدايات المتواضعة لعملية تحديث العراق التي وضحت معالمها في اواخر القرن التاسع عشر كانت لها اثار مهمة على مجمل الحركة الفكرية في القطر ولم تكن هذه الحركة مقطوعة باي حال من الاحوال عن التطور الفكري الذي كانت ملامحه تتبين في ارجاء الوطن العربي الاخرى، فاستخدام الطباعة في اقطار عربية كمصر والشام مكن الكتاب العربي المطبوع في تلك الاقطار من الوصول إلى ايدي القراء العراقيين بيسر لم يسبق له مثيل من قبل، وهكذا اصبح ثمة جمهور يتتبع بشغف ما كانت تتجه مطابع مصر والشام

وغيرهما من كتب عيون التراث العربي سواء كانت تلك الكتب دواوين لشعراء متقدمين أو اعمال رفيعة لأدباء افذاذ ومؤرخين نابعين، ففتح ذلك بابا واسعا للمقارنة بين ماضي الامة الزاهر، وماهي عليه في عهدهم من تخلف وتأخير. وزادت الصحافة التي شهدت انتشارا كبيرا ابان الحقبة نفسها من حدة ذلك الشعور إذ سهلت اطلاع القراء في العراق على مقالات مختلفة لمفكرين بارزين رواد، امثال الطهطاوي والكواكبي تناولوا فيها قضايا عصرهم الملحة كالحقوق القومية والتعلم والاصلاح الاجتماعي، كما ساهمت الصحافة أيضاً في تواصل القراء بما يجري في وطنهم العربي الكبير من احداث تنمي تحسسهم بمشاكل امتهم وقضاياها المصيرية، ويمكن القول ان الصحافة اخرجت قراءها من النطاق المحلي إلى الاطار القومي، فأصبحت انباء اشتداد الهجمة الاستعمارية على اجزاء من الوطن العربي تثير الحماس القومي لدى اجزاء اخرى منه، ومن ناحية اخرى فان الصحافة مكنت العراقيين انفسهم من الاسهام الفعال في تطوير الفكر القومي وانضاجه وبخاصة في بدايات القرن العشرين، بما كانوا يرفدون به الصحف العربية فضلا عن العراقية، من مقالات وقصائد عديدة تقدم طروحات فكرية متنوعة وعن طريق تلك الصحف عرف القراء العرب اعمال ادباء عراقيين نابهين، امثال معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي واحمد الشاوي وعبد المحسن الكاظمي كان لكل منهم مواقف قومية واضحة، وبعد ان كانت المجالس الادبية التي اعتيد عقدها في بيوت المثقفين قاصرة في معظمها على المطارحات الادبية والاخوانيات، تحولت مهمتها في هذه الحقبة لتغدو مجالس فكرية اكثر سعة تناقش فيها القضايا العامة والمواقف المختلفة.

نتيجة تنامي الوعي القومي لدى الفئات المثقفة من العراقيين الذين كانت تضطرهم اعمالهم أو دراستهم للإقامة في العاصمة العثمانية، فقد انخرط بعضهم في تنظيمات جمعية (الاتحاد والترقي) التي كانت تدعو إلى اجراء اصلاح دستوري تنال بموجبه شعوب الدولة العثمانية حقوقها القومية، ولذلك فقد عمت البهجة وروح التفاؤل اوساط عراقية واسعة عندما وصلتها انباء نجاح اعضاء هذه الجمعية في اجبار السلطان عبد الحميد

الثاني(1876-1909) على اعادة العمل بالدستور في 24 تموز 1908 الذي كان معلقا منذ عام 1876،بما يكفله من حريات وحقوق، وتم فتح فروع للجمعية في بعض المدن العراقية وسط جو من التفاؤل والامل. ويشير السفير البريطاني في الدولة العثمانية جيرالد لوثر ان الجماهير في بغداد استقبلت اعادة العمل بالدستور بحماسة، في حين لم يلق الدستور ترحيبا كبيرا في الموصل.

ولكن سرعان ما تكشفت الحقيقية المرة للجميع، اذ لم يكن قد مضى على تولي الاتحاديين للحكم بضعة اشهر الا وقد اسفروا عن نواياهم السياسية التي بدأوا في تنفيذها في الولايات العربية من حيث سياسة التتريك ودمج العناصر غير التركية، وقد عجلت هذه الاجراءات في تقويض كيان الدولة العثمانية، واخذت جمعية الاتحاد والترقي باتخاذ اجراءات اكثر تعسفا واستبدادا مما كان قبل اعلان الدستور، فاحدث هذا التبدل المفاجئ ردود افعال حادة وسريعة في الولايات العربية. ومما زاد من نفور العرب من الاتحاديين هو ما يسمى بقانون انتخاب مجلس المبعوثان. ففي 24 تموز 1908 تقرر الدعوة الى القيام بانتخابات لتشكيل مجلس للمبعوثان(البرلمان العثماني)، وبدأت الاستعدادات لإجرائها، غير ان الذين يعرفون اصول الانتخابات كانوا قليلين جدا في اسطنبول، اذ ان عدد اعضاء مجلس المبعوثان يجب ان يمثل شخص واحد عن كل خمسين الف من التبعية العثمانية، والانتخاب على الاقتراع السري، وقد صمم الاتحاديون على ان تكون اكثرية المبعوثان من الترك اولا، ومن المنتسبين لجمعية الاتحاد والترقي ثانيا، وقد عمدوا الى ترشيح مبعوثين من الترك في مختلف الولايات العربية مخالفين بذلك الدستور، فقد فاز منهم 15 نائبا تركيا يمثلوا الولايات العربية.

في العراق تدخل الاتحاديون في شؤونه مستغلين قانون الانتخابات العثمانية الذي كان يحصر حق النيابة بسكنة المناطق الانتخابية واهاليها، بل كان يسوغ لأي شخص مستكملا لشروط الانتخاب ان يرشح نفسه عن أي منطقة شاء، وبهذه الطريقة فاز حمزة بك قائمقام القرنة السابق وهو تركي من الاتحاديين عن لواء المنتفك، بعد ان فرضه المتصرف

فريد بك وانذر بالشر من ينتخب غير قائمة الاتحاديين، واضطر المعارضون الى الانسحاب، وقد خصصوا للعراق 17 نائبا منهم عراقيون، وبذلك حرمت العشائر العراقية من حق المشاركة بالانتخابات متعللين بجهلهم لأعدادهم ومواطن سكناهم. على الرغم من المآخذ التي كانت تؤخذ على مجلس المبعوثان الا انه يعد منبرا يلتقي فيه النواب من مختلف الولايات العثمانية، وقد تأثر النواب العراقيون بنواب القوميات الاخرى من المتطرفين وغيرهم، هذا مما ساعد على نمو الوعي الفكر لديهم، ولقائهم مع النواب العرب قد ولد لديهم الكثير من التقارب في وجهات النظر، وتنسيق العمل السياسي.

لقد ادت سياسة الاتحاديين الى رد فعل كبير في العراق تجسد في اتجاهين:

1. رفض الدستور ومساندة السلطان عبد الحميد الثاني.
2. العمل لتأكيد الحقوق القومية للعرب.

بالنسبة للاتجاه الاول برز اثناء قيام الثورة المضادة ضد اعضاء جمعية الاتحاد والترقي في اسطنبول، وسرعان ما تشكلت هناك الجمعية المحمدية، وتركزت دعوتها على وجوب الوقوف بوجه الدستور، لكونه مخالف للشريعة الاسلامية، على حد اعتقاد زعماء الجمعية، وقد انتشرت انباء الثورة المضادة الى جميع الولايات العثمانية، ومن ضمنها الموصل التي تشكل فرع للجمعية المحمدية فيها في اواخر عام 1908، واتخذ من المدرسة الاحمدية في منطقة باب السراي مقرا له، ولقيت الجمعية رواجا في اوساط الناس، وبعض علماء الدين الذين كانوا يميلون للسلطان عبد الحميد الثاني، فانتموا اليها دون ان يعلموا شيئا عن طبيعتها أو عن هوية مؤسسيها.

اما الاتجاه الاخر فقد يجلى عندما نبذ الاعضاء العرب عضويتهم في الجمعية الاتحاد والترقي، وانطلقوا في مجالات العمل السياسي العلني والسري على حد سواء بهدف تحقيق امالهم القومية والتصدي لأية محاولة لطمس هويتهم العربية. وايد العرب القوميون من العراق والاحزاب المناوئة للاتحاديين ومنها الحزب الحر المعتدل الذي تأسس بإستنبول لمناوئة جمعية الاتحاد والترقي، فشكلوا فروعا له في البصرة وبغداد والموصل، ومارست هذه الفروع نشاطات بارزة بهدف السعي وراء كل ما ينهض بالأمة العربية، كما اسس اخرون فروعا لحزب

الحرية والائتلاف العثماني المعادي للاتحاديين والمنادي بمبدأ اللامركزية في حكم الولايات، فكان في كل من بغداد والبصرة فرع ينادي باتباع سياسة لامركزية تمنح العرب حقوقهم القومية كاملة وكانت السمة العامة لهذه الفروع انها كانت تتبع سياسة شبه مستقلة عن قيادتها الرسمية في الدولة العثمانية، وانها كانت تنسق عملها غالبا مع الفروع الاخرى في العراق والوطن العربي، اكثر من تنسيقها مع قياداتها تلك وانها كانت تتبع نهجا قوميا عربيا خاصا بأحوال الامة العربية في تلك المرحلة. واضافة إلى ما تقدم فقد اسس العرب القوميون في العراق احزابا وجمعيات قومية مستقلة تماما لعبت ادوارا مختلفة في التصدي لسياسة التتريك التي قامت بها جمعية الاتحاد والترقي، ففي البصرة الفت المعارضة للاتحاديين في تشرين الثاني 1911 حزب الحرية والائتلاف، وقد ايد معظم البصريين هذا الحزب، وعقد اول اجتماع للحزب في دار السيد طالب النقيب حضره حوالي 100 شخص من وجهائها، وكانت اهداف الحزب لا تتعد المطالبة بالمساواة بين العرب والاتراك وضرورة الاصلاح في الامبراطورية العثمانية وانهاء سياسة الاضطهاد. وفي بغداد اسس نفر من الزعماء العرب جمعية (المشورة) بهدف ضرب نشاط الاتحاديين والمطالبة بالحكم الذاتي للعرب، كما قام عدد من الشباب العربي المثقف بتأسيس جمعية عربية باسم (النادي الوطني العلمي) عام 1913 زاد عدد اعضائه على مائتي عضو، وكان هدفه تطبيق الحكم الذاتي للعرب ضمن نظام اللامركزية وذلك بالتعاون مع الاحزاب والجمعيات القومية المشابهة له في الهدف. وفي العام نفسه انشأ العرب القوميون في البصرة يتزعمهم السيد طالب النقيب جمعية عربية قومية عرفت بجمعية البصرة الاصلاحية وكانت من اقوى التنظيمات القومية العربية واكثرها نشاطا في العراق. وكانت هذه الجمعية على غرار حزب اللامركزية في القاهرة وابرز اهداف الجمعية:

1. ان يكون العراق ارضا عثمانية تحت راية الهلال.
2. يعين الوالي من الحكومة المركزية على ان يكون عراقيا مسلما بعاداته وتقاليد العشائر المحلية، وان يعين مدير المالية، والقاضي، والمتصرف، ومدير الجمارك والبريد بعد استشارة المجلس العموم وان يكونوا ملمين باللغة العربية.

3. العربية هي اللغة الرسمية في جميع الدوائر في الولاية.
4. يخدم الضباط العرب في بلادهم.
5. تدريس جميع العلوم في المدارس باللغة العربية، مع العناية بالعلوم الدينية واللغة التركية.

وخلال العام نفسه عقدت الجالية العربية في باريس مؤتمرا للمطالبة بحقوق العرب، وعرف بالمؤتمر العربي في باريس، وفي العراق ارسل السيد طالب النقيب الى باريس برقية يؤيد فيها عقد المؤتمر، كما ارسل جماعة من بغداد برقية يطلبون فيها ان يمثل العراق في المؤتمر توفيق السويدي وكان آنذاك يدرس في باريس، وقد وقع البرقية مزاحم الباججي، ونعمان الاعظمي، وشاكر غضيبة، وعبد الرحمن البناء، وعبد اللطيف المدلل، ومحي الدين الكيلاني، وبهجت زينل، ويوسف ضياء، ومحمد سعيد الراوي واخرون. وابرقت من بغداد برقيات اخرى كثيرة في تأييد المؤتمر، دفع اصحابها اجورها غير انها لم ترسل. ولكن رغم ذلك حضر المؤتمر اثنان من العراق احدهما توفيق السويدي.

كان لظهور عزيز علي المصري وهو ضابط في الجيش العثماني اثر كبير في تزايد الحركة القومية فقد اسس في 28 تشرين الاول 1913 جمعية عربية سرية عرفت باسم جمعية العهد، واخذ يجتذب اليها شبان العرب من ضابط وطلاب، وكان الضباط العراقيون يؤلفون الاغلبية في هذه الجمعية كنوري سعيد، وياسين الهاشمي، وجميل المدفعي، ومولود مخلص، وعلي جودت الايوبي، وطه الهاشمي وغيرهم. واصبح منزل عزيز علي المصري في اسطنبول يعج بالحركة، اذ كان يلتقي فيه الشبان العرب لاسيما الضباط منهم.

وفي بغداد قام قوميون اخرون بأنشاء جمعية (العلم السرية) عام 1914 تضم جمهرة من المدنيين المتحمسين للعمل القومي وكانت تنبع في عملها اسلوبا يتسم بالثورية ويهدف إلى تأسيس دولة عربية مستقلة.

- قائمة المصادر:

-ابراهيم خليل احمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني 1516-1916، (الموصل: مطبعة جامعة الموصل، 1986).

-ابراهيم خليل احمد وخليل علي مراد، ايران وتركيا: دراسة في التاريخ الحديث والمعاصر، (الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر، 1992).

-ادموند تيلور، سقوط الاسر الحاكمة، ترجمة: علي عزت الانصاري، مراجعة: محمد انيس، (القاهرة: مؤسسة سجل العرب، 1965).

-اسماعيل احمد ياغي، "سياسة مدحت باشا والي العراق العثماني تجاه الخليج العربي 1286-1289هـ/ 1869-1872"، بحث ضمن ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية بعنوان: الصلات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية، 19-21 نوفمبر 1988.

____________، الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، (الرياض: مكتبة العكيبان، 1995).

-جمال محمود حجر، القوى الكبرى والشرق الاوسط في القرنين التاسع عشر والعشرين، (الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1989).

-جميل موسى النجار، الادارة العثمانية في ولاية بغداد من عهد مدحت باشا الى نهاية الحكم العثماني1869-1917، (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1991).

-حسين مؤنس، الشرق الاسلامي في العصر الحديث، (القاهرة: مطبعة الحجازي، 1938).

-حيدر جاسم الرويعي، "نشاط الاباء الكرملين في العراق حتى الحرب العالمية الاولى-مجلة القادسية للعلوم الانسانية-المجلد-8العدد1--2لسنة 2005".

-خليل علي مراد، مختارات من كتاب الموصل وكركوك في الوثائق العثمانية، (السليمانية: مطبعة شفان، 2005).

-روبير مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: بشير السباعي، (القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، 1993)، ج2.

-ستيفن هيمسلي لونكريك، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر خياط، (بغداد: منشورات مكتبة اليقظة العربية، 1985).

-السلطان عبد الحميد الثاني، مذكراتي السياسية، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1979).

-سهيلة الريماوي، "تطور مفهوم اللامركزية عند العرب العثمانيين 1900-1918"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد: 13-14، لسنة: 1983.

-سيار كوكب علي الجميل، تكوين العرب الحديث، (الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر، 1991).

______________، زعماء وافندية: الباشوات العثمانيون والنهضويون العرب-البنية التاريخية للعراق الحديث الموصل انموذجا، (عمان: الاهلية للنشر والتوزيع، 1999).

-طالب جاسم محمد الغريب، "الصراع البريطاني العثماني على الفاو 1861-1905"، مجلة دراسات البصرة، المجلد: 4، لسنة: 2007.

______________، "الوعي السياسي للأسر البصرية في العهد العثماني: دراسة تاريخية"، مجلة آداب البصرة، العدد: 49، لسنة: 2009.

-عامر بلو اسماعيل، "التعليم التبشيري الامريكي في الموصل منذ اواخر العهد العثماني حتى عام 1932"، مجلة التربية والعلم، جامعة الموصل، المجلد: 16، العدد: 63، لسنة: 2009.

-عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2004)، ج7-8.

-عباس ياسر الزيدي، "القوى الاستعمارية والخليج العربي 1600-1914"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 12، لسنة: 1980.

-عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داوود باشا الى نهاية حكم مدحت باشا، (القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1968).

______________، تاريخ الشعوب الاسلامية، (القاهرة: دار الفكر العربي، بلا.ت).

-علاء موسى كاظم نورس وعماد عبد السلام رؤوف، "عهد الاحتلال العثماني الاخير"، بحث ضمن كتاب العراق في التاريخ، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1983).

-علي عجيل منهل، "انتفاضة عام 1832 في العراق ضد العثمانيين"، مجلة المورد، المجلد: 7، العدد: 2، لسنة: 1978.

-علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، (بيروت: دار الراشد، 2005)، ج2-3.

-فائق حمدي طهبوب، "الحملة العثمانية على شرقي الجزيرة العربية عام 1871 ودورها في تشكيل القوى

السياسية في المنطقة"، بحث ضمن ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية بعنوان: الصلات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية، 19-21 نوفمبر 1988.

-فؤاد صالح شهاب، "بواكير الفكر القومي العربي 1870-1914"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 46، لسنة: 1994.

-قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، (بيروت: الدار العرية للعلوم، 2004).

-لمى عبد العزيز مصطفى، "محمد اينجه بيرقدار رائد الاصلاحات العثمانية في الموصل 1834-1843"، مجلة ابحاث كلية التربية الاساسية، جامعة الموصل، المجلد: 12، العدد: 3، لسنة 2013.

-ليلى ياسين الامير، "النشاط التعليمي للإرسالية الامريكية في البصرة 1912-1958"، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة البصرة، العدد: 1، لسنة: 2005.

-ماهر حامد جاسم محمد النورة، "الجمعية المحمدية وفرعها في الموصل عام 1908-1909"، مجلة ابحاث كلية التربية الاساسية، جامعة الموصل، المجلد: 9، العدد: 1، لسنة: 2009.

-محمد اسعد طلس، تاريخ الامة العربية: عصر الانبعاث، (بيروت: دار الاندلس، 1963).

-محمد بوذينة، احداث العالم في القرن العشرين، (تونس: مطبعة الشركة الجديدة للطباعة والصحافة والنشر، بلا.ت)، ج1.

-محمد جبار الجمال، بنية العراق الحديثة تأثيرها الفكري السياسي 1869-1914، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2010).

______________، "تحديث العراق وسياسة بريطانيا الكولونيالية"، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة-بغداد، العدد: 34، لسنة: 2012.

-محمد عبد الله عودة وابراهيم ياسين الخطيب، تاريخ العرب الحديث، (عمان: الاهلية للنشر والتوزيع، 1989).

-محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، تحقيق: احسان حقي، (بيروت: دار النفائس، 1981).

-محمد عصفور سلمان، "العثمانيون الجدد: افكارهم الاصلاحية ودور نامق كمال في بلورتها"، مجلة ديالى للبحوث الانسانية، العدد: 49، لسنة: 2011.

-محمود شكري الالوسي، "مدينة الحلة في اخبار بغداد وما جاورها"، تحقيق: صباح محمود الحلي، مجلة المورد، المجلد: 4، العدد: 1، لسنة: 1975.

-محمود عباد محمد الجبوري، "دور الدبلوماسيين الغربيين في نهب اثار العراق وتخريب معالمه الحضارية"، مجلة كركوك للدراسات الانسانية، المجلد: 7، العدد: 3، لسنة: 2012.

-محمود عبد الواحد محمود، "التحولات التاريخية واعادة التحقيب: بغداد 1869-1914"، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة-بغداد، العدد: 32، لسنة: 2012.

-مصطفى عبد القادر النجار، "البصرة اول قاعدة بحرية للتوسع العثماني في الخليج العربي 1546-1869"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد: 3، لسنة: 1986.

-نجدة فتحي صفوة، العراق في مذكرات الدبلوماسيين الاجانب، (بغداد: مطبعة منير، 1984).

-نوري عبد البخيت، "روسيا ومشروع سكة حديد بغداد"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 15، لسنة: 1980.

-هاشم صالح التكريتي، "التغلغل الالماني في المشرق العربي قبيل الحرب العالمية الاولى"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 27، لسنة: 1986.

-وداد جابر غازي، "جمعية الاتحاد والترقي والمعارضة العربية في مجلس المبعوثان(البرلمان العثماني)"، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة-بغداد، العدد: 34، لسنة: 2012.

-وليد خالد يوسف، "نشاطات الارساليات التبشيرية الكاثوليكية الفرنسية في العراق في ظل الحكم العثماني(1534-1918)"، مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية، المجلد: 15، العدد: 5، لسنة: 2008.

-وليم بيري فوك، "احوال بغداد في القرن التاسع عشر"، مجلة سومر، المجلد: 16، الجزء: 1-2، لسنة: 1960.

-ياسين عبد الكريم، "القوات المسلحة في العراق بين 1831-1914"، بحث ضمن موسوعة: الجيش والسلاح، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1988)، ج5.

الفصل الثامن

الأوضاع العامة
في العراق في العهد العثماني

ـ الحياة الاقتصادية.

1. الزراعة:

اخذ العراق يعاني من تدهور أوضاعه الاقتصادية أبان العهد العثماني، حيث تعاقب على احتلاله مرات عديدة الإيرانيون والعثمانيون. وأستمر ساحة للصراع بينهما ما يقرب من أربعة قرون. ولقد امتدت السيطرة العثمانية الأولى طوال سنوات (1534-1623) وكانت الثانية منذ عام 1638م وحتى الاحتلال البريطاني.

لما كان نظام الارض والزراعة بالنسبة للدولة العثمانية يهدف الى تزويد القوة العسكرية، وموظفيها المدنيين بموارد العيش، فأنها قامت بعد احتلالها للعراق بعملية مسح شامل للأراضي الزراعية، غير أنها لم تغير من طريقة توزيع الأرض ولم يكن هناك جديد في نظام الضرائب الزراعية أو في العلاقات بين المسيطرين على الأرض والعاملين فيها.

تعد الدولة في العصر العثماني صاحبة جميع الأراضي الأميرية تتصرف بها تصرفاً مطلقاً وكانت تقوم بأقطاع قسم منها إلى عدد من الموظفين والجنود مقابل خدماتهم للدولة، وإن لم يكن هذا الأقطاع يعني تملكهم للأرض وإنما تفويضهم حق جباية الضرائب الزراعية. وإلى جانب ذلك منحت السلطة العثمانية كبار الموظفين وبعض الحكام والجنود والأقطاعيين أراضي زراعية بصورة إقطاعيات تباين إيرادها باختلاف درجة صاحبها. ويتمثل حق السلطة على صاحب الأقطاع بأن يكون دوماً مستعداً للمشاركة في الحرب وتهيئة ما عليه من مستلزمات بشأنها وهي أعداد وتجهيز عدد من الخيالة المحاربين يتناسب وإيراد اقطاعه بنسبة فارس واحد لكل خمسة آلاف آقجة. وبذلك نجد أنهم كانوا يشكلون عنصراً عسكرياً مهماً في الدولة. وتجدر الإشارة إلى أن الإقطاعيات الصغيرة كانت تمنح لعامة

الجند، وأحياناً يضاف أليهم رؤساء العشائر الصغيرة وصغار الموظفين كبديل عن رواتبهم في حين خصصت الإقطاعيات المتوسطة لكبار ضباط الجيش وبعض كبار الموظفين. وكان هناك نوع آخر من الأراضي، هي الأراضي المملوكة أو بعبارة أخرى الملكيات الفردية وقد تركت لأصحابها كأملاك خاصة غير أنه كان عليهم دفع الضرائب عنها، وهي تعتبر قليلة في العراق قياساً إلى أراضي الأقطاع والوقف وبخاصة وأن أراضي الأوقاف كانت في زيادة مستمرة بسبب استمرار عملية الوقف من قبل مختلف الأطراف ولذلك كانت واسعة الامتداد ومتراكمة. والصنف الآخر من الأراضي هو الأرض المشاعة التي لم يكن يملكها فرد وإنما يتصرف بها سكان القرية بمجموعها، ويشمل ذلك المراعي بشكل خاص. وكثيراً ما عمدت السلطة العثمانية إلى انتزاعها من الفلاحين وإدخالها في ملكيتها.

إن تقسيم الأرض بالشكل الذي أشرنا أليه، يقترن به الوضع الذي كان عليه الفلاح آنذاك، فيوضح عمل الفلاحين الرئيس من جهة ونسبة ملكيتهم للأرض من جهة أخرى فهم بين ملاكين ونسبتهم ضئيلة جداً وبين فلاحين مزارعين وهم الأكثرية الذين كان عليهم تزويد جامعي الضرائب بما فرض على الأرض التي يعملون عليها. وهدف الدولة إبقاء الفلاح في الأرض والعمل على زراعتها لضمان الإنتاج الزراعي من جهة، وحصولها أو من يمثلها على الضرائب المفروضة على الأرض وإنتاجها من جهة أخرى، ولهذا عمدت إلى جعل مهنة الفلاحة وراثية في الأسرة.

ومن أنماط التعامل الزراعي التي شهدها العراق لاسيما في عهد المماليك، هي المغارسة: ويقصد بها منح شخص ارضه الزراعية الى احد الفلاحين لغرسها بالأشجار، ويكون الاثنان شريكان بالأرض والاشجار بنسبة معلومة بينهما. وكان شيوعها بشكل واسع أبان العقود الأخيرة من حكم المماليك (1750-1831م)، ويمكن تحديدها بتولي سليمان باشا الكبير السلطة عام 1780م وهو أحد أبرز ولاتهم. وتوضح عقود المغارسة بين المماليك والفلاحين، ان مساحة الأراضي الزراعية التي أستحوذ عليها المماليك كانت واسعة، إلى جانب الإيراد الذي تحقق عنها وتوظيفه ثانية في المجالات التجارية والعقارية مما شكل

ثروة كبيرة للأسر المملوكية. ومن عقود المغارسة التي وصلتنا ثلاثة عقود مغارسة بين سعيد بيك بن سليمان باشا الكبير والي بغداد، اثناء حكم ابيه وبوكالة محمد سعيد بيك، وبعض الفلاحين، على غرس مقاطعات من ارض الهندية قرب الحلة مؤرخة في عام 1798. ومن انماط التعامل الزراعي ايضا الضمان أو الالتزام، ووصلنا عقد بالضمان لاحد الملتزمين لقرى في الحلة مؤرخ في عام 1798 ايضا. وهناك عقود المزارعة وتتم بين الوالي في بغداد واحدى العشائر، كما يتضح من عقد مزارعة مع عشيرة البو هيكل على زراعة منطقة محددة من ارض مقاطعة الهندية يعود للعام نفسه.

لقد انعكست الأوضاع السيئة على مجمل عملية الإنتاج الزراعي، اذ لم تستغل الأرض استغلالا جيداً ليس فقط بسبب انعدام الحافز لدى الفلاح باعتباره في واقع الأمر أجيراً لها، وإنما كان لاضطراب الأوضاع السياسية وفقدان الأمن تأثيره في تقليص مساحات الأرض المزروعة، فكثيراً ما أدت الحملات العسكرية التي يوجهها الولاة لإخضاع العشائر إلى أحراق المحاصيل وإتلافها وترك الأرض بوراً دونما زراعة، إلى جانب ما كانت تحدثه الكوارث الطبيعية: كالفيضانات والأوبئة والآفات، حيث تهلك الحرث والنسل. ولعل من ابرز الامثلة على تلك الفيضانات الذي تعرضت له بغداد، ذلك الذي حدث عام 1831 الذي ادى الى تحطم جزء كبير من سور المدينة الكائن في الجانب الغربي، وقد تسرب الماء الى اسسه فاوهنه، وتدفق الماء الى حي اليهود وجرف 200 من بيوته. وقد عاصر الرحالة ولستيد الطاعون والطوفان الذين ضربا بغداد عام 1831 وما احدثه الطاعون من موت ودمار وخراب، ومحاولة القنصلية البريطانية من الحد من انتشاره، ووفاة الالاف يوميا، ثم تلا الطاعون فيضان نهر دجلة الذي ادى الى غرق اجزاء كثيرة من المدينة وتهدم اكثر منازلها. ووصف الرحالة الامريكي فوك عام 1874 الفيضان الذي اصاب بغداد، فقد طغى نهر دجلة وظل في فيضانه مدة شهرين، وأصبحت بغداد مهددة بالغرق، وانكسر احد السدود يبعد 10 اميال شمالي بغداد، فتدفقت منه المياه، واكتسحت امامها بقوة لا تقاوم، فأضرت بالحبوب المزروعة اعظم ضرر، وفي يوم واحد صيرت السهل الفسيح المحيط بالبلدة

بحيرة هائلة، واصبحت بغداد جزيرة، ليس فيها من وسائل النقل والمواصلات سوى الزوارق، وقد حال دون دخول الماء الى بغداد سد عريض محيط بسور المدينة، وقد سبب الفيضان جزعا عظيما مماثلا للفيضان الذي وقع عام 1831، اذ دمر الطوفان سبعة الاف بيت سقطت جميعها في يوم واحد. ويستمر فوك بالقول ان من المؤكد ان كثيرا من الامراض سوف تعقب هذا الفيضان.

لم تكن الفيضانات هي الوحيدة التي تهدد الحياة الزراعية فهناك ايضا الاوبئة والكوارث الطبيعية، ففي الموصل ضرب الطاعون المدينة عام 1643، ثم في عام 1650، ثم اطبق بصورة خطيرة عام 1673، وحل ايضا عام 1702. وقد ادت هذه العوامل إلى ترك الكثير من الفلاحين لقراهم، وهو ما يفسر لنا ظاهرة أنتشار القرى الخربة والمناطق القاحلة في أجزاء عديدة من البلاد. كما تعرضت مدن اخرى للعوامل الطبيعة نفسها، ومنها مدينة اربيل التي تعرضت الى موجات من القحط والغلاء وانتشار الاوبئة والامراض من حين لأخر.

لقد تنوعت المحاصيل الزراعية تبعاً للتوزيع الجغرافي، ويأتي في مقدمتها تلك التي تشكل المواد الأساسية في الغذاء اليومي: كالرز والشعير والقمح إلى جانب، العدس والحمص والسمسم والماش والباقلاء والبصل. كما انتشرت زراعة القطن الذي أمتاز بطول تيلته، واشتهرت منطقة الأهوار بزراعة قصب السكر، في حين انتشرت زراعة الحبوب في ناحية القرنة، فيما سادت زراعة الفواكه في المنطقة المعتدلة، لاسيما منطقة الزبير، وكذلك عرفت المنطقة الشمالية بزراعة التبغ، بالإضافة إلى تلك المزروعات الرئيسة، قامت زراعة الأشجار المثمرة، وبخاصة منها شجر التوت والعنب والتمور والحمضيات والفواكه المختلفة الأخرى. وكانت الخضروات هي الأخرى تتوزع زراعتها في مناطق مختلفة. وكانت الزراعة في العهد العثماني على صنفين هما: المزروعات الشتوية وتشكل ٪70 من مساحة الارض الزراعية، والمزروعات الصيفية وتشكل ٪30 من مساحة الارض.

لقد بقيت المحاصيل الزراعية أسيرة بناء اقتصادي واجتماعي متخلف يقترن بالأدوات الزراعية ووسائل الري من جهة، وانعدام الاتصال والتبادل بين المدن من جهة أخرى. فلم تكن طرق المواصلات متوافرة ليس بين القرى والمدن حسب، وإنما بين القرى وبعضها وأن كثيراً منها عسيرة وصعبة أيام الشتاء مما جعل قرى عديدة في شبه عزلة كاملة في ذلك الموسم. أما أداة الفلاح ووسائل ريه لأرضه، فأن المحراث الخشبي الذي لا يشق الأرض إلا سطحياً كان هو الوسيلة الوحيدة المستخدمة آنذاك، ويقوم الري هو الآخر على وسائل بدائية في مجملها عبارة عن قنوات وترع متفرعة من النهر على طول مجاري الأنهر والجداول بعضها كانت مملوكة من قبل الدولة. وفي مواسم انخفاض مناسيب المياه كانت تستخدم الدواليب والنواعير، وكذلك في المناطق التي تكون فيها القنوات أعلى من مستوى النهر. وقد بذلت بعض الجهود من قبل عدد من الولاة لتطهير أنهر رئيسة مثل الدجيل أيام ولاية مرتضى باشا لبغداد سنة 1661م، وكذلك نهر شريف أو نهر عطا الجويني القديم الذي يأخذ مياهه من الفرات إلى النجف حيث أعيد تطهيره في عهد والي بغداد أبراهيم باشا(1681-1683م) فازدهرت ضفافه ثانية بالزراعة. كما تم في عهد الوالي سليمان باشا الكبير (1780-1802م) حفر نهر الهندية من جنوب المسيب، وجرى أحياء بعض الأنهار المندرسة في عهد داوود باشا (1816-1831م)، كنهر عيسى الواقع غرب بغداد بظاهر الكرخ، ونهر النيل الذي كان قد حفره الحجاج بن يوسف الثقفي، وقد أستخدم داوود باشا في كريه خمسة آلاف عامل أتموا حفر مصدره من الفرات عام 1826م. كما أهتم باستخدام آلات الري وتم أنجاز مشروع لرفع المياه من نهر دجلة.

إن السوق الخارجية وبخاصة الأوربية في القرن التاسع عشر صارت تحدد نوع وكمية الإنتاج الزراعي في العراق، وتبعاً لذلك فأن منتجات زراعية وحيوانية كثيرة وجدت لها طريقاً للتصدير إلى الخارج. إلا أن التطور الزراعي في العراق ظل كسيحاً ولم يتناسب مع قدراته الزراعية، ومع بعض المحاولات الإصلاحية، وخاصة تلك التي بادر بها الوالي المصلح مدحت باشا (1869-1872م) لتحديث الزراعة وتوسيع

الأراضي المزروعة عن طريق إعفاء الآلات الزراعية الحديثة من الرسوم الجمركية، وتوزيع البذور المحسنة على الفلاحين، ولكن الذي حدث هو أن زيادة في أنتاج غلة معينة على حساب نقص في غلة أخرى وذلك استجابة للسوق الخارجية، إضافة إلى ذلك استمرار تردي الأوضاع الزراعية في القطر بسبب مشاكل الأرض وكثرة المحن والمنازعات والحروب والكوارث الطبيعية والآفات الزراعية والأوبئة الفتاكة وإهمال معظم الولاة لمشاريع الري.

2. الحرف والصناعات:

في مطالع العصر الحديث كان للتطورات السياسية والاقتصادية التي شهدها المشرق العربي تأثيرها الكبير في الإنهاك الاقتصادي العام الذي أصاب العراق. فإلى جانب عدم الاستقرار السياسي الذي حفلت به الحقبة العثمانية، كانت الصناعة الأوربية قد أخذت تنشط بالشكل الذي خلق منافسة متزايدة من جانب البضائع الأوربية للصناعات المحلية. وبالطبع لم تعمل الدولة العثمانية على حمايتها بالرسوم الجمركية المرتفعة، بل بالعكس سهلت للأوربيين سبل التجارة وقدمت لهم أخفض تعريفة جمركية. يضاف إلى ذلك أن الحروب والكوارث الطبيعية التي كان يتعرض لها العراق، قد ساهمت في انقراض عائلات حرفية ماهرة. ولم يكن من النادر أن تنقرض حرفة قاصرة على أسرة واحدة وكثيراً ما كان يحدث ان تنهار حرفة كبيرة ومتخصصة بفعل كارثة طبيعية، وثمة عامل آخر ذو طابع سياسي وإداري يتعلق بالحكام أنفسهم وهو انعدام التشجيع الإيجابي للصناعة وركود الأحوال الاقتصادية العامة، ويدعمه عسف وابتزاز مستمر.

رغم تراجع الصناعة وتقهقرها، فأن مراكز المدن الرئيسة لم تفقد أهميتها الصناعية، وبخاصة في ميدان صناعة المنسوجات الصوفية والقطنية والحريرية، وقد أمتدحها الرحالة عند زيارتهم للعراق وأشادوا بمهارة صناعها، وكان يقوم على صناعة نسيج الصوف عدد من المتاجر المرتبطة بها: كالصباغة والتطريز وصناعة الخيوط المذهبة والمفضضة.

كانت النساء تقوم بعملية الغزل في بيوتات ويجري النسيج في بيوت صغيرة وبأنوال يدوية. والصناعات في مجملها كانت تعتمد أساساً على المواد الخام المحلية. وتجدر الإشارة إلى أن مدينة الموصل تبوأت مرتبة متميزة مقارنة بالمدن الأخرى في مجال الصناعات النسيجية على اختلاف أنواعها وقد جمعت بين الكفاية المحلية والتصدير الخارجي في آن واحد ويعزى ذلك إلى ظهور طبقة تجارية قوية منذ القرن الثامن عشر كان لها تأثيرها في وضع بدايات لحركة صناعية نشطة أخذت بالتصاعد بتحول المدينة إلى مركز تجاري مهم يصل بين تجارة البحر المتوسط وبين الخليج العربي والمحيط الهندي وهو ما ترتب عليه من أتساع نطاق مجال العمل الجماعي ليفي بمطالب التجارة فأنشئت عدة مصانع بسيطة لإنتاج مختلف السلع. ولقد لفت أنتباه الرحالة البريطاني آيفز الذي زار الموصل سنة 1758م أن المدينة تنتج كميات جيدة من الموسلين وهو قماش متين ناعم جداً ويصدر إلى الأسواق الأوربية فتجارته رابحة كانت آنذاك، ويشير الرحالة تخيرا الى ازدهار صناعة النسيج فيها، اذ تنتج الكثير من القطن والحرير الذي يحاك ويصنع كله في المدينة التي ينتشر فيها اكثر من 4000 مغزل لنسج الصوف والكتان والقطن والحرير. وفي عانة كانت هناك ورش للغزل اذ يقوم الرجال بغزل كميات كبيرة من الصوف بواسطة المغزل، اما النسوة فيغزلنه بالدولاب. كما أشاد الرحالة الدنماركي كارستن نيبور عام 1766م بجودة صناعة النسيج، وأشار إلى وجود مصانع كثيرة للنسيج، والحياكة، والصباغة، وطباعة النقوش على المنسوجات. وإلى جانب ما تقدم فأن من الصناعات الأخرى التي اشتهرت بها مراكز المدن هي الحدادة والنجارة والدباغة والصياغة، وفي بداية القرن السابع عشر كان في بغداد شارع طويل مليء بصاغة الذهب والفضة، يصنعون المجوهرات الثمينة، فضلا عن ذلك هناك الصناعات الغذائية.

نالت صناعة البارود أهمية خاصة بحكم الحاجة المستمرة أليها في استعماله للبنادق، والمدافع وقد كانت بغداد مركزاً مهماً لصناعة البارود منذ القرن السادس عشر، وتزايد عدد معاملها في القرون اللاحقة، وبلغت ستة عشر معملاً في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي. وساعد على قيامها توفر موادها الأولية في العراق مثل الكبريت ونترات الصوديوم.

برزت صناعة القوارب في العراق ويتحدث الرحالة الاجانب عن القار الذي يستخدم لأكسائها لمنع دخول الماء اليه، وكان هذا القار يجلب من مدينة هيت.

كانت أوضاع العاملين في الميدان الصناعي متدهورة أيضاً، فهم يخضعون لضرائب عديدة وباهظة إلى جانب ظروف العمل السيئة، وبالرغم من انتظامهم في الأصناف الحرفية التي كانت قائمة آنذاك، إلا أن تلك الأصناف لم تكن مؤسسة فعالة تجاه السلطة مما جعلها خاضعة لها. كما ان الاصناف لم تستطع ان تبلغ في فعاليتها السياسية حدا يمكنها من السيطرة الدائمة على السلطة السياسية في المدن فقد بقيت طبقة التجار، بما لها من تحكم في تصدير السلع المنتجة وتوريد مواد التصنيع الخام تمارس سيطرتها على السوق المحلية، ويمكن القول ان طبقة التجار بقيت تشكل حائلا فعالا يقف بين الاصناف والسلطة السياسية ويمنعها من نيل امتيازات رئيسة كالتي نالتها مثيلاتها في اوروبا.

كانت غالبية سكان العراق حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر من الفلاحين ذوي الدخل القليل والقوة الشرائية المحدودة، فضلا عن ذلك جهل الفلاح وتحفظه ازاء تغير أو تبديل كثير من أدواته المنزلية والحقلية الامر الذي ادى الى تأخر تطور الصناعات المحلية في العراق، فدخل الفلاح القليل كان يضطره إلى ممارسة بعض الحرف: كعمل المحراث أو تصليحه، أو قيام المرأة بغزل وحياكة الصوف أو القطن لأفراد العائلة، أو طحن الحبوب أو بناء البيت أو عمل بعض الأدوات المنزلية الخ.

ومما لا شك فيه أن نوع الطلب وكميته هما اللذان يعينان نوع البضائع التي نجدها في سوق القرية أو المدينة وبعبارة أخرى لما كان الفلاح فقيراً وجاهلاً فأن طلبه كان يقتصر على الضروريات الأساسية في حياته اليومية فهي: أولاً أدوات زراعية مثل المحراث والمنجل والمبذر، وثانياً: أدوات منزلية للطبخ والأكل مثل القدور والأواني والجاون والرحى، وثالثاً: ملابس بسيطة كالعباءة والزبون واليشماغ الخ وهذه كلها مصنوعات قديمة وبسيطة وهي محدودة العدد تقوم بإنتاجها طبقة من الصناع اليدويين كالحدادين والنجارين والصفارين والحاكة وغيرهم من المنتجين الذين يعتمدون في تصريف بضائعهم على الفلاحين وبهذا تكون سوقهم محدودة من حيث كمية الإنتاج ونوعيته.

كانت الحرف السائدة في مدن العراق قديمة وتقليدية، وفي وضع ثابت على الرغم من مرور السنين. وكان الحرفيون في المدن الصغيرة يشتغلون في بيوتهم أو في حوانيت صغيرة كما كانوا يستعملون أدوات أنتاج ابتدائية وكان الحرفي يقوم بالإنتاج وحده أو مستعيناً بأولاده، أو ببعض الأطفال الذين يرسلهم أولياؤهم ليتعلموا أسرار الحرفة، وكانت غالبية منتجات هذه الحرف بعيدة عن صفقات التجارة الخارجية، ولم يؤثر فيها تقدم وسائل النقل وغزو المصنوعات الأجنبية للسوق العراقية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلا تأثيراً سطحياً وفي بعض الصناعات التي استجابت للطلب الخارجي.

وقد جرت العادة من أقدم الأزمنة عند أهل الصنائع اليدوية أن يحتل ذوو الحرفة الواحدة سوقاً في المدينة وتعرف باسم الحرفيين الذين يشغلون أكثر الحوانيت فيها. فهناك سوق للنحاسين وآخر للحدادين والسراجين والخياطين الخ، وكان للسوق مأمور خاص وملتزم معين.

كان الحرفيون في المدن العراقية ينقسمون إلى ثلاثة أقسام رغم أن الخط الفاصل بين قسم وآخر كان غير واضح أحياناً وهذه الأقسام هي:

أ. الحرفيون المستقلون: الذين يشتغلون في بيوتهم أو في حوانيت خاصة وبأدوات يملكونها بأنفسهم ويستعملون مواد اولية يشترونها وتكون سوقهم التجارية محدودة قد لا تتعدى المدينة نفسها.

ب. أصحاب الصنائع: وهم الذين كانوا يشتغلون في محلات نظمت بصورة شبيهة بالمصنع أقيمت فيها أدوات الإنتاج بعدد كبير يحركها مساعدون وعمال عديدون.

ج. عمال ماهرون: وهم كانوا يشتغلون مستقلين أو بالاشتراك مع غيرهم وكانوا يعتمدون في بيع منتوجهم على وسيط يكون عادة من التجار وتكون سوقهم أوسع من سوق الحرفيين وربما أصبحت في بعض الأحيان خارجية كصناع السجاد والأغطية والحرائر والصياغة.

ولم تتغير الصناعات الحرفية في العراق كثيراً في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بل اقتصرت على سبيل المثال: صناعة النسيج المحلية على أنتاج الأنسجة الصوفية والحريرية والقطنية. ومن جهة أخرى قامت الشركات الأجنبية في المدن الكبرى بعض المصانع من أجل أعداد الخامات المخصصة للتصدير إعداداً صناعياً أولياً مثل غسل وكبس الصوف ورزم عرق السوس.

تأسست في بغداد في القرن التاسع عشر ورشات لغزل الحرير ونسج القطن وحياكة البسط، وصنع الأباريق النحاسية، وصناعة المنتجات الخشبية الدقيقة. وفي ضواحي المدن الكبرى كان الحرفيون يشتغلون بدباغة وصناعة الجلود لتموين صناعات الأحذية والأحزمة والسروج بالمواد الأولية. كما تأسست في بغداد والبصرة ورشات لصناعة السفن المحلية، واشتهرت السليمانية بصناعة الأسلحة وبخاصة البنادق واستمرت تلك الصناعة حتى الاحتلال البريطاني في العراق. وافتتحت في البصرة بعض المكابس الحديثة للتمور، فضلا عن مصانع للثلج وغيرها.

لقد كان مستوى التطور الصناعي في العراق في نهاية فترة السيطرة العثمانية واطئاً جداً وذلك لأن العراق كان في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تابعاً في اقتصاده للرأسمال الأجنبي وسوقاً لتصريف البضائع الصناعية للبلدان الأوربية لذلك قضى النسيج الأوربي الرخيص بالتدريج على أنتاج النسيج المحلي وأدى فيض البضائع الأوربية إلى تقلص أنتاج الحرفيين المحليين.

3.التجارة:

مع مطالع القرن السادس عشر تعرض العراق إلى مزيد من التدهور باحتلال الصفويين له عام 1508م، وإخضاع تجارته في مجمل حركتها بما يخدم تطلعاتهم، وتجلى ذلك بشكل خاص من خلال تحالفهم مع البرتغاليين الذين فرضوا سيطرتهم على منافذ وسواحل الخليج العربي، وما ترتب عليه من تحويل طرق التجارة الشرقية إلى رأس الرجاء الصالح، مما ادى

الى توجيه ضربة قاصمة الى تجارة البصرة، وادت الى حرمان التجار من موارد كبيرة كانت قائمة أساساً على التجارة الهندية والأوربية. يضاف إلى ذلك أن البرتغاليين حاولوا إخضاع طرق التجارة البرية أيضاً لسيطرتهم، وبخاصة طريق البصرة-حلب بهدف احتكار كل الطرق التجارية المؤدية إلى الهند. وبازدياد الصراع بين قوى عديدة طامعة في المنطقة بقيت تجارة العراق تخضع في حجمها لتلك التطورات ويمكن ملاحظة ذلك باندفاع العثمانيين والصفويين وما شهده العراق من اضطراب وعدم استقرار.

كانت التجارة الداخلية قد بقيت بعد الاحتلال العثماني للعراق كما كانت في العصور السابقة، من استمرار تأخر وسائل النقل والمواصلات، وانعدام الأمن في الطرقات، وعجز السلطة العثمانية عن توفير الحماية الكافية، يضاف إلى ذلك أن فقر الشعب العام، وانحطاط مستواه المعاشي، ساهم أيضاً في تضييق مساحة التجارة الداخلية وأضعافها. كما أن الضرائب كانت عديدة ومفروضة على جميع ما يمكن أن يباع في الأسواق، والرسم الجمركي، الذي يؤخذ على كل ما يؤتى به من خارج المدينة لا على البضائع الواردة من خارج الدولة العثمانية فقط ،وإنما كانت البضائع المتبادلة داخلياً التي تمثل المنتجات الزراعية والحيوانية، بالإضافة إلى المنتجات الصناعية المختلفة. كما ام كل مدينة كانت لها تقاليدها الخاصة في ممارسة العمليات التجارية فيما يتعلق بها من رسوم وموازين ومقاييس ومكاييل.

اما بالنسبة للطرق التجارية فقد كانت على نوعين وهي: الطرق البرية الرئيسة، واهمها: طريق بغداد-البصرة، وطريق بغداد-الموصل، وبغداد-حلوان، وبغداد- كركوك- التون كوبري. ويتحدث الرحالة فيدريجي من القرن السادس عشر عن طريق بغداد- الموصل، ويقول ان التجار يذهبون عن طريق الموصل الى بلاد ما بين النهرين الذي ترتاده قوافل ومجموعات محملة بأحمال كبيرة. وكانت هذه الطرق تتعرض باستمرار إلى الأخطار، لذا كان يفضل النوع الثاني من الطرق وهي النهرية. وقد شهد العراق دخول وسائط نقل حديثة منذ منتصف القرن التاسع عشر، ولكن ذلك اقتصر على النقل التجاري النهري

والبحري في المقام الاول مع بعض المحاولات التي لم تكتمل حتى عام 1914 للاستفادة من وسائط النقل الحديثة لاسيما السكك الحديدية.

كانت الطرق النهرية هي المعول عليها في الغالب مما جعل لها أهمية خاصة في التجارة الداخلية، فضلا عن كونها ذات ارتباط كبير بحركة التجارة الخارجية أيضاً، ويأتي في مقدمة الطرق النهرية، الطريق النهري بين الموصل وبغداد والذي تستخدم فيه (الأكلاك) لنقل البضائع، وطريق بغداد-البصرة، الذي يعد طريقاً للتجارة الداخلية والخارجية معاً، ولكن هذا لا يعني ان الطرق النهرية كانت سهلة المرور، فالرحالة فيدريجي يقول ان الرحلة من البير في اسيا الصغرى نزولا مع مجرى النهر الى الفلوجة الواقعة على النهر، باتجاه بابل التي تقع على نهر دجلة، ما بين 15-18 يوما حينما تكون مياه النهر كافية للملاحة، ولكن حينما يكون منسوب الماء منخفضا، نتيجة الجفاف فان الرحلة تتم بصعوبة كبيرة، وفي بعض الاحيان تستغرق الرحلة 40-50 يوما للانحدار مع مجرى النهر. وفي هذه الحالة غالبا ما تصطدم القوارب بالأحجار الموجودة في النهر، حينها يتم تفريغها واصلاحها، وهو ما يتم بصعوبة بالغة وتأخير كبير، لهذا السبب دائما ما يكون للتجار قارب أو قاربان احتياطيان، فلو حدث ان انقلب أو اختفى بسبب الاصطدام في المياه الضحلة، فان لديهم قاربا اخر جاهز لنقل بضائعهم حتى يقوموا بإصلاح القارب المهشم. ويصف الرحالة توماس هربرت نهر دجلة في عام 1628 بانه غير صالح للملاحة.

كانت وسائط النقل في الطرق النهرية هي الاكلاك، وقد استخدم في صناعتها جلود الشياه والماعز الكبيرة، وكانت تسلخ، وتجفف، وتنفخ من الفم من خلال فتحة كانت تسد بعد ذلك بالخيط. وكانت الاكلاك بشكل هيكل مربع من اعمدة الخشب، واغصان الاشجار، والقصب، التي تثبت بحجم المركب الذي يتم عمله، وتربط به الجلود المنفوخة بوساطة الصفصاف واغصان اخرى. وكانت السفن الشراعية المصنوعة بطريقة بدائية تستخدم ايضا في النقل النهري. وكانت السفن التجارية الموجود في مدينة البصرة على ثلاثة انواع هي: بغلة وكانت تحمل من 15-18 الف كيلة، كما تستطيع الوصول الى

الاماكن الواقعة على شط العرب وخليج البصرة والمحيط الهندي، اما بوت، وشويعي فيصلان الى الاماكن الواقعة على شط العرب والى بغداد، وسوق الشيوخ والحلة عن طريق نهري دجلة والفرات، ويصلا الى شوشتر ودزفول في ايران عن طريق نهر الكارون، كما يتم ايضا نقل البضائع والمسافرين حسب نوع الزوارق عن طريق الانهار المذكورة والاهوار بوساطة زوارق اصغر حجما من تلك السفن، ويستخدم الاهالي في تنقلهم من البصرة وحتى سوق الشيوخ والمحمرة وجزيرة خضر، وشوشتر ودزفول وكل الاماكن الواقعة في ناحية الجزيرة القوارب الصغيرة التي يطلق عليها لفظ بلم، وذلك لسببين: الاول خوفهم من القبائل الموجودة في الطرق الصحراوية، والثاني عدم وجود المؤن في تلك الطرق الصحراوية.

ويمكن تحديد مراكز التجارة الرئيسة في العراق بمحطتين واحدة في الشمال، والأخرى في الجنوب وتمثل الأولى مدينة الموصل التي كانت تصدر منتجات تلك المنطقة أضافة إلى منتجاتها هي. وتمثل البصرة المحطة التجارية الثانية وكانت ذات نشاط مزدوج بحكم موقعها كميناء للعراق.

كانت تجارة العراق الخارجية قد اقترنت بطبيعة التطورات التي كانت تشهدها المنطقة، فقد أصيبت بالتدهور في القرن السادس عشر تقريباً بسبب الهيمنة البرتغالية على مياه المحيط الهندي والخليج العربي، واعتماد طريق رأس الرجاء الصالح. ومع ذلك يقول الرحالة راوولف الذي زار العراق في عام 1573 بأن بغداد قد ازدهرت فيها تجارة المجوهرات، والمرجان، والزمرد، والزعفران، والقرمز، والاقمشة الحريرية، والاغطية التركية، والاثمار الرائجة، فضلا عن ذلك فإن السفن تأتيها كل يوم محملة، فتتكدس البضائع التجارية فيها، والبضائع هذه تأتيها من جهات عدة برا وبحرا، من الاناضول وارمينية وسوريا واسطنبول ودمشق وحلب، كما تحمل البضائع منها الى اماكن نائية مثل الهند وايران وغيرهما. وابان وجود راوولف في بغداد شاهد في 2 كانون الثاني 1574 (25) سفينة محملة بالتوابل وغيرها من النفائس جاءت كلها من الهند عن طريق هرمز.

لقد طرأ تحسناً ملحوظاً على التجارة منذ بداية القرن السابع عشر وتصاعد خلال العقود التالية بشكل كبير، ويشير الرحالة بيدرو تخيرا الى ان البصرة في هذا القرن كانت تصدر تمورها الى بغداد، والى موانئ ايران وهرمز، وكانت التجارة مع هرمز يوفر للمدينة كل الضائع الهندية، فضلا عن صلات المدينة التجارية مع كل من البحرين والقطيف والاحساء وكل انحاء شبه الجزيرة العربية. وقام التجار في بغداد سواء في اوقات السلم والحرب باستيراد كميات كبيرة من السلع الى المدينة من ايران، والهند، عن طريق البصرة، ثم عن طريق النهر أو عن طريق الصحراء. وكانت مدينة عانة من المدن المهمة بالنسبة للتجارة الخارجية فعبرها كانت تمر معظم القوافل بين حلب وطرابلس ودمشق وبغداد، ويتحدث تخيرا عن رؤيته قافلتين في عانة محملة بالبضائع الاولى: تخص الاكراد وهي محملة بالحرير، والثانية: تخص الموصل وهي محملة بالملابس الفاخرة، وكانت تجارة العفص تذهب من الموصل عبر عانة الى كل من حلب وطرابلس ودمشق وبغداد، ومنها الى البصرة، ومن هناك الى الهند والصين.

أقترن ازدياد أهمية العراق في المواصلات الدولية في خضم المنافسة التي قامت بين الشركات الشرقية الأوربية ومنها: شركة الهند الشرقية الإنكليزية، وشركة الهند الشرقية الهولندية والتي كان نشاطهما في حقيقته بدايات للتغلغل الاستعماري الذي شهدته المنطقة فيما بعد.

لقد أسست الشركات الاوربية وكالات تجارية لها موانئ عديدة في الخليج العربي، ومنها ميناء البصرة إلى جانب المواقع التي كان البرتغاليون مازالوا يحتفظون بها آنذاك. بل نجد البرتغاليين يقيمون في البصرة عام 1623م وكالة تجارية تعد آخر مركز لهم في المنطقة بعد أن تمت تصفية معقلهم الرئيسي في هرمز عام 1622م. وبذلك غدت البصرة مركزاً تجارياً نشطاً كان له تأثيره على تجارة بغداد ذاتها فأخذت بالانتعاش هي الأخرى. واستمرت البصرة تشهد في ذلك القرن تدخلاً في المنافسة بين البرتغاليين والهولنديين والإنكليز حتى انفردت القوتان الأخيرتان في النشاط السياسي والتجاري معاً بعد أن أنهار النفوذ البرتغالي

في المنطقة تماماً. وتسابق الهولنديون والإنكليز في الحصول على الامتيازات وتدفقت في آن واحد السلع التي كانت تحملها سفنهم، وبالرغم من الكساد الذي تعرضت له شركة الهند الشرقية الأنكليزية في البصرة خلال العقد الرابع من القرن السابع عشر، بسبب الفائض الذي شهدته سوقها لتدفق السلع بشكل كبير، ومنافسة الهولنديين لها، فان أوامر بومبي تقضي بالاستمرار في المتاجرة ضمن أطار السياسة البريطانية التي كانت تعمل على الانفراد في المنطقة وما تتطلبه من مواجهة للقوى منافسة لها.

تحولت البصرة إلى سوق مهم للتجارة الهولندية التي كان عمادها التوابل والبن والسكر والفلفل والألبسة على اختلافها، وأقتضى ذلك ليس فقط مقراً تجارياً، وإنما تأسيس مقيمية تشرف على الوجود الهولندي في منطقة الخليج العربي، وقد تسبب ذلك في حدوث منافسة قوية بينهم وبين الإنكليز الذين عدوا النشاط الهولندي خطراً على مصالحهم لذلك عملوا على إيقافه بكل الوسائل. ومنذ منتصف القرن الثامن عشر كان الأوان قد آن لاختفاء النفوذ الهولندي في المنطقة، ففي عام 1752م أغلقت المقيمية الهولندية في البصرة بعد أن طرد البارون نيبهاوزن الذي كان مسؤولاً عنها في ذلك الحين من قبل سلطات البصرة على أثر نزاع نشب بينه وبينها. كما انسحبوا من بوشهر عام 1753م وبعد ذلك كان انسحابهم من بندر عباس عام 1758م ولم يبق لهم في الخليج العربي موقع إلا جزيرة خارج التي رحلوا عنها عام 1766م.

أن تصفية الوجود الهولندي قد منح الإنكليز الفرصة الكاملة للانفراد بالنشاط التجاري والسياسي معاً. وفي الحقيقة أن شركة الهند الشرقية الإنكليزية، كانت قد أسست لها مقراً في البصرة عام 1643م، إلا أن الأمر لم يستقر لها ، واستمرت تجارتها مع البصرة ضعيفة حتى العقود الاولى من القرن الثامن عشر، حيث غدت البصرة بعد ذلك مقراً على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة للتجارة الأنكليزية في منطقة الخليج العربي عموماً، إضافة إلى أتخاذها محطة لنقل البريد بين الهند وأوروبا. وقد عين قنصلا في البصرة مهمته الرئيسة ابقاء الاتصال مع موظفي شركة الهند الشرقية في الهند.

شهدت تجارة البصرة نشاطاً واسعاً، ويشير الرحالة الفرنسي سوفبوف الى ان البصرة تسيطر على تجارة واسعة، وقد أخذ يتردد عليها العديد من أثرياء التجار من حلب وأورفة وديار بكر والموصل وماردين وبغداد، ومعهم مبالغ طائلة من المال، واستثمارات وفيرة من أنواع البضائع الصالحة للأسواق الهندية، وترد إلى الميناء سنوياً سفن كثيرة للإنكليز ولغيرهم من الأوربيين، ولتجار سورات المسلمين، جالبة أليها مشحونات ضخمة بالغة القيمة تشمل الأدوات الأوربية ونتاج الهند ومصنوعاتها، وتحمل منها مبالغ ضخمة من النقود وبضائع صالحة للأسواق الهندية.

كانت تجارة بغداد تعتمد اعتمادا كبيراً على تجارة البصرة، وكان لموقعها اثر في ازدهار تجارتها، أذ أن الصلة بين هذه المدينة والأجزاء الشمالية من ايران وأرمينيا وجورجيا والأناضول، والقسم الأوربي من تركيا وسوريا يهيئ للتاجر ما يشاء أن يختار من صنوف البضائع التجارية. وكثيراً ما تعبر القوافل بين بغداد وأصفهان عبر همدان وأرضروم، وبين بغداد وكثير من مدن أرمينيا وجورجيا، وبين بغداد وماردين والموصل وديار بكر اسطنبول، وكذلك بين بغداد وحلب ودمشق. وتنقل بغداد كميات كبيرة من المال كما تنقل منها وأليها العديد من المواد التجارية كالنحاس والزرنيخ، والحرير الخام والذهب والفضة، والأقمشة الكتانية البغدادية والكوفيات، والمرجان وأنواع الخرز والزجاج، والتبغ والأسلاك النحاسية، والسكر والبن، ومواد تجارية عديدة متفرقة مما ينتج في البلاد الأوربية أو مما يصلح للاستهلاك فيها وفي غيرها من الأماكن مثلما يصلح في أسواق أوربا.

لقد لفتت التجارة الخارجية أنتباه عدد كبير من التجار فاستخدمت فيها رؤوس أموال كبيرة، ويصف الرحالة البريطاني بارسونز تجارة العراق عام 1775 بانها سوق كبيرة لمنتجات الهند، وايران، اسطنبول، وحلب ودمشق، وكانت أكبر مخزن في الشرق. ويشير الرحالة الفرنسي فيريير سوفوبوف عام 1785 الى ان تجارة بغداد كانت تعتمد على منسوجات المعامل الهندية التي تأتي عبر البصرة، وعلى الشالات الكشميرية والادوية والحرير من اصفهان في ايران. وفي بدايات القرن التاسع عشر وصف روسو الازدهار التجاري الكبير لمدينة بغداد، اذ كانت تتدفق

عليها المنتجات الاسيوية والاوربية من كل الجهات. وكانت المنتجات العربية والهندية والايرانية تنقل على متون سفن كبيرة تصعد الى اعالي نهري دجلة والفرات حتى بغداد، حيث هناك سوقا رائجة، ومنها تسوق الى المدن العثمانية الاخرى. وكانت المدن الاوربية تزود بغداد بكافة البضائع كالأقمشة الصوفية، والحريرية، والاشرطة الذهبية والفضية، والمرجان والجواهر. كما ان البضائع الامريكية قد وصلت الى بغداد عن طريق الاوربيين. ويصدر من الجزيرة العربية الى بغداد البن، واللبان، والمر المكاوي(الصبر)، والراتنج والصمغ، ومختلف انواع العقاقير النادرة، والمفيدة للعلاج، كما تصل اليها النيلة من كجرات والبنغال ولاهور، اما الشالات والعطور النباتية فمن كشمير، وقشرة القرفة من جزيرة سيلان، والسكر من جاوة، والقرنفل وجوز الطيب من ملقة، وحبوب الهال والفلفل من سواحل المالبيار. كما تعرض الهند تجارتها في بغداد مثل نبات الصبر والكافور وصمغ جاوة، والعنبر الرمادي واملاح الامونيا وغيرها من المواد المهمة. ومن ايران كانت تأتي كميات كبيرة من الحرير والصوف وجلود الحملان واعواد الغليون والشالات الكرمانية والزعفران والتبغ والكبريت وملح البارود، والأقمشة الثمينة والرخيصة والفواكه المجففة والسجاد النفيس والقطن احيانا، والنحاس والحديد، والعقاقير. وكانت هذه المواد ترسل عبر القوافل مباشرة، أو تصل الى البصرة عن طريق الخليج العربي الى بغداد عن طريق نهري دجلة والفرات. اما بغداد فكانت تصدر التمور والتبغ والمنسوجات الصوفية، في وقت نشطت بغداد كمحطة لتجارة الترانزيت فكثير من البضائع الاجنبية التي تأتي اليها تعيد تصديرها الى الاناضول وسوريا وبلاد العرب. وتأتي الخيول العربية في مقدمة الصادرات العراقية إلى الهند. وقد أصدر الباب العالي أمراً منع بموجبه تصدير الخيول من أي جزء من أجزاء الدولة العثمانية، وذلك لأهمية الخيول في الحرب، ولكن لما كان تصدير تلك الخيول يوفر أرباحاً على حكام البصرة وبغداد، فقد أستمرت هذه التجارة نشطة.

كانت تشكل صادرات البصرة من التمر جزء مهماً من صادرات العراق، وكان يصدر إلى كرمنشاه وهمدان وشمال أيران ومسقط والهند، وتتضمن صادرات العراق الأخرى: الرز والحنطة والشعير وتصدر هذه إلى مسقط وبعض مناطق الخليج العربي.

ومن المدن التي اشتهرت في التجارة في العهد العثماني مدينة اربيل، وقد اسهمت عوامل عديدة في ازدها التجارة في هذه المدينة، ومنها موقعها الجغرافي المتميز مما جعلها منطقة تجارية هامة، وملتقى القوافل التجارية القادمة من ايران باتجاه العراق. وقد امتازت اربيل بتصدير الحبوب(الحنطة والشعير) للأغراض التجارية، فضلا عن صادراتها من الاصواف والتبوغ والعفص والاخشاب والصمغ والعسل والفواكه المجففة. وكانت المدينة تحصل بدورها على المواد الضرورية والاستهلاكية كالشاي والسكر والقهوة من الموصل واحيانا من بغداد، كما تحصل من المدن الايرانية على الحرير والجلد والفراء والبغال، ويقوم تجار اربيل بدورهم بإعادة تصديرها الى الموصل وبغداد بواسطة الاكلاك.

كانت الضرائب تفرض على التجارة، ويتحدث فيدريجي من القرن السادس عشر عن التجار الذين يقدمون من بابل كانوا يدفعون الرسوم الجمركية على بضائعهم وسلعهم، ويتحدث بالبي من القرن السادس عشر ان الضرائب في البصرة كانت تفرض على مختلف انواع البضائع سواء كانت عند الدخول أو عند المغادرة. وفي بغداد في اوائل القرن السابع عشر كانت هناك ثلاث جمارك للتفتيش احداها للتجار المتوجهين الى سوريا الذين يدفعون الضريبة عن عبورهم الى الجانب الاخر من النهر، اما الاثنان الاخران فهما في داخل المدينة وهما مخصصان لبقية التجار.

كانت تجارة العراق الخارجية تتعرض بين حين وآخر إلى أضرار كبيرة بسبب اجتياح الطاعون لمدن العراق، كالذي تعرضت له بغداد والبصرة سنة 1773م، حيث قضى على القسم الأعظم من السكان، بالإضافة إلى الغزوات الإيرانية للمدن العراقية،

حدثت تغيرات هائلة في التجارة الدولية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، نتيجة لقيام الثورة الصناعية في أوربا، وتأثرت تجارة العراق هي الأخرى بالتطورات العالمية الجديدة، ولكن بدرجة أقل إلا أن التجارة العراقية شهدت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قفزات واضحة لأسباب عديدة منها:

1. تخفيض التعريفة الجمركية العثمانية على السلع المصدرة من أراضيها عام 1861م.
2. تنظيم المواصلات التجارية بين الموانئ الهندية والبصرة عام 1862م.
3. تأسيس مكاتب البريد والتلغراف في أنحاء مختلفة من العراق.
4. فتح قناة السويس للملاحة عام 1869م أسهم في تسهيل أتصال العراق بأوروبا عن طريق البصرة.
5. جهود مدحت باشا الإصلاحية في العراق 1869-1872م عن توحيد الولايات العراقية وتغيير وسائل الإنتاج لاسيما الزراعية منها وتطوير وسائل المواصلات النهرية والبحرية.

كل هذه الأسباب أدت إلى: توافد الشركات الأوربية، لاسيما البريطانية منها على العراق للحصول على ما ينتجه القطر من محاصيل زراعية، ومنتجات حيوانية، وكانت صادرات العراق في القرن التاسع عشر قد ارتفعت بسبب: المنافسة بين الشركات الأجنبية البريطانية والأمريكية والألمانية والروسية لشراء بضائع العراق الرخيصة.

لقد تحولت أسواق العراق في القرن التاسع عشر وحتى قيام الحرب الأولى إلى مستودعات للصناعة الغربية، ولم تكن هذه الأسواق بحاجة إلى معظمها، وإنما كانت تتوارد عليها لاستبدالها بمنتجات العراق الزراعية والحيوانية ولصالح فئة صغيرة من المنتجين، وقد سبب ذلك السيل الواسع من السلع غير الإنتاجية، تقليص أنتاج الحرفيين المحليين، ومن ثم توقفهم عن العمل وأدى بالنتيجة إلى نشوء ظاهرة تبعية الاقتصاد إلى الاقتصاد الرأسمالي وبخاصة البريطاني.

4. الضــرائـب:

كانت الضرائب العثمانية السائدة في العراق متنوعة منها: ضريبة العشر، وضريبة الماشية (الكودة)، وضريبة الدخل، وضريبة العقار، وبدل الخدمة العسكرية، ورسوم

الجمارك، ورسوم الجسور، وضرائب أخرى. ومعظم هذه الضرائب كانت تمنح باللزمة، والملتزمون كانوا يتلاعبون بمقدار الضرائب المفروضة عن طريق الرشوة ويقتسمون الأرباح مع السلطات العثمانية المحلية.

لقد فرضت الضرائب والرسوم على الاعمال الزراعية، سواء تلك المفروضة على الفلاح ذاته، أو المفروضة على مواشيه وحيواناته، إلى جانب الضرائب المفروضة على الأرض وإنتاجها من المحاصيل الزراعية. وكان الملتزمون أو الموظفون الحكوميون يحضرون إلى الحقل قبل الحصاد أو بعده، ويحددون مقدار المنتجات الزراعية المطلوب جبايتها، وكثيراً ما بالغ هؤلاء الموظفين في تقديراتهم، الأمر الذي كان يؤدي إلى أمتناع الفلاحين عن الدفع، وعندها كانت تجري محاولات من قبل السلطة العثمانية لجباية الضرائب بالقوة، وذلك عن طريق توجيه الحملات العسكرية إلى القبائل، ولكن السلطة العثمانية كانت تفشل في غالب الأحيان، لأن سكان المناطق التي كانت تكثر فيها الأهوار سرعان ما كانوا يختبئون في أحراش البردي، والقريبون من الحدود كانوا يتجاوزونها إلى الدول المجاورة، أما القبائل التي كانت تسكن على ضفاف الفرات فأنها كانت تتوغل في الصحراء. كما أن قبائل أخرى وقفت أكثر من مرة وهي شاهرة السلاح في وجه السلطة العثمانية ممتنعة عن الدفع، لذا وجدت السلطات بعد تجارب مريرة أن من الأفضل لها أن تجمع الضرائب بواسطة شيوخ القبائل عن طريق منحها لهم بالالتزام.

كانت الضرائب المفروضة على العقار تجبى على أساس بدل الإيجار المحتمل، إلا أن الملتزمين كانوا يتقاضون ضريبة لا تقل عن 50 قرشاً في السنة عن كل دار أو خيمة أو صريفة.

كانت الضرائب تفرض على التجارة الداخلية والخارجية على حد سواء، اذ كانت هناك عدة مراكز جمركية على طول شاطئ نهر دجلة لاستلام الرسوم والضرائب المفروضة على البضائع التجارية. ورغن ان هذه الرسوم التجارية كانت مقننة وفق القوانين والأنظمة، إلا أن موظفي الجمارك كانوا يتلاعبون بها وفق ما يدفعه التاجر من رشوة أو هدايا.

لقد تمتع التجار الاجانب لاسيما الإنكليز بامتيازات جمركية، حيث كانت التعريفة على بضائعهم تبلغ ثلاثة في المائة من قيمة البضاعة، وهذه النسبة تنظم حسب السعر الذي تباع به البضاعة فعلاً، ولذلك لن يكون الرسم الجمركي مستحق الدفع إلا بعد أن يتم البيع فعلاً، كما يتمتع الرعايا الإنكليز بامتياز تفريغ بضائعهم في مخزن الوكالة في البصرة، أو في أي مكان آخر من دون أن يذهبوا بها إلى دائرة الجمرك، التي يتحتم على السلع الأخرى نقلها أليها. ويسمح للزوارق الملحقة بالسفن الإنكليزية أن تمر بالنهر إلى داخل المدينة وتعود فيه دون أن يجري تفتيشها، مع أن هذه الامتيازات كانت غير مطبقة على السفن العربية التي ترفع العلم البريطاني.

إلى جانب تلك الضرائب الجمركية، كانت هناك ضرائب تجارية عديدة: وهي ضريبة الباج والتمغة والقبان والأحتساب والمسقفات على الحوانيت والخانات. وهي تجبى عادة عن طريق منحها بالالتزام إلى أشخاص معينين، وكثيرا ما يصاحب هذه الضرائب ابتزاز ورشوة. وكانت هناك رسوم الجسور التي كانت تمنح بالالتزام، وقد كان الملتزمون يسيئون كثيراً في جبايتها ويتجاوزون حدود امتيازاتهم، فعندما أنشأت السلطة العثمانية جسراً في العمارة عام 1870م فرضت رسوماً على السفن المارة تحته بمعدل عشرين قرشاً على السفينة الواحدة وعشرة قروش على (الدوبة) التي تجرها السفينة.

كانت دوائر الجمارك في العراق تمنح بالالتزام وأستمر ذلك حتى نهاية ولاية نجيب باشا للعراق عام 1848م، ثم ألحقت بالخزينة وخضعت للقوانين والانظمة التجارية العثمانية وطبقت التعريفة الجمركية التي كانت تعلنها الدولة بموجب اتفاقياتها مع الدول الأجنبية.

كانت عوامل كثيرة تلعب دوراُ في كيفية تقدير الرسوم الجمركية، كما أن الرشوة على ما يبدو كانت تشجع من قبل التجار بنفس القدر الذي كان يدعو اليها الموظفون العثمانيون. كما أن الرسوم على سلعة معينة كانت تتفاوت من حين لآخر تبعاً للاتفاقيات التجارية المعقودة بين الدولة العثمانية، والدول الأخرى، ووفقاً لمواقف الدولة السياسية والعسكرية، وتبعاً لمزاج مخمني الجمرك. وبصورة عامة كانت الضرائب متفاوتة وجائرة في حق الشعب

العراقي وكانت لا تخضع لأي قانون وكانت تجري حسب ما تفتضيه المصلحة السياسية، ووفق المعاهدات المعقودة بين الدول.

ومن جهة أخرى كان شيوخ العشائر من أنحاء مختلفة من العراق يفرضون بعض الإتاوات على البضائع التجارية المارة عبر مناطق سكناهم في الزبير، والصحراء الغربية، وعلى طول شط العرب، ونهر دجلة بين البصرة وبغداد، واكتسبت بمرور الزمن الصفة الشرعية وأساءت إلى التجارة وعرقلت تطورها، ففي القرن السابع عشر كان الشيخ محمد بن راشد يفرض الضرائب على السلع التجارية في البصرة، وكان ناصر بن مهنا يجبي الضرائب من القوافل في منطقة باش دولاب بالقرب من بغداد، وفي عانة كان حامد ابو ريشة من شيوخ العرب الذي كان يفرض رسوم المرور على البضائع والسلع التجارية، وكان شيوخ ألبو محمد، وبنو لام يتقاضون رسوماً كيفية من السفن والبواخر لقاء السماح لها بالمرور عبر مناطقهم، وقد عرفت هذه الضريبة في العراق باسم (الخاوة) وكانت تدفع على الاقل في عشرة مواقع بين البصرة وبغداد، هذا بالإضافة عن مناطق الصحراء المترامية الأطراف بين البصرة وحلب، ورغم أن هذه الرسوم لم تكن محددة إلا أنها لم تكن قليلة أيضاً وكانت تجبى حتى من سفن وقوافل الدولة العثمانية نفسها.

5. السكة (النقود):

لقد كانت النقود المتداولة في العراق خلال العهد العثماني متنوعة، ولعل اقدم النقود المعروفة لدينا هي الاقجة وتسمى ايضا اسابيره المحرفة من اسبرو الرومية. والاقجة كلمة اصلها مغولية تعني النقد الأبيض، وهي قطعة صغيرة من الفضة، ضربت لأول مرة في عهد السلطان اورخان. وكانت تستخدم في الاوساط الشعبية للدلالة على الدراهم أو النقود بشكل عام. وفي القرن السادس عشر كانت النقود المتداولة هي: الشاهي، والسلطانية، والبياسترا، وفي البصرة كانت النقود الفلوس وهي عملة نحاسية كبيرة، والمؤيدي عملة فضية، والدامين وهو من النقود الفضية ايضا، والشاهي، واللاري وهو قطعة سميكة من

الفضة ليست مدورة كسائر النقود، ويبلغ سمكها بقدر ريشة الاوز التي تستعمل في الكتابة، واللارينات على نوعين: بعضها مسكوك في الاناضول، ولذلك تحمل الختم العثماني وعليها كتابة عثمانية، والاخر: يسك في هرمز. وسميت هذه العملة نسبة الى بلاد اللر في ايران. وتعد اللارينات افضل النقود المتداولة في طول الهند وعرضها.

وفي القرن السابع عشر كانت جميع النقود الذهبية والفضية المتداولة في التجارة بما تساويه قيمتها، اما النقود المضروبة في دار السكة فكانت مصنوعة من الفضة والنحاس، وتشمل العملات الفضية اللارينات وهي نقود طويلة الشكل ذات نهايات منحنية، والشاهيات عملات مدورة الشكل. وكان هناك دار لسك العملات الذهبية والفضية والنحاسية في بغداد.

اما النقود المتداولة في العراق في القرن التاسع عشر، فكانت متنوعة جداً ولها حسابات محلية في غاية التعقيد بحيث أن القيمة الحقيقية لبعضها كانت في كثير من الأحيان تختلف عن القيمة المتعارف عليها، وعن أسعارها الرسمية، وكل هذه القيم كانت في تغير مستمر تبعاً لتوفر أو ندرة المسكوكات الذهبية والفضية في السوق. كما أن نقوداً أوربية وأجنبية كثيرة كانت قيد التداول في أسواق العراق جنباً إلى جنب مع النقود العثمانية. وأشهر العملات العثمانية التي كانت قيد التداول خلال القرن التاسع عشر في العراق هي: الليرة الذهبية ومن مضاعفاتها الخمس ليرات والليرتان والنصف ومن أجزاءها نصف الليرة وربع الليرة وكلها ذهبية. ومن العملات الفضية العثمانية المجيدي ونصف المجيدي وربع المجيدي، وهناك القرش النحاسي ومن مضاعفاته خمسة قروش وقرشان ومن اجزاءه نصف القرش وربع القرش. فضلا عن ذلك كانت بعض العشائر منها المنتفك في البصرة لا تعطي اهمية لأي عملة سوى فئة الاربعين والتي سكت في عهد السلطان عبد الحميد الاول.

ومن المسكوكات الذهبية والفضية الأخرى التي كانت قيد التداول أيضاً في العراق: الباون الإنكليزي، والأميريال والروبل الروسي، والروبية الهندية، والكراون الألماني، والفرنك الفرنسي، والليرة الفرنسية (نابليون) ، والدولار النمساوي، والدولار الإسباني، والدولار الأمريكي، والتالر البروسي، ، والدوكات الهولندي، والقران والتومان الإيراني.

ان الحسابات النهائية لدوائر الجمرك في العراق كانت تجري وفق القروش العثمانية، وصفقات التمور كانت تتم بموجب عملة تسمى (الشامي) كانت قد انقرضت منذ أواخر القرن الثامن عشر إلا أنها ظلت كأساس لبيع التمور.

لقد حاولت الدولة العثمانية في عديد من المرات أنهاء الوضع المرتبك لفوضى العملة الأجنبية في العراق، وذلك عن طريق تحديد تداولها وتخفيض أسعارها، ولكنها فشلت في مسعاها، لأن النقود سرعان ما كانت تتحول إلى سلع يجري تصديرها لاحتوائها على كمية من الذهب تزيد أحياناً على السعر المحدد لها، وعند ندرة العملات في الأسواق كانت الدولة تضطر إلى التوقف عن ملاحقة قراراتها لتعود ثانية إلى أوضاعها وليعود التجار والصيارفة إلى مبادلاتهم المعقدة. ويبدو أن التعقيد لم يقف عند حد الأسواق فحسب، وإنما شمل الدوائر الرسمية وبخاصة دوائر الجمرك التي لم تكن تقبل في معاملاتها إلا الليرات الذهبية العثمانية، وفي حالات نادرة جداً كانت تقبل النقود الذهبية الأخرى وعلى أساس أسعارها الخاصة، كما أنها كانت ترفض أستلام أجزاء الليرة بالعملات الفضية أو النحاسية، وإنما على التاجر أن يقدم لها الليرات الصحيحة، ولو كان حسابه يزيد قرشاً واحداً على الليرة الصحيحة، وفي مثل هذه الحالة كان يقدم ليرة ذهبية أخرى ليستعيد بقية أجزائها بالقروش، وفق جداول الدائرة التي تقل عن أسعار السوق كثيراً. ومن جهة أخرى فأن دوائر التلغراف والبريد والضرائب العثمانية كانت تقبل المجيدي العثماني الفضي في معاملاتها، ولكنها تقبله على أساس تسعة عشر قرشاً وربما أكثر أحياناً. هذا وان مكتب البريد البريطاني كان لا يقبل هو الآخر سوى الباون الإنكليزي أو الروبية الهندية وبموجب حسابه الخاص. أما دائرة التلغراف البريطاني في العراق فأنها كانت لا تقبل إلا الفرنك الذهبي الفرنسي، وإذا قدمت عملة أخرى فيتم معادلتها بأسعار الفرنك الرسمية.

ـ الحياة الاجتماعية في العراق خلال العهد العثماني:

1.القبائل في العراق:

كانت القبائل العربية تقطن العراق قبل ظهور الإسلام منذ عصور بعيدة من السنين، وبعد الفتح العربي الإسلامي توجهت عشائر كثيرة عدنانية وقحطانية من شبه الجزيرة العربية إلى ضفاف الفرات، ومن العشائر العدنانية التي اشتهرت فيما بعد في العراق، هي عشائر عنزة، والضفير، وحرب، والمنتفك، وربيعة، وكعب، وقيس، وعبادة، وتميم، ومن العشائر القحطانية التي ذاع صيتها عشائر الزبيد، والعشائر الطائية، وما يتصل بها من فروع وأفخاذ، وقد أسست مجموعة من هذه العشائر أحلافاً وأمارات عربية وقفت في وجه المحتلين وناضلت من أجل استقلال العشيرة عن السلطة الحاكمة الأجنبية.

وتقسم القبائل العراقية إلى قسمين:

-**القسم الأول**: العشائر البدوية الصرفة التي كانت تهيم في حيز غير محدود من الأراضي وتعتمد على تربية الأبل في معيشتها. وقد اشار الفرنسي سوفبوف الى ان البدو الرحل يعيشون في الصحاري وهم منقسمون الى قبائل ويمارسون تربية المواشي بشكل رئيس، وتشكل الخيول والحمير والماعز والاغنام ثروتهم.

-**القسم الثاني**: العشائر شبه المستقرة التي كانت تعتمد في معيشتها على تربية المواشي، أو حراسة البضائع أو نقلها.

كان حوالي ثلث العشائر تقريباً يعيش أو يتجول في المنطقة المطرية في الشمال، بينما كانت بقية العشائر تقطن أو تتنقل في أواسط العراق وجنوبه حيث المنطقة الأروائية. من

جهة أخرى كانت سهول أربيل ووديان سليمانية تضم أكبر عدد من القبائل الكردية المستقرة. وفي أعالي الجبال كانت تستقر وتتجول القبائل المتنقلة منها والمشتغلة في الرعي. أما سهول الجنوب والوسط فأنها كانت موطأ للقبائل العربية المتنقلة وشبه المستقرة، وقسم من هذه العشائر كان يتنقل بين بغداد والعمارة بمحاذاة نهر دجلة، ويعيش قسم منها في الصحراء الممتدة بين الفرات ونجد، وهذه العشائر برمتها كانت تسكن الخيام وتعتمد على تربية الخيل والجمال وتحتفظ بمراعيها الخاصة تتجول فيها بحثاً عن الكلأ والماء، ولم تترك هذه العشائر أماكنها طالما كانت الماشية تجد ما تأكله من عشب وما تشربه من ماء.

إن العشائر العربية في العراق حافظت، باستقلاليتها، على وجه العراق العربي، ووقفت بشموخ في وجه الغزاة المحتلين من مغول وجلائريين، وتركمان وصفويين، ومنعتهم من توسيع نفوذهم خارج المدن التي أحتلوها، حتى سقطت بغداد بيد العثمانيين عام 1534م، وهؤلاء حاولوا فرض سيطرتهم على الأطراف وإخضاع العشائر لهيمنتهم، إلا أن كثيراً من القبائل لم ترضخ للمحاولات القسرية للدولة العثمانية بل وقاومتها، حتى اضطرت الدولة إلى مهادنة بعضها والاعتماد على بعضها الآخر في حروبها.

أن من الصفات التي اشتركت بها القبائل في العراق هي الانتقال من مكان إلى آخر سواء كان ذلك بشكل واسع أو محدود ضمن ديرة القبيلة، وكذلك الزعامة الرئيسة حيث كان يتزعم القبيلة الأم شيخ رئيس له صلاحيات واسعة منها اتخاذ القرار بالارتحال من مكان إلى آخر، وعندما كانت القبيلة تنوي الانتقال كان يعقد اجتماع في خيمة الشيخ الرئيس حيث يتم الاتفاق على تحديد يوم التحرك وموضع النزول الجديد، وحين الوصول إلى المكان المتفق عليه يختار شيخ القبيلة محل نزوله وتحدد كل أسرة مكان خيمتها ثم يجري اقتسام المرعى على أساس عدد الماشية، ولذلك فأن أحسن الأقسام كانت تخصص لأفراد القبيلة المتنفذين الذين يملكون عدداً أكبر من الجمال والخيل، أما تدبير شؤون المخيم فكان يقع بالدرجة الأولى على النساء حيث كن يقمن بأكثر الأعمال صعوبة فهن اللواتي يحلبن الماشية ويغزلن الصوف وينسجن البسط بالإضافة إلى نصبهن الخيام.

كانت الخيمة في العادة تنقسم إلى قسمين أحدهما للرجال والآخر للنساء، ويضم النصف الأول السلاح والسروج، في حين أن النصف الثاني يستخدم للنوم ويشغل كمطبخ ومستودع للمؤنة حيث تخزن فيه أكياس المؤن وكافة اللوازم الضرورية، من جرن خشبي لطحن البن، وعدد من الدلال والفناجين وأواني وملاعق خشبية ورحى ومجمرة وقرب للماء والحليب. وكانت الحياة اليومية لأفراد القبائل قاسية جداً فطعامهم كان يتألف من الرز والدخن والشعير والحنطة، وكانوا يتزودون بها من المدن مرة أو مرتين في السنة بمبادلتها بالمنتجات الحيوانية، أما اللحم فكان بالنسبة لهم ترفاً لا يؤكل إلا في المناسبات، كما أن ظروف الحل والترحال ظلت كما هي لم تتبدل طيلة قرون عديدة وكثيراً ما نشبت العداوات والمنازعات بين القبائل من أجل امتلاك المراعي، وسرعان ما كانت تلك المنازعات تتحول إلى صراعات دموية تشمل عدداً غير قليل من القبائل المتحالفة بعضها مع البعض الآخر، وإن الكوارث الطبيعية (كالجفاف والبرد) كانت هي الأخرى تؤدي إلى أيقاع الضرر بأفراد القبائل وممتلكاتهم من الإبل والماشية الأخرى.

لقد اتسعت المنازعات بين القبائل في العراق في نهاية القرن التاسع عشر بسبب: فشل السلطة العثمانية الضعيفة في فرض هيمنتها على العشائر العراقية، لذا كانت القبيلة الأقوى تُخضع الأضعف ويتخذ هذا الخضوع شكل الحماية، وتقوم القبيلة المحمية بدفع الإتاوة وتسمى (الخوة) لمن يحميها، لذلك ظلت التجمعات القبلية مثل المنتفك وبني لام والخزاعل وربيعة وحدة سياسية كاملة حتى نهاية السيطرة العثمانية على العراق. ومن جهة أخرى خضعت منطقة شمالي العراق لعدد من رؤساء العشائر الكردية بعد الاحتلال المغولي لبغداد عام 1258م، وأسس كل من هؤلاء أمارة سميت باسم عشيرته رغم انضواء عشائر أخرى تحت لوائه، وظلت هذه الأمارات تتأرجح في نفوذها وقوتها، حتى اشتهرت منها في العهد العثماني: الأمارة الصورانية في هوديان ثم حرير، وأخيراً في راوندوز، والأمارة البابانية في السليمانية، والأمارة البهدنانية في العمادية، والأمارة البوتانية في جزيرة أبن عمر، ولم تستطع إمارة واحدة من هذه الأمارات العشائرية أن تفرض سيطرتها على الأمارات الأخرى جميعاً.

لقد اتسمت نظرة العثمانيين تجاه العشائر بالشك العميق، فقد درج موظفو العاصمة العثمانية والولايات على استخدام اوصاف الذم والاستخفاف بحق العشائر، اذ نظروا تجاههم انهم مجرد اناس غارقين بالجهل، وذوي سلوك همجي وغير متحضر. لقد كانت نظرة الدولة العثمانية الى القبائل بوصفها خطرا بالغ الفعالية على الرفاه الاقتصادي للسلطنة، من خلال التهرب من دفع الضرائب. فالقبائل في الواقع شكلت عبئا على الخزينة من ثلاث طرق هي:

1. انخفاض قدرة المنتجين على دفع الضرائب اثر اغارة القبائل على المزارعين وسكان البلدات.
2. التخوف من الغارات ادى الى تراجع الانتاج الاقتصادي نتيجة لتقلص مساحة الارض المزروعة فضلا عن اعاقة التجارة.
3. ارتفاع كلفة دعم القوات المسؤولة على الامن التي وقف على عاتقها ردع مثل تلك الغارات.

لقد سعى العثمانيون للعمل على تغيير طبيعة القبائل عبر توطينهم في الارض وتشجيعهم على الانتاج وبالتالي الاسهام في زيادة عائدات الدولة بدلا من استنزاف الخزينة.

لقد عمل السلطان عبد الحميد الثاني بسياسة تعزيز الولاء القبلي لصالح السلطنة من خلال انشاء مدرسة للعشائر في اسطنبول، وهي بمثابة مدرسة داخلية خاصة لتعليم ابناء زعماء القبائل البدوية العربية. وقد كانت هذه المدرسة اداة سياسية لكسب ولاء القبائل، وقد تم افتتاح المدرسة في 4 تشرين الاول 1892. ومن العراق ارسل طلاب من ابناء العشائر المختلفة مثل شمر وربيعة وزبيد والدليم، والسعدون، والسواعد، وبني لام، والمياح.

2. القرى الزراعية:

كانت الأكثرية الغالبة من سكان العراق في مختلف الفترات من الفلاحين من سكنة الريف، لأن جميع الذين يكسبون معاشهم من الرعي أو الزراعة يدخلون ضمن تعريف أهل

الريف، وعلى الرغم من ارتفاع نسبة المزارعين من سكان العراق بحيث بلغت مع أواخر الحكم العثماني أكثر من (60٪) نظراً لاستقرار بعض القبائل البدوية واشتغالها في الزراعة، إلا أنه بالإمكان القول أن مستوى الإنتاج الزراعي أخذ بالانخفاض لأسباب عديدة منها: علاقة الفلاح بالأرض، ولأن المزارع الجديد كان قليل الخبرة كثير الميل إلى التنقل، أضف إلى ذلك استمرار تأخر أساليب الزراعة ووسائل الإنتاج ورداءة طرق المواصلات وبخاصة في أيام الشتاء الموحلة. وكانت الزعامة أو الرئاسة في تلك القرى بيد الأغا أو الشيخ أو المختار وكثيراً ما أستغل أحد هؤلاء سلطانه للاستيلاء على أرض الفلاح الصغير، وبالنتيجة على القرية كلها رغم مخالفة ذلك لقانون الأراضي العثماني، إلا أن السلطات العثمانية قد سكتت عن خرق الأغا للقانون خشية جانبه، وقد سادت هذه الطريقة في مناطق كثيرة في العهد العثماني، حتى أصبح الفلاح بعدها عاملاً مأجوراً للأغوات دون أن يكون له أية حصة في غلة الأرض.

منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبسبب تصدع النظام القبلي تدريجياً وإسكان العشائر ونشر الأمن في العراق أخذت ملكية الأرض تتوزع بين المتنفذين من الشيوخ والأغنياء من سكان المدينة.

من جهة أخرى يمكن أن نشير أيضاً إلى سكان الأهوار في جنوب العراق يعيشون في جزر صغيرة جداً، منها طبيعية ومنها اصطناعية يشيدون عليها بيوتهم البدائية المصنوعة من القصب والبردي اللذين كانا ينبتان بكثرة فيها. والأهوار بصورة عامة، كانت ضحلة لا يزيد معدل عمق مياهها عن ثلاثة أقدام، كما إن قسماً من مياهها كان يجف في بعض السنين حتى يصبح السير فيها على الأقدام ممكناً، وكان النقل فيها يتم بواسطة قوارب خاصة تسمى (المشاحيف). وقد أرتزق الأهالي في المنطقة من: تربية الجاموس وزراعة الرز وصيد السمك، وكان الجاموس يؤلف ثروة كبيرة للأهالي. إلا أن حياة السكان كانت قاسية للغاية وطرق معيشتهم بدائية ونستطيع القول بأنهم كانوا يعيشون على هامش الحياة معرضين في كل لحظة لفتك الأمراض والأوبئة وبخاصة الملاريا.

ارتكزت حياة المجمعات الفلاحية على طول ضفاف نهري دجلة والفرات، وشط العرب والفروع المتشعبة منها والروافد التي تزودها، والأهوار الملحقة بها.

عدت المنطقة الواقعة في أواسط الفرات وأسفله أكبر منطقة تسكنها القبائل المستقرة التي تشتغل بالزراعة، وهي أيضاً من أقدم المناطق المأهولة بالنظر إلى طبيعة الأراضي هناك وسهولة انسياب المياه فيها إلى مساحات واسعة. وبالإضافة إلى هذه المنطقة كانت الأرياف تمتد على طول نهر دجلة من موقع العمارة جنوباً حتى نهر ديالى شمالاً، وتشتمل على أراضي خصبة ومياه وفيرة. وانتشرت الأرياف أيضاً في المناطق الممتدة على طول نهر شط العرب، وفي شمال القطر تناثرت القرى في السهول التي توفرت فيها المياه بدرجة كافية للزراعة. وكانت الحياة في القرى على أنواع، فهناك من يسكن الأكواخ المصنوعة من الطين أو القصب، وهم على الأكثر من القبائل نصف المتحضرة، ومنهم من يسكن قرى كبيرة تقرب معيشتها من معيشة أهل المدن الصغيرة.

إن أكثرية القرى العراقية كانت صغيرة لا يتجاوز سكانها الخمسين نسمة وقسم منها كانت كبيرة يزيد سكانها على بضع مئات من الأنفس وتدريجياً كانت تتحول إلى مراكز لبعض الأعمال التجارية (البيع والشراء) للقرى الصغيرة المجاورة فتصبح سوقاً تؤمها العشائر في المواسم لسداد حاجاتهم وبيع محاصيلهم، وفي مثل هذه القرى كان يوجد عادة إمام مسجد ومختار وأعضاء مجلس الاختيارية وهؤلاء كانوا ينظمون شؤون القرية بعيداً عن سلطة الحكومة. ويمكن تقسيم الفلاحين في القرى والأرياف العراقية إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: وهم فلاحو الفاكهة والخضروات وكانوا أسعد حظاً من البقية وأكثر دخلاً.

القسم الثاني: وهم فلاحو المنطقة الشمالية (عدا القسم الجبلي) وكانوا يزرعون المحاصيل الشتوية بانتظام ويصرفون جهداً كبيراً ولهذا كانوا في وضع متوسط.

أما **القسم الثالث**: فهم فلاحو المنطقة الجنوبية (عدا زرع الشلب) فكانوا أقل تنوعاً في زراعة المحاصيل ولهذا كانوا أفقر الفلاحين حالاً.

كان غذاء الفلاحين وبخاصة الأغلبية الساحقة منهم كان بسيطاً جداً ومتشابها تقريباً ويتكون على الأكثر من الحبوب كالرز والحنطة والشعير والذرة والدخن، وكذلك بعض المنتجات الحيوانية مثل اللبن والسمك وكذلك التمر والخضروات وقليل من اللحم في فترات متباعدة وربما في الأعياد فقط. ومن جهة أخرى كان يقيم إلى جانب الفلاحين في بعض القرى الكبيرة بعض الحرفيين مثل النجارين والحدادين والباعة والوسطاء.

أخيراً نقول أن طبقة صغيرة في عددها، كبيرة في نفوذها وثروتها، هي طبقة الملاك، وهي مؤلفة من شيوخ القبائل والأغوات وأصحاب الأراضي، كانت تستغل موارد البلاد الطبيعية والبشرية ولها دخل يزيد عن حاجتها الضرورية والكمالية، في حين أن طبقة الفلاحين كانت فقيرة تعيش عيشاً بائساً جداً لا تحصل على حاجتها الضرورية من مأكل ومشرب ومسكن ومن تعليم وصحة إلا بصعوبة، جعلت عيشتها دون المستوى الضروري المعقول من النواحي المادية والثقافية والاجتماعية، وأن آثار تردي المستوى المعاشي كانت واضحة عليها من انحطاط الصحة العامة وسوء التغذية ورثاثة الملبس ورداءة المسكن وشيوع الأمية والجهل طيلة الفترات التي تعرض لها العراق إلى عدد من الغزوات الأجنبية ابتداء بالمغول وانتهاء بالعثمانيين.

3. المـــدن:

ـ عوامل تدهور المدن في اوائل العهد العثماني:

اصبح العراق مع مطلع القرن السادس عشر ساحة للصراع بين دولتين قويتين مختلفتين، هما: الدولة العثمانية والدولة الصفوية، وهو صراع شغل معظم هذا القرن. ولعل أهم ما نتج عن هذه الفوضى السياسية والعسكرية، والضعف الشديد في سلطة المراكز المدنية في البلاد، وقد ادى ذلك الى بروز دور القبيلة، ازاء انحسار دور المدينة الاداري والحضاري، اذ كانت القبيلة هي القوة الجماعية الوحيدة المؤهلة لأداء ذلك، باعتبار أن

القبائل تلي بقوتها العسكرية قوة المدن مباشرة، فضلاً عن أن العصبية الاجتماعية في المجتمع القبلي أقوى مما هي عليه في المجتمعات الحضرية المتمدنة، ذلك أن العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين أعضاء المجتمع القبلي الواحد كانت- على الدوام- أبسط وأكثر ترابطاً منها في مجتمع المدينة القائم على تعدد الفئات والطبقات. وعلى هذا، فأن ازدياد أهمية القبيلة على حساب المدينة، كان في حقيقته غلبة المجتمعات البسيطة على المجتمعات المعقدة المتعددة الطبقات والمسؤوليات، وكان تغير البنية الاجتماعية هذا قد أفسح المجال أمام القبائل للظهور على المسرح السياسي العراقي، لتلعب، دورها في مقدرات المدن العراقية ذاتها. وكان هذا -في الواقع- عودة إلى مرحلة متخلفة سابقة، حين كانت القبائل تشكل القوة الاجتماعية الرئيسية قبل قيام المدن ونموها.

مع هذا الوضع الاجتماعي، كان على العثمانيين أن يتعاملوا، وأن يقيموا سلطتهم السياسية في البلاد المحتلة، ولم يكن للحكام الجدد من الرصيد الحضاري ما يمكن أن يقدموه للحياة المدنية في العراق، حيث الحكم العثماني يقوم على قاعدة إبقاء الأوضاع بصفة عامة على ما كانت عليه قبل السيطرة العثمانية، دون تغيير حقيقي في جوهر العلاقات الاجتماعية والاقتصادية القائمة. وتكشف لنا أعمال السلاطين العثمانيين الأوائل في العراق عن طبيعة نظرتهم إلى المدينة العراقية، وهي نظرة ترتكز على تصور أن المدينة ليست إلا حصناً أو قلعة مهمتها الرئيسية حفظ الأراضي التابعة للسلطان، ومركزاً لجمع الضرائب من تلك الأراضي وإرسالها إلى السلطة المركزية في اسطنبول . وطبيعي أن هذا التصور لمهمة المدينة كان يستلزم أن تمضي الدولة العثمانية في سياسة إقرار الأوضاع القائمة فعلاً مع محاولة الاستفادة من هذا الواقع إلى أقصى حد ممكن. وعلى هذا، فقد ترك السلطان سليم الأول مدن شمالي العراق، شهرزور والعمادية وأربيل وراوندوز وغيرها بيد الأمراء والسلالات القبلية الموجودة في عهده، فاستمرت هذه القوى -وأغلبها قبلي تماماً- في السيطرة على مقدرات تلك المدن عدة قرون من بعده. ولم يغير السلطان سليمان القانوني عندما غزا العراق في القرن السادس عشر الميلادي شيئاً من هذه القاعدة، فظلت مدن الشمال على وضعها السابق، وأستمر شيوخ قبائل

آخرون وزعماء عشائريون ريفيون يسيطرون على المدن العراقية الواقعة في منطقة نفوذهم، فعندما عرض زعيم قبيلة المنتفك القرية المسيطرة على البصرة ولاءه للسلطان العثماني 1553م أقره في حكمه، على الرغم من أهمية البصرة كمدينة ذات موقع عسكري واقتصادي هام. وتركت مدن كثيرة ومراكز تجمعات سكانية مختلفة في جنوبي العراق ووسطه تحت سيطرة القبائل المجاورة، التي أكتفت بإعلان الولاء الشكلي للسلطة الجديدة. ورغم أن العثمانيين استطاعوا في عام 1546م، فك البصرة من يد المنتفك إلا أن المدينة بقيت عملياً، خاضعة إلى نفوذ هذه القبيلة القوية. وكان أمر رجوع المدينة إلى قبضة المنتفكين يعد احتمالاً قائماً في كل وقت وقد سقطت البصرة فعلاً بيد الشيخ مانع أمير المنتفك عام 1690م وأسس حكومة وأستولى على المدن المجاورة من القرنة (على ملتقى دجلة والفرات).

يمكن القول بأن خضوع المدينة العراقية للقبائل البدوية والريفية، كان- رغم بعض النواحي الإيجابية القليلة- يعد تدهوراً خطيراً لتلك المدينة، وتردياً واضحاً في أنشطتها الحضرية وإذا ما أستثنينا الحكومات المؤقتة التي أقامها المنتفكيون في البصرة، والتي حظيت ببعض التأييد والاحترام من قبل تجار المدينة وسكانها، فأن أغلب المدن كانت تعاني من ضغط القبائل عليها، او فقدانها الأمن اللازم لاستمرار نشاطها الحضاري. وكان الاختلاف القائم بين قيم القبيلة ومثلها وما تمثله من روح عسكرية متنقلة لا تعرف الاستقرار، وبين قيم المدينة المرتكزة على نشاطاتها التجارية والإنتاجية المستقرة، يمثل هوة اجتماعية كبيرة يصعب تجاوزها إلا على حساب المدينة ذاتها. وبقيت المدن في نظر القبائل تعد عالماً غريباً غير مألوف بالنسبة لها، ولم تجد أغلب القوى القبلية آنذاك حرجاً في استغلال الفرص السانحة التي تمكنها من الاستيلاء على المدن المجاورة. وكنتيجة لتدهور سيادة المدينة وضعفها، اهملت الأراضي الريفية الواقعة حولها، وسرى الاهمال إلى شبكة الأنهار والمصارف اللازمة للري والزراعة، وكان هذا بدوره سبباً في تعاظم أخطار فيضانات الأنهار، وحدوث المجاعات التي انتهت بعزل المدن عن بعضها البعض وعن القرى وتدميرها، أو هجرة سكانها منها تدريجياً.

من أهم المدن العراقية التي اندثرت في أوائل العصر العثماني، مدينة واسط الشهيرة، ذات التراث الزاهر في القرون الوسطى، وذلك حين أدى اهمال شؤون الري إلى ابتعاد مجرى دجلة عن المدينة، وتحوله إلى مجراه الشرقي المنحدر إلى بلدة القرنة فعم الخراب سائر المدينة. وما أن حل القرن السابع عشر حتى كانت هذه المدينة تقوم وحدها وسط البرية، وكان النهر الذي طالما أشتهر بقصبه الذي تتخذ منه الأقلام قد جف. ولم تمض إلا سنوات حتى هجرت المدينة برمتها. وللسبب نفسه، أضطر أغلب سكان مدينة النجف، على حافة الصحراء إلى الجلاء عن مدينتهم، حتى لم يبق من دور المدينة –في القرن السادس عشر– إلا عشر ما كانت عليه من قبل، ولم يبق من سكانها إلا الخطيب والأمام والموظفون وقليل غيرهم بينما تركها الآخرون. وكانت أسعار مياه الشرب باهظة الثمن، حيث يضطر سكان البلدة إلى نقل تلك المياه من نهر الفرات عند بلدة الكوفة. ومثل ذلك، ما حدث لمدينة الرماحية القريبة من النجف وهي من المدن القديمة التي يرتقي تاريخ إنشائها إلى القرن الرابع عشر. فقد ادى إهمال العناية بمجرى الفرات، إلى تشعب نهد جديد منه في 1688م عرف بنهر ذياب، وأخذ يخترق تلك الانحاء متوسعاً شيئاً فشيئاً، ولما لم تكن ثمة سدود تمنع ذلك التوسع فقد أدى تحول مجرى الفرات نفسه وابتعاده عن نهر الرماحية الذي كان يأخذ مياهه منه. فأجدبت تلك الأنحاء وأضطر سكان الرماحية إلى هجر مدينتهم ولجأوا إلى الجزر التي نشأت في المناطق الغارقة ومنذ ذلك الحين خمل ذكر الرماحية وقل شأنها. ومثلما أدى التحول المستمر في مجاري الأنهار في جنوبي العراق إلى اندثار مئات المدن والقرى مما حفلت بذكر أوصافها كتب الجغرافيا العربية في القرون الوسطى فقد ادت عوامل أخرى إلى الاضطراب السياسي الذي شهدته المنطقة باعتبارها ساحة للصدام المباشر بين العثمانيين والصفويين وظهور عدد من القوى القبلية والأمارات العشائرية، وسقوط البلاد فريسة لتطاحن مرير بين تلك القوى غير الحضرية. ومن أبرز الأمثلة على ذلك، اندثار مدينة شهرزور ذات الماضي الزاهر في القرن السابع عشر، فقد نجم عن الحروب المستمرة بين العثمانيين والايرانيين وسيطرة أمارة أردلان القبلية تدهور المدينة ثم اندثارها، حتى لم يعد من الممكن تعيين موقعها الآن. ولم يتبق منها سوى أسمها الذي أخذ يطلق على الإقليم فحسب.

أدت النزاعات العشائرية الدموية بين القبائل القاطنة في سهل شهرزور والجبال المحيطة بها، وتعرض المنطقة إلى غزوات المحتلين المستمرة إلى انحطاط مدن أخرى كان لها شأن في العصور الوسطى، من أهمها مدينة أربيل ذات الماضي الزاهر وقد بلغ من تدهور أحوال المدينة أنها أمست في القرن العاشر بلدة صغيرة يتنازع عليها حكام الأمارات العشائرية الكردية القاطنة في المنطقة، ثم استقرت لتكون أحدى توابع أمارة سوران الأمارة الصغيرة التي كانت تنافس أمارة أردلان سيادتها على اقليم شهرزور القديم. ولحق التدمير مدن التخوم العراقية القريبة من أيران فاندثرت مدينة حلوان الشهيرة وتضاءل شأن مندلي ومدن منطقة (النهروان) التي طالما اشتهرت بالخصب والثروة الزراعية مثل بادرايا وباكسايا وغيرها.

- نمو المدن العراقية في العهد العثماني:

يعد القرن السابع عشر الميلادي فترة استقرار نسبي وثبات في نظم الحكم لم تشهده البلاد، من قبل، إلا أن الضعف الشديد الذي كانت تعانيه السلطة المركزية العثمانية في العراق، وغياب حكومات محلية قوية في مدنه الرئيسية، لم يغير من اوضاع المدينة العراقية كثيراً. بل يمكن القول أن هذا القرن كان استمرارا للفترات السابقة فيما يتعلق بعمارة مدن العراق ونموها، ما عدا العثمانيين أهتموا في هذا القرن بتحصين المدن والعناية بمرافقها العسكرية من أبراج وخنادق تحسباً من غزو أيراني مرتقب. ولعبت عوامل عديدة اجتماعية واقتصادية وعسكرية دورا في نمو مدن العراق وتطورها في هذا العهد، فكان منها ما يتعلق بتشجيع الحكام، ومنها ما جاء نتيجة لحوافز خارج سيطرة السلطة الحاكمة، وربما اجتمع أكثر من سبب في نشوء المدينة العراقية ونموها وهو ما حدث بوجه خاص لمدينة بغداد والموصل والبصرة، ومدن اخرى اقل أهمية مثل السليمانية والعمادية وراوندوز في شمالي العراق، والحلة والنجف والديوانية على شاطئ الفرات الأوسط. ويمكن تحديد عوامل نمو المدن بما يلي:

أ. **العامل الإداري:**

إن ازدياد أهمية الحكومات المحلية ومحاولاتها الدائبة لفرض سيادتها الإدارية على الريف أظهرت لدى السكان ميولا واضحة للتجمع حول المراكز الحكومية، لما تتمتع به تلك المراكز من نفوذ متزايد على مجريات الأحداث حولها. فبالنسبة لبغداد مثلا، ترتب على تأسيس حسن باشا وابنه احمد باشا لنظام المماليك فيها (القرن الثامن عشر الميلادي) وقيام أول حكومة مركزية عراقية تأخذ على عاتقها توحيد العراق في العصر الحديث ازدياد أهمية بغداد، باعتبارها مركزا إداريا رئيسا، ومقرا لأكبر سلطة سياسية في المنطقة، تستعيد أهميتها الإدارية السابقة. ومن ابرز الأمثلة على أهمية العوامل الإدارية في نشأة المدن في هذا العهد تأسيس مدينة السليمانية في منطقة سهل شهرزور شمال العراق، حين اقام البابانيون سرايا للإدارة والحكم عام 1782م، سرعان ما نمت حوله المرافق الحضارية الأخرى من دور وأسواق وخانات ومدارس علمية، فتكونت بذلك مدينة السليمانية الحديثة، وانتقل إليها الناس تدريجيا حتى صارت من أهم المدن العراقية في شمالي البلاد. وتعتبر مدينة (الديوانية) على الفرات، من المدن التي نشأت - في هذه الفترة - بدافع إداري حكومي، حقيقة إنها قامت أول الأمر كدار ضيافة (ديوان) لرؤساء الخزاعل وليقيم بها وكيلهم لجباية الضرائب، إلاَّ أن حكومة المماليك في بغداد اتخذتها مركزا إداريا لها، يقيم فيه نائب الوالي ويشرف على جمع الضرائب في منطقة واسعة تمتد من الحلة حتى البصرة، وليكون رقيبا قويا إزاء مشيخة الخزاعل القائمة هناك، ولقد تحول هذا المركز الإداري المحض ليكون مدينة وعاصمة لحكومة الحسكة.

ب. **عامل التجمع القبلي:**

مثلما كانت المدينة تمثل في حقيقة وجودها مظهر سيادة الدولة، فان القلاع الكثيرة المنتشرة في طول البلاد وعرضها، كانت تمثل -في واقع الامر- مظهر سيادة القبيلة على الريف، ذلك أن القبيلة بتكوينها مجتمعا مستقلا يمارس سلطات متنوعة عسكرية واقتصادية، كانت تحتاج إلى شيء من مظاهر تلك السلطات، فكان للقبيلة قلعة أو قلاع يتحصن فيها

شيخها وأتباعه عند الممات ودار ضيافة يستقبل فيها ضيوفه وضيوف قبيلته وفيها تنعقد المخالفات وتدبر الأمور، وسجن يلقى فيه بخصومه أو أسراه من القبائل الأخرى. ومن هنا فقد ظهرت القلعة كضرورة ملازمة لوجود القبيلة ذاتها، فمن تلك القلاع المشهورة، يمكن أن نذكر قلعة (لملوم) على الفرات، بالقرب من منطقة المستنقعات (البطائح)، وكان شيخ الخزاعل قد بناها في القرن الثامن عشر لتكون عاصمة له، وقد وصفها نيبور عام 1766م بأنها قرية كبيرة، وان بيتها ليست إلاَّ أكواخا من الطين والقصب. وفي حوالي عام 1816م أسست مدينة الحي الحالية بالقرب من اثار واسط القديمة على أيدي آل علي خان، احد زعمائها، وأهل النفوذ فيها، وفي عام 1848م شيد الشيخ مجيد الخليفة قلعته التي عرفت فيما بعد ببلدة سيعيدة. وتعد مدينة الكوت نموذجا للقلاع القبلية، فقد أسسها بنو لام في النصف الثاني من القرن الثامن عشر لتكون عاصمة لحكمهم، وكان موقعها على شاطئ دجلة حصينا إلى درجة كافية للسيطرة على الطرق النهرية في دجلة. وكذلك تأسيس قرية السماوة على الفرات حيث كان شيوخ الخزاعل يجبون فيها الضرائب على السفن المارة، وكانت بيوت هذه البلدة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر مشيدة بالطين المجفف في الشمس وذات منظر مزري للغاية، وهي محاطة بسور من الطين. أمّا مدينة العمارة، فكانت قرية تسكنها الاعراب، وفيها قلعة ومثلها بلدة البغيلة (وتعرف اليوم بالنعمانية) التي نشأت حول قلعة الاجر شيدها شفلح شيخ قبيلة زبيد.

ج. **العامل التجاري:**

إن استقرار الحياة الحضرية في المدينة العراقية منذ مطلع القرن الثامن عشر وتعاظم أهمية انشطتها الاقتصادية والاجتماعية، قد زاد من حدة التباين والاختلاف بين الانتاج الريفي البسيط المرتكز على الزراعة، وانتاج المدينة القائم على الصناعة والتجارة، وكلما ازداد هذا التباين، ظهرت الحاجة إلى اسواق تباع فيها منتجات الريف إلى حد سواء، وتتوفر فيها ما تحتاجه القبائل الرعوية والمزارعة، وما يحتاجه التجار والصناع في المدينة ذاتها. وقد ساعدت هذه الحاجة الاقتصادية الناشئة على تشييد مخازن الحبوب والاصواف،

والمنشآت الدينية كالمساجد، فأدى ذلك إلى ظهور بعض المدن داخل المناطق الزراعية وعلى الحدود بينها وبين البادية، وشجع استقرار بعض القبائل التدريجي على نمو هذه الاسواق وازدهار الحركة التجارية فيها، ومن الامثلة على المدن التي نشأت بهذه الطريقة، مدينة (سوق الشيوخ) التي مازال اسمها يدل على الوظيفة التي كانت اساس وجودها، وقد عرفت هذه المدينة أول الامر بسوق النواشي، حيث كان افراد قبيلة النواشي وبعض القبائل الرعوية الأخرى يحصلون على ما يحتاجون من الطعام والبضائع من هذه السوق قبل رحيلهم إلى البادية. ويبدو أن هذه السوق كانت موسمية، فقد خلت كتابات الرحالة من أي ذكر لها وعندما استقر ال سعدون، وهم شيوخ المنتفك في المنطقة، واخذوا يترددون عليها اشتهرت هذه السوق باسم سوق الشيوخ نسبة اليهم. وقد اتخذها هؤلاء على عهد الشيخ ثويني في اواخر القرن الثامن عشر مركزا ثابتا لهم، ومخزنا لذخيرتهم ومكانا لتجمعهم. وبالإضافة إلى نمو الاسواق باعتبارها مراكز تبادل تجاري بين الريف والمدينة فان حركة التجارة هذه قد ادت أيضاً إلى احياء الطرق التجارية القديمة وتأمينها ضد اللصوص المعتدين، وتوفير الخانات اللازمة لنزول التجار، وخزن بضائعهم، وكانت حركة القوافل الدائبة تقتضي توفير اعداد من الادلاء والحراس والدواب لعدد كبير من التجار والمسافرين، كما تتطلب توفير وسائل الراحة من ماء وطعام، فكان طبيعيا أن تنشأ بعض القرى والمدن حول عدد من خانات الطرق، في اماكن مناسبة لتستطيع تقديم مثل هذه الخدمات الضرورية. هذا وان بعض المدن قد شهدت في العهد العثماني تطورا ونموا منها مدينة اربيل، فقد احتلت المدينة موقعا جغرافيا مهما في القسم الشمالي من العراق، مما جعلها محطة رئيسة على طرق المواصلات، ففيها تمر اقصر الطرق التي تربط المدن مع بعضها البعض. وقد ارتبطت اربيل مع مدن العراق بعدد من الطرق البرية الرئيسة المهمة، والتي كانت تتفرع منها طرق فرعية اقل اهمية. ومن المدن التي شهدت نموا في العصر العثماني الاخير نظرا لموقعها التجاري مدينة الكوت، فقد ظهرت هذه المدينة في منتصف القرن الثامن عشر، لتكون ميناء نهريا، لوقوعها على نهر دجلة عند تفرع نهر الغراف، فصارت مرفأ لاستراحة الملاحين، وسوق للتزود بالطعام، ومكان لتبديل السفن. وقد استطاعت تلك المدينة الناشئة من تثبيت

وجودها سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، مما حدا بالحكومة العثمانية الى ان تجعلها قضاء تابع للواء بدرة وجصان عام 1895 وحتى الحرب العلمية الاولى عام 1914.

ـ الخانات:

رافق المدن تزايد الخدمات المرتبطة بها، فانتشرت الخانات والمحطات على مختلف الطرق، ولاسيما في الاماكن التي تتباعد فيها المدن والقرى، ويصف الرحالة فيدريجي خان ضخم للتجار في بغداد فيه غرف لمبيت التجار، اذ يعرض فيه القسم الاكبر من اولئك التجار الاجانب بضائعهم لغرض بيعها. ويتحدث الرحالة تخيرا عن كثرة الخانات في بغداد التي يقيم فيها التجار، وهي كثيرة الارتياد وتغلق كل الشوارع والخانات في كل ليلة بسلاسل حديدة غليظة. وكانت على طريق النجف - وهو طريق الحجاج أيضاً- مجموعة متصلة من الخانات الكبيرة، مثل خان الكهيا في الجنوب من بغداد، وربما كان في بغداد اكثر من 34 خانا. وخان ازاد، الذي انشئ ليتسع لنحو خمسمائة شخص، وقد احاطت بالخان قرية صغيرة سكانها الاعراب من اهل الناحية، وما تزال هذه القرية عامرة. ومن تلك الخانات المهمة أيضاً، خان الاسكندرية المشيد في حدود عام 1800م، وهو يتسع لألف شخص مرة واحدة، وتتوفر فيه كل وسائل الراحة في ذلك العهد، أمّا خان المحمودية، فيرتقي إلى القرن (السابع عشر الميلادي) ويماثل خان الاسكندرية من حيث الفخامة والاتساع، ومثله خان المحاويل، وفي اوائل القرن التاسع عشر كانت هذه الخانات قد تحولت جميعها إلى قرى تجارية مهمة يسكنها العرب، ويديرون فيها امورهم دون تدخل يذكر من جانب الحكومة المركزية. وعلى طريق بغداد - كرمنشاه التجاري، شيدت مجموعة من الخانات والمحطات، ومن أهمها خان بني سعد الذي انشأه والي بغداد عمر باشا عام 1688م ليتوسط المسافة بين مدينتي بغداد وبعقوبة، وهو شبيه بالخانات السابقة، وقد احاطت به، فيما بعد، بلدة صغيرة يعمل أهلها على توفير الراحة للمسافرين. وقد اشتهرت مدينة اربيل في العهد العثماني بخاناتها، فقد صمم كل جزء من الخان هناك لكي يؤدي وظيفة معينة لها علاقة بتسهيل مهمة

التجارة ومن يقوم بها، اذ تمارس عملية الخزن وتبادل البضائع وايواء التجار والمسافرين وحيواناتهم وكل ما هو شأنه ان يخدم هذه الاغراض، ويمكن ان نميز نوعين من الخانات في اربيل هي:

1. الخانات الواقعة في مركز المدينة ضمن منطقة السوق.
2. الخانات الواقعة في اطراف المدينة.

فبالنسبة لخانات النوع الاول الكبيرة منها والصغيرة، فقد تركزت في سوق المدينة أو بالقرب منها، وتعددت اختصاصات هذا النوع من الخانات فكانت للتجارة الداخلية والخارجية مأوى للتجار الغرباء، والمسافرين، ومخازن لبضائعهم. وبعض هذه الخانات مكونة من طابقين، وتكون عادة مزدحمة بالتجار، والقوافل التجارية. اما النوع الثاني من الخانات الموجودة في اطراف المدينة فهي لا تختلف عن النوع الاول، الا من حيث الوظيفة، والحجم، وطراز عمارته وموقعه. وقد ذكر الرحالة نيبور احد هذه الخانات التي تقع جنوبي قرية قوش تبه ويسمى خان عادلة نسبة الى ابنة والي بغداد احمد باشا، الذي امر بحفر بئر واقامة الخان في المنطقة لتسهيل سفر القوافل وسعاة البريد، وقامت ابنته عادلة خاتون بتوسيع هذا الخان لتأمين راحة المسافرين، ولتطوير المكان سمحت السلطات بزراعة الاراضي المحيطة بالخان لكل من يرغب من سكان المنطقة.

ـ النزاعات الداخلية في المدن:

كانت المدن تتألف من عدد من المحلات الصغيرة، والتي كثيرا ما كانت تنشب بين افرادها نزاعات عديدة، وقد برزت هذه الظاهرة بشكل واضح في العهد المملوكي. فقد جرت العادة في عهد المماليك انه حين ينشب نزاع بين فريقين منهم على الحكم تنتقل عدوى النزاع الى سكان بغداد، فكل فريق من المماليك يستنجد عند النزاع بأصدقائه من رؤساء المحلات، وهؤلاء بدورهم يستصرخون اهل المحلة، فتهب المحلة بسلاحها للقتال الى جانب الفريق الذي استنجد بها، وبهذا تنقلب ميادين بغداد ودروبها الى ساحات حرب.

ولنا من المعارك المحلية التي نشبت في بغداد في اعقاب وفاة عبد الله باشا عام 1777 مثالا جيدا. فبعد وفاة هذا الوالي المملوكي بدأ التنافس على الحكم بين عجم محمد واسماعيل اغا الكهية، وانقسمت محلات بغداد الى فريقين متناحرين كل فريق منهما يؤيد احد المتنافسين. فقد وقفت محلات الفضل والمهدية والقراغول والميدان الى جانب عجم محمد، بينما وقفت محلات راس القرية وباب الشيخ والشورجة الى جانب اسماعيل اغا. وقد انحاز المماليك الى اسماعيل اغا بوجه عام، اما الانكشارية فقد انقسموا الى فريقين، وانحاز الجنود المحليون الى من كان يدفع لهم مالا اكثر. وصار كل فريق يكتب العرائض ويجمع التواقيع ويبعثها الى السلطان في سبيل تعيين مرشحه واليا على بغداد بدلا من مرشح خصمه. وقد حاول سليمان بك الشاوي رئيس العبيد تهدئة الحالة وكان ذا منزلة محترمة لدى مختلف الطبقات في بغداد، فارتأى ان يخرج المرشحان كلاهما من بغداد حتى ينجلي الوضع. فوافق على ذلك اسماعيل اغا غير ان عجم محمد ابى وعاند. وكان اهل الميدان من اشد انصار عجم محمد، وقد استنجد بصديقه احمد اغا رئيس اللاوند الذي كان في بعقوبة فأنجده بجماعة كبيرة من اللاوند، وقد جاء هؤلاء فخيموا تجاه مقبرة الشيخ عمر فتقوى بمجيئهم اهل محلة الميدان. ومن الجانب الاخر تقوى اسماعيل اغا بانضمام سليمان بك الشاوي وعشيرة العقيل اليه، وعبرت عشيرة العقيل دجلة من الكرخ وجعلوا متاريسهم على رأس الجسر قرب المولى خانه. وقد دامت المعارك بين الفريقين خمسة اشهر نهبت فيها الاسواق والبيوت وسفكت الدماء وانتهكت الحرمات، واصبح القتال مشهدا من مشاهد الاسواق في كل يوم، ولم تهدأ الحالة الا في شهر ايار عام 1778 عندما وصل حسن باشا الكركوكلي وهو يحمل فرمانا من السلطان بولاية بغداد، ودخل الوالي الجديد بغداد بموكب رسمي حافل فهرب عجم محمد الى نواحي ديالى بمعونة صاحبه احمد اغا، ومن هناك صارا يقطعان الطرق ويغيران على بغداد. وقد تكرر المشهد نفسه في اعقاب وفاة سليمان باشا الكبير عام 1802، اذ لم يكد سليمان باشا يلفظ انفاسه الاخيرة، او ربما قبل ساعة من ذلك حتى بادر احمد اغا رئيس الانكشارية بجمع من استطاع جمعهم من الرعاع والسوقة واستولى على القلعة فتحصن بها، واخذ يضرب السراي بالقنابل، وعندما سمع الناس هدير

القنابل اسرعوا فاغلقوا دكاكينهم، وامتلأت شوارع بغداد بالمسلحين من الاهالي وبقيت الحالة مضطربة فترة من الزمن.

- ابرز المدينة العراقية في العهد العثماني:

امتازت المدن العراقية في العصر العثماني بعدة ميزات واضحة اقتضتها طبيعة الظروف العسكرية والاجتماعية والاقتصادية للعهد المذكور كما اقتضتها أيضاً النظرة العثمانية لتخطيط المدن المرتكزة اساسا على الجانب العسكري الدفاعي فيها، ولقد انعكست هذه المؤثرات على تخطيط المدينة العراقية فشملت بذلك اهم مرافقها الرئيسية، كالقلاع والاسوار وسراي الحكم(مقر الحكم) والاسواق والدور والميادين العامة علما ان المدن العراقية كانت شوارعها ضيقة كذلك اسواقها ، وكانت الاسواق عادة قريبة من منطقة السراي. وتتفرع من السوق عادة مجموعة من الاسواق المتخصصة بنمط معين من التجارة والتي تؤلف بمجموعها حيا تجاريا كبيرا، فكل مدينة لها اسواق عديدة يختص كل منها بتجارة معينة من البضائع، والتي غالبا ما يسمى السوق باسم البضاعة التي تتاجر فيه مثل سوق العطارين، سوق البزازين...الاخ. لم تكن اوضاع المدن في العراق جيدة للأسباب الانفة الذكر، ومن خلال ما وصلنا من معلومات عن المدن العراقية يتضح ذلك بشكل جلي، ومنها مدينة بغداد.

لقد تحولت بغداد بعد الغزو المغولي عام 1258 من عاصمة دولة عظيمة الى مدينة اقليمية، ثم تولت عليها الغزوات والمعارك سواء أكان ذلك في العهد الجلائري والتركماني ام الحكمين الصفوي والعثماني، حيث كانت تتناوب بغداد خلالها الايدي المتنازعة وتتحكم فيها القوى الطامعة، فضلا عما اصابها في هذه العصور من كوارث واوبئة وحرائق وفيضانات، غير ان بغداد رغم ذلك حافظت على سيادتها وبقائها كعاصمة فعلية للعراق.

لقد كانت مدينة بغداد مربعة الشكل، مشيدة من صخور بيضاء واخرى حمراء، وان اقدم وصف لها في العهد العثماني يعود الى الرحالة الهولندي ليونهارت راوولف الذي زار

المدينة عام 1573، اذ يذكر انها تقسم الى قسمين، وكانت شوارعها ضيقة، واكثر منازلها واهنة البناء، والكثير من جوامعها مخربة حتى تحول لونها الى السواد. ولم يلفت انتباهه سوى مقر الباشا والي بغداد، وسوقها، اما حماماتها فهي رديئة وسوداء ومعتمة حتى في النهار، وجانب المدينة الايمن مكشوف والدخول والخروج منها سهل جدا، حتى انها اشبه بقرية كبيرة اكثر منها مدينة، اما الجانب الكائن على الجانب الايسر من دجلة فقد كان محصنا بالأسوار والابراج العالية والخنادق المحيطة بالسور. ويصف الرحالة فيدريجي مدينة بغداد في القرن السادس عشر بانها مدينة ليست عظيمة، غير انها مكتظة بالسكان، وكثيرا ما يأوي اليها الغرباء من ايران، أو الدولة العثمانية، أو شبه الجزيرة العربية. ومنها تنطلق القوافل الى مختلف البلدان، اذ تتوفر في بغداد المؤن، التي تنقلها الارماث أو القوارب عبر نهر دجلة. ويصف الرحالتين جون نيوبري بغداد عام 1583، ورالف فيتش(1583–1589) بشكل لا يختلف عن وصف فيدريجي.

اما جون ايلدرد مدينة بغداد فيصف في العام نفسه الذي وصفها فيه نيوبري، ويقول انها مدينة يجري نهر دجلة بالقرب من سورها، ويبلغ سورها اكثر من ميلين، وسكانها عموما يتكلمون ثلاث لغات هي العربية، والفارسية، والتركية. وكانت مركز تجاري عظيم لأنه طريق مرور من الهند الشرقية الى حلب والمدينة مزودة بشكل جيد بالمؤن التي تأتي عر نهر دجلة من الموصل. كانت مبانيها مبنية من الاجر المجفف بالشمس، وهناك القليل جدا من الاحجار، وبيوتهم كلها ذات سطوح مستوية وواطئة.

اما الرحالة البرتغالي تخيرا الذي زار بغداد عام 1604 فقد رأى انها اصغر حجما من البصرة، واقل تأثيرا، وهي خالية من الابنية الحجرية الفخمة، ولكن تخيرا لاحظ كثرة المقاهي الممتدة على شاطئ دجلة، والتي يلتقي الناس فيها لشرب القهوة والتحدث، ووصف المدينة بانها تتمتع بجو هادئ ونسيم عليل. وكان الوالي العثماني يقيم في القلعة وهي كبيرة ومستطيلة الشكل، ومحاطة بخندق يبلغ عمقه 8 اذرع وعرضه 12 ذراع، وجدران هذه القلعة من الاجر وفي الجدار بعض الفتحات التي تطل منها قطع المدفعية. ويقول الرحالة بترو دلا فاله الذي

شاهد بغداد عام 1616 انها تقع على جانبي دجلة، وان شطرها الاكبر على الجانب الشرقي، وهو مسور، وفيها جوامع كثيرة، واسواق حسنة البناء مغطاة، كذلك فيها بساتين واسعة، يكثر فيها النخيل والليمون والرمان، ويتصل جانبا المدينة بجسر من القوارب عددها 30 قاربا، اما الباشا فيسكن في القلعة قرب سور المدينة على الجانب الشرقي منها. ونلاحظ ان المدينة قد شهدت تحسنا نسبيا قياسا لما قرأنا عنها في الربع الاخير من القرن السادس عشر، ولكن هذا التحسن سرعان ما انتهى نتيجة عودة الصراع العثماني-الصفوي على العراق، ففي عام 1623 عاد الصفويون واحتلوا العراق، ويتحدث الرحالة ريتشارد كوك عن ذلك ويصف بغداد انها هوت مجددا الى الحضيض، فقد اصاب الحصار كثيرا من البنايات الكبرى فيها، كما شهدت انهيار المدارس والحياة الثقافية انهيارا تاما. وبعد خمسة اعوام فقط من زيارة كوك كتب الرحالة توماس هربرت عن بغداد الذي يقول عنها انها مدينة ليست كبيرة ولا جميلة، وهي محاطة بسور قد يصل طوله الى ثلاثة اميال واكثر، ولا يوجد في المدينة كلها ما يستحق الذكر فهي لا تضم سوى الجسر والجامع وقصر السلطان والمقهى والبساتين.

ولم تكن بغداد بأحسن حال حينما زارها تافرنييه عام 1652، اذ اشار الى ان ابواب المدينة تفتح عند السادسة صباحا، وان مساحة المدينة تبلغ 1500 خطوة طولا، و800 خطوة عرضا، ومحيطها ثلاثة اميال، وللمدينة عدة ابواب هي:

1. باب الامام الاعظم: ويقع في الجبهة الشمالية وهو باب محكم الصنع يمتد على خندقه جسر قوي.
2. باب الظلام: ويقع في الجنوب الغربي من بغداد، وهو باب حصين محكم التركيب من طبقات حديدية.
3. الباب الابيض: ويقع في الجبهة الشرقية في بغداد وينفتح الى جهة ديالى.
4. باب الطلسم: باب صغير يقع ما بين باب الظلام والباب الابيض، ويعرف باسم الباب الوسطاني لتوسطه البابين المذكورين.
5. باب الجسر: يقع في الجهة الغربية من بغداد على شاطئ نهر دجلة.

وللمدينة خمسة جوامع، اثنان مبنيان بطريقة بديعة، وفيها عشرة خانات بناءها رديء، عدا اثنين منها يستعمله المسافرون للراحة، وبشكل عام كانت المدينة سيئة البناء، لا جمال فيها عدا اسواقها. ويصف الرحالة التركي اوليا جلبي الذي زار بغداد عام 1655 القلاع والاسوار التي تحيط بالمدينة بانها تدخل الرعب والرهبة بنفس كل من ينظر اليها من جوانبها الاربعة. ومع ذلك لبثت بغداد طيلة القرن السابع عشر الميلادي يسودها الركود والخمول والانزواء، فالرحالة الايطالي الاب فنشنسو يقول ان المدينة كانت واسعة ومكتظة بالسكان، ولكن بيوتها ليست ذات شأن، فهي مشيدة بالجص والطابوق غير المفخور. وقد احترق قبل سنوات من مجيء هذا الرحالة قسم كبير من المدينة، وليس هناك من يفكر بإعادة ترميمها. والمدينة ليست وحدة متكاملة لان النهر يقسمها الى قسمين، وقد تم اقامة جسرا من القوارب على النهر ليربط بين القسمين. وان احسن البنايات وأقواها تحصينا هي تلك الواقعة شمالي المدينة المطلة على نهر دجلة، وبعض تلك الابنية جديرة بالاعتبار، اولها السراي وهو مركز رجال الحكم، اما القلعة فتنتصب في الجهة الغربية، وفيها عدد كبير من الجنود لحمايتها. وينظر الاهالي اليها نظرة خوف وتعظيم، وفيها مدفعية جميلة. واشار فنشنسو ان الماء يباع في بغداد، ويجلبونه من الشط في قراب كبيرة من الجلد، وعلى ظهور الثيران والجياد، رغم تلوث المياه بالقار. واكثر ما اثار اعجاب هذا الرحالة هو الاراضي الواقعة على ضفاف دجلة والفرات التي كانت خصبة وكثيرة العطاء. والخيرات في بغداد وفيرة جدا، فالقمح كثير، وكذلك اللحوم ومختلف انواع الفاكهة. وكانت الطرق مليئة بمختلف انواع الحبوب وهي تباع بأسعار بخسة. وكانت الاسواق التجارية جميلة وواسعة، ومغطاة بسقوف. ومر بها الرحالة ثفينو عام 1665، اذ ذكر انها اصبحت قليلة السكان بالنسبة الى سعتها، تتخللها مساحات واسعة عديدة تخلو من السكان، وفيها عدا السوق فان ما تبقى من المدينة لا يعدو ان يكون شبيها بالصحراء.

خلال القرن الثامن عشر كانت بغداد ما تزال في اوضاع سيئة، فالرحالة فالدنماركي كارستن نيبور يذكر ان القسم الاعظم من داخل المدينة مهدم وغير مسكون، اما القسم

المأهول بالسكان فهو الذي يقع على نهر دجلة والقريب من سراي الباشا، وفيها شوارع كثيرة تغلق كل مساء، ومعظم البيوت مبنية بالطابوق، وهي عالية نوعا ما، وليس فيها نوافذ تطل على الشوارع، وفي وسطها ساحة صغيرة مربعة الشكل تطل عليها جميع غرف المنزل، وفي كل بيت يوجد سرداب يقضي فيه البغداديون طيلة النهار في الصيف لاتقاء الحر. ويشير نيبور كذلك الى كثرة التكايا الصوفية في بغداد ومنها القادرية والرفاعية، فضلا عن وجود اكثر من عشرين مسجدا تعلوها المنائر، وفيها 22 خانا، سبعة منها يسكنها تجار كبار، وهناك عدة حمامات، ومستشفى ذو غرف قذرة مظلمة يحجر فيها جميع المجذومين والمصابين بالأمراض المعدية. وفي عام 1775 وصف بغداد البريطاني بارسونز، الذي يشير الى انتشار المقاهي بصورة كبيرة، وعندما سال عن عددها عرف بان عددها 955 مقهى، وجميعها مسجلة في سجلات الحكومة، اذ تؤدي ضريبة سنوية، وعلم بأن هناك 490 طلبا لفتح مقاه اخرى. وشوارع بغداد ضيقة غير مبلطة، اما اسواقها فكثيرة والضخمة منها مسقفة، وهي جيدة التموين ومزدحمة. وفي عام 1791 زار الفرنسي الرحالة اوليفييه بغداد، وقال انها مدينة ليست كبيرة، ولا اهلة بالسكان، والبيوت فيها ليست عالية ولا مبنية بشكل متين، وهي بسيطة المظهر من الخارج، وفيها قليل من الشبابيك، وليس فيها سوى طابقين، ومرتبة كلها تقريبا على شكل مربع، ومن الداخل هناك ساحة صغيرة مزروعة فيها نبقة ونخلتان أو ثلاث. اما بيوت الاغنياء فان لها فناء ثان يستعمل كحديقة، ومجموعة سكنية مخصصة للنساء يقيم فيها الحريم. ويصف اقسام المدينة بانها قذرة وموحلة في الشتاء وتعج بالتراب صيفا، والازقة ضيقة واقل ازدحاما من الاسواق. وشكا الرحالة البريطاني جاكسون الذي زار بغداد عام 1797 من شوارع بغداد المتربة والضيقة جدا، والتي تركت دونما اهتمام. ويبدو ان بغداد في القرن التاسع عشر لم تختلف كثيرا عن القرون السابقة، الا انها شهدت توسعا نوعا ما، فالرحالة الهندي مرزا ابي طالب خان زار بغداد عام 1803 وقال بانها مقسمة الى قسمان بغداد الحديثة، وبغداد القديمة، والمدينة الاولى من الجهة الشرقية وفيها يقيم الباشا وكبار الموظفين، والثانية من الجهة الغربية من النهر وفيها منازل جميلة جدا، ويبلغ محيط المدينتين

8 اميال، الا ان مرافق بغداد لا تتناسب مع شهرتها، فعقودها قذرة وموحلة، والاقامة فيها مكروهة في الشتاء، واسواقها مظلمة، الا انه ميز دور اعيان المدينة المبنية بالأجر، واشار ايضا الى كثرة المقاهي وهي مظلمة وقذرة. ووصف الرحالة روسو سراي باشا بغداد عام 1809 بانه فسيح يحوي في داخله على منازل جميلة، والبذخ الظاهر في تأثيثها لا يكذب ما يعتقده الاوربيون عن الابهة الشرقية. اما الرحالة البريطاني بكنغهام الذي زار بغداد عام 1816، فقد قدم لنا صورة جيدة عن بغداد، فالشوارع ضيقة وغير مبلطة، ويتألف جانباها عادة من جدارين خاليين من المشاغل، يندر فيها وجود النوافذ، في حين تكون ابواب البيوت صغيرة وضيقة، والشوارع ملتوية واكثرها تعرجا، وكانت بناية السراي عصرية نوعا ما، ويعتقد ان المساجد في بغداد اكثر من مائة مسجد، وهناك ايضا اكثر من ثلاثين خانا، واشهرها خان الاورطمة الذي يمتاز بأروقته الكبيرة والصغيرة. ويوجد فيها حوالي خمسين حماما، وكانت احسنها تلك المشيدة بالأجر وكانت ارضيته بسيطة. وكانت القنصلية البريطانية تعد من اوسع المنازل في المدينة وافضلها واكثرها تأمينا للراحة، وبعكس القنصلية الفرنسية التي كانت تقع في دار ضيقة وغير جيدة. وفي عام 1831 زار الرحالة ولستد بغداد في عهد حكم داوود باشا، واشار الى وجود مدارس ملحقة بالجوامع وتحدث بوصف مسهب حول تصميم البيوت البغدادية، واشار الى الديوان الذي يكون مفتوحا امام الزوار دائما، وكانت جدران المنزل البغدادي من الداخل مليء بالمرايا المزينة، وتغطى السقوف هي الاخرى بنقوش الخشب المحفور الذي يعرض المزيد من حسن الذوق. ويضم السراي عدة قصور فخمة. واشار الرحالة البريطاني فريزر الذي زار بغداد عام 1834 الى وجود الشناشيل في البيوت البغدادية، كما تحدث عن الميادين العامة التي تكثر فيها المقاهي، التي يجلس فيها الكثير من الناس وهم يدخنون ويشربون القهوة ويلعبون الشطرنج. في عام 1853 زار الرحالة البريطاني جيمس فيلكس جونز بغداد وقام بإجراء احصاء لعدد المحلات التي تتكون منها المدينة، وما تحويه هذه المحلات من جوامع واسواق وخانات ومقاه وحمامات، وبلغ عدد محلات الجانب الشرقي من بغداد 40 محلة، اما الجانب الغربي فاشتمل على

خمس محلات فقط. ومن ذلك نلاحظ ان التمركز الكثيف للسكان كان في الجانب الشرقي والذي يعد مركز المدينة ومقر الولاية وتفضيل الناس للسكن فيه على الجانب الغربي لذلك السبب. واشار الرحالة الالماني بترمان الذي زار بغداد عام 1854 الى وجود سوق خاص وكبير للكتب في اسواق بغداد، وهي اشارة الى توجه جديد لأهالي بغداد في تجارة الكتب والعمل بها، مما يشير الى انتشار الحركة العلمية والادبية، وذكر ان لبغداد 18 محلة في القسم الايسر من نهر دجلة، ولكنها غير متساوية السعة، اذ يوجد في احدها الفا دار، وفي الاخرى خمسون دارا فقط، واشار الى وجود(90000) دار في بغداد، لكن القسم الاكبر منها خربة من الداخل، واشار الى وجود زقاق خاص بالإنكليز في المدينة توجد فيه المقيمية البريطانية ويسكنه الانكليز الموجودون في بغداد. وزار بغداد في عام 1866 الرحالة الهولندي انيهولت الذي اسهب في وصف المدينة الذي اشار الى ان الجانب الايسر تقوم عليه الاحياء المأهولة، اما الجانب الايمن فيمكن اعتباره ضاحية يسكنها ابناء العشائر. وتتألف البيوت من طابقين، والدور التي على شاطئ النهر تطل بغرف عالية ذات نوافذ جميلة واسعة مزينة بالزجاج الملون، وعد هذا الرحالة ان افضل الابنية في بغداد هو جامع الامام الاعظم، كما تحدث عن شارع الانكليز الذي يحوي دور الجالية البريطانية وينتهي بدار القنصلية البريطانية العامة. ويتحدث الرحالة فوك عام 1874انه عندما اراد زيارة والي بغداد رديف باشا رفض ركوب حصان لان الماشي يسير في شوارع مدينة بغداد براحة اكثر. ويستمر الرحالة فوك في قوله عن مراكز الادارة في مدينة بغداد اذ يذكر ان سراي الباشا لم يكن فخما، وكان موقعه على شاطئ نهر دجلة، وتلاصقه الثكنات(القشلة) ودار الصناعة. ويقيم الباشا في السراي طول نهاره لتمشية الاعمال. وكان الداخل الى السراي يجتاز الباب الخارجي مارا بالحرس، والساحة الخارجية، وفيها عدد من الخيل وعليها سروجها واعتنتها بيد السياس، ثم يمر الداخل بحرس اخرين، ثم يدخل الى ساحة واسعة ممتلئة بمجموعات من الجنود، ومحاطة ببناء مستطيل ذي طابقين، وله طارمات تواجه الساحة، ويشغل هذا البناء الضباط والكتاب. بعد ذلك يتم الدخول الى حجرة امام غرفة الوالي يقوم من يريد الدخول على الباشا بالانتظار فيها. وغرفة الباشا محروسة بجنود يحملون البنادق وقد ثبتت

عليها الحراب. وكانت غرفة الباشا من الداخل واسعة، ومؤثثة اثاثا نفيسا، وهي مطلة على النهر، وقد رصت على جوانبها دواوين عريضة مغطاة بأغطية من الحرير، والستائر على الابواب والنوافذ من القماش الغالي النفيس، وكان الوالي يجلس في اقصى الغرفة قرب منضدة عريضة، عليها ادوات الكتابة واكوام من الاوراق. اما مسكن الوالي الخاص فهو قصر انيق يبعد ميلين شمالا على النهر، وهو محاط بحديقة منسقة تنسيقا انيقا على الطراز الاوروبي. وكانت الغرف مفروشة بترف عظيم، ومزين بثريات فخمة من الكرستال والاثاث الفرنسي والتحف، والسجاد الايراني الناعم، والستائر الحريرية. وفي الحديقة توجد خيمة مصنوعة من الحرير تتعاقب فيها الخطوط زرقاء وقرمزية واحدا بعد الاخر، وقد ارتفع في قمتها علم الباشا، وفي القصر اصطبل فيه عشرات من الخيول العربية الاصيلة. وزارت بغداد عام 1881 مدام ديو لا فوا وهي اديبة ومؤرخة فرنسية، واشارت الى ان في بغداد مدرسة كبيرة انشأتها هيئة فرنسية، وقدمت لنا معلومات عن الترامواي الذي انشاه مدحت باشا والي بغداد السابق، وتحدثت عن خان الاورطمة وبأنه مركزا تجاريا مهما.

لم تكن المدن العراقية بأفضل حال من بغداد، اذ ان الموصل في أوائل العصر العثماني كانت خرائب خالية من السكان. وقد وصف الاب فنشنسو الذي زار المدينة عام 1656 بان المدينة في القرن السابع عشر كانت اقل بكثير مما كانت عليه، فبيوتها بسيطة مشيدة بالطين، وهي اشبه ما تكون بيوت رعاة من ان تكون مساكن اناس متحضرين، وليس فيها ما يلفت النظر سوى قلعتها حيث يوجد عدد كبير من العسكر الانكشاري. ويحيط القلعة سور فيه مراكز للدفاع ضد الهجمات، وليس هناك ما يثير الاعجاب في المدينة. اما مواد البناء فهي الجص، والحجر الرخو. وهذا النوع من البناء لا يقاوم عوادي الزمن، فالأمطار الغزيرة تهدده كل حين، ولهذا السبب كان اقسام من القلعة مائلة الى السقوط، وبعضها متهدمة، وليس هناك من يفكر بترميمها. وقد لاحظ هذا الرحالة كثرة المدافع على السور، ومن عادة الاتراك انهم يكثرون من عدد المدافع فوق الاسوار، ولكن هذه المدافع كانت مطمورة الى نصفها في الارض، ولم تكن مجهزة بعربات، بل كانت مهملة كليا، وكانت عند الابراج عددا

من المدافع وقد اسندت فوق حجارة، وكانت فوهاتها مسلطة على السهول المنبسطة امام المدينة. وتقع القلعة في طرف المدينة الايسر، ويحيط بها خندق تجري فيه مياه النهر، والقلعة مهملة، حيث يسكن فيها الوالي. ومدينة الموصل صغيرة، ضيقة المسالك، فقيرة المنازل، لكنها من جهة اخرى تتمتع بخيرات وافرة نظرا لخصوبة ارضها. ويسكن العرب على ضفاف النهر، وتكثر لديهم اللحوم والقمح ومختلف انواع الحبوب، فضلا عن الفاكهة والدجاج، وكانت الاسعار في اسواق المدينة بخسة الى درجة اثارت دهشة هذا الرحالة. وفي المدينة انواع عديدة من الخيول الايرانية، والتركية، والخيول العربية الاصيلة. ويصف فنشنسو الخان الذي استقر فيه بان بناءه من الجص، وغرفه صغيرة وسيئة، لا يدخل لها الضوء الا من منفذ وحيد هو الباب، وكان الباب بدوره ضيقا مخفيا في رواق قذر.

ويصف كل من الرحالة فيدريجي وجون نيوبري ورالف فيتش مدينة البصرة في القرن السادس عشر بانها مركز تجاري عظيم، لاسيما بالتوابل والعقاقير التي تجب اليها من هرمز، وتتوافر فيها الذرة والرز والتمور، التي تنقل اليها من المناطق المحيطة بها. اما جون ايلدرد فيشير الى ان مدينة البصرة يبلغ محيطها ميلا ونصف الميل، وكانت البيوت والقلاع والاسوار مبنية من الاجر المجفف بالشمس. ويبدو ان مدينة البصرة في القرن السابع عشر لم تختلف كثيرا في اوضاعها عن القرن السابق، فالرحالة البرتغالي بيدرو تخيرا الذي زار العراق في اوائل هذا القرن اشار الى مدينة البصرة انها تقع على ارض منبسطة، وربما كان فيها عشرة الاف بيت داخل الحصن وخارجه، معظمها فسيحة واسعة، لكن بناءها رديء، فهي مبنية بالأجر المجفف بالشمس الذي لا يصمد اكثر من ثلاث سنوات الا ما ندر. وبيوت الفقراء في العموم من الحصران وحزم القصب الذي يكثر في الانهار. وكانت الاسوار والمتاريس هي الاخرى مبنية من الطين، وكلها مهدمة تقريبا. ويحيط بالمدينة خندق عميق وعريض يغذيه رافد. وخلف الاسوار مراكز الحركة التجارية، ومعظم الحرف اليدوية ايضا، فضلا عن المقرات الرئيسة ومراكز القيادة ومعظم الحامية، وهناك الباشا وهو القائد الاعلى في حالتي السلم والحرب، ودار مكوس تدر عوائد كبيرة تدفع منها نفقات الحامية وغيرها من

التكاليف. ولا توجد في مدينة البصرة مباني جديرة بالذكر باستثناء بعض الحمامات العامة وهي نظيفة جدا ومريحة.

اما الايطالي فنشنسو فقد وصف مدينة البصرة عام 1656، التي يقول عنها انها اقدم المدن في المنطقة العربية، وقد طبقت شهرتها الافاق، وكانت قبلة الكثيرين من مختلف القوميات لأنها محطة مهمة على الخليج العربي، اما عمارتها فأنها مثل بقية المدن العراقية فليست على جانب كبير من العظمة، وليس فيها ما يجذب النظر، وتتناثر دورها بين بساتين النخيل. ويتحدث جون تايلر عن البصرة اثناء رحلته الى العراق عام 1789–1790 ويقول ان البصرة كانت مستودعا للتجارة، ولها اسوار تحيط بها، وفي هذه الاسوار ابراج مدورة، ولكن لا قيمة دفاعية لها، وكانت تابعة اداريا لبغداد، وليس فيها من الجنود والعتاد ما هو جدير بالذكر، ما عدا مجموعة من الفرسان تعمل على حماية المتسلم. ويشير تايلر انه لا وجود لفن البناء في مدينة البصرة، فبيوتها منخفضة وهي مشيدة بالمدر الابيض الذي لم يفخر بالنار، ولكنه مصنوع من طين فاخر ونظيف للغاية، بعد ان يخلط جيدا بالتبن وروث الخيل. وتخلط هذه المواد مع الطين وتعجن جيدا، ثم تقسم الى قطع حسب الاحجام المطلوبة وتعرض من ثم للشمس لتجف وتتماسك. وان سكان المدينة مضطرون الى اتباع هذه الطريقة لافتقارهم الى الاخشاب في تلك الانحاء. والخشب الوحيد المتوفر لديهم هو خشب النخيل لكنه رخو ضعيف فلا فائدة ترجى منه.

وزار الرحالة الهولندي راوولف قلعة اربيل عام 1573 يصفها بانها كانت مدينة كبيرة فيها ابنية متواضعة واسوار هزيلة. ويبدو ان السبب في ذلك يعود الى امرين مهمين هما الاضطراب السياسي الذي شهدته المدينة منذ الغزو المغولي للعراق، ثم الصراع الصفوي-العثماني فيما بعد للسيطرة على العراق، حيث كانت اربيل منطقة تجاذب بين الدولتين للسيطرة عليها، الامر الذي ادى الى تدهور قلعة المدينة وفقدانها مكانتها وخصائصها العمرانية. ويبدو ان تلك القلعة لم تشهد تطورا كبيرا خلال القرون اللاحقة، ويتضح ذلك من شهادتين جاءتنا من القرن الثامن عشر، فالرحالة الدنماركي كارستن نيبور

الذي زار العراق عام 1766 يصف اربيل بانها لم يبق منها شيء عدا القلعة، ولكنها لم تكن مسورة، واقيمت عليها البيوت ولاسيما حول حافة التل بصورة متماسكة، فلا يستطيع احد ان ينفذ خلالها الا من خلال باب المدينة. ويقول الرحالة اوليفييه ان قلعة اربيل مبنية على تل مسطح ويحيط بها سور قديم. وكانت اسواق مدينة اربيل واسعة وجميلة ومكتظة بالتجار، وان معظمها مغطاة بالسقوف ومزينة بطريقة جميلة. ومخازنها مبنية من الطابوق وهي ملآى بالبضائع.

لم يكن في قلعة اربيل من الاثار الشاخصة غير بقايا جامع كبير يقع خارجها وسط الحقول، ومنارة الجامع مبنية من الجص والاجر، وتتميز بعمارتها الاسلامية حيث ان لها مدخلين متقابلين يمكن من خلالهما الصعود الى قمتها. وربما كان حجم مدينة اربيل في القرن الثامن عشر هو الاكبر بعد الموصل، وهي تضاهي بمساحتها مدينة بغداد. وكان الجزء الاعظم من المدينة ينتشر حول القلعة. وكان ارتفاع القلعة نحو 150 قدم، وقطرها 400 ياردة. وجدرانها الخارجية تحتوي على نوافذ مبنية بطريقة غير منظمة، وما عداها هناك شرفات المنازل التي شيدها اغنياء المدينة. وللقلعة بابان كبيران، احدهما واسع يقع على الجهة الشمالية ويمر من تحت السراي، والاخر صغير يقع في الجهة الشرقية. وشوارع المدينة وعرة حتى ان العربات لا يمكن ان تسير فيها. وعد العثمانيون اربيل وقلعتها من المراكز العسكرية المهمة في المنطقة، لذا كان فيها حامية عسكرية عثمانية.

ومن المدن الاخرى التي وصلتنا عنها معلومات وان كانت قليلة مدينة تكريت التي يقول الايطالي فنشنسو انها كانت في الماضي مدينة كبيرة وواسعة الاطراف، لكنها كانت في منتصف القرن السابع عشر قرية عادية، وفيها قلعة كبيرة واقعة على تل مسيطر على النهر، لها اربع ابراج. كما وردتنا معلومات جيدة عن مدينة الكوفة فقد ذكرها الرحالة الفرنسي اوليفييه، واشار الرحالة الانكليزي بورتر عام 1816 الى الحالة المزرية للمدينة، فقد كانت صغيرة المساحة وشوارعها واسواقها ضيقة، اما بيوتها فقديمة وغير منتظمة البناء. كما اشار اليها الرحالة الايطالي سبيستياني وعدها مدينة غير جميلة ومهملة، وان اشاد الرحالة الدنماركي

كارستين نيبور بمزارعها الجميلة. كما تحدث المنشي البغدادي عن الكوفة واشار الى انها بلدة كبيرة ليس فيها من البنايات سوى مسجدها. وكانت بشكل عام خلال القرن التاسع عشر بلدة كبيرة واسواقها غير منتظمة وبيوتها حسنة تحيط بها حدائق وان ظلت بصورة عامة مهملة وخربة. ووصف بيدرو تخيرا مدينة كربلاء في اوائل القرن السابع عشر بانها مدينة كبيرة مفتوحة تضم اكثر من 4000 منزل، كثير منها جيدة العمارة ولكن بناءها بائس، وسكانها من المواطنين العرب ومن الاتراك الذين تم ارسالهم للسيطرة على المنطقة. وفي المدينة جامع تعلوه مأذنة مكرس للحسين(ع). وفي طرف المدينة هناك مستودعان كبيران مربعان، يستخدمان اماكن للراحة والضيافة. ومن المدن التي وصلتنا معلومات عنها مدينة الفلوجة التي وصفها جون ايلدرد عام 1583، ورالف فيتش(1583-1589) وكانت قرية صغيرة تضم بضع مئات من البيوت وهي مركز مخصص لتفريغ البضائع التي تأتي عبر الفرات.

ـ التطورات المعمارية في المدن:

شيد الولاة العثمانيون في العراق العديد من المساجد والمباني العامة، فقد انشأ الوالي اسكندر باشا جامعا في بغداد عام 1566، كما بنى الوالي مراد باشا جامعا اخر سماه باسمه واكمل بناءه عام 1570 ويقع هذا الجامع في محلة الميدان. وفي عام 1583 عمر الوالي علي الوزندازه ضريح الامام الحسين(ع) وجامعه، كما اهتم الوالي جغاله زاده سنان باشا بتعمير الاضرحة والمساجد والمدارس، وقام ببناء مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني، وتكية المولوية التي تعرف اليوم بجامع الاصفية، وكان بناؤها عام 1590، وبنى الى جانبها خانا ومقهى وسوقا، كما عمر هذا الوالي جامع الصاغة وجامع الخفافين ومدرسته. ومن الجوامع العثمانية الاخرى جامع الوزير ويقع على الضفة اليسرى من دجلة بالقرب من جسر الشهداء الحالي وقد سمي نسبة الى الوزير حسن باشا والي بغداد(1597-1601). ومن الجوامع المهمة في بغداد جامع الخلفاء، ومنها ايضا جامع السليماني ويسمى جامع السراي أو جامع جديد حسن باشا. كما شيد الوالي محمد باشا الخاصكي جامع في بغداد يعرف باسمه، كما شيد مسجد الامام علي بن ابي طالب(ع) في

النجف، وفي عهد الوالي عمر باشا 1679 تم تعمير جامع وقبة ضريح الامام الاعظم ابي حنيفة، كما امر بتعمير مرقد الامام ابي يوسف وجعل له قبة ورواقا، وبنى مدرسة بالقرب من جامع القمرية في جانب الكرخ، كما عمر خان ازاد على طريق بغداد–المحمودية. وفي عام 1688 تم بناء خان بني سعد وهو على طريق بغداد–بعقوبة. ومن الجوامع المهمة في العصر العثماني جامع العادلية الكبير. وشيد سليمان باشا الكبير المدرسة السليمانية، كما بنى قناطر دلي عباس وامر ببناء قلعة كوت العمارة. وشيد مدحت باشا الكثير من العمارات المدنية والعلمية منها المكتب الرشدي العسكري، والمكتب الرشدي الملكي، ومكتب الحميدية، وعدد من المدارس الابتدائية واسس مدرسة الصنائع على نهر دجلة في محلة الميدان.

4.أوضاع المرأة في العراق خلال العهد العثماني:

عانت المرأة العراقية كثيرا من ضروب الاضطهاد والاستغلال والاستعباد والتخلف الذي عانى منه شعبنا في الفترة التي خضع فيها للتسلط العثماني ما بين 1534 إلى 1914م. وعلى الرغم من ذلك، فقد استطاعت المرأة العراقية أن تسهم في بعض المجالات إلى جانب الرجل في ميدان العمل والبناء وان تتجاوز حالة التخلف والقيود المفروضة عليها.

ظلت المرأة العراقية طوال العهد العثماني اسيرة العادات والتقاليد البالية التي لا تعطي للمرأة قيمة بشرية إذ ينظر إليها في مستوى اقل من مستوى الرجل، ويتوجب عليها أن تعيش داخل جدران بيتها، واذا ما خرجت منه عليها أن تلبس الحجاب الذي ترى من خلفه العالم، وعلى الرجال أن يتجنبوا ذكرها في المجالس العامة، لان مجرد الحديث عن النساء يعد خروجا على الادب وولوجا في اسرار البيوت، ولهذا عوض بعض الشعراء والادباء هذا النقص باختراعهم شخصيات نسائية من بنات افكارهم ينسجون حولها القصص الادبية والاشعار استجابة منهم لضرورات عصرهم، أو الكتابة عن شهيرات النساء في التاريخ، دون التطرق إلى ذكر أي من نساء عصرهم.

لم تكن عزلة المرأة مقتصرة على الحجاب فقط، بل انها تعيش في عزلة تامة عن الرجال، حتى داخل بيتها، إذ تقيم النساء في اماكن خاصة من البيت ولا يمكنها الالتقاء بالرجال، وفي هذه الاماكن لا يفتح أي منفذ مطل على الطريق، وتجاه ذلك لم يبق للمرأة من سبيل للترويح عن نفسها سوى الزيارات الجماعية التي تقام بصورة دورية وعندما يأذن الزوج بذلك فقط. وقد يخرجن احيانا من الدار في غير هذه المناسبات وذلك للذهاب إلى الحمامات العامة، التي كانت متوفرة بأعداد كبيرة في بغداد وفي المدن العراقية الأخرى، ولكن في هذه الحالة عليهن بالتستر من أعلى الرأس حتى أخمص القدم حتى ليتعذر على ازواجهن انفسهم تميزهن إذا لاقوهن في الطريق.

كان من الطبيعي أن ينعكس هذا النمط من الحياة على مستوى الوعي الاجتماعي لدى المرأة بشكل عام، ذلك لان مجرد قضائها للوقت بالقيل والقال وتكرار الزيارات، قد اثر على مستوى تفكيرها، بحيث لم يعد بإمكانها أن ترتفع إلى اعلى من نطاق تعلمها المحدود، أو أن تتخذ القرار المناسب في مسألتين مهمتين من مسائل حياتها الا وهما الزواج والتعليم. ففي مسألة الزواج حرمت المرأة حق اختيار زوجها في المدن وفي الارياف على حد سواء، وانما كان وليها يفرض عليها زوجا، غالبا ما يكون ابن عمها أو اقرب المقربين إليها، أو شخصا لم تره ولم تعرف عن اخلاقه شيئا، وقد تسبب هذا الامر بكثرة الطلاق، وفي تربية الاطفال وتوجيههم، إذ تشير كثير من الحوادث إلى أن جهل المرأة بأساليب التربية الصحيحة يؤدي في الغالب إلى وفاة عدد كبير من اولادها، سواء بسبب اسرافها الشديد في اطعامهم، أو سوء التغذية ورداءة البيئة وعدم الوقاية من الامراض، وكان معظم اهتمام الام منصبا على محاولة اطالة اعمار اطفالها بمختلف الوسائل البدائية، بحيث يمكن القول دون مبالغة بانه لا يعيش منهم إلاَّ شديد القوة الذين يستطيعون التكيف لظروف الحياة القاسية.

في مسألة التعليم لم يكن الامر اقل وطأة مما هو عليه في حالة الزواج، فقد كانت فرص التعليم للمرأة أقل من فرص الرجل، لذلك فأن أكثر تلقينها كان منصبا على معرفة أمور الخياطة والتطريز وما شابه تلك الاشياء التي تعد ضرورية اكثر من سواها للإناث في

مثل ظروفها، أما فرص التعليم الحقيقة فقد أحيطت بتقاليد صارمة حرمت المرأة من تعلم القراءة والكتابة لأنها تؤدي – حسب نظرة المجتمع السائدة في ذلك الوقت – إلى افسادها. وهكذا ادى تزمت فئات مهمة من المجتمع العراقي في الحفاظ على بعض الاساليب والعادات البالية، إلى تأخر المرأة وحرمانها من حقها الطبيعي في التعلم اسوة بشريكها الرجل، وظلت المرأة العراقية على تلك الحالة حتى اواخر القرن التاسع عشر، عندما كتب الحظ أن ينشئ لها مدرسة في بغداد، إلاَّ أن انشاء مثل هذه المدرسة لم يمر دون أن تصاحبه عقبات عديدة، من قبل الطبقات المحافظة على القديم، التي كانت تتهم كل من يقوم بأرسال طفلته إلى المدرسة بشتى التهم الباطلة، ورغم ذلك كله فقد تم فتح هذه المدرسة، إلاَّ أن مجلس معارف ولاية بغداد بحث عندئذ الشروط التي يجب توفرها في تلك المدرسة فقرر حصرها في الشروط التالية:

1. ان لا تكون احدى الدور المجاورة لها متسلطة عليها.
2. أن لا تكون شبابيكها مطلة على الشارع.
3. أن لا يكون في الدور المجاورة اشجار عالية.

وكانت الدوافع لوضع هذه الشروط هو تجنب الانتقادات الموجهة إلى مؤيدي فكرة وجوب تهذيب الفتاة وتثقيف عقلها، إلاَّ أن الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي، الذي كان احد اعضاء المجلس المعارف قد ظل صامتا اثناء مناقشة الاعضاء – وكان معظمهم من المحافظين – فلما سكتوا قال متهكما: "أن هذه الشروط يا حضرات الاعضاء لا تنطبق إلاَّ على منارة سوق الغزل". ولم يسلم الزهاوي نفسه من انتقادات المجتمع اللاذعة، إذ قام بنشر احدى مقالاته في جريدة (المؤيد) المصرية، وهي تدعو إلى تحرير المرأة في العراق، وفك اسرها ومساواتها بالرجل، على طريقة المفكر المصري قاسم أمين، ازدادت حملة المعارضة الموجهة ضده بحيث اضطر الزهاوي على التراجع عن افكاره. وبهذه النتيجة ظل وضع المرأة العراقية في العهد العثماني في غاية التأخر، مما منعها من ممارسة دورها الحقيقي في المجتمع كأم ومربية ناجحة ومتعلمة. وعلاوة على ذلك فأن العادات والتقاليد

البالية تناهض تحرم كل تدخل في شؤون المرأة، إذ عندما ارادت الإدارة العثمانية في العراق عملية احصاء النفوس في عام 1893، جوبهت بمقاومة عنيفة، إذ أن الناس اعتبروا بان مثل هذا العمل انتهاك للحرمات وبدعة تمس شرفهم وتحط من قدرهم وكرامتهم، فخرجوا في الشوارع وتوجهوا إلى حيث يقيم الوالي العثماني، مطالبين بإلغاء قرار الاحصاء المذكور، ولم يتفرقوا إلاَّ بعد أن قرر الوالي تأجيل النظر فيه. ولم تكن هذه الحادثة مقتصرة على بغداد، بل حدث ما يماثلها في الموصل، إذ قاوم الموصليون عملية احصاء الذكور والاناث في الولاية، مما اضطر الوالي العثماني على التنازل عن العملية نهائيا.

بهذه الصورة فرض المجتمع كثيرا من القيود على المرأة في الوقت الذي اباح أمورا اخرى كانت تحط من كرامتها وقدرها، فقد وضع القيود على حرية تعليم المرأة، ومنع عملية احصاء الاناث بحجة أن ذلك يمثل امتهانا لكرامة الرجل، والحقيقة انه امتهان لكرامة المرأة اكثر من غيرها، كما شجع استمرار بعض العادات والتقاليد البالية التي تقلل من قيمة المرأة وتظهرها بمظهر الضعف والعجز.

مع كل هذه الظروف الصعبة التي عاشتها المرأة العراقية، إلاَّ انها لم تقف مكتوفة الايدي ازاء ما كان يجري في مجتمعها، فهي في بعض الاحيان تقوم بكثير من الاعمال التي يقوم بها الرجل في اوقت الحاضر، إلاَّ أن مساهمتها اختلفت باختلاف وضعها في المدينة والريف والبادية. فنساء الطبقات العليا في المدن مثلا لم يكّن مطالبات للقيام بنشاطات اقتصادية، كتلك التي تمارسها النساء في الطبقات الوسطى والفقيرة، ولهذا انصرافن إلى مزاولة شؤونهن النسوية الخاصة، مثل الافراط في اقتناء الملابس المختلفة والمجوهرات وتناول القهوة والتدخين والقيام بزيارات جماعية لبعضهن البعض، وقد يصحب تلك الزيارات استدعاء المغنيات لإدخال البهجة إلى نفوس الحاضرات، أمّا نساء الطبقة الدنيا، والوسطى احيانا، فإنهن يمارسن بعض النشاطات، خاصة الغزل المنزلي، بل كانت هناك في بعض مصانع النسيج نساء يعملن في هذه المهنة الشاقة، وكن يعمدن إلى مشاركة الرجل في غزل الصوف بالمغازل ومن ثم غزله بالدواليب (الجومات)، وكانت هذه الصفة الاخيرة هي

من مميزات المجتمع الموصلي أيضاً، الذي كان يعتمد في اقتصاده على صناعة الغزل، بحيث كان يعتبر أن عدم معرفة المرأة بالغزل عيب لا يغتفر في تربيتها المنزلية.

وتتحمل المرأة الريفية والبدوية قسطا كبيرا من أعمال البيت في الداخل والخارج، ففي الداخل تقوم المرأة بتهبيش القمح (فصل الحبوب عن قشرتها) وطحنه بمطاحن تدور بالأذرع، وتهيئة الخبز، واستخلاص الزبد من الحليب، والقيام بأعمال الطبخ وجلب المياه من الابار والانهار أو الينابيع إلى غير ذلك. وفي الخارج تقوم المرأة بمساعدة الرجل في اعمال الحراثة والزراعة والحصاد وجني المحاصيل الأخرى، وفي رعي المواشي ورعاية الحيوانات، بل ان النساء قد يقمن في بعض الاحيان، بخاصة اولئك اللواتي يقمن بالقرب من مراكز المدن، بحمل بعض مشتقات الحليب والدجاج والبيض لعرضها للبيع هناك، والمرأة البدوية لا تقل اعباؤها ثقلا عن اعباء جارتها في الريف، إذ انها تضطلع بجميع الاهتمامات المادية وتقوم بأصعب الاعمال البيتية فهي تنصب الخيام وترفعها وتجلب المياه وتجمع الشوك الجاف للوقود وتحلب الماشية وتسوقها إلى المراعي والمورد وتستخرج الزبدة وتطهي الطعام، ويتحدث الرحالة سوفبوف عن اعباء المرأة البدوية فهي تقوم بغزل الوبر والصوف وحياكة الانسجة الصوفية لصنع الملابس. وعلى الرغم من كل التقييدات التي احاطت بحياة المرأة العراقية فقد كان لها شان في المعارك والحروب بخاصة في اثارة حمية المحاربين وحماسهم، إذ عندما تندلع الحروب تشهد النساء المعارك فينشدن الاهازيج بحق الرجال الشجعان لتشجيعهم على متابعة الحرب ويقذفن بالشتائم وجوه الخوارين والجبناء من الرجال، كما يمددن يد العون إلى المصابين والجرحى ويقع على عاتقهن حراسة الاسرى والمغلوبين. وليس ذلك فحسب بل أن المرأة العراقية قامت بدور السفيرات في الحروب في بعض الاحيان، إذ عندما قامت حالة حرب بين احد شيوخ العشائر العراقي والدولة العثمانية في منتصف القرن التاسع عشر، بعث ذلك الشيخ بزوجته لتفاوض قائد الحملة العثمانية، فاستقبلها القائد استقبالا فيه كل مظاهر التقدير والاحترام وانزالها في ديوانه. ويدل هذا الامر على مدى الثقة التي كانت تتمتع بها المرأة العراقية والادوار المهمة التي كانت تناط بها في بعض الاحيان.

5.الطوائف الدينية في العراق:

ان المعلومات المتوفرة عن الطوائف الدينية في العراق في العهد العثماني ليست بالكثيرة، مما شكل صعوبة في تتبع احوال هذه الطوائف اثناء ذلك العهد.

شكل المسيحيون طائفة مهمة من سكان العراق، ومع ذلك لا نعرف الكثير عنهم في العهد العثماني، ونعرف ان لهم عدة كنائس هي:

1. كنيسة الارمن الارثوذكس.
2. كنيسة النساطرة الكلدان.
3. كنيسة السريان الارثوذكس.
4. كنيسة السريان الكاثوليك.
5. كنيسة الارمن الكاثوليك.

كان على افراد الطوائف الدينية ومنهم المسيحيين يؤدون الجزية الى السلطات العثمانية، وكان جباة الجمرك والخراج مسئولين على جباية هذه الجزى. ويبدو ان ذلك لم يكن يخص مسيحي بغداد انما كافة المسيحيين في العراق، فالمسيحيين القاطنين في كردستان كانوا يؤدون الجزية للسلطات العثمانية، اذ كانت تفرض عليهم ضريبة سنوية، فضلا عن الهدايا واعمال السخرة. وتشير المصادر الى تواجدهم في مدن عراقية عديدة، ونعرف انهم كانوا يعيشون في قرية عينكاوة القريبة من اربيل، وكان اغلبهم من السريان من اتباع الكنيسة الكاثوليكية، وفي قرية كرمليس التي كان سكانها من الكلدان الكاثوليك يتكلمون اللغة الكلدانية(الآرامية). كما عاشوا في زاخو، وكان للكلدان في زاخو كنيسة، فضلا عن كونهم يعيشون في بغداد، البصرة، والموصل وغيرها من المدن. وكان اكبر تواجد للمسيحيين في ولاية الموصل، وكانت القرى الواقعة شمال المدينة يسكنها المسيحيين من النساطرة واليعاقبة، وهم يعملون في الزراعة. وكانت مدينة تكريت على المستوى الديني من الولايات الخاضعة لسلطة البطريرك اليعقوبي، الذي يقيم فيها عادة.

وقد حصل المسيحيين في مدينة البصرة في ظل حكم افراسياب على حرية واسعة، مع ذلك لم يمنع بعض الاحيان ان تتعرض بيوت المسيحيين للنهب من قبل الانكشارية. وفي بغداد تواجد هناك الارمن والكلدان والسريان واليعاقبة، وكانت طائفة الارمن يشكلون الشطر الاكبر من المسيحيين الشرقيين، وكان اغلبهم قد نزحوا الى العراق من ايران وذلك بسبب اضطراب الاوضاع فيها. ويظهر ان البعثات التبشيرية الكرملية الى بغداد قد تمكنت من ادخال عدد كبير من مسيحي العراق الى مذهبهم، حتى انهم تمكنوا من ان يحملوا النساطرة المسيحيين الاصليين لهذا البلد والمسيحيين المتدينين على ترك كنائسهم. اذ كانت من واجبات المبشرين في بغداد هو دعوة المسيحيين الشرقيين لمبايعة البابا في الفاتيكان. وعادة ما كانت الحروب بين الدولة العثمانية والايرانية تدمر القرى المسيحية كما حدث عندما هاجم نادر شاه العراق فانه الحق ضررا كبيرا بقرية كرمليس المسيحية. فضلا عن ذلك قد تنشب في بعض الاحيان النزاعات بين الطوائف المسيحية على الامور العقائدية. وقد عمل المسيحيون في العراق في حرفة الصياغة وحرف يدوية اخرى، كما عملوا بالتجارة. وهم لا يختلف كثيرا عن اوضاع باقي الشعب العراقي فالغالبية العظمى منهم لا يعرفون القراءة والكتابة.

اما اليهود فقد عاشوا في المدن العراقية المختلفة وكانت بغداد من اكثر المدن تجمعا لليهود، وقد تسنم اليهود عدة وظائف ادارية في المؤسسات العثمانية مثل دوائر الجمرك. كما امتهنوا التجارة والحرف المختلفة، وكانت لهم في بغداد احياءهم الخاصة بهم، وكانت عانة من المدن التي تشتمل على اعداد لا بأس منهم.

سكن اليزيدية في جبال سنجار، وهم من اصل كردي، ويقسمون الى ثلاثة عشائر وهي: سورفان، وروسان، وخالتلي، ويعمل القسم الاول منهم بالزراعة، اما الباقين فكما يشير بعض الرحالة كانوا قطاعا للطرق. ولم تكن علاقتهم بالسلطة العثمانية جيدة وشن العديد من ولاة بغداد حملات عسكرية ضد قراهم، وهم تابعين اداريا لولاية الموصل، واغلب اليزيدية ولا يقرأون أو يكتبون.

اما الصابئة فيقطنون على ضفاف دجلة والفرات في جنوب العراق، اذ استوطنوا العمارة والبصرة، ويعملون عادة بالصياغة وحرف اخرى، وكان امهر الحرفيين منهم يعملون في سوق الشيوخ، كما امتهنوا ايضا حرفة لحم الاواني المنزلية المختلفة المصنوعة من النحاس والحديد.

ـ التعليم في العراق:

1. المؤسسات التعليمية الشعبية:

تمثلت المؤسسات التعليمية الشعبية بالكتاتيب والمدارس الدينية والتكايا، وقد قامت هذه المؤسسات بدور مهم في حياة المجتمع العراقي، وخاصة قبل نشوء المؤسسات التعليمية الحديثة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فأما الكتاتيب فقد كانت منتشرة في انحاء مختلفة من العراق انتشارا كبيرا، ومما ساعد على ذلك أن السلطات آنذاك لم تكن تعد الخدمات التعليمية من اختصاصاتها وانما من اختصاص الافراد والجماعات وكان التعليم في هذه المؤسسات مجانا، إلاَّ أن الاباء عادة كانوا يسهمون في تقديم بعض الاموال إلى المعلمين (الملالي)، الذين يعلمون الاطفال القرآن الكريم والكتابة، والحساب.

كان الكُتّاب يدار من قبل معلم (الملا) ولا يشترط في هذا المعلم سوى أن يكون من حفظة القرآن الكريم وما يتطلب ذلك من معرفة القراءة والكتابة، ويتم التدريس في حجرة صغيرة في مسجد أو في دار الملا أو في دكانه، حيث يجلس الاطفال على الحصر واضعين بين ايديهم القرآن الكريم أو احد اجزائه، ويحمل كل طفل معه إلى الكتاب ريشة أو قلما، وحبرا ولوحا يستعمله في كتابة (الالف باء) أو العمليات الحسابية البسيطة، وكان هناك نوع من التعاون بين المعلم ووالد الطفل وكانت له صلاحية واسعة في تربية الولد، وقد يستعمل القسوة في معاملة الولد الذي يشذ في سلوكه أو يقصر في دراسته، والتعليم في هذه المؤسسة

حر لا يخضع لنظم أو قوانين، فالملا لا يلتزم بعدد سنوات في تربية الاولاد لانهم يومئذ يتقدمون حسب قابلياتهم فكانوا يختمون القرآن في فرص متفاوتة، كل حسب ذكائه واجتهاده، وعملية التعليم تتم بتحفيظ الاطفال القرآن واصول الدين بتكرار مطرد وطريقة التعليم فردية إذ يعد كل طفل صفا قائما بنفسه. بالرغم من أن معظم المعلمين كانوا يعدون عملهم جزءا من واجباتهم الدينية إلاَّ انهم كانوا يستلمون اجورهم من اولياء امور الاطفال وتسمى الاجور (الخميسية) لأنها تعطى كل يوم خميس. ولم تكن الاجور محددة بل يقدم ذوو التلميذ ما تجود به انفسهم وقد يدفعون للمعلم اشياء عينية، ويمكث الطفل في الكُتّاب من مطلع الشمس حتى غروبها باستثناء فترة الغداء الذي كان يتناوله في بيته، وللملا مساعد يسمى (خلفه) واجبه الاشراف على الاطفال الجدد وحملهم على انجاز واجباتهم واخبار الملا بذلك ليعطيهم درسا جديدا، وهكذا يستوعب الطفل القسم المطلوب منه لينتقل إلى القسم الاخر. ذلك بالنسبة إلى البنين الذين ينصرفون بعد اكمالهم التعليم في الكُتّاب الى الحياة العملية لاكتساب حرفة من الحرف، وقد يتجه قليل منهم إلى المدارس الدينية ليكمل تعليمه، أمّا البنات فكن يرسلن إلى الملاية أو (الخوجة) وتعني المعلمة، تعلمهن القرآن الكريم وواجبات الدين الحنيف وقد يكون الكُتّاب الذي تديره المعلمة مختلطا.

لم تقدم الحكومة اية مساعدات مالية إلى هذه الكتاتيب التي ظلت تعمل وفق اساليب تعليمية متخلفة، ولكن التجار وشكاوى الاهالي المتكررة ادت إلى لزوم مراقبتها بقانون صدر في السنوات المتأخرة من عهود الاحتلال العثماني.

لا توجد احصائية دقيقة عن عدد الكتاتيب في العراق خلال تلك المرحلة من تاريخ العراق الحديث، إلاَّ أن ثمة احصائية تخمينية تشير إلى انها كانت 1913-1914م لا تقل عن (400) الكُتّاب.

كان للمسيحيين مؤسسات تعليمية دينية تشبه في الغرض الذي من اجله انشئت كتاتيب المسلمين ومدارسهم، وقد لعبت المدارس الدينية المنتشرة في الكنائس والاديرة دورا كبيرا في التعليم ومعظم معلمي هذه المدارس من القسس والرهبان الشمامسة. وقد

يتلقى تلاميذ هذه المدارس دروسهم باللغة العربية أو السريانية، وستناول ذلك الموضع لاحقا بشيء من التفصيل.

أمّا المدارس الدينية التي وجدت في العراق خلال هذه الفترة فلم تكن سوى امتداد للمدارس العربية في العصور الوسطى الاسلامية، وقد تنافس السلاطين والولاة وابناء الاسر الثرية في انشاء المدارس الدينية بدافع الاخلاص للدين، فكانوا يوقفون لها ما يلزم ويسهلون للناس تلقي العلوم النقلية منها وجعلوا في كل مدرسة خزانة كتب، كما كانوا يقدمون التسهيلات للطلاب.

لقد كان المنهج التعليمي في المدارس الدينية ينظم على ثلاث مراحل وهي: السطوح، والفضلاء، والخارجية (البحث الخارجي)، فالمرحلة الأولى: تشمل دروس اللغة العربية والبلاغة والمنطق. أمّا مساق الدروس في المرحلة الثانية: فيركز على درس المنهج والفقه وعلى الطالب أن يدرس مختلف المناهج التي توصل إلى معرفة الادلة والثبوت والاصول والشرائع والفروض، ثم ينتقل الطالب بعد انتهاء هاتين المرحلتين إلى المرحلة الثالثة: الخارجية وليس في هذه المرحلة كتب خاصة معتمدة، إنما يحضر الطلاب دروسا ومحاضرات عامة يلقيها علماء كبار لهم شهرة دينية وفكرية بعدها يمنح الطالب الاجازة العلمية التي تجيز له التدريس مستقبلا بما اجيز فيه.

قامت المدارس الدينية وخاصة في بغداد والبصرة والنجف والموصل وسامراء بدور كبير في الحفاظ على اللغة العربية والتراث العربي الإسلامي، كما انها استطاعت أن تلبي احتياجات المجتمع العراقي حتى القرن التاسع عشر، حيث برز من خريجي هذه المدارس عدد من العراقيين الذين لعبوا دورا كبيرا في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية آنذاك.

ومن مدارس بغداد في عهد الحكم العثماني مدرسة الامام الاعظم، والمدرسة المرادية، ومدرسة جامع الاحمدية، والمدرسة السليمانية، ومدرسة جامع الخاتون، والمدرسة القادرية، أما ابرز المدارس الدينية في الموصل خلال هذه الفترة فهي المدرسة

الاحمدية، ومدرسة يحيى باشا، والمدرسة اليونسية، ومدرسة الجامع النوري، والمدرسة الخزامية، والمدرسة الامينية، والمدرسة الجرجسية. ومن مدارس البصرة: المدرسة الحللية، والمدرسة الرحمانية، والمدرسة السليمانية، وفي النجف استحدث مدرسة الملا عبد الله، والمدرسة الغروية، ومدرسة المعتمد، ومدرسة القزويني، ومدرسة الشيخ مهدي ال كاشف الغطاء، كما انتشرت المدارس الدينية في السليمانية وكركوك واربيل والحلة وغيرها من المدن العراقية. لكن المؤسسات التعليمية الدينية فقدت اهميتها بعد تأسيس المدارس الرسمية الحديثة، على النمط الاوربي، فقل اقبال الطلاب عليها، وصار عددها يتناقص وتأثيرها يضعف في المجتمع. ومع هذا فقد ظلت تعمل جنبا إلى جنب مع مؤسسات التعليم الرسمي الحديثة، وتشير الاحصائيات الى إن عددها في العراق في اواخر العهد العثماني بلغ (49) مدرسة دينية.

أمّا التكايا، فهي مؤسسات دينية وتعليمية، وقد حظيت بالاهتمام من لدن السلطات العثمانية والولاة العثمانيين، لكونها تعد من المؤسسات الاجتماعية والخيرية التي كانت مأوى للفقراء والطلاب والدراويش، فقد كان يلجأ إليها عادة المتزهدون من الصوفية، وتحبس لها اوقاف عديدة من قبل مؤسسيها، واصحابها ومريديها، وتقوم في كثير من الاحيان بوظائف المسجد والمدرسة الدينية نفسها. كما قد تتخذ فندقا للمسافرين من الطلبة والمتزهدين حيث تقدم الطعام لهم في اوقاتها الخاصة، واصبحت في بعض الاحيان تؤوي الكسالى والعاطلين من الناس. وقد كثرت التكايا في هذه الفترة لانتشار روح التصوف والزهد بين الناس بسبب سوء الاوضاع العامة التي كانوا يعيشونها، ولعل من ابرز التكايا في العراق، رباط الشيخ محمد بن السكران (ت667هـ/ 1268م) ورباط الشيخ عبد القادر الكيلاني، ورباط العميد، ورباط حسن باشا، بالجانب الغربي من بغداد، ورباط مالك بن دينار، في البصرة، وتكية الحاج محمد الهندي، وتكية حسن الحبار، وتكية الشيخ عبد الواحد وغيرها في البصرة. وقد انتشرت التكايا، بكثرة في العراق خلال العهد العثماني، منها، التكايا النقشبندية، والتكايا البكتاشية، والتكايا القادرية.

2. المؤسسات التعليمية الحديثة:

ظهرت في الدولة العثمانية منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر، محاولات اصلاحية عديدة تناولت اجهزة الحكم والمؤسسات المختلفة وفي مقدمتها الجيش لذلك فان اقدم المدارس الحديثة التي تأسست، كانت المدارس العسكرية ثم ظهرت بعد ذلك المدارس الملكية أي المدنية، مما يدل على أن انشاء المدارس الحديثة لم يتم وفق ترتيب منطقي بل تم وفق ترتيب عملي ينبثق عن تطورات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

تؤرخ بدايات التعليم الرسمي الحديث في الدولة العثمانية بالفترة الواقعة بين سنتي 1793-1795م حيث انشأ السلطان سليم الثالث (1789-1807م) عددا من المدارس العسكرية تدرس فيها العلوم الحديثة، وفي عهد السلطان محمود الثاني (1808-1839م) انشئت مدرستان عسكريتان عاليتان احدهما للطب والاخرى للهندسة، وفي حقل التعليم المدني اسس السلطان عددا من المدارس الابتدائية والاعدادية. كما حدثت عدة تغيرات في بنيان التعليم العثماني استهدفت تحديثه وانتزاعه من ايدي رجال الدين ووضعه تحت اشراف الدولة، كما صدرت سلسلة من الاجراءات المؤدية إلى نشر التعليم، إلاَّ أن المشاكل السياسية والعسكرية والمالية التي واجهت الدولة آنذاك لم تسمح إلاَّ بأنشاء عدد قليل من المدارس، لهذا افسحت السلطات العثمانية المجال للإرساليات التبشيرية الاجنبية المختلفة في الولايات العثمانية ومنها الولايات العراقية لأنشاء مدارس خاصة لها.

إن حركة الاصلاحات العثمانية لم تترك اثارا واضحة في العراق إلاَّ في عهد الوالي مدحت باشا (1869-1873م)، ويعد من ابرز رواد الاصلاح المتنورين في الدولة العثمانية آنذاك.

لم تكن خطوات مدحت باشا التعليمية سوى البدايات الأولى لوضع اسس نظام التعليم الرسمي الحديث في العراق وقت التطرق اليه سابقا، ففي عام 1873م اسس خلفه الوالي رديف باشا (1873-1874م) أول مدرسة اعدادية زودت بالمدرسين ومعظمهم من

ضباط الجيش، أمّا المدارس الابتدائية فإنها لم تنل من السلطة العثمانية الاهتمام الكافي، وقد يرجع ذلك إلى قلة الامكانات الفنية والمالية لنشر هذا النوع من التعليم على نطاق واسع كما أن نقص المعلمين كان سببا اخر، وقد واجهت سياسة اهمال المدارس الابتدائية انتقادات عنيفة على صفحات الجرائد المحلية، إذ شعر العراقيون بأن ما فتح في بلادهم من مدارس ليس كافيا لذلك ظلت الكتاتيب تقوم آنذاك بمهمة التعليم الابتدائي، أمّا مدارس البنات فلم تنل من الحكومة في هذه الفترة أي اهتمام يذكر فقد كانت العادة أن تقبل البنات الراغبات في التعليم في مدارس البنين الابتدائية.

لقد حظي التعليم منذ عام 1880م باهتمام ملحوظ، إذ تأسست بضعة مدارس رسمية خارج بغداد، وتأسست مجالس للمعارف تضم مديرا للمعارف وبضعة موظفين بينهم المحاسب والكاتب وامين الصندوق كما تألفت لجان للمعارف في بعض الالوية والاقضية.

لم يكن معظم الموظفين الذين ارسلتهم وزارة المعارف العثمانية لإدارة شؤون المعارف في الولايات العراقية من ذوي الكفاية والقدرة، بل كانوا على حظ قليل من المعلومات والثقافة، وقد اثر ذلك بدون شك على حسن سير العملية التعليمية، إذ لم تكن دوائر المعارف جديرة بتحمل ما يتطلبه التعليم من الواجب والمسؤولية.

لقد شهدت الفترة التي تبدأ بسنة 1889م اهتماما بإنشاء المدارس الابتدائية خاصة بعدما ادرك المسؤولون بان هذه المدارس هي الاساس في نظام التعليم الرسمي لذلك فتحت اربع مدارس ابتدائية في بغداد هي مدارس: الحميدية، جديد حسن باشا، العثمانية، الكرخ، وتأسست بضعة مدارس ابتدائية في الموصل والبصرة.

كما تأسست في هذه الفترة مدارس خاصة (اهلية واجنبية) منها المدارس التي انشأتها المؤسسات التبشيرية، وازداد الاقبال على هذه المدارس بعد أن ادخلت اللغة العربية والعلوم الحديثة ضمن برامجها الدراسية المقررة، وكانت هذه المدارس تتلقى مساعدات مالية من بعض الحكومات الاوربية وخاصة بريطانيا وفرنسا، وعلى الرغم من بعض الجوانب السلبية

في تلك المدارس والمتمثلة بالارتباطات السياسية الاوربية، إلاَّ انها اسهمت في دفع الحركة التعليمية في العراق، كما كانت حلقة وصل بإنجازات الحضارة الغربية الحديثة.

لقد شهدت الحركة التعليمية في العراق قبيل الانقلاب الدستوري العثماني 23 تموز 1908م احداثا مهمة لعل في مقدمتها تأسيس أول مدرسة رشدية حديثة للبنات سنة 1899م في بغداد، وقد سجلت فيها عند افتتاحها (95) طالبة، ثم فتحت بعد مدارس مماثلة في الموصل والبصرة. أمّا منهج هذه المدارس فكان يتألف من تعليم اصول الدين، والقران الكريم، الحساب، الجغرافية، التاريخ، اللغات التركية والعربية والفرنسية، هذا فضلا عن تدريبهن على النقش والتطريز وحسن الخط، وقد وجدت السلطات التعليمية صعوبة كبيرة في تهيئة المعلمات لهذه المدارس فاستفادت من زوجات الضباط والموظفين الاتراك وزوجات بعض الاجانب وخاصة في تدريس اللغات والموضوعات العلمية.

أمّا الحدث الثاني، فهو فتح دور للمعلمين في بغداد والموصل والبصرة وذلك اثر التوسع الذي حدث في التعليم الابتدائي، وظهور الحاجة إلى ملاكات تعليمية، وكانت مدة الدراسة في هذه الدور ثلاث سنوات بعد المرحلة الرشدية ثم زيدت إلى اربع سنوات، وابرز الدروس في دور المعلمين اصول التدريس والرياضيات والتاريخ والعلوم الطبيعية، وثمة حدث ثالث يتعلق بفتح مدرسة (كلية) للحقوق في ايلول عام 1908 بعد أن شعرت السلطات بحاجتها إلى حقوقيين واداريين مؤهلين علميا.

وبعد الانقلاب الدستوري 23 تموز 1908م، شهد العراق حركة محدودة النطاق على الصعيدين الرسمي والشعبي لإنشاء المدارس الحديثة، فعلى الصعيد الرسمي أظهر الاتحاديون اهتماما بشؤون التعليم واتخذوا من المدارس وسيلة لنشر افكارهم ومبادئ جمعية الاتحاد والترقي (الحزب الحاكم آنذاك)، وقد صدرت الاوامر من وزارة المعارف بتعيين حسين رفيق مديرا لمعارف ولاية بغداد بعد أن بقي هذا المنصب شاغرا منذ عام 1898م وكان يشغل بالوكالة، كما تم فتح العديد من المدارس الابتدائية والرشدية، وقد

شهد تعليم البنات توسعا إذ فتحت مدارس ابتدائية للبنات في مناطق عديدة منها بغداد وعنه والسماوة والكاظمية وخانقين وكربلاء والنجف والحلة والديوانية وفي عهدهم حظيت قضايا الاشراف التربوي بالاهتمام كما دخل النشاط اللا صفي إلى المدارس الرسمية في العراق لأول مرة، وبعد عام 1908م دخلت مادة الرياضة البدنية إلى المدارس الرسمية، وقد عرف العراقيون الكشافة عام 1909م.

اما على الصعيد الشعبي ادرك العراقيون حاجة بلدهم الملحة إلى المدراس، لذلك ارتبطت حركة الدعوة إلى نشر التعليم بحركة اثارة الوعي القومي العربي ذلك أن هذه الحركة تهدف إلى تحقيق امرين اولهما: احياء تراث العرب الثقافي وخاصة اللغة العربي، وثانيها: بعث كيانهم السياسي. ولقد لعبت طبقة المثقفين العراقيين التي نمت في العقدين الاخيرين من الحكم العثماني وتألفت من الضباط والموظفين والمحامين والاطباء والمعلمين وطلبة المدارس العالية ورجال الادب والثقافة دورا كبيرا في هذا الاتجاه الذي يبرز بشكل واضح في تأسيس مدرستي (تذكار الحرية) في البصرة، و(الترقي الجعفري العثماني) في بغداد.

اتسعت حركة المطالبة الشعبية بتأسيس المدارس وجعل لغة التدريس فيها العربية وقد اتخذت هذه الحركة من الصحافة والمجالس العمومية للولايات ومجلس المبعوثان (النواب) ميادين لإثارة هذه المطالب الحيوية، وقد اضطرت السلطات التعليمية إلى اتخاذ بعض الخطوات لرفع مستوى كفاءة الجهاز التعليمي في العراق وتحقيق بعض الانجازات في مجال تنظيم التعليم، لكنها اطلقت العنان امام المؤسسات الاجنبية لتأسيس المدارس واشترطت فقط عليها الحصول على الرخصة الرسمية وقد تأسست في هذه الفترة بضع مدارس أجنبية (فرنسية وايرانية والمانية وامريكية) في مناطق مختلفة من العراق. كما التفتت إلى الكتاتيب فأمرت بأغلاق معظمها على اساس أن اماكنها مغايرة لقواعد حفظ الصحة والتعليم فيها ليس على اصول مرعية، ودعت إلى نقل تلاميذ تلك الكتاتيب إلى المدارس الابتدائية، وشكلت لجنة تتولي اجراء امتحان للراغبين في فتح كتاتيب لتعليم الصبيان القرآن الكريم والخط والحساب. وفي هذه الفترة عين ناظم باشا واليا على بغداد في نيسان 1910م

ومنح صلاحيات واسعة شملت ولايتي الموصل البصرة، وفي عهده تنامت الدعوة إلى نشر التعليم وجعله في المدارس الابتدائية باللغة العربية وتحملت الصحف عبء المطالبة بذلك ونذكر من هذه الصحف جريدتي الرقيب وصدى بابل في بغداد وجريدتي نينوى والنجاح في الموصل، ولم يبق ناظم باشا في منصبه طويلا إذ استدعى إلى اسطنبول في شباط 1911م وعين جمال بك واليا على بغداد في 30 اب عام 1911م.

نشر جمال بك بيانا حول الوضع في العراق واشار إلى التعليم مؤكدا عزم حكومته على اصلاح المدارس الرسمية وتطويرها، وفي 1912م اصدرت وزارة المعارف قرارها بالموافقة على أن يكون التدريس في المدارس الابتدائية باللغة العربية، إلاَّ انها سرعان ما تراجعت عن قرارها، وعندئذ ازدادت حدة المعارضة لجمعية الاتحاد والترقي ولفلسفتها القائمة على المركزية وتتريك العناصر التي تتألف منها شعوب الدولة العثمانية، وقد اكتشفت السلطات المحلية عام 1912م نشاطا سياسيا سريا بين طلاب كلية الحقوق، لذلك قرر الوالي جمال بك غلق الكلية لكن محاولته هذه واجهت معارضة شديدة، فقد احتج عدد من مثقفي بغداد وطلاب الكلية الذين الفوا جمعية باسم (جمعية حقوق بغداد) للدفاع عن مستقبل كليتهم كما ارسلوا برقيات احتجاج إلى المسؤولين في اسطنبول.

كشف الاتحاديون عام 1913م وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى عن سياستهم التركية المتعصبة الرامية إلى محو الشعور القومي غير التركي، وقد اثارت هذه السياسة ردود فعل معاكسة عند العرب، إذ نبهتهم إلى كيانهم الثقافي والسياسي واتخذت ردود الفعل تلك اشكالا عديدة، ومنها تأسيس تنظيمات سرية. وعلى الصعيد التعليمي ظهرت في احدى الصحف سلسلة من المقالات التي تنتقد السياسة التعليمية العثمانية، فقد كتب سليمان فيضي مقالات عديدة في جريدة الدستور البصرية عام 1913م، اشار فيها إلى بعض الجوانب السلبية في التعليم، ومنها عدم العناية بتدريس اللغة العربية وارهاق الطلاب بكثرة الدروس المعطاة باللغة التركية، وزيادة عدد المعلمين الاتراك، وترجيح المحسوبية في اختيارهم على الكفاءة وكثرة الكتب في المرحلة الابتدائية، إذ تبلغ احد عشر كتابا مدرسيا هذا بالإضافة

إلى عدم كفاية تلك المدارس من ناحية العدد لمواجهة الحاجات المحلية، كما استفادت المعارضة من اصدار الاتحاديين قانون الولايات الجديد عام 1913م لتوضيح عدم موافقتها عليه، ومطالبتها بإعطاء المجلس العمومي صلاحيات واسعة لتطوير الولاية اقتصاديا واجتماعيا وتعليميا. وعندما وزعت حركة المعارضة منشورات عدائية ضد الاتحاديين، حذرت الحكومة المعلمين من الطعن بأعمال الحكومة واجراءاتها.

استجاب الاتحاديون لبعض مطالب المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس 23 حزيران 1913 إذ اصدر الباب العالي في اب 1913م قرارا يقضي بان يكون التدريس في دور المعلمين وكلية الحقوق والمدارس الاعدادية باللغة العربية، أمّا دروس التاريخ والجغرافية فتدرس باللغة التركية، ولكن السلطات المحلية لم تكن جادة في تطبيق القرار وعندما دعت الصحف الوالي حسين جلال إلى الاهتمام بالأمر تعلل بقلة المعلمين الذين يستطيعون التدريس باللغة العربية، وبقلة الكتب المدرسية المؤلفة بالعربية، لذلك تألفت لجان لانتقاء الكتب المدرسية منها كتاب (مختصر التاريخ الإسلامي) الذي الفه محيي الدين الناصري وكتاب (مفتاح الهندسة) لحمدي الاعظمي. كما قررت وزارة المعارف في كانون الأول 1913م تحويل المدرسة الاعدادية في بغداد إلى مدرسة سلطانية، والمدرسة السلطانية تشبه المدارس الثانوية الفرنسية المعروفة بـ(الليسيه) لكن التدريس فيها باللغة التركية، وقد ضمت المدرسة (14) صفا، وهكذا اصبح في العراق مدرستان سلطانيتان الأولى في بغداد والثانية في كركوك، كما فتحت مدرسة اعدادية للبنات في كانون الثاني 1914م. وفي مطلع السنة الدراسية 1914-1915م صدر قانون ينظم عملية التدريس في المدارس الابتدائية، وفي 1915م عين حكمت سليمان مديرا لمعارف بغداد، وهو أول عراقي يعين بهذا المنصب، وكان في الوقت ذاته عميدا لكلية الحقوق، وقد نجح حكمت سليمان بجهوده الشخصية في تأمين الموارد المالية لتمشية امور المعارف، إذ أن الحكومة العثمانية لم ترصد للمعارف خلال هذه الفترة اية مبالغ بسبب ظروف الحرب العالمية الأولى ودخولها فيها في 29 تشرين الأول 1914م ومع

هذا فقد حرص حكمت سليمان على استمرار النشاط التعليمي حتى 11 آذار 1917 حين احتل الانكليز بغداد.

أمّا مدارس البصرة فقد اصبحت بعد الاحتلال البريطاني لها في تشرين الثاني 1914م تحت سيطرة السلطات المحتلة والتي استعانت بـ (جون فان ايس) مدير مدرسة الرجاء العالي الامريكية للبنين والتي فتحتها البعثة العربية التبشيرية الامريكية 1912م لإدارة شؤونها.

واصلت مدارس الموصل نشاطها التعليمي في وسط ظروف الحرب القاسية بعد احتلال البصرة وبغداد وكانت الظاهرة المميزة في تلك المدارس خلال هذه الفترة هي تنامي النشاط القومي العربي وخاصة في دار المعلمين، ومدرسة دار العرفان الابتدائية، فلقد اتخذ المعلمون القوميون من هاتين المؤسستين مكانا لنشر الفكرة وبث الشعور المعادي للاتحادين، وقد استمرت هذه النشاطات السياسية حتى احتلال الانكليز للموصل في صفر تشرين الثاني 1918م.

كان النظام التعليمي في العراق مركزيا حيث كانت وزارة المعارف هي المسؤولة عن مفردات المنهج لكل مدرسة، وعن جداول الدروس الاسبوعية والكتب المدرسية، وتعيين مدراء المدارس ومعلميها وتهيئة ميزانية المعارف، ولم يكن لمجالس المعارف الا الاسم، ومما يلاحظ عليها ان معظم اعضائها كانوا من رجال الدين أو من الشخصيات المحافظة، باستثناء بعض الفترات التي كان فيها من اعضاء المجالس رجال متنورون امثال جميل صدقي الزهاوي، وفهمي المدرس، وحكمت سليمان، لذلك لم تتح لتلك المجالس ممارسة وظيفتها في ترقية المعارف في العراق وفقا لما تقتضيه تطورات العصر، وقبل تأسيس دور المعلمين في العراق كان معظم المعلمين من الاتراك ومنهم من ذوي القابليات العلمية المحدودة، فضلا عن كونهم لا يحسنون غير اللغة التركية، لذلك حدثت النفرة بينهم وبين تلاميذهم فقل اقبال الاهالي على المدارس الرسمية التي كانت تدرس باللغة التركية، وازداد الاقبال على المدارس الاهلية لعنايتها آنذاك باللغة العربية وارتفاع المستوى التعليمي

فيها، هذا من جهة ومن جهة اخرى لم يطرأ على الواقع التعليمي في العراق الا تغييرات بسيطة ومحدودة ذلك ان المؤسسات التعليمية الحديثة، على قلتها حيث لم تزد في السنة الدراسية 1913–1914م عن (168) مؤسسة فيها 7988 طالب و(402) مدرسا، وظلت متركزة في المدن الكبيرة والمراكز الحضرية التي لم يشكل سكانها عام 1905م الا 24٪ من سكان العراق البالغ عددهم آنذاك 2.250.000 نسمة في حين يشكل سكان القرى والارياف 76٪ من سكان العراق وهكذا حرم هؤلاء من التعليم حرمانا كبيرا، فضلا عن ذلك ان المناهج والكتب المدرسية السائدة لم تكن تمت بصلة إلى واقع المجتمع العراقي، كما ان الصفة النظرية الادبية غلبت عليها، إذ ظل الهدف من التعليم خلال العهد العثماني هو اعداد الموظفين للدولة. كما لم يكن للتعليم في هذه المرحلة فلسفة تربوية، وان مساهمة الدولة في مجال نشر التعليم بين السكان كانت ضعيفة، ليس من حيث انتظام الدراسة والمستوى التعليمي، إذ كانت المدارس الرسمية اقل انتظاما ومستوى عما كانت عليه المدارس الخاصة، وانما من حيث تفوق عدد تلاميذ المدارس الخاصة على مجموع تلاميذ المدارس الرسمية، فقد ضمت المدارس الابتدائية الخاصة مثلا 1914م (8020) تلميذا و(2163) تلميذة، ولم يكن عدد تلاميذ المدارس الرسمية بمختلف مراحلها يزيد عن (7378) تلميذا و600 تلميذة، وهذا يكشف مدى تقصير واهمال السلطات العثمانية في مجال التعليم ويمكن ان نشير كذلك إلى ان اغلب المدارس الرسمية على قلتها تتركز في مراكز المدن، وهي في الغالب كذلك مخصصة للبنين دون البنات. فعلى سبيل المثال كان قبيل الحرب من بين الـ160 مدرسة ابتدائية 13 مدرسة للبنات، منها 7 في بغداد و4 في الموصل و2 في البصرة.

لم يكن للعراقيين خلال هذه الفترة نصيب ملحوظ من البعثات العلمية فبين سنتي 1900–1917م لم يتخرج من الجامعات الاجنبية سوى 11 طالبا فقط تخصصوا في حقول الطب والصيدلة والقانون لذلك اتجه الاثرياء من السكان إلى ارسال اولادهم إلى الخارج لإكمال تحصيلهم العالي. وقد بلغ عدد العراقيين المتخرجين من الكليات العثمانية

غير العسكرية، في اسطنبول بين 1900-1917م (60) متخرجا تخصص 27 منهم في الطب و25 في القانون و5 في الادارة و3 في الهندسة. وبالرغم من تعدد قنوات التعليم في العراق فان عدد المتعلمين في العراق لم يزد على ٪1 من مجموع السكان عند انتهاء الحرب العالمية الاولى، وهذه النسبة الضئيلة جدا استطاعت نتيجة عوامل داخلية وخارجية ان تُكون مع بعض الضباط في مجتمع متخلف، النواة التي تجمعت حولها الحركة العربية القومية في العراق قبيل الحرب العالمية الاولى وفي السنوات اللاحقة. كذلك ان مواطن الضعف والقصور والنقص التي كان عليها الجهاز التعليمي في العراق ابان عهود الاحتلال العثماني، واستمرت خلال الاحتلال البريطاني 1914-1918م وهذا خلف تركة ثقيلة، كان على المسؤولين الوطنيين العراقيين بعد تشكيل الدولة الحديثة اواخر 1920م ان يواجهوها وان يبذلوا جهودا عظيمة من اجل بناء مؤسسة تعليمية وطنية متطورة تلبي احتياجات السكان وترتفع بمستواهم التعليمي والثقافي.

ـ مدارس الطوائف الدينية:

اقيمت هذه المدارس من قبل الاغنياء، وارباب الخير من غير المسلمين، وكانت تدار من قبلهم، كما كانت تتخذ عادة احدى الغرف الملحقة بالكنائس كمدرسة يقوم الرهبان بالتدريس بها. وكانت هذه المدارس تقسم على قسمين:

اولا: المدارس الملية وتعود ملكيتها الى الطوائف الدينية المسيحية بالدرجة الاساسية، وتغطى نفقاتها من الاوقاف المخصصة لها، وتدار من قبل الطوائف والبرطرياركيات التي تتبعها.

ثانيا: المدارس الخاصة وهي التي تقام من قبل الاشخاص.

بالنسبة للمسيحيين اسسوا مدارس خاصة بهم في ولاية بغداد، وكانت ملكيتها تعود الى الاقليات المسيحية البارزة في بغداد(السريان، والكلدان، والارمن). فقد اسست الطائفة المسيحية في بغداد عام 1870 مدرسة لتعليم الاطفال، وتم جمع المبالغة الخاصة بها من

قبل بعض الاعيان المسلمين والمسيحيين، كما ساهم بالتبرع وكيل القنصل الفرنسي في بغداد، والقنصل الانكليزي، وطبيب القنصلية الانكليزية. وكانت هذه اول مدرسة تقيمها طائفة غير اسلامية في بغداد. كما توالت بعد ذلك اقامة المدارس في مدينة بغداد، اذ اسس الكلدان مدرسة رشدية(متوسطة) في بغداد سميت باسمهم في عام 1876، اما السريان فقد اسسوا مدرستهم في عام 1895 وكانت هي الاخرى رشدية(متوسطة)، كما اسس الارمن لهم مدرسة في بغداد عام 1898. كما اقام الارمن مدرسة ابتدائية للإناث عام 1894. وكانت هذه المدارس تقوم بتدريس اللغات العربية والتركية والفرنسية والانكليزية، وكان معظم معلميها من رجال الدين ويمثلون الطائفة التي تمتلك هذه المدارس، اما معلمو اللغة التركية فكانوا اتراكا، هذا وان المدرسة الكلدانية تدرس احيانا اللغة الكلدانية والمدرسة الارمنية تدرس اللغة الارمنية. وقد انتعشت هذه المدارس بعد انقلاب 1908 فتوسعت توسعا كبيرا. وكانت مدارس الارمن تتكون من قسمين ابتدائي ورشدي، اما مدارس الاناث عندهم فكانت تعلم طالباتها فضلا عما سبق الخياطة والنقش.

وفي الوقت الذي كانت فيه المدارس المسيحية محدودة في ولاية بغداد بسبب قلة عدد افراد الطائفة المسيحية، كان عددها في ولاية الموصل اكثر من ذلك بكثير. فهي لم تتمركز كما هو الحال في بغداد في مركز الولاية بل انتشرت في مختلف ارجاء الولاية، لاسيما في الاماكن التي يشكل المسيحيون فيها نسبة تتمكن من اقامة مدرسة، وكان تحمل تكاليفها يقع على عاتق الطائفة. فقد كانت هناك مدارس للكلدان والسريان الكاثوليك، والسريان الارثوذكس، والبروتستانت، واليعاقبة،والاباء اليسوعيين(الجزويت)، وهناك ايضا مدارس مسيحية للكلدان في دهوك.

اما اليهود فلم يدخل هم ايضا اطفالهم في المدارس الرسمية العثمانية، بل اقاموا مدرسة خاصة بهم، اسستها جمعية الاليانس اليهودية، عام 1865، وكانت مدرسة رشدية ويحتمل ان قسما ابتدائيا كان ملحقا بها. وكانت المدرسة تدرس اللغات الفرنسية والانكليزية والعربية والعثمانية والعبرية. كما اسست جمعية الاليانس اليهودية مدرسة اخرى خاصة

بالبنات عام 1898، فضلا عن هذه المدارس تم تأسيس مدرسة الاليانس الاسرائيلية الثانوية، ومدرسة الاليانس الابتدائية الاولى والثانية، ومدرسة ازيل، ومدرسة التعاون اليهودي، ومدرسة مدراش، ومدرسة هارون صالح.

ـنشوء الطباعة وظهور الصحف.

1.الطباعة:

شهد العراق تأسيس عدد من المطابع منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد سجل تطور الطباعة في اوروبا انجازا تاريخيا مدهشا، الا ان ذلك التطور لم يصل الى الولايات العثمانية والولايات العراقية الا متأخرا، ويعزى تأخر ظهور الفن الطباعي في العراق إلى تدهور اوضاعه العامة خلال السيطرة العثمانية، كما ان السلطة العثمانية حرصت على فرض العزلة على الولايات العربية ومنها العراق في كل ما هو حديث، خشية ان تطالب هذه الولايات بالحرية والاستقلال فكان ان تأخرت الاقطار العربية ثقافيا، وبقيت خالية من الطباعة فترة طويلة رغم انتشارها في الاقطار الاخرى.

يعتقد بعض المؤرخين ان اول مطبعة دخلت العراق كانت في عهد الوالي داوود باشا (1817-1831م) وهو معروف بحبه للعلم والثقافة ورغبته في تطوير العراق آنذاك، وان اول كتاب طبع فيها كان عام 1831 وعنوانه: (دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء) لمؤلفه الشيخ رسول حاوي الكركوكلي، الا ان سقوط داوود باشا وتدهور الاوضاع بعده ادى إلى اهمال تلك المطبعة التي كانت تسمى (مطبعة دار السلام) فاندثرت ولم نجد أو نسمع بكتب اخرى طبعت فيها.

تعد مطبعة الولاية في بغداد والتي اسسها الوالي المصلح مدحت باشا 1869-1872م، اول مطبعة الية تأسست في بغداد، وقد جلب معداتها من باريس بعد وصوله العراق مباشرة،

وقدا خذت هذه المطبعة فور تشغيلها طبع جريدة الزوراء التي صدر عددها الاول في 15 حزيران سنة 1869، وقد وصفها احد الكتاب من معاصري تلك الفترة بانها مطبعة راقية فاخرة تدار بالبخار. وبعد نقل مدحت باشا اهملت المطبعة، وحين جاء حازم بك واليا على بغداد جلب مطبعة جديدة 1905م، ولكن لم يكتب لهذه المطبعة النجاح التام. غير ان صحفيا بارزا هو محمد رشيد الصفار صاحب جريدة الزهور تضمنها من الحكومة بمبلغ 150 ليرة تركية سنويا، ثم سعى إلى تطويرها وجلب لها مسبكا جديدا، وحروفا متنوعة من اسطنبول والشام. وقد بدأت العمل وقامت بطبع بعض الصحف والكتب واستمرت حتى الحرب العالمية الاولى.

كما جلب مدحت باشا مطبعة حجرية خاصة بطبع المنشورات، والاوامر العسكرية سميت بمطبعة الفيلق، وكانت مطبوعاتها ذات طابع سري ومحدود، ومن ابرزها خارطة بغداد وهي رسم مصور لمدينة بغداد، كما كانت عليه قبيل الاحتلال البريطاني رسمه محمد رشيد بك البغدادي المعروف بعدئذ بـ رشيد الخوجة عام 1908م وكان رئيس ركن في الجيش العثماني. ويعد هذا المصور من الوثائق الدقيقة المهمة في تاريخ خطط مدينة بغداد.

كما تأسست في بغداد مطبعة حجرية عام 1863م باسم مطبعة كافل التبريزي، وقد باشرت اعمالها في نفس العام بطبع كتاب مهم الفه أبو الفوز محمد امين البغدادي الشهير بالسويدي وعنوانه: (سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب) ويقع في 118 صفحة من القطع الكبير، وقد كتب على صفحته الاولى وبوضح طبع هذا الكتاب في مدينة السلام بغداد في اواخر شهر رمضان المبارك من سنة 1863م. ويبدو ان هذه المطبعة تركت واهملت حال وصول مطبعة الولاية التي اسسها مدحت باشا والي بغداد 1896-1872م. ومن ابرز الكتب التي طبعت في هذه المطبعة كتاب (اخبار الدول واثار الاول) للقرماني، وكتاب (الظرائف واللطائف) للشيخ ابي النصر احمد بن عبد الرزاق المقدسي، وكتاب (المقامة اللطيفية) لجلال الدين السيوطي، ومعظم هذه الكتب طبعت على نفقة الثري الحاج محمد امين.

في عام 1892م انشا ابراهيم باشا مطبعة دار السلام في بغداد، وقد وصفت هذه المطبعة بانها كبيرة الادوات فيها حروف حسنة وجميلة تضاهي احسن المطابع في سوريا في اتقان طبعها، وقد عملت هذه المطبعة فترة ليست بالقصيرة في طبع بعض الكتب الادبية. كم تأسست مطبعة الشابندر التي اسسها محمود الشابندر احد التجار المعروفين في بغداد عام 1907م.

لقد ارتبطت حركة الطباعة في الموصل بنشاطات الارساليات التبشيرية المختلفة، ولعل الاباء الدومنيكان الذين قدموا للوصل عام 1750م، كانوا من اوائل المهتمين بإدخال الطباعة الالية الحديثة اليه، ففي 9 تموز 1858م وصل الموصل هنري امانتون الدومينيكي قاصدا رسوليا على العراق وايران وارمينيا، وقد اصطحب معه شابا كلدانيا من ماردين اسمه (يوسف) ليساعده في نصب المطبعة، وقد تم تأسيس مطبعة الدومنيكان بالموصل عام 1858م. وتولت مطبعة الدومنيكان مهمة طبع عدد من الكتب بلغات مختلفة منها: العربية والتركية والفرنسية، كما تولت كذلك عملية طبع الاوراق والسجلات الرسمية قبل مجيء مطبعة الولاية الرسمية عام 1875م. ولم تقتصر المطبعة الدومنيكية على طبع الكتب العربية بل تبنت طبع الكتب المدرسية لتعليم اللغة العربية وغيرها من اللغات. وقد استمرت مطبعة الدومنيكان في النشر حتى الحرب العالمية الاولى عندما اصدرت السلطات العثمانية اوامرها بمصادرة المطبعة بدعوى تبعيتها لدولة معادية، وقد نقل إلى مطبعة الحكومة كثير من ادوات تلك المطبعة وحروفها، ولما احتل الانكليز الموصل في تشرين الثاني 1918م اعادوا إلى الاباء الدومنيكان بعض ما حفظ في المطبعة الرسمية من محتويات مطبعتهم، ولم تمتد اليه يد التلف أو السرقة. وقد واصلت المطبعة نشاطها فطبعت الكثير من الكتب والكراريس والمنشورات الحكومية. ولعل ابرز ما طبعته خلال هذه الفترة منهج التعليم الابتدائي عام 1919م، ونظام بلدية الموصل عام 1920م، وايضاحات في تدريس اللغة العربية في المدارس عام 1921م.

لقد تأسست في الموصل مطبعة للولاية عام 1875م اسسها تحسين باشا، وجلب معداتها وادواتها من اسطنبول، وكانت تقوم بطبع الاوراق الرسمية والدفاتر مع قيامها بطبع

جريدة الموصل التي كانت تصدر اسبوعيا. وقد وضعت مطبعة الموصل تحت اشراف مكتوبجي الولاية مدير التحريرات، وفي عام 1893 الحقت بمطبعة الولاية، تسع مطابع واحدة تدور بالبخار، واثنتان تدوران باليد، واربع حجرية، والة لتحسين الاقمشة، واخرى لعمل الاغلفة، واختصت احدى هذه المطابع بالجيش، وسميت بالمطبعة العسكرية، أو مطبعة الفيلق، لتقوم بطبع ما يحتاج اليه الجيش من المنشورات والاوامر والكتب الفنية العسكرية. وكانت مطبوعاتها سرية لا يطلع عليها الا كبار الضباط خشية تسرب الاسرار العسكرية إلى الخارج. وقد تولت مطبعة الولاية كذلك طبع القوانين التجارية، وقوانين الاراضي، والكتب التاريخية، والتقاويم العثمانية المعروفة (موصل سالنامة). ولم تكن هذه المطبعة مقصورة على طبع المطبوعات الحكومية، وانما كانت تطبع كل ما يقدمه اليها الاهالي من مطبوعات. وكما اسس عيسى محفوظ بمشاركة فتح الله سرسم مطبعة في الموصل عام 1910م.

أمّا في كربلاء فقد ظهرت الطباعة بصورة مبكرة، الا انها لم تستمر طويلا فمنذ عام 1856م جلبت اليها مطبعة حجرية، وقد قامت هذه المطبعة بطبع منشورات تجارية، وكتب ورسائل دينية، ثم طبع فيها كتاب: (مقامات ابن الالوسي) لمؤلفه ابي الثناء الالوسي، وهو من رواد حركة النهضة الفكرية في العراق آنذاك والمتوفى عام 1854م ويقع في 131 صفحة. ويبدو ان المطبعة تركت أو اهملت لخلل ظهر فيها أو في ادارتها.

أمّا في كركوك فقد تأسست في عهد الوالي فيضي باشا مطبعة تابعة للحكومة عام 1885م، وقد طبعت فيها الكتب القليلة أو المنشورات الرسمية وكافة صحف مدينة كركوك التي صدرت خلال هذه الفترة، ومنها: الحوادث، والمعارف، ومجلة كوكب معارف.

تأسست في البصرة في اول مطبعة في عهد الوالي هدايت باشا عام 1889م، وكان صاحبها جلبي زادة محمد علي، وهو موظف بغدادي الاصل وقد طبعت في هذه المطبعة جريدة البصرة الرسمية والتي صدرت في 26 ايار 1889م. وكان يشرف عليها مؤسس

المطبعة نفسه، الا انه عندما نقل فيما بعد إلى بيروت لذا تبنت الحكومة هذه المطبعة ووسعتها. كما تأسست في البصرة ثلاث مطابع اهلية خلال هذه الفترة لتلبي حاجة الصحف التي كانت تصدر آنذاك، وهذه المطابع هي: مطبعة الاتحاد لصاحبها يوسف ذياب، والمطبعة المحمودية ومؤسسها محمود باشا العبد الواحد، والمطبعة الاحمدية لصاحبها احمد حميد ملا حسين واخيه.

2. الصحافة:

انعدم وجود الصحافة في العراق تقريبا قبل عام 1869م، وهي السنة التي شهدت تأسيس جريدة الزوراء، ويتطرق بعض مؤرخي الصحافة العراقية إلى جريدة صدرت في عهد الوالي داوود باشا عام 1816م باسم جورنال العراق، الا ان الدلائل التاريخية غير كافية للجزم بصحة مثل هذه الجريدة، اذ لم يعثر لحد الان على اية نسخة منها، لذلك تظل جريدة الزوراء التي صدر عددها الاول في 15 حزيران 1869م تمثل باكورة الصحافة العراقية. وقد استمرت الزوراء في الصدور حتى عام 1917م، حين احتجبت اثر الاحتلال البريطاني لبغداد في 11 اذار. ذاتها وبلغت اعدادها خلال هذه الفترة 2607. قد تولت الجريدة نشر مختلف شؤون الولاية، والاخبار الرسمية، والمعاهدات، كما تضمنت اعدادها ارشادات عامة، ومقالات صحية تنبه الجمهور إلى الاهتمام بالصحة العامة واتخاذ الاحتياطات اثناء انتشار الاوبئة، وكانت تراقب الموظفين واعمالهم وتحذرهم من مغبة التماهل في وظائفهم. واحتوت الجريدة الكثير من اخبار العراق واحواله السياسية والثقافية والتاريخية الامر الذي جعلها تشكل مصدرا من مصادر تاريخ العراق الحديث. ومهما يكن من امر فأن الزوراء عكست اوضاع العراق الثقافية والاجتماعية والسياسية آنذاك، كما انها قدمت صورة للفكر والادب العراقيين في الفترة التي عاشتها.

كما صدرت في هذه الفترة بعض المجلات الدينية باللغة العربية منها: مجلة اكليل الورود، الذي صدر عددها الاول في كانون الاول 1902م، وقد صدرت بثلاث لغات هي:

العربية والفرنسية والكلدانية. كرست مجلة اكليل الورود معظم مقالاتها لنشر المذهب الكاثوليكي على نطاق واسع، ومع هذا فقط اهتمت بالموضوعات الصحية والسياسية والاجتماعية والثقافية، فأخذت المجلة مثلا تهتم بتزويد القارئ بالمعلومات العامة. لقد مارست مجلة اكليل الورود وظيفتها الصحفية في العناية بمواد التوجيه والارشاد والتثقيف، وبوسائل عديدة منها: نشر القصص القصيرة ذات الطابع الانساني أو نشر الاقوال الحكيمة، وخصصت مجلة اكليل الورود بعض صفحاتها لعرض ونقد الكتب الجديدة.

أمّا مجلة زهيرة بغداد فقد كانت مجلة دينية ادبية شهرية اصدرها الاباء الكرمليون في بغداد في 25 اذار سنة 1905، وكان من ابرز محرريها الاب انستاس ماري الكرملي وكانت تهدف إلى معالجة المباحث الدينية والمذهبية اقرب منها إلى معالجة المباحث الادبية والاجتماعية، وقد استمرت في الصدور اكثر من سنة وتوارت عن الانظار ولم يعثر على أي عدد من المجلة لحد الان.

دخلت الصحافة دورا مهما بإعلان الدستور العثماني ذلك ان الدولة العثمانية شهدت نهضة صحافية حقيقية كبرى، فقد صدرت بين عامي 1910-1911م (36) جريدة عربية وذلك ما يعادل ٪60 في الفترة الواقعة بين 1904-1914م حيث ان 14 جريدة أو ٪40 من مجموع الصحف كانت قد صدرت في عام 1911م وقد بلغ مجموع الصحف التي اجيزت في العراق بعد اعلان الدستور خمسا وعشرين صحيفة ومجلة، منها 19 جريدة ومجلة في بغداد وحدها. ومن ابرز تلك الصحف: الرقيب، وصدر عددها الاول في 28 كانون الثاني 1909م، رحبت الجريدة بالدستور وسجلت مواقفها الجريئة وصراحة لهجتها ومجابهة الحكام بقوة الحق وكان لها تأثير في المجتمع ومكانة مرموقة بفضل صدق وصراحة ووطنية صاحبها عبد اللطيف ثنيان وهو من الادباء العراقيين المعروفين. لقد كان لمقالات جريدة الرقيب الاثر الواضح في الاوساط الشعبية، إذ لاقت من الاقبال والرواج مالم تنله اية جريدة في ذلك الوقت فتلهف الناس على قراءتها غير ان الوالي العثماني ناظم باشا لم يتحمل صراحة هذه الجريدة فاستدعى ثنيان وهدده إذا تعرض لانتقاد اعمال الحكومة. وجريدة صدى بابل

التي اصدرها المعلم الموصلي داوود صليوا في بغداد في 13 من اب 1909م، وقد استمرت في الصدور مدة تقرب من ست سنوات. وكانت في مقالاتها من العوامل المنبهة والمحفزة للأخذ بكل اسباب التقدم والرقي فقد بينت للشعب العراقي مواضع النقص وارشدته إلى طريق الاصلاح والحرية ووقفت مواقف مشرفة في ظل السيطرة العثمانية في اثارة ابناء العراق والمطالبة بجعل اللغة العربية في العراق لغة رسمية ولعل اهم ما امتازت به جريدة صدى بابل انها مثلت نفسية الشعب العراقي وسعيه للمطالبة بالعدل والانصاف واصلاح شؤونه. كما صدرت جريدة النهضة في 3 تشرين الاول سنة 1913م لتكون لسانا للنادي الادبي الذي اسسه جماعة من العاملين في الحركة القومية منهم الشيخ محمد رضا الشبيبي، وتحسين العسكري، وبهجت زينل، وقد جاء صدورها بعد انعقاد المؤتمر العربي الاول في باريس عام 1913م واشتداد المطالبة بإبراز شخصية الامة العربية وكيانها الا ان السلطات العثمانية لم تتحمل لهجتها الناقدة فأغلقتها بعد صدور عددها الحادي عشر فهرب مؤسسها ومحررها ابراهيم حلمي العمر إلى البصرة. كما صدرت ببغداد في 8 شباط 1914م جريدة بانگی كورد أي صوت الاكراد باللغتين الكردية والتركية وكانت تصدر مرة كل خمسة عشر يوما واهتمت الجريدة بمسائل التعليم ودور الثقافة في حياة الامم وساهمت في احياء التراث العراقي الكردي. ولم يكتب لها البقاء بسبب نشوب الحرب العالمية الاولى فاضطر صابحها جمال بابان إلى حجبها عن القراء بعد ان صدرت منها ثلاثة اعداد فقط، الا ان جريدة تی كَه يشتني راستی أي فهم الحقيقية التي صدرت ببغداد سنة 1918م استمرت في الصدور لمدة سنة.

أمّا جريدة الموصل فقد صدرت في 25 حزيران 1885م في مدينة الموصل، وهي الجريدة الرسمية للولاية، وتنشر مرة كل اسبوع، وكان يوم الخميس موعدا لصدورها، وقد استمرت على الصدور حتى نشوب الحرب العالمية الاولى. وتميزت جريدة الموصل بطابع اخباري، إذ اقتصرت على نشر اخبار مختلف شؤون الولاية، اضافة إلى الاخبار الرسمية، والقوانين والبيانات والانظمة، واوامر الحكومة واعلانها، ولم تهمل الاخبار الخارجية التي

تردها تباعا من العاصمة كما اعتادت على نشر خطب الجمعة التي تلقى في جوامع الموصل. كما نشرت الجريدة كذلك اخبارا تتعلق بالشؤون العامة لولاية الموصل. وفي بدايات القرن العشرين صدرت جريدة نينوى في 15 تموز 1909م، وتعد نينوى اول جريدة اهلية في الموصل، وقد اثير على صفحات الجريدة كثير من القضايا السياسية والاجتماعية بينت فيها للراي العام الموصلي مواضع النقص وارشدته إلى طريق الاصلاح. وقد اسهمت في هذه الحركة الصحفية جريدة اخرى صدرت في الموصل في 12 تشرين الثاني 1910م باسم النجاح التي عرفت باتجاهها للدعوة إلى اللامركزية وبنقدها للحكومة العثمانية بل ومهاجمتها فكان لذلك اثر كبير في خلق فئة مثقفة في الموصل. ولقد اسهمت جريدة النجاح في الدعوة إلى التمسك بالدستور وعملت على تكوين وعي دستوري بين قرائها، كما دعت الى الاهتمام باللغة العربية، والتاريخ العربي. كما حاولت الجريدة ان تلفت انظار السلطات الاتحادية إلى اهمية التربية والتعليم. كما اسهمت الجريدة في التوعية الانتخابية، فنشرت مقالات عديدة حول ضرورة قيام انتخابات حرة وضمان الحرية للمنتخبين، ودعت الاهالي إلى ضرورة انتخاب الشخص الذي ينفع البلد، ويعمل على رقيه وتقدمه.

في البصرة اصدرت السلطات العثمانية جريدة بصرة باللغتين التركية والعربية في عهد الوالي هدايت باشا، وقد صدر عددها الاول في 26 ايار 1889م، وتولى محمد علي افندي باش مسؤولية تحرير الجريدة، وقد اهتمت بنشر اوامر الباب العالي، والفرمانات والبيانات الرسمية، فضلا عن نشرها اخبار وحوادث الولاية، وقد توقفت عن الصدور عام 1895م. ثم عادت إلى الصدور بعد ذلك بزمن قصير. واستمرت في الصدور حتى 12 تشرين الثاني 1914.كماصدرت جريدة الدستور لصاحبها ومديرها المسؤول عبد الله الزهير، وفي في 22 كانون الثاني 1912م وسميت بعد ذلك بـ صدى الدستور والتي صدر عددها الاول في 25 ايلول 1913م، وقد استمرت في الصدور حتى الاحتلال البريطاني للبصرة. وقد كرست جريدتا الدستور وصدى الدستور صفحاتهما للدفاع عن الدستور لذلك عكست الوضع السياسي في البصرة خلال الفترة الواقعة في 1908-1914م، حين

اشتدت المعارضة لحكم الاتحاديين بزعامة السيد طالب النقيب الذي الف جمعية الاصلاح البصرية في شباط 1913م، وقد طرحت هذه الجمعية برنامجا اصلاحيا متطورا ذا بعد قومي.

وفي السليمانية صدرت مجلة تشكي هونةر لصابحها فتاح كاوه باللغة الكردية وقد صدر عددها الاول في 10 اذار 1910م.

وفي النجف الاشرف صدرت مجلة العلم، وظهر عددها الاولى في 29 اذار 1910م، وكان صاحبها السيد محمد علي هبة الدين الشهرستاني ومديرها المسؤول عبد الحسين الازري، ولقد اهتمت المجلة فيما اهتمت فيه، بالنقد النزيه البناء. وبعد ان صدر اثنا عشر عددا من السنة الاولى للمجلة وتسعة اعداد من سنتها الثانية توقفت عن الصدور بسبب اندلاع الحرب العالمية الاولى.

أمّا مجلة لغة العرب فقد صدر عددها الاول في بغداد تموز عام 1911م، وتعد من اشهر المجلات الادبية الرصينة في ذلك الوقت. وقد ادت المجلة خدمة كبيرة للعربية وآدابها حتى انها عدت من المراجع المهمة لدراسة الادب العربي الحديث. وتوقفت عن الصدور بسبب اندلاع الحرب العالمية الاولى، وفي اول تموز 1926م عادت إلى الصدور لتتوقف نهائيا في كانون الاول 1931م.

- قائمة المصادر:

-ابراهيم خليل احمد، "حركة التربية والتعليم والنشر"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار لحرية للطباعة، 1985)، ج10.

-احمد حسين عبد الجبوري، "الاوضاع الاجتماعية في بغداد من خلال كتابات الرحالة الاجانب في العهد العثماني"، مجلة سر من رأى، جامعة سامراء، المجلد: 3، العدد: 5، لسنة: 2007.

-اوليا جلبي، "بغداد في رحلة اوليا جلبي 1645و 1652"، ترجمة: صبحي ناظم توفيق وانيس عبد الخالق محمود، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة-بغداد، العدد: 33، لسنة: 2012.

-اوليفييه، "الرحالة الفرنسي اوليفييه يصف بغداد عام 1791"، ترجمة: يوسف حبي، مجلة المورد، المجلد: 11، العدد: 4، لسنة: 1982.

-بان راوي شلتاغ، "الواقع الاداري لمدينة الكوت من العهد العثماني الاخير حتى بداية الحكم الوطني 1869-1921"، مجلة القادسية للعلوم الانسانية، المجلد: 12، العدد: 1، لسنة: 2009.

-برهان نزر محمد علي المياح، "خانات بغداد من القرن التاسع وحتى مطلع القرن العشرين"، مجلة المورد، المجلد: 8، العدد: 4، لسنة: 1980.

-بهنام فيصل عفاص، "تاريخ الطباعة العراقية منذ نشوئها وحتى الحرب العظمى الاولى"، القسم الاول، مجلة المورد، المجلد: 10، العدد: 3-4، لسنة: 1980.

__________، "تاريخ الطباعة العراقية منذ نشوئها وحتى الحرب العظمى الاولى"، القسم الثاني، مجلة المورد، المجلد: 12، العدد: 2، لسنة: 1983.

-بيدرو تيخيرا، رحلة بيدرو تخيرا من البصرة الى حلب عبر الطريق البري 1604-1605، ترجمة: انيس عبد الخالق محمود، (بيروت: المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، 2013).

-توماس هربرت، العراق وملاحظات شرقية في رحلة توماس هربرت سنة 1628، ترجمة: انيس عبد الخالق محمود، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2013).

-جاسب عبد الحسين صيهود الخفاجي، "الصحافة النجفية بين عامي 1910-1932: دراسة تاريخية"، مجلة القادسية للعلوم الانسانية، المجلد: 14، العدد: 1-2، لسنة: 2011.

-جان بابتيست جاك لوي روسو، وصف باشوية بغداد سنة 1809، ترجمة: خالد عبد اللطيف حسن، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2012).

-جان دي تيفينو، رحلات جان تيفينو في الاناضول والعراق والخليج العربي 1664-1665، ترجمة: انيس عبد الخالق محمود، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2013).

-جون اشر، "مشاهدات جون اشر في العراق"، ترجمة: جعفر خياط، مجلة سومر، المجلد: 21، لسنة: 1965.

-جون ايلدرد، "رحلة جون ايلدرد من الشام الى البصرة 1583-1584"، ضمن كتاب: رحلات بين العراق وبادية الشام خلال القرن السادس عشر، ترجمة وتقديم وتعليق: انيس عبد الخالق محمود، (بيروت: دار الفارس للنشر والتوزيع، 2013).

-جون باتست تافرنييه، رحلة الفرنسي تافرنييه الى العراق في القرن السابع عشر، ترجمة: كوركيس عواد وبشير فرنسيس، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2006).

-جون تايلر، "رحلة تايلر الى العراق سنة 1789-1790، ترجمة: بطرس حداد، مجلة المورد، المجلد: 11، العدد: 1، لسنة: 1982.

-جون نيوبري، "العراق وبادية الشام في رحلة جون نيوبري 1583"، ضمن كتاب: رحلات بين العراق وبادية الشام خلال القرن السادس عشر، ترجمة وتقديم وتعليق: انيس عبد الخالق محمود، (بيروت: دار الفارس للنشر والتوزيع، 2013).

-جميس بيلي فريزر، رحلة فريزر الى بغداد 1834، ترجمة: جعفر الخياط، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2006).

-جيمس فيلكس جونز، "بغداد في سنة 1853"، القسم الاول، ترجمة: عبد الوهاب امين، مجلة المورد، المجلد: 3، العدد: 1، لسنة: 1974.

-جيمس فيلكس جونز، "بغداد في سنة 1853"، القسم الثاني، ترجمة: عبد الوهاب امين، مجلة المورد، المجلد: 3، العدد: 2، لسنة: 1974.

-حازم مجيد احمد، "الصراع والتمرد العشائري واثره على الاقتصاد العراقي 1850-1914"، مجلة سر من رأى، جامعة سامراء، المجلد: 4، العدد: 12، لسنة: 2009.

-حسين محمد القهواتي، "الحياة الاقتصادية: من القرن التاسع عشر حتى نهاية العصر العثماني"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985)، ج10.

______________، "الحياة الاجتماعية: التركيب الاجتماعي"، بحث ضمن موسوعة حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985)، ج10.

-خلود عبد اللطيف عبد الوهاب، "التواصل الثقافي بين الصحافة البصرية والصحافة المصرية 1908-1911"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة البصرة، العدد: 3، لسنة: 2007.

-خورشيد باشا، رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وايران، ترجمة: مصطفى زهران، مراجعة: الصفصافي احمد القطوري، (القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، 2008).

-دوبريه، رحلة دوبريه الى العراق 1807-1809، ترجمة: بطرس حداد، (لندن: دار الوراق، 2011).

-دومينيكو سيستيني، رحلة من اسطنبول الى البصرة، ترجمة: بطرس حداد، (بغداد: المركز العلمي العراقي، 2010).

-رالف فتش، "رحلة رالف فتش من حلب حتى البصرة 1583-1589"، ضمن كتاب: رحلات بين العراق وبادية الشام خلال القرن السادس عشر، ترجمة وتقديم وتعليق: انيس عبد الخالق محمود، (بيروت: دار الفارس للنشر والتوزيع، 2013).

-رفائيل بابو اسحاق، "كنائس نصارى بغداد في العهد العثماني"، مجلة سومر، المجلد: 20، لسنة: 1964.

-سعيد الديوه جي، "مدارس الموصل في العهد العثماني"، مجلة سومر، المجلد: 19، لسنة: 1963.

-سيار كوكب علي الجميل، تكوين العرب الحديث، (الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر، 1991).

-سيزار فيدريجي، "رحلة سيزار فيدريجي بين حلب والبصرة 1563-1581"، ضمن كتاب: رحلات بين العراق وبادية الشام خلال القرن السادس عشر، ترجمة وتقديم وتعليق: انيس عبد الخالق محمود، (بيروت: دار الفارس للنشر والتوزيع، 2013).

-صبري فارس الهيتي، "تخطيط مدينة بغداد عبر العصور التاريخية: دراسة في التخطيط الحضري"، مجلة المورد، المجلد: 8، العدد: 4، لسنة: 1980.

-طارق جواد الجنابي، "العمارة العراقية"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985)، ج10.

-طارق نافع الحمداني، "المرأة واثرها في المجتمع: العصر العثماني"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985)، ج10.

-طالب جاسم محمد الغريب، "جوامع مركز مدينة البصرة في العهد العثماني-دراسة تاريخية"، مجلة آداب البصرة، العدد: 43، لسنة: 2007.

-طاهر يوسف الوائلي، "خصائص الاقتصاد العثماني خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر"، مجلة دراسات الكوفة، المجلد: 1، العدد: 1، لسنة: 2004.

-عادل كامل الالوسي، "الربط البغدادية في التاريخ والخطط"، مجلة المورد، المجلد: 7، العدد: 1، لسنة: 1978.

-عامر بلو اسماعيل، "الاكلاك في الموصل من خلال كتب الرحلات ابان العهد العثماني"، مجلة دراسات موصلية، جامعة الموصل، العدد: 26، لسنة: 2009.

-عباس العزاوي، عشائر العراق، (بيروت: مكتبة الحضارات، 2010)، ج4.

-عبد الله عبد الرحيم السوداني، "اسوار بغداد"، مجلة المورد، المجلد: 8، العدد: 4، لسنة: 1980.

-عروبة جميل محمود عثمان، "التكايا في الموصل منذ اواخر العهد العثماني حتى سنة 1918"، دراسات موصلية، جامعة الموصل، العدد: 20، لسنة: 2008.

-علاء موسى كاظم نورس، "بغداد في رحلات الاجانب في العهد العثماني"، مجلة المورد، المجلد: 5، العدد: 3، لسنة: 1976.

ـــــــــــــــــــ، "الحياة الاقتصادية: من احتلال بغداد حتى القرن الثامن عشر"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985)، ج10.

ـــــــــــــــــــ، احوال بغداد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، دراسة لمختارات مما كتبه الرحالة الاجانب، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1990).

-علي هادي عباس، "خطط الكوفة في كتب الرحالة الاجانب"، مجلة الكلية الاسلامية الجامعة، النجف الاشرف، العدد: 4، لسنة: 2008.

-علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، (بيروت: دار الراشد، 2005)، ج1.

-عماد عبد السلام رؤوف، "صور من العلاقات الزراعية في العراق ابان القرن الثامن عشر: دراسة في وثائق تاريخية جديدة"، مجلة المورد، المجلد: 11، العدد: 3، لسنة: 1982.

-غييوم لجان، "رحلة لجان الى العراق 1866"، ترجمة: بطرس حداد، مجلة المورد، المجلد: 12، العدد: 3، لسنة: 1983.

-فاضل مهدي بيات، "التعليم في العراق في العهد العثماني: دراسة تاريخية في ضوء السالنامات العثمانية"، القسم الاول، مجلة المورد، المجلد: 22، العدد: 1، لسنة: 1994.

ـــــــــــــــــــ، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني: رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية، (بيروت: دار المدار الاسلامي، 2003).

ـــــــــــــــــــ، "اهمية وثائق وزارة المعارف العثمانية في دراسة تاريخ التعليم في العراق الحديث"، بحث ضمن ندوة: العراق في الوثائق العثمانية المعقودة في اسطنبول 6/ حزيران/ 2012، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2012).

-فنشنسو ماريا دي سانتا كاترينا، "رحلة فنشنسو الى العراق في القرن السابع عشر"، ترجمة: بطرس حداد، مجلة المورد، المجلد: 5، العدد: 3، لسنة: 1976.

-فوزي خلف شويل، "الجريمة في سنجق البصرة في اواخر العهد العثماني في ضوء الصحافة البصرية 1896-1911"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة البصرة، العدد: 1، لسنة: 2005.

-فيريير سوفبوف، "العراق في رحلة كونت فيريير سوفبوف 1785"، ترجمة وتعليق: خالد عبد اللطيف حسين، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة-بغداد، العدد: 34، لسنة: 2012.

-كارستن نيبور، "بغداد في رحلة نيبور"، ترجمة: مصطفى جواد، مجلة سومر، المجلد: 20، ج1-2، لسنة: 1964.

ــــــــــــــــ، رحلة نيبور الكاملة الى العراق، ترجمة: سعاد هادي العمري ومصطفى جواد ومحمود حسين الامين، تعليق: سالم الالوسي، (لندن: دار الوراق، 2012).

-كاسبارو بالبي، رحلة الايطالي كاسبارو بالبي الى حلب-دير الزور-عانة-الفلوجة-بغداد 1579، ترجمة: بطرس حداد، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2008).

-ليونهارت راوولف، "بغداد في سنة 1573"، ترجمة: سليم طه التكريتي، مجلة المورد، المجلد: 5، العدد: 2، لسنة: 1976.

-محمد صالح الزيادي، "الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البصرة من خلال كتاب الرحالة الهندي سي.أم.كرستجي 1916-1917"، مجلة آداب البصرة، جامعة البصرة، المجلد: 2، العدد: 63.

-نوري احمد عبد القادر وظافر عبد النافع، "التربية والتعليم في الموصل في العهد العثماني"، مجلة ابحاث كلية التربية الاساسية، جامعة الموصل، المجلد: 9، العد: 2، لسنة: 2010.

-هشام سوادي هشام، "طرق ووسائط النقل في كركوك واثرها على الحركة التجارية في العهد العثماني الاخير 1831-1914"، مجلة التربية والعلم، جامعة الموصل، المجلد: 15، العدد: 2، لسنة: 2008.

ــــــــــــــــ، "اربيل في كتابات الرحالة الاجانب في العهد العثماني"، مجلة التربية والعلم، جامعة الموصل، المجلد: 15، العدد: 3، لسنة: 2008.

-وفاء كاظم ماضي محمد، تطور الحركة النسوية في العراق 1921-1958، (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية التربية، 2000).

-وليم بيري فوك، "احوال بغداد في القرن التاسع عشر"، ترجمة: عبود الشالجي المحامي، مجلة سومر، المجلد: 16، الجزء: 1-2، لسنة: 1960.

-يوجين روغان، مدرسة العشائر في اسطنبول، ترجمة واعداد: نهار محمد نوري، (بيروت: دار الوراق، 2014).

الفصل التاسع

الاحتلال البريطاني للعراق:

ـ اهمية العراق للسياسة البريطانية في مطلع القرن العشرين:

في مطلع القرن العشرين بلغت اهمية العراق الاستراتيجية درجة كبرى نتيجة لاكتشاف النفط في عبادان من جملة الاسباب التي تذرعت بها بريطانيا عند احتلال البصرة. وقد دفع تزايد المصالح البريطانية في العراق السياسة البريطانية إلى عد وادي الرافدين مجالا حيويا للنشاط السياسي والاقتصادي البريطاني، واوضح اللورد كيزرن اهمية العراق في عام 1892 بقوله: "بغداد تقع في ضمن موانئ الخليج ويجب ان تدخل في ضمن السيادة البريطانية التي لا تنازع". واكد كيزرن هذه الاهمية مرة اخرى في عام 1911 حينما قال: "من الخطأ ان نفترض ان مصالحنا السياسية تنحصر في الخليج فإنها ليست كذلك كما انها ليست منحصرة بالمنطقة الواقعة ما بين البصرة وبغداد وانما تمتد شمالا إلى بغداد نفسها". وتأكيدا لهذه الاهمية بدأت الجهات العسكرية البريطانية بوضع الخطط العسكرية لاحتلال جنوب العراق قبل اندلاع الحرب العالمية الاولى، فقد شكلت حكومة الهند لجنة رباعية عام 1911م لتقوم بدراسة الاجراءات التي يجب ان تتخذها لحماية مصالحها في جهات العراق الجنوبية وقد اوصت اللجنة في تقريرها 12 كانون الثاني 1912 باحتلال الفاو والبصرة.

على الرغم من عدم الاخذ بمقترحات اللجنة في حينها لأنها سابقة لأوانها الا ان القناصل الانكليز في بغداد والبصرة والموصل اخذوا بإعداد المعلومات اللازمة عن الجيش العثماني: اعداده وتجهيزه وقدرته على التحرك فضلا عن القيام بإحضار الخرائط اللازمة للأعمال العسكرية.

كان للسياسية البريطانية في الشرق مركزان رئيسان احدهما في الهند والاخر في مصر، وقد اصطلح على الاول المدرسة البريطانية-الهندية أو المدرسة العربية-الشرقية، وعلى الثاني المدرسة البريطانية-المصرية، أو المدرسة العربية-الغربية. فأصحاب المدرسة البريطانية -الهندية يعتقدون ان التوغل البريطاني في البلاد العربية يجب ان يبدأ من عدن والخليج العربي وينتهي إلى بغداد، ولما كان الملك السعودي عبد العزيز ابن سعود صاحب نفوذ واسع في هذه الاطراف كانت المصلحة البريطانية تقضي بمصادقته، وجعله زعيم العرب الاكبر، وما زال اصحاب هذا الراي يستغرقون في التدليل على صحته حتى سموا اصحاب المدرسة العربية-الشرقية-السعودية.

أمّا اصحاب المدرسة البريطانية-المصرية فانهم يرون من الاحرى ان تسيطر بريطانيا على مصر وتستولي على سورية فتحمل عرب الشام على مقاومة النفوذ الفرنسي من التوسع في الشرق الادنى وبذلك تحفظ الطريق بين الهند والجزر البريطانية، وتستحوذ على المدن الاسلامية المقدسة مكة والمدينة والقدس، فتجعل العرب يدينون لها بالولاء، ولما كان لشريف مكة الحسين بن علي مقام ديني وسمعة واسعة في تلك الانحاء كان من مصلحة انكلترا ان تزعمه على العرب وما زال اصحاب هذا الراي يدللون على صحته حتى سموا اصحاب المدرسة العربية-الغربية الشريفية.

في الحقيقة ثمة فارق رئيسي بين المدرستين فالمدرسة البريطانية -المصرية ادركت بعض الادراك الشعور العربي القومي وطموح العرب في التحرر والاستقلال فأيقنت انه من المستحيل ان توجه المصالح البريطانية في الوطن العربي بالقوة، لأنها تكون مهددة تهديدا مستمرا بسخط العرب وثوراتهم وهذا يكلف الحكومة البريطانية من الجهد والنفقة والتضحية قدرا يفوق ما تربحه عادة لتامين هذه المصالح فحملتها هذه الاعتبارات كلها على الدعوة لانتهاج سياسة الاسترضاء بمنح العرب بعض الحقوق، واقناعهم بان ذلك يرضي مطامحهم، وبهذا تضمن بريطانيا لنفسها ايجاد انصار من العرب ولو كانوا قليلي العدد يعملون على حماية مصالح الامبراطورية في الوطن العربي باقل جهد ونفقة وتضحية.

أمّا اصحاب المدرسة البريطانية-الهندية فانهم متأثرون بالفكرة الاستعمارية في الهند، ولا يفكرون بغير توسيع الامبراطورية، وقد كشفت الاحداث عن خطأ سياستهم في الهند نفسها، فأصبحت الحكومة البريطانية تواجه مشكلة عويصة، هي مشكلة الهند الكبرى كما ان سير أي تي ولسن، ممثل هذه المدرسة في العراق قد فشل في تنفيذ نظريتها في بلاد الرافدين وكان لسياسته فضل مشهود في احداث ثورة عام 1920م.

كان بين اصحاب المدرسة البريطانية-الهندية، واصحاب المدرسة البريطانية-المصرية منافسة حادة، وجدل مستمر حول رجحان وجهة نظر كل منهما وسداد رايه، فلما ظهرت بوادر الحرب العالمية الاولى عام 1914م ارتأت الجهات المختصة في بريطانيا ان تتخذ بعض التدابير الاحتياطية على رأس الخليج العربي، وذلك لأسباب سياسة واقتصادية، اما الاسباب السياسية فتتلخص:

1. رغبة بريطانيا في حماية مؤسسات النفط في المحمرة من تخريب العثمانيين لها في حالة دخولهم الحرب ضد بريطانيا فيحرم الاسطول البريطاني من اهم مورد من موارد الوقود.
2. الخوف من اعتداء الحكومة العثمانية على الرعايا البريطانيين والهنود المقيمين في البصرة والغائها القنصلية البريطانية والامتيازات الاجنبية.
3. انجاد شيخي الكويت والمحمرة اللذين يؤلفان الجناحين للمؤسسات النفطية من تعديات العثمانيين عليهما واغرائهما بالوقوف إلى جانبهم.
4. لفت نظر السلطات العثمانية إلى ان بريطانيا مهتمة بأمر العرب ومواقفهم من الحرب فلا تتعب نفسها، بدعوتهم للقتال باسم الدين في صفوف الترك، أي كان الغرض سياسيا هو اعلان شان النفوذ البريطاني في الخليج حتى إذا توجت هذه التدابير بالنجاح المتوقع لها حولت الامتيازات التي حصلت عليها بريطانيا في البلاد العربية إلى حقوق فتح.

اما الاسباب الاقتصادية فهي:

1. تحويل العراق سوق للمنتجات البريطانية.

2. رغبة بريطانيا في جعل العراق كمورد للمواد الاولية ساء كانت زراعية ام معدنية.

3. تحويل العراق موقع استثمار لرؤوس الاموال البريطانية.

رغم تلك الاسباب تغيرت وجهة القوات البريطانية، وتقرر ان يكون الانزال في البحرين بدلا من عبادان أو المحمرة، بانتظار تعليمات جديدة، وعين السير برسي كوكس ضابطا سياسيا في الغزو المرتقب ويبدو ان سبب تردد الحكومة البريطانية في انزال قواتها في المحمرة أو عبادان هو:

أ. خوفها من ان يؤدي ارسال حملة ما للغرض المذكور إلى اضعاف قواتها الداخلية بدرجة خطيرة من جراء سحب قواتها إلى عرض البحار.

ب. خشيتها من النتائج الخطيرة التي تؤدي إلى النزاع مع تركيا وحامي حمى المسلمين وتأثير ذلك في مسلمين الهند والافغان والقبائل التي على الحدود.

ج. خشيت حكومة الهند من ان يؤدي ارسال الحملة المقترحة إلى رأس الخليج إلى تعجيل دخول الدولة العثمانية الحرب.

فلما اندلعت الحرب في 18 تموز 1914م كان العثمانيون يميلون للوقوف على الحياد حتى اخر لحظة ممكنة، والسبب في ذلك هو ان العثمانيين كان يعوزهم المال والسلاح لإدارة ماكنة الحرب، وقد قدر الساسة العثمانيين ان الدخول في الحرب ستؤدي إلى حل المسالة الشرقية حلا تكون فيه الامبراطورية العثمانية اولى ضحاياها فنصحوا بعدم المغامرة، ولكن من جانب اخر كان تحالفهم مع المانيا لابد ان يجرهم عاجلا أم اجلا إلى الدخول في الحرب. وفي الوقت الذي كانت فيه دبلوماسية الحلفاء تركن إلى الضغط تارة

والى التهديد تارة اخرى لحمل العثمانيين على الوقوف إلى جانبهم، كان سفير المانيا في الاستانة يغري السلطان والقادة العثمانيين للدخول في الحرب، ويظهر استعداد حكومته لتقديم المال والسلاح اللذين تحتاج اليهما الدولة العثمانية فيما إذا وقفت على الحياد، وكانت المانيا تريد حياد الدولة العثمانية لتؤمن حاجاتها من المواد الغذائية الاولية، ولتتمكن من انجاز مشروع الخط الحديدي الذي يربط برلين بالكويت، وقد تقرر اخيرا جعل نهايته بغداد، حسما للنزاع الذي قام حوله فلا يحول الاسطول البريطاني دون اتصال المانيا بالبلاد العثمانية عن طريق البر.

في منتصف ايلول عام 1914م ظهر لوزارة الخارجية البريطانية، وللسلطات العسكرية والسياسية، وكذلك لرئاسة اركان الجيش الامبراطوري، وجوب تحذير حكومة الهند من خطورة موقف الدولة العثمانية حيال بريطانيا، وضرورة الركون إلى تدابير الحيطة والحذر. وقد كانت آراؤها فيها الكثير من الوجاهة والاهمية، لذا لم يسع الحكومة المذكورة غير الاقرار بواقع الحال.

في اوائل شهر تشرين الاول عام 1914 صدرت الاوامر السرية إلى لواء المشاة السادس عشر من الفرقة السادسة-وهي فرقة بونة- بالإقلاع من بومبي إلى الخليج العربي، وكانت هذه الحملة مؤلفة من اربعة افواج ثلاثة افواج من الجنود الهنود، وفوج من الجنود البريطانيين، ومعها بطريتان من المدفعية الجبلية وما يتبعها من خدمات صحية ونقل وغيرها، فبلغت القوة المحاربة 173 ضابطا، و4558 جنديا، و12 مدفعا و1290 دابة، وقد سميت هذه القوة حملة(D) لأنها انيطت بجنرال ديلامين، وعلاوة على هذا تقرر ارسال القسم الباقي من الفرقة الهندية السادسة من الهند لتقوية القوة (D)، في حالة اعلان الحرب على الدولة العثمانية على ان تكون الحملة بأجمعها تحت ادارة حكومة الهند.

اتُهمت تركية في 27 تشرين الاول سنة 1914م، وفي 29 منه، بقصف بارجتيها برسيلاو وغوبن الموانئ الروسية على البحر الاسود، وكانت الاحوال قد تحرجت فطلب

سفراء دول الحلفاء في الاستانة جوازات سفرهم في 30 من الشهر المذكور وغادروا الاراضي العثمانية فورا، وفي اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني من هذه السنة اعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية، وتلتها فرنسا وبريطانيا، 5 تشرين الثاني.

ـ الاحتلال البريطاني للعراق:

كانت الحملة (D) قد وصلت إلى مياه شط العرب في يوم 3 تشرين الثاني 1914م، وفي عشية الغزو العسكري البريطاني، اصدر السير برسي كوكس الضابط السياسي المرافق للقوات البريطانية بيانا زعم فيه ان حكومته قد اجبرت على الحرب نظرا للموقف المعادي من قبل العثمانيين، لذا ارسلت بريطانيا قواتها لحماية تجارتها واصدقائها واجلاء الاتراك من المنطقة وان لا عداء لها مع العرب شريطة، الا يحموا الجنود الاتراك، ولا يحملوا السلاح في تجوالهم واكد مهددا على منع ذلك، كي يجرد السكان من وسائل الدفاع عن انفسهم في ظرف غابت فيه السلطة المحلية الحامية، وبذلك يتسنى لجيشه الغازي ان يتوغل بسهولة.

نزلت القوات البريطانية في الفاو في ساعة متأخرة من يوم 6 تشرين الثاني ورفع عليها العلم البريطاني بعد مقاومة طفيفة اضطر بعدها الجنود العثمانيون إلى الانسحاب، وبذلك تمكنت بريطانيا من السيطرة على مدخل شط العرب. أمّا السلطات العثمانية في البصرة فلم يصل اليها خبر احتلال الفاو الا في اليوم التالي من المدنيين الذين غادروا المنطقة إلى البصرة، فاستعدت القوات العثمانية لتصد التقدم البريطاني باتجاه البصرة الا ان حركة هذه القوات كانت غير نظامية ولا مدروسة بل مليئة بالأخطاء سواء في شكل التقدم أو في التعبئة والتموين ولم تقدم الاستخبارات العثمانية اية معلومات لقائد القوة عن الموقع البريطاني، ولم تكن لديه خريطة للمنطقة وقصارى القول ان القيادة العثمانية اعتمدت على الارتجالية دون التخطيط والحسابات العسكرية الدقيقة.

أمّا الخطط العسكرية والامـدادات البريطانية فكانت مبنية على حسابات دقيقة وتقديرات جيدة منذ بداية تحرك القوات البريطانية من الهند، مكنت البريطانيين من دحر العثمانيين في معارك السنية وسيحان وكوت الزين، وفتح الطريق امام هذه القوات لاحتلال مدينة البصرة، حيث انسحبت القوات البريطانية باتجاه القرنة، ودخلتها القوات البريطانية في يوم 22 تشرين الثاني وفي اليوم التالي استعرضت القوات البريطانية في البصرة، ورفع العلم البريطاني على سطح احد المباني الرئيسة، واطلقت البحرية البريطانية مدافعها تحية له، واذاعت السلطة المحتلة خطابا دعت فيه اهالي البصرة إلى التعاون معها باعتبارها السلطة الوحيدة القائمة واقعيا ووعد الخطاب بالحرية والعدالة.

قامت القوات البريطانية بعد احتلالها لمدينة البصرة، بإقامة المعسكرات لسكنى قواتها وانزال معداتها العسكرية، والقيام بدوريات للحراسة، والبحث عن الاسلحة في القرى المحيطة بالبصرة، وتقرر مطاردة القوات العثمانية المنسحبة باتجاه القرنة والزبير، وقد اعطى الاحتلال القرنة اهمية كبيرة لموقعها العسكري، ولصلاحية الملاحة إلى الخليج العربي، وغنى المنطقة الزراعية، واحاطتها بإقليم الاحواز، فتقدمت القوات البريطانية واحتلت المدينة بعد استسلام القوات العثمانية في يوم 9 كانون الاول 1914. وبدخول القرنة اصبح البريطانيون يسيطرون على ملتقى نهري دجلة والفرات والطريق الملاحي إلى الخليج العربي.

لقد اوضحت الانتصارات البريطانية السريعة ضعف الاتراك، وعدم استعداد القيادة العثمانية في العراق للوقوف بوجه الغزو البريطاني، لهذا اعاد العثمانيون النظر في تنظيم قواتهم النظامية في العراق، وعملوا على كسب تأييد العراقيين لهم عن طريق اعلان الجهاد المقدس الذي كان له اثره في توجيه الراي العام المتأثر بالعواطف الدينية إلى حمل السلاح بوجه البريطانيين وبلغ عدد المتطوعين بين 10-15 الف مقاتل، وقد توجه هؤلاء لمقاتلة الانكليز في الشعيبة قرب البصرة.

احتشدت القوات العثمانية بقيادة سليمان عسكري بك ومعها قوات المتطوعين وبدأت بمناوشة القوات البريطانية، وبدأ الهجوم الفاصل صباح يوم 12 نيسان 1915 ولكنه

كان هجوما فاقدا لعنصر المباغتة نظرا لما سبقته من شواهد دالة عليه، فقام البريطانيون بهجوم مضاد اسفر عن انتصار كاسح للقوات البريطانية، وابادة قسم كبير من القوات العثمانية، وتعد موقعة الشعيبة من المواقع الحاسمة في تاريخ عملية الاحتلال البريطاني للعراق، فقد فتتت معنويات القيادة العثمانية وخاصة عند انتحار القائد سليمان العسكري كما اوجدت الشكوك بين الناس في امكانية صمود العثمانيين امام الغزو البريطاني واعتبرت معركة الشعيبة مأساة تاريخية هامة بالنسبة للعثمانيين.

بعد هزيمة العثمانيين في القرنة والشعيبة تقهقرت قواتهم نحو العمارة والناصرية، بيد ان القوات البريطانية لاحقتها، واتجهت قوة برية ومائية في دجلة إلى العمارة، فاحتلتها في 2 حزيران 1915، كما احتلت قوة اخرى، اتجهت عن طريق الفرات، الى الناصرية في 25 تموز، وبعد معارك دامية تم للبريطانيين السيطرة على المثلث الواقع بين البصرة والعمارة والناصرية، واصبحت ولاية البصرة كلها تقريبا تحت الاحتلال البريطاني.

شجع احتلال ولاية البصرة والانهيار السريع للمقاومة العثمانية، القادة العسكريين البريطانيين على طلب التقدم نحو بغداد، واوضح السير برسي كوكس، رئيس قادة الحملة السياسيين في برقية بعثها إلى نائب الملك في الهند، بانه لا يرى كيف يمكن ترك احتلال بغداد، وقد اخذت حكومة الهند على عاتقها تحقيق فكرة الزحف نحو بغداد بعد تعيين الجنرال جون نيكسون إلى القيادة ما بين النهرين في 9 نيسان 1915، وخولته بالزحف على بغداد اذا كان مقتنعا بان القوة المتوفرة لديه تكفي للقيام بالعمليات المطلوبة.

تقدمت الحملة البريطانية عن طريق دجلة باتجاه بغداد، وكانت بقيادة الجنرال تاوزند الذي كان يعتقد في ضوء خبرته السابقة ضعف مقاومة الاتراك وان قواته لن تجد صعوبة في احتلال بغداد، أمّا العثمانيون فقد عمدوا إلى تجميع قواتهم المندحرة، وشكلوا لجنة تحصين مدينة بغداد للدفاع عنها وحدثت اول معركة بين الطرفين بالقرب من الكوت، في 27 ايلول 1915 استمرت نحو عشرين ساعة واشترك فيها الاسطولان النهريان البريطاني والتركي، وانتهت بانتصار البريطانيين وانسحاب العثمانيين إلى خطوط دفاعية جديدة

اقاموها قرب المدائن بعد ان خسروا 17 الف قتيل وجريح و1289 اسيرا، ثم واصل البريطانيون تقدمهم نحو بعد بغداد بعد استعدادات دامت ستة اسابيع.

استعد العثمانيون بقيادة نور الدين لملاقاة البريطانيين قرب المدائن وحصلوا على امدادات عسكرية من الاناضول، كما وصل إلى بغداد الجنرال الالماني فون دوكولتز لتنظيم الدفاعات العثمانية ودارت معركة ضارية بين الجانبين، وخلال المعركة عززت القوات العثمانية بفرقة جديدة بقيادة خليل بك الامر الذي مكن العثمانيين من توجيه ضربة قوية اضطرت القوات البريطانية إلى الانسحاب والتراجع نحو الكوت بعد ان تكبدت خسائر فادحة بلغت في يوم 22 تشرين الثاني وحده 4511 قتيلا.

استغلت القوات العثمانية الانكسار البريطاني في المدائن، وقامت بتعقب القوات البريطانية المتراجعة، وتمكنت من محاصرة البريطانيين في مدينة الكوت في 7 كانون الاول 1915، وقد استمر الحصار حوالي خمسة اشهر، ذاق فيها البريطانيون ويلات الحصار، فاكلوا لحوم الخيل وخلعوا ابواب وشبابيك البيوت لاستعمالها في الوقود. وقد حاول البريطانيون عدة مرات انقاذ جيشهم المحاصر دون جدوى، واجروا مفاوضات مع العثمانيين لرفع الحصار مع استعدادهم لوضع مليون أو مليوني ليرة لخليل باشا قائد القوات العثمانية، لكنه امتنع عن قبول هذه الرشوة، واصر على التسليم دون قيد أو شرط، فاضطر البريطانيون إلى الاستسلام في يوم 29 نيسان 1916 بعد ان اتلفوا سلاحهم ومعداتهم وبلغ عدد القوات التي استسلمت 13500 جندي عدا الضباط وارسل هؤلاء اسرى إلى الاناضول والحقيقة ان تسليم الكوت كان نهاية محزنة لمشروع كان الهدف منه احتلال بغداد، وان خسائر البريطانيين منذ البداية حتى تسليم الكوت كانت كبيرة إذ بلغت 40 الف بين قتيل واسير، واخيرا فان تسليم الكوت كانت ضربة قوية لسمعة البريطانيين.

في الوقت الذي كانت القوات البريطانية محاصرة في الكوت عقدت بريطانيا اتفاقية سرية مع الحلفاء لاقتسام الممتلكات العثمانية، عرفت باسم اتفاقية سايكس-بيكو. فقد تم تعين البريطاني مارك سايكس والفرنسي جورج بيكو لإجراء المفاوضات نيابة عن الدولتين.

ولابد من الاشارة هنا ان بريطانيا كانت في الوقت نفسه قد دخلت في مفاوضات مع الشريف حسين في الحجاز لتضمن مساعدته في الحرب ضد الدولة العثمانية، وقد اشترط الشريف حسين ان تكون هذه المساعدة متوقفة على اعتراف بريطانيا بأماني العرب القومية. واذ كانت الحكومة الفرنسية شاعرة باحتمال عقد صفقة عربية-بريطانية، وتواقة الى الحصول على جزء من الامبراطورية العثمانية لنفسها، فقد الحت على الاعتراف بمطالبها. ولما اقدمت بريطانيا وفرنسا على تحديد حقوقهما على هذه الشاكلة رغبتا في الحصول على مصادقة روسيا عليها، ومن اجل هذا ارسل سايكس وبيكو الى سان بطرسبورغ في اوائل ربيع عام 1916. وهناك عرضا لائحة اتفاقيتهما وحصلا على مصادقة روسيا عليها، ولكن بعد ان كان الثمن الاعتراف بمطالب روسية اخرى في المنطقة. وقد اتخذت هذه الصفقة فيما بعد شكلا رسميا في 26 نيسان 1916 باسم اتفاقية سازونوف-باليولوغ. وقد اصبحت بعد ذلك جزءا من لا يتجزأ من التسوية العامة التي تمت بين روسيا وفرنسا وبريطانيا، والتي يشار اليها عادة باسم اتفاقية سايكس-بيكو، وتحتوي على الشروط الاتية:

1. تحصل روسيا على ولايات ارضروم، وطرابزون، ووان، وارمينية التركية، وعلى منطقة تقع في القسم الشمالي من كردستان، على الخط الممتد من موش، وزعرت، وجزيرة ابن عمر، والعمادية الى الحدود الايرانية. وهذه المنطقة تبلغ مساحتها 60 الف ميل مربع ممتدة في المساحة المحصورة بين البحر الاسود ومنطقة الموصل-اورمية، وتحتوي على ثروات غنية بالنحاس والفضة والملح.
2. تحصل فرنسا على القطاع الساحلي المشتمل على سوريا، وولاية اطنة، والمنطقة التي يحدها جنوبا الخط الممتدة من عينتاب وماردين الى الحدود الروسية المقبلة، وشمالا الى كيليكية.
3. تحصل بريطانيا على القسم الجنوبي من العراق، ابتداء من بغداد، وعلى مينائي حيفا وعكا في فلسطين.

4. يتألف من المنطقة الكائنة بين الممتلكات الفرنسية والبريطانية اتحاد لدول عربية صغيرة أو دولة عربية واحدة. وان تقسم هذه المنطقة من جديد الى منطقة نفوذ فرنسية وبريطانية. تتألف المنطقة الفرنسية من سوريا الداخلية وولاية الموصل في العراق، اما المنطقة البريطانية فتمتد ما بين فلسطين والحدود الايرانية.
5. ان تعلن الاسكندرية ميناء حرا.
6. ان تدول فلسطين.

من جانب اخر كانت الحرب في العراق ما زالت مستمرة ولم يحاول العثمانيون استثمار الهزيمة البريطانية في الكوت لمحاولة التقدم إلى جنوب العراق واعادة احتلاله وطرد البريطانيين منه، وانما ارسلوا قواتهم إلى ايران لمحاربة القوات الروسية، مما اضعف القوات العثمانية الموجودة في العراق، ومكن البريطانيين من تعزيز قواتهم من جديد وخاصة بعد تولي الجنرال ستانلي مود قيادة هذه القوات التي بدأت باستئناف الهجوم ضد العثمانيين منذ اوائل عام 1917، ودارت معارك هائلة بين الجانبين تضعضع فيها مركز العثمانيين الذين اضطروا إلى الانسحاب من الكوت إلى المدائن يوم 27 شباط وتحصنوا فيها، لكن البريطانيين استمروا في تقدمهم نحو المدائن مما دفع العثمانيين إلى الانسحاب نحو نهر ديالى في 6 اذار ثم انسحبوا من بغداد فدخلها البريطانيون بقيادة الجنرال مود فجر يوم 11 اذار 1917، وقد اصدر الجنرال مود تصريحه الشهير الى اهالي بغداد: "اننا لم ندخل بلادكم اعداء فاتحين، انما دخلناها محررين".

كان لاحتلال بغداد من قبل البريطانيين اثاره السياسية والعسكرية والنفسية على الوجود العثماني في مناطق العراق الاخرى، وقد واصل البريطانيون تقدمهم في شمال العراق فاحتلوا سامراء في 22 نيسان، والرمادي في 29 ايلول، وتكريت في 6 تشرين الثاني 1917، وبقي الجيش البريطاني عند الفتحة جنوب الشرقاط حتى اواخر تشرين الاول 1918 وكان على بعد 12 ميلا من القوات العثمانية في مدينة الموصل عند عقد الهدنة في 20

تشرين الاول 1918، وكانت الموصل بموجب اتفاقية سايكس-بيكو قد وضعت ضمن النفوذ الفرنسي، بينما وضعت بغداد والبصرة ضمن النفوذ البريطاني، غير ان بريطانيا ظلت مصممة على نقل الموصل الى سيادتها، فطلب قائد القوات البريطانية الجنرال مارشال، وكان قد تولى قيادة هذه القوات بعد موت الجنرال مود بمرض الكوليرا، في 19 تشرين الثاني 1917، من علي احسان باشا قائد القوات العثمانية في المدينة مغادرتها، وجرت مفاوضات بين الجانبين وافق فيها العثمانيون على الجلاء عن المدينة، ورفع العلم البريطاني عليها في 8 تشرين الثاني 1918، ولما كان من الممكن ان يشكل احتلال الموصل معارضة فرنسا، فقد تم تسوية الامر بأن تأخذ فرنسا حصة من النفط مقابل الموصل. وهكذا انتهت الاعمال العسكرية بعد ان امتدت زهاء اربع سنوات، وخضع العراق للإدارة البريطانية وقد كلف احتلال العراق البريطانيين خسائر فادحة قدرتها المصادر البريطانية، بحوالي مائة الف قتيل وجريح، هذا فضلا عن الخسائر المادية الهائلة، لهذا يمكن القول ان العراق كان من الجبهات الاساسية التي استنزفت العدد الكبير من الرجال والمال الوفير.

ـ موقف رجال الدين والعشائر العراقية من الاحتلال البريطاني للعراق (1914ـ1918):

بدأت مقاومة العشائر العراقية للقوات البريطانيين منذ بدأ حملتها على العراق، فعندما انزلت بريطانيا قواتها في الفاو في 6 تشرين الثاني 1914 وانتشرت اخبار الاحتلال البريطاني لمدينة الفاو في مدن العراق وبخاصة الجنوبية، بذلت الدولة العثمانية جهودا استثنائية لكسب علماء الدين وحثهم على اعلان الجهاد والتصدي لقوات الاحتلال البريطاني، إذ ارسلوا برقية في 9 تشرين الثاني 1914 من البصرة إلى علماء الدين في النجف الاشرف ومختلف المدن العراقية جاء فيها: (ثغر البصرة، الكفار يحيطون به، الجميع تحت السلاح،

نخشى على باقي بلاد الاسلام، ساعدونا بأمر العشائر بالدفاع). ولم تكتف السلطات العثمانية بذلك بل ارسلت أيضاً وفدا رفيع المستوى من بغداد إلى النجف مؤلفا من بعض الشخصيات البارزة بشأن امر الجهاد، وكان من بينهم القائد العسكري محمد فاضل الداغستاني الذي تولى قيادة الجيش العشائري في العراق، واستقبل الوفد بحفاوة وعقد اجتماع في جامع الهندي حضره الكثير من العلماء والوجهاء ورؤساء العشائر: منهم عبد الواحد ال سكر شيخ الفتلة، والسيد علوان الياسري (سادة المشخاب)، وذكر الشيخ مبدر الفرعون كلمة قال فيها: "ان الاتراك اخواننا في الدين، وواجب علينا مساعدتهم في طرد الاعداء الكفار من بلادنا". وبناء على ذلك اُرسلت برقيات من علماء الدين إلى رؤساء العشائر تطالبهم بإعداد عشائرهم للدفاع عن العراق، وكانت احدى برقيات الجهاد قد ارسلت من السيد كاظم اليزدي (احد علماء الدين) معنونة إلى الشيخ خيون العبيد (شيخ عشائر عبودة) جاء فيها: "يقيناً بلغك كما بلغنا هجوم الكفار على بلاد المسلمين، واحاطتهم بالبصرة، يريدون ان يطفؤوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره المشركون... وحيث ان الامر كذلك فلا يجوز ان تشغل نفسك بغير مدافعة الكافرين، فان الواجب عليك وعلى كل من بلغته فتوانا من وجوب الدفاع على المتمكنين من المسلمين عند مهاجمة الكفار عن بلاد الاسلام، ان تشد رحلك إلى حفظ ذلك الثغر ولا يسوغ التقاعد عن نصرة الاسلام والمسلمين". فضلا عن ذلك اصدر الشيخ مهدي الخالصي فتوى الجهاد ضد المحتلين، كما اصدرت فتاوى اخرى للجهاد من الشيخ محمد سعيد المدرس امام الجامع الاعظم، والسيد احمد نجل السيد مهدي الحيدري، ولم يكتف علماء الدين بإصدار الفتوى، بل وجه السيد محمود الكيلاني بلاغا الى كل الذين يقفون بجانب البريطانيين من العراقيين يدعوهم فيه الى اغتنام فرصة الامن والامان التي منحها السلطان العثماني ويعلنوا ندمهم والتزام الطاعة. وكان لهذه الفتاوى والبلاغات اثرها في الاهالي، ففي 19 تشرين الثاني 1914 تجمع عدد من شباب الكاظمية فساروا الى بغداد في مظاهرة مشيا على الاقدام تتقدمهم الطبول، وعند وصولهم انظموا الى المحتشدين في قلعة باب المعظم، وصعد بعض الخطباء

لأثارة الحماس منهم، عبد الرحمن الكيلاني، ومعروف الرصافي، ومحمد الخالصي وغيرهم، ثم اطلقت المدافع وارتفعت الهتافات بحياة السلطان وسقوط الانكليز.

من جانب اخر استجابت معظم العشائر العراقية لحركة الجهاد ووقفت إلى جانب القوات العثمانية في حربها مع البريطانيين، ووصلت إلى النجف جموع من المجاهدين يمثلون عشائر مختلفة يرأسها بعض سادة وزعماء الفرات الاوسط منهم: السيد محسن أبو طبيخ من سادة الشامية، والسيد هادي المكوطر من سادة الشنافية، فضلا عن عدد كبير من المقاتلين الاكراد بقيادة الشيخ كاكا احمد، من بينهم الف خيال بقيادة الشيخ محمود، وعبد الله صافي بيك اليعقوبي نائب كركوك، ونامق الهماوند، والسيد محمد علي ميردار، والسيد احمد خلنقاه. وكان معظم هؤلاء من عشائر الجاف والهماوند بالإضافة إلى العشائر الكردية الاخرى التي لبت دعوى الجهاد وهي عشيرة الطالبانية بقيادة لطيف وعشائر الكاكائية والشوان، والبادوا بقيادة الشيخ قادر، وعشيرة الداوودية بقيادة نامق اغا، وعشيرة البرزنجة بقيادة شيخها ميره سور، وبالرغم من سرعة وصول المجاهدين إلى ميدان المعركة لكن سرعة انسحاب القوات العثمانية امام القوات البريطانية حالت دون اشراكهم في صد القوات البريطانية المتقدمة باتجاه مدينة البصرة. وقبل احتلال مدينة البصرة في 22 تشرين الثاني 1914، وبينما كانت القوات البريطانية تتقدم عبر شط العرب، عقد اجتماع بين القادة العثمانيين وعدد من شيوخ العشائر العراقية كان من بينهم: الشيخ عجمي السعدون، والشيخ سالم الخيون (شيخ بني اسد)، والشيخ خيون العبيد (شيخ العبودة)، والشيخ بدر الرميض (شيخ البو صالح)، وقد فوجئ الجميع بقرار القيادة العثمانية بالانسحاب من مدينة البصرة، على ان تكون المعركة القادمة في الشعيبة، فاعترض الشيخ سالم الخيون (شيخ بني اسد) قائلا: "نحن نريد ان تكون المعركة في شط العرب واقترح اغراق مركبتين في شط العرق لسد الطريق امام القوات البريطانية ثم تتقدم العشائر العراقية وعلى القوات العثمانية مرافقة هذه العشائر ومساندتها اثناء قتالها، واذا ظهرت أي بادرة للخيانة من جانب العشائر، فعلى القوات العثمانية توجيه نيران مدفعيتها إلى تلك العشائر"، ولكن القائد العثماني سليمان

عسكري كان لديه اوامر مسبقة بالانسحاب لذلك لم يقتنع بما قاله الشيخ سالم الخيون: "انتم تريدون تسليم العراق إلى بريطانيا". وبعد ان احتلت القوات البريطانية مدينة البصرة في 22 تشرين الثاني 1914، تحركت افواج المتطوعين من ابناء عشائر الدليم والاكراد والفرات الاوسط بالإضافة إلى عشائر المنتفك، ووصلوا إلى شمال مدينة الشعيبة في 22 كانون الثاني 1915.

اتفقت العشائر مع القيادة العثمانية على مقاتلة البريطانيين من ثلاثة محاور الاول: يتجه إلى الشعيبة عن طريق السماوة ويتألف من عشائر: ال فتلة اهل المشخاب، وال ابراهيم، وال شبل، والخزاعل وعشائر المنتفك، والمحور الثاني: يتجه عن طريق الجزيرة، إلى النعمانية، ويتألف من عشائر: زبيد، وال مسعود، وال فتلة الغربيين من اهل الهندية، وعشيرة بني حسن، والجبور، وعشائر لواء بغداد، والدليم وديالى، وقسم من العشائر الكردية، بينما شمل المحور الثالث: عشائر ال فتلة الفراتية البدير، وجليحة، والبو هدله، واهل الشامية، والبراجع، وتتجه صوب العمارة إلى الكارون من الاحواز.

بدأ هجوم المجاهدين على المواقع البريطانية في 12 نيسان 1915، واستمرت المناوشات بين الطرفين لمدة ثلاثة ايام، ثم شن البريطانيون هجوما كاسحا بقيادة اللواء ميللز على القوات العثمانية، فتصدى لهم المجاهدون الذين اشتبكوا مع العدو بالسلاح الابيض، لكن القائد العثماني علي بيك اوراق، اخفق في الدفاع عن مواقعه، فقرر الانسحاب من ساحة المعركة.

اسفرت معركة الشعيبة 12-15 نيسان 1915 عن انتصار القوات البريطانية، وهزيمة القوات العثمانية والعشائر المتحالفة معها، فكان سببا في خيبة امال معظم العشائر العراقية، فضلا عن انعدام الثقة بين الطرفين المتحالفين، والذي كان عاملا مهما ساهم في اضعاف دور المقاومة، وبالرغم من ذلك فان العشائر العربية، وكذلك الكردية والتي كانت بقيادة الشيخ محمود قدمت تضحيات كبيرة بلغت حوالي ثلاثة الاف شهيد.

في جبهة الحويزة استطاعت عشائر العمارة المتحالفة مع القوة العثمانية التي كانت بأمرة القائد توفيق بك الخالدي، كعشيرة بني لام برئاسة غضبان البنية، وبني طرف برئاسة عوني بن مهاوي وعاصي بن شرهان، وعشيرة ربيعة برئاسة عناية ابن ماجد، ان تلحق بالقوات البريطانية خسائر فادحة في المعركة العنيفة التي حدثت في 2 اذار 1915 في موضع يقال له الغدير، وكان الجنرال روبنسون قائد القوات البريطانية قد امر قواته بإطلاق مدافعها ومباغتة القوات العثمانية، الا ان دور العشائر في تلك المعركة افسد عليه خططه، حيث اخذت جموع العشائر تنهال عليه من الجانبين وتمكنت من مفاجأة قواته. اسفرت المعركة عن تكبد الطرفين خسائر كبيرة، إذ اختل النظام، وساد الارباك صفوف القوات البريطانية التي لم تتمكن من الانسحاب من المعركة الا بصعوبة بالغة، والذي ساعد البريطانيين على الانسحاب الخطأ الذي اقترفه العثمانيون انفسهم اثناء المعركة، إذ اخذوا يقذفون قنابلهم حتى على العشائر المتحالفة معهم، الامر الذي مكن البريطانيين من اخلاء قطعاتهم من المعركة.

أمّا العشائر فقد حصلت على غنائم كثيرة كان من جملتها مدفعين احدهما صحراوي والاخر جبلي الا انهم خسروا 100 شهيد، و300 جريح، بينما كانت خسائر البريطانيين في هذه المعركة 65 قتيلا و127 جريحا، كما اعلن الشيخ غضبان البنية رئيس عشيرة بني لام بعد الانتهاء من المعركة عن جائزة مالية يدفعها لكل من يأتي له براس رجل بريطاني. ومهما تكن الحال، فان العشائر العراقية في تلك المعركة ابدت مقدرة فائقة اذهلت البريطانيين وقد اعترفت بها بعض المصادر البريطانية بان لهم مقدرة فائقة على السرعة في التنقل والحركة، ففرسانهم يسبقون فرساننا دائما، أمّا المشاة فان رشاقة اقدامهم تمكنهم من مطاولة خيولنا.

في جبهة الشعيبة، واصلت القوات البريطانية تقدمها بعد انتصارها في معركة الشعيبة يحدوها الامل في احتلال مدينة الناصرية، التي تمكنت من احتلالها في تموز 1915، بعد ان تكبدت 25 قتيلا، و84 جريحا. وفي 27 تموز من العام نفسه ابرق نائب الملك في الهند إلى وزير الدولة البريطاني المختص بشؤون الهند قائلا: "أمّا وقد تم احتلال الناصرية، فان احتلال كوت الامارة، اصبح بنظرنا امرا لازما لابد منه". وهو بذلك يعبر بصراحة عن نيات

بريطانيا باحتلال العراق بأكمله، وعلى هذا الاساس حاول البريطانيون احتلال نهر الغراف وعشائره لكي يتسنى لهم تقديم الدعم العسكري لقواتهم المتجهة على محور نهر دجلة لاحتلال مدينة الكوت، وبعد محاصرة القوات العثمانية، القوات البريطانية في مدينة الكوت 1915م، تحركت قوة بريطانية في اوائل كانون الثاني 1916 من الناصرية متجهة نحو الغراف، ويقال انها ارسلت إلى رؤساء المنطقة تهديدا فيه: "اننا قادمون فمن لم يكن معنا منكم فليعلن ذلك" فكان جواب رؤساء عشائر الغراف: "اننا لا نقف مع الانكليز مادامت الراية الاسلامية ثابتة مع العثمانيين".

وصلت القوة البريطانية إلى موضع باهيزة بين الناصرية والشطرة، وقد صادفت خلال تقدمها عشيرة خفاجة مجتمعة لتشييع جنازة احد ابنائها، وقد ارتفعت اعلامها وكان رجالها يطلقون الرصاص في الهواء، كما هي عادة العشائر في العراق في مثل هذه المناسبات وحينما طلب القائد البريطاني من الخفاجيين القاء سلاحهم رفضوا ذلك مما ادى إلى نشوب معركة بين الطرفين اسفرت عن هزيمة البريطانيين، وقد عزز هذا الانتصار من عزيمة عشائر الغراف ووحدت كلمتهم في مقاومة البريطانيين.

لقد اشتد غضب القادة البريطانيين في اعقاب هزيمتهم في موقعة باهيزة، ولذلك اخذوا يعدون العدة لكسر شوكة عشائر الغراف، فضلا عن محاولتهم فك الحصار الذي فرضته القوات العثمانية على القوات البريطانية في الكوت، تحركت القوات البريطانية وكانت تتألف من ستة الاف عسكري، وعشرة مدافع عن مختلف الانواع والمديات اضافة إلى الاسلحة الاخرى، وبالمقابل كانت عشائر الغراف على اتم الاستعداد لمجابهة قوات الاحتلال البريطاني، إذا اشتركت في هذا الحشد عشائر العبودة وخفاجة، وال زيرج، وبني زيد، والبو سعد والشويلات.

كان الشيخ خيون العبيد رئيس عشيرة العبودة من ابرز الزعماء العشائريين، إذ قاد 1700 مقاتلا متصديا لقوات الاحتلال البريطاني، ووضع خطة ذكية في مهاجمة القوات البريطانية، حينها امر العشائر برفع اعلامها على بيوت احدى القرى، بينما امر المقاتلين

بالاختفاء، وراء ضفاف احد الانهر مباشرة، الامر الذي اوهم البريطانيين بوجود المقاتلين في القرية، وعندما اخذت المدفعية تقصف القرية انقض ابناء العشائر في 8 شباط 1916 على هذه القوات في الموضع الذي يقال له البطنجة ونشبت بين الطرفين معركة استمرت طيلة النهار، استعمل فيها السلاح الابيض وقد تمكن ابناء العشائر من تسلق الزوارق الحربية المرافقة للقوات، واشتبكوا مع جنودها بالأيدي والسلاح الابيض، وقد اسفرت المعركة عن تقهقر العدو وانسحابه إلى قواعده في مدينة الناصرية. ولابد من الاشارة هنا إلى ان عشائر الغراف واصلت ملاحقتها للقوات البريطانية المنكسرة في هذه المعركة واخذت تحتمي بسور مدينة الناصرية، بعد ان تمكن قائد القوة البريطانية هاملتون من الافلات من الاسر بأعجوبة.

كانت انباء معركة البطنجة، قد حفزت بقية العشائر في سوق الشيوخ على مقاومة القوات البريطانية، اضافة إلى قيام الشيخ خيون العبيد بأرسال مجموعة من الرسائل كانت تحتوي على جدائل نسائية، وقام بتأشير هذه الرسائل باللون الاسود لأثارة همم وحمية العشائر المحيطة بمدينة سوق الشيوخ، وقد سمى البريطانيون هذه الرسائل بالرسائل السوداء، وتشير مراسلات القادة البريطانيين إلى الذعر والخوف الذي اثارته هذه الرسائل بين الجنود والضباط البريطانيين. وشنت كذلك عشيرة العليات في هور الحمار هجمات عديدة على الدوريات البريطانية وتمكنت من الاستيلاء على معظم معداتها، كما قامت عشيرة العمايرة بتعطيل خط الاتصال البرقي الذي انشأه البريطانيون بين العكيكة والجبايش. ومن الجدير بالذكر ان القوات البريطانية لم تتمكن من احتلال مدن الغراف الا بعد ان احتلت مدينة بغداد في 11 اذار 1917، وبذلك تمكنت من ملء الفراغ الاداري في منطقة المنتفك والتي اطلقت عليه اسم الجسر المكسور نتيجة لاستقلال الشطرة وعدم خضوع عشيرة ال زيرج، واستمرار عشيرة خفاجة في مقاومة الاحتلال البريطاني.

وفي لواء ديالى هاجمت عشائر بني ويس، وربيعة، والعزة، والجبور، القوات المرتزقة التابعة للبريطانيين والذين يدعون شبانة، المتواجدين في شهربان في 22 حزيران 1917، وتمكنت من تحقيق الانتصار عليها واضطرت الشبانة إلى الانسحاب بمد ان تركت وراءها 9 قتلى وعددا

من الجرحى واستمرت العشائر في ملاحقتها حتى اثناء الانسحاب. وعلى الرغم من احتلال القوات البريطانية لبلدروز في 26 حزيران 1917، الا ان عشائر بني تميم وبني زيد استمرت في المقاومة، إذ تمكنت من تحطيم احد الجسور على طريق بعقوبة على بعد 15 ميلا من بلدروز. ومما تجدر الاشارة اليه ان عشائر ديالى قد شاركت مع القوات العثمانية في بعض المعارك التي حدثت في خانقين في صد تقدم القوات الروسية الحليفة للبريطانيين، وكانت العشائر آنذاك تحت امرة القائد التركي ضياء بك، وساهمت في التوغل إلى داخل الاراضي الايرانية، وبعد احتلال البريطانيين مدينة بغداد رفض بعض شيوخ عشائر بني ربيعة وزبيد وشمر طوقة والعزة والدليم تقديم الطاعة للبريطانيين، واستمر بعضهم على اتصال سري بالأتراك، كما قامت بعض العشائر بمهاجمة البريطانيين في مناطق خطوطهم العسكرية، إذ هاجمت عشيرة زوبع معسكرا بريطانيا في صدر الرضوانية، واستمرت هجماتهم عدة ايام، كذلك قامت عشيرة الدليم بقتل امر احد الفصائل البريطانية اثناء قيامه بجولة استطلاعية. ومع مرور الوقت خضعت العشائر العراقية لسياسة الامر الواقع بعدما لاحظت ان العراق اصبح تحت الاحتلال البريطاني، اضافة إلى كون بريطانيا انتهجت سياسة تقريب الشيوخ المعادين لها، ومنهم الشيخ خيون العبيد رئيس عشيرة العبودة، ومنحهم الامتيازات المادية والمعنوية. لذلك قامت الادارة البريطانية بتعيين سالم الخيون شيخ عشيرة بني اسد مديرا لناحية الجبايش بعد احتلالها مباشرة، الا ان سالم رفض الاذعان لسلطتهم الامر الذي اثار غضب المحتلين فنفته إلى الهند بعد ان استبدلته بالشيخ مجيد الخيون، إذ وجدت القوات البريطانية بعد دخولها العراق انها بحاجة ماسة إلى مساعدة شيوخ العشائر في حربها مع الدولة العثمانية، فعملت على استمالتهم بشتى الوسائل الا ان نجاحها كان محدودا واتبع البريطانيون الشيء نفسه مع العشائر الكردية، إذ ارسلوا عددا من ضباطهم بعد احتلال بغداد مباشرة لإقامة اتصالات مع زعماء العشائر الكردية، وخاصة الشخصيات المعروفة في كركوك والسليمانية كالشيخ محمود. ومهما يكن من امر فان العشائر العراقية اسهمت بدور مهم خلال الحرب العالمية الاولى فاضحت قوة اقلقت البريطانيين كثيرا ولم تنفع كل محاولات الارهاب والقوة التي مارستها القوات البريطانية ضدها من انهاء مقاومتها، لا بل ان هذه العشائر

قاومت الاحتلال البريطاني حتى بعد احتلال مدينة بغداد، على الرغم من انها لم تكن تمتلك السلاح والعتاد المتطور والفعال الذي كانت تمتلكه القوات البريطانية النظامية.

ـ ثورة النجف عام 1918:

واجه البريطانيون أول ثورة مسلحة بعد احتلالهم العراق عرفت باسم ثورة النجف عام 1918، اذ كان البريطانيون بعد احتلالهم بغداد، قد تركوا النجف وشأنها نظرا لمركزها الديني من ناحية، وطبيعة اهالها الميالين الى الاستقلال وكراهيتهم لكل اجنبي من ناحية اخرى. ولهذه الاسباب وغيرها ترك البريطانيون النجف، ولم يسيروا اليها جيشا، ولم يتدخلوا في شؤونها. وقد مارس النجفيون نوعا من الحكم الاهلي، فبرزت بينهم زعامات محلية، وقد اتسع نفوذ هؤلاء الزعماء فأغاظ بعض علماء الدين، كما اغاظ الوطنيين من اهل المدينة، لسوء تصرف بعض هؤلاء الزعماء وتغليب مصالحهم الشخصية على مصالح عامة الشعب. ونتيجة لذلك اضطرت السلطات البريطانية الى اختيار حميد خان بن اسد خان وهو من الاسر الهندية المرموقة التي نفاها البريطانيون من بلادهم الهند فاختاروا السكن والاقامة في العراق ولاسيما في الكاظمية وكربلاء، اختاروه ليكون معاونا للحاكم السياسي الانكليزي في النجف الاشرف. ولما رفض حميد خان هذا المنصب سعى البريطانيون الى الزعيم الروحي السيد كاظم اليزدي الطبطبائي لحمله على تكليف حميد خان لقبول هذه الوظيفة، فقبلها مضطرا وذلك في حزيران عام 1917. ولم يظهر النجفيون ارتياحهم من وجود حميد خان بالرغم من صلات عائلته الحسنة، لانهم شعروا بسيطرة غريبة عليهم، وكان الاجدر اختيار احد وجهاء النجف ممن يرتضيه الاهالي. ومما زاد من توتر الوضع وصول جماعة من العشائر من بادية الشام من الموالين للبريطانيين في اواخر تشرين الثاني عام 1917، وكانوا يحملون رسالة توصية بعث بها الضابط الانكليزي الكولونيل لجمان، المسؤول عن حدود البادية، الى حميد خان لمساعدة هذه العشائر في الامتيار وشراء حاجياتهم المعاشية، وبعد مدة وصلت قافلة لاحد الشيوخ من رؤساء العشائر

جاءت الى النجف للغاية نفسها. وكانت المواد المعاشية والمخزون من الطعام شحيحا جدا فادى وصول هاتين القافلتين للاكتيال الى ارتفاع اسعار المواد ارتفاعا فاحشا. وقد نجم عن ذلك قيام تظاهرات في النجف اشتركت فيها بعض النسوة، ثم حدث صدام بين اهل النجف وهذه العشائر مما دفع حميد خان الى الاستقالة. فما كان من الحاكم الملكي العام السير برسي كوكس الا ان يقترح على القائد العام للقوات العسكرية البريطانية ضرورة الاشراف المباشر على منطقة الفرات الاوسط. وعلى هذا الاساس تم تعيين الكابتن بلفور حاكما سياسيا للواء الشامية والنجف، وتم تعيين حميد خان معاونا له في النجف تساعده قوة من الشرطة المحلية. ويبدو ان بلفور الذي يجهل العادات العراقية بطبيعة الحال لم ينجح في اعادة التهدئة للمدينة، بل على العكس ادت اجراءاته ضد بعض وجهائها الى تزايد اضطراب الاوضاع لاسيما بعد قيامه بالقاء القبض على بعضهم. وسرعان ما تحول الغضب الشعبي ضد البريطانيين الى عمل وطني اسرف عن تأسيس جمعية النهضة الاسلامية، التي كان في مقدمة اهدافها الكفاح ضد السلطة المحتلة وتخليص البلاد من طغيان البريطانيين، وتأمين الاستقلال والحرية للشعب العراقي. وكان من ابرز اعضائها العلامة السيد محمد علي بحر العلوم، والعلامة الشيخ محمد جواد الجزائري، وعدد من المناضلين النجفيين من امثال الحاج نجم البقال. قد ابتدأ عمل الثوار بقتل الكابتن مارشال الحاكم السياسي لمدينة النجف. وحين بلغ الكابتن بلفور خبر مقتل الكابتن مارشال، اشرع متجها الى النجف، ومعه قوة كافية من الجنود وزعها داخل البلدة وخارجها تحسبا للطوارئ، وقد حاول الثوار قتل الكابتن بلفور نفسه غير انهم لم ينجحوا في ذلك.

لقد اتسعت الحركة الوطنية في اعقاب محاولة اغتيال بلفور، واخذ ابناء النجف يتجولون في الطرقات والقوا القبض على عدد من افراد الشرطة واستحوذوا على اسلحتهم، ثم احتجزوا معظمهم واطلقوا سراح بعضهم الاخر. ثم قاموا بالهجوم على السراي القديم وقلعوا ابوابه واشعلوا فيه النيران، فكان كل ذلك ايذانا بإعلان الحرب بين البريطانيين واهالي النجف.

بادر البريطانيون الى محاصرة النجف من اجل انهاء الثورة، في وقد تمكن ثوار النجف من دحر كتيبة بريطانية في 21 اذار 1918 كانت متجهة نحو المدينة. وقد قابل بلفور في اعقاب ذلك وجهاء المدينة وقد عدة شروط لإنهاء الامر وهي:

1. تسليم الرجال الذين قتلوا مارشال ومن اشترك معهم في هذه الواقعة.
2. دفع غرامة قدرها الف بندقية.
3. دفع غرامة مالية مقدارها 50 الف روبية يجمعها رؤساء المحلات التي اندلعت فيها الثورة.
4. تسليم مائة شخص من المحلات الثائرة الى الحكومة البريطانية لإبعادهم عن النجف بصفة اسرى حرب.

وقد ابلغ بلفور عند تقديمه لهذه الشروط وجهاء المدينة، ان النجف ستبقى تحت الحصار الشديد فيمنع عنها الطعام والماء الى ان تستجيب للشروط وتنفذها. غير ان النجفيين رفضوا الشروط البريطانية وقرروا الاستمرار في الثورة، واتخذوا الاجراءات اللازمة للحرب، فحفروا الخنادق، ووضعوا حراسة على سور المدينة. اما البريطانيون فقد حشدوا قوات كبيرة في الكوفة بقيادة الجنرال ساندرز، كما ان قوات كبيرة اخرى قد تمركزت على بعد كيلو مترين من سور النجف، ونصبوا المدافع هناك، وشرعت تلك القوات في حفر الخنادق واقامة المتاريس ونصب الاسلاك الشائكة حول المدينة، وبذلك تم تطويق المدينة بالكامل. وقد استمر حصار المدينة لمدة تزيد عن اربعين يوما، اضطر خلالها السكان الى شرب مياه الابار المالحة، وارتفعت اسعار المواد الغذائية بشكل كبير، واضطر الناس الى ذبح الحمير للاستفادة من لحومها. رغم ذلك لم تثن تلك الاجراءات النجفيين عن عزيمتهم واستمرت الثورة، لذا قرر البريطانيون شن هجوم واسع على المدينة في 7 نيسان 1918 وبعد قصف المدينة بشكل مكثف تمكنت القوات البريطانية من احتلال اجزاء من سور المدينة، وسرعان ما تمكن البريطانيون من اخماد ما تبقى من الثورة بقسوة بالغة، واخذت السلطات تلقي القبض على الثوار. وفي 4 ايار تم فك الحصار على المدينة بعد انهاء الثورة تماما، اعقب ذلك محاكمة الثوار في الكوفة الذي تم بموجبها اعدام احد عشر منهم ونفت 123 اخرين الى الهند.

- قائمة المصادر:

-ابراهيم خليل احمد وجعفر عباس حميدي، تاريخ العراق المعاصر، (الموصل: مطبعة جامعة الموصل، 1989).

-جلال كاظم محسن الكناني، الدور السياسي للعشائر العراقية 1918-1924، (رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة المستنصرية، كلية التربية، 2003).

-حميد مجيد هدو، "صبر العراقيين وثباتهم في حصار الكوت"، مجلة المورد، المجلد: 23، العدد: 2، لسنة: 1995.

-سالم الالوسي، "حصار النجف"، مجلة المورد، المجلد: 23، العدد: 2، لسنة: 1995.

-سليم الحسني، دور علماء الشيعة في مواجهة الاستعمار 1900-1920، (بيروت: الغدير للدراسات والنشر، 1995).

-عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، (بيروت: مطبعة العرفان، 1972).

____________، تاريخ العراق السياسي الحديث، (بيروت: الرافدين للطباعة والنشر، 2008).

-علي كاشف الغطاء، "حصار النجف قصاص المحتلين من ثورة التحرير سنة 1918"، مجلة المورد، المجلد: 23، العدد: 2، لسنة: 1995.

-علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، (بيروت: دار الراشد، 2005)، ج1.

-فاضل حسين وعبد الوهاب عباس القيسي وعبد الامير محمد امين، تاريخ العراق المعاصر، (بغداد: مطبعة جامعة بغداد، 1980).

-فردوس عبد الرحمن كريم، "دور المجتمع البغدادي في ترسيخ الوحدة الوطنية"، مجلة مركز المستنصرية للدراسات العربية والدولية، العدد: 29، لسنة2010.

-محمد بوذينة، احداث العالم في القرن العشرين، (تونس: مطبعة الشركة الجديدة للطباعة والصحافة والنشر، بلا.ت)، ج2.

-مجيد خدوري، اسباب الاحتلال البريطاني للعراق، (الموصل: مطبعة السعب، 1933).

-محمد صالح حنيور، "الدغارة: الجذور التاريخية والدور السياسي خلال العهد العثماني 1869-1917"، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، المجلد: 8، العدد: 4، لسنة: 2009.

-مصطفى عبد القادر النجار، "عهد الانتداب"، بحث ضمن كتاب العراق في التاريخ، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1983).

-ممدوح عارف الروسان، "العراقيون والاحتلال البريطاني للعراق 1914-1918"، مجلة دراسات تاريخية، العدد: 47-48، لسنة: 1993.

الملاحق

ملحق رقم(1):
السلالات الحاكمة في العراق 1258ـ1914

-الايلخانيون:

1	هولاكو	1256–1265
2	اباقا	1265–1282
3	احمد تكودار	1282–1284
4	ارغون بن اباقا	1284–1291
5	كيخاتو بن اباقا	1291–1295
6	بايدو بن طرقاي بن هولاكو	1295
7	محمود غازان بن ارغون	1295–1304
8	اولجايتو	1304–1316
9	ابو سعيد بهادر خان	1316–1335
10	اربا خان	1335–1336
11	موسى بن علي بن بايدو	1336–1337
12	محمد خان	1337–1338

-الجلائريون:

1	حسن بزرك	1356-1339
2	الشيخ اويس بن حسن	1374-1356
3	جلال الدين حسين بن اويس	1382-1374
4	احمد بن اويس	1410-1382
5	شاه ولد بن احمد	1411-1410
6	محود بن شاه ولد	1411
7	اويس بن شاه ولد	1421-1411
8	محمد بن شاه ولد	1421
9	محمود بن شاه ولد	1425-1421
10	حسين بن شاه ولد	1432-1425

-القره قوينلو:

1	قره يوسف بن قره محمد	1420-1390
2	اسكندر بن قره يوسف	1437-1420
3	جيهان شاه بن قره يوسف	1467-1437
4	حسن علي	1469-1467

-حكام القره قوينلو في بغداد:

1	محمد شاه بن قره يوسف	1434-1411
2	اسبان بن قره يوسف	1444-1434
3	فولاذ بن قره يوسف	1445-1444
4	محمدي ميرزا بن جيهان شاه	1449-1447

5	بير بوداق بن جيهان شاه	1467-1449
6	محمد الطواشي بن زينل	1470-1467

-حكام الاق قوينلو:

1	اوزون حسن بن علي بيك	1477-1454
2	خليل بن اوزون حسن	1478-1477
3	يعقوب بيك بن اوزون حسن	1490-1478
4	بايسنقر بن يعقوب	1491-1490
5	رستم بم مقصود بن اوزون حسن	1495-1491
6	السلطان احمد	1495
7	مراد بن يعقوب	1508-1495

-حكام ايران الذين احتلوا العراق:

1	اسماعيل الصفوي	1524-1501
2	طهماسب الاول	1576-1524
3	عباس الكبير	1629-1587
4	نادر شاه	1747-1736
5	كريم خان الزند	1779-1757
6	علي فتح شاه القاجاري	1834-1797

-السلاطين العثمانيين الذين حكموا العراق

1	سليم الاول	1520-1512
2	سليمان القانوني	1566-1520
3	سليم الثاني	1474-1566
4	مراد الثالث	1595-1574

5	محمد الثالث	1603–1595
6	احمد الاول	1617–1603
8	مصطفى الاول	1618–1617
9	عثمان الثاني	1622–1618
10	مصطفى الاول	1623–1622
11	مراد الرابع	1640–1623
12	ابراهيم	1648–1640
13	محمد الرابع	1687–1648
14	سليمان الثاني	1691–1687
15	احمد الثاني	1695–1691
16	مصطفى الثاني	1703–1695
17	احمد الثالث	1730–1703
18	محمود الاول	1754–1730
19	عثمان الثالث	1757–1754
20	مصطفى الثالث	1774–1757
21	عبد الحميد الاول	1789–1774
22	سليم الثالث	1807–1789
23	مصطفى الرابع	1808–1807
24	محمود الثاني	1839–1808
25	عبد المجيد الاول	1861–1839
26	عبد العزيز	1876–1861
27	مراد الخامس	1876
28	عبد الحميد الثاني	1909–1876
29	محمد الخامس	1918–1909

قائمة المصادر:

1. ابرهام بارسونز، رحلة ابرهام بارسونز من حلب الى الخليج العربي 1774-1775، ترجمة: انيس عبد الخالق محمود، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2013).

2. ابراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، بلا.ت).

3. ابراهيم خليل احمد، "حركة التربية والتعليم والنشر"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار لحرية للطباعة، 1985)، ج10.

4. ________، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني 1516-1916، (الموصل: مطبعة جامعة الموصل، 1986).

5. ________، "بدايات التوجه العثماني نحو منطقة الخليج العربي"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 43، لسنة: 1990.

6. ________، ابراهيم خليل احمد وجعفر عباس حميدي، تاريخ العراق المعاصر، (الموصل: مطبعة جامعة الموصل، 1989).

7. ________، ابراهيم خليل احمد وخليل علي مراد، ايران وتركيا: دراسة في التاريخ الحديث والمعاصر، (الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر، 1992).

8. ابراهيم خوري، "توسع الدولة العثمانية في الخليج العربي ونتائجه الاقتصادية 1498-1625"، بحث ضمن ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية بعنوان: الصلات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية، 19-21 نوفمبر 1988.

9. ابرار كريم الله، من هم التتار، ترجمة: رشيدة رحيم الصبروتي، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994).

10. احمد حسين عبد الجبوري، "الاوضاع الاجتماعية في بغداد من خلال كتابات الرحالة الاجانب في العهد العثماني"، مجلة سر من رأى، جامعة سامراء، المجلد: 3، العدد: 5، لسنة: 2007.

11. احمد زكريا الشلق، العرب والدولة العثمانية من الخضوع الى المواجهة 1516-1916، (القاهرة: مصر العربية للنشر والتوزيع، 2002).

12. احمد عبد الرحيم مصطفى، في اصول التاريخ العثماني، (القاهرة: دار الشروق، 2003).

13. احمد عبد الكريم سليمان، المغول والمماليك حتى نهاية عصر الظاهر بيبرس(648-676هـ/ 1250-1277م)، (القاهرة: دار النهضة العربية، 1980).

14. احمد محمود علو السامرائي ومحمد حمزة حسين الدليمي، "الانكشارية ودورهم في الدولة العثمانية حتى سنة 1826"، مجلة التربية والعلم، جامعة الموصل، المجلد: 17، العدد: 44، لسنة: 2010.

15. احمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام، (بيروت: دار النهضة العربية، 1986).

16. احمد بن يوسف القرماني(ت1019هـ/ 1610م)، اخبار الدول واثار الاول في التاريخ، دراسة وتحقيق: احمد حطيط وفهمي سعد، (بيروت: عالم الكتب، 1992).

17. ارمنيوس فامبري، تاريخ بخارى منذ اقدم العصور حتى العصر الحاضر، ترجمة: احمد محمود الساداتي، مراجعة: يحيى الخشاب، (القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، 1987).

18. اسامة عبد الرحمن الدوري، "البلاد العربية في الوثائق العثمانية مصدرا وثائقيا لدراسة تاريخ البصرة منتصف القرن السادس عشر"، مجلة آداب البصرة، المجلد: 2، العدد: 63، لسنة: 2012.

19. اسراء مهدي مزبان، "خواتين القصور المغولية ودورهن في تدبير المؤامرات السياسية"، لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة واسط، العدد: 9، لسنة: 2012.

20. اسماعيل احمد ياغي، "سياسة مدحت باشا والي العراق العثماني تجاه الخليج العربي 1286-1289هـ/ 1869-1872"، بحث ضمن ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية بعنوان: الصلات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية، 19-21 نوفمبر 1988.

21. ـــــــــــــ، اسماعيل احمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، (الرياض: مكتبة العكيبان، 1995).

22. ـــــــــــــ، العالم العربي في التاريخ الحديث، (الرياض: مكتبة العبيكان، 1997).

23.اكرام محمد علي خلف، "اثر المؤامرات في سقوط الدولة العباسية سنة 656هـ/ 1258م: دراسة تاريخية"، مجلة ديالى للبحوث الانسانية، العدد: 49، لسنة: 2011.

24.اخلاص محمد سليمان العيدي، "عطا ملك الجويني ومنهجه في كتابة تاريخ جهانكشاي"، دورية كان التاريخية، العدد: 20، لسنة: 2013.

25.ادموند تيلور، سقوط الاسر الحاكمة، ترجمة: علي عزت الانصاري، مراجعة: محمد انيس، (القاهرة: مؤسسة سجل العرب، 1965).

26.ادموند كاندلر، "بغداد سنة 1917"، ترجمة: محمد مظفر الادهمي، مجلة المورد، المجلد: 8، العدد: 4، لسنة: 1980.

27.اماني بنت جعفر بن صالح الغازي، دور الانكشارية في اضعاف الدولة العثمانية(الجيش الجديد)، (القاهرة: دار القاهرة، 2007).

28.اوليا جلبي، "بغداد في رحلة اوليا جلبي 1645و 1652"، ترجمة: صبحي ناظم توفيق وانيس عبد الخالق محمود، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة-بغداد، العدد: 33، لسنة: 2012.

29.اوليفييه، "الرحالة الفرنسي اوليفييه يصف بغداد عام 1791"، ترجمة: يوسف حبي، مجلة المورد، المجلد: 11، العدد: 4، لسنة: 1982.

30.اوندر باير، "اهمية الارشيف العثماني لدراسة تاريخ العراق"، بحث ضمن ندوة: العراق في الوثائق العثمانية المعقودة في اسطنبول 6/ حزيران/ 2012، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2012).

31.باسم حمزة عباس، "ايران في عهد الشاه طهماسب الاول 1524-1576"، مجلة الخليج العربي، جامعة البصرة، المجلدك4، العدد: 1-2، لسنة: 2012.

32.باسم عبد الحميد حمودي، "في حصارات البصرة وصمودها"، مجلة المورد، المجلد: 23، العدد: 2، لسنة: 1995.

33.بان راوي شلتاغ الحميداوي، "التقسيمات الادارية لسنجق السليمانية خلال العهد العثماني الاخير 1869-1918"، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، جامعة القادسية، المجلد: 8، العدد: 3، لسنة: 2009.

34.______________، "الواقع الاداري لمدينة الكوت من العهد العثماني الاخير حتى بداية الحكم الوطني 1869-1921"، مجلة القادسية للعلوم الانسانية، المجلد: 12، العدد: 1، لسنة: 2009.

35.بثينة عباس الجنابي، "نظام الحكم والادارة العثمانية في الوطن العربي"، مجلة كلية التربية الاساسية، الجامعة المستنصرية، العدد: 71، لسنة: 2011.

36.بدر الدين العيني(ت 855هـ)، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي، تحقيق: فهيم محمد علوي شلتوت ومحمد مصطفى زيادة، (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، 1998).

37.برنارد لويس، الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الاسلام، ترجمة: محمد العزب موسى، (القاهرة: مكتبة مدبولي، 2006).

38.برهان نزر محمد علي المياح، " خانات بغداد من القرن التاسع وحتى مطلع القرن العشرين"، مجلة المورد، المجلد: 8، العدد: 4، لسنة: 1980.

39.بهنام فيصل عفاص، "تاريخ الطباعة العراقية منذ نشوئها وحتى الحرب العظمى الاولى"، القسم الاول، مجلة المورد، المجلد: 10، العدد: 3-4، لسنة: 1980.

40.______________، "تاريخ الطباعة العراقية منذ نشوئها وحتى الحرب العظمى الاولى"، القسم الثاني، مجلة المورد، المجلد: 12، العدد: 2، لسنة: 1983.

41.بيتر شوجر، اوروبا العثمانية 1354-1804، ترجمة: عاصم الدسوقي، (القاهرة: دار الثقافة الجديدة، 1998).

42.بيدرو تيخيرا، رحلة بيدرو تيخيرا من البصرة الى حلب عبر الطريق البري 1604-1605، ترجمة: انيس عبد الخالق محمود، (بيروت: المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، 2013).

43.تحسين اونال، "استحضارات السلطان مراد الرابع للحملة على بغداد 1638"، ترجمة: صبحي ناظم توفيق، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة، بغداد، العدد: 34، لسنة: 2012.

44.توماس هربرت، العراق وملاحظات شرقية في رحلة توماس هربرت سنة 1628، ترجمة: انيس عبد الخالق محمود، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2013).

45.ثامر نعمان مصطاف وماجد ثامر مجلي، "مشاهير مؤرخي مصر والشام والعراق في العصر العثماني ومصنفاتهم التاريخية"، مجلة كلية التربية، جامعة واسط، المجلد: 11، العدد: 16، لسنة: 2012.

46.جاسب عبد الحسين صيهود الخفاجي، "الصحافة النجفية بين عامي 1910-1932: دراسة تاريخية"، مجلة القادسية للعلوم الانسانية، المجلد: 14، العدد: 1-2، لسنة: 2011.

47.جان بابتيست جاك لوي روسو، وصف باشوية بغداد سنة 1809، ترجمة: خالد عبد اللطيف حسن، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2012).

48.جان دي تيفينو، رحلات جان تيفينو في الاناضول والعراق والخليج العربي 1664-1665، ترجمة: انيس عبد الخالق محمود، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2013).

49.جرجي زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، (القاهرة: دار الهلال، 1947)، ج5.

50.جريجوريوس ابو الفرج بن اهرون المعروف بابن العبري، تاريخ الازمنة، ترجمة ودراسة وتقديم: شادية توفيق حافظ، مراجعة: السباعي محمد السباعي، (القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، 2007).

51.جلال كاظم محسن الكناني، الدور السياسي للعشائر العراقية 1918-1924، (رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة المستنصرية، كلية التربية، 2003).

52.جمال الدين ابي المحاسن يوسف بن تغري بردي الاتابكي(ت 874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992).

53.________________المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد امين، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986)، ج4.

54.جمال محمود حجر، القوى الكبرى والشرق الاوسط في القرنين التاسع عشر والعشرين، (الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1989).

55.جميل بيضون وشحادة الناطور وعلي عكاشة، تاريخ العرب الحديث، (اربد: دار الامل، 1992).

56.جميل موسى النجار، الادارة العثمانية في ولاية بغداد من عهد مدحت باشا الى نهاية الحكم العثماني 1869-1917، (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1991).

57____________، العلاقات العثمانية-القاجارية وانعكاسها على العراق 1823-1843، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2010).

58.___________، "وثائق تاريخ العراق في العهد العثماني واقع ورؤى واقتراحات"، بحث ضمن ندوة: العراق في الوثائق العثمانية المعقودة في اسطنبول 6/ حزيران/ 2012، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2012).

59. جون اشر، "مشاهدات جون اشر في العراق"، ترجمة: جعفر خياط، مجلة سومر، المجلد: 21، لسنة: 1965.

60. جون ايلدرد، "رحلة جون ايلدرد من الشام الى البصرة 1583-1584"، ضمن كتاب: رحلات بين العراق وبادية الشام خلال القرن السادس عشر، ترجمة وتقديم وتعليق: انيس عبد الخالق محمود، (بيروت: دار الفارس للنشر والتوزيع، 2013).

61. جون باتست تافرنييه، رحلة الفرنسي تافرنييه الى العراق في القرن السابع عشر، ترجمة: كوركيس عواد وبشير فرنسيس، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2006).

62. جون تايلر، "رحلة تايلر الى العراق سنة 1789-1790"، ترجمة: بطرس حداد، مجلة المورد، المجلد: 11، العدد: 1، لسنة: 1982.

63. جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى، ترجمة: محمد فتحي الشاعر، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992).

64. جون نيوبري، "العراق وبادية الشام في رحلة جون نيوبري 1583"، ضمن كتاب: رحلات بين العراق وبادية الشام خلال القرن السادس عشر، ترجمة وتقديم وتعليق: انيس عبد الخالق محمود، (بيروت: دار الفارس للنشر والتوزيع، 2013).

65. جي.اس.بكنغهام، "رحلة بكنغهام: وصف بغداد"، القسم الاول، ترجمة: محمد علي حلاوي، مجلة سومر، المجلد: 10، لسنة: 1954.

66. ــــــــــــ، "رحلة بكنغهام: وصف بغداد"، القسم الثاني، ترجمة: محمد علي حلاوي، مجلة سومر، المجلد: 11، لسنة: 1955.

67. جميس بيلي فريزر، رحلة فريزر الى بغداد 1834، ترجمة: جعفر الخياط، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2006).

68. حازم مجيد احمد، "الصراع والتمرد العشائري واثره على الاقتصاد العراقي 1850-1914"، مجلة سر من رأى، جامعة سامراء، المجلد: 4، العدد: 12، لسنة: 2009.

69. حامد زيان غانم، صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل دولة المماليك، (القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، 1978).

70. ابن حجر العسقلاني(ت 852هـ)، انباء الغُمر بأنباء العُمر، تحقيق: حسن حبشي، (القاهرة: بلا.مط، 1969).

71. حسن الجاف، الوجيز في تاريخ ايران، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2003)، ج2.

72. حسن صالح شهاب، "البحرية العثمانية ومهمة التصدي للمخطط البرتغالي في البحر الاحمر والخليج العربي"، بحث ضمن ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية بعنوان: الصلات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية، 19-21 نوفمبر 1988.

73. حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، (القاهرة: دار النهضة العربية، 1983).

74. حسين علي قيس القيسي، طبيعة المجتمع العراقي في العصر العباسي المتأخر: دراسة تاريخية اجتماعية 447-656هـ، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 2013).

75. حسين محمد القهواتي، "حملة السلطان سليمان القانوني على بغداد عام 1534"، مجلة المورد، المجلد: 8، العدد: 4، لسنة: 1980.

76. ______________، "الحياة الاقتصادية: من القرن التاسع عشر حتى نهاية العصر العثماني"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985)، ج10.

77. ______________، "الحياة الاجتماعية: التركيب الاجتماعي"، بحث ضمن موسوعة حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985)، ج10.

78. حسين مؤنس، الشرق الاسلامي في العصر الحديث، (القاهرة: مطبعة الحجازي، 1938).

79. حكيم امين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية، (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، 1966).

80. حمزة بن احمد بن عمر المعروف بابن سباط الغربي، (ت926هـ/ 1520م)، صدق الاخبار، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، (طرابلس: جرس برس، 1993)، ج1.

81. حميد احمد حمدان التميمي، "خطوات السيطرة العثمانية في المشرق والخليج العربي"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 47، لسنة"1994.

82. حميد حمد السعدون، امارة المنتفق واثرها في تاريخ العراق والمنطقة الاقليمية 1546-1918، (عمان: دار وائل للنشر، 1999).

83. حميد مجيد هدو، "صبر العراقيين وثباتهم في حصار الكوت"، مجلة المورد، المجلد: 23، العدد: 2، لسنة: 1995.

84. حيدر جاسم الرويعي، "نشاط الاباء الكرملين في العراق حتى الحرب العالمية الاولى-مجلة القادسية للعلوم الانسانية، المجلد8، العدد1-2، لسنة: 2005.

85.حيدر علوان حسين، "الادارة في الدولة العثمانية"، مجلة التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، العدد: 1، لسنة: 2012.

86.خالد خليل حمودي، "خان مرجان في بغداد وعمارته"، مجلة التراث العلمي العربي، العدد: 6، لسنة: 2009.

87.خلود عبد اللطيف عبد الوهاب، "التواصل الثقافي بين الصحافة البصرية والصحافة المصرية 1908-1911"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة البصرة، العدد: 3، لسنة: 2007.

88.خليل علي مراد، "سجلات المحكمة الشرعية بالموصل مصدرا لدراسة اسواقها في العهد العثماني"، مجلة دراسات موصلية، جامعة الموصل، العدد: 10، لسنة: 2005.

89.خليل علي مراد، مختارات من كتاب الموصل وكركوك في الوثائق العثمانية، (السليمانية: مطبعة شفان، 2005).

90.خورشيد باشا، رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وايران، ترجمة: مصطفى زهران، مراجعة: الصفصافي احمد القطوري، (القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، 2008).

91.خير الدين التونسي، اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، (القاهرة: دار الكتاب المصري، 2012).

92.دوبريه، رحلة دوبريه الى العراق 1807-1809، ترجمة: بطرس حداد، (لندن: دار الوراق، 2011).

93.دومينيكو سيستيني، رحلة من اسطنبول الى البصرة، ترجمة: بطرس حداد، (بغداد: المركز العلمي العراقي، 2010).

94.دونالد كواترت، الدولة العثمانية، ترجمة: ايمن ارمنازي، (الرياض: مكتبة العبيكان، 2004).

95.دونالد ولبر، ايران ماضيها وحاضرها، ترجمة: عبد المنعم محمد حسنين، (القاهرة: دار الكتاب المصري، 1985).

96.راجحة علي غالب، "من معارك العرب الفاصلة الكبرى معركة عين جالوت"، مجلة المورد، المجلد: 10، العدد: 3-4، لسنة: 1981.

97.رأفت غنيمي الشيخ، التاريخ المعاصر للامة العربية الاسلامية 1412-1992، (القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1992).

98.__________، تاريخ العرب الحديث، (القاهرة: عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، 1994).

99.راغب السرجاني، قصة التتار من البداية الى عين جالوت، (القاهرة: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، 2006).

100.رالف فتش، "رحلة رالف فتش من حلب حتى البصرة 1583-1589"، ضمن كتاب: رحلات بين العراق وبادية الشام خلال القرن السادس عشر، ترجمة وتقديم وتعليق: انيس عبد الخالق محمود، (بيروت: دار الفارس للنشر والتوزيع، 2013).

101.رجب محمد عبد الحليم، انتشار الاسلام بين المغول، (القاهرة: دار النهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع، 1986).

102.روبير مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: بشير السباعي، (القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، 1993)، ج2.

103.رشيد الدين فضل الله الهمداني(ت718هـ)، جامع التواريخ: تاريخ غازان خان، دراسة وترجمة: فؤاد عبد المعطي الصياد، (القاهرة: كتب عربية للطباعة، 1998).

104.رشيد عبد الله الجميلي، "حملة هولاكو على بغداد"، مجلة المورد، المجلد: 8، العدد: 4، لسنة: 1980.

105.رفائيل بابو اسحاق، "كنائس نصارى بغداد في العهد العثماني"، مجلة سومر، المجلد: 20، لسنة: 1964.

106.ريهام المستادي، "رحلة قبائل المغول من التمزق الى التوحد"، دورية كان التاريخ، العدد: 4، لسنة: 2009.

107.__________، "الدولة الخوارزمية ومواجهتها للزحف المغولي"، دورية كان التاريخية، العدد: 8، لسنة: 2010.

108.ساجدة شكري وناصر النقشبندي، "الدينار الاسلامي: الدنانير التي عثرت عليها مديرية الاثار القديمة اثناء حفرياتها في خرائب واسط"، مجلة سومر، المجلد: 11، الجزء: 1، لسنة: 1955.

109.سالم الالوسي، "حصار النجف"، مجلة المورد، المجلد: 23، العدد: 2، لسنة: 1995.

110.سالم يونس محمد المولى، "سياسة الدولة المملوكية تجاه الغزو التيموري للعراق وبلاد الشام"، مجلة التربية والعلم، جامعة الموصل، المجلد: 12، العدد: 4، لسنة: 2005.

111.سامي ناظم حسين، "التقسيمات الادارية لسنجق كربلاء 1845-1916"، مجلة الباحث، جامعة كربلاء، المجلد: 3، العدد: 1، لسنة: 2013.

112.ستيفن هيمسلي لونكريك، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر خياط، (بغداد: منشورات مكتبة اليقظة العربية، 1985).

113.ستيفان تسفايج، ساعات القدر في تاريخ البشرية، ترجمة محمد جديد، (بيروت: دار المدى للثقافة والنشر، 2005).

114.سعدي عثمان حسين، امارة بابان في النصف الاول من القرن الثامن عشر: دراسة في علاقاتها السياسية مع السلطات العثمانية، (اربيل: مطبعة جامعة صلاح الدين، 2000).

115.__________، "سمات كردستان في المؤلفات التاريخية العراقية خلال العهد العثماني"، مجلة جامعة كركوك للدراسات الانسانية، المجلد: 6، العدد: 2، لسنة: 2011.

116.سعيد الديوه جي، "مدارس الموصل في العهد العثماني"، مجلة سومر، المجلد: 19، لسنة: 1963.

117.________، "صمود البصرة امام غزو نادر شاه سنة 1156هـ"، مجلة المورد، المجلد: 15، العدد: 3، لسنة: 1986.

118.السلطان عبد الحميد الثاني، مذكراتي السياسية، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1979).

119.سلمان وفيق الـراوي، "بغداد في رحلات الاجانب"، مجلة المورد، المجلد: 8، العدد: 4، لسنة: 1980.

120.سليم الحسني، دور علماء الشيعة في مواجهة الاستعمار 1900-1920، (بيروت: الغدير للدراسات والنشر، 1995).

121.سليمان الدخيل، الفوز بالمراد في تاريخ بغداد، تقديم وتعليق: محمد زينهم محمد عزب، (القاهرة: دار الافاق العربية، 2003).

122.سليمان فائق بك، تاريخ بغداد، ترجمة: موسى كاظم نورس، (بيروت: دار الرافدين للطباعة والنشر، 2010).

123.سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 2000).

124.سهيلة الريماوي، "تطور مفهوم اللامركزية عند العرب العثمانيين 1900-1918"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد: 13-14، لسنة: 1983.

125. سيار كوكب علي الجميل، تكوين العرب الحديث، (الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر، 1991).

126. ____________، زعماء وافندية: الباشوات العثمانيون والنهضويون العرب-البنية التاريخية للعراق الحديث الموصل انموذجا، (عمان: الاهلية للنشر والتوزيع، 1999).

127. السيد الباز العريني، المغول، (بيروت: دار النهضة العربية، 1967).

128. ____________، المماليك، (بيروت: دار النهضة العربية، 1967).

129. سيدي علي ريس، "العراق في رحلة سيدي علي ريس 1553-1554"، ضمن كتاب: رحلات بين العراق وبادية الشام خلال القرن السادس عشر، ترجمة وتقديم وتعليق: انيس عبد الخالق محمود، (بيروت: دار الفارس للنشر والتوزيع، 2013).

130. سير دي لوار، "العراق في رحلة سير دي لوار: القصة الحقيقية للحصار الاخير الذي فرضه السلطان مراد الرابع على بغداد 1638"، ترجمة وتعليق: خالد عبد اللطيف حسين، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة-بغداد، العدد: 32، لسنة: 2012.

131. سيزار فيدريجي، "رحلة سيزار فيدريجي بين حلب والبصرة 1563-1581"، ضمن كتاب: رحلات بين العراق وبادية الشام خلال القرن السادس عشر، ترجمة وتقديم وتعليق: انيس عبد الخالق محمود، (بيروت: دار الفارس للنشر والتوزيع، 2013).

132. شاهين مكاريوس، تاريخ ايران، (القاهرة: دار الافاق العربية، 2003).

133. شعبان طرطور، الدولة الجلائرية، (القاهرة: دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، 1987).

134. شمس الدين ابي عبد الله الذهبي(ت746هـ)، دول الاسلام، (بيروت: منشورات الاعلى للمطبوعات، 1985).

135. شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (بيروت: دار الجيل، 1992).

136. صادق حسن السوداني، "العلاقات الخارجية للخلافة العباسية في عهد الخليفة الناصر"، مجلة المورد، المجلد: 2، العدد: 4، لسنة: 1973.

137. صادق ياسين الحلو، "الجيش والسلاح منذ احتلال بغداد حتى العصر العثماني 1258-1534"، بحث ضمن موسوعة: الجيش والسلاح، (بغداد: دار الحرية للطاعة، 1988)، ج5.

138. صالح محمد العابد، "عهد الحكم العثماني الاول"، بحث ضمن كتاب العراق في التاريخ، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1983).

139. ـــــــــــــ، "البصرة في سنوات المحنة 1775-1779"، مجلة المورد، المجلد: 14، العدد: 3، لسنة: 1985.

140. ـــــــــــــ، "النظام الاداري"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985)، ج10.

141. صالح محمد العابد وخليل علي مراد، "القوات المسلحة في العراق بين 1534-1831"، بحث ضمن موسوعة: الجيش والسلاح، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1988).

142. صالح محمد العابد وعلاء موسى كاظم نورس وعماد عبد السلام رؤوف، "العثمانيون يستعيدون حكم العراق"، بحث ضمن كتاب العراق في التاريخ، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1983).

143. صالح محمد العابد وعماد عبد السلام رؤوف، "العراق بين الاحتلالين المغولي والصفوي"، بحث ضمن كتاب العراق في التاريخ، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1983).

144. الصاوي محمد الصاوي، جنكيز خان فاتح العالم، (القاهرة: دار طيبة للطباعة، 2012).

145. صبحي عبد المنعم محمد، سياسة المغول الايلخانيين تجاه دولة المماليك في مصر والشام، (القاهرة: العربي للنشر والوزيع، 2001).

146. صبري فارس الهيتي، "تخطيط مدينة بغداد عبر العصور التاريخية: دراسة في التخطيط الحضري"، مجلة المورد، المجلد: 8، العدد: 4، لسنة: 1980.

147. طارق جواد الجنابي، "العمارة العراقية"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985)، ج10.

148. طارق نافع الحمداني، "صمود البصرة ومقاومتها للهجمات الفارسية المتكررة في العقد الثالث من القرن السابع عشر"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 25، لسنة: 1984.

149. ـــــــــــــ، "المرأة واثرها في المجتمع: العصر العثماني"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985)، ج10.

150. ـــــــــــــ، "القوة البحرية والنهرية العثمانية في العراق وتطورها 1534-1831"، بحث ضمن موسوعة: الجيش والسلاح، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1988).

151.____________، "واسط حاضرتها وقبائلها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر"، مجلة المورد، المجلد: 34، العدد: 2، لسنة: 2007.

152.طالب جاسم محمد الغريب، "جوامع مركز مدينة البصرة في العهد العثماني-دراسة تاريخية"، مجلة آداب البصرة، العدد: 43، لسنة: 2007.

153.____________، "الصراع البريطاني العثماني على الفاو 1861-1905"، مجلة دراسات البصرة، المجلد: 4، لسنة: 2007.

154.____________، "الوعي السياسي للأسر البصرية في العهد العثماني: دراسة تاريخية"، مجلة آداب البصرة، العدد: 49، لسنة: 2009.

155.طالب محيبس حسن الوائلي، "هزيمة العثمانيين في انقرة: دراسة في مقدمات الصدام التتاري-العثماني ومجريات الحرب"، مجلة كلية التربية-جامعة واسط، المجلد: 4، العدد: 16، لسنة: 2008.

156.____________، الصفويون من الطريقة الصوفية حتى تأسيس الدولة، (دمشق: رند للطباعة والنشر، 2011).

157.طاهر يوسف الوائلي، "خصائص الاقتصاد العثماني خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر"، مجلة دراسات الكوفة، المجلد: 1، العدد: 1، لسنة: 2004.

158.عادل اسماعيل محمد هلال، العلاقات بين المغول وأوروبا واثرها على العالم الاسلامي، (القاهرة: عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، 1997).

159.عادل كامل الالوسي، "الربط البغدادية في التاريخ والخطط"، مجلة المورد، المجلد: 7، العدد: 1، لسنة: 1978.

160.عامر بلو اسماعيل، "الاكلاك في الموصل من خلال كتب الرحلات ابان العهد العثماني"، مجلة دراسات موصلية، جامعة الموصل، العدد: 26، لسنة: 2009.

161.__________، "التعليم التبشيري الامريكي في الموصل منذ اواخر العهد العثماني حتى عام 1932"، مجلة التربية والعلم، جامعة الموصل، المجلد: 16، العدد: 63، لسنة: 2009.

162.عباس العزاوي، تاريخ النقود العراقية لما بعد العهود العباسية، (بغداد: شركة التجارة والطباعة، 1958).

163. ـــــــــــــــ، تاريخ العراق بين احتلالين، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2004).

164. ـــــــــــــــ، عشائر العراق، (بيروت: مكتبة الحضارات، 2010).

165. عباس ياسر الزيدي، "القوى الاستعمارية والخليج العربي 1600-1914"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 12، لسنة: 1980.

166. عبد الامير محمد امين، "الشركات التجارية الاحتكارية الانكليزية في منطقة الخليج العربي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 12، لسنة: 1980.

167. ـــــــــــــــ، "سجلات يوميات مقيمية البصرة 1798-1811"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 14، لسنة: 1980.

168. عبد الله عبد الرحيم السوداني، "اسوار بغداد"، مجلة المورد، المجلد: 8، العدد: 4، لسنة: 1980.

169. عبد الله بن فتح الله البغدادي المعروف بالغياثي، تاريخ الدول الاسلامية في الشرق، (بيروت: دار مكتبة الهلال، 2010).

170. عبد الجبار محمود السامرائي، "انماط من الحصار على العراق 1156هـ/ 1743م"، مجلة المورد، المجلد: 23، العدد: 2، لسنة: 1995.

171. عبد الرحمن بن خلدون، (ت 808هـ/ 1406م)، تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، راجعة: سهيل زكار، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000).

172. عبد الرحمن بن عبد الله السويدي البغدادي، تاريخ حوادث بغداد والبصرة، تحقيق: عماد عبد السلام رؤوف، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1987).

173. عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، (بيروت: مطبعة العرفان، 1972).

ـــــــــــــــ، تاريخ العراق السياسي الحديث، (بيروت: الرافدين للطباعة والنشر، 2008).

174. عبد السلام الترمانيني، احداث التاريخ الاسلامي بترتيب السنين، (دمشق: دار طلاس، 1994).

175. عبد السلام عبد العزيز فهمي، السلطان محمد الفاتح: فاتح القسطنطينية وقاهر الروم، (دمشق: دار القلم، 1993).

176. عبد العزيز عوض، دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث، (بيروت: دار الجيل، 1991).

177.عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داوود باشا الى نهاية حكم مدحت باشا، (القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1968).

178.____________، تاريخ الشعوب الاسلامية، (القاهرة: دار الفكر العربي، بلا.ت).

-عبد الواحد ذنون طه، "حسن باشا مؤسس نظام المماليك في العراق"، مجلة المورد، المجلد: 3، العدد: 3، لسنة: 1974.

179.عثمان بن سند الوائلي البصري، مطالع السعود: تاريخ العراق 1774-1826، تحقيق: عماد عبد السلام رؤوف وسهيلة عبد المجيد القيسي، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1991).

180.عثمان بن عبد الله بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، (الرياض: مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، 1983).

181.عروبة جميل محمود عثمان، "التكايا في الموصل منذ اواخر العهد العثماني حتى سنة 1918"، دراسات موصلية، جامعة الموصل، العدد: 20، لسنة: 2008.

182.عزتلو يوسف بك اصـاف، تاريخ سلاطين بني عثمان، (القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر، 2011).

183.عطا ترزي باشي، "اقدم وثيقة عثمانية عن بغداد"، مجلة المورد، المجلد: 8، العدد: 4، لسنة: 1980.

184.عطا الحديثي، "خان مرجان وصيانته"، مجلة سومر، المجلد: 30، لسنة: 1974.

185.عفاف سيد صبره، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، (القاهرة: دار الكتاب الجامعي، 1987).

186.علاء الدين مغلطاي بن قلنج بن عبد الله البكجري الحنفي(ت762هـ)، مختصر تاريخ الخلفاء، تحقيق: اسيا كليبان علي البارح، (القاهرة: دار الفجر للنشر والتوزيع، 2000).

187.علاء موسى كاظم نورس، حكم المماليك في العراق 1750-1831، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1975).

188-.____________، "بغداد في رحلات الاجانب في العهد العثماني"، مجلة المورد، المجلد: 5، العدد: 3، لسنة: 1976.

189.____________، "حملة نادر شاه على بغداد"، مجلة المورد، المجلد: 8، العدد: 4، لسنة: 1980.



190.__________، "السياسة السوقية الايرانية تجاه العراق في العصر الحديث"، بحث ضمن كتاب: الصراع العراقي-الفارسي، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1983).

191.__________، "الحياة الاقتصادية: من احتلال بغداد حتى القرن الثامن عشر"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985)، ج10.

192.__________، احوال بغداد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، دراسة لمختارات مما كتبه الرحالة الاجانب، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1990).

193.علاء موسى كاظم نورس وعماد عبد السلام رؤوف، "عهد المماليك والاسر الحاكمة"، بحث ضمن كتاب العراق في التاريخ، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1983).

194.__________، "عهد الاحتلال العثماني الاخير"، بحث ضمن كتاب العراق في التاريخ، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1983).

195.علي خليل احمد، "جهود السلطان محمد الاول في اعادة بناء الدولة العثمانية"، مجلة جامعة كركوك للدراسات الانسانية، المجلد: 3، العد: 1، لسنة: 2008.

196.__________، "محنة العرش العثماني في عهد السلطان مراد الثاني 1421-1451"، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، جامعة تكريت، المجلد: 2، العدد: 4، لسنة: 2010.

197.__________، "التوسع العثماني في الروميلي في عهد السلطان مراد الثاني"، مجلة جامعة كركوك للدراسات الانسانية، المجلد: 7، العدد: 3، لسنة: 2012.

198.علي شاكر علي، تاريخ العراق في العهد العثماني1638-1750، (الموصل: مطبعة اوفسيت الشعب، 1985).

199.__________، "التنظيمات المالية في البصرة خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 27، لسنة: 1986.

200.__________، "العراق والغزو القره قوينلو في القرن الخامس عشر الميلادي"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 28، لسنة: 1986.

201.__________، "تكريت في العهد العثماني 1518-1733 بين الحصار والمقاومة"، مجلة المورد، المجلد: 23، العدد: 2، لسنة: 1995.

202.علي شاكر علي وعلاء محمود خليل قداوي، "دور الموصل والجزيرة الثقافي في مواجهة التحدي المغولي 660-736هـ/ 1362-1335"، مجلة المورد، مجلة المورد، المجلد: 23، العدد: 2، لسنة: 1995.

203.علي شعلب، بطرس الاكبر قيصر روسيا، (بيروت: دار الفكر اللبناني، 1992).

204.علي عجيل منهل، "انتفاضة عام 1832 في العراق ضد العثمانيين"، مجلة المورد، المجلد: 7، العدد: 2، لسنة: 1978.

205.علي كاشف الغطاء، "حصار النجف قصاص المحتلين من ثورة التحرير سنة 1918"، مجلة المورد، المجلد: 23، العدد: 2، لسنة: 1995.

206.علي هادي عباس، "خطط الكوفة في كتب الرحالة الاجانب"، مجلة الكلية الاسلامية الجامعة، النجف الاشرف، العدد: 4، لسنة: 2008.

207.علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، (بيروت: دار الراشد، 2005).

208.عماد البحراني، "فتح القسطنطينية في عهد السلطان محمد الفاتح 1453"، دورية كان التاريخية، العدد: 3، لسنة: 2009.

209.عماد الدين اسماعيل بن علي المعروف بابي الفدا(ت732هـ/ 1331م)، المختصر في اخبار البشر، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب ويحيى سيد حسين، (القاهرة: دار المعارف، 1999).

210.عماد الدين خليل، "تيمور لنك في ديار بكر"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 15، لسنة: 1980.

211.عماد عبد السلام رؤوف، "صور من العلاقات الزراعية في العراق ابان القرن الثامن عشر: دراسة في وثائق تاريخية جديدة"، مجلة المورد، المجلد: 11، العدد: 3، لسنة: 1982.

212.____________، "تطور مشكلات الحدود"، بحث ضمن كتاب: الصراع العراقي-الفارسي، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1983).

213.____________، "الجيش: القوى والمؤسسات العسكرية"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985)، ج10.

214.غييوم لجان، "رحلة لجان الى العراق 1866"، ترجمة: بطرس حداد، مجلة المورد، المجلد: 12، العدد: 3، لسنة: 1983.

215.فائز علي بخيت، "الخلافة العباسية بعد الاحتلال المغولي لبغداد 656-676هـ/ 1258-1277"، مجلة كلية العلوم الاسلامية، جامعة الموصل، المجلد: 1، العدد: 2، لسنة: 2008.

216.فائق حمدي طهبوب، "الحملة العثمانية على شرقي الجزيرة العربية عام 1871 ودورها في تشكيل القوى السياسية في المنطقة"، بحث ضمن ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية بعنوان: الصلات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية، 19-21 نوفمبر 1988.

217.فاروق عمر فوزي ومرتضى حسن النقيب، تاريخ ايران: دراسة في التاريخ السياسي لبلاد فارس خلال العصور الاسلامية الوسيطة 21-906هـ/ 641-1500م، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 1989).

218.فاضل حسين وعبد الوهاب عباس القيسي وعبد الامير محمد امين، تاريخ العراق المعاصر، (بغداد: مطبعة جامعة بغداد، 1980).

219.فاضل مهدي بيات، "التعليم في العراق في العهد العثماني: دراسة تاريخية في ضوء السالنامات العثمانية"، القسم الاول، مجلة المورد، المجلد: 22، العدد: 1، لسنة: 1994.

220.__________، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني: رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية، (بيروت: دار المدار الاسلامي، 2003).

221.__________، "اهمية وثائق وزارة المعارف العثمانية في دراسة تاريخ التعليم في العراق الحديث"، بحث ضمن ندوة: العراق في الوثائق العثمانية المعقودة في اسطنبول 6/ حزيران/ 2012، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2012).

222.فرانتس تشنر وفريتس شتيبات وسلوى الخماش، تاريخ العالم العربي، (بيروت: دار صادر، 1975).

223.فنشنسو ماريا دي سانتا كاترينا، "رحلة فنشنسو الى العراق في القرن السابع عشر"، ترجمة: بطرس حداد، مجلة المورد، المجلد: 5، العدد: 3، لسنة: 1976.

224.فردوس عبد الرحمن كريم، "دور المجتمع البغدادي في ترسيخ الوحدة الوطنية"، مجلة مركز المستنصرية للدراسات العربية والدولية، العدد: 29، لسنة2010.

225.فؤاد صالح شهاب، "بواكير الفكر القومي العربي 1870-1914"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 46، لسنة: 1994.

226.فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، (بيروت: دار النهضة العربية، 1980)، ج1.

227.فوزي خلف شويل، "الجريمة في سنجق البصرة في اواخر العهد العثماني في ضوء الصحافة البصرية 1896-1911"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة البصرة، العدد: 1، لسنة: 2005.

228.فيريير سوفبوف، "العراق في رحلة كونت فيريير سوفبوف 1785"، ترجمة وتعليق: خالد عبد اللطيف حسين، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة-بغداد، العدد: 34، لسنة: 2012.

229.فيصل شيخ الارض، نظام الحكم والادارة في الدولة العثمانية في عهد مرادجه دوسون للمؤلف مرادجه دوسون سفير دولة اسوج في الاستانة المتوفى سنة 1807، (رسالة قدمت الى دائرة التاريخ في جامعة بيروت الامريكية، 1942).

230.فيصل كاظم احمد وسبله طلال ياسين، "السلطان غازان وقوانينه وفق الشريعة الاسلامية والياسا المغولية"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة البصرة، العدد: 14، لسنة: 2013.

231.القلقشندي(ت820هـ)، مآثر الانافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار احمد فراج، (بيروت: عالم الكتب، بلا.ت)، ج2.

232.قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، (بيروت: الدار العرية للعلوم، 2004).

233.كارستن نيبور، "بغداد في رحلة نيبور"، ترجمة: مصطفى جواد، مجلة سومر، المجلد: 20، ج1-2، لسنة: 1964.

234.__________، رحلة نيبور الكاملة الى العراق، ترجمة: سعاد هادي العمري ومصطفى جواد ومحمود حسين الامين، تعليق: سالم الالوسي، (لندن: دار الوراق، 2012).

235.كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة: نبيه امين فارس ومنير البعلبكي، (بيروت: دار العلم للملايين، 1968).

236.كاسبارو بالبي، رحلة الايطالي كاسبارو بالبي الى حلب-دير الزور-عانة-الفلوجة-بغداد 1579، ترجمة: بطرس حداد، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2008).

237.كريم مطر حمزة، "الحلة في عهد داوود باشا 1817-1831"، مجلة العلوم الانسانية، جامعة بابل، المجلد: 1، العدد: 1، لسنة: 2010.

238.كمال مظهر احمد، دراسات في تاريخ ايران الحديث والمعاصر"، (بغداد: الامانة العامة للثقافة والشباب، 1985).

239.كوركيس عواد، المدرسة المستنصرية في بغداد"، مجلة سومر، المجلد: 1، الجزء: 1، لسنة: 1945.

240.كولن تيرنر، التشيع والتحول في العصر الصفوي، ترجمة: حسين علي عبد الساتر، (كولونيا: منشورات الجمل، 2008).

241.لازم لفته المالكي وخلود عبد اللطيف عبد الوهاب، "البعد الاقتصادي للغزو البرتغالي للخليج العربي للمدة 1506–1652"، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة البصرة، العدد: 1، لسنة: 2005.

242.لمى عبد العزيز مصطفى، "محمد اينجه بيرقدار رائد الاصلاحات العثمانية في الموصل 1834–1843"، مجلة ابحاث كلية التربية الاساسية، جامعة الموصل، المجلد: 12، العدد: 3، لسنة 2013.

243.ليلى ياسين الامير، "النشاط التعليمي للإرسالية الامريكية في البصرة 1912–1958"، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة البصرة، العدد: 1، لسنة: 2005.

244.ليونهارت راوولف، "بغداد في سنة 1573"، ترجمة: سليم طه التكريتي، مجلة المورد، المجلد: 5، العدد: 2، لسنة: 1976.

245.ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ترجمة: عبد العزيز جاويد، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995).

246.ماهر حامد جاسم محمد النورة، "الجمعية المحمدية وفرعها في الموصل عام 1908–1909"، مجلة ابحاث كلية التربية الاساسية، جامعة الموصل، المجلد: 9، العدد: 1، لسنة: 2009.

247.متعب خلف جابر، "العراق في عهد الوالي سعيد باشا"، مجلة الباحث، جامعة كربلاء، العدد: 1، لسنة: 2013.

248.مجيد خدوري، اسباب الاحتلال البريطاني للعراق، (الموصل: مطبعة السعب، 1933).

249.محمد بن ابراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة(ت779هـ/ 1377م)، رحلات ابن بطوطة، (بيروت: دار صادر، 1992).

250.محمد احمد دهمان، معجم الالفاظ التاريخية في العصر المملوكي، (دمشق: دار الفكر، 1990).

251. محمد اسعد طلس، تاريخ الامة العربية ، (بيروت: دار الاندلس للطباعة والنشر، 1963).

252. محمد الانطاكي، معركة عين جالوت، (بيروت: دار الشرق العربي، بلا.ت).

253. محمد بوذينة، احداث العالم في القرن العشرين، (تونس: مطبعة الشركة الجديدة للطباعة والصحافة والنشر، بلا.ت).

254. محمد جاسم حمادي المشهداني، "دور الطوسي في الغزو المغولي لبغداد"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 37، لسنة: 1988.

255. محمد جبار الجمال، بنية العراق الحديثة تأثيرها الفكري السياسي 1869-1914، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2010).

256. ____________، "تحديث العراق وسياسة بريطانيا الكولونيالية"، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة-بغداد، العدد: 34، لسنة: 2012.

257. محمد حسن ال ياسين، "المشهد الكاظمي من بدء الاحتلال المغولي الى نهاية الاحتلال العثماني"، مجلة سومر، المجلد: 19، لسنة: 1963.

258. محمد حسين السويطي وشيماء بدر عبد الله، "الغزو المغولي لبلاد المسلمين في روايات الديار بكري بكتابه تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس"، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد: 5، لسنة: 2011.

259. محمد حسين العيدروس، القاجار والجزر العربية 1797-1912، (دبي: دار الكتاب الحديث، 2002).

260. ____________، السياسة العثمانية تجاه الخليج العربي، (ابو ظبي: دار المتنبي للطباعة والنشر، بلا.ت).

261. محمد رضا الحكيمي، بداية الفرق نهاية الملوك، توثيق وتعليق: شاكر الابراهيمي، (بيروت: دار الفردوس، 1990).

262. محمد السعيد جمال الدين، علاء الدين عطا ملك الجويني حاكم العراق، (القاهرة: بلا.مط، 1982).

263. محمد سعيد عمران، المغول واوروبا، (الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، بلا.ت).

264. ____________، الامبراطورية البيزنطية وحضارتها، (بيروت: دار النهضة العربية، 2002).

265.محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الصفوية في ايران، (بيروت: دار النفائس، 2012).

266.محمد صالح حنيور، "الدغارة: الجذور التاريخية والدور السياسي خلال العهد العثماني 1869-1917"، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، المجلد: 8، العدد: 4، لسنة: 2009.

267.محمد صالح الزيادي، "الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البصرة من خلال كتاب الرحالة الهندي سي .أم. كرستجي 1916-1917"، مجلة آداب البصرة، جامعة البصرة، المجلد: 2، العدد: 63.

268.محمد عبد الله عودة وابراهيم ياسين الخطيب، تاريخ العرب الحديث، (عمان: الاهلية للنشر والتوزيع، 1989).

269.محمد عبد اللطيف هريدي، الحروب العثمانية-الفارسية واثرها في انحسار المد الاسلامي عن اوروبا، (القاهرة: دار الصحوة للنشر والتوزيع، 1987).

270.محمد عصفور سلمان، "العثمانيون الجدد: افكارهم الاصلاحية ودور نامق كمال في بلورتها"، مجلة ديالى للبحوث الانسانية، العدد: 49، لسنة: 2011.

271.محمد علي البار، كيف اسلم المغول، (عمان: دار الفتح للدراسات والنشر، 2008).

272.محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، تحقيق: احسان حقي، (بيروت: دار النفائس، 1981).

273.محمد ماهر حمادة، دراسة وثائقية للتاريخ الاسلامي ومصادره من عهد بني امية حتى الفتح العثماني لسورية ومصر، (الرياض: مؤسسة الرسالة، 1988).

274.محمد مفيد ال ياسين، دراسات في تاريخ العراق في العهد الايلخاني، (عمان: دار غيداء للطباعة والنشر، 2009).

275.محمد يونس فلح، "تأثر المغول بالإسلام"، مجلة كلية العلوم الاسلامية، جامعة الموصل، المجلد: 5، العدد: 9، لسنة: 2011.

276.محمود السيد، العرب في اخطر المعارك الحربية في تاريخ العالم، (الاسكندرية: بلا.مط، 1995).

277.محمود شكري الالوسي، "مدينة الحلة في اخبار بغداد وما جاورها"، تحقيق: صباح محمود الحلي، مجلة المورد، المجلد: 4، العدد: 1، لسنة: 1975.

278.محمود عباد محمد الجبوري، "دور الدبلوماسيين الغربيين في نهب اثار العراق وتخريب معالمه الحضارية"، مجلة كركوك للدراسات الانسانية، المجلد: 7، العدد: 3، لسنة: 2012.

279.محمود عبد الواحد محمود، "التحولات التاريخية واعادة التحقيب: بغداد 1869-1914"، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة-بغداد، العدد: 32، لسنة: 2012.

280.محمود محمد الحويري، تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى، (القاهرة: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، 2002).

281.مصطفى طه بدر، محنة الاسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على ايدي المغول، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999).

282.مصطفى عبد القادر النجار، "عهد الانتداب"، بحث ضمن كتاب العراق في التاريخ، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1983).

283._______________، "معاهدة ارضروم الثانية وتسويات ما قبل الحرب العالمية الاولى"، بحث ضمن كتاب: الصراع العراقي-الفارسي، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1983).

284._______________ "البصرة اول قاعدة بحرية للتوسع العثماني في الخليج العربي 1546-1869"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد: 3، لسنة: 1986.

285.مصطفى كاظم المدامغة، نصوص من الوثائق العثمانية عن تاريخ البصرة في سجلات المحكمة الشرعية في البصرة(1188-1330هـ)، (البصرة: مطبعة جامعة البصرة، 1982).

286.مختار جبلي، حملات الغزو المغولي للشرق، (باريس: دار لارماتون، 1995).

287.ممدوح عارف الروسان، "العراقيون والاحتلال البريطاني للعراق 1914-1918"، مجلة دراسات تاريخية، العدد: 47-48، لسنة: 1993.

288.مهاب درويش لطفي البكري، "الالقاب على المسكوكات الايلخانية"، مجلة سومر، المجلد: 21، الجزء: 1-2، لسنة: 1965.

289.____________________، "العملة الاسلامية في العهد الايلخاني"، مجلة سومر، المجلد: 22، الجزء: 1-2، لسنة: 1966.

290.____________________، "العملة الاسلامية في العهد الايلخاني المحفوظة في المتحف العراقي، مجلة سومر، المجلد: 25، الجزء: 1-2، لسنة: 1969.

291.____________________، "دراسة تحليلية للعملة الاسلامية في العهد الايلخاني-السلطان اباقا خان، مجلة سومر، المجلد: 23، ج1-2، لسنة: 1967.

292.ــــــــــــــــــــ، "العملة الاسلامية في العهد الايلخاني"، مجلة سومر، المجلد: 27، الجزء: 1-2، لسنة: 1971.

293.الموسوعة العربية الميسرة، (بيروت: المكتبة العصرية، 2009).

294.نادية محمود مصطفى، العصر العثماني من القوة والهيمنة الى بداية المسألة الشرقية، (القاهرة: المعهد العالي للفكر الاسلامي، 1996).

295.ناصر النقشبندي، "الديناران الصفوي والعثماني"، مجلة سومر، المجلد: 17، الجزء: 2، لسنة: 1961.

296.نجدة فتحي صفوة، العراق في مذكرات الدبلوماسيين الاجانب، (بغداد: مطبعة منير، 1984).

297.نزار قازان، سلاطين بني عثمان بين قتال الاخوة وفتنة الانكشارية، (بيروت: دار الفكر اللبناني، 1992).

298.نصر الله فلسفي، ايران وعلاقاتها الخارجية في العصر الصفوي، ترجمة: محمد فتحي يوسف الريس، (القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، 1989).

299.نصوح افندي السلاحي، رحلة مطراقي زاده، ترجمة: ناظم صبحي توفيق، تحقيق: عماد عبد السلام رؤوف، (ابو ظبي: المجمع الثقافي، 2003).

300.نظمي زاده مرتضى افندي، كلشن خلفا، ترجمة: موسى كاظم نورس، (النجف: مطبعة الاداب، 1971).

301.نور الدين خليل، سيف الدين قطز قاهر المغول، (القاهرة: الفتح للطباعة والنشر، 2005).

302.نوري احمد عبد القادر وظافر عبد النافع، "التربية والتعليم في الموصل في العهد العثماني"، مجلة ابحاث كلية التربية الاساسية، جامعة الموصل، المجلد: 9، العد: 2، لسنة: 2010.

303.نوري عبد البخيت، "روسيا ومشروع سكة حديد بغداد"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 15، لسنة: 1980.

304.نوري عبد الحميد خليل العاني، "حملات تيمور على بغداد 795-807هـ/ 1393-1405م"، مجلة المورد، المجلد: 8، العدد: 4، لسنة: 1980.

305.ــــــــــــــــــــ، العراق في العهد الجلائري، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1986).

306.ــــــــــــــــــــ، "صمود البصرة ومقاومتها للغزو الاجنبي 1258-1508"، مجلة المورد، المجلد: 23، العدد: 2، لسنة: 1995.

307.نيقولاي ايفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574، ترجمة: يوسف عطا الله، (بيروت: دار الفارابي، 2004).

308.نيقولو باربارو، الفتح الاسلامي للقسطنطينية: يوميات الحصار العثماني 1453، دراسة وترجمة وتعليق: حاتم عبد الرحمن الطحاوي، (القاهرة: عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، 2002).

309. هشام سوادي هشام، "طرق ووسائط النقل في كركوك واثرها على الحركة التجارية في العهد العثماني الاخير 1831-1914"، مجلة التربية والعلم، جامعة الموصل، المجلد: 15، العدد: 2، لسنة: 2008.

310. هشام سوادي هاشم، "اربيل في كتابات الرحالة الاجانب في العهد العثماني"، مجلة التربية والعلم، جامعة الموصل، المجلد: 15، العدد: 30، لسنة: 2008.

311.هاشم صالح التكريتي، "التغلغل الالماني في المشرق العربي قبيل الحرب العالمية الاولى"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 27، لسنة: 1986.

312.و.بارتولد، تاريخ الترك في اسيا الوسطى، ترجمة: احمد السعيد سليمان، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996).

313.وجيه كوثراني، "اشكاليات في التاريخ العربي للدولة العثمانية ومجتمعاتها: مراجعة المفاهيم"، بحث ضمن كتاب: العرب وتركيا، تأليف: مجموعة من الباحثين، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012).

314.وداد جابر غازي، "جمعية الاتحاد والترقي والمعارضة العربية في مجلس المبعوثان(البرلمان العثماني)"، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة-بغداد، العدد: 34، لسنة: 2012.

315.وفاء كاظم ماضي محمد، تطور الحركة النسوية في العراق 1921-1958، (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية التربية، 2000).

316.وليد خالد يوسف، "نشاطات الارساليات التبشيرية الكاثوليكية الفرنسية في العراق في ظل الحكم العثماني(1534-1918)"، مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية، المجلد: 15، العدد: 5، لسنة: 2008.

317.وليم بيري فوك، "احوال العراق في القرن التاسع عشر"، ترجمة: عبود الشالجي المحامي، مجلة سومر، المجلد: 16، الجزء: 1-2، لسنة: 1960.

318.ياسين خير الله العمري الخطيب الموصلي، غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام، قدم له واعتنى به: سامي عبد الله باشعالم العمري، (القاهرة: شركة العاتك للطباعة والنشر والتوزيع، 2006).

319.ياسين عبد الكريم، "القوات المسلحة في العراق بين 1831-1914"، بحث ضمن موسوعة: الجيش والسلاح، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1988)، ج5.

320.يلماز اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: محمود سلمان، مراجعة: محمود الانصاري، (اسطنبول: مؤسسة فيصل للتمويل، 1988)، ج1.

321.يوجين روغان، مدرسة العشائر في اسطنبول، ترجمة واعداد: نهار محمد نوري، (بيروت: دار الوراق، 2014).